الدكتور شوقي أبو خليل

الحضارة العربية الإسلامية

وموجز عن الحضارات السابقة

الحضارة العربية الإسلامية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحضارة العربية الإسلامية

وموجز عن الحضارات السابقة

الحضارة العربية الإسلامية وموجز الحضارات السابقة / شوقي أبو خليل
. ــ دمشق : دار الفكر، ١٩٩٦ . ــ ٦٧٢ ص: مص؛ ٢٥ سم .
بآخره فهارس متنوعة .
١ ــ ٩٥٦ خ ل ي ح ٢ ــ العنوان ٣ ــ أبو خليل
مكتبة الأسد

ع ــ ٧٧٠ / ٦ / ١٩٩٦

الدكتور شوقي أبو خليل

الحضارة العربية الإسلامية

وموجز عن الحضارات السابقة

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الرقم الاصطلاحي : ٠٩٦٣,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-013-6

الرقم الموضوعي: ٩٣٠

الموضوع: تاريخ العرب والإسلام

العنوان: الحضارة العربية الإسلامية

ومُوجز عن الحضارات السابقة

التأليف: الدكتور شوقي أبو خليل

الصف التصويري: دار الفكر – دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية – دمشق

عدد الصفحات: ٦٨٨ صفحة

قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ – ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

e-mail: info@fikr.com

إعادة

١٤٢٣هـ =٢٠٠٢م

ط١٩٩٤/١م

مقدّمة

﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم ﴾ .

[الحجرات : ١٣/٤٩]

بسم الله القائل في محكم التَّنزيل : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ ، [الإسراء : ٧٠/١٧] ، وصلَّى الله على رسول الله ، محمَّد بن عبد الله ، القائل : « وُزِنَ حِبْرُ العلماء بدم الشُّهداء ، فرجحَ عليه »(١) ، وعلى آله وأصحابه ، وبعد :

يلمس الدَّارس هوَّة كبيرة فيما كتبه الغربيُّون عن تاريخ الحضارة العالميَّة ، لقد كتبوا عن منجزات الحضارة الصِّينيَّة ، والهنديَّة ، وأطنبوا في حديثهم عن « المعجزة اليونانيَّة » ، ولأسباب سياسيَّة ، ودينيَّة تعصُّبيَّة ، أُهملت الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة من قبل معظمهم ، ولم تعطَ حقَّها بحياد وموضوعيَّة ، وممَّا يؤسف له ، أنَّ قوَّة إعلامهم مسيطرة ، وأنَّ معظم الدَّارسين في دول العالم ، يتوجَّهون للتَّخصُّص في جامعاتهم ، على يد من انتقص حضارتنا حقَّها ، وتجاوزَ دورها ، مع أنَّ المنهج العلمي كافٍ لإنصاف الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، وتصويب ما كتبوه ، وإنهاء النَّظر إلى الحضارة اليونانيَّة

---

(١) رواه الخطيب عن ابن عمر ، وورد : « يوزن يوم القيامة مداد العلماء ، ودم الشُّهداء ، فيرجح مداد العلماء على دم الشُّهداء » ، رواه الشِّيرازي عن أنس ، والمرهبي عن عمران بن حصين ، وابن عبد البر في العلم عن أبي الدَّرداء ، وابن الجوزي عن النُّعمان بن بشير .

على أنّها حضارة أصيلة معجزة ، لأنّ الحضارة العربيّة القديمة في بلاد الرّافدين والشّام ومصر ، كانت نواة الحضارة اليونانيّة .

الهجمة على حضارتنا ـ وهي مظهر من مظاهر الغزو الفكري ـ كبيرة ، حتّى تجرّأ Lunn White وقال بتفوّق التّقنيّة « التّكنولوجيا » الأوربيّة ، على التّقنيّة العربيّة في العصور الوسطى ، أين الدّليل ؟ وما البرهان ؟ ومع ذلك أصبح « لين وايت » مرجعاً يعتمد ، وقال متمادياً : كلّ مخترعات الصّين وصلتنا من شرقي آسية إلى أوربة مباشرة : ولم ينقلها بالتّالي العرب المسلمون بعد تطويرها وتحسينها . ومثل أصحاب هذه الأفكار المتجنّيّة ، يجدون من يهلّل لها ، وينفخ فيها ، فمنذ بضع سنين ، أقام المؤتمر السّنوي للجمعيّة التّاريخيّة في شيكاغو حفلة تكريم « لِوَايت » بمناسبة بلوغه السّبعين من عمره ، دُعي إليها عدد كبير من العلماء من جميع أنحاء العالم ، وكان من بينهم عالم عربي ، وبعد كلمات التّمجيد والمديح والإطراء والثّناء من قبل المتكلّمين ، وقف العالم العربي لينحو نحواً آخر ، بعيداً عن التّمجيد والمديح ، وتكلّم بموضوعيّة تمليها الحقيقة ، ويفرضها الواجب ، فقال مخاطباً السّيّد « وايت » : لقد أخطأت عندما تعجّلت الآراء الرّئيسة في كتبك ، واعتقدت أن ما كتبته هو كل شيء ، لقد أغفلت دور الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، الّتي كان دورها دور إنقاذ ، ثمّ نقد وتصويب ، ومن ثمّ إبداع .

الهجمة على تاريخ حضارتنا ومكانتها كبيرة ، وخطيرة ، ففي مؤتمر برشلونة عام ١٩٨١ م ، الّذي خُصّصت أبحاثه لابن سينا وكتبه ، محاضر من جامعة القدس ، قدّم بحثاً عنوانه : « ترجمة القانون من العبريّة إلى اللاّتينيّة » ، وكان الزّمن المخصّص له خمس عشرة دقيقة فقط ، ولكنّه تكلّم خمساً وأربعين دقيقة تجاوُزاً ، ومع ذلك ، لم يذكر ولو مرّة واحدة أنّ ابن سينا عربي مسلم ، مع أنّ العلم يقول : كلّ العلوم الّتي كُتِبت بالعربيّة ، وتحت ظلّ الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، في البلاد الّتي انتشر بها العرب ، هي علوم عربيّة .

حضارة كانت ثمرة جهود شعوب كثيرة متباينة الأجناس ، ولكن الإسلام صاغها

في وحدة روحيَّة ، وخلق منها مجتمعاً واحداً ، كما أنَّها حضارة مدينة بـالكثير الكثير إلى سحر اللُّغـة العربيَّـة وروعتهـا ، هـذه اللُّغـة الرَّائعـة ذات الإعجـاز العجيب ، والجزالـة المثيرة .

ولقد هدفوا ـ بتخطيط وخبث ـ إخراج أساطين العلم الأعلام من الحضارة العربيَّـة الإسلاميَّة ، فقالوا : علي بن عبَّاس (المجوسي) ، مع أنَّ جَـدَّه مسلم ، وأبوه مسلم ، وهو بـالتَّـالي مسلم ، وكان يكره أن يُـوصَف بـالمجـوسي ، لأنَّـه ليس مجـوسيّـاً ، ولأنَّـه مسلم تعرَّب .

وقـالوا : حُنَيْن بن إسحـاق (المسيحي) ، وكأنَّـه لا علاقـة لـه بـالعرب ، مـع أنَّـه عربي ، كتب نتاجه بالعربيَّة ، في ظلِّ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة .

وقالوا : علي بن رَبَن الطَّبري (اليهودي) ، فَـ (رَبَن) أي الكبير ، أي الحـاخـام الكبير ، وهذا خطأ كبير ، ففي « فهرست » ابن النَّـديم إنَّـه أسلم على يـد المعتصم بـالله العبَّاسي ، وأدخله المتوكِّل في ندمائه .

وهذا التَّصنيف مخصَّص لأساطين حضـارتنـا فقـط ، بـدليل (ديسقيـدريـدوس) صاحب كتاب الحشائش ، وُلـد بعين زَرْبى[٢] في أضنـة ، في آسيـة الصُّغرى ، فهل يُعَـدّ عالماً تركيّاً ، أمْ محسوب على الحضارة اليونانيَّة ، لأنَّه كتب باليونانيَّة ؟

و (زينون) مؤسِّس المـدرسـة الرِّواقيَّـة في الفلسفـة ، في أثينـة ، وُلـد في مـدينـة صيـدا ، فهـل يُعَـدّ عـالمـاً شـاميّـاً ، أمْ يُحسب على الحضـارة اليـونـانيَّـة ، لأنَّـه كتب باليونانيَّة ؟

و (نومونيوس) مؤسِّس الأفلوطينيَّة الحديثة ، وُلد ببلدة أفامية[٣] ، و (أمونيوس

---

(٢) في معجم البلدان (١٧٧/٤) : عين زَرْبَى ، وهو بلد بالثَّغر من نواحي المصيصة .

(٣) أفـامِيَـة : (مـدينـة حصينـة من سواحل الشَّام وكورة من كُـوَر حمص ، ويسمِّيهـا بعضهم فَـامِيَـةَ بغير همزة ..) ، معجم البلدان ٢٢٧/١ ، والأصوب : أفامية على نهر العاصي في سهل الغاب ، آثـارهـا قـائمـة حتّى يومنا هذا قرب قلعة المضيق .

ساكاس) مصري ، و (أفلوطين) ناشر الأفلوطينيَّة الحديثة إسكندري المولد .. وهكذا .. يُعَد واحدهم على الحضارة الَّتي كَتَبَ بلغتها ، وعاش في كنفها ، لذلك قال سقراط : « إنَّ التَّربية لا الميلاد ، هي الَّتي جعلت الإغريقي إغريقيّاً » .

ورغم بعض الصَّيحات المنصفة ، ما زالوا في الغرب يذكرون أرسطو ولا يذكرون ابن رُشد ، ويذكرون جالينوس ولا يذكرون موفَّق الدِّين عبد اللَّطيف البغدادي ، ويذكرون وليم هارفي وينسون ابن النَّفيس الدِّمشقي ، ويذكرون كوبرنيكس وينسون إبراهيم الزَّرقالي ، ويذكرون نيوتن وينسون ابن الهيثم ، ويذكرون جون لوك ، وجان جاك روسُّو ، وباتيستافيكو ، وميكيافيلّي ، وينسون فضل عبد الرَّحمن بن خلدون عليهم جميعاً ، والهدف تشويه صورة الإنسان العربي المسلم ، جاعلين دوره في مجال العلوم مقتصراً على نقل التُّراث اليوناني إلى أُوربة ، مجرَّد نقل ليس غير .

والرَّدُّ على مزاعمهم ، يجب أن يكون بعلميَّة ، وإلاَّ فالإطراء والمبالغة يوقعاننا في المغالاة ، ويبعداننا عن الموضوعيَّة .

وعند دحضنا لهذه الافتراءات بعودتنا إلى كتب علمائنا ، لا نكون في موقع النَّبش في كتب صفراء ، وهذا ليس نظرة إلى الوراء ، ولا بُعْداً عن مسيرة الحضارة ، فالتُّراث يواكب الحضارة ، إنَّها نظرة يقظة من كبوة ، ودفعة لاكتشاف التُّراث بعيداً عن عقدة النَّقص ، وليست العودة إلى كتب التُّراث ، دعوة إلى التَّوقُّف عند ما فيها ، والجمود عند نظريَّاتها ، إنَّها حافز للبحث والتَّنقيب ، ومن ثمَّ إلى الإبداع والمساهمة من جديد في نسج بساط الحضارة .

هذا .. وللحضارة رموز تعرف بها ، وروائز تقاس عليها ، وأهمها الجانب الإنساني والرُّوحي والأخلاقي ؛ فالفراغ الرُّوحي الكبير ، الَّذي تعانيه مدنيَّة الغرب ، والنَّظرة المتدنِّية للإنسان خارج ديارهم ، مع النَّهم للمواد الخام ، ومحاربة التَّصنيع في دول العالم الثَّالث .. جعل المادَّة تفترس كلَّ شيء ، فالسِّلاح النَّووي المتوافر في المخازن اليوم ،

يكفي لتدمير كرتنا الأرضيَّة أكثر من مئة مرَّة ، ثمَّ تجاوزوه إلى القنابل النِّيترونيَّة[٤] ، الَّتي تبقي على كلِّ شيء إلاَّ الإنسان ، فإنَّها تبيده ، وتبقي على المادَّة من أبنية ومنشآت وسيَّارات ومتاع .

إنَّ التَّقدُّم العلمي قد يشبع حاجات الأجساد ، ولكنَّه لا يطفئ ظمأ النُّفوس ، لقد صحب التَّقدُّم العلمي تأخُّر حقيقي وانحطاط مريع في الأخلاق ، وإحلال للتَّنازع البشري الوحشي على المادَّة لإشباع الشَّهوات ، سواء كان ذلك من طريق الحقِّ ، أو من طريق الباطل ، ولو ديست الصِّفات النَّبيلة ، وحطِّمت القيم الإنسانيَّة الغالية ، وأصبح المال المثل الأعلى الوحيد ، بل وكأنَّه المعبود الأوَّل ، وكان الإنسان هو الضَّحيَّة ، في كرامته وأمنه ، وفي كيان عائلته ، والعائلة هي دعامة المجتمع الأُولى ، بها عافيته ، ومنها سقمه .

فويح الشُّعوب من ذلك الوحش الكاسر ، الَّذي لا يعرف قيماً إلاَّ قيم الكسب والمادَّة .

وويحها من ذلك الاستعمار القاسي ، الَّذي لا يعرف ربّاً ولا إنسانيَّة .

وويحها من مدنيَّة تنشب أظفارها ، فلا تخلصها من أجساد الشُّعوب ، إلاَّ وقد مزَّقت وخلعت من وراءها .

---

(٤) والقنبلة الكيميائيَّة Big Eye (العين الكبيرة) ، من نوع غاز الأعصاب ، خُصِّص لإنتاجها تسعون مليون دولار سنة ١٩٨٨ ، وقيل : إنَّها ضروريَّة للدِّفاع عن أمن أمريكة ، (وكالات الأنباء في ١٩٨٨/٢/٣) ، وأذاعت لندن صباح ١٩٨٧/٦/١٣ التَّالي : يُنْفَق على التَّسليح في العالم في كلِّ دقيقة ١,٦٠٠,٠٠٠ دولار × ٦٠ = ٩٦,٠٠٠,٠٠٠ دولار في كلِّ ساعة × ٢٤ = ٢,٣٠٤,٠٠٠,٠٠٠ دولار في كلِّ يوم × ٣٦٥,٢٥ = ٨٤١,٥٣٦,٠٠٠,٠٠٠ دولار في السَّنة الواحدة ، (٨٤١ مليار و ٥٣٦ مليون دولار) ، وعشر هذا الرَّقم يكفي كي لا نجد مريضاً بلا دواء ، أو فقيراً بلا غذاء ، أو أُسرة بلا مأوى .
ولذلك يقول الفيلسوف الإنجليزي (جود) : « إنَّ العلوم الطَّبيعيَّة قد منحتنا القوَّة الجديرة بالآلهة ، ولكنَّنا نستعملها بعقول الأطفال والوحوش » ، وقال آخر : نعم ، إنكم تقدرون أن تطيروا في الهواء كالطيور ، وتسبحوا في الماء كالسَّمك ، ولكنَّكم إلى الآن لا تعرفون كيف تمشون على الأرض ، [العرب والحضارة الحديثة ـ دار العلم للملايين ، سنة ١٩٥١ بيروت] ، وبناء على ما سبق ، للدنيَّة عند أوربة وسيلة لفرض السَّيطرة على العالم .

فراغ روحي هائل ، لازمه إغراق في المادَّة ، وهذا الخلل جرثومة تنخر في عماد تلك المدنيَّة ، رافقها الخوف من أسلحة اليوم المكدَّسة ، والرُّعب من أسلحة الغد المتطوِّرة والأكثر فتكاً ، مع القلق النَّفسي ، والبعد عن الطّمأنينة ، واللُّجوء إلى المخدِّرات . وكثرة العصابات سِمَة من سمات المدنيَّة الغربيَّة ، لأنَّها مدنيَّة تقدَّمت فيها التَّقنيَّة ، ولم تتقدَّم نظرتها إلى الإنسانيَّة ، إنَّها مدنيَّة تطاولت مخالبها ، وضمرت أخلاقها ، وكأنَّها تكرار لحضارة رومة ، عندما جعلت الرُّومان سادة ، ومن حولهم عبيداً .

تراهم يتكلَّمون عن مدنيَّتهم على أنَّها حضارة كاملة ، ويريدون صبَّ كلِّ النَّاس في قالبها ، طارحين جانباً النَّظر النَّافع في احتياجاتهم المعيشيَّة والنَّفسيَّة ، وما يرضي ميولهم ومشاربهم ومعتقداتهم المختلفة .

إنَّ المعيار السَّليم الَّذي يجب أن تُقَاس به مستويات التَّحضُّر لأُمَّة ما ، هو نظرتها إلى الإنسان ، وموقعه ومكانته في إطار هذه الحضارة ، وفي إطار الفلسفة السِّياسيَّة والاجتماعيَّة السَّائدة .

في أمريكة : مليون طفل أمريكي يُعْتَدَى عليهم جنسيّاً سنويّاً ، فأيُّ مدنيَّة هذه ؟ وأكثر من مليوني حالة إجهاض ، وأُسرة من كلِّ عشر أُسَر تمارس نكاح المحارم ، والرَّقم الحقيقي أكبر ، لأنَّ هناك حالات لا تصل إلى القضاء ، أو إلى الدَّوائر الصِّحيَّة .

وفي بريطانية : ثمانية ملايين امرأة بالغة غير متزوِّجة ، ٩٠٪ منهنَّ يمارسن الجنس[٥] ، وحالة طلاق بين كلِّ حالتي زواج . ومليونا حالة إجهاض سنويّاً في أُوربة ، ومن العسير على المرأة أن تمشي وحدها بعد غروب الشَّمس في المدن الكبرى في أُوربة وأمريكة .

(٥) ذكرت إحصائيَّات رسميَّة أنَّ عدد المواليد غير الشَّرعيِّين في بريطانية في تزايد مستمر ، إذ إنَّ كلَّ طفل من بين أربعة أطفال يولدون يكون نتيجة جريمة الزِّنا ، وبلغ عدد الأطفال غير الشَّرعيِّين عام ١٩٨٧ نسبة ٢٤,١٪ من إجمالي المواليد ، مقارنة مع ٢١٪ عام ١٩٨٦ ، ونسبة ١٠٪ عام ١٩٧٧ ، [المسلمون العدد ١٥٥ ، كانون الثَّاني (يناير) ١٩٨٨ ، وعفاف العدد ٢٧ ، ص ٩] .

ويُبَلَّغ عن حالة اغتصاب كل سبع دقائق في المكسيك ، وهذا الرَّقم لا يمثِّل سوى نسبة بسيطة من حالات الاغتصاب ، لأنَّ الشّرطة قد تتواطأ في كثير من حالات التَّبليغ[٦] ، ولا نملك إحصائيَّات عن دول أُوربة الشَّرقيَّة .

دافع المادَّة ، واللَّذَّة الآنيَّة ، أوجبا - في مدنيتهم الغربيَّة - ألاَّ ينفق الأب على ابنته بعد أن أصبحت في العشرين من عمرها ، مع تفاقم سلطان الإباحيَّة ، فانزلق مجتمعهم في طريق السِّباق الأناني ، لتحقيق المتعة السَّريعة ، دون النَّظر إلى النَّتائج المفزعة ، والَّتي أوردنا بعضها في الأسطر السَّابقة .

(الإنسان) في الحضارة الحقَّة أعزُّ وأكرم ما تملك ، أينما كان ، وخليَّته الاجتماعيَّة الَّتي تصمد الأُمَّة بصمودها ، وتبقى معافاة ببقائها سليمة ، ألا وهي الأُسرة ، تضمن الحضارة لها توازنها وحصانتها الأخلاقيَّة والرُّوحيَّة ، إنَّها الحصن الَّذي يضمن للإنسان راحته العاطفيَّة ، وطمأنينته النَّفسيَّة ، وسعادته الرُّوحيَّة .

وحضارتنا العربيَّة الإسلاميَّة جعلت من أُولى دعائمها : الإيمان بالله الواحد ، الخالق ، قيُّوم السَّموات والأرض ، ومن هذه الدَّعامة تفرَّعت بقيَّة الأُمور الاعتقاديَّة ، وعلَّمت النَّاس - أينما كانوا ، وحيثما حلُّوا - أن يأخذوا من هذه الدُّنيا العِلْمَ والمعرفة ، وأوجبت إنهاض العقل ، للتَّعرُّف على حقائق الكون والحياة ، بعد أن جعل الله الإنسان خليفته في الأرض .

وجعلت من دعائمها احترام العقائد الأُخرى : ﴿ لا إكْراهَ في الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ ، [البقرة ٢٥٧/٢] ، لقد نظرت إليه (إنساناً) ، بغضِّ النَّظر عن معتقده ، محترمة رأيه وإنسانيَّته ، لقد قام الرَّسول الكريم ﷺ لجنازةٍ مرَّت أمامه ، فقيل له : إنَّه غير مسلم ، فقال : أَوَليسَ إنساناً[٧] ؟

(٦) عن كتاب : الأمراض الجنسيَّة للدُّكتور محمَّد البار ، وبعض أعداد جريدة الشَّرق الأوسط ، نشرتها (رسالة الجامعة) ، العدد ٢٨٧ ، تاريخ ٢٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٥ م .

(٧) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣١٢ باب من قام لجنازة يهودي ، وأخرجه مسلم في الجنائز ٩٦١ باب القيام =

لذلك يعجب الفيلسوف رينان بقيمة الإنسان في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، فيقول : « الإسلام هو دينُ الإنسان »[٨] .

أمَّا الفيلسوف الألماني غوته ، فيقول بعد أن درس الإسلام وحضارته ، وأثره السَّامي في الشُّعوب : « إذا كان هذا هو الإسلام ، أفلسنا جميعاً مسلمين ؟ »[٩] ، كيف لا ، وقد نظرت حضارتنا إلى إنسانيَّة الإنسان على أنَّها كلٌّ لا يتجزَّأ ، فالإنسان في منهجها في أسمى المراتب ، وهو غاية في ذاته ، غاية في حُرِّيَّته وطمأنينته ، وكفايته وعافيته : « متى استعبدتم النَّاسَ وقد ولدتهم أُمَّهاتهم أحراراً ؟ »[١٠] ، « إنَّ الله أرسل محمَّداً هادياً ، ولم يرسله جابياً »[١١] ، وطلب عمر بن عبد العزيز من ولاته أن يمتنعوا عن إيقاع عقوبة الإعدام بمن يستحقُّها إلاّ بعد عرض الأمر عليه ، والحصول على موافقته ، وهذا ما فعله أيضاً يوسف بن تاشفين ، أمير المرابطين .

وأوصى عمر والياً فقال : « عليك بتقوى اللهِ ، فإنَّها جماع الدُّنيا والآخرة ، واجعل رعيَّتكَ الكبير منهم كالوالد ، والوسط كالأخ ، والصَّغير كالولد ، وبِرّ والدك ، وصِل أخاك ، وتلطَّف بولدك » .

وجعلت حضارتنا من العلم في كلِّ مجالاته فريضة على المسلمين ، ورفعت مكانة العلم والعلماء : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبابِ ﴾ ، [الزُّمر ٩/٣٩] .

= للجنازة ، والنَّسائي في الجنائز ٥٤/٤ باب القيام لجنازة مشرك ، ومسند أبي يعلى الموصلِّي ٦٢/٣ الحديث ١٤٣٧ طبعة دار المأمون للتُّراث .

(٨) تراث الإسلام ، ص ٤١٢

(٩) Haidar Bammate, Visages de Islam P.21

(١٠) قالها عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لعمرو بن العاص .

(١١) في كتاب الخراج ، ص ١٤٢ ، عمر بن عبد العزيز : « إنَّ الله جلَّ ثناؤه بعث محمَّداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ، ولم يبعثه جابياً » .

وجعلت التَّكافل الاجتماعي سمة الإيمان : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، [الحشر ٩/٥٩] ، و « ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم »(١٢) .

وجعلت الدِّعامة الأخلاقيَّة من أُسسها أيضاً ، وأقامت الرَّقيب عليها إيمان الفرد بالله ، وهو بذلك المواطن الصَّالح ، فإن غابت عين السُّلطة ، فنور إيمانه رقيب دائم ، لما فيه خير البلاد والعباد ، حتَّى شملت رعايته ورحمته الحيوان والنَّبات ، أيُّ وصيَّة هذه الَّتي قالها أبو بكر الصِّدِّيق قبل ألف وأربع مئة عام ؟ عندما قال وهو يودِّع جيش أُسامة بن زيد :

« يا أيُّها النَّاس ، قِفُوا أُوصيكم بعشر فاحفظوها عنِّي : لا تخونوا ، ولا تُغِلُّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً إلاَّ لمأكلةٍ ، وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطَّعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب ـ وهم المقاتِلون ـ فاخفقوهم بالسَّيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله »(١٣) .

الإنسان تُسَخَّر له المادَّة في حضارتنا ، وطحنت حضارتهم بين حَجَرَي رحاها الإنسان ، الحجر الأول الرُّعب من أسلحة الفتك النَّوويَّة ، وحرب النُّجوم ، والقنابل النِّيترونيَّة .. والحجر الثَّاني الفراغ الرُّوحي الَّذي سبَّب هروباً من واقعهم فلجؤوا إلى المخدِّرات والمسكرات ، حتَّى قامت أكبر هيئتين في الولايات المتحدة ، وروسية فخصَّصتا مئات الملايين ، لتكافح المخدرات والمسكرات .

---

(١٢) رواه البزَّار ، والطَّبراني في الأوسط عن أنس ، وهو حديث حسن .

(١٣) الكامل في التَّاريخ ٢٢٧/٢ ، الطَّبري ٢٢٦/٣

وهذا لا يعني عدم الأخذ من مظاهر التّقدُّم العلمي المعاصر ووسائله ، فحضارتنا العربيّة الإسلاميّة لم تكن في يوم من الأيّام انطوائيّة ، أو بمعزل عن الحضارات الأُخرى ، بل اقتبست كلّ نافع مفيد ، ولكن ذلك لم يكن على حساب المبادئ الثّابتة الّتي لا تتغيّر مع تغيُّر الزّمان أو المكان ، والّتي وحدها تحفظ لنا الإنسان معافى من أخطار الانحلال والاضمحلال ، وتحفظ بالتّالي الأُمّة معافاة .

والقيم الرُّوحيّة الّتي قامت عليها حضارتنا ، والّتي افتقدتها حضارتهم ، هي القواعد الخلقيّة ، والمثل العليا المبنيّة على تعاليم الإسلام ، والمنطوية على النّظر إلى الإنسان من حيث إنسانيّته المقدّسة .

وأخيراً ..

هذه مجموعة محاضرات أُلقيت خلال العام الدّراسي ١٩٨٥ م على طلاّب السّنة الرّابعة في كلّيّة الدّعوة الإسلاميّة ، تحت عنوان مادة : (الحضارة العربيّة الإسلاميّة) ، ولمّا كان للمادّة منهاج ، ومفردات منهاج ، ولا كتاب لها ، جمعت هذه المحاضرات في أُملية مختصرة قُدّمت لطلاّبنا في نهاية العام الدّراسي المذكور ، وبدأت بعدها مباشرة بتوسيع الأُملية ، موثّقاً مستزيداً ، فكانت كتاباً طبعته كليّة الدّعوة الإسلاميّة ، تضمن لمحات سريعة عن الحضارات الّتي سبقت الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، ثمّ دراسة حضارتنا من جميع جوانبها تقريباً ، وخاتمة فيها أثر هذه الحضارة العربيّة الإسلاميّة في النّهضة الأُوربيّة ، وقنوات انتقالها وتسرُّبها إلى أُوربة .

وأثناء سنوات تدريس المادّة ، شكّلت الملاحظات والزّيادات الّتي دوّنتها على هوامش الكتاب كتاباً يقارب في حجمه حجم الكتاب المطبوع ، وها هي ذي دار الفكر بدمشق تقدّمه ـ كاملاً بحجمه الجديد ـ آملةً أن ينفع الله عزّ وجلّ به .

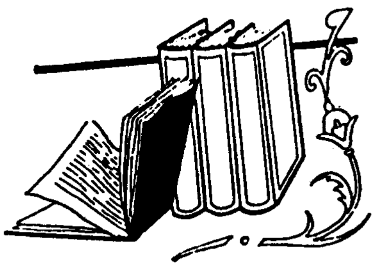
يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا

ٱستَخْلَفَ الَّــذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّــذِي ٱرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْــدِ خَوْفِهِمْ أَمْنــاً يَعْبُــدُونَنِي لا يُشْرِكُــونَ بِي شَيْئــاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْــدَ ذَلِــكَ فَــأُولَئِــكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ ، [النُّور ٢٤/٥٥] .

والحمد لله ربِّ العالمين أوَّلاً وآخراً .

د . شوقي أبو خليل ٥
Shawki@Fikr.com



الحضارة

تعريفها، شروط قيامها، اتصال الحضارات وانتقالها مظاهرها، مصادرها، نشأة الحضارات وأُفولها.

* « ليس التَّاريخ إلاَّ موكب الدُّول والحضارات الَّتي تنشأ وتزدهر، ثمَّ تضمحل وتفنى، ولكن كلاًّ منها تخلّف وراءها تراثاً من العادات والأخلاق والفنون، تتلقاه عنها الحضارات الَّتي تأتي من بعدها، فهي كالعدَّائين في سباقٍ يسلِّم كلٌّ منهم مصباح الحياة إلى غيره ». [قصة الحضارة ٩/ ٣١٢].

الحَضَارَةُ

« الحضـارة تسير كما تسير الشّمس ، فكأنّها تـدور حول الأرض مشرقـة في أُفق هـذا الشّعب ، ثمّ متحوّلـة إلى أُفق شعبٍ آخر » .

[مالك بن نبي]

« إنّ الحضـارة لاتمـوت ، ولكنّهـا تهـاجر من بلـد إلى بلـد ، فهي تغيّر مسكنها وملبسها ولكنّها تظلُّ حيّة ، ومـوت إحـدى الحضـارات كموت أحـد الأفراد ، يفسح المكان لنشـأة حضـارة أُخرى ، فالحيـاة تخلع عنهـا غشـاءهـا القديم ، وتفـاجئ الموت بشبـابٍ غضٍّ جديد » .

[قصّة الحضارة ٢١١/٨]

تعريف الحضارة :

إنّ كلمة حضارة مشتقّـة من الْحَضَر ، ومـدنيّـة مشتقّـة من الحيـاة المـدنيّـة ، كما أنّ الكلمة الأجنبيّة الّتي تقابلها Civilisation مشتقّة من المدنيّة Civilas أساسـاً ، أو بصورة مباشرة من ساكن المدينة Civis ، أو من Civilis وهو مـا يتعلّق بسـاكن المـدينـة . وفي مـوسـوعـة القرن العشرين[1] : « الحضـارة : الإقـامـة في الحضر ، انظر مـدنيّـة » ، وفي مدنيّة[2] جاء التّعريف التّالي : مدنيّـة : كلمـة مشتقّـة من مـدّن المـدائن ، أي حضّرهـا

(١) لمحمّد فريد وجدي : ٤٥٤/٣

(٢) المرجع السّابق : ٥٥٣/٨

وبناها ، ونحتوا منها فعل تَمدَّنَ ، وجعلوا معناه تخلّق بـأخلاق أهل المـدن ، وخرج من حالة البداوة ، ودخل في حالة الحضارة .

وفي قصّة الحضارة لِـ (وِل ديورانت) ، استخدمت كلمة حضارة ، وكلمـة مـدنيّـة بمعنى واحد .

المدنيّة (والّتي اشتُقّت من مدّن المدائن ، ومن التّمـدُّن) ، تعني ابتعـاد الجماعـات الرِّيفيّـة الّتي تنتقل إلى المـدنيّـة من جـذورهـا ، والتّمـدين يعني الرَّغبـة في حيـاة أغنى وأرقى ، وعلى ذلك .. فالمدنيّـة : التّقـدُّم العلمي والتّكنولوجي والرّفـاهيّـة والرُّقي الّـذي وصلت إليه المجتمعات .

ونرى أنَّ الحضارة لا تعني هذا الجانب المادي فقط ، بل إنّها تشمل الجانب الرُّوحي العقـائـدي الفكري التّشريعي أيضـاً ، وبـالتّـالي تشمـل نظرة متكاملـة منسجمـة إلى : الكون ، والإنسان ، والحياة .

وتنشأ الحضارة من عاملين أساسيَّيْن ، همـا : الأرض والإنسـان ، من موارد الأرض الطَّبيعيَّة ، الّتي تحوِّلها رغبات الإنسان وجهوده وتنظيمه إلى ما فيه منفعته[٣] .

ويمكن القول : إنَّ الحضارة هي محاولات الإنسان الاستكشاف والاختراع والتَّفكير والتَّنظيم والعمـل على استغـلال الطَّبيعـة ، للـوصـول إلى مستـوى حيـاة أفضـل ، وهي حصيلة جهود الأُمم كلِّها .

شروط قيام الحضارة :

لا شروط عِرْقِيَّـة لقيـام الحضـارة ، إذ يمكن أن تظهر في أيَّـة قـارَّة ، يقـول توينبي[٤] Toynbee : « لا يوجد عِرْق متفوِّق بدأتِ الحضارة عن يده » .

(٣) قصّة الحضارة : ١٠٦/١٣

(٤) في المجلّد الأوّل من كتابه (مختصر دراسة التّاريخ) ص ٨٦ وما بعدهـا ، وللتّوسُّع بهذا البحث : قصّة =

ونظريَّة توينبي تقول : إنَّ تقدُّم الحضارة ، كان نتيجة ردِّ فعل للتَّحدِّي في الظُّروف الصَّعبة الَّتي تدفعه إلى بذل أكثر ، ومثال ذلك (الصَّحراء الكبرى) ، الَّتي كانت سهولاً خصبة ملأى بالأعشاب والمياه ، وبتغيُّر الظُّروف المناخيَّة[5] ـ وهي التَّحدِّي هنا ـ سلك السُّكَّان طرقاً ثلاثاً استجابة لهذا التَّحدِّي :

١ ـ فبعضهم ظلُّوا مقيمين في الصَّحراء الكبرى ، وبدَّلوا عاداتهم ونمط معيشتهم إلى بَدْوٍ رُحَّل .

٢ ـ وآخرون انتقلوا إلى المناطق المداريَّة جنوباً حيث الغابات ، وحافظوا على حياتهم البدائيَّة .

٣ ـ وآخرون دخلوا مستنقعات وادي النِّيل وغاباته ، كما دخلوا الدَّلتا ، وقبلوا التَّحدِّي ، وعملوا على تجفيف المستنقعات وإعدادها للزِّراعة ، وأتوا بالحضارة المصريَّة القديمة[6] .

وكذلك الحضارة السُّومريَّة في دلتا دجلة والفرات[7] ، وكذلك حضارة الصِّين في وادي النَّهر الأصفر (هُوانغ هُو) ، ولا ندري تماماً ما نوع التَّحدِّي ، ولكن الأحوال كانت صعبة .

والحضارة الإيجيَّة المينوسيَّة ، كان أصلها تحدِّي البحر للسُّكَّان[8] .

= الحضارة ، وُل ديورانت . المدخل إلى تاريخ الحضارة ، د . جورج حدَّاد . شروط النَّهضة ، مالك بن نبي . الصِّراع الحضاري في العالم الإسلامي ، شايف عكاشة . انتصار الحضارة (تاريخ الشَّرق القديم) جيمس هنري برستد .

(٥) كانت هذه التَّحوُّلات ، والظُّروف للناخيَّة قد ظهرت في نهاية العصر المطير (البلايستوسين) ، وما زالت موجودة حتَّى أيَّامنا هذه ، ويقدِّر العلماء أنَّ هذا الانتقال حصل حوالي سنة ٧٠٠٠ ق.م .

(٦) مختصر دراسة التَّاريخ : ١٠١/١ ـ ١٢١ ، طبعة الإدارة الثَّقافيَّة في جامعة الدُّول العربيَّة ، ط١ ، سنة ١٩٦٠ ، مطبعة لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر .

(٧) المرجع السَّابق : ١٢١/١

(٨) المرجع السَّابق : ١٢٣/١

فالأحوال الصَّعبة المعاكسة ، وليستِ الأحوال المواتية ، هي الَّتي تنتجُ الحضارات ، وهذا ما يُسَمَّى (حافز الصُّعوبات) ، أو (دافع البلاد ذات الأحوال المعاكسة)[٩] .

ثمَّ يقول توينبي : « إنَّ الأرض الجديدة تثير الهمم ، والأرض البكر تولِّد ردَّ فعل أقوى من ذاك الَّذي تولِّده أرضٌ ذات حضارة سابقة ، فالحضارات الَّتي أتت بتأثير ماسبقها ، نرى أنَّ مظاهرها القويَّة كانت في مناطق خارجيَّة عن نطاق الحضارة الأصليَّة الَّتي سبقتها » .

ويتساءل مستدركاً في نظريَّة التَّحدِّيات هذه : أيجب أن يكون ردُّ الفعل أعظم كلَّما كان التَّحدِّي أشدّ ؟ أمْ إنَّ هناك تحدِّيات شديدة جدّاً لا تأتي بأي مفعول معاكس ؟

ويجيب بأنَّ بعض التَّحدِّيات قضت على المجتمعات الَّتي لاقتها ، ولكنَّها أخيراً أدَّت إلى ردِّ فعل مناسب من مجتمع آخر ، أو من جهة أُخرى ، مثل الاجتياح الهيلِّيني للشَّرق ، أدَّى إلى ردود فعل مخفقة ضدها ، فظهرت الزَّردشتيَّة .

وهناك (حضارات عقيمة)[١٠] ، لم يكن لها ما بعدها ، حاولت أن تأتي بحضارة من عندها ، كمنافسة لحضارة أعظم ، فنجحت مؤقَّتاً ، ولكنَّها انحطَّت وزالت من الوجود ، مثل الحضارة الكلتيَّة في غربي أوربَّة ، وَدامت حتَّى عام ٣٧٥ م ، ثمَّ قضت عليها سلطة رومة الدِّينيَّة ، ثمَّ سلطة إنكلترة السِّياسيَّة .

ويمكن القول : إنَّ الطَّبيعة ليست عدوّاً في كلِّ الحالات ، فهي الَّتي هيَّأت المُناخ المعتدل ، والتُّربة الخصبة .. فإن كان التَّحدِّي يعني الإثارة فهذا مقبول .

---

(٩) انظر فصل تحدِّي البيئة (الحافز في البلاد الصَّعبة) في مختصر دراسة التَّاريخ : ١٤٧/١ وما بعدها .

(١٠) المرجع السَّابق : ٢٧٥/١ وما بعدها .

فالقحط تَحَدٍّ ، أو إثارة ، أوجب بناء السُّدود .
والتَّصحُّر تَحَدٍّ ، كوَّن تثبيت التُّربة .
وتزايد السُّكَّان تَحَدٍّ ، سبَّب استصلاح الأراضي ..

ومشروط قيام الحضارة بطائفة من العوامل ، منها ما يستحثُّ خُطاها ، ومنها ما يُعيق مسارها ، ومن هذه العوامل :

١ ـ العوامل الجيولوجيَّة : فعصر الجليد أعاق مسارها ، والتُّربة الخصبة استحثَّت خطاها .

٢ ـ العوامل الجغرافيَّة : المُناخ المناسب يستحثُّ خطاها ، ولكنه لا يخلق حضارة خَلْقاً ، إلاَّ أنَّه يستطيع أن يبتسم في وجهها ، ويهيئ سبيل ازدهارها وتَقدُّمها ، وحرارة المناطق الاستوائيَّة المرتفعة ، وما يجتاح تلك المناطق من أمراض لا تهيئ للحضارة أسبابها ، وهي بالتَّالي لا تستحثُّ خُطاها .

٣ ـ العوامل الاقتصاديَّة : « تبدأ الحضارة في كوخ الفلاَّح ، ولكنَّها لا تزدهر إلاَّ في المدن »(١١) ، قد يكون لشعب مؤسَّسات اجتماعيَّة منظَّمة ، وتشريع خُلُقي رفيع ، بل قد تزدهر فيه صغريات الفنون ، كما هي الحال مع الهنود الحمر ، ومع ذلك فإنَّه إن ظلَّ في مرحلة الصَّيد البدائيَّة ، واعتمد في وجوده على ما عسى أن يُصادفه من قنائص ، فإنَّه يستحيل أن يتحوَّل من البدائيَّة إلى الحضارة تحوُّلاً تامّاً .

إنَّ الإنسان لا يجد لحضارته (لتمدُّنه) معنى ومبرِّراً إلاَّ إذا استقرَّ في مكان يَفْلَحُ تربته ، ويخزن فيه الزَّاد ليومٍ قد لا يجد فيه مورداً لطعامه ، في هذه الدَّائرة الضَّيِّقة من الطّمأنينة ، والَّتي هي مورد محقَّق من ماء وطعام ترى الإنسان يبني لنفسه الدُّور والمعابد والمدارس ، ويخترع الآلات الَّتي تعينه على الإنتاج ، ويستأنس الحيوان ، ثمَّ

(١١) قصَّة الحضارة : ٥/١ بتصرُّف .

يسيطر على نفسه آخر الأمر ، فيتعلَّم كيف يعمل في نظام واطِّراد ، وكيف يزداد قدرة على نقل تراث الإنسانيَّة من عِلْمٍ وأخلاق نقلاً أميناً .

« إنَّ حاجة بعض النَّاس إلى بعض ، صفةٌ لازمة في طبائعهم ، وخِلقةٌ قائمة في جواهرهم ، وثابتة لا تزايلهم ، ومحيطة بجماعتهم ، ومشتملة على أدناهم وأقصاهم ، وحاجتهم إلى ما غاب عنهم ـ ممَّا يُعيشُهم ويُحْييهم ، ويُمسك بأرماقهم ، ويصلح بالهم ، ويجمع شملهم ، وإلى التَّعاون في دَرْكِ ذلك ، والتَّوازُرِ عليه ـ كحاجتهم إلى التَّعاون على معرفة ما يضرُّهم ، والتَّوازر على ما يحتاجون من الارتِّفاق بأُمورهم الَّتي لم تغب عنهم .. »[١٢] .

٤ ـ يضاف إلى ما سبق من عوامل ، العوامل النَّفسيَّة الَّتي تسرِّع في تقدُّم الحضارة ، إنَّ العوامل الجيولوجيَّة ، والجغرافيَّة والاقتصاديَّة لا تكوِّن حضارة ، ولا تنشئ مدنيَّة من عدم ، إذ لا بُدَّ أن يضاف إليها العوامل النَّفسيَّة ، ولا بُدَّ أن يسود النَّاس نظامٌ سياسي ، وحالة استقرار ، وربما كان من الضَّروري كذلك أن يكون بين النَّاس بعض الاتِّفاق في العقائد الرَّئيسيَّة ، وفي المثل الأعلى المنشود ، لأنَّ ذلك يرفع الأخلاق من مرحلة توازن فيها بين نفع العمل وضرره ، إلى مرحلة الإخلاص للعمل ذاته ، وهو كذلك يجعل حياة الإنسان أشرف وأخصب .

ولو انعدمت هذه العوامل ، أو واحد منها ، لجاز للحضارة أن يتقوَّض أساسها ، فانقلاب جيولوجي خطير ، أو تغيُّر مناخيٌّ شديد ، أو استنفاد للموارد الطَّبيعيَّة ، أو تغيُّر في طرق التِّجارة تغيُّراً يُبْعِدُ أُمَّةً عن الطَّريق الرَّئيسيَّة للتِّجارة العالميَّة ، أو انحلالٌ خُلُقي ينشأ عن الحياة في الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتِّصالات ، أو ينشأ عن تهدُّم القواعد التَّقليديَّة الَّتي كان النِّظام الاجتماعي يقوم على أساسها ، ثمَّ العجزِ عن إحلال غيرها مكانها .. هذه من الوسائل الَّتي قد تؤدِّي إلى فناء الحضارة ،

(١٢) كتاب الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : ٤٢/١ ، دار إحياء التُّراث العربي ، تحقيق وشرح عبد السَّلام هارون .

« إذاً الحضارة ليست شيئاً مجبولاً في فطرة الإنسـان ، كلا ، ولا هي شيء يستعصي على الفناء ، إنَّما هي شيء لا بُدَّ أن يكتسبه كلُّ جيل من الأجيال اكتسـابـاً جـديـداً ، فـإذا ما حدث اضطراب خطير في عواملها الاقتصاديَّـة ، أو في طرائق انتقـالهـا من جيل إلى جيل ، فقد يكون عاملاً على فنائها ، إنَّ الإنسان ليختلف عن الحيوان في شيء واحـد ، وهو التَّربية ، ونقصد بها الوسيلة الَّتي تنتقل بها الحضارة من جيل إلى جيل »[١٣] .

اتِّصال الحضارات وانتقالها :

يتمُّ الاتِّصال بين الحضارات ، وبـالتَّـالي انتقـالهـا عن طريق : الغزو أو الفتح ، أو الحكم الأجنبي ، أو الهجرة والسِّيـاحـة والتِّجـارة والجـوار .. ومثـال ذلـك (الهيكسوس)[١٤] ، الَّذين غزوا مصر ، وعاملوا أهلها بشدَّة وعنف ، لكنَّهم ما لبثوا بعد مُـدَّة من الـزَّمن أن أخـذوا يتعـوَّدون على الحيـاة المصريَّـة ، وجرفهم تيَّـارُ حضـارتهـا ، فتمصَّروا وقلَّـدوا الفراعنـة في أسمائهم وألقـابهم وأزيـائهم وعـاداتهم وتقـاليـدهم الملكيَّـة ولغتهم ، وقدَّموا القرابين إلى الآلهة المصريَّة ، وسمُّوا أنفسهم (أبناء رَع) .

ونميِّز في حالات الاتِّصال هذه ، نوعَيْن رئيسيَّين من انتقال الحضارة :

١ ـ إذا كان الشَّعب المهاجِمُ في حال بـدائيَّـة ، أي حضـارة الشَّعب المُهَـاجِم الَّـذي سـاد البـلاد وحكمهـا دون حضـارة الشَّعب المغلـوب ، فتحصـل فترة تـوقُّف في مسيرة الحضارة الأصليَّة ، كالهيكسوس ، والبرابرة والجرمـان ، والتَّتر .. ففي مثل هـذه الحـال تهضم حضارةُ المغلوب الغزاةَ المنتصرين ، وتردُّهم ـ ولو بعد حين ـ وقـد اقتبسوا حضـارة الشُّعوب المغلوبة .

٢ ـ أمَّا إذا كان الشَّعب الفـاتح في حـالٍ فكري أرقى ، كالفـاتحين العرب المسلمين ،

---

(١٣) قصَّة الحضارة : ١/٥ وما بعدها ، بتصرُّف .

(١٤) الَّذين غزوا مصر سنة ١٧٣٠ ق.م ، وبقوا فيها حتَّى ١٥٨٠ ق.م .

فعندها تزدهر حضارة رائعة بعد الفتح والاستقرار ، مع طبع الحضارة بطابع الفاتحين الخاص .

وقد يحصل تبادل حضاري بين طرفين حضاريَّين ، وقد يعطي الشَّعبُ المغلوبُ إلى الشَّعبِ الغالب أكثر مِمَّا يأخذ منه ، مثال ذلك اليونان عندما حكمهم الرُّومان ، والصَّليبيُّون عندما وصلوا بلاد الشَّام ، واطَّلعوا على الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة .

وقد يتمُّ الانتقال عن طريق طرف آخر ، فالحضارة العربيَّة الإسلاميَّة انتقلت إلى أُوربَّة عن طريق المدن الإيطاليَّة ، وصِقِلِّيَّة ، ومدن فرنسة الجنوبيَّة ، والأندلس .

☆ ☆ ☆

مظاهر الحضارة :

للحضارة عناصر تتألَّف منها ، ومظاهر متعدِّدة تظهر بها :

١ ـ المظهر السِّياسي : ويبحث في هيكل الحكم ، ونوع الحكومة : ملكيَّة أم جمهوريَّة ، دستوريَّة أم مطلقة .. والمؤسَّسات الإداريَّة والمحلِّيَّة .

والدَّولة تنشأ بسبب ضرورة النِّظام ، ولا يعود بالإمكان الاستغناء عنها ، وتصبح الدَّولة وسيلة للتَّوفيق بين المصالح المتباينة الَّتي تكوِّن مجتمعاً مركَّباً ، ويرى وُل ديورانت أنَّ « العنف هو الَّذي ولَّد الدَّولة » ، وأنَّ الدَّولة هي نتيجة الغَلَبَة والفتح ، وتوطُّد نفوذ الغالبين ، كطبقة حاكمة على المغلوبين .

٢ ـ المظهر الاقتصادي : ويبحث في موارد الثَّروة ، ووسائل الإنتاج الزِّراعي والصِّناعي ، وتبادل المنتجات .

٣ ـ المظهر الاجتماعي : ويبحث في تكوُّن المجتمع ونظمه ، وحياة الأُسرة ، والمرأة ، وطبقات المجتمع ، والآداب ، والأعياد ..

٤ ـ المظهر الدِّيني : ويبحث في المعتقدات الدِّينيَّة ، والعبادات ، وعلاقة الإنسان ونظرته إلى الكون والحياة .

٥ ـ المظهر الفكري : ويبحث في النِّتاج الفكري ، من فلسفة وعلم وأدب ..

٦ ـ المظهر الفنِّي : ويبحث في الفنِّ المعماري ، والرَّسم ، والموسيقى ، وغيرها من الفنون .

☆ ☆ ☆

مصادر الحضارة :

إنَّ الكتابة أهم وسيلة لحضارة الإنسان ، وحيثما وجدت الحضارة وجدت القراءة والكتابة ، وأصبحت اللُّغة المكتوبة وسيلة الحضارة والعِلْم والتَّربية ، فالكتابة تعطي المعرفة البشريَّة صفة الدَّوام ، والبراهين عن حضارة الإنسان القديم قليلة حتَّى نصل إلى عصر الكتابة ، ووضع الوثائق المكتوبة ، ولهذا السَّبب احترم القدماء الكتابة ، ونسبها المصريُّون القدماء إلى الإله توت Thoth ، فهو ـ في رأيهم ـ مخترع وسائل الثَّقافة جميعها ، وفي بابل كان الإله نبو (Nebo) بن مردوخ إله الكتابة ، والصِّينيُّون القدماء ، والهنود وغيرهم ، اعتقدوا بأصل إلهي للكتابة ، والأساطير اليونانيَّة نسبتها إلى هرمس .

وبوجه الإجمال كان للكتابة مفعول سحري على النَّاس ، فاختراع الكتابة أهم من اللُّغة ، لأنَّ اللُّغة ليست اختراعاً بشرياً كالكتابة ، وإنَّما هي ميزة بشريَّة .

الكتابة : وسيلة لنقل الكلام ، تسجِّل أصواتاً آتية من الفم ، أو فِكراً آتية من الدِّماغ ، برموز منظورة على الورق ، أو الحجر ، أو الخشب ، أو غيرها .

ومن الصَّعب تحديد دقيق لوقت معيَّن لبدء الكتابة ، ولكن لا برهان على وجود كتابة منظَّمة قبل منتصف الألف الرَّابع قبل الميلاد ، وكانت كتابة



* لـوح طيني لتعليم الكتـــابـــة من (إيبـلا) ، نجـد فيـه أنَّ التِّلميـذ لم يكمـل السُّطور العليا في اللَّوح .

تصويريَّة Pictography ، حيث الصُّورة تمثِّل الشَّيء الَّـذي يراد ذكره ، فـالـدَّائرة تمثِّل الشَّمس ، وصورة الحيوان تدلُّ عليه .

ثمَّ جـاءت الكتـابـة الفكريَّـة (أو الرَّمـزيَّـة) Ideographic ، وهي أرقى من التَّصويريَّة ، لأنَّها تصوِّر الأفكار الَّتي يراد نقلها من شخص إلى آخر ، فـالـدَّائرة لا تمثِّل الشَّمس فقـط ، بل تمثِّل النَّهـار ، أو النُّور ، والحيوان لا يُمَثَّـل بصـورة الحيـوان ، وإنَّما برأسـه فقـط ، وفكرة الـذَّهـاب تمثَّـل بقـدمين ، أو بخطَّين يمثِّلان قـدميـه ، والرُّمـوز المستعملـة هنـا تُسمَّى صوراً فكريَّـة Ideagraphs ، ويمكن قراءة الرُّموز في أيَّـة لغـة في

هاتين المرحلتَيْن ـ التَّصويريَّة والفكريَّة ـ إذ لا علاقة بين الرَّمز وبين اسم الشَّيء الَّذي يمثِّله .

ثمَّ جاءت مرحلة الكتابة ذات المقاطع ، وهي صوتيَّة ، بمعنى أنَّ كلَّ رمز أو صورة لها صوت في اللُّغة الخاصَّة الَّتي تكتب بها ، والرُّموز الَّتي لها أصوات معيَّنة ، يمكن جمعها بأشكال مختلفة لإخراج كلمات وفكر مختلفة ، وهي لا تمثِّل الأشياء والفكر فقط ، وإنَّما الأصوات ، وتصبح الكتابة صوتيَّة تماماً عندما تصبح الأشكال المكتوبة ثانويَّة بالنِّسبة للكلمات الَّتي تُلفظ ، وتفقد تلك الأشكال مدلولها الأصلي حينما تجتمع لتشكيل كلمة أو فكرة جديدة ، بمعنى أنَّها تصبح قسماً أو مقطعاً من كلمة ، فكلمة (درفيل) مثلاً ، مكوَّنة من مقطعين (در) و (فيل) ، ولكلٍّ منهما معناه ورمزه ، فإذا اجتمعا لتكوين كلمة واحدة يفقد عند ذلك المقطعان مدلولهما الأصلي ، ويصبح كل منهما صوتاً أو مقطعاً في كلمة جديدة[(١٥)] .

أمَّا الكتابة الأبجديَّة ، وهي أرقى أنواع الكتابة وأنسبها وأسهلها ، فهي آخر المراحل في تطوُّر الكتابة ، وفيها توجد حروف تمثِّل أصواتاً مفردة ، لا مقاطع وفِكَراً ، والأبجديَّة الَّتي اكتشفت في سيناء ، وأبجديَّة رأس شمرا (أُوغاريت)[(١٦)] ، هما أقدم الأبجديات في العالم ، وترقى أبجديَّة رأس شمرا إلى القرن الرَّابع عشر قبل الميلاد ، ومنها اقتبست الأبجديَّات الَّتي تستعملها معظم شعوب العالم في أيَّامنا هذه .

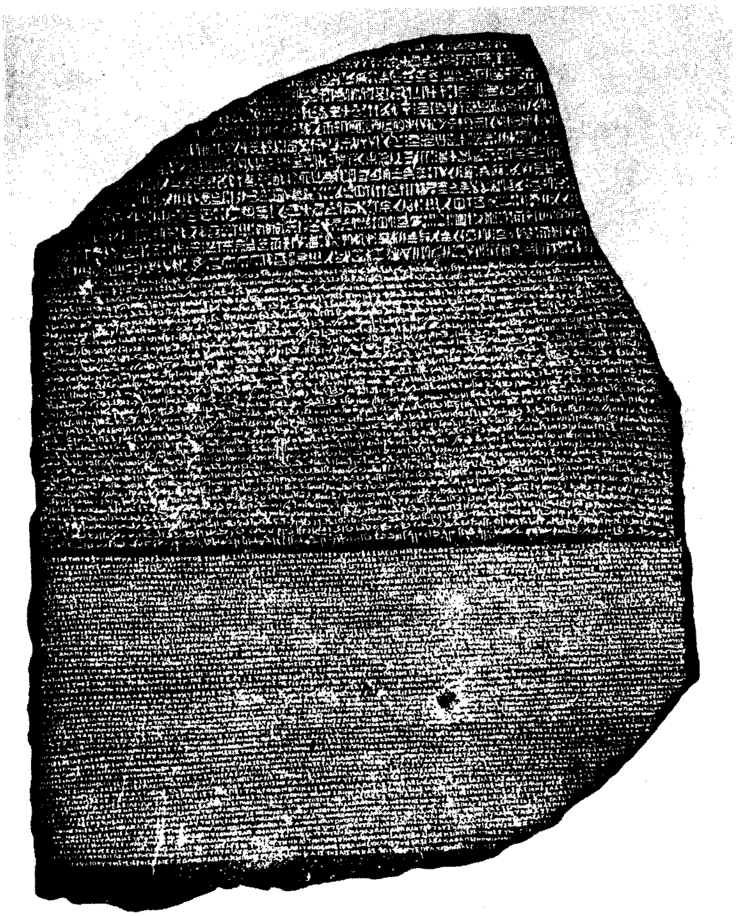
ويُعَد اختراع الأبجديَّة بالنِّسبة للبشريَّة موازياً لأهمِّيَّة اختراع المطبعة ، بعد ثلاثة آلاف سنة ، إن لم يكن أكثر أهمِّيَّة .

يقول الجاحظ : « لولا الكتب المدوَّنة ، والأخبار المخلَّدة ، والحكم المخطوطة الَّتي تحصِّن الحساب وغيرَ الحساب ، لبَطَل أكثر العِلْم ، ولغلب سلطانُ النِّسيان سلطانَ

---

(١٥) الكتابة الصِّينيَّة كانت ٨٠٠٠٠ مقطعاً ، واختصرت اليوم إلى ٩٠٠٠ فقط .

(١٦) تقع أوغاريت شمالي مدينة اللاذقيَّة ، على السَّاحل العربيّ السُّوري .

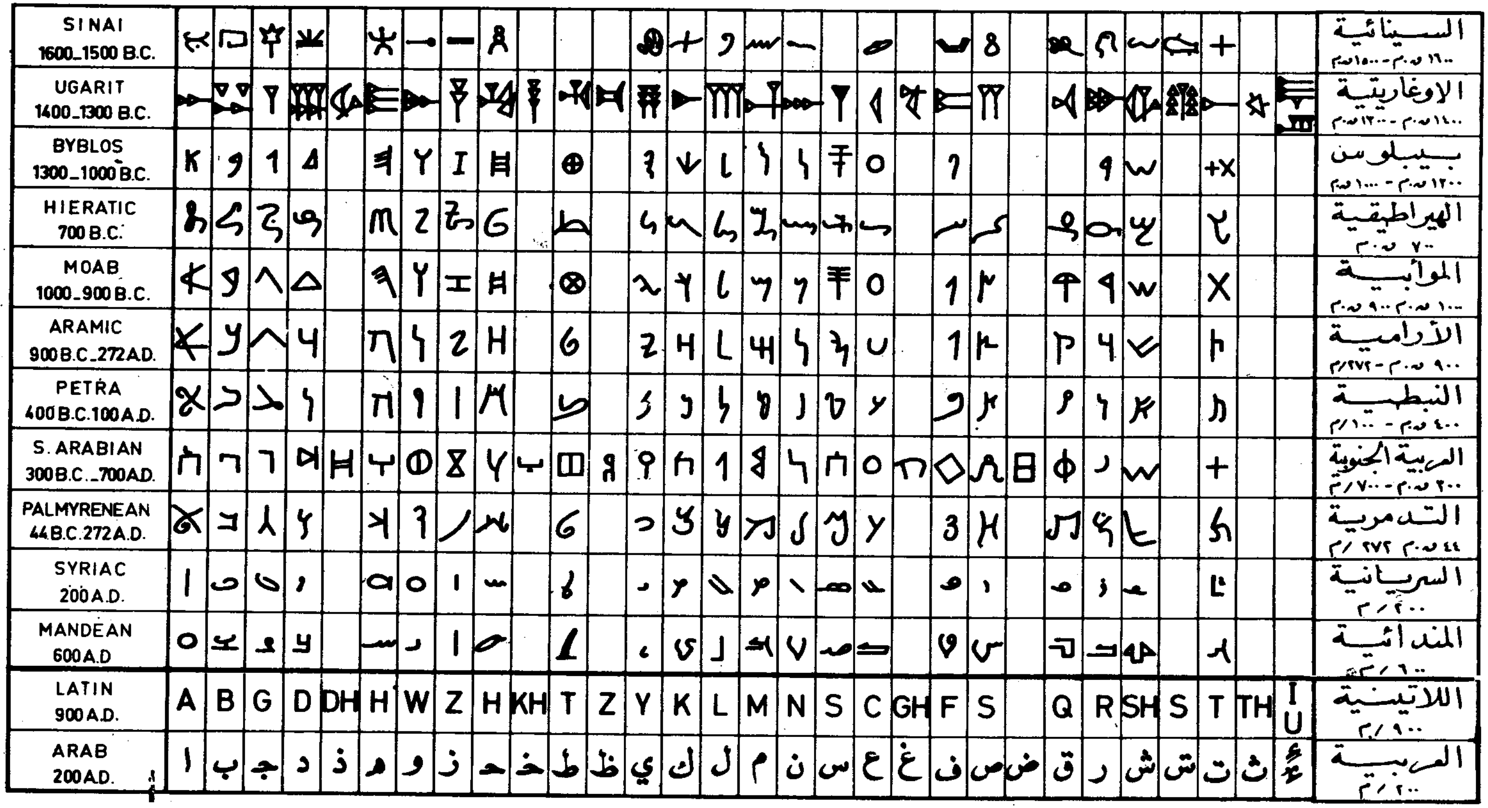


* حجر رشيد :

The Rosetta Stone

حيث الكتابة التّصويريّة الهيروغلوفيّة والديموطيقيّة (المشتقّة تبسيطاً من الهيروغلوفيّة) ، واليونانيّة .

الأبجدياتُ القَدِيمَةُ

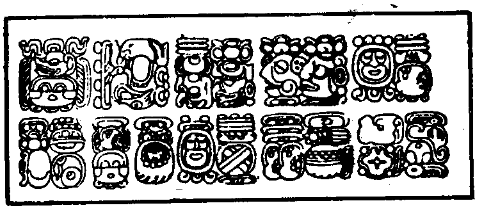


الـذِّكر ، ولمـا كان للنَّـاس مفـزع إلى مـوضـع استـذكار ، ولـو تمَّ ذلـك لَحُرِمْنـا أكثر النَّفـع .. »[١٧] ، ويقـول : « وليس في الأرض أُمَّـة بها طِرْق ـ قـوَّة ـ أو لهـا مُسْكَـة ، ولا جيل لهم قبض وبسط ، إلاَّ ولهم خطّ »[١٨] .

والوثـائق المكتوبـة ، وهي تجمع السِّجلات والصُّكـوك والمراسـلات .. مـع الآثـار المـادِّيَّـة كالأبنيـة والبقـايـا الفنيَّـة ، والأواني ، والأدوات ، والأسلحـة .. هي مصـادر الحضارة .

ويزداد شأن الآثـار في التَّـاريخ كلمـا أوغلنـا رجوعـاً في الزَّمن ، لتصبح في بعض الأحوال ، وفي العصور القديمة خاصَّة ، مصادر التَّاريخ الوحيدة ، فالشُّعوب كلُّها بدافع من العقائـد الـدِّينيَّـة في الغـالب ، أو من رغبـات الملوك ، أو من الحـاجـات الحيـاتيَّـة الأُخرى ، تركت آثارها على الأرض الَّتي عرفتها ، وعلى هـذه الآثـار نبني معـارفنـا عن الحضارات القديمة .

والكتابات الأثريَّة هي وثائق العصور القديمة ، فمعظم الحضارات السَّالفـة سجلت على آثـارهـا مـا تريـد قـولـه بكتـابـات شتَّى ، فحين حـلَّ شمبُليـون (Jean-Francois Champollion) رموز الهيروغليفيَّـة[١٩] أضاف إلى التَّـاريـخ ثـلاثـة



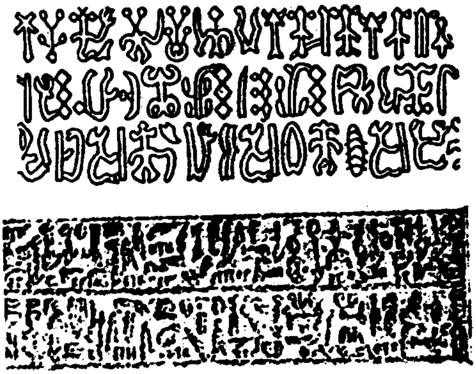
* كتابة (المايا) في وسط أمريكـة ، ألمَّ العلماء إلمامـاً يسيراً بها ، ومـا زالت مفتقرة إلى حلّ .

(١٧) كتاب الحيوان : ٤٧/١

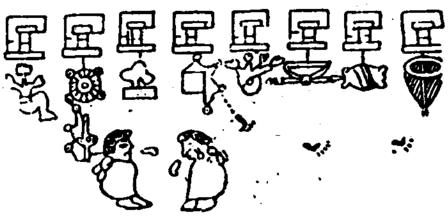
(١٨) المرجع السَّابق : ٧١/١

(١٩) انظر حجر رشيد ص : ٣٠ من هذا الكتاب .

آلاف سنة ، والكتابات الَّتي استعصت على الحلّ ـ مثل كتابة كريت ـ ما تزال تحتفظ بأسرار التَّاريخ[٢٠] .



*نماذج من الكتابات التي تحتاج إلى حلّ



* نمـوذج من الكتــابــة الآزتيكيَّــة (المكسيك) ألَمَّ العلماء إلماماً لا بأس به بها .

وهكذا عصور ما قبل التَّاريخ وحتَّى سنة ٣٢٠٠ ق.م ، حيث اختراع الكتـابـة في مصر ، فإنَّ مصادرنا عن الحضارة هي الأدوات ، والبقايـا المـاديَّـة فقـط ، لعـدم وجود كتـابـة ، ومن هنـا تظهر أهمِّيَّـة علم الآثـار ، والحفريـات الأثريَّــة الَّتي أصبحت اليـوم تستهـدف الفـوائـد العلميَّـة ، والاستنتـاجـات التَّـاريخيَّــة ، وليس مجرَّد البحث عن العاديـات[٢١] ، إذ العـاديـات لم تعـد غـايـة في ذاتهـا ، وإنَّما وسيلـة لمعرفـة الحضـارات وتطوُّرها .

فالكتابة تروي لنا التَّـاريخ السِّيـاسي والعسكري ، والحيـاة الاجتماعيَّـة والفكريَّـة والاقتصاديَّة والدِّينيَّة .. وهذا ما كان بعد اكتشاف مكتبة إيبلا[٢٢] .

---

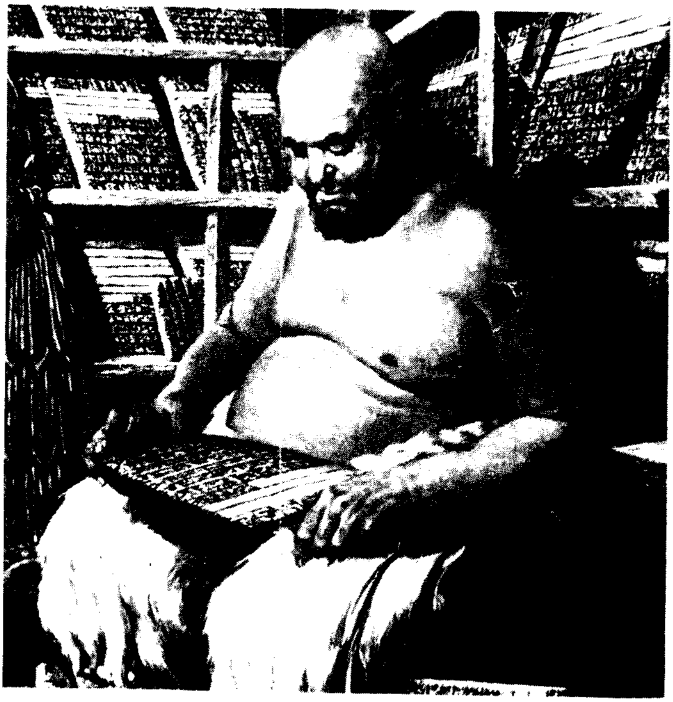
(٢٠) بهجة المعرفة ، المجموعة الثَّانية : ٣٢/٣

(٢١) العاديات هنا : المكتشفات الأثريَّة .

(٢٢) تقع إيبلا جنوبي حلب ، قامت في الألف الثَّالث قبل الميلاد ، ودور العظمـة من ٢٤٠٠ ـ ٢١٠٠ ق.م ، قضى عليها الحثيُّون عام ١٦١٠ ق.م .

ومع هـذا كلّه ، يستفيـد التّـاريـخ اليـوم من كشـوف الانتروبـولـوجيـا ، وعلم الاجتماع ، واللّغويات وعلوم الاقتصاد والإحصاء والتّقاليد والطّب وغيرهـا من العلوم ، « إنَّ ألتّاريخ يحاول بـذلـك كلّـه أن يحتضن الإنسـان بكلّ أبعـاده ، شريطـة أن يعرف المؤرّخ كيف يستنطق تلك الوسائل ، وهذه العلوم »(٢٣) .

☆ ☆ ☆



* براعـة أهـل إيبـلا بكتـابـة الرُّقُم وتنظيمها وحفظها .

(٢٣) بهجة المعرفة ، المجموعة الثّانية : ٣٢/٣

نشأة الحضارات وأُفولها

الحضارة متواصلة العطاء ، وقيمة كلّ أُمَّة في ميزان بناء الحضارة يساوي ماقدّمته مطروحاً منه ماأخذته .

إنَّ مصباح الحضارة ونتائجها ، نقلت من يد إلى يد ، حتى عشنا حضارة الذَّرَّة والإلكترون ، الصَّاروخ عابر القارات ، والحاسوب (الكمبيوتر) ، والرَّابوط (الإنسان الآلي) ..

إنَّ قيام حضارة جديدة في مكان ما ، كان يعني زوال أُخرى من مكان آخر ، فالحضارة بساط نسجته وتنسجه أيدي أُمم كثيرة ، واليوم لا تزول حضارة بقيام أُخرى ، والسَّبب سهولة المواصلات ، وتقدُّم وسائل الاتِّصال ، فالعالم أضحى (غرفة واحدة) محدودة الجوانب ، صغيرة الحجم ، واضحة المعالم ، فالإنسان يرى - أو يعلم سمعاً - ما يجري في الطَّرف الآخر من الكرة الأرضيَّة ، في الثَّانية ذاتها ، عند وقوع الحدث .

وأرجع العلاَّمة عبد الرَّحمن بن خلدون[١] أسباب أُفول حضارة ، وبالتَّالي قيام أُخرى في مكان آخر ، إلى عوامل ، منها :

١ - عوامل مادِّيَّة : كاتِّساع رقعة المُلْك ، وعدم خضوع الأطراف النَّائية للسُّلطة المركزيَّة .

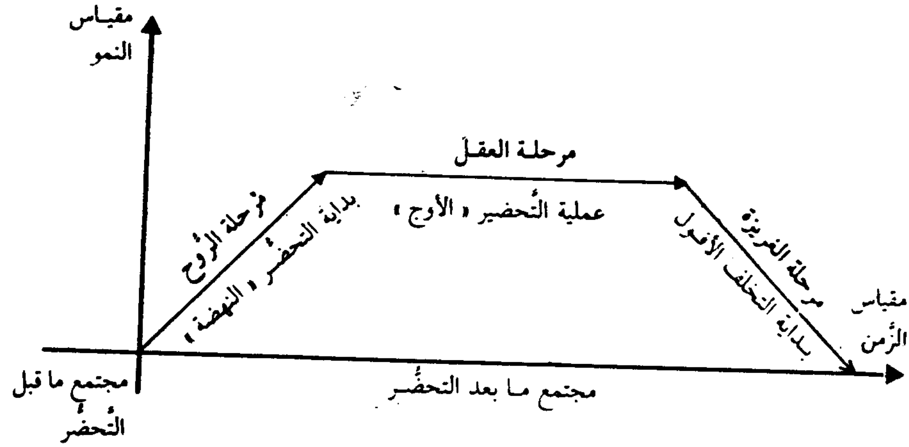
---

(١) انظر (مقدّمة ابن خلدون) ، ص ١٧٠ وما بعدها ، طبعة دار البيان ، انظر الشَّكل : مجتمع ما قبل التَّحضُّر ، ومجتمع ما بعد التَّحضُّر حيث : مرحلة الرُّوح (النَّهضة) ، مرحلة العقل (الأوج) ، مرحلة الغريزة (الأُفول) .

٢ ـ عوامل اقتصاديَّة : ويعني بها حالة التَّرف والدَّعة بعد فترة الاستقرار .
٣ ـ عوامل اجتماعيَّـة : فـالمجتمـع خـاضـع للتَّطـوُّر المحتـوم ، وللـدُّول أعمـار كأعمار الأفراد .

وتمرُّ الحضارة في خمسة أطوار :

١ ـ الفتح والاستيلاء واكتساب المجد .
٢ ـ طور استبداد صاحب الدَّولة على قومه ، وكبح جماحهم عن التَّطاول .
٣ ـ طور الفراغ والدَّعة ، فيميل صاحب الـدَّولـة إلى تحصيل المـال ، وتخليـد ذكره بالآثار ، مع تمجيد شخصه .
٤ ـ طور القنوع والمسالمة ، يقنع الحاكم بما بنـاه أسلافـه ، ويسـالم غيره من الحكَّـام وأصحاب السُّلطات .
٥ ـ طور الإسراف والتَّبـذير ، حيث يصبـح صـاحب الـدَّولـة ـ وبطـانتـه ـ أسير الملذَّات والشَّهوات ، فتصبح الدَّولة في حالة هَرَم ، وتسير بخطوات سريعة إلى الأُفول .



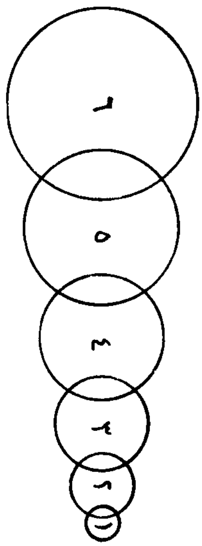
الحضارة : النَّهضة ، الأوج ، الأُفول ، عن [شروط النَّهضة] .

والحضارة مع ذلك في نمو مستمر ، فهي متواصلة العطاء ، وقيمة أُمّة في ميزان بناء الحضارة يساوي ماقدّمته ، مطروحاً منه ماأخذته تطبيقاً للقاعدة :

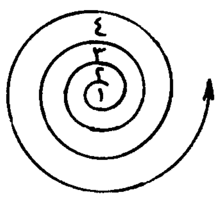
قيمة كلّ أُمّة في ميزان بناء الحضارة يساوي ماأعطت وقدّمت ، مطروحاً منه ماأخذت واقتبست .

قيمة أُمّة ما = ماأعطت وقدّمت – ماأخذت واقتبست

ولقد وضع العلماء لنمو الحضارة أشكالاً ، الشّكل اللّولبي ، وشكل الدّوائر المقفلة :



نمو الحضارات على شكل دوائر مقفلة ، ولكنّها مترابطة ترابطا يمثّل مدى صِلَة كلّ حضارة بسابقاتها .



نظريّة فيكو :

رسم يمثّل نشأة الحضارات على شكل لولبي ، أو حلزوني .

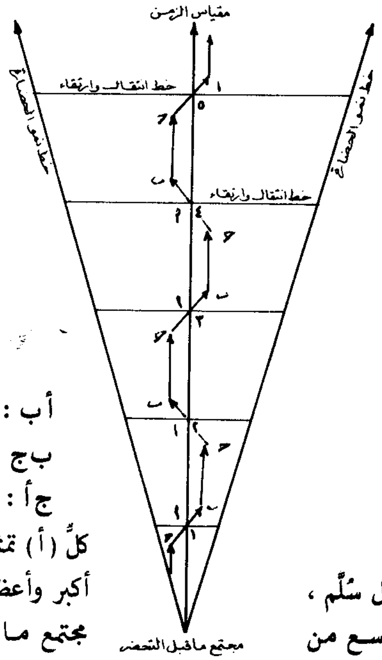
عن (الصّراع الحضاري) ، شايف عكاشة ، ص ٩٥

ونقدِّم شكل (السُّلَّم) ، الَّذي يمثِّل :

١ ـ نمو الحضارة المتواصل .

٢ ـ أطوار الحضارة : بداية النَّهضة ، الَّتي هي نهاية أُفول الحضارة السَّابقة ، ثمَّ الأوج ، ومن ثَمَّ الأُفول الَّذي يعني بداية نهضة حضاريَّة جديدة في مكان آخر من
٥ العالم .

في مرحلة الانتقال من حضارة إلى أُخرى ، الحضارة السَّابقة موجودة ، ولكنَّها تنتقل عبر قنوات إلى أُمَّة وبقعة أُخرى ، حيث تبدأ بالنُّمو ، وهكذا تسرُّب ١ إلى ٢ بدأ معه نمو ٢ ، وتسرُّب ٢ إلى ٣ بدأ معه نمو ٣ ، وهكذا ..



أ ب : يمثِّل مرحلة الرُّوح « النَّهضة » .
ب ج : يمثِّل مرحلة العقل « الأوج » .
ج أ : يمثِّل مرحلة الغريزة « الأُفول » .

كلُّ (أ) تمثِّل أُفول حضارة وقيام حضارة أكبر وأعظم من سابقتها ، وهي تمثِّل نهاية مجتمع ما بعد التَّحضُّر للحضارة السَّابقة ، وهي نقطة ما قبل التَّحضُّر للحضارة الجديدة ..

مجتمع ماقبل التَّحضُّر
نموُّ الحضارات على شكل سُلَّم ، كلُّ درجة فيه أكبر وأوسع من الدَّرجة السَّابقة ، تأخذ ماسبق وتضيف وتبدع .. وهكذا .

مهد الحضارة :

ومن حقّ المرء أن يتساءل : أين كان مهد الحضارة الأُولى ؟

هل هي المناطق القاحلة في آسيـة الوسطى ، الّتي كانت في يوم من أيّـام التّـاريخ السّحيقة في القِدَم ، تتمتّع بِمُناخ معتدل مطير ، حيث عثر في (أناو) جنوبي التركستان على خزف وآثار تدلّ على حضـارة أُرجِعَت إلى ٥٠٠٠ ق.م ؟ ولّـا جفّت المنطقـة شيئـاً فشيئاً وأقفرت ، اندفع أهلها عبر ثلاث قنوات :

- شرقـــاً : إلى منشـــوريـــة ، والصّين ، وأمريكـــة الشّماليّـــة عبر مضيـق (بيرنج[٢] Biring) .

- وجنوباً : إلى شمالي الهند ، حيث عثر السِّير (جون مارشال) عام ١٩٢٤ م ، على الضّفّة الغربيّة من حوض نهر السِّند الأعلى - موقع : موهنجو - دارو - على مدينة بالغـة الرُّقي ، قامت خلال الألف الرّابعة والثّالثة قبل الميلاد .

- وغربـاً : إلى عيلام ، حيث عثر في عـاصمتهـا سـوزا (السُّـوس ، شـوشـان) على حضـارة راقيـة ، يرجـع عهـدهـا إلى عـام ٤٥٠٠ ق.م ، حيث الـزِّراعـة ، واستئنــاس الحيوان ، وعرفوا كتابة مقدّسة ، ووثائق تجاريّة ، سجّلت حركـة تجـارتهم الّتي امتـدت من الهند إلى مصر ، كما عُثِر فيها على عَجَلَة الخزّاف ، وعجلات المركبـات ، ومزهريّـات رشيقة[٣] .. وتشبه آثار سوزا آثـار (أنـاو) ، ممّـا جعل المؤرِّخين يفترضون أنّـه قـد كان بينهما صلات حوالي ٤٠٠٠ ق.م[٤] .

---

(٢) الواقع بين آسية وأمريكة ، بين أقصى شرقي سيبرية ، وآلاسكا .

(٣) قصّة الحضارة : ١٨٧/١ - ١٨٨

(٤) استولى آشور بانيبال على سوزا ونهبها سنة ٦٤٦ ق.م .

وهناك شبه كهذا في الفنون والمنتجات القديمة بين بلاد ما بين النَّهرين ومصر ، يوحي بوجود علاقة كبيرة بينهما ، وارتباط يدلُّ على اتِّصال مجرى الحضارة(٥) .

ويرجِّح آخرون من علماء الآثار والتَّاريخ ـ مع تزايُد المعرفة ـ أن دلتا الفرات ودِجْلة شهدت أوَّل مشاهد المسرحيَّة التَّاريخيَّة للحضارة الإنسانيَّة ، وقرَّر آخرون : أنَّ مراحل الحضارة القديمة نشأت في شرقي البحر المتوسط ، في كلٍّ من مصر والرَّافدين(٦) .

ويمكننا القول لنقترب من الحقيقة أكثر : كانت دلتاوات الأنهار الكبرى في بلاد الرَّافدين ، ومصر ، والهند ، والصِّين .. مهد الحضارة ، علماً أنَّ فريقاً من علماء الحفريات والأجناس الأمريكيِّين والفرنسيِّين العاملين في إثيوبية توصَّلوا إلى اكتشاف بقايا إنسان (هيكل عظمي) ، يرجع تاريخها حسب تقديرهم وفقاً لنشاط (الكربون ١٤ المشع) إلى أكثر من خمسة ملايين سنة(٧) .

☆ ☆ ☆

التَّقدُّم الإنساني نحو الْحَضَارة :

انقرضت تدريجيّاً الحيوانات الثَّدييَّة الضَّخمة ، على الرغم من قُوَّتها العظيمة ، ولم تستطع مقاومة القوى الطَّبيعيَّة الَّتي استطاع الإنسان (بعقله) أن يتغلَّب عليها ، وأن يدافع عن بقائه بين المخلوقات المتنافسة على البقاء ، وقد ازدادت مقدرته (وخبرته) إلى حدٍّ كبير عندما أصبح أوَّل المخلوقات ـ بل الوحيد من بينها ـ الَّذي تمكَّن من صنع الأدوات ، الَّتي كان من أوَّلها تحسين شكل الحصاة الَّتي التقطها ، وجعلها أكثر ملاءمة

(٥) قصَّة الحضارة : ١٨٨/١

(٦) المرجع السَّابق : ١٨٨/١ أيضاً .

(٧) (البعث) العدد ٣٥٧٣ ، ١٩٨٤/١٠/٢٨ ، و(الثَّورة) العدد ٣٥٨٩ ، ١٩٧٤/١٠/٣١ م .

للغرض الَّذي أراد أن يستعملها فيه ، حتَّى غدت قطعة الحجر هذه ، رمزاً متميِّزاً للعصر الحجري ، الَّذي كان قبل مئتي ألف سنة مضت .

وتقدَّمت خبرة الإنسان في صناعة الأدوات والآلات ، الَّتي كان لها أعمق الأثر في ارتقائه ، بعد تجربة بطيئة ، ومجهود طويل .

وهكذا .. كان العمل أوَّل عامل من عوامل الحضارة : صناعة ، ثمَّ زراعة ، أي استقرار وأُسرة وقبيلة ، ثمَّ نقل وتجارة وتبادل سِلَع .

كما نشأ نوع من تنظيم للحياة والمجتمع ، فقامت سلطة (حكومة) ، لحماية الإنسان من الكوارث أو الأخطار الَّتي تحيط به(٨) .

تلا هذه الخطوة ظهور أعراف ، وقوانين ، وشرائع .. نظَّمت ما يجيش في الإنسان من شهوات ، وأخضعتها للطَّريق السَّوي ، فبغير (القانون) تنحلُّ الجماعة أفراداً ، وتسقط فريسة لمجتمع (أو لدولة ، أو لسلطة) أُخرى ، يكون فيها التَّماسك الاجتماعي أمتن وأقوى ، « ويندر أن يأتي الموت إلى المدينة من خارجها ، بل لا بُدَّ للانحلال الدَّاخلي أن يَفُتَّ في نسيج المجتمع أوَّلاً ، قبل أن يتاح للمؤامرات ، أو الهجمات الخارجيَّة أن تغيِّر جوهر بنائها ، أو أن تقضي عليها قضاءً أخيراً »(٩) .

وفي ظلِّ هذه الدُّول والمجتمعات المستقرَّة ، ظهرت الأديان ، وتوحَّدت العبادات في كلٍّ منها ، وأكثرها متشابه تمام التَّشابه ، وإن اختلفت في بعض الجزئيَّات ، ونحن نرى أنَّ الأديان كانت في أوَّل أمرها نواميس سَنَّها الله عزَّ وجلَّ للإنسان بوساطة أنبيائه : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، [فاطر ٣٥/٢٤] ، كي يعيش الإنسان بطمأنينة وحرِّيَّة وهناء ، ومن المعلوم أن العقائد الوثنيَّة عرفت في كلِّ المجتمعات القديمة ، ولعلَّ السَّبب في ذلك هو أنَّه عندما يأتي النَّبي يتبعه قومه ، وبعد وفاته يُدخل النَّاس إلى

---

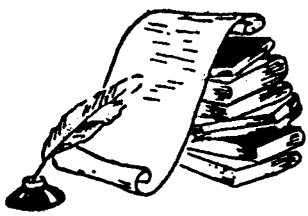
(٨) كالفيضانات ، والزَّلازل ، والغزو .

(٩) قصَّة الحضارة : ١٦٥/٥

تعاليمه بعضَ العقائد الوثنيَّة ، الَّتي كانت قبل مجيئه ، وقد يقتبسون من بعض الدِّيانات الوثنيَّة الأُخرى أشياء وتعاليم ، يحشرونها في دينهم(١٠) ، لذلك لا تخلو عقائدهم من لمحات صحيحة وفِكَر سليمة .

لقد عثر العلماء على مخلَّفات هذه الحياة البدائيَّة في كثير من أرجاء آسية ، وإفريقية ، وأُوربة(١١) ، ولا يعرف أحد في أيِّ مكان تمَّت جميع المراحل الَّتي ساعدت على تكوين (حضارة) ، هذه العمليَّة الَّتي لم تكن متساوية ، أو على مستوى واحد في أمكنة مختلفة في العالم ، فمثلاً : استطاع كلٌّ من سكَّان مصر ، وبلاد الرَّافدين ، من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربي أُوربة أيَّ طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة .

وكانت لمصر وبلاد الرَّافدين صلة تجاريَّة بغيرهم من الأُمم بوساطة السُّفن ، في الوقت الَّذي كان فيه الأُوربيون ما زالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر ، ولم يعرفوا أيَّة وسيلة من وسائل الملاحة غير الزَّورق المنحوت من جذع شجرة .



---

(١٠) يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ، [البقرة : ٢/٥١] .

(١١) سكَّان تسمانية Tasmania (جنوبي أُسترالية) عند اكتشافها منذ ثلاث مئة سنة ، كانوا يعيشون عراة الأجسام ، ولم يكونوا قد تعلَّموا بعد كيف يصنعون قوساً أو سهاماً .. ولم يسمعوا في حياتهم شيئاً عن بذر الْحَب أو زرعه ، ولم يعرفوا أنَّ الطِّين يصبح صلباً إذا وُضِعَ في النَّار .

الحضاراتُ القديمة

الهند، الصيِّن، اليابان، إيران، اليونان، الهلنستيَّة، الرُّومانيَّة، تشاتال هويوك، أمريكا الوسطى والجنوبيَّة، إفريقية، حضارة الوطن العربي.

« إذا درسنا الشَّرق الأدنى، وعظَّمنا شأنه، فإنَّا بذلك نعترف بما علينا من دَين لمن شادوا بحق صرح المدنيَّة الأوربيَّة والأمريكيَّة، وهو دَين كان يجب أن يُؤدَّى من زمن بعيد ».

[وُل ديورانت]

الحَضَاراتُ في العَالم

حضارة الهند

قامت حضارة الهند القديمة على ضفاف أنهارها ودلتاتها ، كوادي السِّند وروافده ، حيث مقاطعة البَنْجاب ، وعلى ضفاف نهر الغانج وروافده ، وعلى ضفاف نهر كرشنا في الدَّكَن ، وأقدم حضارة عرفتها الهند قبل قدوم الآريِّين ، كانت على الضِّفَّة الغربيَّة من وادي السِّند ، والَّتي اكتشفها السِّير جون مارشال سنة ١٩٢٤ م[١] ، وترجع إلى الألف الرَّابعة ، والألف الثَّالثة قبل الميلاد ، حيث الآبار ، والحَّمامات ، والنِّظام الدَّقيق للصَّرف في كثير من المنازل ، كالَّتي كانت في سومر وبابل ومصر ، مع نموذج نحاسي لعربة ذات عَجَلَتَيْن ، « وهي أقدم ما لدينا من أمثلة للعربة ذات العجلات »[٢] .

هل استمدَّت هذه الحضارة أُصولها من سومر ؟

أو استمدَّت سومر أُصولها منها ؟

أو الاثنتان جاءتا معاً من أصل مشترك ؟

لا إجابة[٣] ، ولكن الثَّابت أنَّ هذه الحضارة كانت على اتِّصال مع سومر وبابل .

كما قامت في (هرابا Harappa) حضارة[٤] ترجع إلى نحو ٢٥٠٠ ق.م .

لقد سكن الهند قبل هجرة الآريِّين إليها (الدَّرافيديون Dravidions) ، وهم شعب دخلها قبل فجر التَّاريخ ، لا يُعرفُ أصله ، ثمَّ جاء الآريُّون من الشَّمال ، والشَّمال

---

(١) في موقع موهنجو ـ دارو Mohenjodoro .

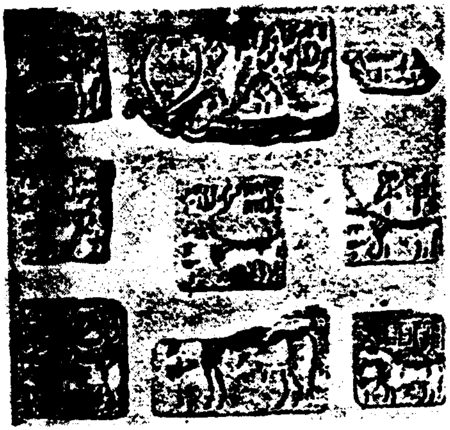
(٢) قصَّة الحضارة : ١٦/٣

(٣) قصَّة الحضارة : ١٧/٣

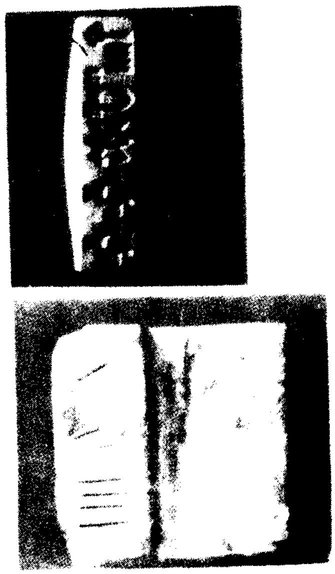
(٤) في البَنْجاب .



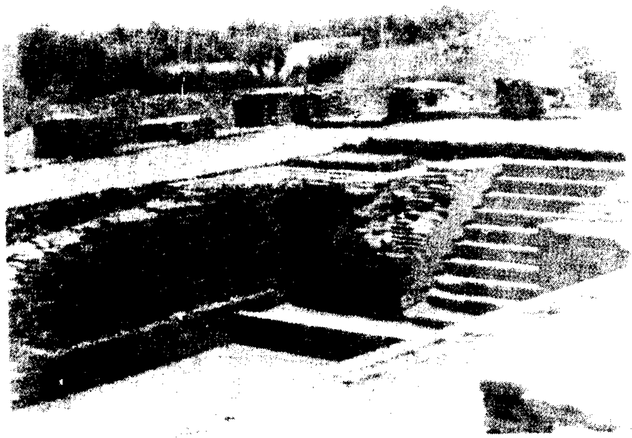
*أحد ملوك موهنجو - دارو



*أختام مع كتابات (موهنجو - دارو)



أختام مع كتابات قديمة

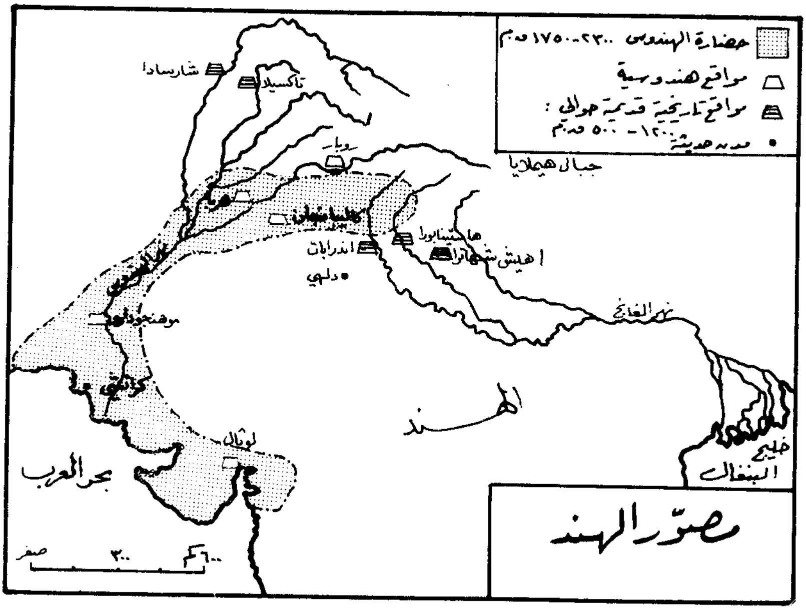


*الحمام الكبير (موهنجو - دارو)

الغربي ، بين عامي ٢٠٠٠ و ١٥٠٠ ق.م ، واحتلُّوا سهل الغانج ، وأرجح النَّظريَّات أنَّ موطنهم الأصلي أواسط آسية شمالي بحر قزوين ، منهم مَنْ هاجر جنوباً ، ومنهم من دخل أُوربة ، فهم شعوب هندو ـ أُوربيَّة(٥) .

حضارة الهند القديمة في عصر الفيدا : [٢٠٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م] :

أقدم عصور حضارة للآريِّين(٦) في الهند ، هي عصر الفيدا Vida ، والفيدا مجموعة أُغنيات استُقيت منها المعلومات عن الهنود الآريِّين ، وهي أقدم أثر أدبي في أيِّ لغة هنديَّة ـ أُوربيَّة في الشَّرق والغرب .



(٥) لتاريخ الحضارات القديمة ، انظر للتوسُّع : تاريخ الحضارة : وُل ديورانت ، المدخل لتاريخ الحضارة : د . جورج حدَّاد ، تاريخ الحضارات العام : جانين بواييه ، بهجة المعرفة ، تاريخ العالم : السِّير جون ا . هامرتن ، معالم تاريخ الإنسانيَّة : ويلز ، روما والشَّرق الرُّوماني ، وتاريخ اليونان : د . سليم عادل عبد الحق ، الحضارات السَّاميَّة القديمة : ستبينوموسكاتي ، تاريخ الشَّرق الأدنى القديم : د . أنطوان مونكارت ، الشَّرق الأدنى القديم : عبد العزيز عثمان ، حضارة الهند : غوستاف لوبون .

(٦) آريا بالسنسكريتيَّة : الشَّريف ، ويرى بعضهم أن معناها الفلاَّح .

والفيدا تعني المعرفة ، وهي المعرفة لكسب رضا الخالق ، بقي من الفيدا أربعة أسفار :

الريغفيدا : أو فيدا الأناشيد .

والسّامافيدا : وهو فيدا النّغمات والتّراتيل عند شرب شراب السُّوما .

والياجورفيدا : وهو فيدا القرابين .

وأتارفافيدا : وهو فيدا الرُّقى السّحريّة .

ويعتقد الهنود أنّ الإله الأعظم (براهما) كتبها بيده ، ويقولون أقدمها يعود إلى ٦٠٠٠ ق.م ، جاء في الريغفيدا ترنيمة الْخَلْق ، منها :

« لم يكن في الوجود موجود ولا عدم ، فتلك السّماء الوضّاءة
لم تكن هناك ، كلاّ ، ولا كانت بُرْدة السّماء منشورة في الأعالي
فماذا كان لكلّ شيءٍ غطاء ؟
ماذا كان موئلاً ؟
ماذا كان مخبّأً ؟
أكانت هي المياه بهوّتها الّتي ليس لها قرار ؟
ولم يكن ثمّة موت ، ومع ذلك فلم يكن هناك ما يوصف بالخلود
ولم يكن فاصل بين النّهار واللّيل
و (الواحد الأحد) لم يكن هناك سواه
ولم يوجد سواه منذ ذلك الحيّز حتّى اليوم ..»(٧) .

يستنتج من الفيدا ، أنّ الهنود كانوا يعيشون في هذه الفترة على الزّراعة ، ورعي المواشي ، ولهم إله خاص للأرض المحروثة ، ويستخدمون البقرة دون أن ينزلوها من أنفسهم منزلة التّقديس .

---

(٧) قصّة الحضارة : ٤١/٣

وأهم أُسس الحياة الاجتماعيَّة في الهند نظام الطَّبقات ، لقد انقسم المجتمع الهندي إلى خمس طبقات :

١ ـ الكهنة ، أو البراهمة[٨] ، الَّذين شكَّلوا طبقة ممتازة ، سيطرت على الحياة الفكريَّة والرُّوحيَّة في الهند ، سيطرة هدَّدت كلَّ تفكير ، وكلَّ تغيير بالمقاومة المميتة ، ويعتقدون أنَّهم خُلِقوا من رأس براهما ، أو من فمه ، ويأتي بعدهم في المنزلة :

٢ ـ المحاربون ، الَّذين خُلِقُوا من كَتِفَيْ براهما ويديه . ثمَّ :

٣ ـ المزارعون والتُّجَّار وأصحاب الحِرَف ، الَّذين خُلِقُوا من فخذَيْ براهما ، ثمَّ يليهم :

٤ ـ الْخَدَم ، الَّذين خُلِقُوا من قدمي براهما ، وهم من نسل السُّكَّان الأصليِّين ، ثمَّ :

٥ ـ المنبوذون ، ولا ينتسبون إلى طبقة معيَّنة ، وهم نحو أربعين درجة ، لهم نوع خاص من اللِّباس .

ولا يمكن التَّقدُّم من طبقة إلى أُخرى ، كما أنَّه لا يمكن التَّزاوج بين طبقتين إلاَّ بين الأُولى والثَّانية ، والقانون هو العُرْف ، ويستشير فيه الملك أحد علماء الدِّين .

أمَّا الدِّيانة ، فقد وجد الآريُّون في الهند ديانة ، هي عبادة روحانيَّة طوطميَّة لأرواح كثيرة ، تسكن الصُّخور والحيوان والأشجار ومجاري المياه ، والجبال ، والنُّجوم .. وللدِّيانة الفيديَّة مذابح قرابين ، وليس لها معابد أو أصنام .

وأمَّا ديانة الآريِّين ، فإنها كسائر ديانات الهندو ـ أُوربيَّة ، قائمة على عبادة قوى الطَّبيعة ، كالسَّماء ، والشَّمس ، والقمر ، والأرض ، والهواء ، والعاصفة .. فآغني Agni

(٨) براهمان تعني روح العالَم غير المشخَّصة ، ويجب تمييزها عن لفظة براهما الَّذي هو أكثر منها تشخُّصاً .

إله النَّار الَّذي يمثِّل الشَّمس في السَّماء ، والنَّار المقدَّسة في الأرض ، ولما كَثُر عدد الآلهـة ، نشأت مشكلة هي : أيُّ هؤلاء خَلَق العالم ؟

وتحتوي الفيـدا على أفكار وتعـاليم نبيلـة تتعلَّق بـالاستقـامـة والنَّقـاوة ، ولمـا كان وصول الآريِّين إلى الهند عن طريق آسية الصُّغرى ، وهضبة إيران ، فلا بـدَّ أنَّهم تـأثَّروا بحضارة البلاد الَّتي مرُّوا فيها ، ومنها بلاد ما بين النَّهرين .

حضارة عصر البطولة والدِّيانة البراهميَّة : [١٠٠٠ ـ ٥٠٠ ق.م] :

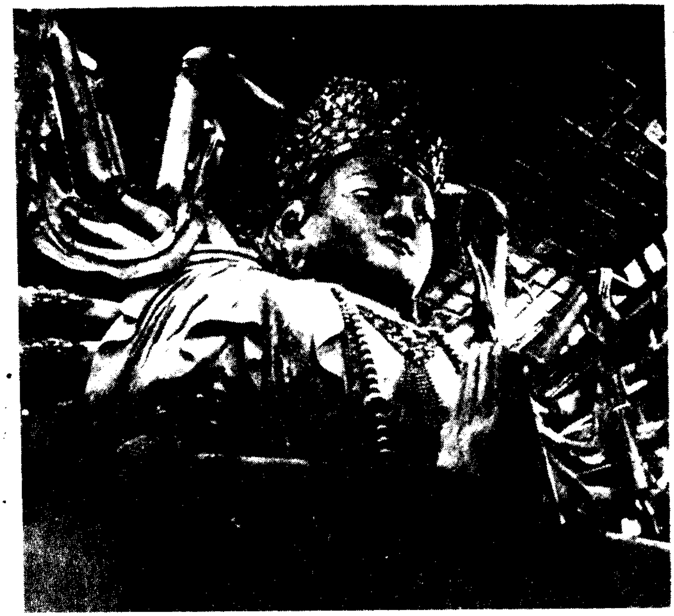
مصدر المعلومات عن هذه الفترة ملحمتان تسمَّيان : المهابهراتـا Mahabharata ، أو قصَّة أُسرة بهراتا(٩) ، والرَّامايـانـا Ramayana ، أو تـاريخ رامـا ، وظهر في هـذا العصر ثـالوث مقـدَّس ، مؤلَّف من براهمـا الخـالق ، وشيوا Sheva الْمُهْلِـك ، وفشنـو Vishnu الحافظ ، والهندوسيُّون اليوم يتَّبعون إمَّـا شيوا أو فشنو(١٠) ، والتَّعليم في هـذا العصر كان في طبقة الكهنة أو البراهمة ، وكان شفهياً حتَّى لا تصل المعرفـة إذا كُتِبَت إلى الطَّبقـات الدُّنيا .

وظهرت في هذه الفترة عقيدة التقمُّص ، بمعنى أنَّ الرُّوح تولد مرَّات متعاقبة .

وحصل ردٌّ فعل ضـد البراهمـة ، لأنَّ الكهنـة أصبحوا أقو يـاء ، وتعقَّـدت الطُّقوس كثيراً ، فقـامت ثـورة ضـدَّ الكهنـة البراهميِّين ، وظهرت (الجـاينيَّـة) ، ومـؤسِّسهـا مهـافيرا Mahavira : [٥٥٠ ـ ٤٧٧ ق.م] ، الَّـذي كان أميراً وترك الإمـارة ، وراح يعذِّب نفسه اثنتي عشرة سنة ، حتَّى جاءه الهدى دون مساعدة الكهنة ، ومن هنا جـاء لقب الجينا Jina أي الغالب ، وأسَّس رهبنة كان فيها ١٤٠٠٠ من أتباعه عندمـا توفِّي ،

(٩) وهي أطول ملحمة شعريَّة في العالم ، إنَّها مئة ألف بيت .

(١٠) ولعلَّ السِّياسة الحكية في هذه الفترة ، هي الَّتي رسمت تقديس البقرة عند الهندوس ، احتفاظاً للزِّراعـة بحيوان الجرّ ، حتَّى يسدَّ حاجة السُّكَّان الَّذين يتكاثرون بنسبة كبيرة ، حتَّى بلغ عـدد البقر اليوم ربع عدد السُّكَّان ، [قصَّة الحضارة : ٢٠٨/٣] .



*** أكبر تمثـــال لبــوذا في الصِّين (معبــد بونينغ) ، ارتفاعه ٢٢ متراً .**

والطَّريق المؤدِّيَة إلى الخلاص في رأي الجانتيِّين ، هي توبة تقشُّفيَّة ، وامتناع عن إيـذاء أي كائن حيّ .

كما ظهرت ـ ضمن ردِّ الفعل ضدَّ البراهمة ـ البوذيَّةُ ، ومؤسِّسها غوماتـاسيـدهـانـا : [٥٦٤ ـ ٤٨٣ ق.م] ، الَّذي دُعِي بوذا ، أي المستنير ، أو الَّذي اهتـدى ، وكان ابن أمير منطقة على حدود نيبال[11] ، فتنكَّر لسلطـة الفيـدا ، والكهنـة البراهمـة ، وقرَّر قواعـد خلقيَّة خمساً ، وهي بمثابة الوصايا :

١ ـ لا يقتلن أحد كائناً حيّاً .

٢ ـ لا يأخذن أحد مالم يُعْطَه .

٣ ـ لا يقولن أحد كذباً .

٤ ـ لا يشربن أحد مسكراً .

٥ ـ لا يقيمن أحد على دنس .

---

(١١) نيبال اليوم شمالي الهند ، جنوبي التِّيبت ، على سفوح جبال هيمالايا الجنوبيَّة ، عاصمتها : كاتامندو .

وممَّا يميِّز الجاينيَّة والبوذيَّة ، أنَّهما تكلَّمتا بلغة الشَّعب (Prokrit) ، وليس بالسَّنسكريتيَّة[١٢] لغة الكُهَّان[١٣] ، ودخل في العقيدتين جماعة من مختلف الطَّبقات ، ومن الجنسَيْن ، وتدخل (الكارما) عنصراً هاماً في تعاليم الطَّرفين ، وهي قضيَّة الإرادة ، فإذا عاش الإنسان وفكَّر بصورة صحيحة ، يتخلَّص من (الكارما) ، ويصل إلى ما يُسَمَّى بالنِّيرفانا Nirvana ، بمعنى أنَّه لا يعود يولد مرَّة ثانية[١٤] ، وللوصول إلى ذلك يكون باتِّباع خطَّة النَّقاوة والصَّفاء في الفكر والقول والعمل ، وتجنُّب القتل والسَّرقة والزِّنى ، والابتعاد عن الكذب والطَّمع واللَّذَّات والرَّغبات .

ويهتمُّ الطرفان بالسُّلوك القويم ، وبالمعرفة الصَّحيحة ، وينظران إلى العالم على أنَّه شرٌّ ، ويميلان إلى الرَّهبنة ، والجاينيَّة تشجِّع التَّقشُّف الكئيب ، والزُّهد الجادَّ المتشائم ، وإماتة النَّفس تماماً ، بينما البوذيَّة أكثر اعتدالاً ، وبقيت الجاينيَّة في الهند ، بينما انتشرت البوذيَّة في بلاد الشَّرق الأقصى ، وعُدَّ مؤسِّسا هاتين الفكرتَيْن كائنَيْن إلهَيَّيْن بعد مدَّة من وفاتها .

وَيُعَدُّ آزوكا[١٥] Asoka : [٢٧٣ ـ ٢٣٢ ق.م] ناشر البوذيَّة ، حيث أرسل بعثات التَّبشير إلى التِّيبت والصِّين ومنغولية واليابان وسيلان وبورمة وسيام .. وبجهوده أصبحت تلك البلاد بوذيَّة .

وممَّا يذكر أنَّه في القرن التَّاسع ظهرت حضارة الرَّاجبوت[١٦] Rajput ، أي أبناء

---

(١٢) سنسكريتي تعني : المُعَدَّة ، الخالصة ، الكاملة ، المقدَّسة .

(١٣) اقتبس الهنود من آسية الغربيَّة كتابة شبيهة بالكتابة الفينيقيَّة ، أُطلق فيما بعد عليها اسم الكتابة البراهيَّة ، ومنها اشتُقَّت كلُّ أحرف الهجاء في الهند .

(١٤) حسب عقيدة التَّقَمُّص .

(١٥) وهو أشهر ملوك سلالة الموريا ، الَّتي حكمت شرقي وادي نهر الغانج : [٣٢٥ ـ ١٨٥ ق.م] .

(١٦) من ٩٤٠ ـ إلى ١٠٢٠ م .

الملوك ، الَّتي انتهت بـالفتح الإسلامي لـوادي السِّنـد ، وحـوض الغـانـج الأوسـط أيَّـام السُّلطان محمود بن سُبُكْتِكين (Subuktigin) الغزنوي[١٧] .

عُلُوم الهند القديمة :

عرفت الهنـدُ الطِّبَّ والرِّيـاضيَّـات ، وازدهر الفلـك بين القرنين الثَّـالث والرَّابـع الميلاديين ، وتأثَّر بمدرسة الاسكندريَّة ، وتحوي كتب السِّـدهـانتـا الهنـديَّـة أهمَّ عنـاصر الفلك الهنـدي ، وسـدهـانتـا Siddhanta تعني النَّتيجـة الثَّـابتـة ، وعرفـه العرب بـاسم (السِّند هند) ، وهو فلك متأثِّر بالفلك البابلي .

ويقول سارتون Sarton : ابتكر الهنود ـ على الأغلب ـ الأرقام التِّسعـة ، والنِّظـام العُشْري .

وللهنـود فضـل على المثلَّثـات ، فهم الَّـذين استعملـوا نصف الـوتر ، وحصلـوا على جدول من الجيوب ، فكلمة جيا Jya أو Jiva السَّنسكريتيَّة أصبحت في العربيَّة جيب .

وازدهرت الفلسفـة في الحضـارة الهنـديَّـة ، وآلت الفلسفـة البرهميَّـة إلى ستَّـة من المذاهب الرَّئيسيَّة المعترفة بأصول الفيدات ، وكلُّهـا مؤمنـة بـأن الفيـدات قـد هبـط بهـا الوحي ، وأنَّ الغايـة من المعرفـة ومن الفلسفـة ، ليست هي السَّيطرة على العـالم بقـدر مـا هي طرق الخلاص منـه ؟ وأنَّ هـدف الفكر هو التماس الحرِّيَّـة من الألم ، المصـاحب لخيبة الشَّهوات في أن تجد إشباعها ، وذلك التَّحرُّر من الشَّهوات نفسها .

يذكر وُل ديورانت[١٨] أنَّ الكهنة في الهنـد ، استطـاعوا في قيـاس مـذابح القرابين وبنائها ، أن يصوغوا النَّظريَّة الفيثاغورسيَّة الَّتي مؤدَّاها أنَّ المربَّع المنشأ على وتر المثلث القـائم الزَّاويـة ، يسـاوي مجموع المربَّعَيْن المنشـأين على الضِّلعَيْن الآخرَيْن ، قبل ميـلاد

---

(١٧) الَّذي عاش في بلاطه في غزنة الشَّاعر الفردوسي [٩٤٠ ـ ١٠٢٠ م] صاحب الشَّاهنامة (كتاب الملوك) ، والعالم الموسوعي أبو الرَّيحان البيروني [٩٧٣ ـ ١٠٤٨ م] صاحب الآثار الباقية عن القرون الخالية .

(١٨) قصَّة الحضارة : ٢٣٨/٣

المسيح ببضع مئات من السِّنين ، وكذلك استطاع (أريابهاتا) وقد يكون متأثِّراً باليونان في ذلك ، أن يحسب مساحة المثلَّث ، والمعيَّن ، والدَّائرة .

وهذا منهج كثير من علماء الغرب ومؤرِّخيه ، بجعل اليونان معجزة الحضارات القديمة ، وهذا خطأ جسيم . إنَّ الحضارة اليونانيَّة اقتبست الكثير من حضارات الشَّرق : المصريَّة ، والبابليَّة ، والفينيقيَّة .. كما سنوضِّح على صفحات قادمة .

☆ ☆ ☆

حَضَارة الصِّين

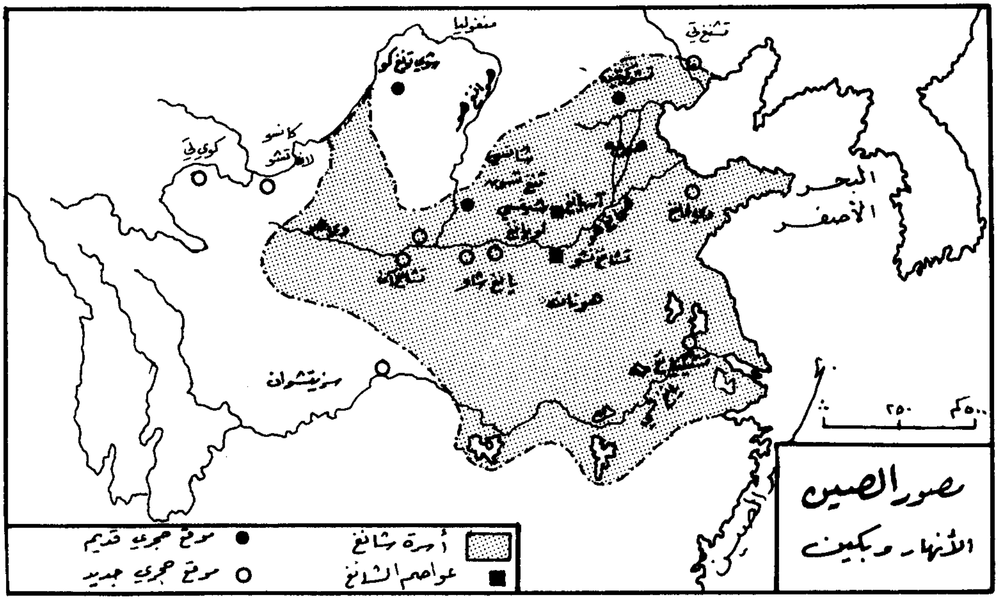
في وديان الأنهار الثَّلاثة الرَّئيسيَّة[1] ، وجدت أهمّ مراكز الحضارة الصِّينيَّة ، حيث وجدت بقايا الإنسان القديم ، وتعود إلى نحو أربع مئة ألف سنة ، حيث كان يعيش على الصَّيد ، ثمَّ على الزِّراعة والصَّيد ، وذكرت وكالة أنباء الصِّين الجديدة ، أنَّ بعض الباحثين عثروا في شهر نيسان (إبريل) ١٩٨٥ م ، على الشَّواطئ الصَّخريَّة بالمنطقة الواقعة بأقصى شمال الصِّين ، على آلاف النُّقوش الَّتي ترجع إلى عصر يتراوح بين ٨٠٠٠ ق.م و ٦٠٠٠ ق.م ، تآكل بعضها ، في حين يوضِّح بعضها الآخر صوراً لحيوانات وأشخاص ، ومشاهد الصَّيد والمعارك ، بالإضافة إلى رموز مختلفة ، قامت بنحتها على الأحجار بعض القبائل الرُّحَّل .

وفي عهد سلالة شانغ Shang [٢٧٦٥ ـ ١١٢٢ ق.م] ، الَّتي حكمت في مقاطعة هونان في وادي النَّهر الأصفر ، سارت الصِّين إلى البرونز ، ثمَّ إلى عصر الكتابة ، وعبد الصِّينيُّون في هذا الدَّور الأرواحَ المتعلِّقة بالقوى الطَّبيعيَّة وعناصرها ، كما عبدوا الأسلاف ، فالصِّين موطن عبادة الأسلاف .

ثمَّ غزا الصِّين من الغرب أقوامٌ تحت زعامة قبيلة تشو Chou ، استقرَّت في وادي

(١) النَّهر الأصفر (هوانغ هو) ، والنَّهر الأزرق (يانغ تسي كيانغ) ، والنَّهر الجنوبي (سي كيانغ) .

النَّهر الأصفر ، متَّخذة من هاو Hao عاصمة لها ، فاقتبسوا حضارة الدَّور السَّابق ، وحكموا ما بين [١١٢٢ ـ ٢٥٦ ق.م] ، وأعطوا الحكم لرؤساء في المقاطعات ، وتأسَّس نوع من الحكم الإقطاعي ، وفي منتصف القرن الثَّالث قبل الميلاد ، حصلت حروب كثيرة بين المقاطعات بغية السَّيطرة ، فنجحت مقاطعة تشين Chin في توحيد البلاد ، وأعطت اسمها لبلاد الصِّين كلِّها .



واعتقد الصِّينيُّون أنَّ كتابتهم من أصل إلهي ، وهي بلا أبجديَّة ، فلكلٍّ كلمة أو فكرة إشارة خاصَّة ، ويمكن للصِّيني أن يتدبَّر أمره بثلاثة أو أربعة آلاف إشارة ، وكانت الكتابة للأشراف فقط ، وكان الموظفون يُختَارون على أساس امتحانات دقيقة ، « وتعدُّ في جملتها أجدر وسائل الاختيار بالإعجاب والتَّقدير ، وخير ما وصل إليه العالم من الوسائل لاختيار الخدَّام العموميِّين .. وكانت هذه الطَّريقة من النَّاحية النَّظريَّة توفِّق أحسن التَّوفيق بين المبادئ الأرستقراطيَّة والديموقراطيَّة ، فهي تمنح النَّاس جميعاً

فرصة متكافئة لإعداد أنفسهم للمناصب العامَّة ، ولكنَّها لا تفتح أبواب المناصب إلاَّ لمن أعدُّوا أنفسهم لها ، ولقد أنتجت خير النَّتائج من الوجهة العمليَّة مدى ألف عام »[٢] .

وكانت بداية الطَّريقة في مدارس القرى .. يقوم فيها معلِّم واحد بتعليم أبناء سَرَاة القرية تعليماً أوَّليّاً ، أمَّا الفقراء من السُّكَّان فقد ظلَّ أبناؤهم أُميِّين ، وكانت أوقات الدِّراسة طويلة ، كما كان النِّظام صارماً في هذه المدارس المتواضعة ، وكانت طريقة التَّعليم الحفظ عن ظهر قلب ، وكان الطِّفل يخرج من المدرسة بِعِلْم قليل وإدراك كبير ، جاهلاً بالحقائق ناضج العقل .

وكان في وسع الأطفال بعد أن يتمُّوا الدِّراسة في هذه المدارس ، أن يلتحقوا بإحدى كلِّيَّات الدَّولة القليلة العدد ، الفقيرة في أدواتها واستعدادها ، ولكنَّهم كانوا في أكثر الأحيان يتلقُّون العلم على مدرِّسين خصوصيِّين ، أو يواصلون الدَّرس في منازلهم في عدد قليل من الكتب الثَّمينة .

« وكان هذا التَّعليم هو الأساس الَّذي أقامت عليه الصِّين ـ في عهد أُسرة هان على سبيل التَّجربة ، وفي عهد أُسرة تانج بصفة نهائيَّة ـ نظام تولِّي المناصب العامَّة بالامتحان ، ومن أقوال الصِّينيِّين في هذا : إنَّ من أضرِّ الأُمور بالشَّعب أن يتعلَّم حكَّامُهُ طرق الحكم بالحكم نفسه ، وإن من واجبهم كلَّما استطاعوا أن يتعلَّموا طرق الحكم قبل أن يحكموا .. ومن أجل هذا كانت تعقد في أوقات معيَّنة امتحانات عامَّة في كلِّ مركز من المراكز ، يتقدَّم إليها كلٌّ من شاء من الذُّكور متى كانوا في سنٍّ معيَّنة .

وكان المتقدِّم إلى الامتحان يمتحن في قوَّة تذكُّره ، وفهمه لكتابات كنفوشيوس ، وفي مقدار ما يعرف من الشِّعر الصِّيني ، ومن تاريخ الصِّين ، وفي قدرته على أن يكتب أبحاثاً في السِّياسة والأخلاق كتابة تدلُّ على الفهم والذَّكاء ، وكان في وسع من يخفق في الامتحان أن يعيد الدَّرس ، ويتقدَّم إليه مرَّة أُخرى ، ومن نجح مُنح درجة شيودزاي ،

---

(٢) قصَّة الحضارة : ٢٨٢/٤

الَّتي تؤهله لأن يكون عضواً في طبقة الأُدباء ، ولأن يعيَّن في المناصب الصُّغرى في الحكومة الإقليميَّة ، وأهمّ من هذا أن يكون من حقِّه أن يتقدَّم إما مباشرة ، أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر يعقد في الأقاليم كل ثلاث سنوات ، شبيه بالأوَّل ، ولكنَّه أصعب منه ، ومن أخفق فيه جاز أن يتقدَّم إليه مرَّة أُخرى ، وكان يفعل ذلك كثيرون من المتقدِّمين ، فكان يجتازه في بعض الأحيان رجال جازوا الثَّمانين ، وظلُّوا طول حياتهم يدرسون ، وكثيراً ما مات النَّاس وهم يتأهَّبون لدخول هذه الامتحانات ، وكان الَّذين ينجحون يُختارون للوظائف الحكوميَّة الصُّغرى ، كما كان من حقِّهم أن يتقدَّموا للامتحان النِّهائي الشَّديد الَّذي يعقد في بكِّين ، وكان في تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوي على عشرة آلاف حجرة انفراديَّة ، يقضي فيها المتسابقون ثلاثة أيَّام متفرِّقة في عزلة تامَّة ، ومعهم طعامهم وفراشهم ، يكتبون مقالات أو رسائل في موضوعات تعلن لهم بعد دخولها ، وكانت هذه الغرف خالية من وسائل التَّدفئة والرَّاحة ، رديئة الإضاءة ، غير صحِّيَّة ، لأن الرُّوح لا الجسم - في رأيهم - هي الَّتي يجب أن تكون موضع الاهتمام ! وكان من الموضوعات المألوفة في هذه الامتحانات أن ينشئ المتقدِّم قصيدة في : (صوت المجاذيف والتِّلال الخضراء والماء) ، وأن يكتب مقالاً عن الفقرة الآتية من كتابات كنفوشيوس ، قال دزانج دزي : « (من يك ذا كفاية ، ويسأل من لا كفاية له ؛ ومن يك ذا علم كثير ويسأل من لا يعلم إلاَّ القليل ؛ ومن يملك ثمَّ يتظاهر بأنَّه لا يملك ، ومن يمتلئ ثمَّ يبد أنه فارغ) ، ولم يكن في أيِّ امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الأعمال التِّجاريَّة أو الصِّناعيَّة ، لأنَّها لم تكن تهدف إلى تبيُّن علم الرَّجل ، بل كانت ترمي إلى معرفة ما له من حكم صادق ، وخُلُق قويم ، وكان كبار موظفي الدَّولة يُختارون من النَّاجحين في هذا الامتحان النِّهائي »[٣] .

والأدب الصِّيني في هذا العصر ، سُمِّي بالأدب الكلاسيكي ، ولقد جُمعت المؤلَّفات

(٣) قصَّة الحضارة : ٢٨٤/٤

الهامَّة لهذا العصر في مجموعة تسمَّى (كتب كنفوشيوس) ، يعتقد أنَّه كتبها ، أو أعدَّها للنَّشر بيده ، وهي :

أوَّلاً : الكتب الخمسة الكلاسيكيَّة ، أو كتب القانون الخمسة :

١ - (كتاب التَّغيُّرات) وهو كتاب تنبُّؤ وتنجيم ، وفي ميدان علم ما وراء الطَّبيعة ، الَّذي كان جدُّ حريصاً على ألاَّ يلج بابه في فلسفة .

٢ - (كتاب الشِّعر) ، أو كتاب الأناشيد ، شرح فيه كنفوشيوس كنه الحياة البشريَّة ، ومبادئ الأخلاق الفاضلة .

٣ - (كتاب المراسم) ، أو سجل المراسم أو القواعد المتعلِّقة بالسُّلوك(٤) ، وتبحث في آداب اللِّياقة ، وتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النِّظام الاجتماعي .

٤ - (حوليات الرَّبيع والخريف) وهو سجل موجز لأهمِّ الحوادث في (لُو) موطن كنفوشيوس الأصلي ، ما بين : [٧٢١ - ٤٧٨ ق. م] .

٥ - (كتاب التَّاريخ) وهو مجموعة وثائق ، هي أهمُّ وأرقى ما وجده كنفوشيوس في حكم الملوك الأوَّلين من الحوادث أو الأقاصيص الَّتي تسمو بها الأخلاق ، وتشرف الطِّباع ، وذلك حين كانت الصِّين امبراطوريَّة موحَّدة إلى حدٍّ ما ، وحين كان زعماؤها كما يظن كنفوشيوس أبطالاً ، يعملون في غير أنانيَّة ، لتمدين الشَّعب ، ورفع مستواه .

ثانياً : الكتب الأربعة ، لم يكتبها كنفوشيوس ، ولكنَّها سجَّلت في إيجاز ووضوح آراءه وأقواله ، جُمِعَت من قبل أتباعه ومريديه ، وأوَّلها (كتاب التَّعاليم) ، ويضمُّ أقوال كنفوشيوس ومحادثاته وحواره(٥) ، و (كتاب التَّعاليم الأعظم) أو : التَّعليم الكبير ، و (عقيدة الوسط) ، وهو الكتاب الفلسفي الثَّالث من كتب الصِّين ،

(٤) منها : « دائماً وفي كلِّ شيء ليكن هنالك احترام » .

(٥) وهو المعروف عند قرَّاء الإنكليزية باسم : (مجموعة الشَّذرات) ، أي شذرات كنفوشيوس .

و (كتاب منشيوس : Mencius) ، وفيه تعاليم هذا الفيلسوف ، الَّذي وضع تعاليم كنفوشيوس بشكل شعبي خاص ، وهو خاتمة العهد القديم للفكر الصِّيني .

ومن أدب هذا العصر : « يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشُّعراء أحراراً في قرض الشِّعر ، والنَّاس أحراراً في تمثيل المسرحيات ، والمؤرِّخون أحراراً في قول الحقّ ، والوزراء أحراراً في إسداء النُّصح ، والفقراء أحراراً في التَّذمُّر من الضَّرائب ، والطَّلبة أحراراً في تعلُّم العِلْم جهرة ، والعمَّال أحراراً في مدح مهاراتهم وفي السَّعي إلى العمل ، والشَّعب حرّاً في أن يتحدَّث عن كلِّ شيء ، والشُّيوخ أحراراً في تخطئة كلِّ شيء » .

الدِّيانة الكنفوشيوسيَّة :

عاش كنفوشيوس ما بين : [٥٥١ ـ ٤٧٨ ق.م] ، واسمه هذا هو بشكله اللاَّتيني ، أمَّا شكله الصِّيني فهو كونغ فوتزو Kung Fu Tzu ، أي كونغ الفيلسوف أو المعلِّم ، عُيِّن حاكماً على مقاطعة لو Lu ، ثُمَّ أصبح وزيراً ، فكان مثال العدل والنِّظام ، ثمَّ أصبح معلِّماً متجوِّلاً متفرِّغاً للتَّعليم ، ولم يكن مؤسِّس ديانة ، إنَّما وضع قواعد شْديدة للسُّلوك واللِّياقة .

من تعاليمه :

إذا قام البيت على أساس سليم أمِنَ العالَم وسَلِم .

ما أشقى الرَّجل الَّذي يملأ بطنه بالطَّعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله في شيء .. ولا يتواضع في شبابه التَّواضع الخليق بالأحداث ، ولا يفعل في رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر .. إن هذا الإنسان وباء .

لست أُبالي مطلقاً إذا لم أَشغل منصباً كبيراً ، وإنَّما الَّذي أعني به أن أجعل نفسي خليقاً بذلك المنصب الكبير ، وليس يهمني أبداً أن النَّاس لا يعرفونني ، ولكنَّني أعمل على أن أكون خليقاً بأن يعرفني النَّاس .

ويؤكِّد تلاميذه أنَّه كان مبرَّأ من أربعة عيوب : كان لا يجادل وفي عقله حكم سابق مقرَّر ، ولا يتحكَّم في النَّاس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانيّاً .

وكان يسلِّي نفسه في وحدته بالشِّعر والفلسفة ، ويسرّه أن غرائزه تتَّفق وقتئذٍ مع عقله ، ومن أقواله في ذلك الوقت : لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكبّاً على العلم ، وفي الثَّلاثين وقفت ثابتاً لا أتزعزع ، وفي سنِّ الأربعين زالت عنِّي شكوكي ، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السَّماء ، وفي السِّتين كانت أُذني عضواً طيِّعاً لتلك الحقيقة ، وفي السَّبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل .

ومات كنفوشيوس في الثَّانية والسَّبعين من عمره ، وكان يردِّد قبيل وفاته بأيَّام :

سَيُدكُّ الجبل الشَّاهق دكّاً
وتتحطَّم الكتلة القويَّة
ويذبل الرَّجل الحكيم كما يذبل النَّبات .

وظهر من بعده فلاسفة ، منهم موتزو Mo Tzu ، الَّذي جعل البساطة والمحبَّة طريقاً لسعادة الإنسان ، ونشر الكنفوشيوسيَّة في الصِّين منسيوس Mencius ، أمَّا هسون تسو Hsun Tzu فقد قال : إنَّ الطَّبيعة البشريَّة سيِّئة ، وإنَّ صلاح الإنسان هو نتيجة التَّعلُّم المكتسب ، والتَّمرُّن على الصَّلاح .

الدِّيانة الطَّاويَّة :

أسَّسها لاوتزو Lau Tzu ، وكان معاصراً لكنفوشيوس ، ومارس السُّلوك المعروف باسم طاو Tao ، والفضيلة المعروفة باسم تي Te ، ومبدؤه يقوم على العزلة ، وعدم الاعتداد بالنَّفس ، والكنوز الثَّلاثة هي : الرَّحمة ، والبساطة ، مع الاقتصاد والتَّواضع .

وقامت مناقشات حادَّة بين الكنفوشيوسيَّة والطَّاويَّة ، مع أنَّ الصِّينيِّين ألَّهوا لاوتزو وكنفوشيوس فيما بعد ، قالت الكنفوشيوسيَّةُ عن الطَّاويَّة : إنَّها تجعل كلَّ

إنسان يعمل لنفسه فقط ، ولا يقتلع ولو شعرة من رأسه إذا كان في ذلك فائـدة لغيره . وانتقدت الطَّاويَّة الكنفوشيوسيَّة الَّتي نسيت العالم والطّبيعة ، وتمركزت في الإنسان .

ولقد أصبحت الكنفوشيوسيَّة الدِّيانة الرَّسميَّـة منـذ أيَّـام الإمبراطور ووتي Wuti : [١٤٠ ـ ٨٧ ق.م] ، وحتَّى عام ١٩١٢ م ، حيث أُعلنت الجمهوريَّة .

ويعاب على هذه التَّعاليم أنَّهـا جعلت المرأة في آخر مكان في الجنس البشري : « ألا ما أتعس حظ المرأة ! ليس في العالم كلِّه شيء أقلّ قيمة منها » .

عـادت الـوحـدة إلى الصِّين بعـد فـوضى الممالـك في عصر سلالـة سُوي Sui : [٥٨٨ ـ ٦١٨ م] ، وسلالة تانغ : [٦١٨ ـ ٩٠٦ م] ، وكانت سياسة ملوك هذه الأُسرة التَّسامح بالنِّسبة للدِّيانات الثَّلاث الرَّئيسيَّة في الصِّين : الكنفوشيوسيَّـة ، والطَّـاويَّـة ، والبوذيَّة الَّتي دخلتها مع بداية القرن الأوَّل الميلادي ، علماً أنَّ بوذيَّة الصِّين خاصَّة بها ؛ دين يدعو إلى الإيمان في غبطة وبهجة بآلهة تعين البشر على أعمالهم .

وشمل التَّسامح أيضاً الدِّيانات الأُخرى : الإسلام والمسيحيَّة واليهوديَّة .

العلوم في الحضارة الصِّينيَّة :

كتب الصِّينيُّون عن الخسوف ، وعن مجموعـات من النُّجـوم منـذ عهـد أُسرة تشـو : [١١٢٢ ـ ٢٥٦ ق.م] ، ومن القرن الرَّابع قبل الميلاد أوردوا مـلاحظـات على الضَّـوء ، والمرايـا المقعَّرة والمحـدَّبـة والمستويـة ، وكانوا عـارفين بمسـائل البرونز ، وأدركوا النِّسبـة الصَّحيحة في النُّحاس والقصدير لصنع خواص معيَّنة منه .

واخترع تسـاي لون Tsai Lun حوالي ١٠٥ م الورق من قشر الشَّجر والقِنَّب والخرق ، وقد كانوا قبله يكتبون على الخيزران والحرير ، والخيزران ثقيل ، والحرير غالٍ .

واخترع الصِّينيُّون البـارود (نترات البوتـاسيـوم) ، واستعملـوه في الأسلحـة منـذ نهاية القرن العاشر الميلادي ، ولمَّا أخذه العرب عنهم ، قالوا عنه : « الثَّلج الصِّيني » .

واخترعوا البوصلة ، والخزف ، والطِّباعة حيث عرفوا الحروف المتحرِّكة منذ عام ١٠٤١ م ، وتقدَّمت الكيمياء فعرفوا الحبر الأسود ، والحبر الأحمر ، والصِّينيُّون من أوائل الأُمم الَّتي اتخذت الفحم الحجري من مناجمه في الأرض منذ سنة ١٩٢٢ ق.م .

وفي مجال الرِّياضيَّات حلُّوا بعض المعادلات المجهولة من الدَّرجة الأُولى ، مع تأثُّر متبادل مع حضارة الهند في هذا المجال ، وخلَّف العالم الرِّياضي جانج تسانج [ت ١٥٢ ق.م] كتاباً في الجبر والهندسة ، فيه أوَّل إشارة معروفة للكمِّيَّات السَّالبة .

واخترع تشانج هنج عام ١٣٢ م آلةً لتسجيل الزَّلازل ، وكان في وسع الفلكيِّين في أيَّام كنفوشيوس التَّنبُّؤ بالخسوف والكسوف تنبُّؤاً دقيقاً .

وفي مجال الطِّبِّ ـ الَّذي كان خليطاً من الحكمة التَّجريبيَّة ، والخرافات الشَّعبيَّة ـ عرفوا نوعاً من الخمر يدعى Ma Yao ، ويظهر أنَّهم كانوا يلقِّحون ضدَّ الجدري في القرن الحادي عشر الميلادي .

وعلى الرغم من هذا كله قيل : « لقد كان الصِّينيُّون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يخترعون »[٦] .

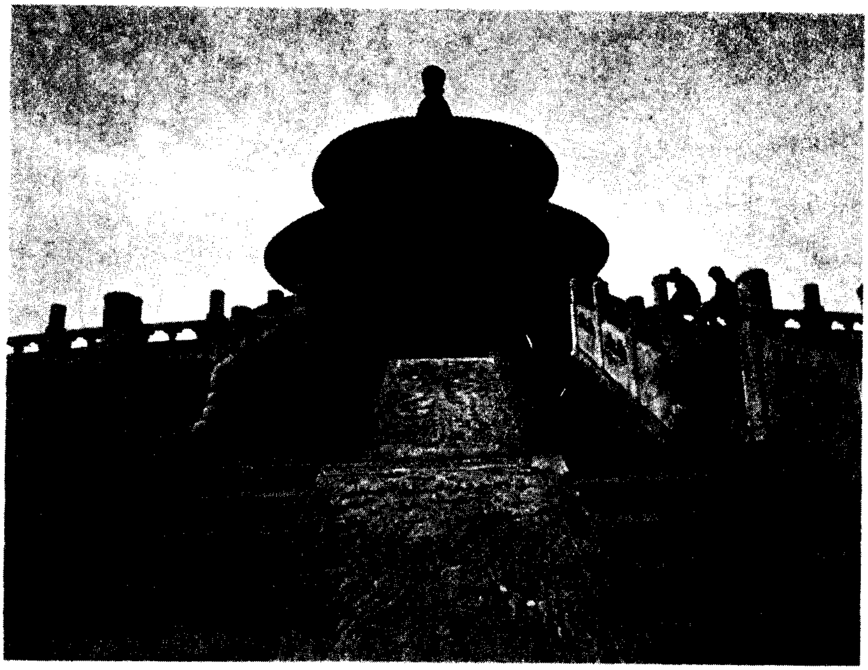
واهتمَّ الصِّينيُّون بالأنهار والتُّرع ، وبنوا سور الصِّين العظيم ، الَّذي انتهى بناؤه عام ٢١٤ ق.م ، في عهد الإمبراطور شيه هوانغ تي Shih Huang Ti ، الَّذي رُمِّم في أوقات مختلفة ، ارتفاعه ما بين ٦ ـ ١٠ أمتار ، وطوله ١٤٠٠ ميل .

☆ ☆ ☆

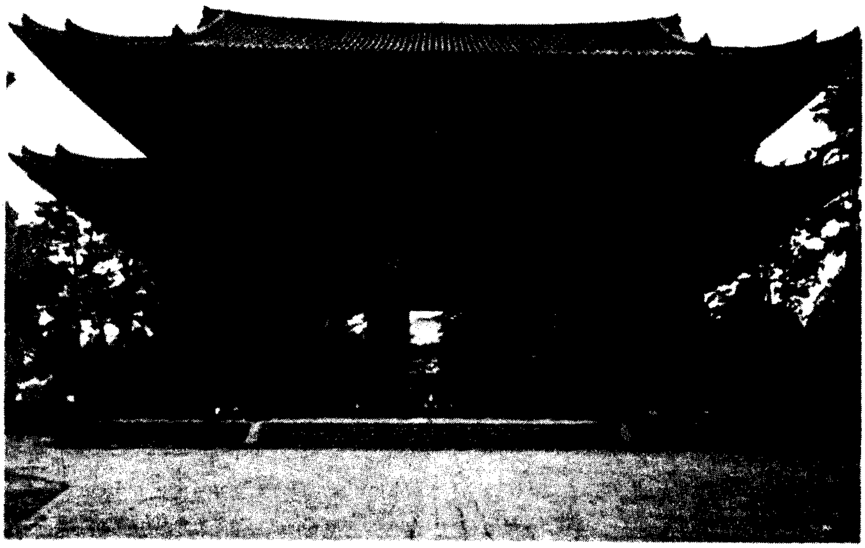
☆ ☆

☆

(٦) قصَّة الحضارة : ٢٥٠/٤



*هيكل السّماء في بكين



*من الفن الياباني

حضَارة اليابان

أهم مراكز الحضارة اليابانيَّة كان في الجنوب الغربي لجزيرة هونشو Honshu ، ولم تعرف اليابان العصر الحجري القديم ، فحضارتها بدأت في الألف الثَّالث قبل الميلاد ، متأخِّرة ثلاثة آلاف سنة عن بلاد الشَّرق الأدنى ، وسكَّانها شبيهون بالعنصر القفقاسي الأبيض ، وتدلُّ معتقداتهم على عبادة الأرواح والطَّبيعة ، وأسمى الآلهة في السَّماء هي الشَّمس ، كما أنَّ النَّار هي أسمى آلهة الأرض ، وجوهر النَّار يعبد حول كلِّ موقد ، ويسمى فوجي Fuji ، أي الجدَّة ، أو السَّلف .

ودخلت اليابان[1] حول العصور الميلاديَّة الأُولى شعوب تسمَّى ياماتو Yamato ، دفعت بالسُّكَّان القدماء أمامها ، أتت من برِّ آسية عن طريق كورية ، وهي من عنصر منغولي ، مع بعض الاختلاط بعناصر جنوبيَّة من الملايو القدماء ، ودخلتها الكتابة في القرن الخامس ، والبوذيَّة في القرن السَّادس من كورية والصِّين[2] .

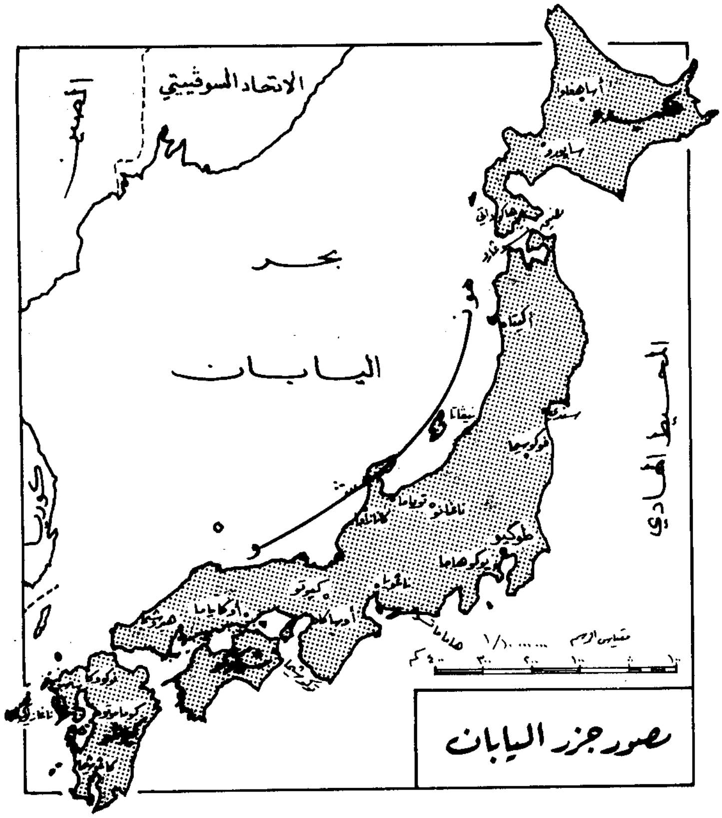
الدِّيانة الشِّنتويَّة :

من عبادة الأسلاف نشأت أقدم ديانة يابانيَّة ، وهي شنتو Shinto ، وتعني طريق الآلهة ، إذ كان اليابانيُّون يخاطبون السَّلف المقدَّس الأوَّل ، الَّذي عنه جاءت سلسلة الأباطرة ، وأوَّل ذكر لهذه الدِّيانة كان سنة ٥٨٧ م ، عندما بدأت تشعر بحاجتها إلى حماية وتعزيز ، بعد دخول البوذيَّة إلى اليابان .

---

(١) معنى يابان عند الملايو (الْجُزُر) ، وعند الصِّينيِّين : جب-بن ، أي : المكان الَّذي تشرق منه الشَّمس .

(٢) سُمِّيت الأدوار التَّاريخيَّة في اليابان بأسماء المراكز (العواصم) الَّتي حكم الأباطرة منها ، وهي : عصر آسوكا : [٥٥٢ ـ ٦٤٥ م] ، عصر نارا : [٦٤٥ ـ ٦٩٤ م] ، حيث تمَّ دمج البوذيَّة بالشِّنتويَّة ، واستمر هذا الدَّمج ألف سنة ، ودُعي بالطَّريق المزدوج للإله Ryobu Shinto ، عصر هيان وكيوتو : [٧٩٤ ـ ١١٨٥ م] ، عصر كاكورا : [١١٨٤ ـ ١٣٩٢ م] ، حيث ساد التَّرف والبذخ وضعفت سلطة الأباطرة ، عصر موروماتشي : [١٣٩٢ ـ ١٥٦٧ م] ، ثمَّ قامت حروب أهليَّة بدأ بعدها عصر بيدو - الَّتي هي طوكيو اليوم -: [١٦١٥ ـ ١٨٦٧ م] ، حيث أصبحت اليابان دولة حديثة .



* اليابان الجزر الرَّئيسيَّة

أُلغيت الشَّنتويَّة الرَّسميَّة كديانة دولة بعد الحرب العالميَّة الثَّانية ، وأصدر الإمبراطور هيروهيتو إنكاراً رسميّاً لألُوهيَّته كملكٍ ، وبقيت الشَّنتويَّة مذهباً خاصّاً ، أتباعه عشرون مليون نسمة .

يقولُ ديورانت : « ولن نجد في التَّاريخ الحديث أروع ، ولا أعجب من الطَّريقة الَّتي استيقظت بها اليابان من نعاسها ، استيقاظاً جزعاً على صوت مدفع الغرب ، فوثبت تتعلَّم الدَّرس ، وأصلحت صنع ما تعلَّمت صنعه ، وأفسحت صدرها للعلم والصِّناعة والحرب ، ثمَّ هزمت كلَّ منافسيها في ميدان الحرب ، وميدان التِّجارة معاً .. »[٣] .

(٣) قصَّة الحضارة : ١٦٤/٥

الحَضَارة الإيرانيَّة

حضارة الفرس الإخمينيين : [٥٥٩ ـ ٣٣٠ ق.م] :

أسَّس الإمبراطوريَّة الإخمينيَّة (كورش) ، وقوَّضَ صرحها الإسكندر المكدوني ، وامتازت هذه الإمبراطوريَّة بتنظيم إدارة البلاد أيَّام داريوس(١) ، الَّذي كان قائد الحرس الملكي (قائد عشرة الآلاف الخالدين) ساعده الأيمن في العاصمة ، أمَّا الولايات ، فكان عليها حاكم (مرزبان) ، وبجانبه قائد عسكري ، وكاتب يرفع الأخبار للملك ، كما امتازت بمواصلاتها الجيِّدة ، حيث شبكة الطُّرق الطَّويلة الَّتي ربطت أرجاء الإمبراطوريَّة ، مع محطَّات للبريد ، لتسهيل نقل الأخبار والأُمراء والجيوش .

وافتخر داريوس بأنَّه : « أحبَّ الحقَّ ولم يحب الخطأ ، وكانت إرادته ألاَّ يتعرَّضوا لحقوق أرملة أو يتيم ، وأنَّه عاقب الكاذب ، وكافأ الصَّادق المجتهد »(٢) ، فالقضاة المرتشون مثلاً ، كانوا يُقْتَلُون ، ولضمان نزاهة القضاء أمر قمبيز بأن يسلخ جلد القاضي الظَّالم حيّاً ، وأن يُسْتَخدم هذا الجلد لصنع مقاعد القضاة ، ثمَّ يعيَّن ابن القاضي القتيل بدلاً من أبيه(٣) .

وكانت الأحكام قاسية منها : الوسم بالنَّار ، وبتر الأطراف أو تشويهها ، أو سمل العين ، أو السجن .. ويحلُّ القتل عقاباً على خيانة الوطن ، أو هتك العِرْض ، أو القتل ، أو الاعتداء على حرمة القصر الملكي .

وسلطة الإمبراطور مطلقة ، لا يُسأل عمَّا يفعل ، فالمذنبون الَّذين تلهب السِّياط

---

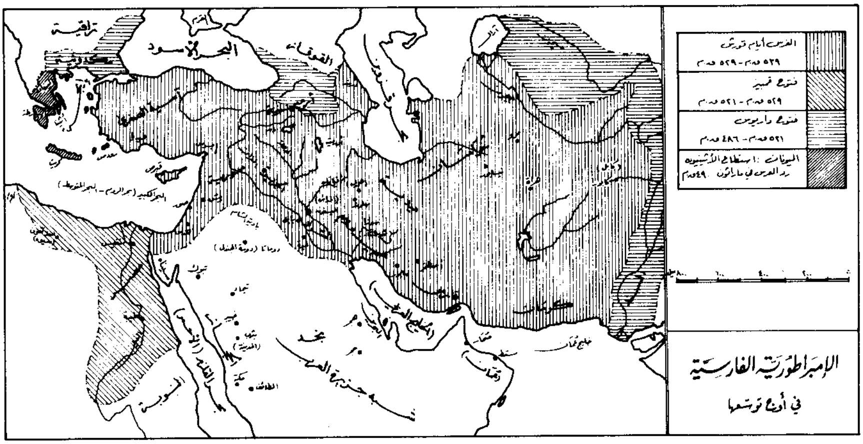
(١) كانت العاصمة برسبوليس ، واكباتان (همذان) العاصمة الصَّيفيَّة ، ومعظم إقامة الإمبراطور في (سوزا) عاصمة عيلام القديمة .

(٢) عبارة نُقِشَت على قبر داريوس .

(٣) قصَّة الحضارة : ٤١٧/٢

أجسادهم بأمره ، يشكرون له تفضُّله بأنَّه لم يغفل عن ذكرهم ، فقرارات الإمبراطور هي القانون ، وأحكامه لا ترد ، لأنَّها وحي الإله أهورا ـ مزدا إليه .

وسبب ضعف هذه الدَّولة عدم تقدُّم الصِّناعة والتِّجارة والعلوم ، لإعطائها دعـامـة اقتصاديَّة واجتماعيَّة ، « فقيام إمبراطوريَّة جهود عظيمة ، والجهود الأعظم سبل الحفـاظ عليها ، والابتعاد عن طرق الانحلال » ، فهزائم الجيش الفارسي بقيادة دارا في المارتون ، مع أطماع الولاة ، والثَّورات والحروب المتكرِّرة ، والجمود والفسـاد .. كلٌّ ذلـك ، سهَّـل على الإسكندر انتصاره على دارا الثَّالث في معركة إيسوس .



الفرثيُّون وحَضَارتهم : [٢٥٠ ق.م ـ ٢٢٤ م] :

بقيت إيران تحت حكم السَّلوقيِّين خلفاء الإسكندر حتَّى عـام ٢٥٠ ق.م ، حيث بدأت فترة حكم الفرثيِّين الَّذين قـدموا من آسيـة الوسطى ، وعُرِفت سلالتهم بـالسُّلالـة الأشكانيَّـة أو الأرشـاقيَّـة Arsacids ، نسبـة إلى أرشـاق الأوَّل : [٢٤٨ ـ ٢٤٦ ق.م] ، مؤسِّس الدَّولة الفرثيَّة ، الَّتي كانت حضارتها مزيجاً من (فـارسيَّـة ـ هلنستيَّـة) حتَّى

القرن الأوَّل الميلادي ، حيث ابتعدت عن الفكر الهلنستي ، واتَّخذت المجوسيَّة الزَّردشتيَّة ديانة رسميَّة ، ووضع كتاب الأفستا Avesta ، كتاب المجوسيَّة الدِّيني .

الزَّردشتيَّة :

يعتقد الزَّردشتيُّون أنَّ أُمَّ زردشت حملت به حملاً إلهيّاً : « دخل شعاع من أشعة العظمة السَّماويَّة إلى صدر فتاة راسخةٍ في النَّسب ، سامقةٍ في الشَّرف ، وتزوَّج الكاهن الفتاة ، وامتزج الحبيسان المَلاَك والشُّعاع ، فنشأ زردشت من هذا المزيج » ، وتجلَّى له (أهورا ـ مزدا) ربُّ النُّور الإله الأعظم ، ووضع في يديه الأبستاق (الأفستا) ، أي كتاب العلم والحكمة .

تقوم الزَّردشتيَّة على أُسس ثلاثة هي :

١ ـ إنَّ الزِّراعة وتربية الماشية ، هما وحدهما المهنتان النَّبيلتان .

٢ ـ إنَّ الكون بأسره معركة بين الخير والشَّر ، والفكرة السَّائدة ثنائيَّة العالم الَّذي يقوم على مسرحه صراع يدوم اثني عشر ألف عام بين الإله أهورا ـ مزدا ، والشَّيطان (أهريمان) .

٣ ـ إنَّ العناصر ، وهي الهواء والماء والنَّار والتُّراب طاهرة ولا يجوز تدنيسها ، والنَّار مقدَّسة ، وسادن بيت النَّار يقوم على خدمة اللَّهب المقدَّس ، والحياة المُثْلى كما رسمها (النَّبيُّ) زردشت هي : « حيث يشيد المؤمن بيتاً فيه الماشية ، والزَّوج ، والولد ، وحيث توهُّج النَّار »(٤) .

وأفضل الفضائل : الطُّهر والأمانة ، ويؤدِّيان إلى الحياة الخالدة(٥) .

---

(٤) تاريخ العالم : ٣٣٦/٤

(٥) قصَّة الحضارة : ٤٢٤/٢

حرِّيَّة الإرادة عمل يقوم به الإنسان ، يرجِّح قضيَّة أهورا ـ مزدا (الخير) ، أو قضيَّة أهريمان (الشَّر) .

التَّقوى أعظم الفضائل على الإطلاق ، والتَّقوى (أن يعبد الله بالطُّهر والتَّضحية والصَّلاة) .

ومعابد الزَّردشتيِّين أُقيمت على قمم الجبال ، يوقدون النَّار فوقها تكريماً لأهورا ـ مزدا ، وعندما سُيِّست الزَّردشتيَّة ، صُوِّر الإله الأعظم في صورة ملك ضخم ذي جلال مهيب ، مع أنَّها اقتربت من عقيدة التَّوحيد في أيَّامها الأُولى ، واتُّخذت النَّار نفسها إلهاً ، واعتقد الزَّردشتيُّون أنَّها ابن إله النُّور ، لذلك حرصت الأُسر ألاَّ تنطفئ النَّار في بيوتاتها ، والشَّمس نار السَّموات الخالدة ، تعبد بوصفها أقصى ما يتمثَّل فيها أهورا ـ مزدا .

ويعتقد الزَّردشتيُّون أنَّ نهاية العالم قريبة محتومة ، فبعد موت زردشت بثلاثة آلاف سنة ، يحلُّ يوم الحساب الأخير ، وتقوم مملكة أهورا ـ مزدا ، ويهلك (أهرمان) هلاكاً أبديّاً .

السَّاسانيُّون وحَضَارتهم : [٢٢٤ ـ ٦٥٢ م] :

أسَّس حكم الأُسرة السَّاسانيَّة أردشير الأوَّل[٦] ، الَّذي جعل الزَّردشتيَّة المجوسيَّة ديانة الدَّولة الرَّسميَّة .

وأيَّام كسرى أنوشروان (الرُّوح الخالدة) قامت إصلاحات هامَّة ، وشخصيَّة أنوشروان جديرة بالدَّرس ، فعند اعتلائه العرش وجد البلاد تعاني من الاضطراب والفساد والظُّلم والقوانين العقيمة ، فعزم على علاج هذه الأوضاع .

(٦) وكان آخر ملوكهم يزدجرد الثَّالث ، الَّذي قاوم الفتح العربي الإسلامي ، ولم يفلح ، والإله أهورا ـ مزدا يمنح السُّلطة للملك ، واعتقد ملوك الفرس أن دماً إلهيّاً أزرق يجري في عروقهم ، والمسعودي يثني على ملوك السَّاسانيِّين لإدارتهم الممتازة .



معبد النار قرب مدينة باكو (أذربيجان)

وأعظم إصلاحاته تسوية مشكلة الأرض الزِّراعيَّة ، فقد جرت العادة من قبل أنوشروان ، على أن تحصل الدَّولة على نصيب يتفاوت بين العُشر والنِّصف ، من كلِّ محصول حسب خصوبة الأرض ، وطُبِّقت هذه القاعدة تطبيقاً سيِّئاً بسبب ما يرتكب جباة الْخَرَاج من الإجحاف ، ولم تؤدِّ هذه القاعدة إلى تثبيط همم الزُّرَّاع فحسب ، بل أدَّت إلى خسارة في المحصول ، وكانت هذه الخسارة تحدث لأنَّ المزارعين لم يكن يسمح لهم بجني حاصلاتهم الزِّراعيَّة ، حتَّى يحضر جباة الضَّرائب ، للحصول على حصَّة الملك ، فكان ترك المحصول على الأشجار على الرَّغم من نضجه ، يؤدِّي إلى تلف قسم كبير منه .



* كان الصَّيد أهم تسلية للملوك في إيران

والمثل على ذلك ، ما جاء في قصَّة جارية تقول : إنَّ أنوشروان رأى ولداً تضربه أُمُّه لأنَّه التقط عنقوداً من العنب ، وقد اختطفته الأُمُّ من يد ابنها وعلَّقته بالكرمة ،

فلمَّا سألها أنوشروان عمَّا تفعل ، أجابت بأن ليس من حقِّ الحرَّاثين أن يـأكلوا من عنبهم قبل أن يُجمع نصيب كسرى منه ، فاستبـدل أنوشروان بتلـك القـاعـدة مبـالغ نقـديَّـة أو عينيَّة محدَّدة لكل قطعـة من الأرض المزروعـة ، وعلاوة على هـذا فقـد وضع خَرَاجـاً على أشجار الفاكهـة ، والبيوت ، وجزيـة على الرُّؤوس ، وشجَّع الحرَّاثين بكلِّ الوسـائل ليفلَحُـوا المـزيـد من الأرض ، وعمـل دائمـاً على زيـادة ميـاه الرَّي ، فـأنشـأ السُّـدود والقنوات ، كما قدَّم البذور والماشية للحرَّاثين ، وعمل على زيـادة عـدد السُّكَّـان ، فحتَّم الـزَّواج على كلِّ رجـل ، ومنـح الفقراء المهـور ، وأصلـح وسـائـل المـواصـلات ، فشيَّـد الجسور ، وشقَّ الطُّرق ، وضرب بيد من حديد على قطَّاعها ، وبذل قصارى جهـده لمنع أعمال العدوان والظُّلم ، ومثال ذلك : سأل أحد السُّفراء عن سرِّ اعوجاج الميـدان المقـابل لقصر كسرى ، فـأُجيب بـأنَّ عجوزاً تملـك الأرض الملاصقـة ، وقـد رفضت بيعهـا بـأي ثمن ، ولم يشأ أنوشروان أن يجبرها على البيع ، كما شغف هذا الملك بالعلم كثيراً ، فـأنشـأ مدرسة جُنْدَيْسابور المشهورة ، حيث كان يدرَّس فيها الطِّب والفلسفة بتوسُّع(٧) .

ظهرت أيَّام الأُسرة السَّاسانيَّة المانويَّةُ ، ومـاني [٢١٥ ـ ٢٧٤ م] ، أعلن دعوتـه في سنٍّ مبكِّرة ، زار الهند ، والتِّيبت ، وتركستان ، والصِّين ، ثمَّ عاد إلى فـارس بعـد وفـاة سابور الأوَّل ، حيث رحَّب به خليفته هرمزد الَّذي حكم إيران سنة واحدة ، وحين ولي العرش بهرام الأوَّل ، قتل ماني ، وسلخ جلده ، ثمَّ حشاه تبناً وعلَّقه على باب المدينة .

قال ماني : إنَّ كلَّ ما في عالم الشَّر ، فهو شر ، ولذلك فإنَّـه دعـا إلى عـدم الزَّواج ، وعدم زيادة النَّسل ، وماني يقول بمقالة الزَّردشتيَّة : إنَّ النُّور يحـارب الظُّلمـة ، وشكَّل ثالوثاً يدافع مع إله النُّور إلهَ الظَّلام ، ولكنَّـه يقول : إنَّ كليهما كان شرّاً ، ويقول : إنَّ ناراً ستوقـد في النِّهـايـة ، وتؤدِّي إلى خلاص النُّور وانفصـالـه النِّهـائي عن الظُّلمـة الَّتي لا خلاص لها .

---

(٧) تاريخ العالم : ٣٤١/٤ و ٣٤٢

وممّا يذكر أنّنا إذا علمنا أن خلود الرُّوح معناه وجود في المستقبل لا ينتهي ، فإن المعتقد الإيراني قد تجاوز هذا الحدّ ، فنصّ في تعاليمه على أنّ لكلّ إنسان روحاً ، وأنّ هذه الرُّوح وجدت في ماضٍ لا حدَّ له ، وأنّها تلازمه في الحياة الدُّنيا ، وتنتقل معه عند موته إلى الأبديَّة في العالم الآخر ، العالم الّذي تسكنه أرواح من قضى من الصّالحين ، وتفيئ الخير على أعقابهم الّذين تقرّبوا إليهم بالصّلاة والقرابين ، وعلى ذلك فإن ديانة الإيرانيّين كانت تناقض ديانة معاصريهم من أهل جنوبي أُوربة إلى حدٍّ كبير ، فقد كانت ديانة شخصيَّة أكثر منها ديانة وطنيَّة ، ديانة توجّه سلوك الفرد في كلّ عمل يأتيه في حياته ، ولم تكن ديانة شعائر لا يراعي المؤمن أحكامها إلاّ حين تقام العبادات العامَّة .

وجوهر هذا الدِّين ، إذا ما قورن بديانات رومة وبلاد اليونان ، يتجلّى في رمزيّته ، فكانت رموز الأُلوهيّة عند الإغريق والرُّومان آلهة نُحِتَت أو صُوِّرت على هيئة الإنسان ، صحيح أنّ النَّحّات الفارسي قد حاول أن يمثّل شخصيّة أهورا ـ مزدا على بعض الآثار الفارسيّة الّتي بقيت ، إلاّ أنّ النّار كانت هي الرّمز الحق الّذي يدلّ على الأُلوهيَّة ، فالنّار منبع الحرارة هي الّتي تطهّر النُّفوس ، والنّار مصدر النُّور ، فهي من ثَمَّ رمز الحقيقة ، وكانت الحقيقة والطُّهر من أخصّ صفات الإله أهورا ـ مزدا ، ولم يكن الإيرانيُّون يعدُّونه عرضة لنقائص البشر الّتي عزتها الأساطير والملاحم الإغريقيّة إلى آلهة الإغريق[(٨)] .

ولمّا كانت الدّولة السّاسانيّة قد سيطرت على طريق التِّجارة مع الصِّين ، وأعادت بناء القرى ، وحفرت الأقنية والتُّرع ، وأعطت الفقراء أرضاً وبذاراً ومواشيَ ، وقسّمت الإمبراطوريّة إلى أربعة أقسام إداريّة ، ومسحت أراضي الدّولة ، إلاّ أنّها أرهقت شعبها بالضّرائب ، وأدّت حال النّاس السّيّئة إلى حركة ثوريّة مرتبطة ببدعة دينيّة تسمّى

(٨) تاريخ العالم : ٤٤٥/٢

المزدكيَّـة[٩] ، وهي بعث للمجوسيَّـة متـأثِّرة بفِكَر هلنستيَّـة ، غـايتهـا شيـوعيَّـة الأرض والمواشي والنِّسـاء ، فقـام الفلاَّحون واستولـوا على المـواشي والأراضي والنِّسـاء ، وجعلـوا القرى مشتركة .

بدأ الإصلاح الاجتماعي أيَّام قباذ الأوَّل [٤٨٥ ـ ٥٣١ م] ، باستئصـال الشُّرور الَّتي سبَّبت المـزدكيَّـة ، فمسح الأراضي وحـدَّد كميَّـة الضَّرائب ، وسمح للفـلاَّح بتعيِّين نـوع المحصـول ، ولكن وُضِعَت ضريبـة شخصيَّـة على جميـع الـذُّكـور بين سنِّ العشرين والخمسين ، أُعفي منها الجند والنُّبلاء والكهنة والموظَّفون والمصابون بعاهات ، وعاد نظام الطَّبقات[١٠] .

ولا يفوتنا ونحن نطوي آخر الكلمات عن الحضارة الإيرانيَّة أن نقول :

ويمكن تمييز « الإيوان » في مباني هـذه الحضـارة ، الَّـذي أثـار الإعجـاب صيـاغـة ودقَّة ، والَّذي سيصبح له شأن في الأبنية الإيرانيَّة المتأخِّرة .

وأنَّ مركز المرأة كان حسناً نسبيّاً أيَّام السَّاسـانيِّين ، فلقـد كان لهـا نصيب أوفى من الحياة .

الحَضَارة اليونانيَّة (الإغريقيَّة)

قامت في جزر بحر إيجة حضـارة سُمِّيت (مـا قبل الهلِّلينيَّـة) ، ومن هـذه الجزر جـزيرة كريت ، وجـزر السِّيكـلاد ، حيث سكنهـا الإنسـان قبـل الألف الخـامس قبل الميلاد ، وازدهرت حضـارة كريت حـول سنـوات [٣٠٠٠ ـ ٢٥٠٠ ق.م] ، وهي **الحضارة المينويَّة** ، نسبة إلى مينوس ، ملـك مـدينـة كنوسوس الأُسطوري ، اكتشفهـا آرثرانفيس [١٨٥١ ـ ١٩٤١ م] ، وذلـك سنـة ١٩٠٠ م ، وتبيَّن أنَّ الحضـارة المينـويَّـة

(٩) أسَّسها مَزْدَك : [حوالي ٤٨٠ ـ ٥٢٨ م] .

(١٠) ثمَّ بدأت الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة في إيران .



*ماني



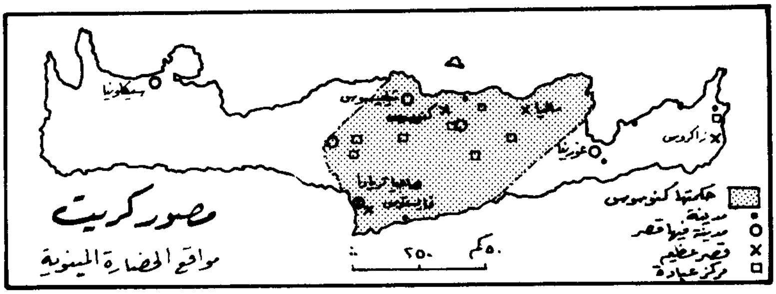
* كان الرُّمـــاة في الجيش السّاساني يؤلّفون أهم فرق الجيش

عام ٢٠٠٠ ق.م ازدهرت وتقـدَّمت اقتصـاديّـاً واجتماعيّاً ممّـا أدّى بفنِّ العمارة إلى تحقيق إنجازات ضخمة ، كما استخدم السُّكّان كتابة تصويريَّة أبسط من الكتـابـة الهيروغلوفيَّـة المصريَّة .

وكوَّنت كريت ثروات ضخمـة من تجـارتهـا البحريَّـة الـواسعـة المـزدهرة ، وأشـد ما يدعو إلى الدَّهشة في الجزيرة نظام صرف المياه ، الَّذي كان من الرُّقي ، بحيث يضارع أي نظام تصريف سابق للقرن الثَّامن عشر الميلادي .

ولعلَّ سبب نهايـة هـذه الحضـارة مـؤثرات بركانيَّـة ، كبركان ثيرا المـدمِّر[1] ، مـع صدمات الأمواج العاتية الَّتي رافقت ذلك ، ثمَّ جاء كريت شعبٌ غازٍ لا يُعرف منشؤه ، حوالي ٢٤٠٠ ق.م ، عرف البرونز واستعمله بكثرة .

لقد أسهمت الحضارة الكريتيَّة المينويَّة في نشوء الحضارة اليونانيَّة .



وأقدم الشُّعوب اليونانيَّة هم الآخائيُّون[2] ، الَّذين اندفعوا إلى البلقـان والهيللاد نحو سنة ٢٠٠٠ ق.م ، في الوقت الَّذي هاجر فيـه بعض الكريتيِّين من جزيرتهم وأقـاموا في الأرض اليونانيَّة ، فولدت حضارة هي الحضارة الآخائيَّة ـ الهيلَّلاديَّة ، الَّتي بلغت قمَّتهـا ما بين : [١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م] ، عندما سيطرت على طرق البحر المتوسـط التِّجـاريَّـة الَّتي كان الكريتيُّون يسيطرون عليها .

ودُفِعَ الآخيُّون بـدورهم إلى السَّواحل الآسيويَّـة أمـام أقوام جـديـدة ، حملت منهم الحضـارة مـاقبـل الهلِّلينيَّـة ، ونشـأت مجتمعـات جـديـدة في مطلـع القرن الثَّـاني عشر قبـل الميـلاد ، ليس من السَّهـل أن يميِّـز المرء من كان أصلـه إيجيّـاً ، ومن كان أصلـه يونانيّاً ، وشكَّلت هذه المجتمعات الجديدة الحضارة الهلِّلينيَّة .

(١) بركان ثيرا : شمال كريت قرابة ١٠٠ كم .

(٢) وهم من الشُّعوب الهندو ـ أُوربيَّة ، اندفعوا إلى اليونان وجزر بحر إيجة .

ويظهر أنَّ الهلّلينيّين عندما حلّوا في بلاد اليونان ، كانوا منقسمين إلى قبائل تَدعى كلٌّ منها جينوس Genos ، وكل قبيلة مستقلة قائمة بنفسها (ممالك مدن) ، وكانت تنظِّم العادة والعرف تنظِّم الأفراد فيما بينهم ، وهناك قوانين ناظمة تحدِّد علاقات كلِّ قبيلة بالقبائل الأُخرى ، وخصوصاً بعد أن تحوَّلوا من رعاة إلى زُرَّاع .

يقول وُل ديورانت : « وأصعب ما يواجه مؤرِّخ الحضارة اليونانيَّة القديمة ويثبِّط همَّته ، هو أن يؤلِّف من هذه الأعضاء المتفرِّقة في جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة ، وقصَّة متَّصلة الأجزاء »[٣] .

ويمكن القول : إنَّ التَّطوُّر السِّياسي والاجتماعي لبلاد اليونان يتمركز منذ منتصف القرن السَّابع حتَّى منتصف القرن الرَّابع قبل الميلاد حول قُطْبَيْ : (أثينا) الَّتي مثَّلت المدينة العابثة المتبذِّلة ، والَّتي كان كلُّ واحد من سكَّانها حرّاً بشخصه وأعماله ، وبإمكانه أن يناهض ويحرج سلطة الدَّولة ، و (إسبارطة) الّتي مثَّلت الصَّلابة الّتي لا تلين ، فنظامها الاجتماعي والاقتصادي كان يستهدف تأسيس جيش يؤدِّي الفلاحون نفقاته .

أثينا :

قيل : وضعت أثينا مبادئ الحكم الديمقراطي في أواخر القرن السَّادس قبل الميلاد ، أيَّام دراكون وصولون وبيزيسترات وكليستين ، مع قسوة وشدَّة ، فالموت عقاب أيِّ مخالفة لحكم من أحكام قوانينهم .

والواقع أنَّ هذه الديمقراطيَّة الَّتي تمثَّلت بالحرِّيَّة والمساواة للآثنيِّين فقط ، أما الأرقَّاء[٤] فقد كانت شروطهم الاجتماعيَّة سيِّئة جداً في أثينا ، وفي كلِّ المدن اليونانيَّة الأُخرى ، وكذلك الغرباء[٥] .

---

(٣) قصَّة الحضارة : ١٣٥/٦

(٤) وهم أرقَّاء حرب ، أو أرقَّاء بسبب حكم صادر في حقِّهم ، أو بسبب ولادتهم .

(٥) وهم رجال أحرار من منشأ أجنبي ، ولم يكن لهم حق ـ شأن الأرقَّاء ـ بإدارة شؤون الدَّولة .

يقول الدُّكتور أحمد زكي : « عدُّوا أثينا البلد الديمقراطي ـ حكم الشَّعب بالشَّعب ـ الأوَّل الَّذي عرفه التَّاريخ ، وكانت أثينا البلد مع هذا مدينـة من مـدائن الإغريق أكثر أهلها العبيد ، كانت ديمقراطيَّتهم ديمقراطية للقِلَّة فيهـا من الأحرار ، وكانت ديمقراطيَّـة محدودة مشروطة ، وهي ديمقراطيَّة ضاقت بالَّذي قال سقراط ، وبـالَّـذي صرَّح بـه من آراء ، فقضت عليه بالموت ، وهي الدِّيمقراطيَّة الَّتي قام فيها فيلسوفها الثَّـاني أفلاطون ، يقول في جمهوريته : يحصر الحكم في فئة من خيار النَّاس ، هي وحدها الصَّالحـة ، وهي وحدها المسؤولة ، وسائر النَّاس لها تبع »[٦] .

وأُحصي سكَّان أثينا حوالي عام ٣١٠ ق.م ، فوجـد فيهـا ٢١,٠٠٠ من المواطنين ، و ١٠,٠٠٠ من الغربـاء المستـوطنين ، و ٤٠٠,٠٠٠ من الأرقَّـاء ، « فـأمَّـا العــدد الأخير فلا يمكن تصديقه ، ولكنَّا لا نعرف شيئاً ينقضه ، وأكبر الظَّنِّ أنَّ عـدد الأرقَّـاء الَّـذين كانـوا يعملـون في المـزارع قـد ازداد ، لأنَّ الضِّيــاع كانت آخــذة في الاتِّســاع ، ولأنَّ استغلالها بجهود العبيد ، تحت إشراف العبيد الَّـذين يعملون في خـدمـة المـالـك البعيـد عنها ، كان آخذاً في الازدياد »[٧] .

« مع تركُّز الثَّروة في أيدي عدد قليل جدّاً من الأفراد »[٨] ، فأين موقع (الإنسان والإنسانيَّة) في هذه الحضارة ؟

وأهمُّ المؤسَّسات الأثينيَّة :

(**مجلس الشَّعب**) : وكلُّ مـواطن مسجَّـل في سجـل بلـديَّـة مـا ، أتمَّ خـدمتـه العسكريَّة[٩] ، وغير محكوم بـأيِّ حكم ، هو عضو في هـذا المجلس ، ولو توافرت الشُّروط

(٦) العرب والحضارة الحديثة ، ص ١٩

(٧) قصَّة الحضارة : ١٦/٨

(٨) قصَّة الحضارة : ١٩/٨ و ٢٩

(٩) الَّتي كانت مدَّتها سنتين .

المذكورة بثلاثين ألف ، أو أربعين ألف ، لذلك قيل عن أثينا : إنَّها جمهوريَّة من الخطباء .

و (**مجلس الشُّيوخ**) : وهو مجلس الدَّولة ، والهيئة الَّتي تمثِّل الشَّعب بصورة دائمة ، وتنفِّذ مشيئته ، وعدد أعضائه خمس مئة فقط ، يُنْتَخبون بالقرعة بعد ترشيحهم من بلدياتهم ، وكانوا في كلِّ مساء ينتخِبُون من بينهم بالقرعة رئيساً يُعطى مفاتيح الخزنة ، وخاتم الدَّولة وسجلاَّتها ، ليحكم أثينا يوماً واحداً[١٠] .

إسبارطة :

لم يكن في إسبارطة أيُّ نوع من أنواع الحياة الخاصَّة ، فقد كان الرِّجال طوال أوقاتهم في الثُّكنات ، حيث التَّمارين العسكريَّة ، وتناول الطَّعام مع الزُّملاء ، والمرأة ينظر إليها نظرة أُمٍّ لا زوجة ، وينزع منها ولدها منذ حداثته ويسلَّم إلى الدَّولة لكي تجعل منه جنديّاً ، ومع وجود مساوئ لنظام إسبارطة التَّربوي ، فإنَّها كانت كفيلة بصنع رجال مملوئين شجاعة وحزماً .

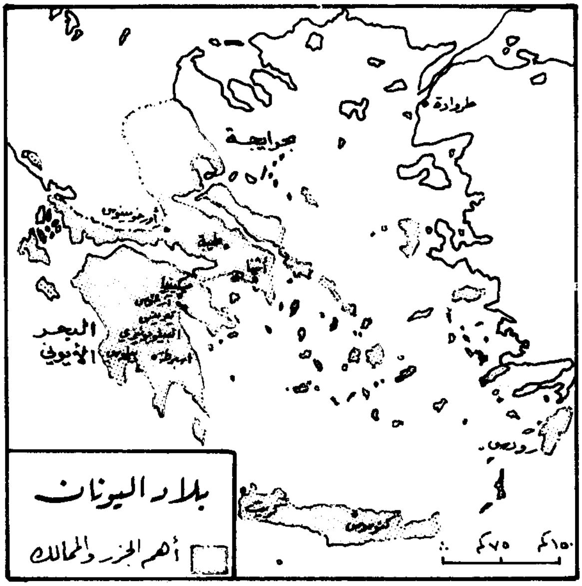
وفي القرنين الخامس والرَّابع قبل الميلاد ، توسَّعت هيئة الأرباب في اليونان ، وأصبح من آلهتهم المعترف بها أفروديت (عشتار) ، القادمة من سورية وقبرص ، وزميلها أدونيس ، وإيزيس القادمة من مصر ، وآمون الَّذي قدم من ليبيا .

ولَّما قام بعض الفلاسفة والمفكِّرين ، في انتقاد المعتقدات الخرافيَّة ، تدخَّلت الدَّولة ، وأجبرت بعضهم على التَّراجع ، وأعدمت آخرين ، لأنَّها لم تكن تفرِّق بين السِّياسة والدِّيانة .

ومن أعلام الفلسفة ـ الَّتي أرادت حلَّ أُحجية الوجود ومنشأ الأشياء ـ إمبيدوكل Empedocls ، الَّذي حاول تفسير جميع حوادث العالم ، بامتزاج العناصر

---

(١٠) وهذا لا يعني عدم وجود حاكم أعلى (امبراطور) كبريكليس مثلاً .



* مصور بلاد اليونان ، [أهم الممالك والجزر اليونانيّة]

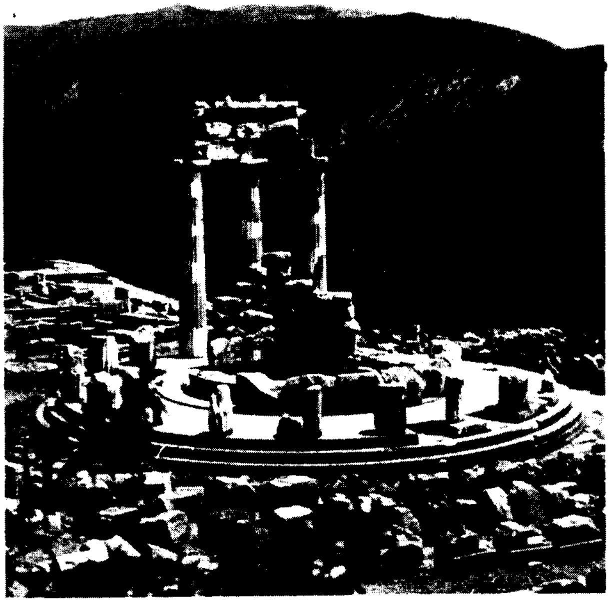
الأربعة : النَّار ، والهواء ، والأرض ، والماء ، تحت تأثير المحبَّة ، أو بانفكاك بعضها عن بعض تحت تأثير التَّناقض ، وديموقريط Democrite ، وسقراط الَّذي رأى أنَّ الإنسان مصابٌ بداء يتألَّم منه دوماً ، وهو جهله بنفسه ، ولا يمكن شفاؤه من ذلك إلاَّ إذا عرف نفسه جيِّداً .

أمَّا الفنُّ ، فقد ألبس اليونانيُّون الجمال كلَّ شيءٍ لمسوه بوساطة موهبة خاصَّة امتازوا بها .

☆ ☆ ☆

☆ ☆

☆



*معبد أثينا في دلفي



*بريكلس

☆ ☆ ☆

الحَضَارةُ الهِلِنْسْتِيَّة

وحَّد الإسكندر بلاد اليونان سنة ٣٣٦ ق.م ، فألغى جميع الحكومات الدِّكتاتوريَّة ، وأقرَّ أن تعيش كلُّ مدينة يونانيَّة حرَّة حسب قوانينها ، وأعربت جميع الممالك اليونانيَّة ـ باستثناء إسبارطة ـ عن ولائها له ، ثمَّ سار شرقاً إلى آسية فاتحاً ، لينال مجد إقامة دولة عالميَّة ، بلغة وثقافة واحدة ، فهزم داريوس ووصل السِّند ، وأصبح إمبراطوراً يونانياً ـ فارسياً ، يحكم دولة يكون فيها الفرس واليونان أكفاء ، أراد أن تمتزج ثقافتهم ودماؤهم امتزاجاً سليماً ، ينهي النِّزاع الطَّويل بين الشَّرق والغرب ، بذلك الاقتران السَّعيد بين حضارتيها ، فشجع الآلاف من جنوده على أن

يتَّخذوا لهم أزواجاً فارسيَّات ، وتزوَّج هو في عرس عظيم[١] استاتيرا Statira ابنة دارا الثَّالث ، وبهذا ربط بنفسه الأُسرة المالكة الفارسيَّة .

وفتح الإسكندر أراضي الجزيرة وفارس لليونانيِّين ، فخفَّف بهذا العمل ضغط السُّكَّان في بعض الدُّول اليونانيَّة ، وقلَّل من حدَّة حرب الطَّبقات ، فتشكَّلت مدن (متأغرقة) في آسية ، شكَّلت الجزء الهام في الإمبراطوريَّة السَّلوقيَّة Seleucud Empire .

واتَّبع الإسكندر لنفسه حياة وسطاً بين الأساليب الشرقيَّة والمقدونيَّة اليونانيَّة ، وكان جنوده يرون في هذا التَّغيُّر استسلاماً منه للشَّرق ، وكان أكبر شاهد على ارتداده عن دينه وفكر أرسطو[٢] ، جهره بأُلوهيَّته ، وبعث عام ٣٢٤ ق.م رسالة إلى الممالك اليونانيَّة يبلِّغها أنَّه يرغب في أن يُعْتَرَف به ابناً للإله زيوس ، والإله آمون ، وصدعت معظم الدُّول بما أُمِرَت .

ولمَّا عاد الإسكندر من السِّند إلى بابل ، انغمس في الشَّراب ، ومات عن عمر قدره ثلاث وثلاثون سنة ، عام ٣٢٣ ق.م ، ولمَّا سأله قوَّاده لمن يترك ملكه ؟ أجابهم : « إلى أعظمكم قوَّة » .

انتشار الهلنستيَّة[٣] : [٣٢٢ ـ ١٤٦ ق.م] :

انقسمت إمبراطوريَّة الإسكندر بعد وفاته ، فقامت ثلاث ممالك هي : الدَّولة السَّلوقيَّة ، أسَّسها القائد سلوقس نيكاتور (أي المظفَّر) ، عاصمتها أنطاكية ، وضمت إيران والعراق وسورية وآسية الصُّغرى ، ودولة البطالمة (أو البطالسة) ، أسَّسها القائد

---

(١) في مدينة السُّوس ٣٢٤ ق.م .

(٢) الَّذي أمره أن يعامل اليونانيِّين معاملة الأحرار ، ويعامل البرابرة (الشُّعوب غير اليونانيَّة) معاملة العبيد .

(٣) هيلين : إحدى جدَّات اليونان ، وإيست : الشَّرق .

بطليموس الأوَّل في مصر ، وعاصمتها الإسكندريَّة ، والدَّولة الأنتيغونيَّة ، أسَّسها القائد أنتيغون الأوَّل (الجبَّار الأعور) في مكدونية ، وعاصمتها بيلاً Pella .

لقد كانت التِّجارة حياة الاقتصاد الهلنستي ، فهي الَّتي أوجدت الثَّروات الكبرى ، وشادت المدن العظيمة ، وكان التُّجَّار مع تجارتهم ينشرون نزعتهم العالميَّة ، وقامت مصارف عامَّة ووطنيَّة ، تودع فيها الحكومات أموالها ، ويديرها موظَّفون معيَّنون من قبل الدَّولة ، لذلك قيل : « العصر الهلنستي لم يشهد سقوط الحضارة اليونانيَّة ، بل شهد انتشارها »(٤) .

« وتدين علوم اليونان الرِّياضيَّة بازدهارها ، والقوَّة الدَّافعة لها إلى مصر ، ويدين الفلك اليوناني بازدهاره وقوَّته الدَّافعة إلى بابل ، ذلك أنَّ استيلاء الإسكندر على بلاد الشَّرق ، قد أدَّى إلى عودة تبادل الأفكار ، وإلى اتِّساع ذلك التَّبادل الَّذي أعان منذ ثلاثة قرون قبل ذلك الوقت على ميلاد العلم اليوناني في أيونيا ، وفي وسعنا أن نعزو إلى هذا الاتِّصال الجديد بمصر والشَّرق الأدنى ، ما نراه من تناقض ، فقد بلغ العلم اليوناني ذروته في العصر الهلنستي ، حيث كان الأدب اليوناني والفن اليوناني آخِذَيْن في الاضمحلال »(٥) .

فمن علماء الهندسة في هذه الحضارة إقليدس Eucleides ، الَّذي علم في مدرسة الإسكندريَّة .

وأرخميدس Arkhimedes (ت ٢١٢ ق.م) الَّذي سافر إلى الإسكندريَّة ، حيث درس على خلفاء إقليدس ، وشغف بالرِّياضيَّات ، وتوازن السَّوائل ، وقوانين الرَّافعة ..

وازدهرت في الحضارة الهلنستيَّة فلسفتان :

---

(٤) قصَّة الحضارة : ٣٦/٨

(٥) قصَّة الحضارة : ١٤٩/٨

الأبيقوريّة : هدف الفلسفة عند أبيقور[٦] Apikouros [٣٤١ ـ ٢٧٠ ق.م] تحرُّر النَّاس من الخوف ، وليست وظيفتها تفسير العالم ، لأنَّ الجزء لا يستطيع قطّ أن يفسِّر الكل ، إن وظيفتها أن تهدي إلى السَّعادة ، وليس في الفلسفة إلاَّ قضيَّتان اثنتان مؤكَّدتان ، وهما أنَّ اللَّذَّة خير ، وأنَّ الألم شرٌّ ، ويقصد باللَّذَّة تحرُّر الجسم من الألم ، والرُّوح من الانزعاج .

والفهم ليس من أسمى الفضائل فحسب ، بل إنَّه أسمى السَّعادة أيضاً ، لأنَّه يعيننا أكثر ممَّا تعيننا أيُّ موهبة أُخرى من مواهبنا ، على تجنُّب الألم والحزن ، والحكمة هي وسيلتنا الوحيدة إلى الحرِّيَّة ، فهي الَّتي تحرِّرنا من رقِّ الانفعالات ، ومن الخوف والفزع .

الرِّواقيَّة : قضى زينون[٧] Zenon كثيراً من السِّنين تحت وصاية غيره من الفلاسفة ، ثمَّ أنشأ مدرسته الفلسفيَّة الخاصَّة به سنة ٣٠١ ق.م ، وبدأ يتحدَّث إلى طلاَّبه وهو رائح غاد تحت أروقة أعمدة استوا بوسيلي Stoa Poecile ، من أقواله المأثورة : « إنَّما العيش ، هو العيش مع الطَّبيعة » ، وواصل عمل زينون بعد وفاته أقلانيتوس الأسوسي Cleantles of Assus ، ومن بعده أقريسبوس الصُّولي Chrysippus of Soli ، وكان أقريسبوس أكثر تلامذة المدرسة الرِّواقيَّة علماً وإنتاجاً ، وهو الَّذي أكسبها صورتها التَّاريخيَّة عندما قدَّم شروحاً لها ، بلغت ٢٧٠ كتاباً .

والأبيقوريُّون متَّفقون في أنَّ المعرفة لا تنشأ إلاَّ من الحواس ، والمقياس النِّهائي للحقيقة في رأيهم ، هو المدركات الحسِّيَّة ، الَّتي تضطر العقل إلى قبولها ، بما فيها من وضوح أو ثبات ، على أنَّه ليس من الضَّروري أن تؤدِّي التَّجارب إلى المعرفة ، لأنَّ بين الحواس والعقل توجد العواطف أو الانفعالات ، وهذه قد تشوِّه التَّجارب فتجعلها

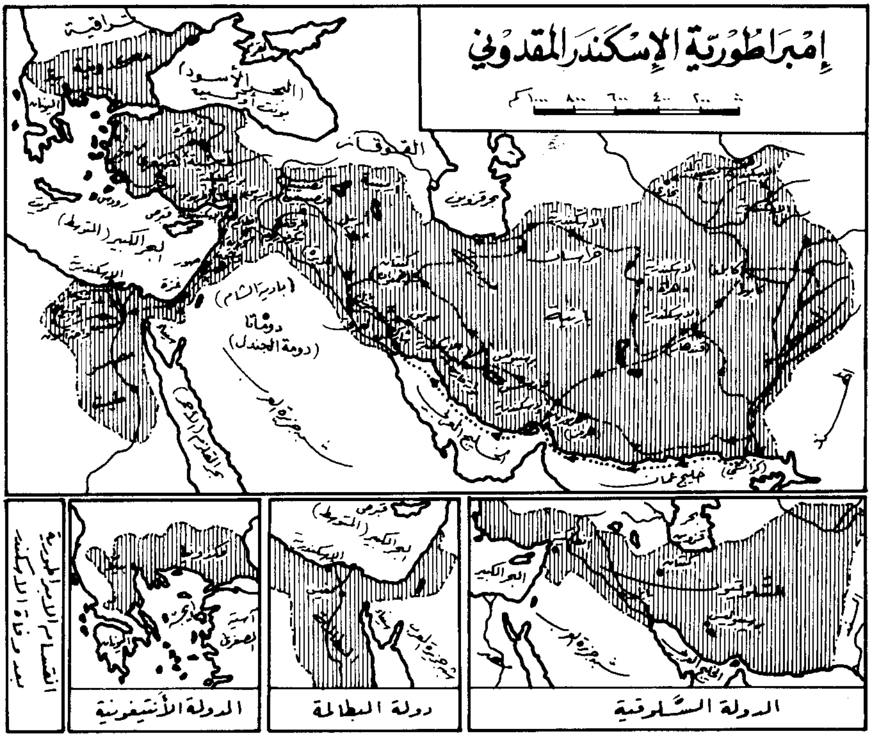
---

(٦) ولد أبيقور في جزيرة ساموس ٣٤١ ق.م .

(٧) كان زينون (ت حوالي ٢٦٤ ق.م) من أهل سيتيوم إحدى مدائن قبرص ، وكانت المدينة فينيقيَّة في بعض أحيائها ، يونانيَّة في أكثرها ، وكثيراً ما يُقال إنَّ زينون فينيقي ، ويقال أحياناً إنَّه مصري .

أخطاء ، كما تشوّه الرَّغبات فتجعلها رذائل ، والعقل هو أسمى ما أحرزه الإنسان ، وهو بذرة من بذور العقل الكُلِّي الَّذي وضع قواعد العالم ، والعالم كالإنسان مادّي بأكمله ، وإلهي بفطرته ، وما أشبه الإنسان بالكون الصَّغير في الكون الكبير .

والرِّواقي مواطن عالمي ، ولاؤه للإنسانيَّة بأجمعها .



إنَّ اليونان عرضوا على الشَّرق الفلسفة ، وعرض الشَّرق على اليونان الدِّين ، وكانت الغلبة للدِّين ، لأنَّ الفلسفة كانت ترفاً يقدَّم للأقلِّيَّة الضَّئيلة ، أمَّا الدِّين ، فكان سلوى للكثيرين ، سهَّل ذلك أنَّ آلهة اليونان في جوهرها آلهة الشَّرق بأسماء أُخرى .

وقد عجَّل في انهيار اليونان : الجري وراء اللَّذَّات ، إذ تحلَّلت العلاقات الجنسيَّة من القيود ، ممَّا أنهك حياة الرَّاشدين ، كما تجاوز الفلاسفة قَتْلَ الأطفال بحجَّة أن يُخَفِّف

ذلك من ضغط السُّكَّان على موارد الرِّزق ، فسبَّب ذلك قفر المدن وإجداب الأرض . في الوقت الَّذي انغمس فيه النَّاس في التَّرف والبخل والكسل والعزوف عن الزَّواج .

إنَّ التَّحلُّل من القيود الأخلاقيَّة ، والنَّزعة الأنانيَّة الفرديَّة عجَّلا في انهيار اليونان ، لقد صوَّر (منندر) في مسرحيَّاته الحياة الأثينيَّة بأنَّها حياة تدور حول السَّفاسف والغواية والزِّنى ، فكان الانهيار طبيعيّاً .

☆ ☆ ☆

الحَضَارةُ الرُّومانيَّةُ

غزت إيطالية الشُّعوب الهندو ـ أُوربيَّة في أواخر الألف الثَّاني ، وأوَّل الألف قبل الميلاد ، واللِّيغوريُّون أقدم من عُرِفَ من شعوب إيطاليَّة ، فهم سكَّانها في العصر الحجري الحديث ، عاشوا في صِقِلِّيَّة ، وفي سهل اللاَّتيوم ، وفي شمالي إيطالية ، ثمَّ تحرَّكت قبائل هندو ـ أُوربيَّة على موجات إلى إيطالية ، فكان منها اللاَّتينيُّون Latins ، والسَّبيلِّيُّون Sebilliens ، فدخلها عصر الحديد حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م .

وجاءها الأتروسكيُّون في أوائل القرن الثَّامن قبل الميلاد ، جاؤوا من الشَّرق ، فهم من آسية الصُّغرى على الأرجح ، فسكنوا سهل اللاَّتيوم ، وتأسَّست رومة سنة ٧٢٣ ق.م ، وحكموا اللاَّتيوم ، وشمالي إيطالية قرناً ونصف القرن ، وكان عندهم لكلِّ مدينة أتروسكيَّة عبادة خاصَّة ، وأكبر إله عندهم (فولتمنا) ربُّ الأرباب ، ومن آلهتهم أيضاً الثَّالوث المقدَّس تينيا (جوبيتر) ، وأُوني (جونون) ، ومنرفا ، وكانت هذه الآلهة الثَّلاثة هي أصل الثَّالوث الَّذي أقام نهائيّاً على تلِّ الكابتول ، والَّذي عبده الرُّومان فيما بعد .

وفي ممالك المدن الأتروسكيَّة هذه ، كان المجتمع يتألَّف من طبقة الأرقَّاء ، ومن طبقة أرستقراطية (اللوكومون) تستثمر الأرقَّاء ، وتعيش من كدِّهم .

وما كاد حكم الأتروسكيِّين يزول من رومة ، حتَّى اتَّحد أهلها مع السَّابينيِّين وألَّفوا حكومة أرستقراطيَّة ، وكان ذلك سنة ٥٠٩ ق.م ، ولكن بقي تأثير الأتروسكيِّين كبيراً في نشوء المنظَّمات الرُّومانيَّة السِّياسيَّة الأُولى ، منها : الملكيَّة ، ومجلس الجماعات ، ومجلس الشُّيوخ ، والملكيَّة كانت انتخاباً مدى الحياة ، ومجلس الجماعات يملك السُّلطات التَّشريعيَّة والقضائيَّة ، أمَّا مجلس الشُّيوخ فيتألَّف من رؤساء الأُسر المتنفِّذة الرُّومانيَّة والأتروسكيَّة والسَّابينيَّة ، يختارهم الملك ، ويبلغ عددهم ثلاث مئة عضو ، ومهمَّتهم مساعدة الملك في كلِّ أُمور الدَّولة .

ووُزِّع سكَّان رومة (الخواص ، والأتباع ، والعَوَام) بحسب ثرواتهم إلى خمس طبقات ، وعام ٤٤٥ ق.م ، نال العوام كافة حقوقهم المدنيَّة ، وبدأ امتزاج الطَّبقتين : الخواص والعوام[١] .

وكانت الحقوق الرُّومانيَّة الابتدائيَّة في هذه الفترة ، إرشادات حقوقيَّة عليها مسحة دينيَّة ، مع تأثير الحقوق الإغريقيَّة ، لاسيَّما تشريع صولون ، خصوصاً في الأحكام المتعلِّقة بالاحتفالات والمراسيم والمواكب الجنائزيَّة .

ومنذ حوالي ٢٧٠ ق.م حقَّقت رومة الوحدة الإيطاليَّة[٢] ، وأصبح الجيش الرُّوماني أداة عسكريَّة قويَّة ، وتكاملت معداته ، وتنوَّعت خططه ، وازدهرت طبقة العوام ، وانحطَّت طبقة الخواص ، وتشكَّلت طبقة جديدة من النُّبلاء (العوام ـ الخواص) ، استلمت زمام الحكم في رومة .

---

(١) روما الشَّرق الرُّوماني ، د . سليم عادل عبد الحق ، طبعة المديريَّة العامَّة للآثار والمتاحف ، دمشق .

(٢) جعل الرُّومان سنة ٧٥٣ ق.م بداية تاريخهم ـ وهي سنة بناء مدينة رومة ـ وقسَّموه إلى ثلاثة أقسام : العهد الملكي : [٧٥٣ ـ ٥٠٩ ق.م] ، والعهد الجمهوري : [٥٠٩ ـ ٣٢ ق.م] ، وتمَّت خلاله معظم الفتوحات ، ثمَّ العهد الإمبراطوري : [٣٢ ق.م ـ ٤٧٦ م] ، واستمرَّت الدَّولة الرُّومانيَّة البيزنطيَّة في =

واستفادت إيطاليَّة من هذه الوحدة ، وأعطتها ما كان يلزمها من تجهيزات اقتصاديَّة ، فأنشأت شبكة طرق معبَّدة كبيرة مرصوفة .

وما كاد ينتصف القرن الثَّاني قبل الميلاد ، حتَّى شهد العالم نهاية استقلال كثير من الشُّعوب ، فقد فتح الرُّومان مكدونية ، وزهقت حرِّيَّة اليونان سنة ١٤٦ ق.م ، وأصبحت قرطاجة[٣] خراباً ينعق فيها البوم في آخر عام ١٤٦ ق.م ، ولفظت إسبانية آخر أنفاسها بعد ثلاث عشرة سنة ، وأصبحت آسية الصُّغرى ، وإفريقية القرطاجيَّة ولايات مسالمة في إمبراطوريَّة رومة العالميَّة ، ثمَّ فتحت سوريَّة عام ٦٤ ق.م ، وأنهى الرُّومان حكم السَّلوقيِّين ، ثمَّ فُتِحَت مصر .

لقد ضمنت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة تجارة عالميَّة في بحار آمنة ، وأنشأت شبكة من الطُّرق الباقية حتَّى يومنا هذا ، أضحت شرايين يجري فيها دم الحياة الجيَّاش[٤] .

واتَّخذ الرُّومان لأنفسهم الحضارة اليونانيَّة ، لذلك قيل : « لم تَمُت الحضارة اليونانيَّة حين استولت رومة على بلاد اليونان ، بل عاشت بعد ذلك عدَّة قرون »[٥] ، فمدُّوا في حياتها ، ونشروها في كلِّ الأصقاع الَّتي وصلوا إليها ، فانطبعت بطابعهم ،

= القسطنطينيَّة حتَّى سنة ١٤٥٣ م ، حيث فتحها محمد الفاتح العثماني ، أمَّا رومة فقد سقطت بيد القبائل الجرمانيَّة البربريَّة منذ سنة ٤٧٦ م .

(٣) قرطاجة (المدينة الجديدة Kartcha dsat) مدينة على شواطئ تونس الشَّماليَّة ، وهي مدينة بوجودها للملاَّحين الفينيقيِّين من أهل صور [٨١٤ - ٨١٣ ق.م] ، تمكن ملكها هانيبال من الانقضاض على رومة وأضحت بقبضة يده ، لكنَّه بدل أن يحاصرها سنة ٢١٦ ق.م بعد انتصاره في معركة (الأُوفيد Aufide) تريَّث وسار إلى جنوبي إيطاليَّة ، فتمكَّنت رومة من لَمِّ شملها وغزو قرطاجة وهانيبال في إيطالية ، لذلك قيل : « إنَّ الآلهة لم تمنح كلَّ مواهبها لرجل واحد ، إنَّك يا هانيبال تعرف كيف تنال النَّصر ، ولكنَّك لا تعرف كيف تنتفع به » .

(٤) قصَّة الحضارة : ٤١٦/١١

(٥) قصَّة الحضارة : ٢٠٥/٨

وأصبحت تدعى بالحضارة الإغريقيَّة ـ الرُّومانيَّـة ، وإن أضـاع الرُّومـان الكثير الكثير من تراث اليونان(٦) .

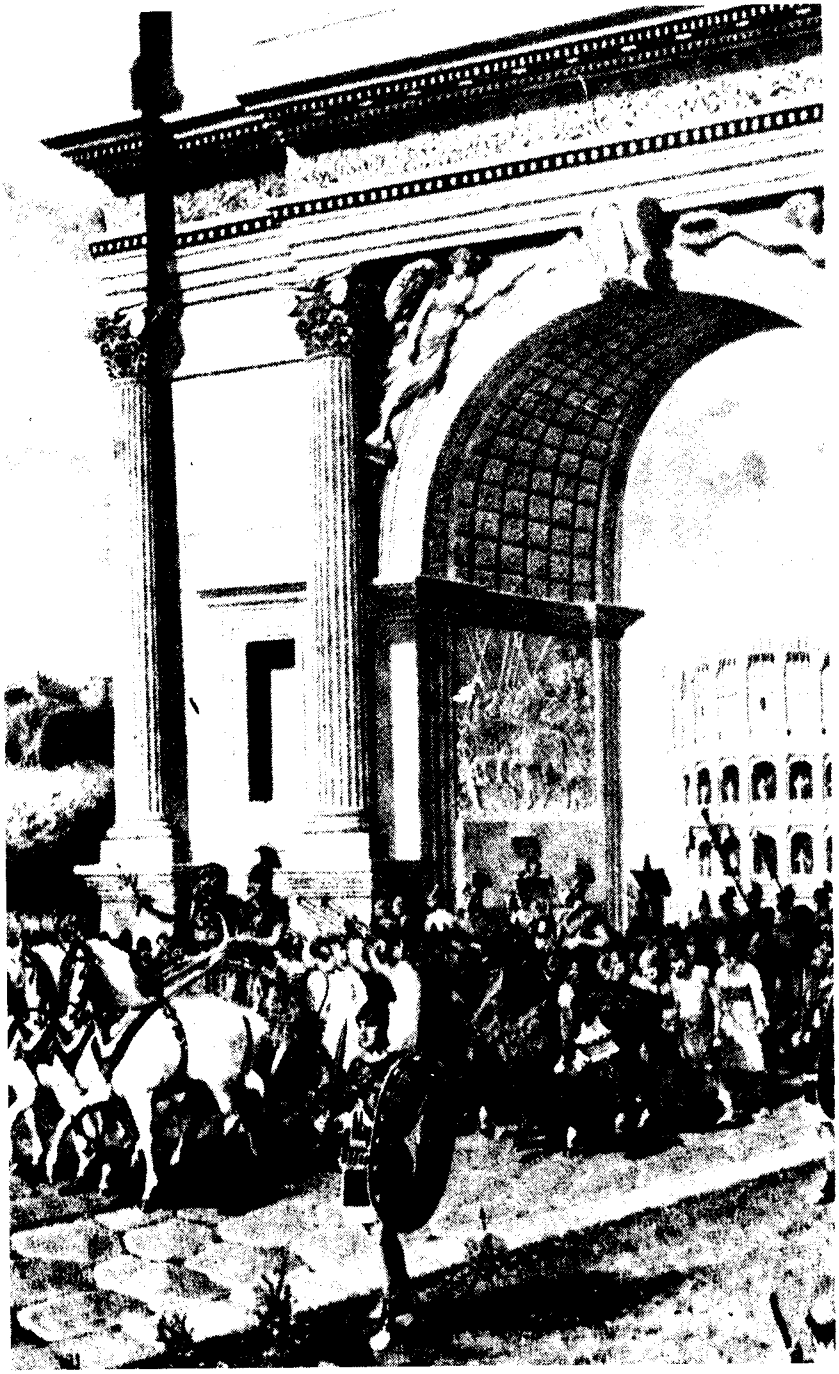
ولَمَّا احتكَّ الرُّومان بـالشَّرق وامتزجوا بـأُممـه ، أخـذوا عنهـا الكثير من المعـارف ، وتلقُّوا منها المسيحيَّة ، فاعتنقوها بعد تردُّد ، « لقد تغلَّب الشَّرق على رومـة في كلِّ شيء بعد احتكاكها به » .

لِمَ سقطت رومة ؟ ويجيب وُل ديورانت : « والحضارة العظيمة لا يُقْضى عليها من الخارج ، إلاَّ بعد أن تقضي هي على نفسها من الدَّاخل ، وشاهد ذلك أنَّـا نجـد الأسبـاب الجـوهريَّـة لسقـوط رومـة من شعب رومـة نفسـه ، أي في أخـلاقهـا ، وفي النِّـزاع بين طبقاتها ، وفي كساد تجارتها ، وفي حكومتها الاستبـداديَّـة البيروقراطيَّـة ، وفي ضرائبهـا الفادحة الخانقة ، وحروبها المهلكة »(٧) .

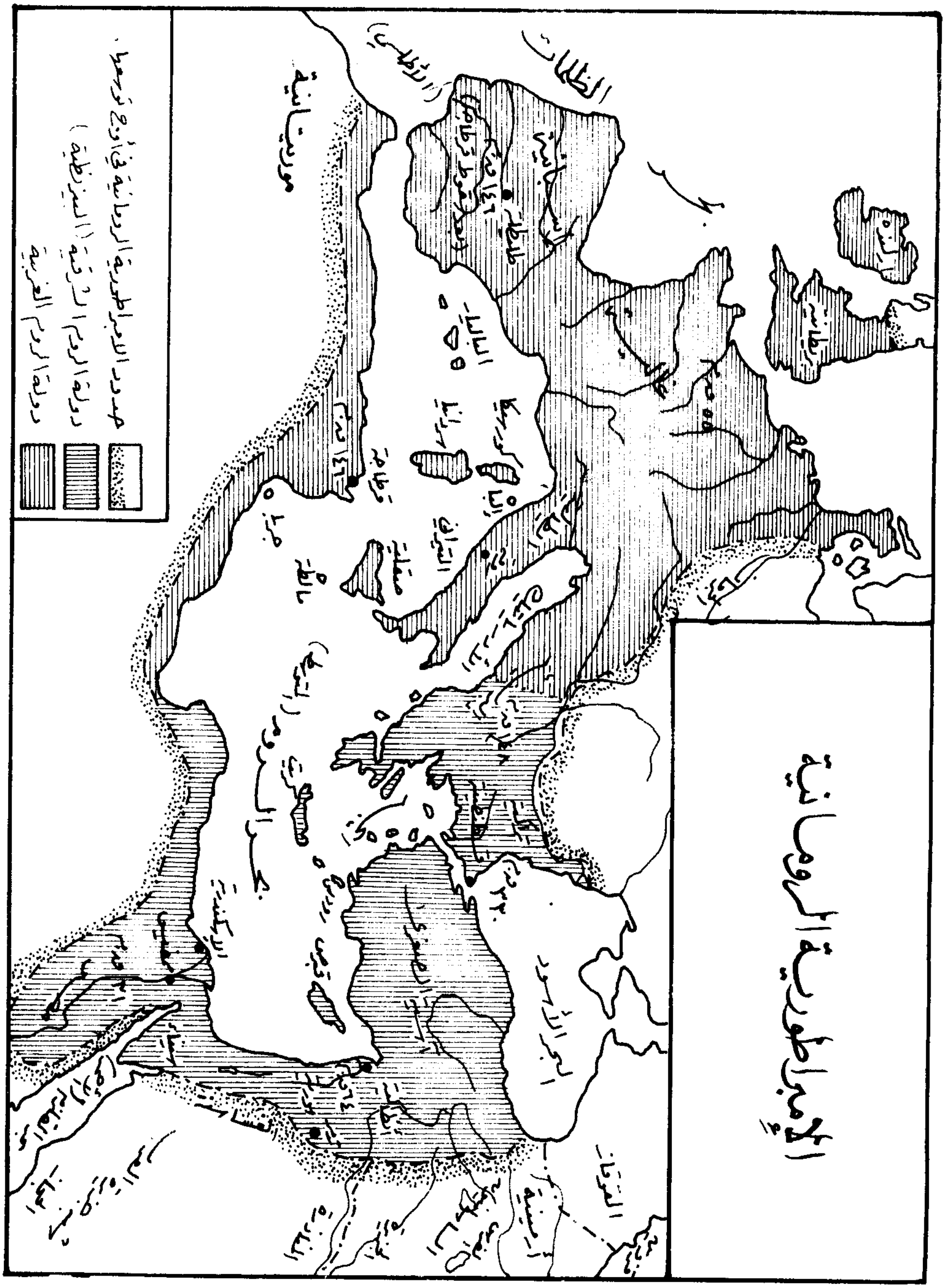
يضـاف إلى مـا سبـق ، أنَّ الرُّومـان مـا عرفـوا الـدِّيمقراطيَّـة في الحكم ، كانت الدِّيمقراطيَّة بينهم اسماً في عهد الجمهوريَّة ، ثمَّ زال حتَّى اسمهـا في عهـد الأبـاطرة ، ولقـد جهـد الرِّواقيُّـون الرُّومـان في إبراز معنى المسـاواة بين النَّـاس ، شيشرون Cicero ، سنكا Seneca ، جـايـوس Gaius ، وأضراب هـؤلاء ، ولكن لم يكن لهـذه الفئـة من الخطباء والكتَّاب من أثر في أُسلوب الحكم ، إنَّما كان أثرها في القـانون من حيث تخفيفـه وترقيعه ، لا سيما على العبيد الأرقَّاء .

(٦) لم تخترع رومة ـ في فنِّ العمارة ـ الأقواس أو العقود أو القباء ، ولكنَّها استخدمتها بجرأة وفخامة ، ولم تخترع التَّماثيل ، ولكنَّها وهبتها قوَّة واقعيَّة ، ولم تبتدع الفلسفة ، ولكن لكريشيوس وسنكا هما اللَّذان وجدت فيها الأبيقوريَّة والرِّواقيَّة صورتيهما النِّهائيَّتَيْن المصقولتَيْن أعظم صقل ..

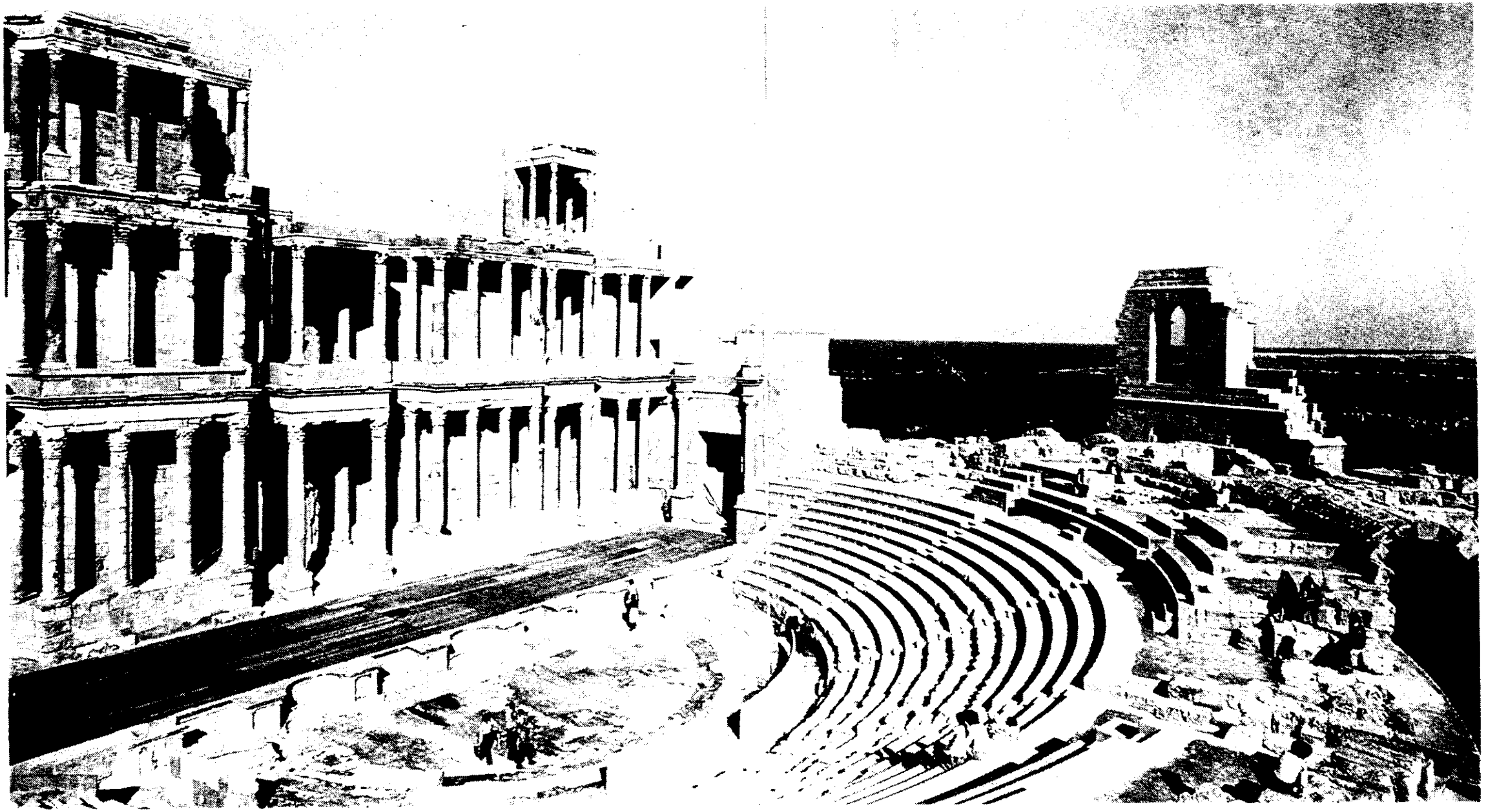
(٧) قصَّة الحضارة : ٤٠٤/١١ ، وفي ص ٤٠٨ ـ من المرجع المذكور ـ يقول عظيم المؤرِّخين : إنَّ المسيحيَّة كانت أهم أسباب سقوط الدَّولة الرُّومانيَّة ، لأنَّها حوَّلت أفكار النَّاس عن واجبات هذا العالم ، ووجَّهتهم إلى الاستعداد لاستقبال كارثة عالميَّة ، وإغرائهم بالجري وراء النَّجاة الفرديَّة عن طريق الزُّهد والصَّلاة ، بدل السَّعي للنَّجاة الجماعيَّة بالإخلاص للدَّولة والتَّفاني في الدِّفاع عنها .



(قوس النصر) عند الرومان



الإمبراطورية الرومانية وانقسامها



صبْراتة (ليبيا) : المسرح الروماني

وجاءت المسيحيَّة ، فحاولت ما حاولته الأجيال من قبل ومن بعد ، أن تجعل النَّاس سواسية ، وحاولت أن ترفع حظ الفقير ، وأن تجعل الثَّراء أمانة في عنق صاحبه يرعى فيه ـ وبه ـ صوالح النَّاس ، ولكن لم تلبث المسيحيَّة أن صارت دين الرُّومان ، ولم تلبث الكنيسة أن صار لها وجود ذاتي ، وصار لها استقلال ، وقوَّة ، وصار لها ثروة ، وصار حكم ، وصاحب الحكم لا ينزل عن حكمه طوعاً ليقسمه بين النَّاس[٨] .

☆ ☆ ☆

حَضَارةُ تشاتال هويوك

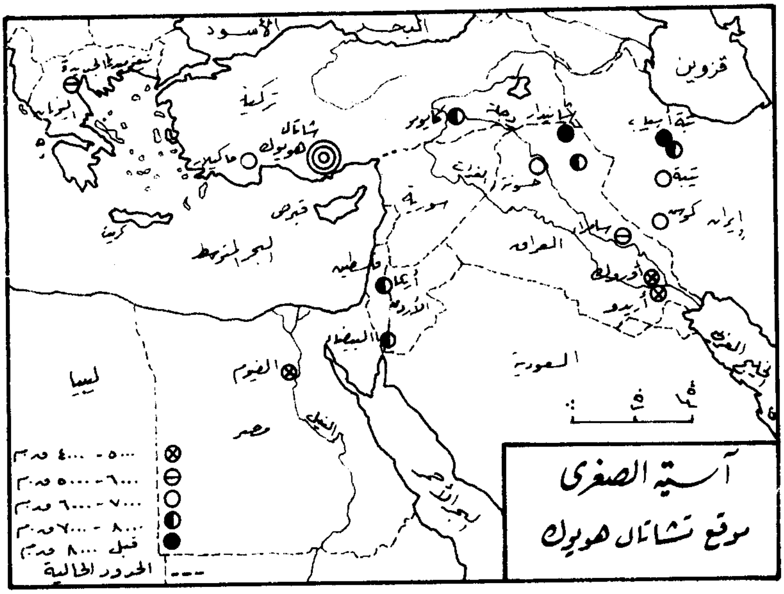
من أواخر المكتشفات الأثريَّة ، حضارة بدأت أعمال الحفر والتَّنقيب عنها في السِّتينات ، حضارة ازدهرت في أواسط آسية الصُّغرى ، في سهول قونية أواسط الأناضول ، بين الألف الثَّامن والألف السَّابع قبل الميلاد ، فهي بذلك حضارة سبقت الحضارة السُّومريَّة ببلاد الرَّافدين بأكثر من ألْفَي سنة ، عرفت بحضارة تشاتال هويوك[٩] ، الَّتي أتقن أصحابها الزِّراعة ، وتكاثرت محاصيلهم حتَّى عمدوا إلى تصدير الفائض منها إلى المدن القريبة والبعيدة .

لم تعرف (تشاتال هويوك) الكتابة ، ولا القراءة ، ولم تترك لنا نصوصاً مدوَّنة ، ودلَّت الفحوص (الرَّاديوكربونيَّة) على أنَّ هذه المدينة عاشت بين : ٦٢٥٠ وبين ٥٤٠٠ ق.م ، ودلَّت فحوص جذوع الشَّجر ، على أنَّها ازدهرت بين : ٧٢٠٠ وبين ٧١٠٠ ق.م ، أو : ٦٤٠٠ ـ ٥٣٠٠ ق.م .

(٨) د . أحمد زكي في : (العرب والحضارة الحديثة) ، ص : ١٩ و ٢٠ ، وهكذا استخدمت رومة سلطانها في كلِّ مكان لمساعدة الأغنياء على الفقراء ، كما كان جلد المواطن الرُّوماني عملاً لا يجيزه القانون ، أمَّا إلقاء الرَّقيق للوحوش ، فمنظر تسرُّ له نفوس الرُّومان .

(٩) (العربي) العدد ٣٢٨ ، آذار ١٩٨٦ ، وبهجة المعرفة ، المجموعة الثَّانية : ٤٥/٣

وأعجب ما في مدينة تشاتال هويوك أنَّها بلا شوارع ، التصقت منازلها بعضها ببعض ، واندمجت جدرانها ، فبدت أحياؤها كتلاً كخلايا النَّحل ، ومنازلها بلا أبواب ، يدخلها أهلها من سطوحها بوساطة سُلَّم خشبي يتسلَّقونه صعوداً إلى السَّطح ، ثمَّ يهبطون إلى المنزل عليه ، أو على سُلَّم آخر ، ولعلَّ الهدف الوقاية من الوحوش .



* آسيـة الصُّغرى ، ومـوقـع تشـاتـال هويوك

وممَّا يذكر أن مجتمع تشاتال هويوك سادته النِّساء لا الرِّجال .

وكانت بيوتهم من الطِّين المشوي - فعرفوا بذلك الفخَّار والآجر والخزف - ولها مزاريب من الجصّ ، تثبَّت على جدران المنازل من الخارج لتصريف مياه الأمطار ، وللمطابخ مداخن ، وطريقتهم في معالجة القمامة والفضلات تدلُّ على وعي صحِّي ، فقد اتَّخذوا من ساحة المنزل المكشوفة والمعرَّضة للهواء ولأشعَّة الشَّمس مرحاضاً ، وحرصوا على تغطية الفضلات برماد الخشب ، حتَّى موتاهم أُلقيت جثثهم إلى النُّسور خارج

المنـازل ، لتجرّد العظـام من كلّ مـا التصـق بهـا من لحم وجلـد .. حتّى إذا أصبحت نظيفة ، لا تسبّب التّلوُّث ، أخذ أهل تشاتال هو يوك تلك العظام ، ودفنوهـا على عمق ١,٥ ـ ١,٨ متراً .

وكانت لهم معابد كثيرة ، جدرانها حفلت بالرُّسوم والزّخارف ، ويمثّل الثّور مكاناً مرموقاً بين موضوعات تلـك الرّسوم واللّوحـات ، وقـد اكتفوا بـه رمزاً للـذّكورة ، الّتي أحجمـوا عن تصـويرهـا على هيئـة رجـل ، هـذا بخلاف الأُنـوثـة الّتي لم يتردّدوا في تصويرها ، فالأهميَّة عندهم إنَّما تتمثّل في المرأة لا في الرّجل .

من أين جاء أهل تشاتال هو يوك ؟ فهم ليسوا من أهل المنطقة الأُصلاء .

وأين ذهبوا حوالي سنة ٥٤٠٠ ق.م عندما هجروا مـدينتهم ؟ تراهم رحلوا إلى بلاد الرّافدين ، حيث ازدهرت بعد ذلك حضارة السُّومريين ؟!!

☆ ☆ ☆

الحِثيون

الحثيون من الشُّعوب الهند ـ أُوربيَّة ، جاؤوا آسية الصُّغرى حوالي سنة ٢٠٠٠ ق.م من روسيـة الجنـوبيَّـة ، أو من شرقي أُوربـة ، واستقرُّوا عنـد منـابـع دِجْلـة والفرات ، عاصمتهم بوغازكوي (حاتوشا)[١] .

استطاع حاتوشيلا الأوّل في أواسط القرن السّـابع عشر قبل الميلاد ، توحيـد عـدد من الدُّويلات .

وفي أوائـل القرن السّـادس عشر قبـل الميـلاد احتـلّ مـورشيلي الأوّل سـوريــة ، وبابل[٢] .

(١) انظر موقع بوغازكوي على المصوّر السّابق ، في حضارة تشاتال هو يوك .

(٢) ويبدو أنّ ميتـاني ـ وهي دولـة أسَّسهـا الحوريُّون في شمالي مـا بين النّهرين ـ هي الّتي أوقفت أيَّ تقـدُّم إضافي للحثّيين .

ودمَّر شوبيليوليوما[٣] سنة ١٣٨٠ ق.م ، ميتاني والدُّويلات السُّوريَّة القديمة التابعة لها ، وعند قادش[٤] ، التقى الجيشان المصري والحثّي على نهر العاصي دون حسم ، وفي عام ١٢٨٤ ق.م وقَّعا معاهدة صداقة وعدم اعتداء في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

وفي أواخر القرن الثَّالث عشر قبل الميلاد ، تدفَّق غزاة هند - أُوربيُّون (شعوب البحر) على المنطقة ، قادمين من أُوربة ، ومع أنَّ الحثيين فقدوا وطنهم ، فقد بقيت حضارتهم على قيد الحياة في شمالي سورية .

عرف الحثيُّون خطّاً تصويريّاً ، يكتبون به سطراً من الشِّمال إلى اليمين ، ثمَّ يكتبون السَّطر الَّذي يليه من اليمين إلى الشِّمال ، ثمَّ من الشِّمال إلى اليمين وهكذا دواليك ، وأخذوا الخطّ المسماري عن البابليِّين ، وعلَّموا أهل كريت صنع الألواح الطِّينيَّة ليكتبوا عليها .

اختفى الحثيُّون من صفحة التَّاريخ ، اختفاءً يكاد يشبه في غرابته وغموضه ظهورهم فيها ، لقد فاقوا غيرهم من الشُّعوب بمعرفة الحديد واستخدامه ، ثمَّ أضحت هذه الصِّناعة بيد منافسيهم ، فسقطت كركميش[٥] آخر عواصمهم في يد الآشوريِّين سنة ٧١٧ ق.م ، كما ظهرت في أواخر القرن التَّاسع قبل الميلاد ، قوَّة جديدة في آسية الصُّغرى (الفريجيُّون) ، عاصمتهم (أنقورة)[٦] ، وانتهى سلطان الفريجيين ، بقيام مملكة ليديا ، الَّتي كانت سرديس عاصمة لها .

☆ ☆ ☆

---

(٣) شوبيليوليوما ت ١٣٤٦ ق.م .

(٤) قادش : تقع قرب نهر العاصي جنوبي حمص .

(٥) كركميش على نهر الفرات ، وهي جرابلس حالياً قرب الحدود السُّوريَّة - التُّركيَّة .

(١) أنقورة (أنقرة حالياً) ، انظر المصوَّر السَّابق في حضارة تشاتال هويوك .

حَضَارة أمريكة الوسطى والجنوبيَّة

ظهرت أوَّل الحضارات في أمريكة بين ٢٢٠٠ ق.م و ٣٠٠ م ، وذلك في كلٍّ من المكسيك[١] والبيرو ، ومنذ ١٥٠٠ ق.م كانت القرى الزِّراعيَّة في أمريكة الوسطى والجنوبيَّة آخذة في النُّمو ، وفي عام ١٢٠٠ ق.م تشكَّل أوَّل مجتمع معقَّد بالمعنى الحقيقي ، وهو مجتمع حضارة الأُولمك في المنخفضات الاستوائيَّة لساحل خليج المكسيك ، وكان أوَّل مركز كبير للمناسبات الرَّسميَّة هو تنوختيتلان (سان لورنزو) ، حيث تمَّ تحويل شكل جرف طبيعي بأكمله ببناء مدارج ومنصَّات فيه[٢] .

دلَّت عمليَّات التَّنقيب على وجود يد عاملة منظَّمة ، وحكومة قويَّة ، شملت برعايتها النَّحَّاتين والعاملين في صقل الحجارة ، والخزَّافين ، كما عُثِرَ على هرمٍ كبير .

أمَّا في البيرو فقد وجد الفخَّار ، وعرف النَّسيج ، والمصنوعات الذَّهبيَّة الدَّقيقة الصُّنع .

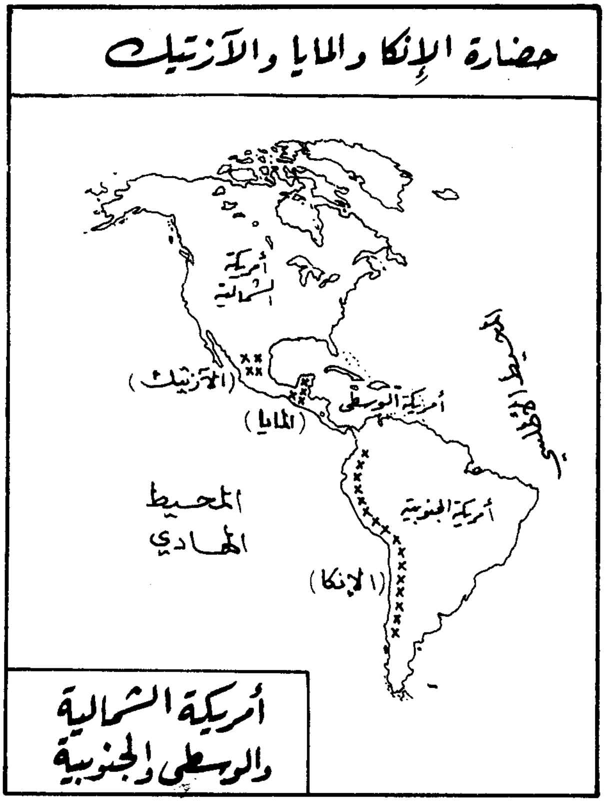
ومنذ حوالي سنة ٥٠٠ ق.م ، أخذت تتطوَّر الحضارة الزَّابوتكيَّة بالتَّسارع في وادي أُوكساكا في جنوبي المكسيك ، فقد وُجدت أوَّل نقوش ضخمة بالخطِّ التَّصويري الرَّمزي في العالم الجديد ، في المركز الهامّ الواقع على هضبة (مونت البان) ، وبظهور شعب المايا سنة ٣٠٠ م تبدأ الحقبة الكلاسيكيَّة .

الأزتك :

قامت حضارة الأزتك في القرن السَّادس عشر الميلادي ، في شمال غربي المكسيك ، عاصمتها (تينو كتيتلان) على ضفاف بحيرة تكسكوكو الضَّحلة ، كان حكمها ملكيّاً ، وعبد الشَّعب آلهة كثيرة ، كإله المطر (تلالوك) ، وإله الأزهار والأفراح والولائم (زوخشيبلي) ، وإله المياه الجارية (تشلتشيوهتليكيو Chalchiuhtlicue) ..

(١) عرفت بالحضارة التَّكوينيَّة ، أو ما قبل الكلاسيكيَّة .

(٢) بهجة المعرفة ، المجموعة الثَّانية : ٨٧/٣



وضع نزاهو الكواتل Nezahualcoatel (أي الذِّئب الجائع) مجموعة من القوانين ، عُدَّت نموذجاً للتَّشريع ، وأُنشئت المدارس لدراسة الشِّعر والموسيقى والتَّصوير والفلك .

وفي عهود الأزتك المتأخِّرة ظهرت عبادة الشَّمس ، ذات الشَّأن العظيم ، لأنَّها صارت مقترنة بالحرب ، والشَّمس هي إله الخصب ، ومنظمة التَّقاويم ، بحاجة إلى دم بشري ليعاونها على قيامها بعملها اليومي .

هذا ، وكان ضحايا الحروب أو القرابين يمضون مباشرة إلى فردوس إله الشَّمس في

الشَّرق فيرافقونه (وكان إله الشَّمس هـذا قـد أصبح هو وويتزلبختلي شيئـاً واحـداً) إلى سمت السَّماء ، حيث تنتهي مهمَّتهم ، ثمَّ يعودون أدراجهم إلى الأرض ، على هيئـة طيور ذوات ريش برَّاق ، ثمَّ ترافـق الشَّمس من السَّمت حتَّى الغروب أرواح النِّسـاء ، اللَّـواتي يتوفين في أثناء الوضع (فقـد كان موتهن على هـذا النَّحو يعـدُّ من قبيل موت الأبطـال المحاربين) ، ثمَّ يعدن فيظهرن على هيئة فراش ، أمَّا في اللَّيل ، فإلـه الشَّمس يعبر العـالم السُّفلي ، ويضفي النُّـور على المنكـودي الحـظ ، الَّـذين غـادروا هـذا العـالم من غير أن ينعموا بطقوس واحتفالات خاصَّة تقـام من أجلهم ، فهـذا العـالم السُّفلي ، وجهنَّم هـذه كانت يحكمها إله الموت المسمَّى (نكتلانتكوهتلي Nictlantecuhtli) ، ومع ذلك فثَمَّ جنَّة أُخرى هي جنَّـة إلـه المطر تلالوك ، الَّـذي كان من عصر مـا قبل الأزتـك ، وهي جنَّـة خاصَّة بمن توفُّوا غرقاً أو بأمراض الاستسقاء .



*أطـلال (مـاتشـو بيتشـو) في البيرو



* قناع الإله أكسيب إله النَّبات

فأمَّا مَن قُتِلوا في الحروب ، أو راحوا ضحايا القرابين ، فكانت تحرق جثثهم ، وأمَّا من ماتوا غرقى ، أو بداء الاستسقاء فكانوا يدفنون ..

وكانت كلُّ قبائل المكسيك تشارك في عبادة إله واحد ، وذلـك الإلـه هو إلـه الجو

(وإله اللَّيل أيضاً) : تزكاتلبوكا Tezcatelpoca ، مالك ناصية السِّحر ، الإله الخالق الَّذي يجازي المسيئين بما عملوا .

وممَّا يعدُّ في نظرنا تضحية شنيعة كل الشَّناعة ، تلك التَّضحية المكسيكيَّة الَّتي كانت تجري في العيد العظيم ، الَّذي يقام احتفالاً بالإله اكسيب[٣] Xipe الذي لم يكن ضمن آلهة المكسيك ، بل جيء به من آلهة القبائل الضَّاربة غربي الوادي ، وكانت الضَّحايا الَّتي يتقرَّبون بها إليه أيَّام عيده ، تؤخذ من أسرى الحرب ، وكانت قلوبهم تنتزع على حجر التَّضحية ، ثمَّ تسلخ جلودهم ليرتديها آسروهم طيلة انعقاد الاحتفال ، فإذا انتهى العيد - وكان يستمرُّ عدَّة أيَّام - يخلع لابِسُو الجلود جلودهم جماعة في وقت واحد ، ثمَّ تدفن هذه الجلود في حفرة بظاهر المدينة ، ويبدو لنا هذا العيد لأوَّل وهلة أمراً شنيعاً تعافه النَّفس ، وتنفر منه كل النُّفور ، إلاَّ أن معناه الخفي الباطن يخفِّف من شناعة ذلك المظهر الَّذي يبدو فيه ، فقد كان الإله اكسيب هذا إله الزَّرع ، ومن بين آلهة الخصب ، فكان المشتركون في الاحتفال ، وهم يلبسون جلود هؤلاء الضَّحايا البشريَّة ، يمثِّلون الزُّروع الشَّتويَّة ، الَّتي ماتت في ظاهر أمرها ، ولكنَّها لا تزال تنطوي على جرثومة الحياة ، وكان خلع الآسرين ما عليهم من جلود ، يُعَدُّ بمثابة طقس سحري ، يعتقدون أنَّه يمثِّل عودة الحياة إلى ذلك النَّبات الَّذي يعيشون عليه ، بل إنَّه ليعين على هذه العودة نفسها .

وكانت الحاجة المتزايدة إلى الضَّحايا البشريَّة ذات أثر بارز في نفسيَّة المكسيك ، وفي سياستهم كذلك ، فقد كانت غالبيَّة الضَّحايا من أسرى الحرب ، وكان الموت على حجر القربان هو موتة الرَّجل المحارب ، ويكفل له أن يدخل مباشرة الجنَّة الَّتي يرغبها كل الرَّغبة ، هذا ، وقد وردت في المخطوطات أمثلة كثيرة لمحاربين طلبوا أن يُقَدَّموا ضحايا مخافة أن يموتوا حتف أنوفهم ، فيكون مصيرهم الذَّهاب إلى ذلك العالم السُّفلي الَّذي لا لون له ، والَّذي يحكمه ميكتلاتنكوهتلي ، ولهذا السَّبب كانت الحرب في أيَّام

(٣) الاحتفال بالإله اكسيب Xipe في شهر تلاكاكسيتواتزاتل : Tlalaxitewalzatle .

الأزتك من مسائل الطُّقوس البالغة الأهميَّـة ، فلم يكن هَمُّ المحـارب الأوَّل أن يقضي على عدوِّه ، بل كان جُلُّ همِّه موجَّهاً إلى القبض عليه حيّاً ، وأخذه أسيراً حتَّى يقدِّمه ضحيَّة للآلهة وقرباناً ، وكان ترقِّي المحـارب في شتَّى معـارج الرُّتب يقوم على هـذا الأسـاس ، وكذلك أدَّت بالأزتك حـاجتهم المـاسَّـة إلى الضَّحـايـا الَّـذين يقـدَّمون قرابين للآلهـة . ألاَّ يشرفوا على القبـائل الَّتي أخضعوهـا ، والَّتي تـدفع لهم الجزيـة ، سوى إشراف مهلهل ضعيف ، حتَّى بلـغ بهم الأمر أنَّهم كادوا يشجِّعـونهم على الثَّـورة ، لأنَّ الحرب عنـدهم أصبحت ضرورة دينيَّة ، واستقرار السَّلام داخل ما يسمُّونه إمبراطوريتهم ، كارثة دينيَّة مفجعة ، وكم من مرَّة كان هذا سبباً في نجـاة الغزاة الفـاتحين الإسبـان ، لأنَّ الأزتـك لم يكونوا يحاربون ليَقْتُلوا ، بل ليأسِرُوا[٤] .

في شباط (فبراير) سنـة ١٥١٩ م أبحر الإسبـاني كورتيز مع نحو أربع مئـة أُوربي ، ومئتين من السُّكَّان المحلِّيين ، وأقل من عشرين جواداً ومدفعاً ، وأعلم إمبراطور الأزتـك مونتيزوما موتسكوزوما Montezuma Motzcuozama ، أنَّه قـاصـد إلى زيـارتـه رسولاً من ملك شديد البأس وراء البحر ، وأصبح بعدها الإمبراطور كالأسير في أيدي الإسبان الَّذين تولَّوا الحكم باسمه ، ليشبعوا بعدها تعطُّشَهم إلى ذهب هذه القارَّة البكر وخيراتها .

كما قـامت في أمريكـة الـوسطى حضارة المـايـا[٥] ، الَّتي تـاسَّست سنـة ٣٠٠ م ، واندثرت بسبب الكوارث الطَّبيعيَّة سنة ٩٠٠ م ، ثمَّ عادت إلى الظُّهور في القرن العـاشر الميلادي ، وبقيت مجهولة حتَّى اكتُشفت مصادفة سنة ١٨٤٠ م .

امتازت هذه الحضارة بوجود كتابة تصويريَّـة ، مع ازدهـار الفلـك وفنّ العمارة ، وبخاصَّة بناء الأهرامات .

---

(٤) المعلومات الَّتي وردت عن ديانة الآزتك : (تاريخ العالم) ٩٤/٦ وما بعدهـا ، بحث : أمريكـة في عهد الأزتيك والإنكا (وصف الحضارتَيْن الرَّاقيتَيْن العجيبتَيْن اللَّتَيْن قضى عليهما الفاتحون الإسبان) ، بقلم : توماس ا. جويس .

(٥) في غواتيمالا وهندوراس والسِّلفادور حاليّاً ، عاصمتها (ششن إنزا) .

حَضَارة الإنكا (Inca) :

الإنكا إمبراطوريَّة طولها ٢٧٠٠ ميل ، شملت ٣٦ درجة من درجات العَرْض ، على السَّاحل الغربي لأمريكة الجنوبيَّة (بيرو وشيلي حاليّاً) ، في جبال الأنديز[٦] ، قامت سنة ١٢٠٠ م ، وقضى عليها المستعمرون الأُوربيُّون سنة ١٥٣٣ م .

لم يعرف الإنكا أيَّ نوع من أنواع الكتابة ، حتَّى ولا التَّصويري منها .

وكانت الشَّمس إلههم القبلي . وجيشهم كفؤاً ، حسن العُدَّة .

وكان النِّظام الَّذي وُضِع للسَّيطرة على هذه الإمبراطوريَّة ، الَّتي تمثِّل شريطاً طويلاً جدّاً من الأرض ، شكلاً صارماً من أشكال الاشتراكية الحكوميَّة ، يقوم على الاعتقاد بأنَّ الحاكم الإنكوي إله على الأرض ، تتَّسم أوامره من أجل ذلك بالتَّأييد الإلهي .

وحضارة الإنكا حضارة زراعيَّة[٧] ، قسِّمت الأراضي فيها أقساماً ثلاثة ، تيسيراً للأعمال الزِّراعيَّة : أراضي المعبد ، والأراضي العامَّة ، والأراضي الملكيَّة .

ومن أراضي المعبد حصلوا على ما يلزم للإنفاق على كهنة الشَّمس .

أمَّا الأراضي العامَّة ، فكانت تقسم بين رؤساء الأُسر ، كلُّ أُسرة بحسب عدد أفرادها .

على حين كانت الأراضي الملكية مصدر إيرادات الدَّولة ، وأقاموا نظاماً معقَّداً متدرِّجاً من الموظَّفين للإشراف على ضبط سير العمل الجماعي ، فاستطاع هؤلاء الموظَّفون بإحصاء صحيح شامل لجميع السُّكَّان أن يقدِّروا مدى ما في كلِّ إقليم من

---

(٦) في بيرو وبوليفيا وشيلي ، عاصمتها (كوزكو) .

(٧) تاريخ شيلي ، تأليف : إ. ف. ڤرغارا Vergara ، ص ٤٥ ، ترجمة ماري يني عطا الله ، دار الرّيحاني - بيروت ، ط ١ ، سنة ١٩٥٧ م .

الإمكانـات البشريَّـة ، ومكَّنتهم اللَّوائح الصَّارمـة المعمول بها من أن يـوزِّعـوا العمَّـال توزيعاً تراعى فيه القدرة الإنتاجيَّة لكلِّ إقليم .

وكان هذا النِّظام الحكومي فضلاً عمَّا يشتمل عليه من طائفـة من الموظَّفين المشرفين على أعمال الدَّولة يتطلَّب العمل على تيسير المواصلات ، وكان يتطلَّب معاملة النَّاس في جملتهم معاملة صارمة ، أمَّـا من حيث تسهيل المواصلات ، فقـد كان الإنكا بـارعين كلَّ البراعة في إنشـاء الطُّرق في أقـاليم يعسر العمل فيهـا ، ويشقُّ كلَّ المشقَّـة ، وأقـاموا على طول هـذه الطُّرق سلسلـة من بيوت للاستراحـة ، يقطنهـا عـدَّاؤون رسميُّون ، يسمُّونهم تشاسكي Chasqui ، يعملون في نقل الرَّسائل الشَّفهيَّة من نقطة إلى أُخرى ، أو يسلِّمون حزمة الحبال المعقودة من محطَّة إلى محطَّة ، وتمثِّل هـذه الحبـال رسـائل رسميَّـة ، هـذا ، وقد استثـارت الطُّرق المنشـأة في الجبـال بنوع خـاص إعجـاب المستعمرين الأُوربيِّين ، فكتب كييزا دوليون Qesa de Leon يقول[٨] :

وممَّـا راقني ، وأُعجبت بـه كلَّ الإعجـاب ، وأنـا أتـأمَّل شؤون هـذه البلاد وأكتب عنهـا ، أن أُفكِّر في الطُّرق الرَّائعـة الَّتي تشـاهـدهـا الآن ، فكم رجـلاً يكفي لإنجـازهـا يـا تُرى ؟ وبـأيِّ أدوات وآلات استطـاعوا أن يسوُّوا الجبـال ، ويخرقوا الصُّخـور حتَّى يجعلوا الطُّرق بهذا العرض ، وهـذه الصَّلاحيـة ، فبعضهـا كان يمتـدُّ أكثر من ألف ومئـة فرسخ ، على جانب هُوَى سحيقة مخيفة تسبِّب لمن يطلُّ عليها الدُّوار ، إنَّ بصر الإنسـان ليعجز أن يمتـدَّ إلى قرارهـا ، وكان لا بُـدَّ لهم في بعض المواضع أن يشقُّـوا لأنفسهم منفـذاً ينقرونه في الصُّخور الجلاميد ، ليحصلوا على الاتِّسـاع المطلوب ، وقـد فعلوا ذلـك كلَّـه بـالمعـول والنَّـار ليس إلاَّ ، وكان المرتقى عسيراً وعراً في بعض المـواضـع ، وعـاليـاً علـوّاً استلزم حفر درج من أسفل ، وكانت درع واسعة تسوَّى من حين إلى حين لتتَّخذ أماكن للراحة ، وكان في مواضع أُخرى أكوام عالية من الثَّلج أشد من هـذه الخطورة .. فحيث

---

(٨) تاريخ العالم : ١١٦/٦

كان الثَّلج يعوق المرور ، وحيث كانت الغابات ، أو الأرض المفكَّكة كان لا مناص لهم من تمهيد الطَّريق ورصفه بالأحجار .

وقد يسَّر لهم نظام العدَّائين أن يرسلوا أيَّة رسالة(٩) مسافة ألف ميل في اتِّجاه مستقيم مجتازين أقاليم جبليَّة في ثمانية أيَّام .

هذا وكانت صيانة نظام المواصلات ، ونظام توزيع الغلاّت ، تقتضي الإشراف المطلق على الأهالي ، وكان هذا الإشراف موجوداً فعلاً ، ولم يكن لأحد من عامَّة الشَّعب أن يرتفع عن مستوى الطَّبقة الَّتي وُلد فيها ، ولا أن ينتقل من قريته ، أو يتزوَّج امرأة من غير إقليمه ، ولا يستثنى من هذا التَّعميم إلاَّ أمر واحد تمارسه الدَّولة بحكمتها ، فكان نظام الحكم كلُّه يقوم على أساس نزول كل إنسان نزولاً تامّاً عن فرديته استجابة لحاجة الدَّولة .

وكان الإنكا يبدون سماحة وسعة أُفق في الدِّين ، فلم يحاولوا أن يقضوا على العبادات المحلِّيَّة ، ولم يطالبوا بأكثر من أن يكون لعبادة الشَّمس - إلهم القبلي - الأوليَّة الرَّسميَّة .

وكما قامت ديانة بيرو على عبادة جَدٍّ قبلي ، فقد تضمَّنت بطبيعة الحال ضرورة احترام الموتى .

وكان حكم الإنكا من أكبر أسباب النُّهوض بالفنون والحرف ، وذلك بفضل عنايته بتوزيع العمل توزيعاً متناسباً لا تطغى فيه ناحية على أُخرى ، وكان الإنكا أفذاذاً لا مثيل لهم في صناعة النَّسيج من سجف ، وقماش ، وتطريز ، حتى قيل بحق : لو أنَّ

---

(٩) لم يستحدث الإنكا أي شكل من أشكال الكتابة كما استحدث سكَّان أمريكة الوسطى ، ولكنَّهم كانوا يستعملون مجموعات منتظمة من حبال معقودة ، يسمُّونها كويبو ، لتكون شبه مذكرات فنيَّة للرَّسائل والحسابات ، (تاريخ العالم : ١٠٤/٦) ، وهناك رأي أنَّهم عرفوا الهيروغلوفيَّة (عالم الفكر ، المجلد ١٥ ، العدد ٣ لعام ١٩٨٤ ، ٤٨) ، وهذا الرَّأي يُشَكُّ بصحَّته .

صناعة النَّسيج زالت كلها من الدُّنيا القديمة لأمكن استعادتها من المنسوجات الَّتي وُجدت في مقابر بيرو ، كذلك ازدهرت صناعة الخزف عندهم مثل هذا الازدهار ، إلاَّ أنَّ فخَّار الإنكا كان لا شكَّ دون فخار ماقبل التَّاريخ ، من حيث صفاته الفنيَّة ، وإن فاقه من حيث الصِّناعة .

(باتشاكوتك) مغيِّر العالم ، الاسم الَّذي أُطلق على الإمبراطور يوبانكوي Yuponqui ، الَّذي حوَّل مملكة كوزكو Cuzco في القرن الخامس عشر إلى إمبراطوريَّة الإنكا الواسعة الممتدَّة على طول المحيط الهادي ، وهي الَّتي وجدها بيزارو قائمة ، عندما وصل بيرو لأوَّل مرَّة عام ١٥٢٧ م .



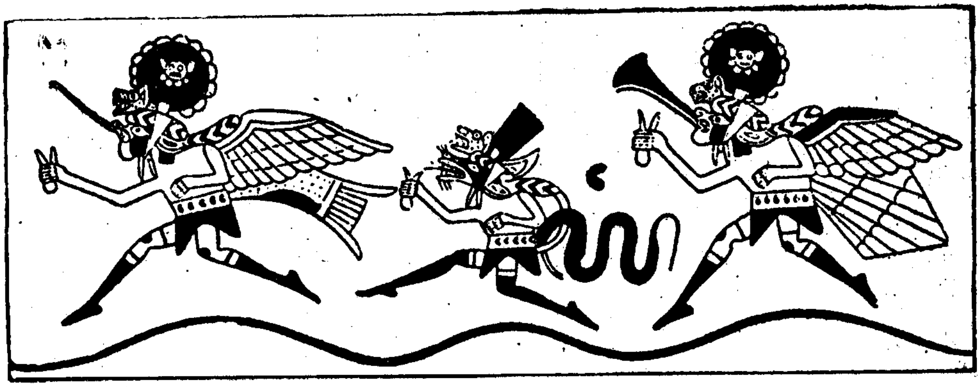
* كويبو من الإنكا (بيرو)



* ملابس (الشُّجعان) في بيرو رسم لرجلين يصطرعان

* محاربون من الإنكا





* رقص طقسي يقوم به رجال يمثّلون أجداد عشائرهم

العَلاَقةُ بين حَضَارَةِ العالمِ القديمِ وبينَ حَضَارة العالمِ الجَديد :

عندما قام ثور هيرداهل Thor Heyerdahl في أيّار (مايو) ١٩٧٠ م ، بقاربه المصنوع من البردي ، والّذي كان يزن حوالي ١٥ طنّاً ، برحلته عبر المحيط الأطلسي ، لفت نظر المهتّمين بالدّراسات عن أصل سكّان العالم الجديد ، واعتقد بعض العلماء في إمكانيّة قيام رحلات بين العالم القديم وبين العالم الجديد ، وحاول هيرداهل أن يثبت إمكانيّة قيام المصريّين القدماء منذ عام ٣٠٠٠ ق.م بالوصول إلى أمريكة ، وكان لهم أثر في حضارتي المايا والإنكا ، والسُّؤال المطروح : أحقّاً ، كانت هنالك صلة بين حضارات العالم القديم وبين حضارات العالم الجديد ؟!

أم أنَّ هذه الحضارات - في العالم الجديد - نشأت في عُزلة ؟!

أم أنَّها كانت على اتِّصال بأقوام مجهولين(١٠) ؟

يرى بعض العلماء - بعد أن رفضوا نظريَّة الاتِّصال عن طريق البحر بالعالم الجديد - أنَّ الإنسان مبدع في طبعه ، ميَّال إلى الاختراع ليسد حاجاته ، فما تمَّ الكشف

(١٠) عالم الفكر ، المجلد ١٥ ، العدد ٣ لعام ١٩٨٤ ، مقالة الأُستاذ عبد الحميد زايد : متى وأين بدأت الحضارة ؟

عنـه في إحـدى نِصْفَيِ الكرة الأرضيَّـة في عصر مـا قبـل التَّـاريـخ ، يمكن الكشف عنـه مستقلاً عن النِّصف الآخر ، ليؤدِّي الحاجات ذاتها .

ولكنْ هنـاك تشـابـهٌ بين حضـارة مصر القـديمـة ، مثل : عبـادة الشَّمس ، والخـطِّ الهيروغليفي ، والتَّحنيط ، والوصفـات الطِّبيَّـة ، وطريقـة التَّرقيم ، وإدراك الفرق بين النُّجوم والكواكب ، والتَّقويم الدَّقيق ، والتَّنبُّؤ بـدقَّـة بـأوقـات كسوف الشَّمس .. وبين حضارات العالم الجديد ، وأهرامات المكسيك ، الَّتي قام بتنفيذهـا مجموعـات ضخمـة من العمال ، عثر فيها على حجرة تحت الأرض ، خاصَّة بالـدَّفن ، ويصل إليهـا الإنسـان عن طريق ممرَّات خـادعـة ، مثلمـا فعل المصريُّون القـدمـاء في تضليل لصـوص المقـابر ، كما زُوِّدت الجثَّة بالْحُلي .

هذا ، وسكَّان العالم الجديد قبل اكتشافه ، مجموعاتٌ مختلفة لا توجد بينهـا قرابـة ، وكان بأمريكة الشَّماليَّة أكثر من خمسين لغة ، حينما وصلهـا الأُوربيُّون ، وقيل إنَّ هؤلاء السُّكَّان جاؤوا من مستعمرات من القارة الغارقـة العجيبـة في المحيـط الأطلسي ، وهـذا رأي أُسطوري ، لأنَّ الجيولوجيين يقولون : إنَّه لا توجد قارَّة غـارقـة مفقودة في المحيـط الأطلسي ، على الأقل ليس في ستَّة الملايين سنة الأخيرة .

وعديدة هي تلك الأشياء الَّتي عُثرَ عليها في العالم الجـديـد ، وتشبـه إلى حـدٍّ كبير تلـك الَّتي وجـدت في مراكـز الحضـارات بجنـوب شرقي آسيـة ، فـالإلـه شـاك مـول Chac-Mool ، عُرف في الهنـد ، وفي جنـوب شرقي آسيـة منــذ الأيَّــام الأُولى لبـوذا ، ومكتشفات مدينة Argkor Vat في كمبودية أكثر شبهاً بمدن المايـا في أيِّ شيء عُثرَ عليـه في العالم القديم .

كما استخـدمت الجماعـات السَّـابقـة للإنكا في بيرو ، مجـاري الميـاه فـوق القنـاطر ، والقنوات في الـزِّراعـة ، كما أنَّ عمليَّـات قطـع الحجـارة من المحـاجر والبنـاء تشبـه كثيراً ما سلكه المصريُّون القدماء .

واعتمد الإنكا في التّراسل والتّسجيلات على نظام مركّب من حبال معقّدة ، أو ما يُسَمَّى Quipos ، فمثّلت العشرات بخيط ، وتداخل الحبال الملوّنة يشير إلى الأحداث الهامة ، والهانكس Hankos ، والشّارس Chaaras ، حبال خاصّة خِيطَ بها لآلئ وأصداف أو أحجار كريمة ، استخدمت في إمساك الدّفاتر لكلٍّ من الدّائن والمدين .

وجوانب من علم الطِّبِّ المصري القديم ، يطابق طب بيرو (الإنكا) ، حتّى عمليّة التّحنيط (المومياء) الّتي وجدت في بيرو ، تشبه مومياء مصر ، حتّى لفّ الجثّة متشابه من حيث اللّف بأقمشة من نسيج الكتّان ، وإن كان التّحنيط في مصر أرقى وأرفع مستوى ، وكذلك وجدت أقنعة ذهبيّة خاصّة بالموتى ، كما هي الحال في مصر القديمة ، كلُّ هذا من الأُمور الّتي لا زالت تحتاج إلى تفسير .

وما زالت نظريّة الاتّصال عبر مضيق بيرنج Biring لها وجاهتها ، فليس من شكٍّ أنّ قدماء سكّان أمريكة جاؤوا إليها عن هذا الطّريق ، فسكن الأسلاف منهم أمريكة الشّماليّة ، واندفعوا إلى الجنوب ، ليقيموا في أمريكة الوسطى ، والظّاهر أنّهم اتّحدوا مع غرباء جاؤوا عبر البحار ، فالرّحلات عبر المحيطات ـ على الرّغم من صعوبتها ـ محتملة في شكلها الطّبيعي من جانب أُناس أحبُّوا البحر في فجر التّاريخ .

☆ ☆ ☆

إفريقية

بقايا الصّور الّتي تركها الإنسان القديم في الصّخور الصّحراويّة ، وآثار الوديان الّتي جفّت ، وحتّى بحيرة تشاد الّتي تتقلّص باستمرار .. كلُّها شواهد على حداثة عمر الصّحراء الكبرى ، **وهناك رأي هو أنّ إفريقية هي مهد الإنسان قبل مئات الأُلوف من** السّنين ، ويدعم هذا الرّأي الهياكل العظميّة البشريّة الّتي اكتشفت في الحبشة وأُوغندة .

ومنذ سبعة أو ثمانية آلاف سنة من جَمْعِ الطّعام والصّيد ، بدأت الزّراعة وتربية

الحيوان واستغلاله ، أي حياة الاستقرار ، وهكذا وطّدت أَربع جماعات عرقيّة إفريقية أقدامها في هذه القارّة ، هي :

- البوشمن الأوّلون ، في الأجزاء الجنوبيّة والشّرقيّة .
- الأقزام في أقاليم الغابات من حوض الكونغو وساحل غانا .
- الحاميُّون في الشّمال والشّمال الشّرقي .
- الزُّنوج ، وهم الأقدم ، انتشروا في المناطق الباقية ، وعلى هامش مناطق الغابة الاستوائيّة ، ثمَّ توغّلوا فيها منذ حوالي ٨ ـ ٩ آلاف سنة[١] .

وتطلق كلمة (البنتو) على جميع الشُّعوب الأصليَّة في وسط إفريقية وجنوبها ، والكلمة مكوَّنة من (أب ـ نتو) ، ومعناها النَّاس .

عرف البنتو نظاماً قبليّاً بسيطاً ، مع طائفة من القوانين العرفيَّة ، ومحاكم لإقرار العدل ، ونظاماً لامتلاك الأراضي ، وليس للبنتو أدب مكتوب ، ولكن تقاليد القبيلة تحفظها الرِّوايات الشَّفويَّة .

تقوم عقائد البنتو الدِّينيَّة على الإيمان ببقاء الرُّوح بعد موت الجسد ، والغرض الأوَّل من العبادة ، استرضاء أرواح الموتى الَّتي ينسبون إليها القدرة على نفع الأحياء أو إيذائهم ، ويقترن بهذه العبادة البدائيَّة للأجداد ، إيمان بالسِّحر وغيره من الخوارق[٢] .

وأهمُّ الحضارات الَّتي قامت في إفريقية :

كوش (أو حضارة ميرُوي Meroe) :

في سنة ١٠٠٠ ق.م ، برزت كوش دولة مستقلّة عن مصر ، جنوب النُّوبة ، بين النِّيل والبحر الأحمر ، لا سياسيّاً فحسب .. بل ثقافيّاً أيضاً ، حتَّى استطاع حكّامها

(١) بهجة المعرفة ، المجموعة الثّانية : ٦٣/٣

(٢) تاريخ العالم : ١٢٧/٦

سنة ٧٢٥ ق .م ، الزَّحف شمالاً على طول نهر النِّيل ، واحتلال مصر ، ليؤسِّسوا فيها الأُسرة الخامسة والعشرين .

ولكن الفرعون الكوشي (تاهارقا) تراجع جنوباً حتى كوش ، بسبب الغزو الآشوري بين : [٦٧٦ ـ ٦٦٣ ق.م] ، وتعلَّم الكوشيُّون درساً قاسياً وثميناً ، خلال معاركهم مع الآشوريِّين ، لكنَّهم حملوا معهم التِّقْنيَّة الآشوريَّة ، استخراج واستعمال الحديد ، الَّذي أصبح أساساً لاستقرارهم .

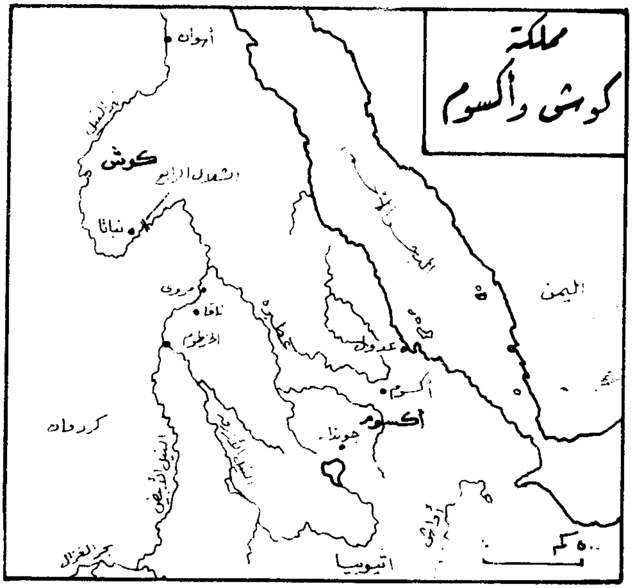
وانتقلت عاصمة كوش من (النَّبَطَة) ـ العاصمة القديمة ـ جنوباً إلى (ميْروي) ، في القرن السَّادس ق.م جاعلين من مدينة (أَبتاراو) القريبة منها حصناً حصيناً للدفاع وردِّ أطماع الغزاة ، وكان لميروي موارد هائلة من الحديد الخام ، ومن الخشب اللاَّزم لصهره ، فانتشرت صناعة الحديد في المملكة على نطاق واسع ، فاستطاع فرسان الجيش المسلَّحون تسليحاً جيِّداً ، أن يدافعوا عن أراضيهم ضدَّ هجمات البدو الرُّحَّل القادمين من الصَّحراء .

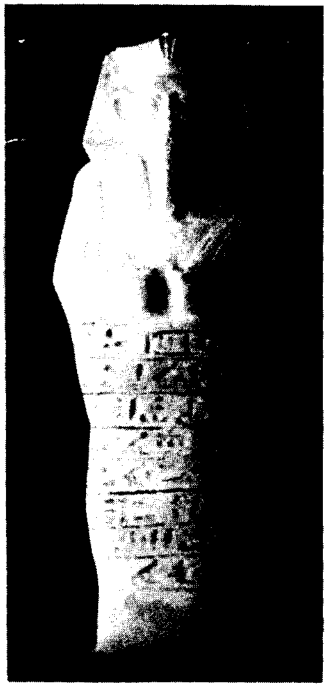
تقهقرت حضارة كوش بسبب جفاف الأراضي الزِّراعيَّة الَّتي حلَّ بها الجدب . والَّتي كانت غنيَّة بالكلأ ، بعد أن دامت هذه الحضارة أكثر من ألف سنة .

أخذت هذه الحضارة مكوِّناتها من شعوب شرقي البحر المتوسِّط ، لازدهار تجارتها في البحر الأحمر مع الجزيرة العربيَّة ، علماً أن سفن الكوشيِّين تجاوزت مضيق باب الْمَنْدب ، ووصلت حتَّى الهند . لقد اقتبس الكوشيُّون من حضارة الآشوريِّين والبابليِّين ، ومن العالم الهلنستي والهند ، ولكنَّهم صاغوا من كلٍّ ذلك شيئاً فريداً ، بما فيه نمطهم الخاص من الكتابة ، وهو خطٌّ استعصى حتَّى اليوم على محاولات فكِّ رموزه [٣] .

(٣) بهجة المعرفة ، المجموعة الثَّانية : ٩٦/٣

(٤) قامت مملكة أكسوم في الحبشة في القرن الثَّالث قبل الميلاد ، وبسطت نفوذها على بعض الأجزاء الجنوبيَّة للجزيرة العربيَّة . كان لبيزنطة نفوذ خاص في بلاط ملوك أكسوم ، وتدهورت أكسوم تدريجيّاً بعد اجتياح قبائل البدو الرُّحَّل لها ، وضعف تجارتها في البحر الأحمر بظهور الإسلام .

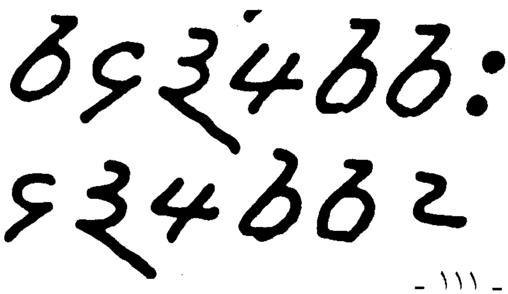




*نصب صغير لملك من (ميروي)



من آثار مملكة كوش



* الكتابة الكوشيّة :
استعصت على محاولات فكّ
رموزها حتّى اليوم



*جانب من الهيكل (ميروي)

*من حضارة (ميروي)



*إناء من الفخار المشوي



*إناء للماء من السيراميك المشغول بدقة



*تميمة من الفخار الملون

الحَضَاراتُ القديمةُ في الوطن العربي

« إنَّ المعجزة اليونانيَّة المزعومة ، لها أبٌ وأُمٌّ شَرْعِيَّان ، أمَّا أبوها فهو تراث مصر القديمة ، وأمَّا أُمُّها فهي ذخيرة بلاد ما بين النَّهرَيْن » .

جورج سارتن

الحَضَارة المصريَّة القديمة

منذ الألف الخامس قبل الميلاد ، ووادي النِّيل يمور بالسُّكَّان ، وهم خليط من نوبيِّين أفارقة ، وعرب وصلوا الوادي إمَّا عن طريق باب الْمَنْدب ، وإمَّا عبر برزخ السُّويس ، اجتذبهم خصب أرضه ، ووفرة مياهه ، فشكَّلوا على طول مجرى النِّيل حكومات محلِّيَّة ، اتَّحدت في الشَّمال « مصر السُّفلى » ، مكوِّنة دولة الشَّمال ، واتَّحدت في الجنوب « مصر العُلْيا » مكوِّنة دولة الجنوب ، إلى أن وحَّدهما مينا « أو : نعرمر ، نارمر » ملك الجنوب ، حوالي سنة : ٣٤٠٠ ق.م ، واتَّخذ منفيس عاصمة له ، وتعاقب على حكم مصر « فراعنة » ينتمون إلى إحدى وثلاثين أُسرة ، وذلك حتَّى سنة ٣٢ ق.م ، سنة دخول الإسكندر المكدوني فاتحاً إلى مصر .

الأعْصُر الرَّئيسيَّة لتاريخ مصر القديم :

١ ـ عصر الدَّولة القديمة : [٣٤٠٠ ـ ٢٠٦٥ ق.م] ، سبق قيام الدَّولة القديمة عصر ما قبل السُّلالات(١) ، وعصر الدَّولة القديمة بدأ من الأُسرة الأُولى ، حتَّى الأُسرة العاشرة ، وفيه بُنِيَت الأهرامات .

(١) ويُسمَّى أيضاً العصر النُّحاسي ـ الحجري : [٤٥٠٠ ـ ٣٤٠٠ ق.م] ، وعصر ما قبل السُّلالات ، أي ما قبل الأُسرات ، وسنتكلَّم عن حضارة ما قبل السُّلالات على حدة ، ويليها مباشرة الحضارة المصريَّة القديمة ، في أعصر السُّلالات .

ومن أشهر ملوك هـذا العصر : بيبي الثّـاني : [٢٧٣٨ ـ ٢٦٤٤ ق.م] ، الّـذي يُعَـد حكمه أطول حكم في التّاريخ كلّه (٩٤ سنة) .

٢ ـ عصر الدّولة الوسطى : [٢٠٦٥ ـ ١٥٨٠ ق.م] ، من الأُسرة الحـاديـة عشرة ، إلى الأُسرة السّـابعـة عشرة ، وفيـه بلغت مصر ذروة التّقـدُّم والرّفـاهيـة ، أيّـام الفرعون امنمحـات الثّـالث ، من الأُسرة الثّـانيـة عشرة ، وفيـه كان غزو الهيكسوس[٢] شمالَ مصر سنة ١٧٣٠ ق.م ، وبقوا فيها حتّى ١٥٨٠ ق.م .

٣ ـ عصر الدّولة الحديثة : [١٥٨٠ ـ ١٠٨٥ ق.م] ، من الأُسرة الثّامنة عشرة ، إلى الأُسرة العشرين ، وأشهر فراعنة هـذا العصر : أُحمس ، مؤسّس الأُسرة الثّـامنـة عشرة ، وأَمنحوتب الأوّل الّذي وسّع حدود إمبراطوريّته جنوباً في بلاد النّوبة إلى وادي حلفـا ، ورمّم المعـابـد في منفيس وطيبـة ، وحـاتشبسـوت الّتي كانت وصيّـة على ابنهـا الصّغير تحوتمس الثّالث ، والّتي كانت على جـانب عظيم من الـدّهـاء والحزم ، حتّى كانت تتزيّـا بزيّ الرّجـال ، فترتـدي ملابس الملـوك ، وتضـع لحيـة مستعـارة ، وتترأس الاجتماعـات والاحتفالات الرّسميّة .

وفي هذا العصر وقع الانقلاب الدّيني أيّام أَمنحوتب الرّابع (أخناتون) الّـذي فقَـدَ سيطرته على سوريّة بسبب تـدفّق الحثيّين من الأنـاضول ، وفقـدت مصر بـذلـك ثروة هائلة كانت تأتيها من التّجارة والضّرائب والجزية .

ومن فراعنـة هـذا العصر أيضـاً : توت عنخ آمون ، ورمسيس الثّـاني ، الّـذي حكم مصر سبعة وستّين سنة [١٢٩٨ ـ ١٢٣١ ق.م] ، ويعـدُّ من أكبر الفـاتحين بعـد تحوتمس الثّالث وآخرهم ، انتصر على الحثيين في قادش ، فوقّع الطّرفـان معـاهـدة صـداقـة سنـة ١٢٨١ ق.م بسبب تزايد قوّة الآشوريّين ونموّها باضطراد سريع هدّد الطّرفين .

---

(٢) هيك : ومعناه في اللّغة الدّينيّـة المصريّـة القـديمة (ملـك) ، وسوس (رعـاة) ، والمعنى إذن : الملوك الرّعاة .

٤ ـ عصر الضّعف والانحلال : [١٠٨٥ ـ ٦٦٣ ق.م] ، من الأُسرة الحادية والعشرين ، إلى الأُسرة الخامسة والعشرين ، ومثّلت الأُسرة الثّانية والعشرين حكم اللّيبيّين : [٩٥٠ ـ ٧٣٠ ق.م] ، ومن أشدّ ملوكهم شيشُنْق وابنه واساركون .

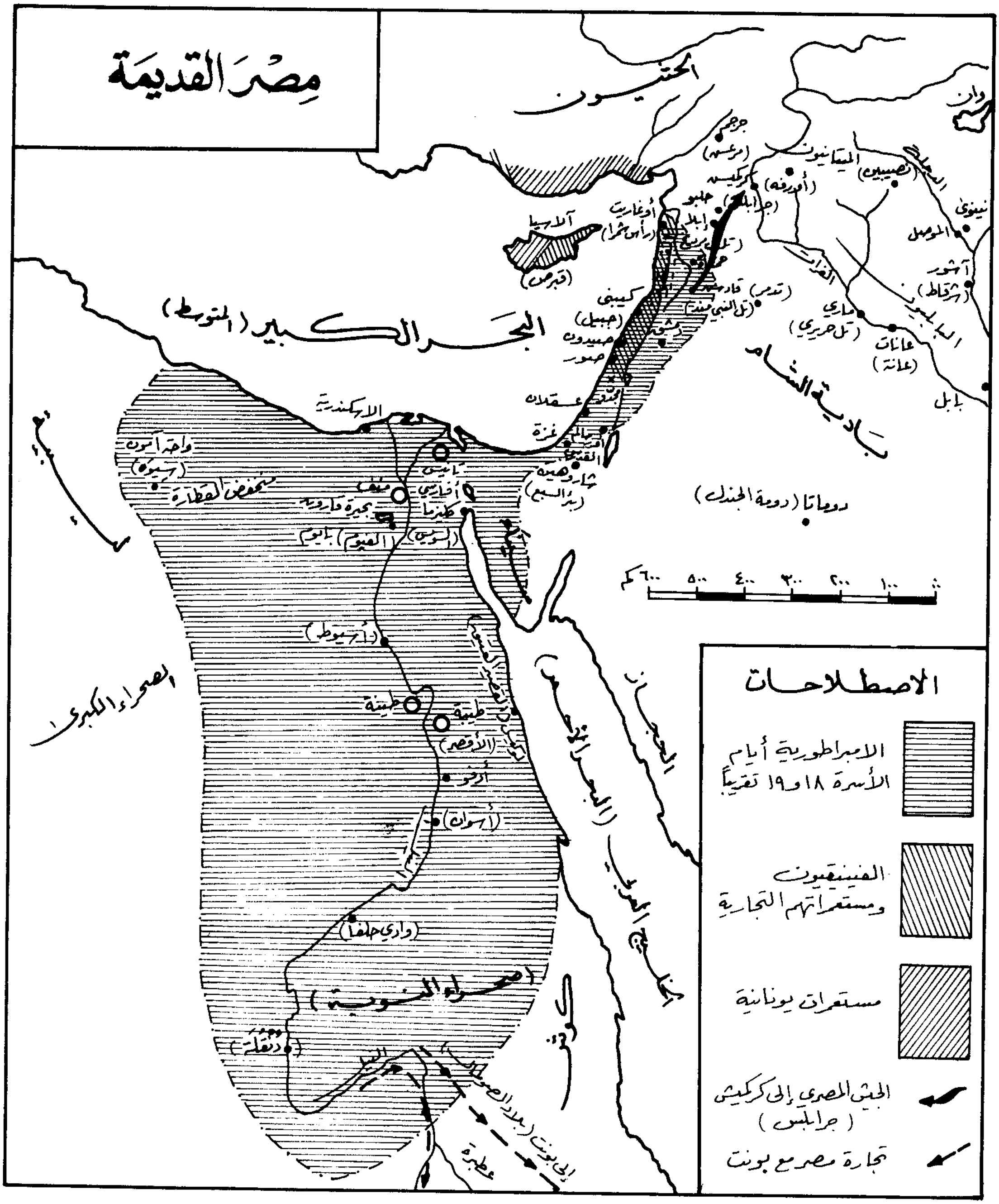
كما مثّلت الأُسرة الخامسة والعشرين حكم النُّوبيّين (مملكة كوش) : [٧٥٠ ـ ٦٥٦ ق.م] ، وأشهر ملوكهم ألارا ، وحفيده بعنخي ، وطهراقا الّذي جعل تانيس عاصمة له ليكون قريباً من حدود مصر الشّماليّة الشّرقيّة ، المهدّدة من قبل الآشوريّين .

٥ ـ عصر النّهضة المؤقّتة (أو العصر الصّاوي) : [٦١٣ ـ ٥٢٥ ق.م] ، وتمثّل بالأُسرة السّادسة والعشرين ، وفيه تمكّن بسامتيك من طرد الآشوريّين من مصر .

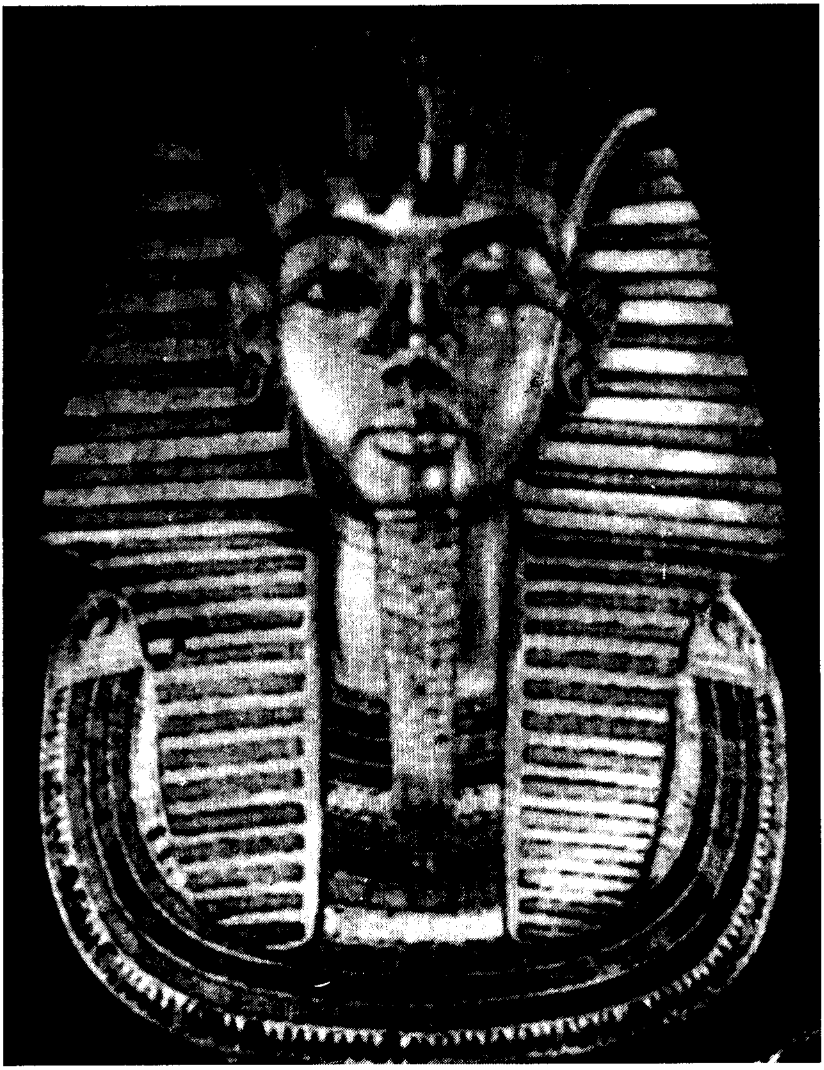
٦ ـ العصر المتأخّر (أو عصر الشّيخوخة والاضمحلال) : [٥٢٥ ـ ٣٣٢ ق.م] ، من الأُسرة السّابعة والعشرين ، وهي أُسرة فارسيّة من الغزو الفارسي الأوّل ، وحتّى الأُسرة الحادية والثّلاثين ، وهي من الغزو الفارسي الثّاني ، وفيه احتلّ قمبيز مصر ، ثمّ جاء الإسكندر سنة ٣٣٢ ق.م .

« والمؤرّخون مختلفون فيما يتعلّق بتحديد تواريخ بدء حكم الأُسر والملوك ، تزداد الفروق في عهد الدّولة القديمة ، وتقلّ في عهد الدّولة الحديثة إلى ما يقرب من عشر سنوات أو أقلّ ، أو تتقارب جدّاً في عهد الضّعف والانحلال منذ الأُسرة الثّانية والعشرين ، لتنعدم تقريباً منذ عهد الأُسرة الرّابعة والعشرين ، بسبب مقارنة تلك التّواريخ بحكم الآشوريّين والكلدانيّين والفرس ، وتثبيتها بصورة صحيحة لا خلاف فيها »(٣) .

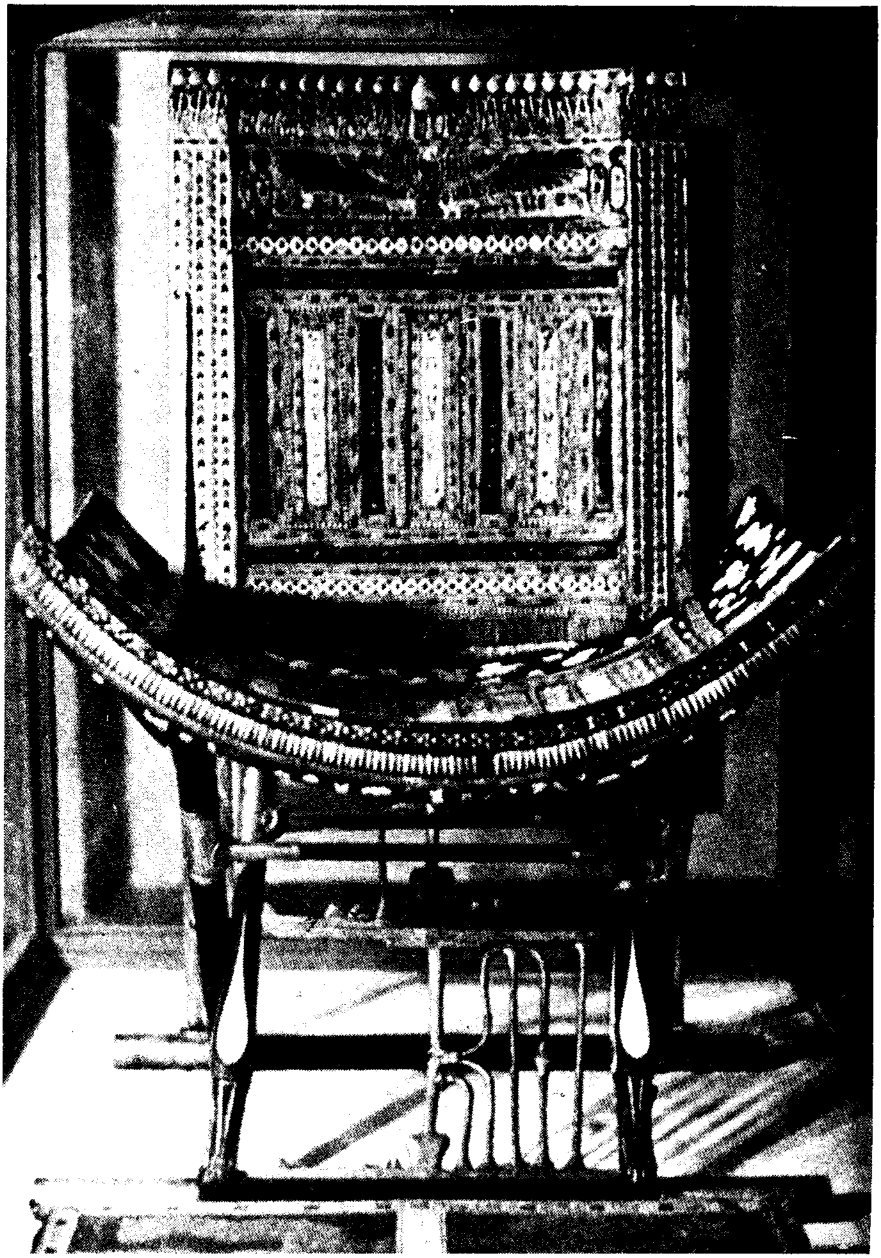
(٣) تاريخ الشّرق الأدنى القديم ، عبد العزيز عثمان ، ص ٩٣ ، واعتمدنا الكتاب المذكور ـ مع كتب أُخرى تذكر في حينها ـ لدراسة حضارات : مصر ، وبلاد الرّافدين ، وبلاد الشّام .



* مصور مصر القديمه



* توت عنخ آمون



* أحد كراسي العرش لتوت عنخ آمون

حَضَارةُ عصر ما قبل السُّلالات :

يمكن تمِّيز حضارة موقع العمرة في الجنوب ، وتسمَّى أيضاً « حضارة نقاوة الأُولى » ، وحضارة موقع جرزة في الشَّمال ، وتسمَّى أيضاً « حضارة نقاوة الثَّانية » .

وفي هذا العصر أقامت بعض المدن مخازن ومواقد جماعيَّة على أطرافها ، ممَّا يدلُّ على نوع من روح التَّعاون والتَّعاضد ، كما زرع الإنسان أشجار النَّخيل والتِّين والزَّيتون ، وعرف صناعة الأواني الفخَّاريَّة ، وتقدَّمت صناعة الأدوات والأسلحة الحجريَّة ، وصناعة الجلود والسِّلال والحصر والحبال والغزل والنَّسيج .

وفي أواخر هذا العصر ، اخترع المصريُّون الكتابة التَّصويريَّة ، ونظَّموا العمليَّات الزِّراعيَّة حسب تقويم أوجدوه من ملاحظاتهم المتكرِّرة لظاهرة الفيضان السَّنوي .

وفي هذا العصر أيضاً نشأت فكرة السُّلطة والرِّئاسة الملكيَّة ، واندمجت الممالك المحلِّيَّة الصَّغيرة في مملكتَيْن إحداهما في الدَّلتا في الشَّمال ، والأُخرى في الصَّعيد جنوباً .

الحَضَارةُ المصريَّةُ القديمةُ في أعصر السُّلالات :

كان الحكم ملكيّاً في عصر الدَّولة القديمة ، ولُقِّب الملك « بالإله العظيم » ، واعتقد النَّاس بأنَّه يسيطر على شؤون البشر في الحياة الدُّنيا ، وفي الآخرة ، وانهار نظام الملكيَّة الإلهيَّة في فترة الضَّعف الأُولى .

وفرعون نفسه هو المحكمة العليا ، ومجلس الشُّيوخ هو مجلس استشاري له ، وكانت الملكة ، أو الزَّوجة الشَّرعيَّة من دم ملكي ، وقد يتزوَّج الأخ من أُخته ، للمحافظة على الدَّم الملكي نقيّاً[٤] ، ومن الملكات الشَّهيرات (نفرتاي) ، الَّتي تزوَّجت من أخيها

---

(٤) وفي قصَّة الحضارة ٩٥/٢ : وكثيراً ما كان الملك يتزوَّج أُخته ، بل كان يحدث أحياناً أن يتزوَّج ابنته ، ليحتفظ بالدَّم الملكي نقيّاً خالصاً من الشَّوائب .. وانتقلت عادة الزَّواج بالأخوات من الملوك إلى عامَّة الشَّعب . =

كامس ، ثمَّ من أخيها أُحمس ، وظلَّ نفوذها كبيراً في زمن ابنها أمنحوتب الأوَّل ، حتّى نظر إليها المصريُّون نظرة عبادة واحترام ، وأقاموا لها معبداً في طيبة ، ومن الملكات الشَّهيرات أيضاً حاتشبسوت .

وعُرِفَت الوزارة بعد الأُسرة الثَّالثة ، أوجدها زوسر ، وعهد بها إلى نابغة عصره إيمحوتب ، ومن اختصاصاته الاهتمام بجميع أُمور الدَّولة ، فالوزير هو قاضي القضاة ، ورئيس بيت المال والمشرف عليه ، وهو على رأس السُّلطة ، لا يعلو عليه إلاَّ فرعون .

وفي الأقاليم ، قام حكَّامها الَّذين مثَّلوا الملك الإله بوظيفة القضاء ، وحملوا لقب (قاضٍ ، وكاهن) ، وأهمُّ قانون وصل إلينا من مصر الفرعونيَّة ، هو المرسوم الَّذي وضعه حورمحب للقضاء على الظُّلم والرَّشوة والفساد .

والقوانين المدنيَّة والجنائيَّة راقية ، « فالمتساويان في الموارد وفي النُّفوذ متساويان أمام القانون » ، كما كانت قوانين الملكيَّة والميراث من أيَّام الأُسرة الخامسة ، قوانين مفصَّلة دقيقة .

ومن الوظائف الهامَّة الَّتي تلي مرتبة الوزير ، وظيفة مدير بيت المال (حامل خاتم الإله) ، ووظيفة مدير القصر الملكي ، ووظيفة مدير المنشآت الملكيَّة .

ولم يكن لمصر جيش دائم منظَّم يَعُدّ أفراده الجنديَّة مهنة خاصَّة بهم ، مع أنَّ رتبة (قائد الجيش) كانت موجودة ، فقد كان الجيش يُجْمع في المناسبات ، فيطلب الملك عند الضَّرورة من حكَّام الأقاليم جنوداً للحرب ، فيجهزونهم له ويرسلونهم للقتال ، أو للحراسة ، أو لحماية البعثات التِّجاريَّة أو الاستثماريَّة الَّتي تستثمر المناجم ، أو تقوم بحفر التُّرع والأقنية ، وتبني الجسور ، حتَّى إذا أتمَّ الجنود المهمَّة الَّتي نُدِبُوا لها ، عادوا إلى أقاليمهم ، ولحياتهم المدنيَّة ثانية .

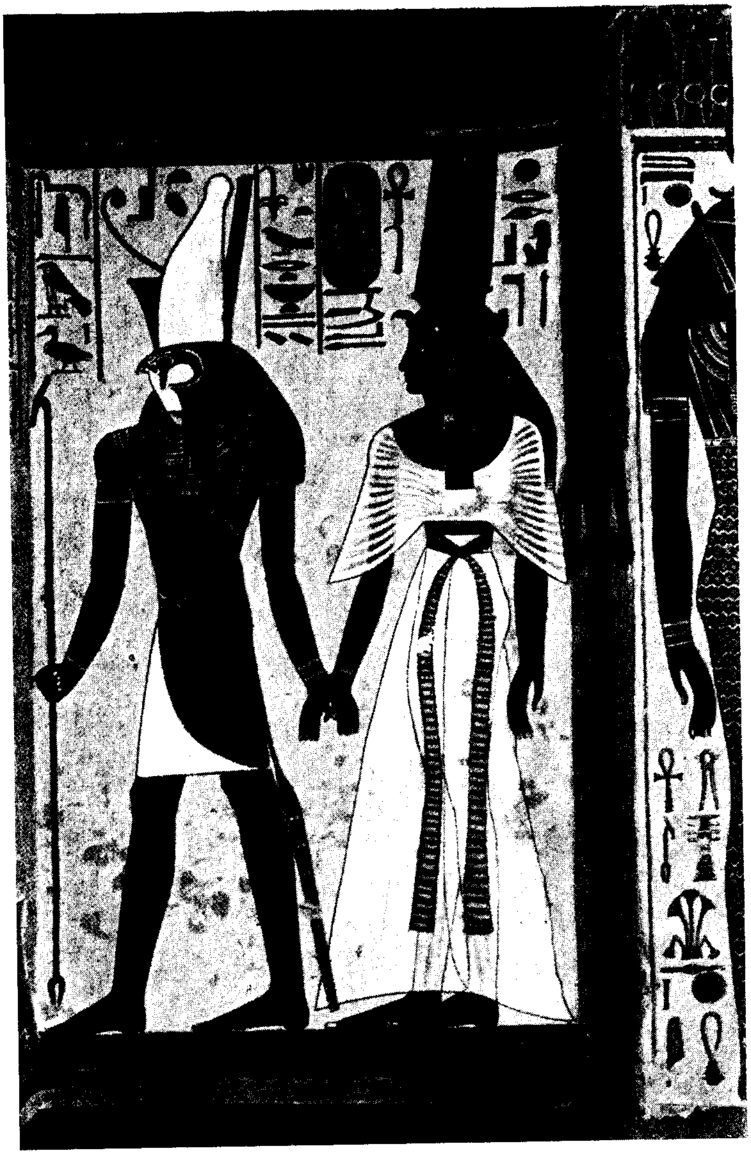
= ولعلَّ السَّبب أيضاً الحفاظ على ميراث الأُسرة ، الَّذي ينحدر من الأمِّ إلى البنت ، ولا يريدون أن ينعم الغرباء بهذه الثَّروة .

وفي عصر الدَّولة الوسطى ، تمَّ تأسيس فرق الجيش الدَّائم للدِّفاع عن البلاد ، فتأسَّست إلى جانب فرق المشاة ، فرق المركبات الحربيَّة والرُّماة ، وكانت ملابس الجند بسيطة ، تتألَّف من سروال قصير ، ودرع من جلد أو معدن ، وعني المصريُّون بإقامة الحصون ، كما اهتمُّوا بوسائل خرقها واقتحامها ، وبنوا أُسطولاً منذ عصر ما قبل الأُسرات للتِّجارة والقتال .

أمَّا الحياة الدِّينيَّة عند المصريِّين القدماء ، فتدلُّ على أنَّهم عبدوا قوى الطَّبيعة[٥] ، ولعلَّ القمر أقدم ما عبدوا من آلهة ، وصَوَّروا الآلهة الكونيَّة بصورة إنسانية أو حيوانيَّة ، ثمَّ ارتأى القدماء أن يخصُّوا تلك الآلهة بصفات وعواطف إنسانيَّة ، فأخذوا يرسمون صور الآلهة بجسم إنسان ورأس حيوان ، أو بصورة إنسان يحمل أيَّ جزء من الحيوان يرمز إلى صورته الأصليَّة ، والآلهة يموتون ليحيوا حياة ثانية ، وآمن المصريُّون بالحياة بعد الموت وبالحساب ، وكانوا يرون أنَّ الموت ما هو إلاَّ تبديل في طريقة حياة الإنسان ، وهذه الحياة الجديدة لا يتمتَّع بها الإنسان إذا لم يُحتفظ بجسده سليماً بعد الموت ، ولهذا اهتمُّوا بتحنيط جثث الموتى ، واعتقدوا أنَّ الميِّت يعيش في قبره ، وأنَّ المقبرة مدخل إلى العالم الأسفل الَّذي يسكنه الموتى ، ويحكمه أُوزيريس ، وأنَّ الشَّمس تضيء هذا العالم ليلاً بعد غروبها من الدُّنيا ، وتنسب العقيدة المصريَّة القديمة إلى إله الشَّمس (رع) خَلْقَ العالم ، وإيجاد النِّظام الملكي ، وجاء الفراعنة من بعده لتولِّي مهام الملك وفقاً لذلك الحق الإلهي .

---

(٥) يفسِّر بعضهم تَعَدُّد الآلهة في الحضارات القديمة ، بأنَّهم بحثوا عن الله في مظاهر الطَّبيعة المتكاثرة فعدَّدوها ، ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ، ولكن هذه التَّشبيهات إن هي إلاَّ رموز تدلُّ على حقيقة واقعيَّة .



*(الإله) حورس يقود الملكة نفرتيتي



* إلـه يصـوِّر إنسـانـاً حسب العقيـدة المصريَّة القـديمـة : إلهـان ذوا رأسَيْ حيوان ، الإلـه (خنوم) يصـوِّر إنسـانـاً على دولاب فخاري ، بينما يقـدِّر (توت سني) حيـاتـه على سعفة نخلة محزَّزة



*(الإله) أنو بيس يحنِّط جثَّة

وثمّة ترنيمة تستوقف النّظر في التّسبيح بحمد (آمون رع) ، نظمت في عهد أمنحوتب الثّالث ، تذكر آمون رع على أنّه في جوهره الشّمس ، وتدعوه (رع خبرع Ra Khepera) ، وحورس الأكبر ، وآتون ، وخنومو Khnumu بارئ الْخَلْق ، وبتاح إله منف الصّنّاع المتفنّن ، وهذه التّرنيمة وإن كانت تعتمد على أساطير الأوّلين ، فإنّها تجمع كثيراً من الصّفات في إله واحد ، وهي نفحة معجّلة من فيض الحماسة ، وروح التّوحيد اللّذَيْن فاضت بها ترانيم آتون فيما بعد ، ومن هذه التّرنيمة :

أيُّها الموجد الّذي لا موجد له
أيُّها الواحد الأحد الّذي يطوي الأبد
إنّك لتقطع على عجل مسيرة الملايّين ، ومئات الأُلوف من الفراسخ في لحظة
حين تشرق في البكور تتفتّح العيون لأشعّتك
وحين تغيب وراء الجبال الغربيّة
يغشى النّوم البرايا كأنّهم موتى
أنت الأمُّ البارّة للآلهة والبشر
والصّانع الدّؤوب الخالد في آثاره الّتي لا يحيط بها حصر
والرّاعي ذو القوّة والبأس ، يرعى رعيّته ، ولولا أنك ملاذهم لما تهيّأت لهم حياة .

وقبل ذلك بقرن من الزّمان ورد على لسان أحد الشّعراء يسبّح بحمد آمون رع :

طلعتك الفاتنة تتفتّر لها الأوصال ، ويذهل اللُّب حين يتطلّع إليك
يا من يصدر عن عينيه البشر ، وتصدر عن فمه الآلهة
يا منبت الكلأ للماشية ، وأشجار الثّمار لبني الإنسان
يا من جعل قوام السّمك في الماء ، وقوام الطّير في الهواء
يا نافث الرُّوح في الكائن المكنون في البيضة ، وباعث الحياة في الوليد من الزّواحف

ورازق البعوض والذود والبراغيث

ومطعم الفئران في جحورها ، والطَّير على الشَّجر

سبحانك بارئ البرايا كافَّة ، أنت واحد أحد ، ولكن أيديك كثيرة

يا من لا تأخـذه سِنَـةٌ طوال اللَّيل ، والنَّـاس رقود ، البـار برعيَّتـه يتحرَّى لهم الخير[٦] .

وفي الدَّولة الوسطى ، أصبح للإله المحلِّي لمدينـة طيبـة (آمون) ، المقـام الأوَّل في العقيدة الدِّينيَّة الرَّسميَّة ، واندمج اسم آمون برع ، وأصبح آمون بعـد خروج الهيكسوس إلهـاً عـالميّـاً في الشَّرق الأدنى بـأجمعـه ، وجرى تحـوُّل إلى عبـادة الشَّمس سنـة (١٣٨٠ ق.م) ، وذلك في عهد أمنحوتب الرَّابع ، الَّـذي دعـا دعوة صريحة إلى عبـادة الشَّمس ، وأعلن خروجـه على عبـادة آمون ، ودعـا إلى عبـادة قرص الشَّمس (آتون) ، الَّذي يعبِّر عن القوَّة الكامنة في الشَّمس ، وبـدَّل اسمـه من أمنحوتب إلى أخنـاتون ، أي المعجب بآتون ، أو المفيد لآتون ، أو آتون راضي ، وأعلن حرباً منظَّمة على آمون وغيره من الآلهـة ، سـاعـده على ذلـك تصرُّفـات كهنــة آمـون ، فـالسَّراري في الهيكل العظيم بالكرنك ، يُتَّخذن لآمون في الظَّاهر ، وليستمتع بهن الكهنة في الحقيقة ، فثار أخنـاتون على (العهر المقدَّس) ، وأعلن أنَّ كلَّ هاتيك الآلهة مزيَّفـة ، والطُّقوس منحطَّـة « وأن ليس للعالم إلاَّ إله واحد هو آتون »[٧] ، ومن قصائده وأغانيه في مدح آتون :

أيُّها الإله الأوحد الَّذي ليس لغيره سلطان كسلطانه

يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك حين كنت وحيداً

إنَّ النَّاس والأنعام كبيرها وصغيرها

وكلَّ ما على الأرض من دابَّة

وكلَّ ما هو في العُلا ويطير بجناحيه

---

(٦) تاريخ العالم : ٦٧٣/١

(٧) قصَّة الحضارة : ١٧٢/٢

إنَّك تضع كلَّ إنسان في موضعه ، وتمدُّهم بحاجاتهم ...
ألا .ما أعظم تدبيرك يا ربّ الأبديَّة
أنت أوجدت العالم
وأقمت كلَّ ما فيه لابنك
أخناتون ذي العمر المديد[(٨)] ..

وأخناتون يرى الإله الحقّ هو خالق حرارة الشَّمس ومغذيها ، وهو ربّ المحبَّة والسَّلام ، فأغلق جميع الهياكل القديمة ، ومحا جميع أسماء الآلهة باستثناء آتون ، لقد ضرب ضربة واحدة ، جرَّد بها طائفة غنيَّة قويَّة من ثرائها وامتيازاتها ، فأغضبها عليه ، وانحطَّت مئات الحرف الَّتي لم تكن لها حياة إلاَّ على حساب الهياكل ، فحقدوا عليه ، وتمنَّوا موته .

وكان من صلب هذه العقيدة أن يعبد البشرُ الملكَ (فرعون) ابن الإله ورسوله ، فسبَّبت هذه النَّاحية انهيار هذه الدِّيانة بعد موت الملك سنة ١٣٦٢ ق.م ، وعمره ثلاثون سنة فقط .

إنَّ عبادة (آتون) فكرة توحيد ، لما فيها من القضاء على تعدُّد الآلهة ، ولكنَّها لم تصل إلى فكرة التَّوحيد المطلقة ، الَّتي جاءت بها الأديان السَّماويَّة ، ولكنَّها تبقى « أفضل ديانة وثنيَّة عرفها الشَّرق الأدنى » ، وبعد موت أخناتون عادت عبادة آمون .

وكانت الأعياد الدِّينيَّة كثيرة في مصر ، ويمكن القول إنَّ أيَّام السَّنة كانت كلُّها أعياداً ، إمَّا للآلهة ، أو للموت ، ومن هذه الأعياد عيد زيارة آمون في معبد الأُقصر ، وكانت عندهم أعياد زراعيَّة ، وكانت تتَّخذ صفة دينيَّة أيضاً ، ومنها عيد رأس السَّنة ، وعيد الحصاد ، وعيد الفيضان (وفاء النِّيل) .

أمَّا الحياة الاجتماعيَّة ، فقد اعتاد المصريُّون القدماء على الزَّواج المبكِّر ، ليتَّقي

(٨) قصَّة الحضارة : ١٧٢/٢

الشّاب مواطن الزّلل ، وقال أحد حكماء الدّولة القديمة (بتاح حوتب) : إذا كنت رجلاً حكيماً ، فكوّن لنفسك أُسرة .

ومن أسباب الزّواج المبكّر حاجة الزّراعة إلى أيدٍ عاملة قويّة ، فكان استكثار النّسل لتقوية الأُسرة ، والدّم الحار في عروق سكّان وادي النّيل ، أهّل البنات للزواج في سنّ العاشرة ، وكان الاتّصال بينهن وبين الفتيان قبل الزّواج حرّاً ميسّراً ، حتّى جمعت إحدى السّراري أيّام البطالة أموالاً تكفي لبناء هرم(٩) .

وعرف المصريّون القدماء تعدّد الزّوجات ، واكتفى معظمهم بالزّوجة الواحدة ، وتعرف باسم الزّوجة الشّرعيّة (سيّدة البيت) ، فمكانة المرأة مكانة سامية ، حتّى كانت الأملاك الزّراعيّة كلّها تُنْقَل إلى الإناث .

وشغف الشعب بأدوات التّجميل والحلي والزّينة ـ رجالاً ونساءً ـ فلبسوا الأساور والخواتم والأقراط والقلائد .

وعلّم المصريّون القدماء أولادهم ، حيث لقّن الكهنة أبناء الأُسر الغنيّة مبادئ العلوم في مدارس ملحقة بالهياكل ، ثمّ درّبوا بعض الأطفال عند كُتّاب الدّواوين ، ليصبحوا كتاباً في وظائف الدّولة ، تقول بُرْدِيّة :

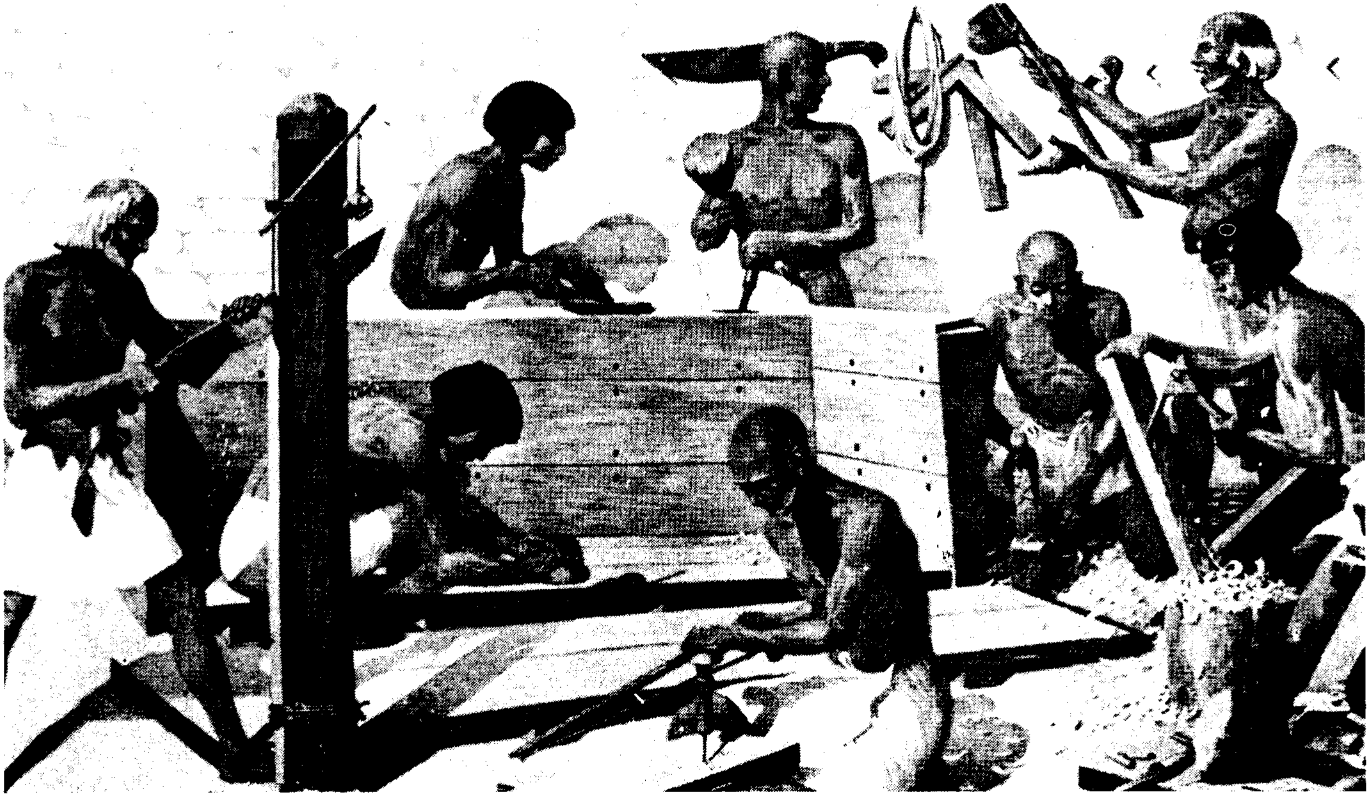
أفرغ قلبك للعلم وأحبّه كما تحبّ أُمّك ، فلا شيء في العالم يعدل العلم في قيمته .

لا تضع وقتك في التّمنّي ، وإلاّ ساءت عاقبتك ، اقرأ بفمك الكتاب الّذي بيدك ، وخذ النّصيحة ممّن هو أعلم منك .

وكانت الكتابة تّصويريّة ، تعبّر عن الشّيء برسم صورة له ، أو برمز ، فالهيروغلوفيّة قديمة قِدَم الأُسر المصريّة الأُولى ، والهيراطيقيّة (المقدّسة) استعملت في

---

(٩) قصّة الحضارة : ٩٩/٢



*معمل خشب من الأسرة الحادية عشرة
حيث نخبة من النَّجارين المهرة ، وقد انهمكوا في صنع تابوت خشبي

الهياكل ، وهي مهذَّبة عن الهيروغليفيَّة ، وظهر نمطٌ ثانٍ مختصر شعبي هو الديموطيقيَّة (الشَّعبيَّة)[١٠] .

وعرف المصريُّون المكتبات منذ عام ٢٠٠٠ ق.م ، حيث البرديَّات المطويَّة المحفوظة في جرار معنونة ومصفوفة على رفوف ، فيها أقدم قصَّة لملاَّح تحطَّمت سفينته ، لم ينجُ غيره ، ومغامرات سنوحي ، وهي قصَّة موظف فرَّ من مصر إثر وفاة امنحوتب الأوَّل ، وأخذ يتنقَّل من بلد إلى بلد في الشَّرق الأدنى ، وكوَّن ثروة طائلة ، ولكن عشق الوطن ، والحنين إلى الأهل برَّحا به ، فترك ثروته ، وعاد إلى وطنه .

وكتابة التَّاريخ في مصر قديمة قدم التَّاريخ نفسه .

أمَّا المجتمع ، فقد انقسم إلى ثلاث طبقات : طبقة النُّبلاء والأشراف والكهنة ، وتمتَّع أفرادها بامتيازات كبيرة ، والطَّبقة المتوسِّطة ، أو الأحرار ، وتتألَّف من صغار الموظَّفين ، وأصحاب المهن والصِّناعات ، والفلاحين الأحرار الَّذين يعيشون من كدِّهم وجهدهم ، وطبقة الأرقَّاء ، وهم أكثريَّة الشَّعب ، يرتبطون بالأرض ، وينتقلون معها إذا انتقلت ملكيَّتها من شخص إلى آخر ، ومع أنَّهم يقومون بأشقِّ الأعمال ، فقد كانوا يعيشون في بؤس وفقر مدقع ، يسكنون أكواخاً صغيرة مبنيَّة من جذوع بعض النَّباتات الَّتي تطلى أحياناً بالطِّين ، وكان الفلاح معرَّضاً لنظام السُّخرة في العمل لخدمة الملك ، فهو الَّذي ينظِّف قنوات الرَّي ، وينشئ الطُّرق ، ويحرث الأرض الملكيَّة ، ويجرُّ الحجارة الضَّخمة لإقامة المسلاَّت ، وتشييد الأهرام ، والهياكل والقصور[١١] .

واعتمدت الحياة الاقتصاديَّة على الصِّناعة والتِّجارة الخارجيَّة والزِّراعة .

لقد استخرجوا المعادن من مناجم سيناء ، كالنُّحاس والقصدير ، وعرفوا البرونز

---

(١٠) وعندما حُلَّت رموز الهيروغليفيَّة على يد شمبليون عام ١٨٢٢ م كشف عن عالم عظيم كان مفقوداً ، (انظر حجر رشيد ص ٣٠) .

(١١) لذلك قيل : أيُّ حضارة هذه الَّتي سخَّرت شعباً كاملاً لبناء قبر (هرم) لشخص واحد ، هو فرعون ؟!

منذ عهد الأُسَر الأولى لصناعة الأسلحة والعجلات والرَّافعات والمناشير ، ولم يستخدموا الحديد الَّذي استوردوه من آسية الصُّغرى[١٢] ، إلاَّ في عصر الأُسرة الثَّامنة عشرة ، كما استعملوا الذَّهب وصاغوه بمهارة ، وبنوا السُّفن من الخشب الجيِّد المستورد من لبنان أو غربي آسية ، أو النُّوبة والسُّودان ، وصبغوا الأواني الفخَّاريَّة ، وعرفوا صناعة الزُّجاج بشكل محدود ، والمنسوجات الجيِّدة من أدقّ الخيوط ، حتَّى استورد اليونانيُّون الأقمشة الكتَّانيَّة من مصر ، وصُنع من نبات البردي الورق[١٣] ، « وورق البردي أعظم هديَّة قدَّمتها مصر إلى العالم » ، منذ أوائل عصر الدَّولة القديمة ، وظلَّت هذه الصِّناعة تزوِّد جميع بلاد الشَّرق الأدنى ، وحتَّى العالم القديم من بلاد فارس إلى إنكلترة ، وذلك بسبب خفَّة وزنه ، وسهولة حمله ، وصلاحيَّته للكتابة والحفظ .

كما صنعوا من نبات البردي الحبالَ والحصر والأخفاف .

ولأهمِّيَّة مياه نهر النِّيل لحياة مصر ، أنشأ المصريُّون مقياساً على الضِّفَّة الصَّخريَّة لمجرى نهر النِّيل في جنوبي الشَّلاَّل الثَّاني ، لمعرفة نسبة ارتفاع النَّهر كلَّ يوم ، ولمَّا كانت الأعمال الزِّراعيَّة تتوقَّف أيَّام الفيضان لمدَّة ثلاثة أشهر كل سنة ، فقد استغلَّ الفلاَّحون فراغهم بصيد الأسماك والطُّيور ، أو بأعمال البناء .

وتميَّزت الحياة العلميَّة بأنَّ العلوم استخدمت لفوائدها التَّطبيقيَّة بالدَّرجة الأُولى ، فبنوا السُّدود الصَّغيرة ليتمكَّنوا من رفع منسوب الماء لري أكبر قسم ممكن من الأرض ، ومن المنجزات الهامَّة الَّتي قام بها المهندسون المصريُّون القدماء ، تحويل مجرى النِّيل في عهد مينا ، وبنوا مدينة منف في مكان النَّهر المحوَّل ، وأقاموا سدّاً عظيماً في منخفض

---

(١٢) ومناجم الذَّهب والنُّحاس كانت محتكرة لفرعون فقط .

(١٣) وكانت طريقة صنعه ، أن تقطع سُوق نبات البردي شرائح يوضع بعضها إلى جانب بعض في طبقتين متعارضتين بين قطعتين من الكتَّان ، ثمَّ تطرق بمطرقة خشبيَّة أو حجريَّة ، وتضغط بعد ذلك بوضع أثقال فوقها مدَّة من الزَّمن ، فإذا جفَّت تكوَّنت قطعة متينة من الورق المستعمل في الكتابة ، (تاريخ الشَّرق الأدنى القديم ، ص : ١٥٤ ، وقصَّة الحضارة : ١٠٦/٢) .

الفيُّوم ، لسقاية أكبر قسم ممكن من الأراضي بعد تخزين مياه الفيضان ، وحفروا قناة سيزوستريس ، الَّتي وصلت البحر المتوسِّط بالأحمر عن طريق النِّيل ، والأهرامات شواهد باقية على تقدم علمي الهندسة والحساب .

* الجيزة : أبو الهول ، وهرم خوفو ، (التَّشوُّه في وجه أبي الهول ، من أثر قصفه من قبل الحملة الفرنسيَّة بقيادة نابليون سنة ١٧٩٨ م) .



ولَّما كان النِّيل يغيِّر مجراه ، فيضيف إلى إحدى ضفَّتيه أرضاً جديدة ، ويأخذ من الأُخرى بفعل التَّآكل المستمر ، فكان لابُدَّ من مسح الأراضي الزِّراعيَّة ، ووضع حدود ثابتة لها وتسجيلها في القيود والسِّجلات والمخطَّطات ، وهكذا نشأ علم المساحة في مصر القديمة .

وعرف المصريُّون منذ أوائل العصور التَّاريخيَّة التَّعداد العُشْري حتَّى المليون .

أمَّا في مجال الفلك ، فقد درسوا النُّجوم ومواقعها ، وكان نجم الشعرى المسمَّى سريوس Sirius أو سوثيس Sothis هو أهمُّ النُّجوم عندهم ، لأنَّه يؤذن بالفيضان ، فأقاموا لظهوره احتفالات دينيَّة ، وكانوا يعدُّونه روحاً لإيزيس ، وكانت الأُسطورة تذكر أنَّ الدُّموع الَّتي تسكبها إيزيس عند الذِّكرى السَّنويَّة لموت زوجها أُوزوريس ، هي الَّتي تسبِّب الفيضان .

ومنـذ عصور مـا قبل التّـاريخ ، قسّمـوا السَّنـة إلى اثني عشر شهراً ، وكلٌّ شهر إلى ثلاثين يوماً ، ثمَّ أضافوا خمسة أيّام إلى السَّنة ليجعلوها تتَّفق مع الحقائق الفلكيَّة .

واخترعوا السَّاعة المائيَّة في عهد الأُسرة الحادية عشرة .

وفي مجال الطِّبِّ ، يُعَدُّ الوزير أمحوتب أوّل مكتشف للـدَّواء ، ويسمُّونـه الإلـه الشّـافي ، وعرفـوا التَّخصُّص : أطبـاء عيـون ، أسنـان ، داخليـة ، جراحـة ، تـوليـد ، عظام .. وفي برديَّـة تعود إلى عـام ١٦٠٠ ق.م وصف لثمانٍ وأربعين حـالـة من حـالات الجراحة التَّطبيقيَّة ، من كسر جمجمة ، إلى إصابـة النُّخـاع الشَّوكي .. وفي برديَّـة أُخرى أسماء سبـع مئـة دواء ، لكلِّ الأدواء المعروفـة ، وسـاعـدت عمليّـات تحنيـط المـوتى(١٤) ، وإخراج الأحشاء على تقدُّم الطِّبِّ .

أمّا من النّـاحيـة الفنِّيّـة ، فـالعمارة أفخم الفنون المصريَّـة القـديمـة على الإطلاق ، وفضَّل المصريُّون بصورة عامَّة النَّقش على التَّصوير ، لأنَّه أثبت وأبقى على الـدَّهر ، من صورة مرسومة على جدران مبنيَّة باللَّبن .

واهتمُّوا ببناء الأهرامات قبوراً لهم ، وبنوا لآلهتهم معابد ضخمة ، جعلوها على نمط قصور الفراعنة ، من أشهرها : معبد الكرنك ، ومعبد الأُقصر .. وبقـاؤهـا حتَّى يومنـا هذا متحدِّية عوامل الطَّبيعة ، سببه عظمة المهندسين والبنّائين من جهة ، وبناؤهـا من الحجر الصَّلب من ناحيـة ثـانيـة ، على عكس الحـال في بلاد الرّافـدين ، إذ بُنِيَت فيهـا القصور والمعابد من الطِّين فاندثرت .

(١٤) من طرق التّحنيـط عنـد المصريّين القـدمـاء بعـد نزع الأحشـاء ، تنظيف الجـوف وملـؤه بـالمرّ والمـواد العطريَّة ، ثمَّ معالجة الجسم بالنَّطرون ، وتلصق به لفائف الكتّـان ، أو يحقن الجسم بزيت خشب الأرز ومعالجته بالنَّطرون ، ومن الجدير بالذِّكر أن موميـاء الفراعنـة لا تزال بحالـة جيِّـدة حتّى اليوم بفضل دقَّة تحنيطها على الرَّغم من مرور أكثر من ٤٠٠٠ سنة عليها ، بينمـا عولجت جثَّـة لينين المحنَّطـة أكثر من خمسين مرَّة ، خلال خمسين سنة فقط لسوء حالها .

وسبب التَّحنيـط فكرة الخلـود ، وفي (كتـاب المـوت) ألفـا ملف من ورق البردي فيهـا صيـغ لإرشـاد الموتى .

هـذا ، وعنـد المصريِّين القـدمـاء فلسفـة أخلاقيَّـة قبل كنفوشيوس وسقراط وبوذا بألفي عام على الأقل[15] ، منها تعـاليم بتـاح حوتب (٢٨٠٠ ق.م) : « لا تَزْهُ بنفسـك لأنَّك عالم ، بل تحدَّث إلى الجاهل كما تتحدَّث إلى الحكيم ، لأنَّ الحذق لا حدَّ لـه ، كما أنَّ الصَّانع لا يبلغ حدَّ الكمال في حذق صناعته ، والكلام الجميل أندر من الزُّمرُّد الَّـذي تعثر عليـه بين الحصى .. ولا تتخـطَّ الحـقَّ ولا تكرِّر مـا قـالـه إنسـان غيرك ، أميراً كان أو فلاحاً ، ليفتح به قلوب النَّاس له ، لأنَّ ذلك بغيض إلى النّفس .

وفضيلة الابن من أثمن الأشياء للأب ، وحسن الأخلاق شيء لا يُنْسى أبداً ..

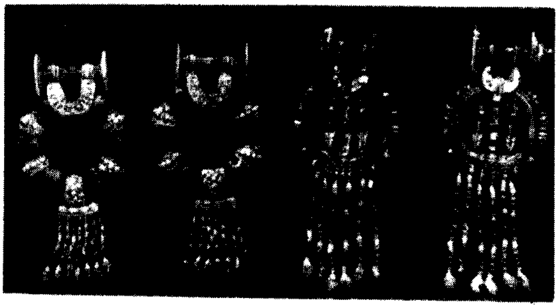
وحيثما ذهبت فاحـذر الاتِّصـال بـالنِّسـاء .. واعلم أنَّ السُّكوت أنفع لـك من كثرة الكلام ، وفكِّر في أنَّك قد يعارضـك خبير ممَّن يتحـدَّثون في المجلس ، ولـذلـك كان من السُّخف أن تتكلَّم في كلِّ نوع من أنواع العمل .. »[16] .

ولا يسعنـا ونحن نطـوي آخر الأسطر عن هـذه الحضـارة الَّتي أثرت بحضـارة الفينيقيِّين ، وكريت ، واليونان والرومان .. إلا أن نلمح أصالتها وعظمتها ـ على الرغم من تدهور قيمة الإنسان فيها ـ فهي الَّتي أقـامت أوَّل حكومـة منظَّمـة ، وأوَّل من أنشـأ نظام البريد ، والتَّعداد ، والتَّعليم الابتدائي والثَّانوي ، والفنِّي لإعداد الموظَّفين ورجال الإدارة ، وارتقت بالكتابة ، وأوَّل من دعا إلى التَّوحيد في الدِّين .

---

(١٥) قصَّة الحضارة : ١٥٠/٢

(١٦) قصَّة الحضارة : ١٥٠/٢



* حُلي مصريّة قديمة (أقراط)



مسلّة رمسيس الثاني

حَضَارة بلاد الرَّافدين

حضارة بلاد الرَّافدين ، من الحضارات العالميَّة القديمة ، سمِّيت بأسماء القبائل العربيَّة الَّتي أقامتها[١] ، والَّتي جاءت من شبه جزيرة العرب بهجرات ، بدأها إلى بلاد الرَّافدين الأكاديُّون حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م ، والَّذين سكنوا شمال سهل شنعار[٢] ، وورثوا حضارة الشَّعب السّومري ، الَّذي لَمَّا تفك بعدُ ـ عند المؤرِّخين ـ أُحجية أصله وجذوره ، ولمَّا أقام البابليُّون[٣] دولتهم حوالي ٢٠٠٠ ق.م ، مؤسِّسين الدَّولة البابليَّة الأُولى ، ورثوا تراث بلاد الرَّافدين السُّومريّ والأكادي ، ثمَّ ورث الآشوريُّون

---

(١) أطلق المؤرِّخ الألماني شلوتر لأوَّل مرَّة عام ١٨٧٠ م ، على بعض اللُّغات الشَّرقيَّة اسم السَّاميَّة ، وعمَّت هذه التَّسمية الأقوام الَّتي تكلَّمتها ، فأصبحت تسمَّى السَّاميَّة أيضاً ، وهذه التَّسمية مأخوذة من التَّوراة (العهد القديم) ، والأصح أن نسمِّيها بالشُّعوب العربيَّة القديمة ، لأنَّ أصلها ومنبتها كان في شبه جزيرة العرب ، وذكر هيرودوت أنَّ الرُّواة القدامى أطلقوا على الآشوريِّين اسم العرب ، فلم يكن الرُّواة يسمُّونهم بالسَّاميِّين ، بل « العرب » .

(٢) سهل شنعار : الأراضي الواقعة بين دجلة والفرات ، من موقع بغداد حتَّى الخليج العربي ، انظر أطلس التَّاريخ العربي ص : ١٤

(٣) وهم أموريُّون وصلوا أواسط العراق عن طريق سوريَّة .

[١٣٩٢ ـ ٥١٢ ق.م] ، لواء حضارة بلاد الرَّافدين ، ليستلمه الكلدانيُّون عنـدمـا أسَّسوا الدَّولة البابليَّة الثَّانية [٦٢٦ ـ ٥٣٩ ق.م] ، وفي سنة ٥٣٩ ق.م اقتحم كورش الفارسي أسوار بابل ، فانتهى باقتحام أسوارهـا حكم العرب القـدمـاء في بلاد الرَّافـدين مـدَّة من الـزَّمن ، إذ انتقلت السِّيـادة للفرس حتَّى عـام ٣٣١ ق.م ، حين استـولى الإسكنـدر المكدوني على الشَّرق ، ولكن السِّيـادة العربيَّـة عـادت عنـدمـا قـامت الـدَّولـة العربيَّـة الإسلاميَّة ، وحرَّرت بلاد الرَّافدين .

عصور ما قبل التَّاريخ في بلاد الرَّافدين :

عثر (بريد وود) عام ١٩٤٨ م في قريـة (جرمو) الواقعـة في غربي السُّليمـانيَّـة ، على حضـارة تعـود إلى العصر الحجري الحـديث ، أُرجعت إلى ٦٥٠٠ ق.م ، وعرف من هذا الكشف أنَّ الحياة كانت زراعيَّة مستقرَّة .

وجنوبي مدينة الموصل ، عثرت بعثـة مـديريَّـة الآثـار العراقيَّـة عـام ١٩٤٣ م على حضارة عصر تل حسُّونة ، الَّتي تعود إلى عـام ٥٧٥٠ ق.م ، وهي حضـارة عـاش أهلهـا على الصَّيد والزِّراعة الابتدائيَّـة ، وعثرت البعثـة على تمـاثيل فخَّـار صغيرة الحجم ، تمثِّل أشكالاً بشريَّة ، ممَّا يدلُّ على ظهور نوع من العبادات الوثنيَّة .

وعثر (مالوان) عام ١٩٣١ م على نماذج مماثلة لحضـارة تلِّ حسُّونـة في نينوى ، وفي تلِّ حلف (رأس العين) عثر البـارون الألمـاني (فـون أُوبنهـايم) على حضـارة امتـازت بالفخَّار النَّاعم الجميل المصبوغ .

أمَّا حضـارة العصر النُّحـاسي فقـد تمثَّلت في مواقع : تلُّ العبيـد ، وتعود إلى حوالي ٣٤٠٠ ق.م ، وأوروك (الوركاء) ، وتعود إلى حـوالي ٣٤٠٠ ق.م أيضـاً ، وجمـدة نصَّر وتعود إلى حوالي ٣٠٠٠ ـ ٢٩٠٠ ق.م ، وكلُّها في جنوبي بلاد الرَّافدين .

وفي حضارة هذا العصر ، بُنيت أوَّل زقورة ، وهي معبـد على شكل برج متـدرِّج ، واخترعت الكتابة وكانت تصويريَّة ، ثمَّ أصبحت رمزيَّة بإشارات مسماريَّة .

السُّومريون : [٣٤٠٠ - ٢٤٠٠ ق.م] :

وُجِدَ السُّومريُّون في جنوبي بلاد الرَّافدين منذ بدء العصور التَّاريخيَّة ، ويُعدُّون أوَّل من سكن بلاد الرَّافدين بعد الطُّوفان ، ويرد اسم الأرض الَّتي سكنوها وعمروها في الكتابات القديمة السُّومريَّة باسم كنجي ، وفي الكتابات العربيَّة القديمة سومر ، ولم يعرف أصلهم بشكل يقيني ، أهم من تركستان ، أم من آسية الصُّغرى ، أم من دِلْمُون (البحرين) ؟ وأيَّة طريق سلكوها حتَّى وصلوا جنوبي بلاد الرَّافدين ؟

يرجِّح بعض المؤرِّخين أنَّهم أتوا من أواسط آسية ، والمناطق القريبة من شمالي بحر قزوين ، وجعلهم المتعصِّبون الَّذين يتجاوزون كلَّ حضارة عربيَّة قديمة ، يعودون بأصولهم إلى حضارة سابقة لهم منسوبة إلى عنصر آخر من العناصر البشريَّة ، فهم يبالغون في قدم الحضارة السُّومريَّة ، وتقدير زمانها السَّابق لجميع الحضارات ، فجعلوا من أصلهم لغزاً .

ونتساءل : لِمَ يَعدُّون أنَّ هذه الأرض المِخْصاب يجب أن تكون خالية من سكَّان المنطقة الأُصلاء ؟ خصوصاً وأن مناطق الجزيرة العربيَّة الملاصقة لها ، والقريبة جدّاً منها ذات أراضٍ مِجْداب ، ممَّا يجعل أرض سهل شنعار مناطق جذب للعرب القدماء قبل الأكاديِّين والبابليِّين ، هذا ، وقد قرئت معظم الرُّقُم السُّومريَّة ، فلو جاؤوا من منطقة أُخرى لذكروا ذلك ولو مرَّة واحدة على الأقلّ ، وهم يرون جنتهم بعد الموت (دِلمون) أي البحرين[٤] ، فلم لا يكون أصلهم منها ، وهاجروا منها شمالاً حيث الخصب والمياه عندما ضاقت بهم هذه الجزيرة ؟! وإن قيل : ولكنْ هناك تشابه بين

(٤) جاء في أدب السُّومريِّين عن دلمون (الجنَّة) : أرض دلمون مكان طاهر ، أرض دلمون مكان نظيف ، أرض دلمون مكان مضيء ، في أرض دلمون لا تنعق الغربان ، ولا تصرخ الشُّوحة صراخها المعروف ، حيث الأسد لا يفترس أحداً ، ولا الذِّئب ينقضُّ على الحمل ، ولا الكلب المتوحِّش على الجدي ، ولا الخنزير البرِّي يلتهم الزَّرع ، حيث لا أحد يعرف رمد العين ، ولا أحد يعرف آلام الرَّأس ، حيث لا يشتكي الرَّجل من الشَّيخوخة ، ولا تشتكي المرأة من العجز ، حيث لا وجود لمنشد ينوح ، ولا لجوال يعول . [مغامرة العقل الأُولى ص : ١٩٢] .

حضارة السُّومريِّين وحضارة (أناو) جنوبي التركستان ، نقول : هـذا التَّشـابـه فرضتـه حضـارة (سوزا) الملاصقـة لسومر ، أو التِّجـارة ، كالشبـه المـوجـود بين حضـارة بـلاد الرَّافدين ومصر ، أو الهند والصين ، أو مصر وكريت .. فهذا التَّشابه لا يعني أنَّ سكَّـان مصر أصلهم من بلاد الرَّافدين ، أو سكَّان الصِّين أصلهم من الهند ..

هذا رأينا ، وهو رأي ليس غير ، ولكن ما يجب أن يضعه البـاحثون العرب نصب أعينهم ، وبموضوعيَّة ويقظة ، أنَّ عدداً لا يستهان بـه من المؤرِّخين والبـاحثين الغربيِّين عنصريُّون ، يصرُّون على جعل هذه الحضارة الأصيلـة السَّـامقـة ، منسوبـة إلى حضـارة سـابقـة وإلى عنصر آخر من العنـاصر البشريَّـة ، لا يهمَّهم من يكـون ، ولكن يجب ألاَّ يكون ـ حصراً ـ من العرب القدماء .

لقـد تـأسَّست دويـلات صغيرة في بعض أجـزاء من بـلاد الرَّافـدين ، ويعتقـد أنَّ حكَّـام مـدينـة (كيش) ، هم أوَّل من سيطر على جميـع أجـزاء سهـل شنعـار بعـد الطُّوفان ، ثمَّ آلت الزَّعامة إلى أُوروك ، وتلتها أُور ، وكان نظام الحكم مبنيّاً على أسـاس ديني ، وتـدلُّ كلمـة بـاتيسي ، أو إيشـاكـو ، العربيَّـة القـديمـة الَّتي لُقِّب بهـا الملـوك السُّومريُّون على أنَّهم لم يكـونـوا إلاَّ نـوَّابـاً عن الإلـه في الأرض ، وبمـا أنَّ الإلـه مطلـق التَّصرُّف ، فقد كان نائبه الملك كذلك .

والملك هو القائد الأعلى للجيش ، وكانت الجنديَّة مهنـة عنـد السُّومريِّين ، يعيش منها أصحابها .

ووجدت منذ عصر الوركاء وجمدة نصر قواعد حقوقيَّة ، ومواد قـانونيَّـة ، من عهـد أُوروكاجينـا ، الَّـذي يعـدُّ أوَّل مشرِّع ، وأوَّل مصلـح اجتماعي عرفـه العـالم ، قمـع ابتزاز الكهنـة ، وطهَّر المحـاكم ، فسنَّ القوانين لتنظيم الضَّرائب والرُّسوم الَّتي تؤول إليهم ، ومن قواعده الحقوقيَّة : إذا هيَّأ ابن الفقير بركة للصَّيـد ، فلا يجرؤ أحـد أن يسرق سمكهـا ، ومنها : لن يُسْمَح أن تقع الأرامل واليتامى فريسة لظلم الأقويـاء ، ومنهـا : إنَّ الكاهن لن يتمكَّن بعد الآن من الدُّخول إلى بستان الفقير لأخذ أشجاره وثماره .

عبد السُّومريُّون قوى الطَّبيعة ، ومن آلهتهم أنليل وقرينتـه ننليل ، وهمـا الإلهـان اللَّذان خَلَقا كلَّ شيء ، وعندما أُنشئت المدن ، أصبح لكلِّ مدينة إله خاصٌّ بهـا ، وأشهر الآلهـة : آنـو ربُّ الأربـاب ، وكانت قرينتـه نين هـورسـاك ، أو ننتـو ، أي السَّيِّـدة الوالدة ، وأنليل ربُّ الأرض وقرينته ننليل ، وهي عشتار عند العرب القدماء ، وإنكي (أيا) إله المياه ، وتنجرسو إله الرَّي وربُّ الفيضانات ، ونانَّا إلـه القمر ، وهو (سين) عند العرب القدماء ، وأبو (تموز) إله الزَّرع ..

وكان الإله الأعظم بلا منازع (شمس) ، الَّذي سنَّت الشَّرائع باسمه .

وآمن السُّومريُّون بالحيـاة الآخرة بعـد الموت ، لـذلـك دفن الطَّعـام والأدوات مع الموتى في القبور .

عمل السُّومريُّون بالزِّراعة ، وقـدَّموا إلى الحضـارة نظـام الرَّي المحكم ، الَّـذي يرجع عهده إلى ٤٠٠٠ ق.م ، فحفروا التِّرع ، والجـداول والقنوات ، كقنـاة شـطِّ الحي ، الَّتي ما تزال مستعملة حتَّى أيَّامنا هذه ، وظهر عندهم المحراث الَّذي تجرُّه الثِّيران ، وجعلوا به أُنبوبة مثقوبة لبذر البذور ، كما درسوا الحبوب بعربات من الخشب رُكِّبت فيها أسنان .



* المحراث الباذر : عمليَّتـان بـآن واحـد ، فهو يشقُّ الأرض ويودعهـا الْحَبَّ في الـوقت نفســه ، وإلى جــانب المحراث عــامـل يفرغ الْحَبَّ في قمع يتسرَّب منه إلى الارض

وفي مجال الصِّناعة ، عرف السُّومريُّون بعض المعادن كالنُّحاس والقصدير والفضَّة والذَّهب ، وعرفوا البرونز في منتصف الألف الثَّالث قبل الميلاد ، وعرفوا صنع المنسوجات الَّتي أشرف عليها مراقبون يعيِّنهم الملك .

وفي مجال التِّجارة ، بلغت مبادلاتهم التِّجاريَّة عيلامَ شرقاً ، والأناضول شمالاً ، وسورية ومصر غرباً ، وعرفوا خلال تجارتهم هذه الصُّكوك لكتابة المقاولات والعقود ، وعرفوا الشُّهود ، والرَّهن ، والفوائد العالية ، والسُّلف ..

وفي مجال العلوم ، اتَّبع السُّومريُّون في الحساب نظاماً خلط بين النِّظامَيْن العُشري والسِّتِّيني ، وأشارت إحدى الوثائق السُّومريَّة إلى أنَّ الطِّب كان مهنة تمتهن ، ولكنَّه بقي مرتبطاً بالكهانة ، ويركِّب الطَّبيب عقاقيره بيده .

وعرف السُّومريُّون التَّقويم : اثني عشر شهراً قمريّاً يزيدونها شهراً في كلِّ ثلاثة أعوام أو أربعة ، حتَّى يتَّفق تقويمهم هذا مع فصول السَّنة ، ومع منازل الشَّمس .

هذه جوانب من حضارة الشَّعب السُّومري ، الَّذي على الرغم من أنَّه كان مقَسَّماً إلى طبقات ، وعرف الرَّقيق ، إلاَّ أنَّه قدَّس حقوق الملكيَّة ، وستبقى الكتابة أثمن ما قدَّمه السُّومريُّون إلى الحضارة الإنسانيَّة ، لقد انبثق الخطُّ المسماري عن الكتابة التَّصويريَّة الَّتي كان السُّومريُّون يستعملونها أصلاً في جنوبي بلاد ما بين النَّهرين ، وعندما فُكَّ الخطُّ المسماري الفارسي القديم ، والبابلي والعيلامي ، مَلَك العلماء مفتاح قراءة المكدَّسات الهائلة من النُّصوص الآشوريَّة والبابليَّة والسُّومريَّة المكتوبة بخطٍّ مسماري أصعب(٥) .

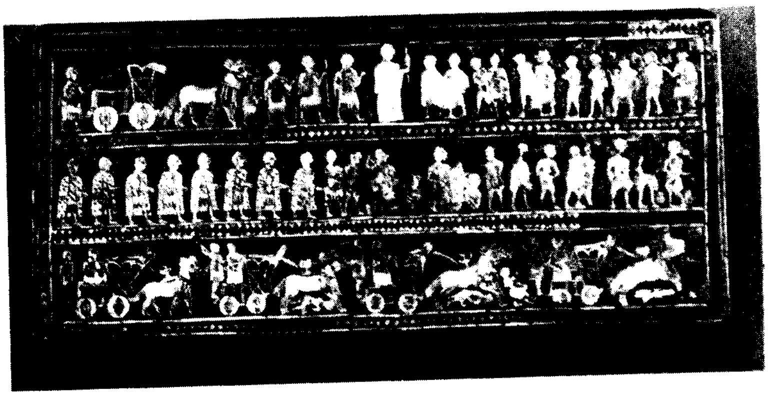
هذه جوانب من حضارة السُّومريِّين الَّذين عرفوا أوَّل مدارس ، وأوَّل مكتبات (ألواح منظَّمة) ، وأوَّل أدب وشعر ، ففي آدابهم قصص عن بداية الخلق ، وعن الطُّوفان ، وأوَّل أصباغ للتَّجميل والحلي ، وأوَّل نحت ونقش بارز ، وأوَّل قصور

(٥) بهجة المعرفة ، المجموعة الثَّانية : ٤٧/٣

وهيـاكل ، وأوَّل استعمال للمعـادن في التَّرصيع والتَّـزيِّين ، وفي بنـاء أوَّل عقـود وأقـواس وأوَّل قباب ..

ولا غضاضة على مصر القديمة في أن تعترف بالسَّبق لبلاد سومر ، وبأثر السُّومريِّين الَّـذي تمَّ عبر برزخ في السُّـويس ، فعجلـة الفَخَّـار مثـلاً عُرِفَت في مصر في عهـد الأُسرة الرَّابعة ، أي بعد أن ظهرت في سومر بزمن طويل[٦] .

ولعظمـة هـذه الحضـارة وسبقهـا ، اشتـطَّ (زيكاريـا سيتشين Z. Sitchin) في كتـابـه : (الكوكب الثَّـاني عشر) وقـال تحت عنوان : (روَّاد الفضـاء السُّومريُّون) : « فهم السُّومريُّون مجموعتنا الشَّمسيَّة ، وأطلقوا على الأرض الكوكب السَّابع ، لأنَّهم عدُّوا من محيـط المجمـوعـة الشَّمسيَّـة بـاتِّجـاه الشَّمس » ، ويعتقـد سيتشين أن السُّـومريِّين متطوِّرون علميّاً نتيجة قـدوم روَّاد فضـاء من الكواكب الأُخرى إلى الأرض قبل حوالي ٤٥٠ ألف سنة ، خصوصاً وأنَّه قـد عُثِرَ ضمن الكتـابـات السُّومريَّـة على جملـة : « أنـاس السُّفن الفضائيَّة » !؟!



* السُّومريُّون في طريقهم إلى الحرب

(٦) قصَّة الحضـارة : ٤٠/٢ و ٤١ ، سيطر العيلاميُّون والعمـوريُّـون على بـلاد سـومر ، ثمَّ أقبـل من الشَّمال حمورابي ملك بابل وقضى على السُّومريِّين .

الأكاديُّون :

استوطن الأكاديُّون شمالي سهل شنعار منذ سنة ٣٥٠٠ ق.م ، وتمكّن سرجون (شاروكين) الأوّل من القضاء على المملكة السُّومريَّة[٧] ، وتكوين إمبراطوريَّة حوالي ٢٤٠٠ ق.م ، وبقيت إلى أن قضى عليها الكوتيُّون سنة ٢٢٥٥ ق.م ، والّذين سيطروا على معظم أجزاء بلاد الرّافدين حتّى ٢١٣٠ ق.م ، ويبدو أن بعض المدن السُّومريَّة عادت وانتعشت ، مؤسّسة عهد الملكيّة السُّومريَّة الثّانية ، ويعدُّ أور - نامو [٢١٢٣ - ٢١٠٦ ق.م] أعظم ملوك السُّومريّين في هذه الفترة ، وأكبر مشرِّع في بلاد الرّافدين قبل عهد حمورابي .

ظلّت الحضارة السُّومريّة مسيطرة على مختلف نواحي الحياة ، فبقيت عند الأكاديّين المعتقدات الدّينيَّة السُّومريَّة ، فعندهم مثلاً ثالوث إلهي كما كان عند السُّومريّين (آنو) إله السّماء ، و (أنليل) إله الهواء والأرض ، و (أيا) إله المياه ، وكان السُّومريُّون يسمُّونه إنكي .

وفي عهد الأكاديّين كُتِبَت أوّل لغة عربيَّة قديمة برموز مسماريَّة .

☆ ☆ ☆

البَابِلِيُّون : [١٨٣٩ - ١٥٩٤ ق.م] :

البابليُّون من القبائل العربيَّة الأموريَّة القديمة ، سُمِّيت إمبراطوريتهم (البابليَّة) نسبة إلى عاصمتهم باب إيل ، أي باب الإله ، وأشهر ملوكهم حمورابي : [١٧٩١ - ١٧٤٩ ق.م] الّذي توسّع في عيلام ، واستولى على ماري[٨] .

اتّصف نظام الحكم عند البابليّين ، بالحقّ المطلق الّذي يتوخّى العدالة في ظلّ

---

(٧) يعدُّ سرجون ونارام سين ، أي المحبوب من إله القمر سين ، أعظم ملوك السُّلالة الأكّاديَّة .

(٨) ماري هي تل حريري شمالي البوكمال (سورية) ، اكتشفها (بارو) سنة ١٩٣٣ م .

القانون : « أنا حمورابي الأمير الأعلى ، عابد الآلهة ، لكي أنشر العدالة في العـالم ، وأقضي على الأشرار والآثمين ، وأمنـع الأقـويـاء من أن يَظْلِمُـوا الضُّعفـاء ، وأنشر النُّـور في الأرض ، وَأرعى مصالح الخلق .. أنا الحـاكم الحفيـظ الأمين عليهـا ، في قلبي حملت أهل أرض سومر وأكّـاد .. وبحكمتي قيَّـدتهم حتَّى لا يظلم الأقـويـاءُ الضُّعفـاءَ ، وحتَّى ينـال العدالة اليتيم والأرملة .. فليـأتِ أي إنسـان مظلوم لـه قضيَّـة أمـام صورتي ، أنـا ملـك العدالة .. حقّاً إن حمورابي حاكم كالوالد الحقِّ لشعبه ، لقد جاء بالرَّخاء إلى شعبـه مـدى الدَّهر كلِّه ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة » .

ويمثِّل قول حمورابي هذا « صوت الحاكم الماهر ، والسِّياسي القدير »(٩) ، وسار جميع ملوك بابل على هذا النَّهج تقريباً(١٠) .

شريعة حمورابي : وجدت مجموعات من التَّشريع قبل حمورابي ، كمجموعـة (آنـا ـ أتيشو) السُّومريَّة ، و (بيلا لاما) الَّذي جمع الأنظمة ووحَّدها ورتَّبها بإحـدى وستِّين مادَّة .

وهكذا وجدت مجموعـات من الشَّرائع قبل حمورابي بمئـة وخمسين سنـة ، فلمَّـا جـاء حمورابي كان لديه عدد من الأنظمة والقوانين ، فنسَّقها ورتَّبها وعدَّل فيها ، ثمَّ أصدرهـا بمئتين واثنتين وخمسين مادَّة ، هي القواعد العامَّة والخاصَّـة للحقوق في الشَّرق البـابلي ، وفي حال عدم ورود نصٍّ لحدث ما ، فإنَّه يحكم حسب العُرف السَّائد في المنطقة .

ومن شريعة حمورابي : « العين بالعين ، والسِّن بالسِّن » ..

المادَّة ٢٢٩ : إذا بنى مهندس بيتاً لأحد الأشخاص ، ولم يكن بناؤه متينـاً ، فـانهـار البيت ، وسبَّب قتل من فيه يعاقب المهندس بالموت .

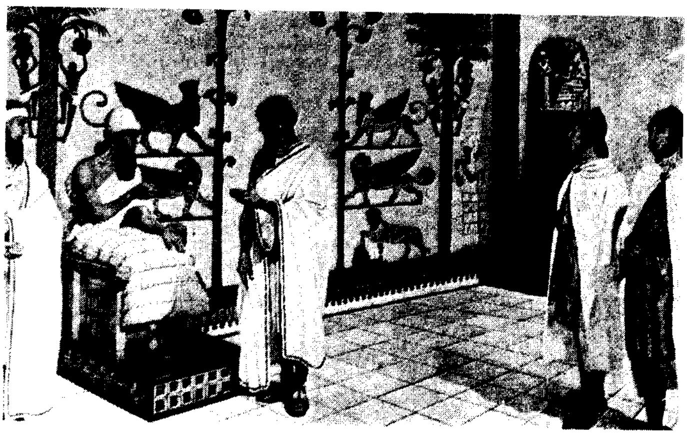
(٩) قصَّة الحضارة : ١٩٠/٢.

(١٠) الملك قانوناً وكيل لإله المـدينـة ، فـالخروج عليـه كفر ليس كمثلـه كفر ، فرض الضَّرائب بـاسم الإلـه ، ولا يعدُّ ملكاً بحق في أعين شعبه إلاَّ إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكيَّة ، لقـد ظلَّت بلاد الرَّافـدين في واقع الأمر دولة دينيَّة خاضعة لأمر الكهنة إلى يوم تتويج نبوخذ نَصَّر .

المادَّة ٢٣٣ : إذا بنى مهندس بيتاً لأحد الأشخاص ، ولم يضع له أُسساً متينة ، فانهار أحد الجدران ، فعلى المهندس أن يعيد بناء هذا الجدار على نفقته الخاصَّة .

ويمكن توقيع عقوبة الإعدام على من اقترف الجرائم التَّالية : شاهد الإثبات المزوِّر في قضيَّة جنائيَّة ، واللِّص الَّذي يسرق كنوزاً من المعابد ، أو قصر الأمير ، واللِّص الَّذي يسرق منقولات ذات قيمة ، والشَّخص الَّذي يخفي الأشياء المسروقة أو يبيعها ، والشَّخص الَّذي يشتري أو يأخذ وديعة تخصُّ قاصراً أو عبداً ، والشَّخص الَّذي يتيح فرصة لهرب أحد العبيد ، أو إيوائِهِ أو قبول خدماته ، إذ إنَّها جميعاً تعدُّ من جرائم السَّرقة .

وكانت عقوبة الإعدام تفرض في الحالات الآتية أيضاً : هتك الأعراض ، وخطف الأطفال ، وقطع الطُّرق على القوافل ، والسَّطو والفسق بالأهل ، والجبن في القتال ، وسوء استعمال الوظيفة ، والمرأة الَّتي تتسبَّب في قتل زوجها كي تتزوَّج سواه ، وإيواء عبد آبق ، وإذا اتَّهم رجل آخَرَ بجريمة يعاقب عليها بالإعدام ، ثمَّ عجز عن إثباتها ، حكم على المدَّعي نفسه بالإعدام .



* حمورابي يصدر أوامره لوزيره ، ويقف إلى جانبه أحد الفلكيِّين ، الَّذي كان يعلم حمورابي ببداية الشَّهر

وهناك عقوبات رادعة اعتمدت مبدأ : « العين بالعين ، والسِّن بـالسِّن » ، منهـا : إذا كسر إنسانٌ لرجل شريف سنّاً ، أو فقأ عينه ، أو هشَّم له طرفـاً من أطرافـه ، حلَّ به الأذى نفسه الَّذي سبَّبه له ، وإذا انهار منزل وتسبَّب عن سقوطه موت ابن الشَّاري ، حكم بـالموت على ابن البـائـع ، أو ابن البـاني ، وإذا ضرب إنسـان طفـلاً ومـات ، حكم بالموت على طفله ، وإذا ضرب رجل أباه عوقب بقطع يـده ، وإذا تسبَّب طبيب بموت مريض أثناء إجراء عمليَّة جراحيَّة ، أو في فقد إحدى عينيه ، قُطِعَت أصابع الطبيب .

ومع أنَّ شريعة حمورابي كانت قاسية في العقوبات ، وخاصَّة على كلٍّ من يخرج على العُرْف السَّائد ، أو يقترف ذنباً لا يتَّفق مع التَّقاليد والأخلاق والنِّظام العـام ، ولكنَّهـا بقيت مـدَّة خمسـة عشر قرنـاً كاملـة محتفظـة بجوهرهـا ، وعلى الرَّغم ممَّـا طرأ على أحوال البلاد من تغيير ، ورغم ما أُدخل على الحياة الاجتماعيَّـة من تبـدُّل ، ولقـد عُـدِّلت بعض مـوادِّه ، ولكن من الغريب حقّـاً أنَّ هـذا التَّطـوُّر كان يهـدف بـاستمرار إلى إحـلال العقـوبـات الـدنيـويَّـة مكان الـدِّينيَّـة ، أي إنَّـه كان يرمي إلى اتخـاذ الشـدة والقسـوة والعقوبات البدنية بدل الرحمة والغرامات الماليَّة بالعقوبات البدنيَّة .

وحـدَّدت شريعـة حمـورابي أُجـور البنَّـائين ، وضـاربي الطُّـوب ، والخيَّـاطين ، والبحَّارة ، والرُّعاة ، والفعلة ..

وعرفت بابل محاكم الاستئناف ، يحكم فيها قضاة الملك ، وكان محرَّمـاً على القـاضي لأي سبب من الأسباب أن يغيِّر حكماً أصـدره ، وكانت عقوبـة العزل لكلِّ قـاضٍ يفعل ذلك ، ولا يجوز إيقاع عقوبة دون شهود ، تحاشياً للخلاف والنِّزاع في المستقبل ، وكان القَسَم يلعب دوراً هامّاً في المحكمـة ، فـالطَّرفـان المتنـازعـان كانـا يتعهَّـدان أمـام الآلهـة بـاحترام الحكم الصَّـادر ، كأمر نهـائي غير قـابل للتَّعـديل ، وكان بـالإمكان الاستئنـاف النِّهائي إلى الملك نفسه .

واتَّصفت ديـانـة البـابليِّين بكثرة الآلهـة[11] ، فبـابـل دولـة دينيَّـة خـاضعـة لأمر

(١١) في القرن التاسع قبل الميلاد كان في الدَّولة البابليَّة ٦٥,٠٠٥ إلهاً ، لكلِّ مدينـة إلـه ، وللقرى آلهـة صغرى =

الكهنة ، ولكلّ مدينة ربٌّ يحميها ، بل ولكلّ أُسرة آلهتها المنزليّة تقام إليها الصّلاة ، حتّى شريعة حمورابي استهلّت بأسماء الثّالوث الأكبر للآلهة البابليّة المؤلّفة من آنو وبل ومردوخ كبير الآلهة البابليّة .

وكان عند البابليّين ثالوث ثانٍ مؤلّف من : سين إله القمر ، وهو الابن الأكبر للإله أنليل ، وشماش إله الشّمس ، وهو القاضي الأعظم ، إله العدالة ، والحقّ والنّور ، وعشتار إلهة الجمال والحُبّ والعطف على الأُمومة الولود والخصب الخلّاق في كلّ مكان ، وعشتار هي نجم الزّهرة ، ابنة آنو ، وأحياناً ابنة سين ، وتدلّ عبادة عشتار على المكانة السّامية الّتي كانت للمرأة والأُمومة في بابل[١٢]



* عشتار :

إلهة الحُبّ والخصب

والحرب

= تعبدها وتخلص لها ، وأحياناً لكلّ أسرة آلهتها المنزليّة ، لقد هذّب الدّين طباع البابلي ، ومع ذلك وصفها أعداؤها « ببابل العاهرة » للتّرف العام والانحلال ، فقد كان الشّبّان يصبغون شعورهم ويقصّونها ، ويعطّرون أجسامهم ، ويحمّرون خدودهم ، ويزيّنون أنفسهم بالعقود والأساور والأقراط والقلائد ، لقد انهمك أهل بابل في ملذّاتهم ، فرضوا أن تخضع مدينتهم للكاشيّين والآشوريين والفرس واليونان .

(١٢) وهناك رأي ـ وهو الأصحّ ـ أنّ مركز المرأة في بابل كان أقلّ منه في مصر ، (فالعهر المقدّس) كان يفرض على كلّ امرأة بابليّة ، أن تجلس في هيكل الزّهرة مرّة في حياتها ، وأن تضاجع رجلاً غريباً .

وعقيدة الخلود لم يكن فيها ما تبتهج له نفس البابلي ، ذلك ان دينه كان ديناً أرضيّاً عمليّاً ، فإذا صلّى لم يكن يطلب في صلاته ثواباً في الجنّة ، بل كان يطلب متّسعاً في الأرض ، مع أن هناك نصوصاً ذكرت عن الإله مردوخ « الّذي يحيي الموتى » .

أمّا في مجال الحياة الاجتماعيّة عند البابليّين ، فقد كان الرّجل يتزوّج من امرأة شرعيّة واحدة ، وتسمح له التّقاليد أن تكون له محظيّة أو أكثر ، ويتمّ الزّواج بوثيقة مكتوبة ، يحدّد الزّوج بموجبها حقوق الزّوجة وواجباتها ، ويدفع والد العروس أو إخوتها أو وليّها بائنة للزّوج ، وتبقى البائنة ملكاً للزّوجة حتّى وفاتها ، فتنتقل إلى أولادها ، أو تُرَدُّ إلى بيت أبيها إن لم يكن لها أولاد ، ولا يلزم أحد الزّوجين بتسديد ديون ما قبل الزّواج ، ولكنّهما مسؤولان بالتّضامن عن ديون ما بعد الزّواج ، ومنحت شريعة حورابي المرأة المتزوّجة إذا أحسنت تدبير شؤون البيت ، الحقّ في أن تستعيد بائنتها وتهجر زوجها ، وتعود إلى بيت أبيها إن ثبت لدى القاضي إهمال الزّوج ، أو طول غيابه ، أو هجره لها ، وإذا أُسِرَ الزّوج كان على المرأة أن تظلّ وَفِيّة له ، إلاّ إذا لم يترك لها شيئاً تعيش منه ، فإنّها تستطيع أن تتزوّج من جديد ، فإن عاد زوجها عادت إليه ، وتركت زوجها الثّاني وأولادها منه لأبيهم .

وكانت التّركة تقسم وديّاً ، أو عن طريق المحكمة بين الوَرَثة ، ويحرّر لكلّ وارث لوحة تسجّل فيها حِصّته ، ولم يكن يسمح بانتقال أملاك الدّولة الّتي تخصّص لرجال الجيش إلى الورثة .

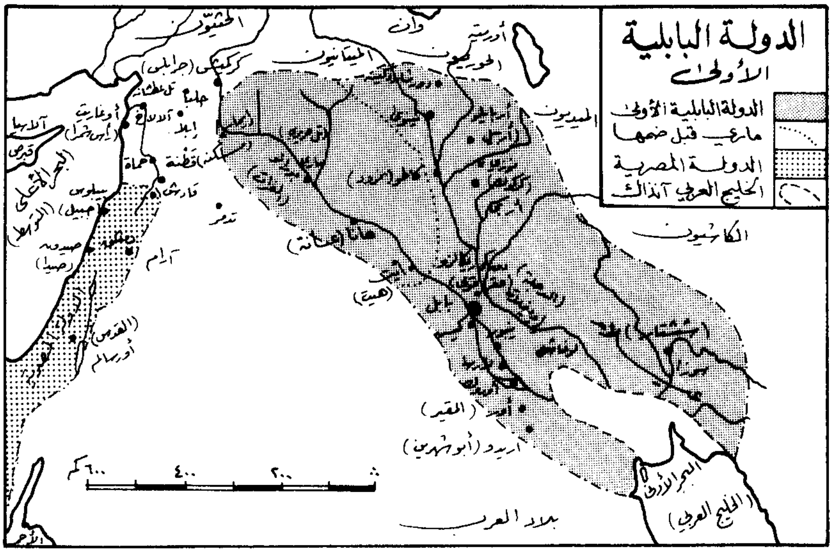
أمّا طبقات المجتمع فهي :

١ ـ الطّبقة العليا (الأميلو) : وُلِدَ أفرادها أحراراً من أبوين حُرّين ، أو من أمٍّ حُرّة ، أمّا إذا كان أبوه حرّاً ، وأُمّه جارية فيصبح مُحَرّراً ، وليس له كافّة حقوق الأحرار ، وكان الأحرار يتمتّعون بكلّ الحقوق ، ولهم السّيادة في المجتمع .

٢ ـ طبقة العامّة (الموشكينو) : أي المساكين ، وأفراد هذه الطّبقة الفقراء من

الأحرار أو الأرقَّاء الَّـذين تحرَّروا ، وكان معظم أفراد هـذه الطَّبقـة من الأحرار الَّـذين تزوَّجوا بـالإمـاء ، فـولـدن لهم أبنـاء عُـدّوا من طبقـة الأرقَّـاء ، ولكنَّهم تحرَّروا بمـوت والدهم ، ويعمل أفراد هذه الطَّبقة بشتَّى المهن .

٣ ـ طبقـة العبيـد الأرقَّـاء (واردوم) : وأفراد هـذه الطَّبقـة هم الَّـذين وُلِـدُوا في الرِّق ، وأسرى الحرب ، واعترفت لهم شريعـة حمورابي ببعض الحقوق ، كإمكانيَّـة الزَّواج من امرأة حرَّة ، والأولاد من الْحُرَّة أحرار ، وفسحت لهم إمكانيَّة التَّحرُّر بدفع مبلغ من المال يستقرضه من المعبد ، وكانت أجساد العبيد تكوى وتوشم بعلامات خـاصَّـة للتَّمييز بينهم ، وكانوا يؤدُّون أعمال السُّخرة ، ومعرَّضين للبيع أو الرَّهن وفاء لدين ، لأنَّ العبـد وما ملكت يمينه لسيِّـده ، وكان السَّيِّـد أحيـانـاً يعهـد إلى أحـد عبيـده بعمل تجـاري ، ويسمح له أن يحتفظ بحصَّة من أرباح عمله ، وأن يبتاع بها حرِّيَّته .



واهتمَّ البابليُّون بالزِّراعة ، فاكتسبوا من حفر الأقنيـة ، وإقـامـة السُّـدود الصَّغيرة للحماية من الفيضان ، معلوماتٍ هندسيَّة واسعـة ، وعيَّنوا المفتِّشين للإشراف على تطهير الأقنيـة ، وعلى حُسْنِ تـوزيـع حصص كل حقـل من ميـاه الرَّي ، لأنَّ الأراضي كانت ممسوحة ومحدَّدة .

وانتشرت أيَّام حمورابي صناعة صهر المعادن وسكبها ، ومنها : النُّحـاس والقصـدير والأنتيمـوان لصنـع البرونـز ، والرَّصـاص ، وعرفـوا الحـديـد على نطـاق ضيِّـق ، واهتمَّ البابليُّون بصناعة الأسلحة ، ودبغ الجلود ، وصبغ المنسوجات ، ومعاصر الزَّيتون ، ومن الآلات الصِّناعيَّة في الحضارة البابليَّة نول النَّسَّاج ، وعجلة الفخَّاري .

وبفضل موضع بابل الجغرافي ، أضحت المركز الرَّئيسي لتجارة الشَّرق ، فـالحضـارة البابليَّة تجاريَّة في جوهرها ، لذلك عرفوا القروض بفـائـدة ، ودون فـائـدة ، ولكنَّهم لم يتوصَّلوا إلى سكِّ النُّقود ، فـاستعملوا أُسلـوب المُقـايضـة ، وبسبب مركـزهم التِّجـاري المتميِّز ، أصبحت الكتابـة المسماريَّـة البـابليَّـة دوليَّـة ، ولكن مـا وافى القرن السَّـابع قبل الميلاد حتَّى أخذت الحروف الهجائيَّة تزاحمها .

أمَّا من النَّاحية العلميَّة ، فالبابليُّون هم الَّذين قسَّموا محيط الدَّائرة إلى ٣٦٠ درجـة ، وكلَّ درجة إلى ٦٠ دقيقة ، وكلَّ دقيقة إلى ٦٠ ثانيةٍ ، ووضعوا قواعد لاستخراج مساحـة الأشكال غير المنتظمة والمساحات المعقَّدة ، وأوجدوا إشارات الطَّرح والتَّقسيم ، واعتمـدوا التَّعـداد العُشْري ، والتَّعـداد السِّتِّيني ، وقسَّموا اليوم إلى ١٢ قسماً ، وكلَّ قسم يتـألَّف من ساعتين ، وكلَّ ساعة من ٦٠ دقيقة ، وقدَّروا الزَّمن بالسَّاعات المائيَّة وبالمزولة .

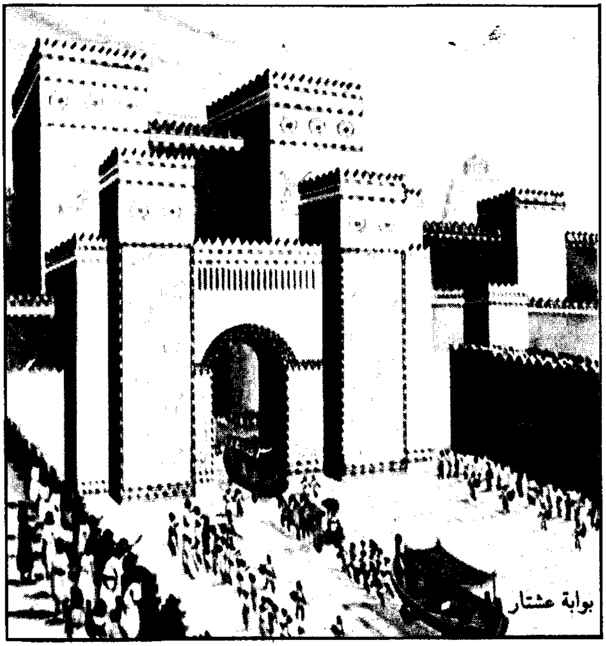
وكانت سنتهم اثني عشر شهراً قمريّاً ، ستَّة أشهر منهـا مؤلَّفـة من ٣٠ يومـاً ، وستَّـة أشهر مؤلَّفة من ٢٩ يوماً ، ولمَّا كان مجموع أيَّام السَّنـة بـذلـك ٣٥٤ يومـاً فقـط ، أضـافوا شهراً استثنائياً قصيراً تضبط به أيَّام السَّنة .

وتقدَّم علم الفلك أيَّام البابليِّين تقـدُّمـاً كبيراً ، لأنَّ اهتمامهم العظيم بـالتَّنجيم قـادهم

إلى رصد النُّجوم ، وصوَّروا مساراتها ، ولاحظوا الفرق بين الكوكب السَّيَّار ، والنَّجم الثَّابت ظاهريّاً ، فالبابليُّون « خالقو علم الفلك »(١٣) .

ومع امتزاج الطِّبّ بالسِّحر ، إلاَّ أنَّ التَّجربة لعبت دوراً مهمّاً ، واستُخْدمت أدوية من عدَّة أنواع معدنيَّة أو نباتيَّة أو حيوانيَّة .

وعرف البابليُّون الأراضي القطبيَّة « حيث الظَّلام هناك كثيف ، ولا يوجد ضوء »(١٤) .



* بوّابة عشتار

(١٣) قصَّة الحضارة : ١٩٠/٢

(١٤) عثر المنقِّبون في خرائب جاسور ، الَّتي تبعد عن بابل مئتي ميل شمالاً ، على لوح من الطِّين يرجع تاريخه إلى ١٦٠٠ ق.م ، يحتوي في مساحة لا تكاد تبلغ بوصة واحدة على خريطة لمحافظة (شط ـ أزلا) مُثِّلت فيها الجبال بخطوط دائريَّة ، والمياه بخطوط مائلة ، والأنهار بخطوط متوازية ، وكتبت عليها أسماء عدد من المدن ، ويُبيِّن في هامشها اتِّجاه الشَّمال والجنوب ، [قصَّة الحضارة : ٢٥٢/٢] .

ولم تتقدَّم الفنون تقدُّماً يذكر في عهد البابليِّين ، على الرَّغم من انتشار المدارس والتَّعليم ، لقد شجَّعوا التَّلاميذ بحكمة تقول : « إنَّ مَنْ يتفوَّق في كتابة الرُّقُم سيضيء كالشَّمس » .

« زيادة الثَّروة يخلق المدنيَّة وينذر بانحلالها وسقوطها ، فالدَّعة والنَّعيم والتَّرف تغري أصحاب السَّواعد والبطون الجائعة بغزو البلاد ذات الثَّراء » ، لقد هاجم الحثيُّون بابل سنة ١٥٩٤ ق.م ونهبوها ودمَّروها ، ولكنَّهم لم يستقرُّوا فيها ، إذ ردَّهم أحد ملوك دولة المنطقة البحريَّة ، الَّتي تأسَّست حول الخليج العربي أيَّام ضعف البابليِّين ، ووطَّد حكمه في بابل ، ولكن لفترة قصيرة ، حيث هبطت قبائل من جبال زاغروس واحتلَّت بابل ، وأُسِّست دولة عُرِفت باسم الدَّولة الكاشيَّة ، دامت حتَّى ١١٧٠ ق.م ، وكانت عاصمتها قرب بابل ، تعرف باسم (دوركوريكالزو)[١٥] ، ويُعَدُّ عهد الدَّولة الكاشيَّة عهد تأخُّر وتقهقر بالنِّسبة إلى بلاد الرَّافدين ، فقد اقتبست الحضارة البابليَّة ، ولم يأتِ الكاشيُّون بجديد ، إلاَّ إدخالهم تربية الخيل ، وصناعة الحديد .

وسَّع الكاشيُّون نطاق حكمهم جنوباً وشمالاً ، واصطدموا بالحثيِّين ، وهزموهم سنة ١٥٣٠ ق.م ، أشهر ملوكهم آجوم الثَّاني الَّذي انتصر على الحثِّيِّين ، وكوريكالزو الأوَّل ، وبورنابورياش الأوَّل ، ثمَّ قضى الآشوريُّون على حكم الكاشيِّين .

☆ ☆ ☆

الآشوريُّون : [١٩٠٠ ـ ٦١٢ ق.م] :

الآشوريُّون قبائل عربيَّة قديمة ، هاجرت حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م إلى شمالي بلاد الرَّافدين ، ولم يعرفوا الطُّمأنينة والاستقرار قرابة ألف سنة ، بسبب الحروب والغارات ، وخضوعهم لشعوب وأُمم جاءت من أواسط آسية .

---

(١٥) دوركوريكالزو : عقرقوف حالياً ، (أطلس التَّاريخ العربي ، ص ١٤) .

نُسِبُوا إلى إلههم آشور ، الَّذي مثَّل قسوتهم وخشونتهم وبأسهم الحربي الشَّديـد ، لقـد عاشوا للحرب ، يذكون نارها ، ويخوضون غمارها ، عاصروا حمورابي ، وخضعوا له ، ثمَّ وقعوا بين نارَيْن ، نار الكاشيِّين من الجنوب ، ونار الميتانيِّين من الغرب ، الَّـذين دخلوا آشور في عهد ملكهم شوشتار ، ولكن آشور أُوباليط : [١٣٩٢ ـ ١٣٣٧ ق.م] تمكَّن من القضاء على الميتانيِّين ، والاستقلال بتحالفه مع الحثيِّين .

توسَّعت الإمبراطوريَّة الآشوريَّة حتَّى مصر والأناضول وعيلام ، بسبب الأسلحـة الحديديَّـة الَّتي كانت بحوزتها ، والَّتي كانت تتفوَّق كثيراً على الأسلحـة البرونزيَّـة ، الَّتي استعملهـا أعـداؤهـا[١٦] ، وكان أوجَ المجـد والتَّـوسُّـع أيَّـام آشـور بـانيبعـل : [٦٦٨ ـ ٦٢٦ ق.م] ، ولكنَّهـا سقطت سنـة ٦١٢ ق.م لاعتمادهـا على الإرهـاب العسكري ، وخشونة طبـاع جنـدها ، ووحشيَّـة قـادتهـا ، ولكثرة الحروب الَّتي سبَّبت الفقر والمرض ، فقـامت دولـة قويَّـة في بـابـل على يـد أُسرة كلـدانيَّـة ، وكان من أشهر ملوكها نَبُوْخَذْنَصَّر الَّذي قضى على مملكة يهوذا سنـة ٥٨٥ ق.م[١٧] ، وفي عـام ٥٣٩ ق.م اقتحم كورش الفارسي أسوار بابل ، وانتقلت السِّيـادة السِّيـاسيَّـة إلى الفرس حتَّى سنـة ٣٣١ ق.م ، حين استولى الإسكندر المكدوني على الشَّرق ، ولكن السِّيادة العربيَّة عادت إلى بـلاد الرَّافـدين عنـدمـا خرج الجيش العربي الإسـلامي محرِّراً العراق وبـلاد الشَّـام ومصر .. منذ الثُّلث الأوَّل للقرن السَّابع الميلادي .

كانت الحكومة الآشوريَّة كلُّها أداة حرب قبل أي شيء ، اعتمدت العنف ، وبالغت في الوحشيَّـة ، وأسرفت في إتلاف الحيـاة البشريَّـة بطريقـة مؤلـمة ، لقـد دُمِّرت المـدن المغلوبة تمـامـاً ، وحُرِّقت عن آخرهـا ، وقُطِّعت أشجـارهـا ، وكوفئ الجنـدي الآشوري بعـدد الرُّؤوس الَّتي قطعهـا ، وهكـذا كان مصير سكَّـان المـدن المغلـوبـة الإبـادة ، أمَّـا الأشراف والحكَّـام المغلوبون ، فكانوا يلقـون معـاملـة خـاصَّـة ، فتُصْلَم آذانهم ، وتجـدع

(١٦) بهجة المعرفة ، المجموعة الثَّانية : ٩٥/٣

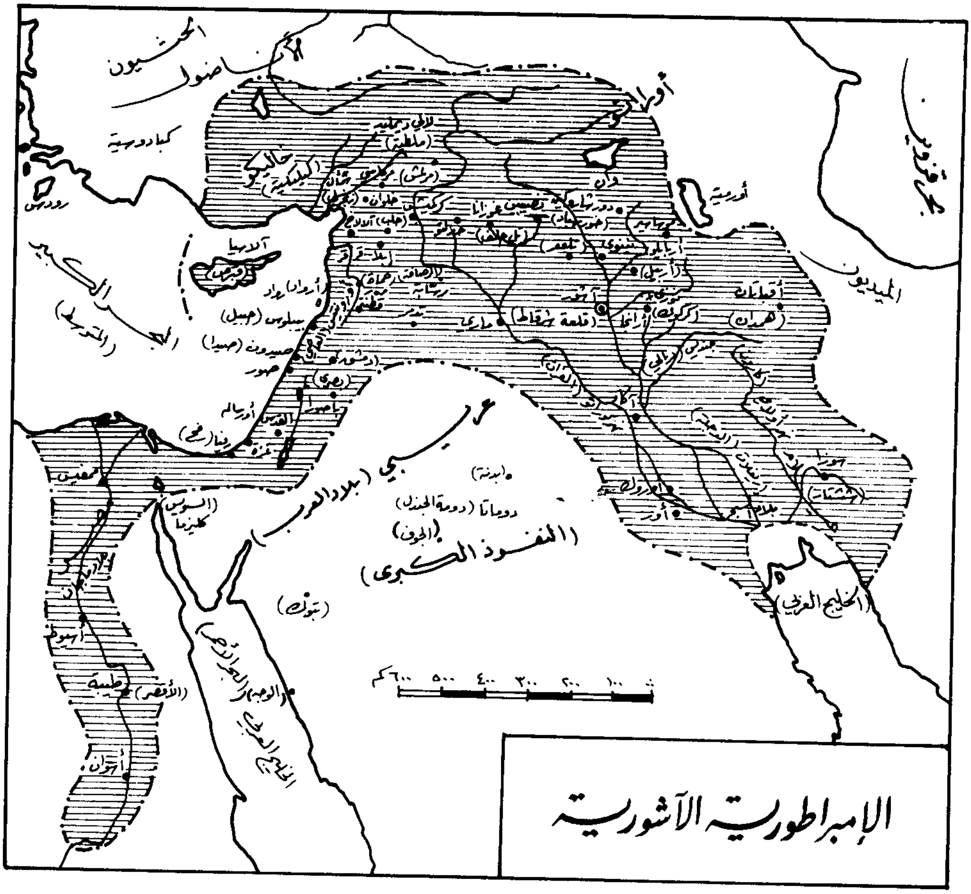
(١٧) ويمثِّل هذا التَّاريخ السَّبي البابلي .

أُنوفهم ، وتقطع أيديهم وأرجلهم ، أو تسلخ جلودهم وهم أحياء ، أو تشوى أجسادهم فوق نار هادئة ، وهكذا تأسَّست إمبراطوريَّتهم على الجماجم ، وركام المدن ، وأنين الجرحى ، وآلام الثَّكلى .

والملك نائب الإله على الأرض ، يحكم باسمه ، يمسك بيده جميع السُّلطات ، ويشرف بنفسه على جميع الأعمال الإداريَّة في البلاد ، وهو رئيس الكهنة ، يساعده عدد من كبار الموظَّفين ، على رأسهم الوزير الأكبر ، وقائد الجيش (التَّارتان) ، الَّذي يعدُّ بمثابة وزير الحربيَّة ، يُنيبُه الملك أحياناً إن لم يتولَّ بنفسه قيادة الجيش ، الَّذي امتاز بسرعته في مهاجمة العدو ، واستعماله الحديد بكثرة في صناعة الأسلحة ، مع شجاعة وشِدَّة بأس ، ونظام وطاعة ، والآشوريُّون هم الَّذين اخترعوا آلات القتال الَّتي تدكُّ الحصون والقلاع كالدَّبَّابة والكبش .. ممَّا أعطى المهندسين مكانة خاصَّة في جيش الآشوريِّين .

ويظهر من الرُّقُم الآشوريَّة الَّتي احتوتها مكتبة آشور بانيبعل ، والَّتي كُتِبَت بالخطِّ المسماري[18] ، أنَّ الآشوريِّين كانوا يعرفون جيِّداً شريعة حمورابي ، لأنَّ آشور بانيبعل أمر عدداً من الكَتَبَة ، بجمع كلَّ ما خلَّفه السُّومريُّون والبابليُّون من آداب ونسخه ، وجَمَعَ ما نسخوه وما جمعوه في مكتبة عظيمة في نينوى . لذلك ربَّما كانوا يطبِّقون شريعة حمورابي ، غير أنَّ القوانين الآشوريَّة امتازت بدقَّتها ، وكانت أكثر شدَّة في أحكامها من شريعة حمورابي ، ومن أسباب ذلك طبيعة المنطقة الجبليَّة الَّتي

(١٨) سُمِّي علم قراءة الكتابات المسماريَّة بالعلم الآشوري ، لأنَّ الكتابات المسماريَّة اكتشفت لأوَّل مرَّة في بلاد آشور ، ثُمَّ أُطلق عليه العلم الآشوري ـ البابلي بعد اكتشاف الحضارة البابليَّة ، لقد حيَّرت الكتابة البابليَّة المسماريَّة العلماء ، وكان حلُّ رموزها من أجلِّ الأعمال في تاريخ العلم ، واستطاع هنري رولنسن أن يقرأ ثلاثة أسماء في نقش مكتوب بالخطِّ الفارسي القديم ، وهو خطٌّ مسماريٌّ مشتقٌّ من الكتابة البابليَّة ، ثمَّ قرأ الوثيقة كلَّها ، ثمَّ عثر على نقش على صخرة في جبال ميديا ، حيث أمر دارا الأوَّل الحفَّارين أن يسجِّلوا حروبه وانتصاراته بثلاث لغات : الفارسيَّة القديمة ، والآشوريَّة والبابليَّة ، وتمَّت معرفة النَّصَّيْن الآشوري والبابلي على ضوء النَّص الفارسي القديم ، وذلك سنة ١٨٤٧ م .



الإمبراطورية الآشورية

سكنوها ، لذلك لم تختلف الحياة الاجتماعيَّة كثيراً عمَّا كانت عليه أيَّام البابليِّين ، وانقسم مجتمعهم إلى طبقتين رئيسيَّتين :

الأحرار : وتضمُّ الأعيان ، ورجال الصِّناعة المنتظمين في نقابات ، وأرباب المهن والحرف والعمَّال الأحرار من صنَّاع المدن ، وزرَّاع الرِّيف .

والعبيد : وتضمُّ الأقنان المرتبطين بأرض المزارع الكبرى ، والأرقَّاء من أسرى الحرب ، أو المرهونين لِدَيْن ، ولقد عوملت هذه الطَّبقة معاملة سيِّئة جدّاً ، إذ أُلزموا بالإعلان عن مركزهم الاجتماعي بخرق آذانهم ، وحَلْقِ رؤوسهم ، وكُلِّفوا بأشقِّ الأعمال وأحقرها ، وإذا بيع العبد ، فإنَّ أُسرته كلَّها تباع معه .



* تمثال منقوش لحيوان مجنَّح رأسه رأس إنسان ، يمثِّل نموذجاً من حضارة بلاد ما بين النَّهرين ، عُثِرَ عليه في مدينة دورشاروكين .

أمَّا النَّاحية الدِّينيَّة ، فقد كانت عقيدة الآشوريِّين شبيهة بصورة عامَّة بعقيدة البابليِّين ، مع تعديل تناسب مع الرُّوح العسكريَّة للآشوريِّين ، فاستبدلوا بالإله مردوخ البابلي ، الإله الوطني آشور ، وأصبحت عشتار (قرينة آشور) تُسَمَّى بعليت ، ربَّة السَّماء والمعارك .

وفي نسخة آشوريَّة من القرن السَّابع قبل الميلاد ـ قد تكون وثيقة يظنُّ أنَّها نصٌّ بابليٌّ قديم ـ نجد الوصايا التَّالية :

« لا تغتبْ أحداً ، وكُن عفَّ اللِّسان .

لا تنطق بالشَّرِّ ، تلطَّف في كلامك .

إنَّ من يغتب وينطق بالشَّرِّ ، يصب شماش (إله العدالة) عقابه على رأسه .

إيَّاك والإسراع في الكلام حين تكون مغضباً .

إذا تكلَّمت في أثناء غضبك ندمت فيما بعد .

وأحزنت عقلك بالسُّكوت ، تقدَّم إلى إلهك كلَّ يوم بالهبات والصَّلاة ، فهي خير أنواع البخور .

أقبِل على إلهك بقلب طاهر ، لأنَّ هذا هو ما يليق بالإله .
عليك بالصَّلاة والاستغفار والسُّجود له في الصَّباح الباكر ، تسعد بمعونة الإله .
وتعلَّم بحكمتك من اللَّوح (الَّذي سطِّر فيه هذا الكلام) .
إنَّ مخافة الإله تجلب الرِّضا .
والقربان يغني الحياة .
والصَّلاة تؤدِّي إلى غفران الذُّنوب »[١٩] .

ولكن الآشوريِّين اختلفوا عن البابليِّين باهتمامهم بالزِّراعة كثيراً ، بينما اهتمَّ البابليُّون بالتِّجارة اهتماماً كبيراً ، لقد أُنشئ في عهد سنحريب مجرى مائي فوق قناطر ينقل الماء إلى نينوى من مكان يبعد عنها ثلاثين ميلاً ، ولعلَّه أقدم مجرى مائي فوق قناطر عرف في التَّاريخ .

أمَّا الصِّناعة ، فكانت واحدة في كلٍّ من بابل وآشور ، مع انتشار صناعة الحديد خاصَّة ، والمعادن عامَّة ، كما ازدهرت صناعة النَّسيج .

أمَّا علوم الآشوريِّين ، فهي إلى حدٍّ بعيد ، علوم البابليِّين في الرِّياضيَّات والهندسة والطِّب والجغرافية .

وعندما قامت الدَّولة الكلدانيَّة[٢٠] بعد الدَّولة الآشوريَّة ، وذلك سنة ٦٢٦ ق.م ، زالت سلطة الإله آشور ، وأصبح مردوخ صاحب المكان الأوَّل بين الآلهة .

ولَّما استولى نبوخَذْنَصَّر على بلاد الشَّام بعد معركة كركميش ، جعل بابل عاصمة الشَّرق الأدنى كلِّه بلا منازع ، وأكبر عواصم العالم القديم وأعظمها أُبَّهة وفخامة ، وراح يتباهى ويفتخر : « أنا نبوخَذْنَصَّر ملك بابل »[٢١] .

---

(١٩) تاريخ العالم : ٦٨٤/١

(٢٠) وهي الدَّولة البابليَّة الثَّانية : [٦٢٦ - ٥٣٩ ق.م] .

(٢١) قصَّة الحضارة : ١٩٧/٢

وبقيت النَّاحيـة العلميَّـة عنـد الكلـدانيِّين تشبـه إلى حـدٍّ بعيـد علوم البـابليِّين في الرِّياضيَّات والهندسة والطِّب .. وحصل تقـدُّم في علم الفلـك ، فرسموا مسـارات الشَّمس والقمر ، ولاحظوا الخسوف والكسوف ، وعيَّنوا مسارات الكواكب ، وحدَّدوا الانقلابَيْن الشِّتائي والصَّيفي ، والاعتدالَيْن الرَّبيعي والخريفي .

وإذا ذكرت بابل أيَّام الكلدانيِّين ، ذُكِرَت الحدائق المعلَّقـة في بـابل ، فهي إحـدى عجـائب الـدُّنيـا السَّبـع[٢٢] ، لقـد كانت جنـائن بـارزة على شكل مصـاطب مرتفعـة وفسيحة ، مبنيَّة فوق أقواس تُسْقَى بوساطة مضخَّات لولبيَّة ، هي أُعجوبة بحـدٍّ ذاتهـا ، تديرها أيدي الرَّقيق ، أمر ببنائها نبوخَـذْنَصَّر عـام ٥٠٠ ق.م تكريمـاً لزوجـه الميـديَّـة أميتس .

ومن أجمل آثار بابل أيضاً عشتار ، الَّتي أعاد بناءَها نبوخَذْنَصَّر[٢٣] .

☆ ☆ ☆

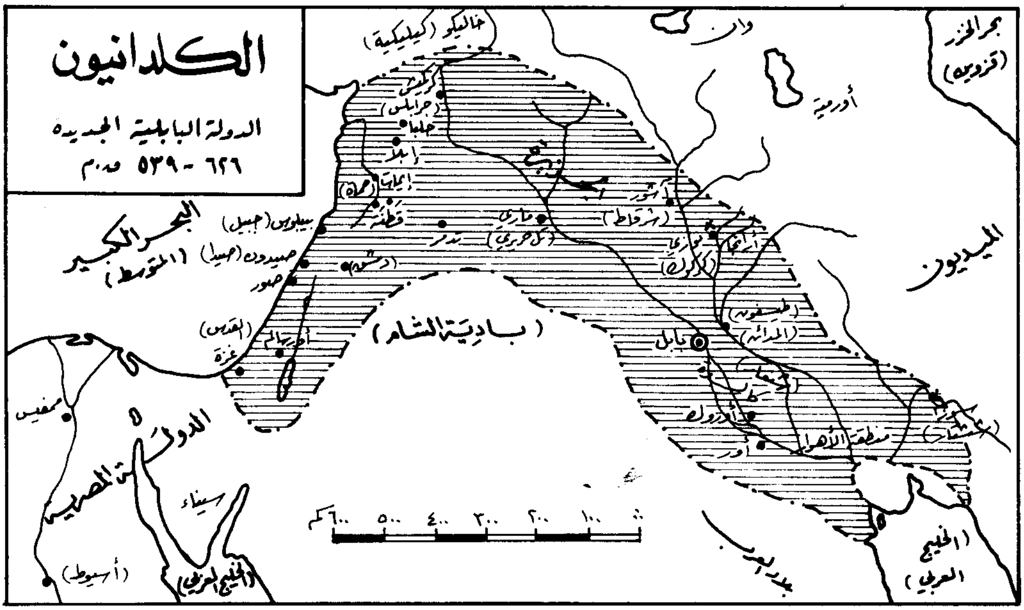
حَضَارَةُ بلاد الشَّام

عُثِرَ في كهوف متعدِّدة في سوريَّة[٢٤] على أدوات حجريَّة ، يرجع عهدها إلى حوالي مئة وخمسين ألف سنة ، كما وجدت بقـايـا فحمٍ في كهوف جبل الكرمل ، ممـا يـدلُّ على بدء استعمال النَّـار ، وفي العصر الحجري الوسيـط [حوالي ١٢٠٠٠ ـ ٧٠٠٠ ق.م] ، سكن الإنسان في الأكواخ بـدل الكهوف ، وبـدأ يعمل في الزِّراعـة وتـدجين الحيوان ، وتمثَّل

(٢٢) لم يبق من عجائب الدُّنيا السَّبع حتَّى أيَّامنا هذه إلاَّ أهرامات الجيزة بالقاهرة ، والعجـائب هي إضـافـة إلى الحدائق المعلَّقة في بابل والأهرامات ، تمثال زيوس في أولمبية ، صنعـه النَّحَّات الإغريقي فيـديـاس عام ٥٥٠ ق.م ، ومعبد أرتيمس في إفسوس في ليديـة ، بُني سنـة ١٠٥٠ ق.م ، وضريح هـاليكارنـاس في آسيـة الصُّغرى ، بُني سنـة ٣٥٣ ق.م ، وتمثـال عمـلاق رودس صنعـه كارلس عـام ٢٨٠ ق.م ، ومنـارة الإسكندريَّة بُنيت أيَّام بطليموس الأوَّل ، وتهدَّمت سنة ١٣٧٥ ميلاديَّة .

(٢٣) انظر الصُّورة ص ١٤٩ .

(٢٤) أي سوريَّة الطَّبيعيَّة ، بلاد الشَّام .



حضارة هذا العصر في الحضارة النَّطُوفِيَّة[١] ، الَّتي وجدت نماذج منها في أريحا[٢] وجبيل ، ورأس شمرا ، وأدَّت حياة الاستقرار إلى ظهور المجتمعات البشريَّة ، وملكيَّة الأراضي ، وانتشار المعتقدات الدِّينيَّة .

وفي العصر الحجري الحديث الَّذي دام حتَّى حوالي عام ٤٠٠٠ ق.م ، صُنِعَت الأواني الفخَّاريَّة الَّتي ظهرت في الطَّبقات الدُّنيا في أريحا[٣] ، كما ظهر الخزف في أرض الجزيرة ، وأشهر أنواعه الَّتي اكتشفت في غوزانا[٤] ، وتميَّز هذا الخزف بدقَّته ونعومة طينه ، وعثر في وادي الطَّاحون - بالقرب من بيت لحم في فلسطين - على بقايا ترجع إلى هذا العصر ، وسُمِّيت الحضارة المماثلة لحضارة هذا الموقع بالحضارة الطَّاحونيَّة ، ومن نماذجها ما عثر عليه في تلِّ السُّلطان قرب أريحا ، وتلِّ الجزر ، ومَجِدُّو (تل المتسلم حاليّاً) .

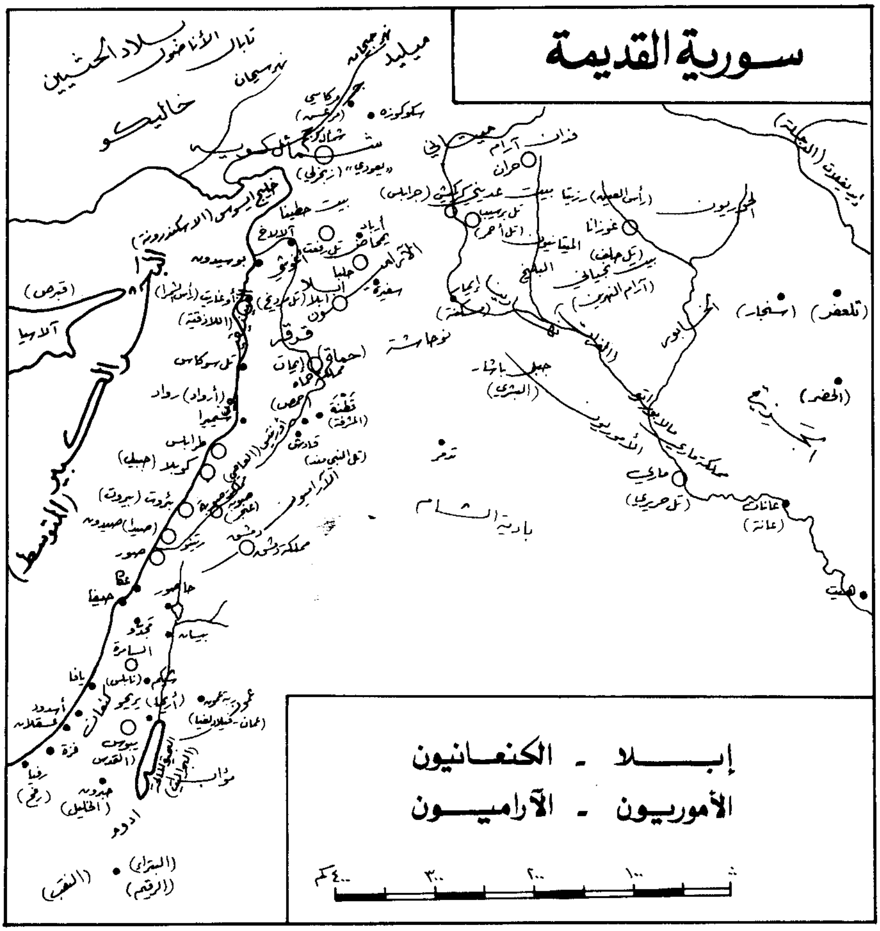
(١) نسبة إلى وادي النَّطُّوف الواقع إلى الشَّمال الغربي من القدس .

(٢) في غور الأُردن شمالي البحر الميّت .

(٣) وربَّما كانت أقدم خزف معروفٍ في سوريَّة حتَّى اليوم .

(٤) غوزانا : تل حلف اليوم ، انظر المصوَّر للتَّعرُّف على هذه المواقع .

ثمَّ بدأ العصر النُّحاسي ـ الحجري ، عندما بدأ الإنسان في سوريَّة باستعمال النحاس منذ منتصف الألف الخامس قبل الميلاد ، ثمَّ انتشر البرونز ، ومن أهمِّ مراكز حضارة هذا العصر أُوغاريت (رأس شمرا) ، وعدَّة مراكز في شمالي سوريَّة مثل : تل حلف ، وتل براك ، وعُثِرَ على نماذج قيِّمة من حضارة هذا العصر ، في موقع تليلات غسول شمال شرقي البحر الميِّت ، ويعدُّ هذا الموقع من أهمِّ مراكز حضارة العصر النُّحاسي ـ الحجري ، فأصبح نموذجاً تُنْسَب إليه حضارة المراكز المماثلة ، فتُسمَّى بالحضارة الغسوليَّة ، ووجدت



نماذج من هذه الحضارة في مجدُّو ، والعفُّولة ، وبيسان ، وجُبَيل .. وممّا يذكر أنَّ الغسوليِّين استعملوا عادة الدَّفن في جرار كبيرة مؤلَّفة من نصفَيْن كبيرَيْن ، وحرقوا جثث موتاهم أحياناً .

الأموريُّون :

يُعَدُّ الأموريُّون[5] أوّل الشُّعوب العربيَّة القديمة الَّتي هاجرت من الجزيرة العربيَّة باتِّجاه سوريَّة ، وذلك حوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م ، فانتشروا في أواسطها وشمالها وشرقها ، وأسَّسوا عدَّة ممالك مدن ، من أشهرها :

مملكة يمحاض ، وكانت عاصمتها مدينة حلب ، ومن أشهر ملوكها (يارمليم) وابنه حمورابي ، معاصر حمورابي ملك بابل .

ومملكة آيسن الَّتي تأسَّست في بلاد ما بين الرَّافدين .

وكانت الدَّولة البابليَّة أموريَّة كما مرَّ خلال الصَّفحات السَّابقة .

أما مملكة ماري الَّتي سكنها قبل عام ٢٥٠٠ ق.م أقوام أكاديَّة ـ سومريَّة ، فكانت حضارتها تشبه حضارة السُّومريِّين ، وأخذ الأموريُّون حضارة السُّومريِّين والأكاديِّين ، فازدهرت ماري ازدهاراً عظيماً ، وسيطرت على طرق المواصلات الَّتي تصل الخليج العربي بسوريَّة والأناضول قرابة قرنَيْن : [١٩٥٠ ـ ١٧٥٠ ق.م] ، ولكن حمورابي بعد أن سيطر على جنوبي ما بين النَّهرين كلِّه ، سار بجيشه نحو ماري سنة ١٧٥٠ ق.م فأخضعها لحكمه ، ثمَّ دمَّرها وأحرقها ، وقتل من قتل من سكَّانها ، وساق الباقي عبيداً ، وأضحت ماري ركاماً من تراب .

---

(٥) أمورو كلمة استعملها سكَّان بلاد الرَّافدين ، تعني المنطقة الغربيَّة ، أي غربي بلاد الرَّافدين ، ثمَّ أُطلقت على سوريَّة كلِّها .

أمَّا حضارة الأموريِّين ، فهي الحضارة البابليَّة في جميع وجوهها ، وتدلُّ منحوتات ماري على مستوى فنِّي رفيع .



* إلهة الينبوع « مملكة ماري » في متحف حلب ، الثَّوب الطَّويل المتموِّج تتدلَّى منه بعض الخطوط المتعرِّجة رمزاً لتموُّج الماء ومجاري الأنهار ، والإناء رمز للحياة والخصب .

وهاجر الكنعانيُّون مع الأموريِّين ، حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م ، ولكنَّهم استوطنوا سوريَّة الجنوبيَّة ، ولاختلاف توضُّع الشَّعبَيْن ، تأثَّر الأموريُّون بالحضارة السُّومريَّة ـ الأكاديَّة ، وتأثَّر الكنعانيُّون بالحضارة المصريَّة ، وحضارة شعوب البحر المتوسِّط .

وانتشر الكنعانيُّون شيئاً فشيئاً على طول السَّاحل الشَّمالي لسوريَّة ، وأطلق اليونانيُّون اسم فينيقية المشتق من فينيقس Phinix ، أي الأحمر الأرجواني ، على القسم المتوسِّط والشَّمالي من ساحل سوريَّة ، كما أطلقوا اسم الفينيقيِّين على الكنعانيِّين سكَّان هذا السَّاحل .

أسَّس الكنعانيُّون ممالك مدن مثل : حبرون ، يبوس ، بيسان ، عمُّون ، مدين ، عكُّو ، صور ، صيدا ، بيروت ، طرطوس ، أرواد ، أُوغاريت ..

والكنعانيُّون مسالمون بطبيعتهم ، لا يرغبون في الحرب إلاَّ دفاعاً عن النَّفس[(٦)] ، فاستفاد قوم موسى من ذلك ، ومن المنازعات بين المدن الكنعانيَّة ، فأخذوا في الاستيلاء على فلسطين تدريجيّاً ، حتَّى بسطوا نفوذهم عليها .

أمَّا الفينيقيُّون (كنعانيُّو السَّاحل)[(٧)] ، فقد أملت عليهم طبيعة المنطقة الَّتي سكنوها أن ينظروا إلى البحار ، لأنَّ السَّهل السَّاحلي ضيِّق ؛ حيث شكَّلت الجبال سدّاً بين المنطقة السَّاحليَّة ، والمناطق الدَّاخليَّة ، لذلك صنعوا سفنهم ، وركبوا البحر للاتِّجار فيه ، ومن أهمِّ مدنهم : أُوغاريت (رأس شمرا) ، الَّذي نقَّب فيه منذ عام ١٩٢٩ م كلودشيفر ، وتبيَّن أنَّها كانت مركزاً تجاريّاً هامّاً ، تقيم فيها الجاليات الأجنبيَّة

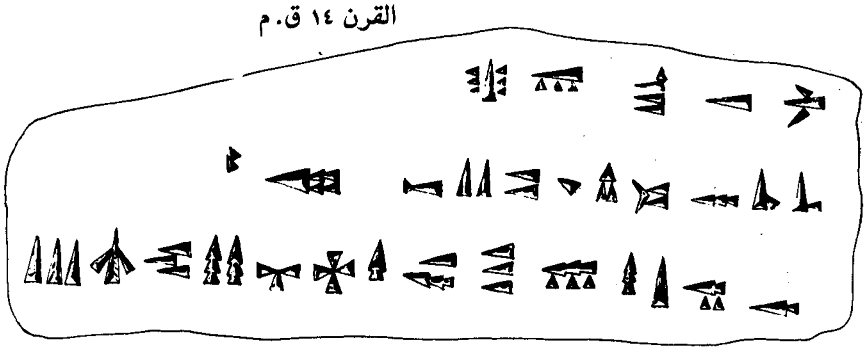
---

(٦) ومع ذلك عرفوا تحصين المدن بشكل جيِّد .

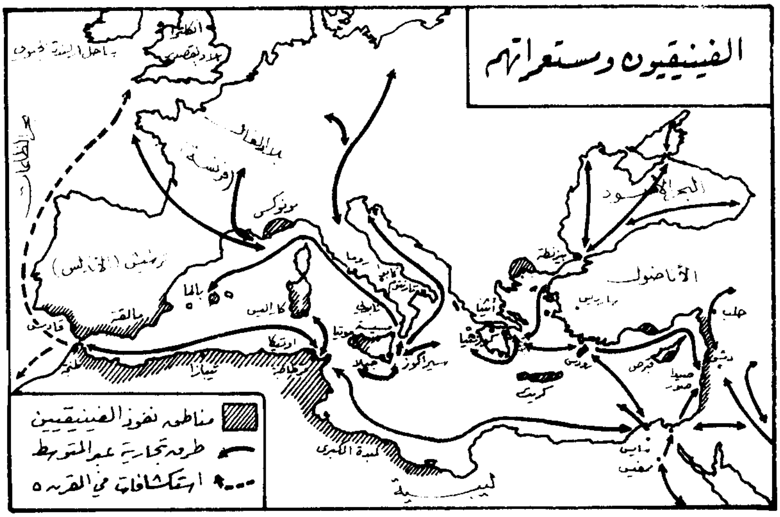
(٧) وجد العالمان الفرنسيَّان فيرولو Virolleaud ، ودوسُّو Dussaud في الملاحم الفينيقيَّة الَّتي اكتشفت في أُوغاريت ، أنَّ الفينيقيِّين أنفسهم يذكرون بأنَّ أجدادهم قد هاجروا من منطقة النَّقب إلى السَّاحل السُّوري ، ومن المعلوم أنَّ النَّقب كانت محطَّة انتقال من حياة البداوة إلى حياة التَّحضُّر ، وهذا دليل كافٍ لنقض افتراءات من أسقط الكنعانيِّين من جدول الشُّعوب العربيَّة القديمة ، ليجعلوا قوم موسى أوَّل من سكن فلسطين ، وكأنَّها كانت بلا سكَّان ، حتى قال صاحب كتاب (السُّريان حضارة وإيمان) ٨٦/٣ : « ويتَّضح هذا من مراجعة الجدول الخاص بأنساب نوح الواردة في التَّوراة ، إذ نرى عدم ذكر الكنعانيِّين بين أبناء سام ، لكونهم غير سامي الجنس والدَّم ، في حين أنَّ لغتهم تُعَد ساميَّة محضة ، ولقد توهَّم كثيراً من جعل الكنعانيِّين ساميِّين ، وشكٌّ في صحَّة الجدول التَّوراتي ، لعدم ذكره الكنعانيِّين بين أبناء سام ، ولا صحَّة لقول بروكلمان إنَّ بني إسرائيل هم الَّذين أقصوا الكنعانيِّين من الجنس السَّامي لأسباب سياسيَّة ودينيَّة .. إنَّ الكنعانيِّين غير ساميِّين » ، ولخطورة هذه الأسطر وأمثالها في الكتاب ، زرت المؤلِّف مع بعض الزُّملاء ، ومع الاحترام ناقشنا الأمر ، وتراجع ـ عن قناعة أو عن غير قناعة ـ في الجزء الرَّابع ، وجعل الأمر الخطير هذا « خطأ مطبعيّاً » ليس غير !!

من بابل ومصر وقبرص وجزر بحر إيجة .. للتَّبادل التِّجاري ، وفيها اكتشفت أبجديَّة يرجع عهدها إلى القرن الرَّابع عشر قبل الميلاد ، مكتوبة بالمساريَّة ، وتضمُّ ثلاثين حرفاً ، وجُبَيْل (بيبلوس) : الَّتي كانت علاقاتها بمصر متينة ، حتَّى عُدَّت من أتباع فراعنة مصر ، وصيدا سيِّدة السَّاحل الفينيقي ما بين عامي : ١٥٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م ، مع أنَّها كانت تحت النُّفوذ المصري ، لقد سيطر تجَّار صيدا على قبرص الغنيَّة بالنُّحاس ، ورودس ، وعدد من جزر بحر إيجة ، حيث الرُّخام والكبريت والذَّهب والأرجوان .

* أبجديَّة رأس شمرا ، (أُوغاريت) ،
القرن ١٤ ق.م



أمَّا صور الَّتي أصبحت زعيمة المدن الفينيقيَّة من عام ١٠٠٠ ق.م إلى عام ٥٠٠ ق.م ، فكانت مراكبها تجوب البحر الأحمر ، ووصلت الهند وعادت محمَّلة بالتَّوابل والذَّهب والأحجار الثَّمينة ، ووصل تجَّارها إلى إنكلترة (بلاد القصدير) ، وهم الَّذين أسَّسوا قرطاجة (قارط هادشت : المدينة الجديدة) حوالي عام ٨١٤ ق.م ، والَّتي تبعت صور ، ولكنَّها أشرفت على بقيَّة المراكز في غربي المتوسِّط ، وكانت ترسل كلَّ سنة بعثة إلى معبد ملقارت إله مدينة صور ، وتقدِّم إليه عُشْرَ وارداتها ، وازدادت أهميَّة قرطاجة بعد سقوط صور بيد الكلدانيِّين ، فانتقل إليها التُّجَّار الصُّوريُّون ، ولمَّا بدأت الدَّولة الرُّومانيَّة في التَّوسُّع اصطدمت بقرطاجة ، وحروب هانيبال القائد القرطاجي الَّذي غزا إيطاليا نفسها مشهورة ومعروفة باسم : الحروب البونيَّة ، الَّتي انتهت باستيلاء الرُّومان على قرطاجة عام ١٤٦ ق.م ، وحرقها وتدميرها تماماً .



كانت سياسة القرطاجيِّين الاستعماريَّة سياسة شعب تجاري ، لا شعب محارب ، ومع ذلك امتازت مراكبهم الحربيَّة بسرعتها ومتانة بنائها ، ومهارة مجدِّفيها ، ممَّا ساعدهم على سيادة البحر ، والطَّواف بهذه المراكب على مستعمراتهم لحراستها[٨] .

عهد القرطاجيُّون بأُمور الحكم إلى ملكَيْن أو قاضِيَيْن ، اسم كلٍّ منهما (شوفيتيم) ، صارا بعد مدَّة يوليَّان سنة واحدة فقط ، وكان يساعدهما في تصريف أمور البلاد مجلس الشُّيوخ ، ولجنة مصغَّرة عن هذا المجلس . وإلى جانب هذين القاضِيَيْن ، كان يوجد خمسة موظَّفين كبار ، يعرفون باسم (الخمسة) ، مهمَّتهم انتخاب أعضاء المحكمة القرطاجيَّة العليا ، ذات الصَّلاحيات الواسعة ، وعدد هؤلاء الأعضاء مئة وأربعة أعضاء ، وكانت مهمَّة الخمسة أن يراقبوا القاضِيَيْن ، وأن يعارضوهما إذا أساءا التَّصرُّف .

---

(٨) روما والشَّرق الرُّوماني ، د . سليم عادل عبد الحق ، مطبوعات المديريَّة العامَّة للآثار والمتاحف ، ١٣٧٨ هـ/١٩٥٩ م ، دمشق ، ص ١٢٣ وما بعدها .

وكان الحكم في قرطاجة (أرستقراطيّاً) ، يتمركز بيد عدد قليل من الأُسَر ، غير أنَّ هذه الطَّبقة الأرستقراطيَّة ، لم تكن مغلقة كما كان الأمر في طبقة الخواص الرُّومانيِّين ، بل كانت مفتوحة ، ويمكن حتَّى للأجانب النُّفوذ إليها ، ويأتي بعدها في السُّلَّم الاجتماعي طبقة الشَّعب .

وامتدح أرسطو دستور قرطاجة ، الَّذي كان يمنع قيام الحكم الاستبدادي ، وذكر أنَّ العادة جرت إذا حصل نزاع بين القضاة ومجلس الشُّيوخ أن يستفتى الشَّعب الَّذي يقبل أو يطرح المشروعات المتنازع عليها ، أمَّا إذا كان القضاة ومجلس الشُّيوخ متَّفقين على تنفيذ هذه المشروعات ، فعلى الشَّعب أن يرضى بالأمر الواقع .

واستطاع هانيبال تقويم شؤون الحكم ، وإضعاف سلطة مجلس الخمسة ، وقصر عددهم على واحد .

واستطاع القرطاجيُّون السَّيطرة على مستعمراتهم بعقد اتِّفاقات معها على أشكال مختلفة ، كما أخذوا منها بعض الرَّهائن ، أو يستضيفون زعماءها ، وسمحوا لبعضهم بالزَّواج بالنِّساء القرطاجيَّات ، ومع هذه الطَّرق الدبلوماسيَّة ، استخدموا طرقاً عنيفة لتحقيق سيادتهم على الشُّعوب الخاضعة لهم ، وقد استخدم هذه الطُّرق من قبلهم الآشوريُّون ، والمكدونيُّون والرُّومان ، منها ترحيل السُّكَّان العاصين أو المشبوهين جميعاً من أراضيهم ، ولقد نفذ القرطاجيُّون ذلك في شرقي صقلِّيَّة ، وإسبانية ، وإفريقية ، فتنظيم الإمبراطوريَّة القرطاجيَّة اعتمد على روابط اتِّحاديَّة معقودة بين مدينة قويَّة ، وعدد من المدن الهامَّة ، باعها القرطاجيُّون المصنوعات الشَّرقيَّة المختلفة ، كالأشياء البرونزيَّة والمعدنيَّة الثَّمينة والأواني المختلفة والعطور والجرار الفخَّاريَّة المطليَّة ، والأقمشة الثَّمينة ، والأدوات الفينيقيَّة والمصريَّة كالعاديات والأحجار الكريمة ، وكانوا يبادلون الشعوب بضائعها بالحلي الزُّجاجيَّة ، ويجذبونها إليهم بذلك ، وسعت قرطاجة إلى احتكار هذه التِّجارة ، معتمدة مبدأ المقايضة على حاصلات الشُّعوب ، ولم تضرب النُّقود قبل القرن الرَّابع قبل الميلاد .

ولعبت الزِّراعة دوراً مهمّاً أيضاً في حياة قرطاجة الاقتصاديَّة ، فأنتجت الحبوب والزَّيتون والخضر والفواكه .. وكانت طرق القرطاجيِّين الزِّراعيَّة مبنيَّة على أحدث النَّظريَّات المعاصرة لاستثمار الأرض ، كما اخترعوا عدَّة أدوات زراعيَّة ، حتَّى إنَّ مجلس الشُّيوخ في رومة أمر جونيوس سيلانوس Junius Silanus أن يترجم إلى اللاَّتينيَّة كتاباً في الزِّراعة ، ألَّفه القرطاجي ماغون ، وقد لُخِّص أيضاً هذا الكتاب باللُّغة الإغريقيَّة .

ولم يبرع القرطاجيُّون كثيراً بالفنون ، لأنَّ فاعليَّتهم كانت منصرفة إلى المنشآت البحريَّة ، واكتشاف المحيط الأطلسي وغيره من البحار ، وتعميم استعمال الأبجديَّة ، ومن أجمل مخلَّفات الفنون القرطاجيَّة ، قطع النُّقود الَّتي تمثِّل أحياناً رأس الرَّبة برسفونة ، وأحياناً النَّخلة ، أو رأس حصان ، وتجلَّت عبقريَّة القرطاجيِّين خاصَّة في المسائل العمليَّة ، فقد كانوا مطَّلعين على كلِّ اللُّغات الشَّائعة في حوض البحر المتوسِّط ، ويتكلَّمونها بسهولة ، حتَّى إنَّ الرُّومان كانوا يدهشون من براعة القرطاجيِّين في ذلك ، ولم يستطيعوا مجاراتهم في ذلك .

أمَّا معتقدات القرطاجيِّين الدِّينيَّة ، فقد كانت شبيهة بمعتقدات الفينيقيِّين الدِّينيَّة ، عبدوا الأحجار المسمَّاة (البيتيل) ، الَّتي تحلُّ بها الآلهة ، كما عبدوا الأشجار والكواكب وقوى الطَّبيعة وبعض أنواع الحيوانات كالنَّخل مثلاً ، كما انتظمت لديهم عناصر عبادة الأموات ، وجعلوا لها أعيادها السَّنويَّة .

وعبد القرطاجيُّون الآلهة الكبرى الفينيقيَّة ، ومنها الرَّب ميلقار إله مدينة صور المفضَّل ، والرَّبة عشتروت ، والرَّب بعل ـ عمون ، والرَّبة تانيت ـ بيني ـ بعل الَّتي كانت تقدَّس خاصَّة في معبد بالقرب من مرفأ قرطاجة ، حيث وُجِدَ عدد من الأواني الفخاريَّة الَّتي تحوي عظاماً محروقة لأطفال صغارٍ ، ممَّا يدلُّ على أنَّ القرطاجيِّين كانوا يضحُّون على شرف هذه الرَّبة بأبكارهم ، شأن بعض الشُّعوب القديمة في الشَّرق الأدنى ، ومن هذه الآلهة الرَّب أشمون الَّذي كان ينسب إليه تشييد قرطاجة ، وقد بني له معبد

كبير على تلِّ بيرسا في قرطاجة ، وكان لهـذا المعبود درج فيـه ستُّون درجـة ، وكان أكبر معبد بين معابد المدينة .

كما عبد القرطاجيُّون بعض الآلهة الأجنبيَّة ، مثل أبولون .

الآراميُّون :

هـاجر الآراميُّون من الجزيرة العربيَّـة حوالي منتصف الألف الثَّـاني قبل الميـلاد ، واستوطنوا أجزاء من المنطقـة الوسطى والشَّرقيَّـة من سوريَّـة ، ثمَّ تسرَّب قسم منهم إلى الشَّمال وجنوبي بلاد الرَّافدين ، فـاصطـدموا بـالآشوريِّين ، ومن ممـالكهم : مملكـة بيت عدن وعاصمتها مدينة تل برسيب (تل أحمر على الفرات حاليّـاً) ، وامتـدت إلى البليخ شرقـاً ومنـابع السَّـاجور في الشَّمال الغربي ، وبقيت حتَّى حـوالي ١٠٠٠ ق.م ، ومملكـة بيت بخياني أو آرام النَّهرين ، وعاصمتها غوزانا (تل حلف قرب رأس العين حـاليـاً) . ومملكة فدَّان آرام ومركزها مـدينـة حرَّان ، ومملكـة بيت آغوشي ، ومملكـة شَمْـأل ، أي مملكة الشَّمال ، وعاصمتها مـدينـة زنجرلي ، كانت في سفوح جبـال الأمـانوس الشَّماليَّـة ، وكانت تسمَّى (يعـودي) أيضـاً ، ومملكـة حمـاة ، ومملكـة دمشـق ، ومملكـة صـوبـة في البقاع .

وفي سنة ٧٤٥ ق.م اجتاح تيغلاَّت بيلاسر الثَّالث ـ أحد ملوك الآشوريين الجبابرة القساة ـ المماليك الآراميَّة وهزمها ، ولما عادت إلى التَّحالف تحت زعـامـة مملكـة حمـاة ، هزمهم سرجون الثَّاني في معركة قرقر الثَّانية عام ٧٢٠ ق.م ، فوطَّـد حكم الآشوريِّين في سوريَّة .

الأبجديَّة : وما زال العالم بأسره حتَّى يومنا هذا مديناً لحضارة سوريَّـة القـديمـة ، بأعظم الاختراعات البشريَّة وأهمها في التَّاريخ القديم ، هو اختراع الحروف الأبجـديَّـة ، وأقدم كتابة بأقدم حروف أبجديَّة معروفة حتَّى الآن ، هي الكتابة الكنعانيَّة السِّينائيَّة القديمة ، والَّتي اشتقَّت منها أبجديَّة أُوغاريت (رأس شمرا) .

واعتنى الكنعانيُّون بالزِّراعة ، كالكروم والتِّين .. وعرفوا أدوات لـدراسـة الحبوب ، الَّتي طحنوها في مطاحن حجريَّة تدار باليد ، واستعملوا وزنات من الفضَّة بدلاً من النُّقود .

وتفوّق الفينيقيُّون في صناعة الزُّجـاج ، والنَّسيج الصُّوفي والقطني ، وصبغ الأقمشـة بالأُرجوان ، وهم من أوَّل الشُّعوب البحريَّة في التَّاريخ ، يـذكر المؤرِّخ القـديم سترابون أنَّ السُّفن الرُّومانيَّة تعقَّبت سفينةً فينيقيَّـة لكي تتعرَّف إلى الأسواق التِّجـاريَّـة ، ولكن قائد السَّفينة الفينيقيَّة قذف بسفينتـه عمـداً إلى اليـابسـة ، واستلم من دولتـه ثمن المحمول الَّذي فقده ، وهذا يشير إلى احتِكار حقيقي للتِّجـارة ، وخصوصـاً لتجـارة القصـدير ، وإلى نوع من الضَّمان تقوم به الدَّولة تأييداً لهذا الاحتكار .

وارتقى فنُّ الملاحة بسبب هذه التِّجـارة الواسعـة النَّشيطـة ، حتَّى استطـاع أدِلاَّء السُّفن الفينيقيَّـة الإبحـار ليـلاً مسترشـدين بـالنَّجم القطبي ، أو النَّجم الفينيقي كما كان يسمِّيه اليونانيُّون ، وطافوا حول القارَّة الإفريقيَّـة ، وكشفوا رأس الرَّجـاء الصَّـالح قبل فاسكو دوغاما بألفي عام .

وكما يقـول ديـورانت : « ربطـوا الشَّرق بـالغرب بشبكـة من الرَّوابـط التِّجـاريَّـة والثَّقافيَّة ، وشرعوا ينتشلون أُوربَّة من براثن الهمجيَّة »[(٩)] ، وذكر مثالاً لذلك اقتباس اليـونـانيِّين لحروف الفينيقيين : « ولكن حروفهم في جـوهرهـا هي الحروف الَّتي علَّمهم إيَّاها الفينيقيُّون ، والَّتي علموها هم أُوربَّة ، وهذه الرُّموز العجيبة هي بلا جـدال ، أثمن ما ورثته الحضارة من الأُمم القديمة » .

وممَّا يـذكر أخيراً بـالنِّسبـة للفينيقيِّين ، أنَّهم عرفوا تحنيـط جثث موتـاهم بطريقـة لا تقلُّ إتقـانـاً عن الطَّريقـة المصريَّـة ، واحتكر الآراميُّون تجـارة سوريَّـة الـدَّاخليَّـة ، ونشروا لغتهم وأبجـديَّتهم في المنـاطق الَّتي وصلـوا إليهـا ، أو تـاجروا معهـا ، وأصبحت لغتهم اللُّغة الدَّوليَّة آنذاك .

---

(٩) قصَّة الحضارة : ٣١٣/٢

شِبْهُ الجزِيرَةِ العربيَّةِ

ليس من الغريب أو ليس من الخطأ القول : قامت على أطراف الجزيرة العربيَّة ، شرقاً وشمالاً ، غرباً وجنوباً حضارات متقدِّمة ، كما قامت في وسطها أيضاً ، تشهد على ذلك آثار هذه الحضارات المتبقِّية حتَّى اليوم .

ففي الشَّرق قامت حضارة ذات طابع تجاري في دِلْمُون[1] ، والَّتي شملت الأحْسَاء وشواطئ الإمارات الحاليَّة على مدى عشرين قرناً ، حضارة قامت منذ الألف الرَّابع قبل الميلاد ، ودامت حتَّى عصر الميلاد .

وكانت جزيرة فيلكة[2] الَّتي أطلق عليها السَّلوقيُّون (إيكاروس) محطَّة تجاريَّة ومركزاً دينيّاً ، حيث وجدت فيها ثلاثة معابد ذات طراز هلِّيني ، وفي جزيرة تاروت وتلال مستوطناتها في الأحْسَاء آثار حضارة ذات طابع سلوقي .

وعُمان ، تدلُّ آثارها على أنظمة زراعيَّة متقدِّمة منذ الألف الثَّالث حتَّى الألف الأول قبل الميلاد ، كبناء السُّدود ، وفي بعض الجهات مواقع للتَّعدين ، وصهر النُّحاس ، مع شواهد عديدة للعلاقات التِّجاريَّة مع بلاد الرَّافدين ووادي السِّند .

لقد كانت سفن شرقي الجزيرة العربيَّة (دلمون وعُمان) تحمل الذَّهب والفضَّة والأحجار الكريمة والأصداف والنُّحاس والنَّسيج واللؤلؤ والأواني الفَخَّاريَّة والحجريَّة والتَّمر .

وفي الشَّمال قامت في دُومَة الجندل (دُوماتا ، الجوف حاليّاً) مملكة عربيَّة قديمة في القرن التَّاسع قبل الميلاد ، ضمَّت الواحات الَّتي حولها ، وكان لها نظامها وحكومتها وجيشها ومعاهداتها مع جيرانها ، وكان لها قصورها .

---

(١) دِلْمون : هي جزر البحرين اليوم ، والبحرين في التَّاريخ القديم والوسيط : ساحل الإمارات حتَّى الكويت شمالاً .

(٢) بهجة المعرفة ، المجموعة الثَّانية : ١٢١/٣ وما بعدها ، وفيلكة جزيرة في شمالي الخليج العربي ، تابعة إلى الكويت .

لقد كانت (مملكة دوماتا) في دُومَة الجندل محطَّة قوافل تسيطر على عقدة الطُّرق التِّجاريَّة في شمال شبه الجزيرة العربيَّة ، وكان اشتراك ملكها (جندب) في حلف دمشق وموقعة قرقر (قرب حماة) ضدَّ سلمنصر الثَّالث سنة ٨٥٤ ق.م أحد التَّحالفات للدِّفاع عن طريق التِّجارة نحو الأناضول ، وتلته تحالفات أُخرى عديدة تماثله ، كان أخطرها اشتراك شعب هذه المملكة العربيَّة في ثورة بابل ، حوالي سنة ٧٧٥ ق.م ضدَّ آشور بانيبعل .

ووردت أسماء عدَّة ملكات في هذه المملكة ، منهن : شمس ، وزبيبة ، وسمورامات (سمير أميس) ، وباتعة .. وكُنَّ يَحضرن الحروب ، وكانت منهنَّ كاهنات .

كان قوام تجارة هؤلاء العرب الذَّهب والفضَّة والقصدير والحديد وجلود الفيلة والعاج وأنواع التَّوابل ، والملابس الصُّوفيَّة الملوَّنة والكتَّانيَّة ، والصُّوف الأزرق والأُرجواني ، عدا الخيول والبغال والإبل ..

وفي غربي الجزيرة العربيَّة قامت دولة الثَّموديِّين ، وذلك في تبوك والعُلا ومدائن صالح وتيماء ووادي السِّرحان وحائل ، والَّتي ورد ذكرها في القرآن الكريم[٣] . يعيدها بعضهم إلى الألف الثَّالث قبل الميلاد ، ويقول آخرون : والثَّابت أنَّ هذا الشَّعب العربي كان موجوداً يحارب سرجون الثَّاني ملك الآشوريِّين في القرن الثَّامن قبل الميلاد ، كما كان لدى الرُّوم البيزنطيِّين فرقة حربيَّة من الثَّموديِّين في أواسط القرن الخامس الميلادي ، ونرى أن لا تناقض بين الرَّأيَيْن ، إنَّ قوم ثمود الَّذين ذكروا في القرآن الكريم هم فعلاً يعود تاريخهم إلى الألف الثَّالث قبل الميلاد ، وهم الَّذين قال عزَّ وجلَّ بحقِّهم : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُم صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ العَالَمِينَ ، أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ ، فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ[٤] ،

(٣) في ستَّة وعشرين موضعاً .

(٤) الهَضِيمُ : اللَّطيف النَّضيج ، (اللِّسان : هضم) .

وتَنْحِتُونَ مِنَ الجبالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ ، فَـاتَّقُوا اللهَ وأطِيعُون ، وَلاَ تُطِيعُوا أمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّـذينَ يُفْسِـدُونَ في الأرْضِ ولاَ يُصْلِحُـونَ ، قَـالُـوا إنَّما أنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ، مَـا أنتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا فَأْتِ بِآيَةٍ إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، قَالَ هَـذِهِ نَـاقَـةٌ لَهـا شِرْبٌ وَلَكُم شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلاَ تَمَسُّوهـا بِسُوءٍ فَيَـأْخُـذَكُم عَـذَابُ يَـوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهـا فـأصْبَحُـوا نادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ إنَّ في ذَلِكَ لآيَةً وَمَـا كَـانَ أكْثَرُهُم مُؤمنينَ ، وَإنَّ رَبَّـكَ لَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ ، [الشُّعراء : ١٤١/٢٦ ـ ١٥٩] .

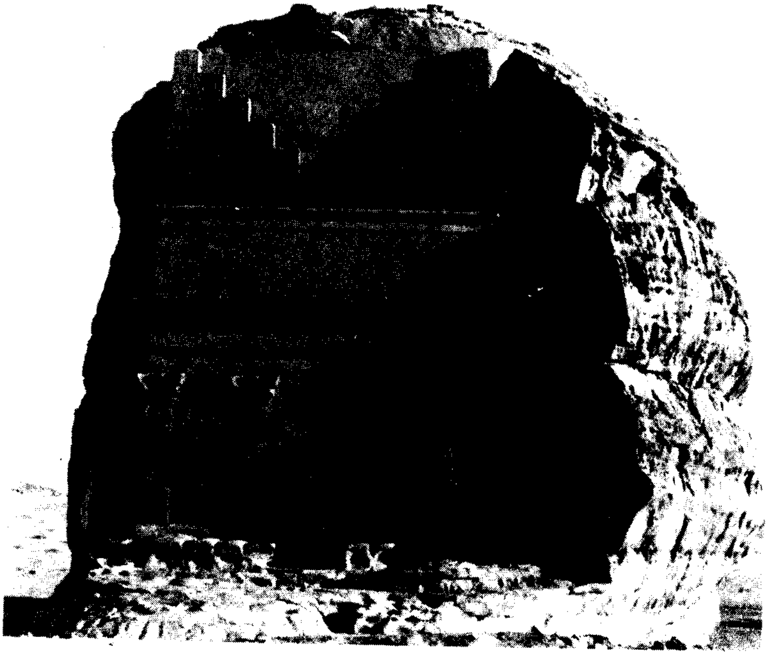
أمَّا الَّـذين حـاربوا سرجون الثَّـاني في القرن الثَّـامن قبل الميلاد ، والَّـذين كان لهم فرقـة حربيَّـة لـدى الرُّوم البيزنطيِّين في أواسـط القرن الخـامس الميـلادي ، فهم العرب الَّذين قطنوا هذه المنطقة الخصيبـة وذات الموقع الهام بعـد ثمود بسنين ، ولكنَّهم أخـذوا اسم المنطقة (ديار ثمود) ، ولا تزال المنطقـة معمورة بـالسُّكَّـان حتَّى وقتنـا الحـاضر ، فهي من الواحات الاستراتيجيَّة الغنيَّة بالمياه والنَّخيل والتُّربة الصَّالحة للزِّراعة .

والثَّموديُّون المتـأخِّرون ، شعب تجـارة سيطر على طرقهـا في منطقـة انتقـالهـا من الخليج العربي ـ أو من اليمن ـ وهي في طريقها شمالاً إلى الشَّـام ، وكانت لغـة الثَّموديِّين عربيَّة شبيهة بلغتنا اليوم ، واشتقُّوا لأنفسهم أبجديَّة خاصَّة كتبوا بها .

اندثر الشَّعب الثَّمودي كلُّه وتمزَّق منذ القرن الرَّابع الميلادي حتَّى القرن السَّـادس ، ودخل في المجتمعات البدويَّة ، والحضريَّة الَّتي خلفته في المنطقة .

وقـامت في الغرب أيضـاً مملكـة اللِّحيـانيِّين(٥) ، قـاعـدتهـا ديـدان (عنـد مـدائن صالح) ، الَّتي سيطرت حتَّى تبوك والعُلا ومَدْيَن ودُومَة الجندل ، وبعـد سقوط البتراء في القرن الثَّـاني الميـلادي استـولى اللِّحيـانيُّـون على منطقـة البتراء ، وورثـوا مركـزهـا التِّجاري ، وكشفت الآثار اللِّحيانيَّة والبقايـا الفخّـاريَّـة والقبور المزخرفـة بـالنُّقوش في بلدة العُلا عن حضارة راقية .

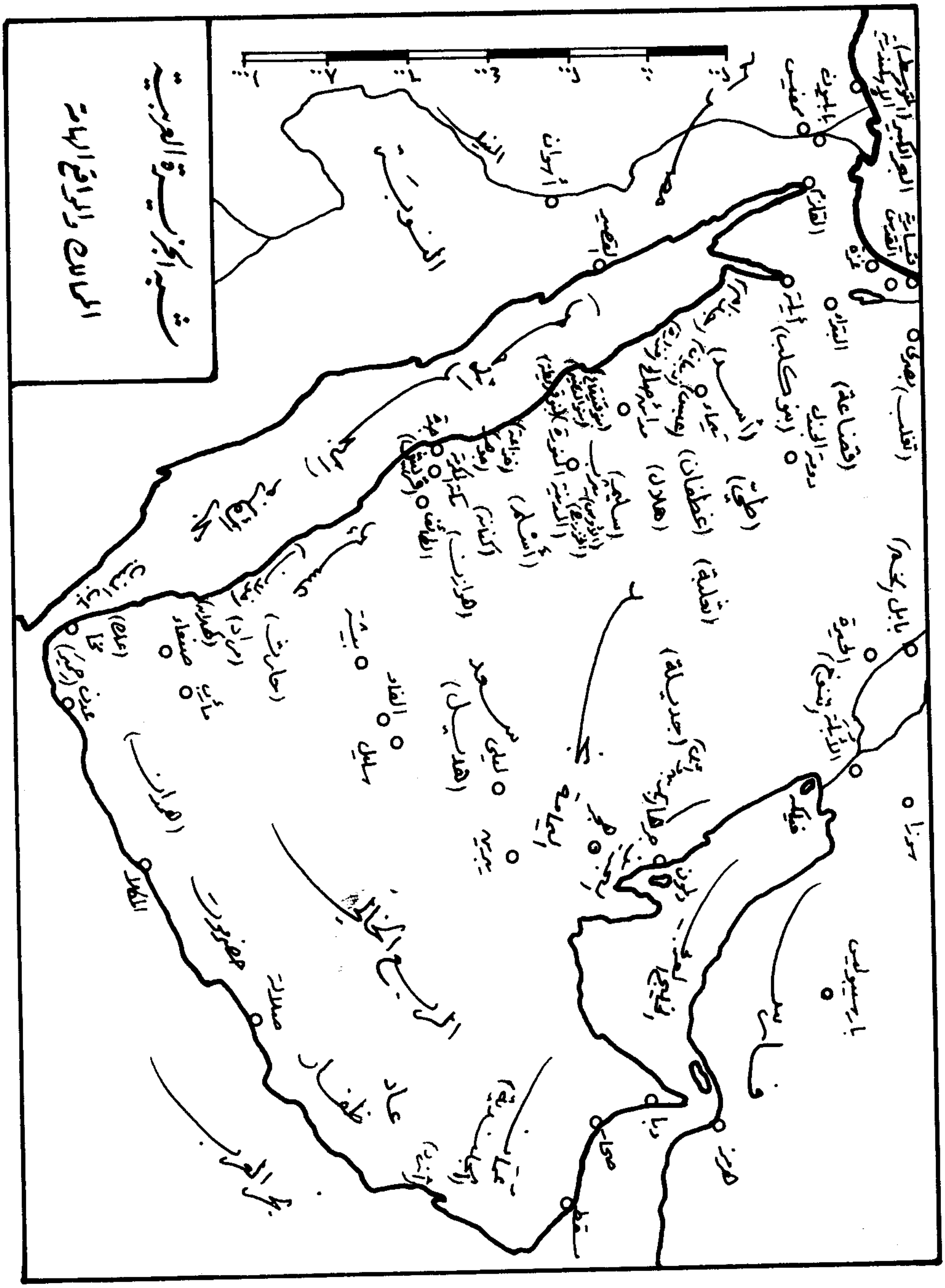
(٥) اللِّحيانيُّون : شعب عربي لعلَّه من فروع ثمود ، عمل بالتِّجارة مثلها ، واللِّحيان (لغة) : حائطـا الفم .



* مدائن صالح (الحِجْر)



* العُلا


شبه جزيرة العرب

عرف الشَّعب اللِّحياني كتابة بين الخطِّ المسند اليمني والآرامي ، وكانت لهذا الشَّعب صلاته التِّجاريَّة المتينة مع جنوبي بلاد الرَّافدين ، تبرهن على ذلك الأختام اللِّحيانيَّة المنقوشة بالرُّسوم البابليَّة .

تميَّزت من بين المدن الثَّموديَّة ـ اللِّحيانيَّة مدينة تيماء الجبليَّة ، الَّتي بلغ من شأنها التِّجاري أن اتَّخذها نابونيد (٥٥٥ ـ ٥٣٨ ق.م) ، آخر ملوك بابل مقرّاً إقليميّاً له ، بعد أن فتحها ، وبنى لنفسه فيها قصراً كقصوره في بابل ، ويبدو أن هذا الملك التَّقي المحب للآثار ، وجد في تيماء ملجأ لِه مِن حملات قورش الإمبراطور الفارسي ، فبقي فيها عشر سنوات ، وكان مستقراً هناك حين سقط عرشه .

الجنوب العربي (اليمن)

من الطَّبيعي أن تقوم مجتمعات مستقرَّة تمتهن الزِّراعة في منطقة خصبة معرَّضة لرياح موسميَّة صيفيَّة ممطرة ، ومن الطَّبيعي أيضاً أن تشكِّل هذه المجتمعات فيما بعد حكومات تنظِّم حياة هذه المجتمعات وشؤونها ، ومن أهمِّ هذه الدُّول الَّتي قامت في اليمن ، حسب تسلسل قيامها :

مملكة مَعين : ١٢٠٠ ق.م ـ على أرجح الأقوال ـ وبقيت حتَّى ٦٠٠ ق.م .

مملكة قَتَبان : عاصرت معين سنة ١٠٠٠ ق.م ، وبقيت حتَّى ٢٠٠ ق.م .

مملكة حضرموت : اندمجت في مملكة مَعِين قرابة ثلاثة قرون ، انتهت نحو سنة ٦٣٠ ق.م ، ثمَّ اندمجت بعد ذلك في مملكة سبأ من سنة ٦٣٠ ق.م حتى سنة ١٨٠ ق.م ، ثمَّ استقلَّت وبقيت حتَّى سنة ٣٠٠ م .

مملكة سبأ : ورثت معين ، ودامت من سنة ٩٥٠ ق.م ، وحتَّى سنة ١١٥ ق.م .

مملكة حِمْيَر : من سنة ٣٠٠ م ، وحتَّى سنة ٥٢٥ م .

وممَّا يذكر أنَّه لَمَّا تسلَّم أُغسطس عرش الإمبراطوريَّة الرُّومـانيَّـة ، عقـد العزم على احتلال اليمن ، فأوعز إلى غالوس واليـه على مصر سنـة ٢٤ ق.م بـالسَّير على رأس حملـة نحو اليمن ، لـلاستيـلاء عليهـا ، وبـالتَّـالي على ثروتهـا[١] ، ولكن الحملـة أخفقت بسبب تعرُّضها لهجمات العرب ، وفتك الأمراض بأفرادها .

وبدأ دور الاحتلال الحبشي لليمن سنـة ٥٢٥ م ، وبقي حتَّى سنـة ٥٧٥ م ، وبـات التَّنـافس بين المسيحيَّـة واليهوديَّـة شـديـداً على اليمن ، وتمكَّن سيف بن ذي يزن بعـون فارسي أن ينهي الاحتلال الحبشي ، ليبدأ دور النُّفوذ الفارسي سنة ٥٧٥ م ، الَّـذي بقي حتَّى إسلام باذان حاكم اليمن ومن معه من أبناء الفرس سنة ٦ هـ = ٦٢٨ م ، وأصبحت اليمن بذلك ولاية إسلاميَّة .

كانت اليمن مقسَّمة إلى مخـاليف ، والمخـاليف مقسَّمـة إلى محـافـد وقصور ، وفي حـال اجتماع عـدَّة مخـاليف في وحـدة إداريَّـة تشكِّل (قَيْلاً)[٢] ، ثمَّ ظهرت الملكيَّـة الوراثيَّـة نتيجة لتوسُّع الأقيال ، واستعان الملك بمجالس استشاريَّـة سـاعـدتـه في وضع القوانين ، وتنفيـذ الأعمـال ، وإدارة الحرب إن وقعت ، فـدول اليمن لم تكن دول حروب وفتوح ، بل تركَّزت جهودها في الأُمور الاقتصاديَّة كالزِّراعة والصِّناعة والتِّجـارة ، ولـذلـك كان اختصاص جيشها حفظ النِّظام وحراسة القوافل التِّجاريَّة ، وما كان ليـدعى إلى حرب إلاَّ إذا دعت الحاجة للدِّفاع عن سلامة البلاد .

لقـد كان اليمنيُّون وسطـاء نشيطين في تجـارتهم الواسعـة ، فنقلوا من الصِّين والهنـد وسـواحـل إفريقيـة الشَّرقيَّـة إلى المصريِّين والفينيقيِّين والآشـوريِّين المعـادن الثَّمينـة ،

---

(١) وكان قوام الحملة عشرة آلاف جندي ، رافقهـا المؤرِّخ اليونـاني سترابون ، والوزير النَّبطي صـالح ، وعزا سترابون إخفـاق الحملـة إلى خيـانـة الوزير النَّبطي صـالح ، واتَّهمـه بتضليـل الرُّومـان ، والسَّير بهم في طريق مقفرة ، وفي أراضٍ لا زرع فيها ولا ماء ، بقصد إهلاك الجيش الرُّوماني .

(٢) القَيْـلُ : الملـك من ملـوك حِمْيَر يتقيَّـل مَنْ قَبْلَـه من ملـوكهم يشبهـه ، وجمعـه أقيـال وقُيُـول ، (اللِّسان : قيل) .

والأقمشة الحريريَّة ، والتَّوابل والأفاويه ، وريش النَّعام .. تفرغها سفنهم في مسقط ، ثمَّ تحملها قوافلهم عبر بادية الدَّهناء والخليج العربي إلى نجد فالحجاز ، حيث تتَّجه شمالاً إلى معان ، لتتفرَّع فرعين ، إمَّا إلى مصر عبر سيناء ، وإمَّا إلى فلسطين وفينيقيَّة وتدمر .. أو تحملها قوافلهم من مسقط إلى حضرموت فاليمن لتتَّجه شمالاً إلى العقبة ، لتسلك بعدها الفرعَيْن السَّابقين إلى مصر وبلاد الشَّام .

وكان لليمنيِّين على طول هذه الطُّرق محطَّات فيها من الوسائل والمعدَّات ما يوفِّر راحة القوافل وأمنها ، وممَّا لا شكَّ فيه ، أنَّ هذه التِّجارة الواسعة أمَّنت ثروة هائلة لليمنيِّين نعموا بها .

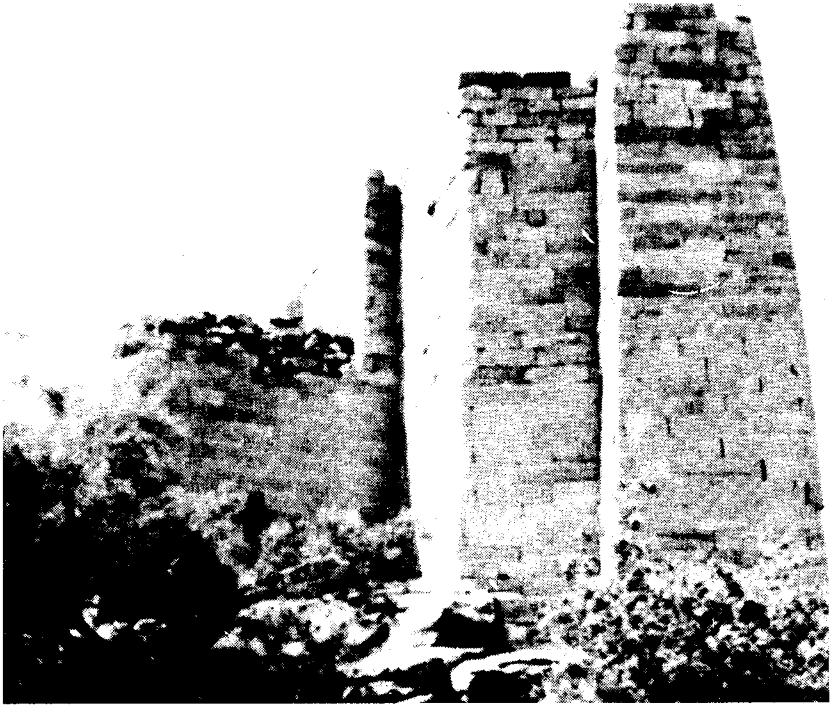
وساعدت الثَّروة على تقدُّم الصِّناعة اليمنيَّة ، خصوصاً وأن أرضها قد استخرج منها الذَّهب والفضَّة والأحجار الكريمة ، فامتدح السَّيف اليماني ، والبُرْد اليمانيَّة المستوردة مادَّتها الحريريَّة الخام من الهند ، كما عرفوا دبغ الجلود ، وصنع التُّروس والدُّروع ، وتحضير البخور واللُّبان والطُّيوب .

وتقدَّم اليمنيُّون في فنِّ البناء ، فقد كانت القصور عدَّة طبقات ، كقصر غمدان ، وقصر ناعط ، ووجود سد مأرب(٣) ـ وهو سدٌّ من سدود كثيرة ـ دليل واضح على أنَّ فنَّ البناء والهندسة كانا على جانب كبير من التَّقدُّم والرُّقي .

أمَّا ديانة اليمنيِّين القدماء فقد كانت وثنيَّة ، لها معابدها وهياكلها ، فيها رموز لآلهتهم ، ويحملون إليها ربح تجارتهم فيحتجز سدنتها ثلث الأرباح ، ويتركون الباقي لأصحابها ، وأهمُّ الآلهة الَّتي عُبِدَت ثالوث : القمر ، والشَّمس ، وكوكب الزُّهرة .

---

(٣) كان على ارتفاع ٣٩٠٠ قدماً عن سطح البحر ، بطول ٨٠٠ ذراعاً ، وعرض ١٥٠ ذراعاً ، وارتفاع بضعة عشر ذراعاً ، بُني بالحجارة الضَّخمة .

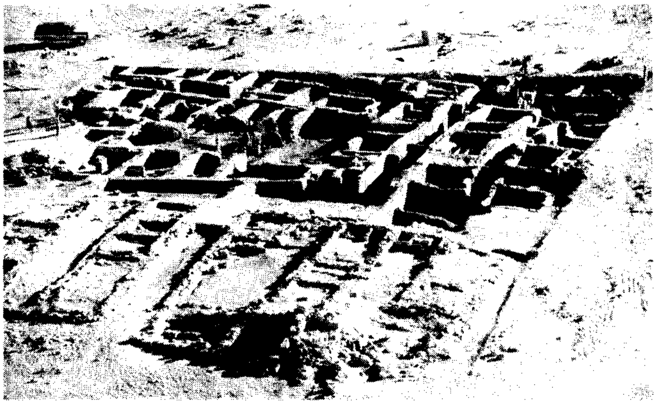


* سدُّ مأرب

أمَّا دولة كِنْدَة الَّتي شغلت قلب الجزيرة العربيَّة ، فقد كانت عاصمتها الفاو[٤] ، تربط بين جنوبي الجزيرة العربيَّة وشمالها ، وشمالها الشَّرقي ، تمرُّ بها القوافل القادمة من سبأ ومعين وقتبان وحضرموت وحِمْيَر ، فهي بذلك تعد مركزاً تجاريّاً واقتصاديّاً هامّاً في قلب الجزيرة العربيَّة لمدَّة تزيد على خمسة قرون ، ولم تكن الفاو بمعزل عن منابع الحضارات آنذاك ، فجذبت أجمل مميِّزات حضارات العصر ، وأنتجت حضارة خاصَّة بها متميِّزة عمَّا جاورها ، تتجلَّى بفنِّ العمارة والتَّزيين والنَّحت .

(٤) تقع بلدة الفاو شمال شرقي اليمن ، تسمَّى اليوم (قرية) ، فهي على أطراف الرَّبع الخالي قرب سليل ، شرقي بيشة ، قامت دولة كندة ما بين القرن الثَّاني قبل الميلاد ، وحتَّى القرن الخامس الميلادي .

لقد تاجر (الكِنْديُّون) بالحبوب والطِّيوب والنَّسيج والأحجار الكريمة والمعادن ، فأثروا ثراء انعكست آثاره فيما بنوه من قصور وأسواق ومقابر ومعابد ، وما زيَّنوا به بيوتهم من رسوم متنوِّعة في موادِّها وموضوعاتها ، وتماثيل معدنيَّة ، وأُخرى مصنوعة من المرمر . وقمَّة تقدُّمهم في سكِّهم عملة خاصَّة بهم ، ضربوا عليها اسم إلههم (كهل) ، واهتمُّوا بأنواع من المكاييل والموازين والأختام ، كما اهتمُّوا بالزِّراعة فحفروا الآبار ، وشقُّوا القنوات السَّطحيَّة والجوفيَّة ، فزرعوا النَّخيل والكروم والحبوب ، وبعض أنواع اللُّبان .

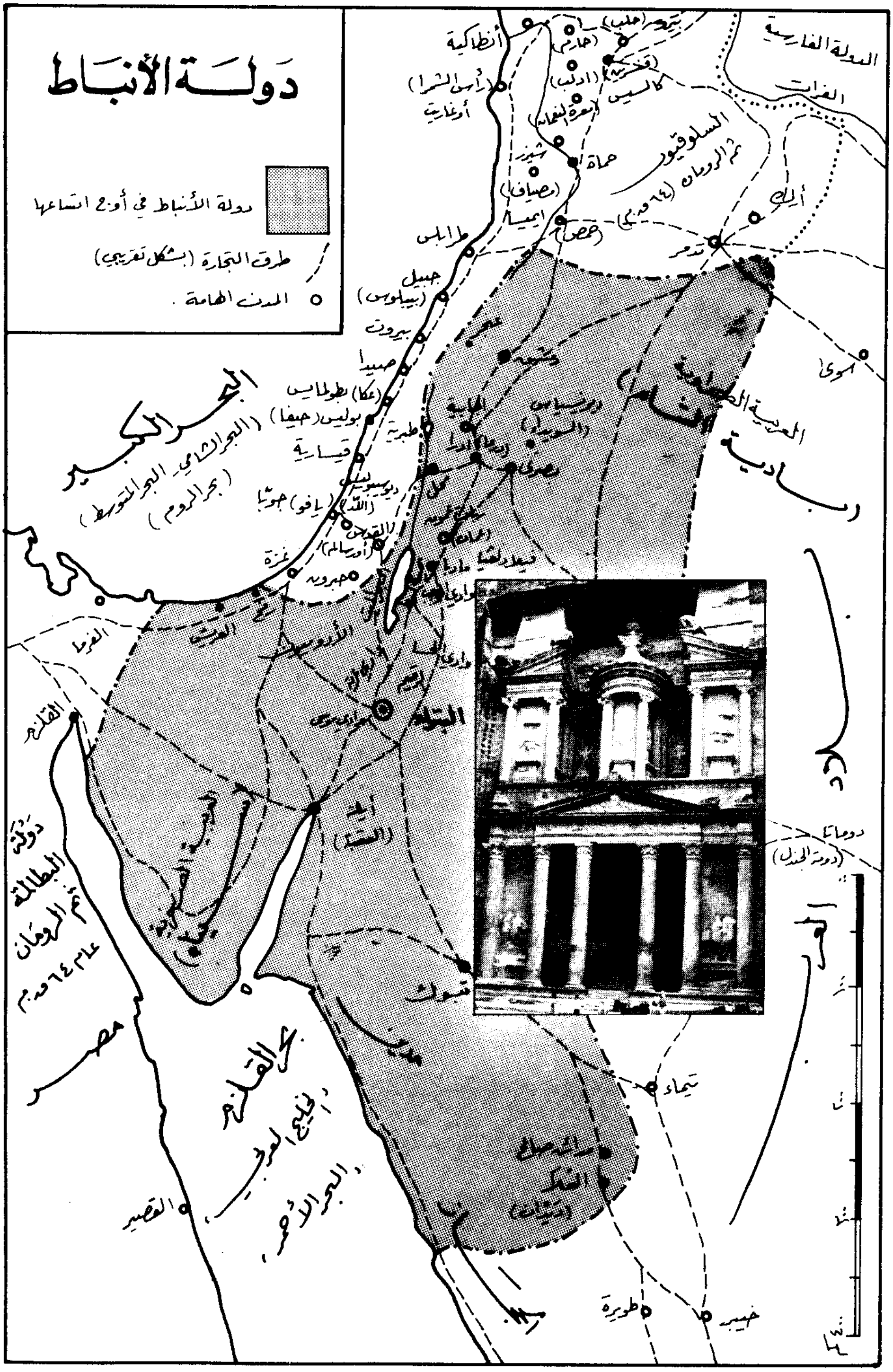


* من آثار الفاو

وقامت دولة الْحَضَر (عربايا) سنة ٥٠ ق.م ، وقضى عليها الفرس في ١ نيسان (إبريل) ٢٤١ م ، قامت بين نهري دجلة والفرات في أرض الجزيرة ، والحضر العاصمة[٥] من مدن القوافل تشبه تماماً تدمر والبتراء وجَرَش ، وفن البناء والنَّحت فيها لا يقلُّ روعة ولا عظمة عن آثار تدمر والبتراء .

لقد كانت الحضر على طريق هام قادم من الصِّين والهند ، ذاهب إلى آسية الصُّغرى وأُوربة ، ومن أهمِّ عوامل قيام دولة الحضر عبادة الشَّمس ، والشَّمس في بادية الجزيرة لا تحجبها غيوم طوال أيَّام السَّنة ، لقد خصَّ الحضريُّون الشَّمس بالأولويَّة في عبادتهم ،

(٥) تبعد ١١٠ كم جنوب غربي الموصل .


دولة الأنباط
دولة الأنباط في أوج اتساعها
طرق التجارة (بشكل تقريبي)
المدن الهامة
البحر الكبير
(البحر الشامي، البحر المتوسط)
(بحر الروم)
بحر القلزم
(خليج العرب
البحر الأحمر)
بادية الشام
مصر
دولة البطالمة ثم الرومان عام ٦٤ ق.م
الدولة الفارسية
الفرات
السلوقيون ثم الرومان (٦٤ ق.م)
أنطاكية
حماة
حمص
تدمر
طرابلس
جبيل (بيبلوس)
بيروت
صيدا
قيسارية
غزة
البتراء
تبوك
تيماء
خيبر
القصير
القلزم
دومة الجندل

وهي عندهم مذكَّر يعرف باسم شمس أو شمشا ، ويعدُّونه كبير الآلهة ، وللنَّسر منزلة سامية في الحضر ، فهو يرمز إلى السِّيادة .

أمَّا الأنباط[٦] ، فقد كانت دولتهم دولة تجاريَّة ، وصلت علاقاتها إلى أبعد المناطق المتمدنة آنذاك ، واهتمَّت بالزِّراعة فحفرت الآبار ، وجمعت مياه السُّيول في صهاريج حفروها ، ووصلوا بعضها ببعض بأقنية نُقِبت في الصَّخر ، وجعلوا لها علامات لا يعرفها سواهم ، وتركَّزت صناعتهم على صنع الأواني الخزفيَّة .

وعمران الأنباط نوع فريد متأثِّر بالفنِّ الهلنستي ، فهيكل الخزنة المحفور بالصَّخر الوردي ، باقٍ إلى يومنا هذا ، يشهد بعظمة علم الهندسة وفنِّ النَّحت عند الأنباط ، كما يتَّضح ذلك من آثار مدينتهم البتراء المنقوبة في الصَّخر .

أمَّا ديانتهم فقد كانت وثنيَّة ، فعبدوا من الآلهة اللاَّت (وترمز إلى القمر) ، ومناة ، والعُزَّى ، وهُبَل .

ومملكة تدمر[٧] الَّتي كانت أهم المحطَّات للقوافل التِّجاريَّة ، امتدَّ نشاطها حتَّى رومة وفرنسة وإسبانية غرباً ، وحتَّى الهند والصِّين شرقاً ، ووضعت قانوناً ماليّاً للتَّدمريِّين والجاليات الأجنبيَّة ، فيه أسماء المواد التِّجاريَّة الَّتي تمرُّ بتدمر ، مع نسبة الرُّسوم الجمركيَّة المفروضة عليها ، وآثار تدمر تشهد على عظمة فَنِّ البناء المتأثِّر بالبناء اليوناني .

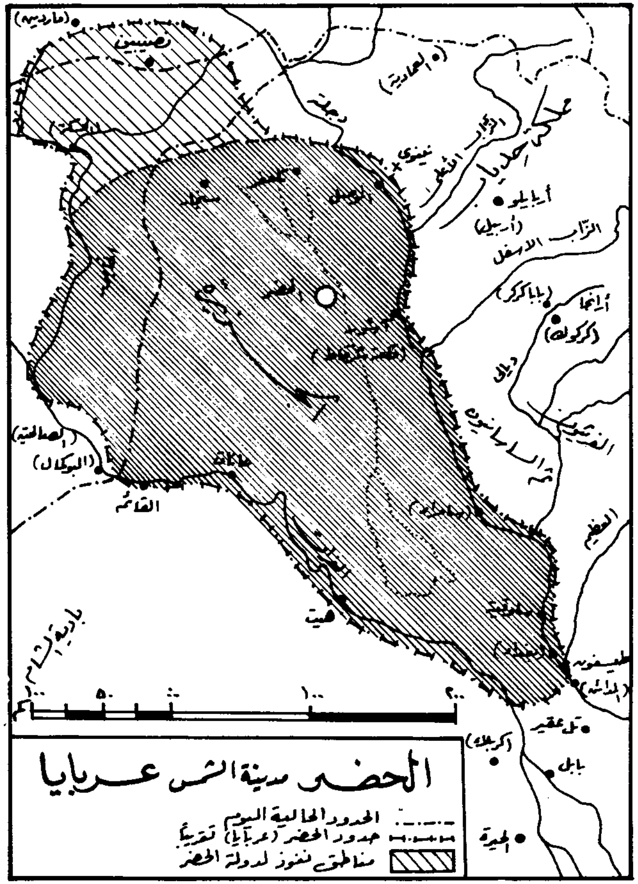
أمَّا من ناحية نظام الحكم ، فقد ساعد الملك مجلس شيوخ .

وكان للتَّدمريِّين أربعون إلهاً ، وبعل الَّذي يمثِّل الشَّمس يعد الإله الوطني المهم أو الأوَّل ، وبعل شمين (إله السَّماوات) حامي الزِّراعة ، والإله يرحبل (إله القمر) .

---

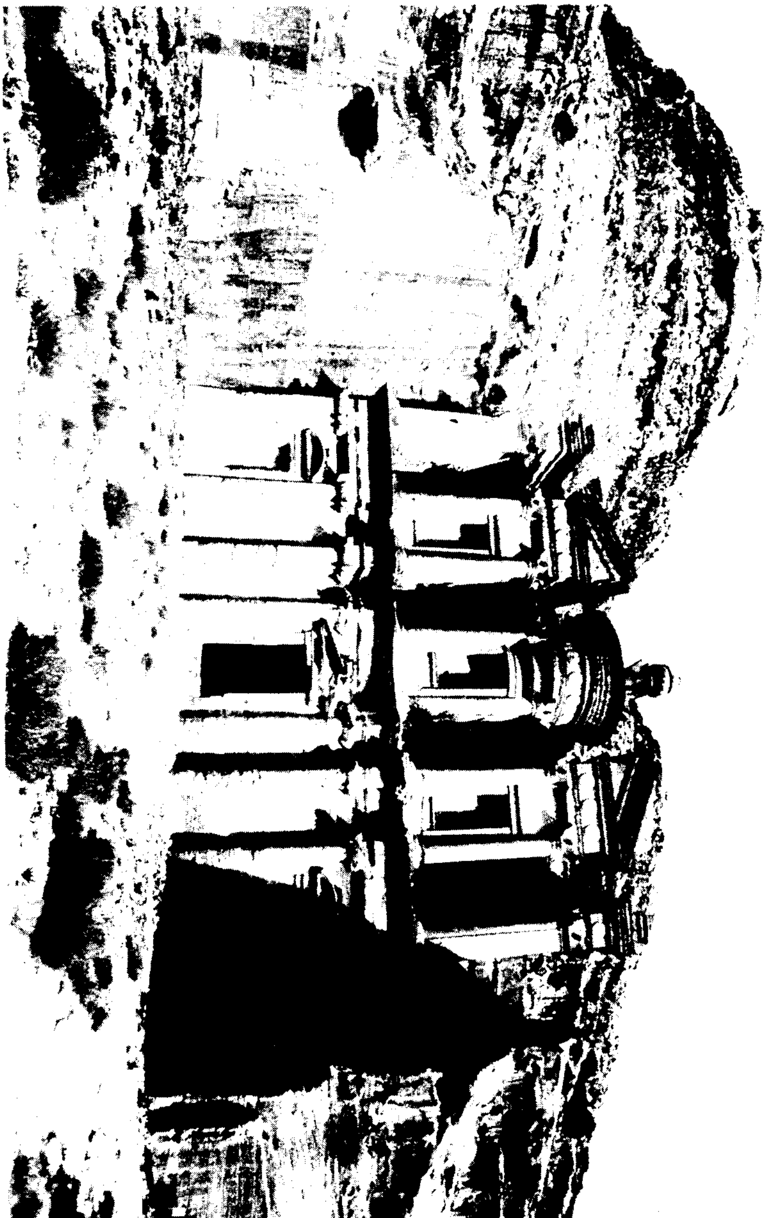
(٦) هاجر الأنباط عام ٥٠٠ ق.م من غربي الجزيرة العربيَّة إلى منطقة عَرَبَة ، قضى الرُّومان على هذه المملكة عام ١٠٦ م .

(٧) قامت مملكة تدمر في القرن الميلادي الأوَّل ، قضى عليها الرُّومان سنة ٢٧١ م .

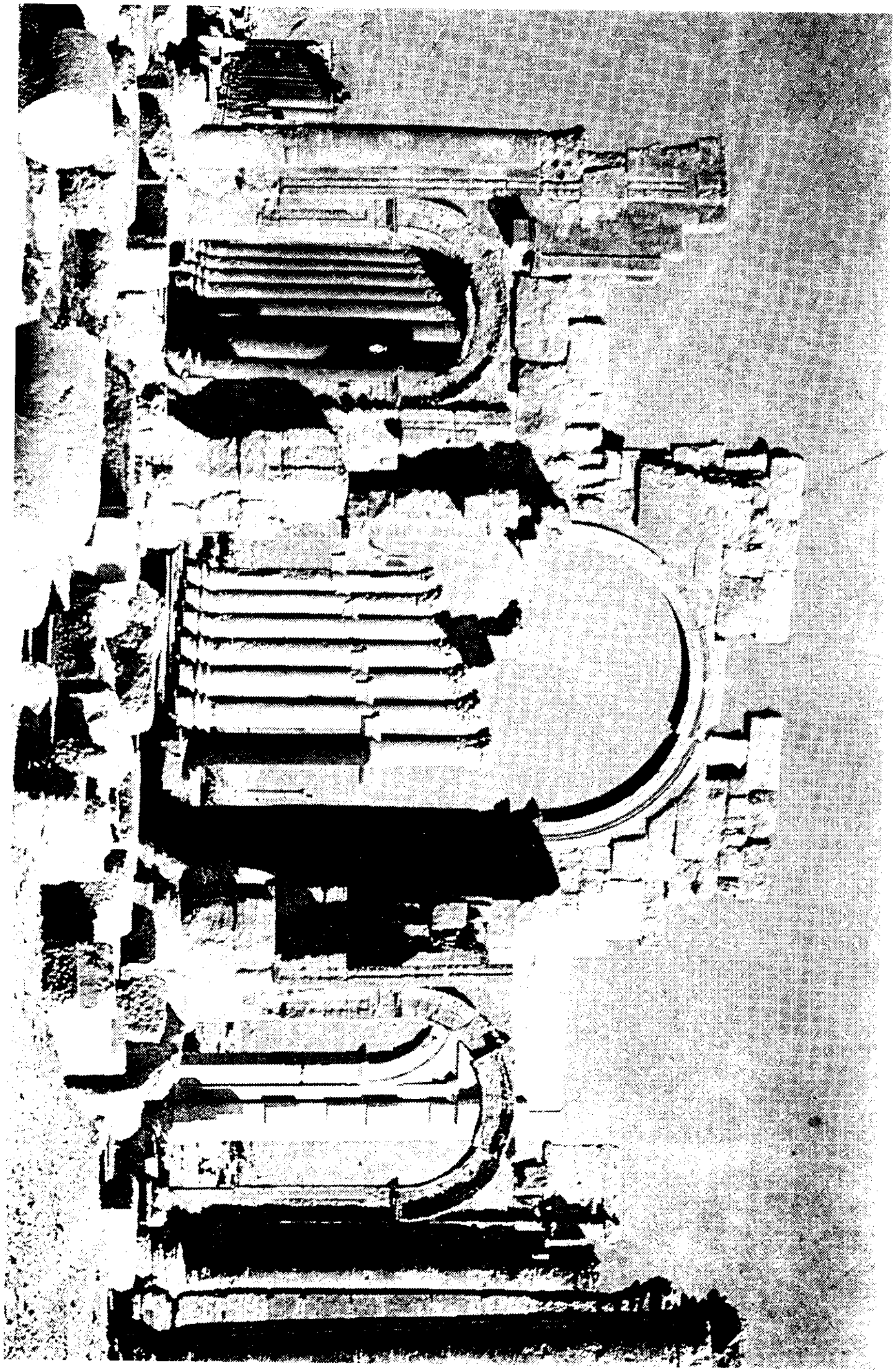




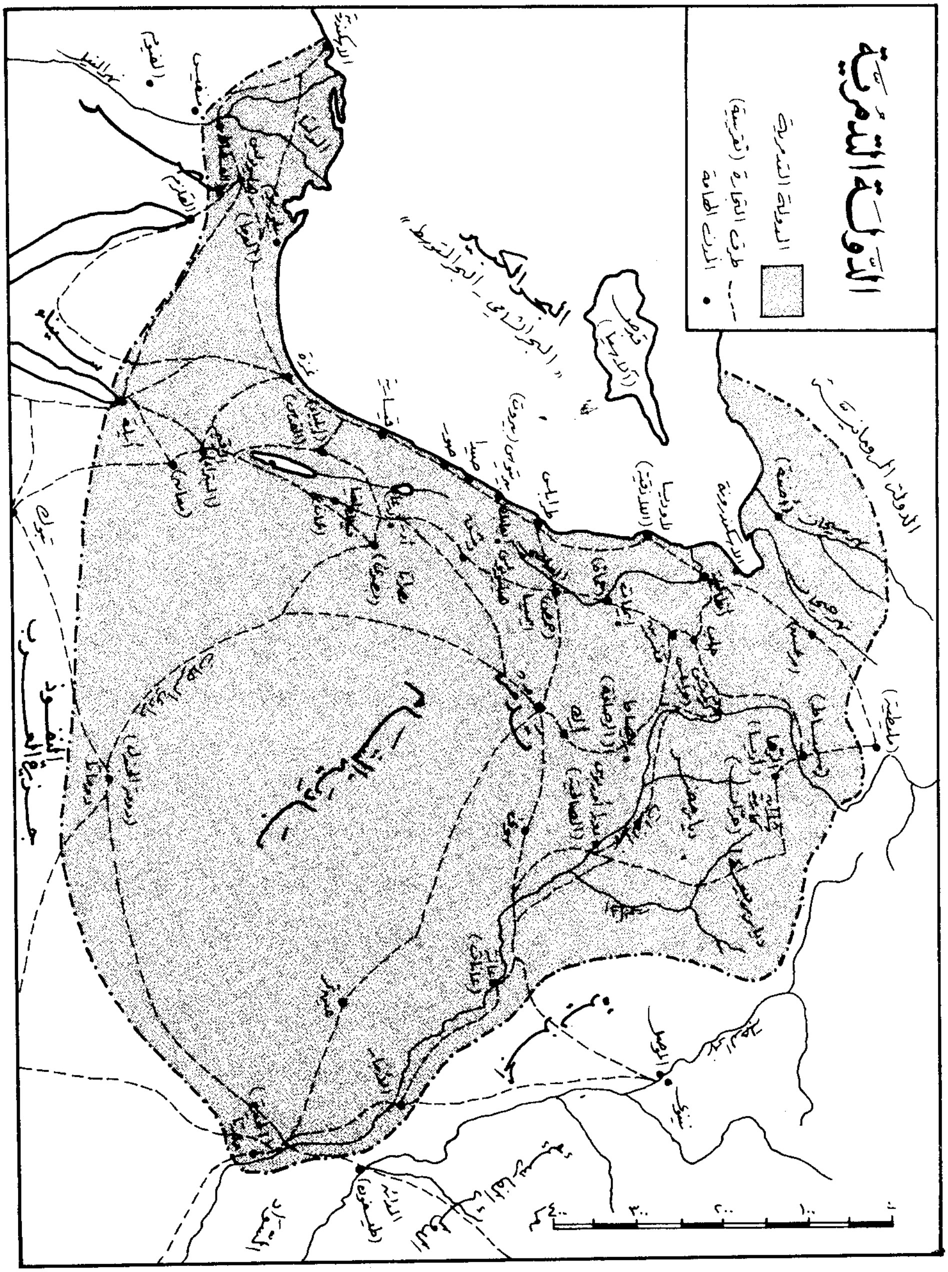
* تمثال (آبو) بنة دميون الَّذي نحت بالحجم الطَّبيعي (نموذج النَّحت في الحضر) . أمَّا اليد المرفوعة فهي علامة العبادة ٦٨+



*من آثار البتراء الرائعة



* من آثار تدمر (سورية)


الدولة التدمرية
الدولة التدمرية
طرق التجارة (قديمة)
المدن الهامة

هَل هناك حَضَارة عربيَّة وَإسلاميَّة ؟

« إنَّ ماقام بـه العرب المسلمون لهو عمل إنقاذي له مغزاه الكبير في تاريخ العالم »[١] .

« لئن أشعـل العرب سراجهم من ثقـافـة اليونـان ، فـإنَّهم مـالبثـوا أن أصبحوا شعلة وهَّاجة استضاء بنورها أهل الأرض »[٢] .

وقبل الشُّروع في دراسة الحضارة الإسلاميَّة ، نطرح التَّساؤل التَّالي :

هل هناك حضارة عربيَّة وإسلاميَّة ، أو إنَّ العرب القدماء لم يرفدوا نهر الحضـارة بشيء ، وإنَّ المسلمين كانوا وسطاء (سعاة بريد) ، ترجموا ونقلوا (المعجزة اليونـانيَّـة) إلى أوربة ؟

يقول السِّير هنري مين Sir Henry Maine : « إذا استثنينا قوى الطَّبيعة العميـاء ، لم نجد شيئاً يتحرَّك في العالم ، إلاَّ وهو يوناني في أصله »[٣] .

ويقـول فيليب حِتِّي ـ مردِّداً ادِّعـاءات بعض المستشرقين ـ بحـقِّ العرب المسلمين : « وقاموا مقام الوسيـط ، في أن نقلوا إلى أوربـة خلال العصور الوسطى كثيراً من هـذه المؤثِّرات الفكريَّة ، الَّتي أنتجت بالتَّالي يقظة أوربة الغربيَّة ، ومهَّدت لها سبيل نهضتها الحديثة »[٤] .

---

(١) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكه .

(٢) الكيمياء عند العرب ، سلسلة من الشَّرق والغرب ، وليم أوسلر ، ص ٩

(٣) Semple Ellen Geography of The Mediterranean Region N.Y. 1931, 507

(٤) تاريخ العرب المطوَّل ٢/١ ، دار الكشَّاف للنَّشر والطِّباعة والتَّوزيع ـ بيروت .

وجوابنا عن هذا السُّؤال الهام ، التَّالي :

الحضارة بساط نسجته وتنسجه أيدٍ كثيرة ، كلُّها تهبه طاقاتها ، وكلُّها تستحق الثَّناء والتَّقدير ، ولا ننكر أنَّ الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة اعتمدت في نموِّها وتطوُّرها وازدهارها على حضارات عربيَّة وشرقيَّة سبقتها ، ولكنَّها واصلت العطاء ، وقدَّمت إلى بساط الحضارة ماطُلِبَ منها وأكثر .

والحقيقة العلميَّة تقول : إنَّ ازدياد المعلومات عن حضارات الشَّرق الأدنى ، كالمصريَّة ، والسُّومريَّة ، والبابليَّة ..، يضطر المؤرِّخين إلى تعديل جذري في النَّظر إلى الحضارة اليونانيَّة ، فليست هناك (معجزة يونانيَّة) مطلقاً ، لأنَّ الحضارة اليونانيَّة امتداد واقتباس للحضارة العربيَّة القديمة في وادي الرَّافدين ، ووادي النِّيل ، وبلاد الشَّام ، فاليونانيُّون اقتبسوا من الحضارة العربيَّة في شرقي البحر المتوسِّط ومصر الشَّيء الكثير من مختلف العلوم ، وعادَ إلينا على أنَّه عِلْمٌ وطِبٌّ يونانيَّان ، ونُسِيَ الأصل أو تُنُوسِيَ ، يقول ديورانت : « إنَّ اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاءً ، لأنَّ ما ورثوه منها أكثر ممَّا ابتدعوه ، وكانوا الوارث المدلَّل المتلاف لذخيرة من الفنِّ والعلم ، مضى عليها ثلاثة آلاف من السِّنين ، وجاءت إلى مدائنهم مع مغانم التِّجارة والحرب »(٥) .

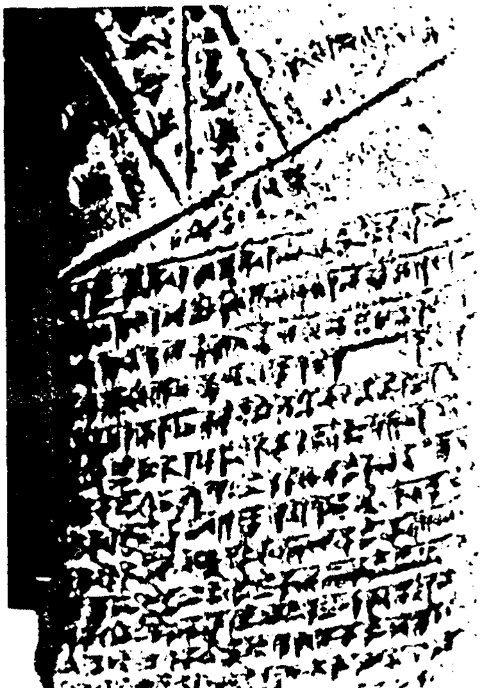
فَـ (طاليس) : [٦٢٤ ـ ٥٣٦ ق.م] من أوائل علماء اليونان المتخصِّصين بالعلم والحكمة ، زار مصر عدة زيارات ، ونقل معه العلوم الهندسيَّة المتقدِّمة من مدارس الإسكندريَّة .

وَ (فيثاغورس) : [٥٧٢ ـ ٤٩٧ ق.م] زار مصر عدَّة مرَّات ، وتعلَّم فيها العلوم الرِّياضيَّة ، ومكث في بابل مدَّة طويلة ، ودرس علم الرِّياضيَّات فيها ، وبات من المعروف أنَّ نظريَّة مساحة المربَّع الْمُنْشأ على وتر مثلث قائم الزَّاوية ، تساوي مساحة الْمُرَبَّعَيْن المنشأين على الضِّلعَيْن القائمَيْن ، أخذها فيثاغورس من بابل ، ونسبت إليه ،

(٥) قصَّة الحضارة : ١٠/٢

إنَّ لوحـة (تل حرمل) الحجريَّـة ، والَّتي عُثِر عليهـا في ضواحي بغـداد ، تـدلُّ على أنَّ البابليِّين سبقوا اليونان في حسابات المثلثات القائمة والمتشابهة بمئات مئات السِّنين .

وَ (ديمقراطس) : [٤٧٠ ـ ٣٦١ ق.م] ، وأفلاطون : [٤٢٧ ـ ٣٤٧ ق.م] أقاما في مصر ، ودرسا فيها العلوم المصريَّة المختلفة الَّتي نقلاها إلى اليونان .



* لوحة تل حرمل : المدينة البابليَّة (ضواحي بغداد) ، سبق رياضيُّو هذه المدينة فيثاغورس وتالس إلى معرفة حسابات المثلَّثات القائمة والمتشابهة بمئات مئات السِّنين

٥ والطِّب اليوناني استفاد الكثير من العلوم الطِّبيَّة المصريَّة والبابليَّة ، وشعار الأفعى رمزاً للشِّفاء ، اعتُقِدَ بأنَّه من (أسقلابيوس) اليوناني ، مع أنَّـه في متحف اللُّوفر منحوتة من مدينة لكش العراقيَّة ، تعود إلى عام ٢٠٠٠ ق.م ، فيهـا دورق عليـه صورة الأفْعَيَيْن تلتوي إحـداهمـا على الأُخرى ، يقف خلفهما (جوديـا) أمير لكش ، مكتوب

عليها : إنَّها مهداة إلى (نينكيش زيدا) مع الشِّفاء ، وأثبت (ريجتال تومبسون) في كتابه : النَّباتات الطِّبيَّة الآشوريَّة ، جدولاً بما اقتبسه اليونانيُّون من النَّباتات الطِّبيَّة العربيَّة منها(٦) :

اللَّفظة الآشوريَّة	اللَّفظة العربيَّة اليوم	اللَّفظة اليونانيَّة
Murra	المُرَّة	Myrrha
Tormus	الترمس	Termis
Arzallu	الوزال (البلُّوط)	Azaolus
Kurkamu	الكركم	Curcuma
Samassamu	السِّمسم	Sesamum
Azupiramu	الزَّعفران	Saffaran
Anber	العنبر	Amber
Karru	الكرز	Cherry
Marabu	الخرُّوب	Carob
Kitu	القطن	Cotton

ونقل اليونان الأبجديَّة الفينيقيَّة بين عامي : ٨٥٠ ـ ٧٥٠ ق.م ، واعترف اليونان بهذا النَّقل في قصَّة (قدموس) الَّذي أدخل ستة عشر حرفاً ، وفي القرن السَّادس قبل الميلاد ، انتقلت الأبجديَّة إلى الرُّومان ، وكتبت بها اللُّغة والآداب اللاَّتينيَّة ، ومنها انتقلت إلى سائر العالم الغربي ، وكذلك فإنَّ الآراميِّين نقلوا أبجديَّتهم عن الفينيقيِّين ، وأخذها منهم الأنباط والتَّدمريُّون والهنود والأرْمَن ، وعدد كبير جدّاً من شعوب الشَّرق ، ومن أهمِّ صفات الأبجديَّة الفينيقيَّة بساطتها ، وسهولة استعمالها .

(٦) الفيصل ، العدد ٩٢ ، مقالة د. غازي الحاجم .

ويقول ديورانت في قصّة الحضارة : بابل علّمت اليونان مبادئ الحساب ، وعلم الطّبيعة والفلسفة(٧) ، ويقول :

من بابل لا من مصر جاء اليونان الجوّالون إلى دويلات مدنهم بالقواعد الأساسيّة لعلوم الرّياضيّات والفلك والطّبّ والنّحو وفقه اللّغة وعلم الآثار والتّاريخ والفلسفة ، ومن دويلات المدن اليونانيّة انتقلت هذه العلوم إلى رومة ، ومنها إلى الأوربيّين والأمريكتين ، وليست الأسماء الّتي وضعها اليونان للمعادن ، وأبراج النّجوم ، والموازين ، والمقاييس ، وللآلات الموسيقيّة ، ولكثير من العقاقير ، ليست هذه كلها إلاّ تراجم لأسمائها البابليّة إلى اليونانيّة ، بينما استمدّ فنّ العمارة اليونانيّة أشكاله وإلهامه من مصر وكريت(٨) .

حتّى في الآلهة ، فعشتار البابليّة هي استارتي عند اليونان ، وهي النموذج الذي صاغ اليونان على أمثاله آلهتهم أفروديت ، والرومان فينوس(٩) .

لما سبق ، ولأسباب أُخرى كثيرة نقول : إنّ المعجزة اليونانيّة المزعومة ـ كما يقول جورج سارتن في كتابه « تاريخ العلم » ـ: لها أبّ وأُمٌّ شرعيّان ، أمّا أبوها فهو تراث مصر القديمة ، وأمّا أُمُّها فهي ذخيرة بلاد ما بين النّهرين ، والشّرق القديم مهد الحضارات ، والمعلم الأوّل للبشريّة في المجالين : المدنيّة المادّيّة والعلوم كلّها ، وفي المجال الرُّوحي والمعتقدات الدّينيّة .

وجاء في كتاب (انتصار الحضارة)(١٠) : الشّادوف المصري أقدم أنواع الأجهزة لرفع المياه لريّ الحقول ، وأقدم السّاعات في العالم مِزْوَلَة مصريّة تحمل اسم الملك

---

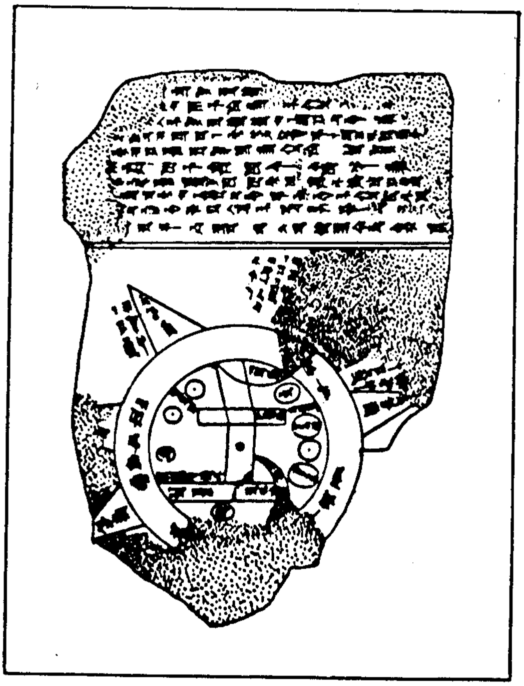
(٧) قصة الحضارة : ٢/١٨٧

(٨) قصة الحضارة : ٢/٢٦٢

(٩) قصة الحضارة : ٢/٢١٥

(١٠) انتصار الحضارة (تاريخ الشّرق القديم) ، جيمس هنري برستد ، ترجمة د. أحمد فخري ، نشر الجامعة العربيّة ، الإدارة الثّقافيّة .

تحوتمس الثَّالث ، وبعد عهد تحوتمس الثَّالث بما يقرب من ألف سنة ، اقتبس اليونـانيُّون هذا النَّوع من السَّاعات ، والسَّاعة محفوظة اليوم في متحف برلين ، بعد أن رقَّمها العـالم الأثري بوخارست .



* خريطـة العـالم كما وضعهـا البـابليُّـون ، الـدَّائرة الكبرى تمثِّـل المحيــط ، والـدَّوائر الصُّغرى تحتوي على بابل وغيرها من المدن ، وفيما عدا ذلك توجد الجبال ، وغياضُ الدَّلتا البـابليَّـة ، أمَّا الكتـابـة فهي سجل لحملات سارجون ملك أكاد .

« ولقـد ترك علم الفلـك الكلـداني[11] أثراً لا يُمْحى في تقويمنـا فيما يتعلَّق بـالأسماء الَّتي نطلقهـا على أيَّـام الأُسبـوع ، فهـذه الكـواكب الخمســة .. (عطــارد ، والـزُّهرة ، والمرِّيخ ، والمشتري ، وزحل) ، بالإضافة إلى الشَّمس والقمر ، تكوِّن مجموعـة من سبعـة أجرام سماويَّـة ، كان كلٌّ منهـا إلهـاً على جـانب عظيم من الأهميَّـة ، ولَّمـا كانت العبـادة الكلدانيَّة قد انتشرت في سوريَّة وذاعت ، فقد جرت العـادة أخيراً على العبـادة والتَّغنِّي

(١١) الدَّولة الكلدانيَّة : هي الدَّولة البابليَّة الثَّانية : [٦٢٦ ـ ٥٣٩ ق.م] .

بمدح كلِّ إله منها في يوم خاص مُعَيَّن ، وهكذا كانت عبادة كلِّ إله من هذه الآلهة تتكرَّر بعد مرور سبعة أيَّام ، ثمَّ أُطلق اسم الإله الَّذي يُعْبَد في يومٍ ما على ذلك اليوم نفسه ، وهكذا أصبح اليوم المكرَّس لعبادة الشَّمس الأحد (يوم day ـ الشَّمس Sun) ، وبات اليوم الخاص بعبادة القمر الإثنين (يوم day ـ القمر Mon) ، وهكذا حتَّى نهاية الأُسبوع ، وعُرِف اليوم الأخير المختص لعبادة زحل باسم يوم سارتن وهو يوم السَّبت ، ولمَّا كانت اللُّغة الإنكليزيَّة قد وصلت عن طريق الشُّعوب الشَّماليَّة ، فقد دخلت فيها بعض العناصر النورسيَّة ، وظهرت في أسماء أيَّام الأسبوع ، مثل : Wednes day ، Wodon s day أي يوم الأربعاء ، و Thrus day Thors day أي الخميس ، ومع هذا ، فإنَّ هذه الأسماء جميعها ترجع إلى الآلهة البابليَّة القديمة ، الَّتي ما زالت أسماؤها محفوظة بين الشُّعوب الغربيَّة ، يذكرونها كلَّما نطقوا باسم أيِّ يوم من أيَّام الأُسبوع »[١٢] .

أمَّا الحضارة الإسلاميَّة :

فقد أخذ المسلمون من الحضارات السَّابقة ، ولكن لم ينقلوها كما هي ، إنَّهم أعادوا التَّفكير والنَّظر تماماً في العلوم اليونانيَّة ، فما ورَّثَه المسلمون إلى أُوربة يختلف كثيراً عمَّا وَرِثوه من سابقيهم .

والمنهج العلمي هو أجلُّ خدمة أسدتها الحضارة الإسلاميَّة إلى العالم ، فالإغريق (اليونان) اقتبسوا ونظَّموا وعمَّموا ووضعوا النَّظريَّات ، ولكن روح البحث والتَّدقيق والتَّحقيق للوصول إلى المعرفة اليقينيَّة ، وطرائق العلم الدَّقيقة ، والملاحظة الدَّائبة كانت غريبة في المزاج الإغريقي ، والمسلمون هم أصحاب الفضل في تعريف أُوربة بهذا كلِّه ، فالعلم الأُوربي مدين بوجوده للمسلمين[١٣] .

---

(١٢) انتصار الحضارة ، جيمس هنري برستد ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤

(١٣) أورد هذا القول روم لاندو ، وهو لبريفو Briffoult في كتابه (تكوين الإنسانيَّة) : Making of Humanity

فللحضارة الإسلاميَّة الفضل الكبير في المحافظة على التراث القديم والتُّراث اليونـاني أيضـاً ، لأنَّ الأُوربيِّين كانوا يجهلون العـديـد من مـؤلَّفـات اليـونـان ، الَّتي اعتمـدت في الحوادث وأعظمها شأناً في تاريخ العالم »[١٥]

تقول المستشرقـة الألمـانيَّـة زيغريـد هونكـه في كتـابهـا (شمس العرب تسطع على الغرب) : « إنَّ ما قـام بـه العرب المسلمون لهو عمل إنقـاذي لـه مغزاه الكبير في تـاريخ العالم » .

« لمدَّة خمسة قرون سيطر الإسلام على العالم بقوَّته وبعلومـه وبحضـارتـه المتفوِّقـة ، وكوريث لكنوز العلوم والفلسفة الإغريقيَّة ، نقل الإسلام هذه الكنوز بعد أن أغناهـا بـالفكر الإسلامي إلى أُوربـة الغربيَّـة ، وكان أن وسَّـع الإسـلام آفـاق الفكر الأُوربي في القرون الوسطى ، وترك ملامحـه العميقـة على الحيـاة والفكر الأُوربيين »[١٤] . لـذلـك يقرر ديـورانت أن نقـل علـوم اليـونـان إلى أُوربـة وإعـادة النَّظر فيهـا : « من أجـلِّ الحوادث وأعظمها شأناً في تاريخ العالم »[١٥] .

« إنَّ الحضارة الإسلاميَّة المبتكرة ، لم تأخذ من الحضـارة الإغريقيَّـة ، أو الحضـارة الهنديَّة ، إلا بقدر ما أخذ طاليس أو فيثاغورس من الحضارتَيْن البابليَّة والمصريَّة .

لقـد طوَّر المسلمون ، بتجـاربهم وأبحـاثهم العلميَّـة ، مـا أخـذوه من مـادَّة خـام عن الإغريق ، وشكَّلوه تشكيلاً جـديـداً ، فـالمسلمون في الواقع ، هم الَّـذين ابتـدعوا طريق البحث العلمي الحق القائم على التَّجربة .

إنَّ المسلمين لم ينقـذوا الحضـارة الإغريقيَّـة من الـزَّوال وحسب ، بـل ونظَّمـوهـا ورتَّبوها ، ثمَّ أهدوها إلى الغرب ، إنَّهم مؤسِّسو الطُّرق التَّجريبيَّة في الكيميـاء والطَّبيعـة والحساب والجبر والجيولوجيـا وحسـاب المثلَّثـات وعلم الاجتماع ، وبـالإضـافـة إلى عـدد

---

(١٤) Jacques C. Riesler : La civilisation arabe, Paris 1955

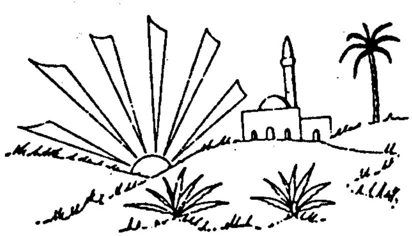
(١٥) قصَّة الحضارة : ١٣/١٨٠

لا يحصى من الاكتشافات والاختراعات الفرديَّة في مختلف فروع العلوم ، الَّتي سُرق أغلبها ونُسِبَ لآخرين ، لقد قدَّم المسلمون أثمن هديَّة ، وهي طريقة البحث العلمي الصَّحيح ، الَّتي مهَّدت أمام الغرب طريقة لمعرفة أسرار الطَّبيعة وتسلطه عليها اليوم »(١٦) . لقد أنقذوا الحضارة اليونانيَّة ، ونقدوا مواطن الخلل ، وصحَّحوا الخطأ فيها ، ونظموها ، وأضافوا إليها الكثير .

لقد ارتقى العرب المسلمون بالحضارة الإنسانيَّة عندما جاء دورهم في بنائها ، منذ نزل الوحي الأمين بـ ﴿ اقرأ ﴾ على قلب محمَّد بن عبد الله ﷺ ، فنقلوا ، وترجموا ، وصحَّحوا ، ودرسوا ، ثمَّ أضافوا فأبدعوا .

﴿ اقرأ ﴾ نور حضارة انطلق من غار حراء ، فأشرقت به الأرض ، وأحيا أُمَّة كانت على هامش تاريخ الأُمم آنذاك ، فأصبحت أُمَّة عقائديَّة تحمل رسالة ربَّانيَّة ، وقدَّمت للعالم أروع الصُّور الأخلاقيَّة والإنسانيَّة ، ودولة مترامية الأطراف ، احتوت الحضارات وهضمتها ، لتبدع وتقدِّم حضارة إسلاميَّة ، رفدت مسيرة نهر الحضارة الإنسانيَّة ، بما هو مطلوب منها على أتمِّ وجه ، وأبهى صورة .

☆ ☆ ☆



---

(١٦) شمس العرب تسطع على الغرب : ٤٠٠/٤٠١

الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة

مصادر التشريع، نظام الحكم: الخلافة، الوزارة، الإمارة، الحسبة، القضاء، الشرطة، الدَّواوين، بيت المال، البريد وصاحب الخبر، الجيش والأُسطول، النَّشاطات الاقتصاديَّة، المجتمع، الحياة الفكريَّة، المظهر الفني.

تمهيد

لمحة تاريخيّة

﴿ وَمَـــا أرْسَلْنَـــاكَ إلاَّ رَحْمَـــةً لِلعَـالَمِينَ ، قُلْ إنَّمَـا يُـوحَى إلَيَّ أنَّما إلَهُكُمْ إلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

[الأنبياء : ٢١/١٠٧ ـ ١٠٨]

ولد محمَّد بن عبـد الله ﷺ في ٢٠ نيسـان (إبريل) سنـة ٥٧١ م ، [٥٣ ق.هـ] ، وهي السَّنـة المعروفـة بعـام الفيل ، مـات أبوه قبـل أن يـولـد ، وتـوفِّيت أُمُّـه وهـو في السَّادسة من عمره .

عُرِفَ بين قومه شابّاً ذا مروءة ووفـاء ، وحسن جوار ، وعفَّـة وشجـاعـة وصـدق ، وأمـانـة حتَّى سُمِّي (الأمين) ، لم يسجـد لوثن ، ولم يشرب خمراً ، تزوَّج (الطَّـاهرة) خديجة بنت خويلد ، وأنجب منها ستَّة أطفال ، منهم فاطمة رضي الله عنها .

وفي الأربعين من عمره ﷺ ، وبينما كان يتحنَّث ـ يتعبَّد معتزلاً الأصنام ـ في غار حِراء ، نزل عليه الوحي يوم الإثنين ١٧ رمضـان ١٣ ق.هـ ، (٦١٠ م) ، وكانت أُولى كلمـات القرآن الكريم : ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، ثمَّ توالت الآيـات والسُّـوَر ، واعتنـق هـذا الـدِّين الجديد (الإسلام) ، الَّذي من أهمّ أركانـه التَّوحيـد المطلق لله عزَّ وجلَّ : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أحَدٌ ﴾ ، ومن أجلّ أهدافه كرامـة الإنسـان وحُرِّيَّتـه : ﴿ وَلَقَـد كَرَّمْنَـا بَنِي آدَمَ ﴾ ،

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ ، اعتنقه بعض المتّصلين بالرّسول الكريم ﷺ ، وهم من أعزّ رجال قريش ، كأبي بكر الصّدّيق ، وعثمان بن عفّان ، والزّبير بن العوّام ، وسعد بن أبي وقّاص ، وعبد الرّحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبي عبيدة بن الجرّاح ، والأرقم بن أبي الأرقم ..

استمرّت هذه الفترة الّتي سُمِّيت « دعوة الأفراد » ، وآمن بها السّابقون الأوّلون ، ثلاث سنوات ، لتبدأ بعدها فترة الجهر بالدّعوة ، فآذت قريش المستضعفين ، وأذاقتهم مرَّ العذاب ، فنصحهم ﷺ بالهجرة إلى الحبشة : « فإنّ بها ملكاً لا يُظْلَمُ عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتّى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم فيه » .

ثمّ كانت هجرته ﷺ إلى المدينة المنوّرة (يثرب) ، وسببها المباشر ، وصول قريش إلى قرار بقتل رسول الله ﷺ ، بعد أن فَقَدَ الحامي والنّصير ، عمّه أبا طالب ، وزوجه خديجة . وسبب انتقاء يثرب داراً للهجرة ، إسلام عدد من أهلها ، من الأوس والخزرج في مواسم الحجّ ، في بيعتَي العقبة الأُولى والثّانية . واتّخذ المسلمون من هذه الهجرة بداية للتّاريخ الهجري ، الّذي وافق سنة ٦٢٢ م ، ونشأت بهذه الهجرة حكومة نظاميّة في المدينة ، فتحوّلت قريش من الإيذاء الشّخصي في مكّة ، إلى حرب معلنة للقضاء على العقيدة ، الّتي اتّخذت المدينة المنوّرة عاصمة لها .

استطاع رسول الله ﷺ أن يقيم رابطة العقيدة مقام رابطة الأُسرة والدّم ، فوحّد بين قلوب كانت متباينة ، وبين أفراد فرّقتهم بالأمس العصبيّة القَبَليّة ، وجمعتهم اليوم شخصيّة فريدة قويّة ، متّصلة بالله تتلقّى وحياً وأوامر إلهيّة ، وافية بمطالب البشريّة الخلقيّة والرّوحيّة والحياتيّة .

ولمّا تفاقم أذى قريش المشركة ، أُذِنَ بالجهاد ، وهو القتال الخالص لله تعالى ، وللدّفاع عن النّفس ، وتذليل العقبات الّتي تقف في سبيل نشر عقيدة أمر الله بها أن

تنشر ، ولكي لا يخشى من يريد اعتناق الإسلام الفتنة عن دينه ، فكانت معركة بدر الكبرى في السَّنة الثَّانية للهجرة ، حيث حقَّق المسلمون نصراً حاسماً - ولأوَّل مرَّة - على قريش المشركة ، وتوالت السَّرايا والغزوات ، حتَّى عاد ﷺ منتصراً فاتحاً إلى مكَّة سنة ٨ هـ .

كانت وفاته ﷺ بعد حجَّة الوداع بثلاثة أشهر ، وذلك في يوم الإثنين ١٣ ربيع الأوَّل سنة ١١ هـ ، الموافق ٨ حزيران (يونية) سنة ٦٣٢ م ، وهو في الثَّالثة والسِّتِّين من عمره ، بعد أن بلَّغ الرِّسالة ، وأدَّى الأمانة . لم يتغيَّر ﷺ في الرَّخاء عمَّا كان عليه في الضَّرَّاء ، ولم تبعث انتصاراته في نفسه الفخر والزُّهو ، لأنَّها لم تكن لمأرب شخصي عنده ، « ولمَّا بلغ أوج سلطانه ظلَّ محتفظاً بالبساطة في مظهره وأخلاقه ، حكم الجزيرة وبقي يحتقر أُبَّهة الْمُلْك ، يمشي بلا حرَّاس ، ولا يقوم دون أصحابه الْحُجَّاب »[(١)] .

لقد امتاز ﷺ : « بوضوح كلامه ، ويسر دينه ، وقد أتمَّ من الأعمال ما يدهش العقول ، ولم يعهد التَّاريخ مصلحاً أيقظ النُّفوس ، وأحيا الأخلاق ، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير ، كما فعل محمَّد »[(٢)] .

« وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للعظيم من أثر في النَّاس ، قلنا إنَّ محمَّداً كان من أعظم عظماء التَّاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى الرُّوحي والأخلاقي لشعب ألقت به في دياجير الهمجيَّة حرارة الجو ، وجدب الصَّحراء ، وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانِه فيه أي مصلح آخر في التَّاريخ كلِّه .. »[(٣)] .

وبعد رسول الله ﷺ قامت دولة الخلفاء الرَّاشدين : [١١ - ٤٠ هـ] ، وهم :

---

(١) المثل الأعلى في الأنبياء ، خوجة كمال الدِّين .

(٢) Muir: The Life of Muhammed P. 523, 528

(٣) قصَّة الحضارة : ٤٧/١٣

أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه : [١١ ـ ١٣ هـ = ٦٣٢ ـ ٦٣٤ م] ، الّذي وطّد دعائم الدّولة الإسلاميّة بقضائه على حركة الرِّدَّة ، وتوجيهه الجيوش إلى الفتح في العراق وبلاد الشّام ، لا لِفَرْضِ عقيدة ، بل لإنهاء ظلم ، ونشر إنسانيّة وإخاء ومساواة .

عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : [١٣ ـ ٢٣ هـ = ٦٣٤ ـ ٦٤٤ م] ، الّذي نظّم شؤون الدّولة ، وتمّت في عهده ـ وبتوجيه منه ـ فتوح عظيمة في بلاد الشّام بعد اليرموك ١٣ هـ ، بقيادة خالد بن الوليد ، وأبي عبيدة بن الجرّاح ، وفي العراق بعد القادسيّة ١٤ هـ بقيادة سعد بن أبي وقّاص ، وفي مصر بعد فتح حصن بابليون سنة ١٩ هـ على يد عمرو بن العاص ، وفي فارس بعد نهاوند سنة ٢١ هـ ، بقيادة النُّعمان بن مقرِّن المزني .

عثمان بن عفّان رضي الله عنه : [٢٣ ـ ٣٥ هـ = ٦٤٤ ـ ٦٥٦ م] ، الّذي فتحت في عهده أرمينية ، وقبرص ، والشّمال الإفريقي .

علي بن أبي طالب رضي الله عنه : [٣٥ ـ ٤٠ هـ = ٦٥٦ ـ ٦٦١ م] ، الّذي جابه يداً خفيّة حرّكت فتنة قادها عبد الله بن سبأ ، فتنة لم يكن الصّحابة الكرام أبطالها ، بل آخرون منافقون عملوا من وراء ستار بدهاء ومكر ، فكانت معركة الجمل ، ومعركة صِفّين الّتي انتهت بالاتّفاق على التّحكيم بين علي ومعاوية بن أبي سفيان ، وفي مدينة الكوفة مقرّ علي رضي الله عنه ، وبينما كان يوقظ النّاس لصلاة الفجر ، إذا بعبد الرّحمن بن ملجم الخارجي يترصّده بحسام مسموم ، وبضربة غادرة قتل ابن ملجم عليّاً رضي الله عنه ، لتنتقل الخلافة إلى الدّولة الأُمويّة : [٤١ ـ ١٣٢ هـ = ٦٦١ ـ ٧٥٠ م] ، حيث توالى على سُدّة الحكم في العاصمة الجديدة (دمشق) ، أربعة عشر خليفة ، أشهرهم :

معاوية بن أبي سفيان : [ت ٦٠ هـ = ٦٨٠ م] ، وهو مؤسّس الدّولة ، بلغ أُسطوله رودس ، وبعض جزر بحر إيجة ، وحاصر عاصمة الرُّوم البيزنطيّين

القسطنطينيَّة ، وأتمَّ الفتح في الشَّمال الإفريقي على يد عقبة بن نافع باني مدينة القيروان سنة ٥٥ هـ .

ومروان بن الحكم الَّذي كان من ذوي الرَّأي والفصاحة والشَّجاعة ، وعبد الملك بن مروان : [٦٥ ـ ٨٦ هـ = ٦٨٥ ـ ٧٠٥ م] ، الَّذي عرَّب الدَّواوين والنَّقد ، وبلغت الدَّولة الأُمويَّة قمَّة مجدها ، وذروة فتوحها أيَّام الوليد بن عبد الملك : [٨٦ ـ ٩٦ هـ = ٧٠٥ ـ ٧١٥ م] ، ففي عام ٩٣ هـ تمَّ فتح سمرقند في ما وراء النَّهر على يد قتيبة بن مسلم الباهلي ، وفتح الدَّيْبُل(٤) على يد محمد بن القاسم الثَّقفي ، وفتح طليطلة في الأندلس على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير .

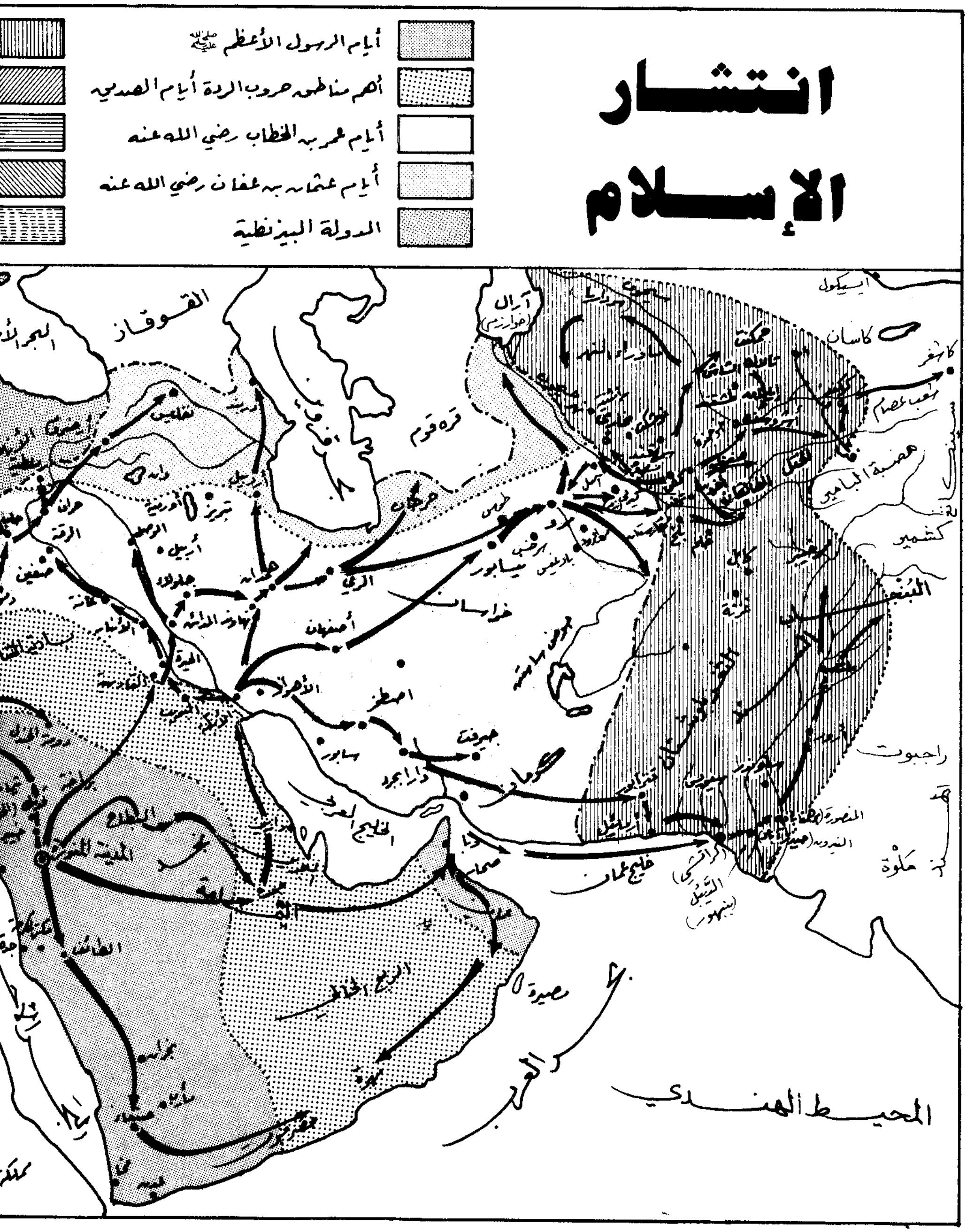
وعمر بن عبد العزيز : [٩٩ ـ ١٠١ هـ] ، الخليفة الرَّاشدي الخامس ، الَّذي كانت العلماء معه تلامذة ، والَّذي أعاد إلى الإسلام صفاءه ، ونظَّم حركة ملؤها الحماسة في نشر الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة ، يذكر توماس أرنولد(٥) : « وبلغ من تسامح عمر بن عبد العزيز ورعايته لأهل الذِّمَّة ، وما ذاع عن زهده وورعه وتقشُّفه ، أن أحد كُتَّاب النَّساطرة كان يضيف كلمات التَّبجيل والتَّقديس إلى اسم الرَّسول ﷺ ، وإلى أسماء الخلفاء الأُوَل كلَّما عرض لذكرهم ، ويستنزل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز » .

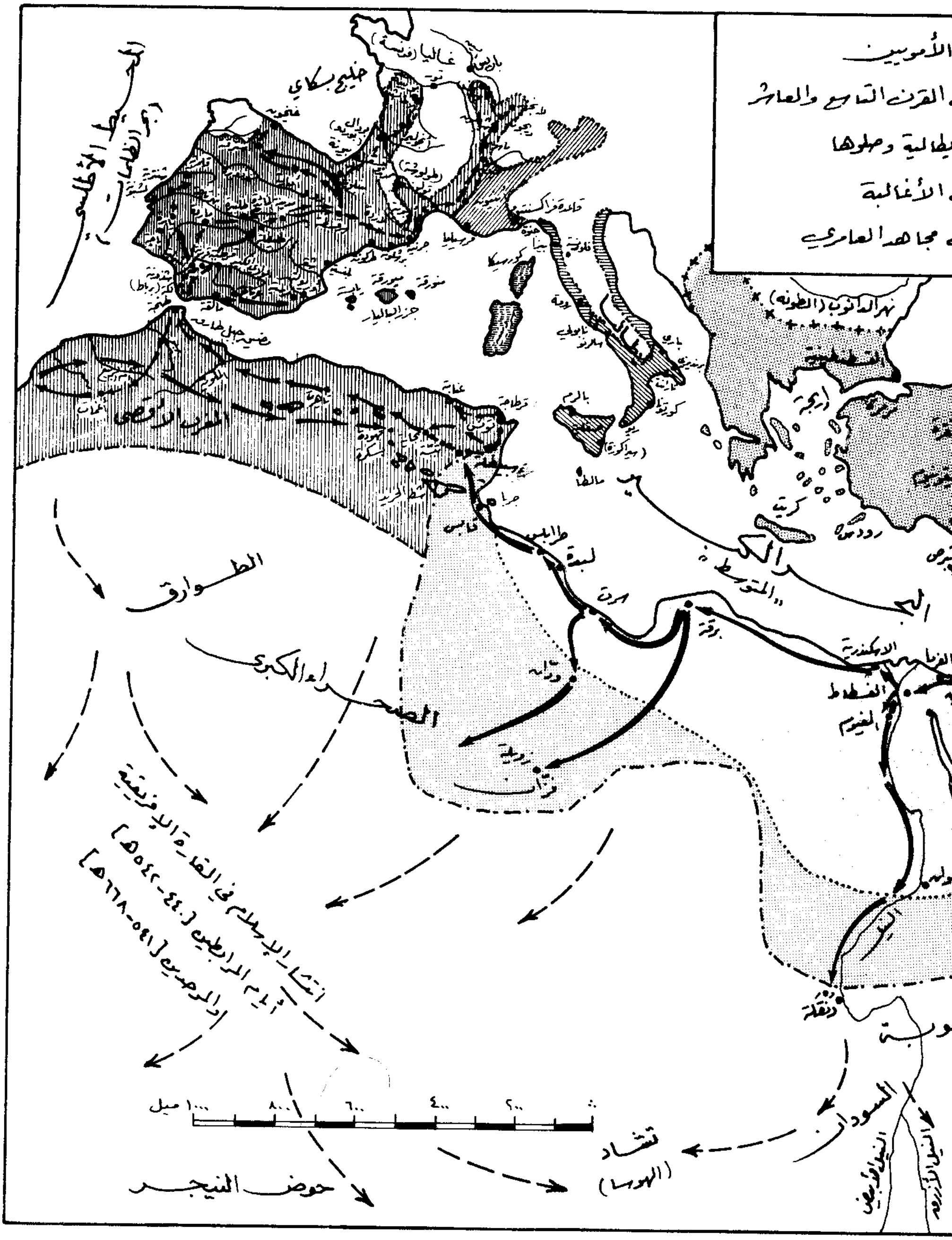
لقد سقطت الدَّولة الأُمويَّة سنة ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م لأسباب كثيرة ، منها نظام ولاية العهد ، الَّذي أوصل إلى الحكم أحياناً من ليس أهلاً له ، وخصوصاً تولية العهد لاثنين ، حيث ظهر التَّنافس بين أفراد البيت المالك على أثرها .

والرُّوح العصبيَّة هي السَّبب الثَّاني لسقوط الدَّولة الأُمويَّة ، تلك الرُّوح الَّتي

(٤) الدَّيْبُل (كراتشي حالياً) ، قرب مصبِّ نهر السِّند في بحر العرب ، على المحيط الهندي .

(٥) الدَّعوة إلى الإسلام ، ص : ٤٦٦


انتشار الإسلام
أيام الرسول الأعظم ﷺ
أهم مناطق حروب الردة أيام الصديق
أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه
أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه
الدولة البيزنطية
القوقاز
قره قوم
كاسان
كاشغر
هضبة الباميرا
كشمير
راجبوت
خراسان
نيسابور
الري
أصفهان
الأهواز
اصطخر
كرمان
الخليج العربي
خليج عمان
مصيرة
الربع الخالي
بحر العرب
المحيط الهندي


الأمويين
القرن التاسع والعاشر
الأغالبة
مجاهد العامري
خليج بسكاي
المحيط الأطلسي
(بحر الظلمات)
كورسيكا
جزر البليار
نهر الدانوب (الطونة)
مالطة
كريت
رودس
البحر المتوسط
طرابلس
لبدة
برقة
الإسكندرية
الفسطاط
الفيوم
قابس
ودان
زويلة
الطوارق
الصحراء الكبرى
انتشار الإسلام في القارة الإفريقية
أيام المرابطين [٤٤٠-٥٤٢هـ]
الموحدين [٥٤١-٦٦٨هـ]
دنقلة
السودان
تشاد
(الهوسا)
حوض النيجر
النيل الأبيض
النيل الأزرق
١٠٠٠ ميل
٨٠٠
٦٠٠
٤٠٠
٢٠٠
٠

بُعِثَت بين القبائل العربيَّة ، كما بدأ التَّعصُّب للعرب يظهر على الألسنة ، وفي نتاج الفكر ، وفي سياسة الدَّولة ، فمن الطَّبيعي أن يحنق الموالي على الأُمويِّين ، ومن الطَّبيعي أيضاً أن يتلمَّسوا فرصاً للإيقاع بها ، فلمَّا نشطت الدَّعوة العبَّاسيَّة ، انضمُّوا إليها لينالوا حقوقهم الَّتي هُضِمَت ، ولقد فطن العبَّاسيُّون حقّاً إلى ما يكمن في نفوس الموالي نحو بني أُميَّة ، فاستعانوا بهم في نشر الدَّعوة العبَّاسيَّة في خراسان ، ولم تلبث الرَّايات السُّود ، رايات العبَّاسيِّين أن باغتت الرَّايات البيض ، رايات بني أُميَّة ، وقضت عليها ، ويُعَدُّ زوال الرَّايات البيض ، تحجيماً للنُّفوذ العربي ، الَّذي تعصَّب له الأُمويُّون ، وانحازوا إليه(٦) .

قامت الدَّولة العبَّاسيَّة سنة ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م(٧) ، وانتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد أيَّام أبي جعفر المنصور : [١٣٦ ـ ١٥٨ هـ = ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م] ، الَّذي كان من الحزم وصواب الرَّأي ، وحُسْن السِّياسة ما تجاوز كلَّ وصف(٨) ، « كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم ، وذوي الآراء الصَّائبة منهم ، والتَّدبيرات السَّديدة ، وقوراً شديد الوقار ، حَسَن الْخُلُق في الخلوة .. »(٩) .

وبلغت الدَّولة العبَّاسيَّة ذروة مجدها ، وأوج عظمتها أيَّام هارون الرَّشيد : [١٧٠ ـ ١٩٣ هـ = ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م] ، سيِّد ملوك بني العبَّاس بلا منازع ، بلغ بملكهم ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده من سعة الآفاق ، وهيبة السُّلطان ، وتأمين الحدود والثُّغور ، عرفه الشَّرق من الصِّين ، وعرفه الغرب حتَّى فرنسة ، فترنَّم بسيرته ، وبعظمة دولته ، وبنظامها ، ورفاهيتها ، وعلمها .. من لم يقرأ التَّاريخ ، أو يهتم به .

---

(٦) عوامل النَّصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ، ص ٩٧

(٧) الَّتي توالى خلالها سبعة وثلاثون خليفة ، أوَّلهم أبو العباس السَّفَّاح ، وآخرهم المستعصم بالله ، كما قامت إمارة أُمويَّة في الأندلس ، أسَّسها عبد الرَّحمن الدَّاخل (صقر قريش) .

(٨) مروج الذَّهب : ٢/٢٤٥ـ٢٤٦

(٩) الفخري : ١٤١/١٤٢

وبطلب من الرَّشيد وضع الفقيه الشَّهير ، قاضي القضاة ، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب كتاب (الْخَرَاج) ، أثراً من أجمل الآثار التَّاريخيَّة الاقتصاديَّة للدَّولة الإسلاميَّة منظِّم واردات بيت المال حسب الكتاب والسُّنَّة ، كَي لا يقع حيف على الرَّعيَّة ، أو يثقل الجور كاهلهم .

كما وضع قاضي القضاة بعد أبي يوسف ، محمد بن الحسن الشَّيباني كتاب (السِّير الكبير) ، وهو أول كتاب في العلاقات الدَّوليَّة .

وكانت بغداد[١٠] في عهد الرَّشيد ، قبلة العلم والعلماء من جميع الأمصار الإسلاميَّة ، يرحلون إليها ليتِّموا ما بدؤوا من علوم وفنون ، فهي المعهد العالي للتَّخصُّص .

وفي زمن ابنه عبد الله المأمون : [١٩٨ ـ ٢١٨ هـ = ٨١٣ ـ ٨٣٣ م] ، (الخليفة العَالِم) ، يتمثَّل عصر ازدهار الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، بازدهار بيت الحكمة ، أعظم مكتبات العالم آنذاك ، وبتشجيع العلم والعلماء ورعايتهم .

بدأ عصر الضَّعف يسري في كيان الدَّولة العبَّاسيَّة بعد الواثق (٢٣٢ هـ) ، وبموته انتهى العصر الذَّهبي للدَّولة العبَّاسيَّة ، وصارت ميداناً للدَّسائس ، وغدت في أيدي الأتراك ، يُوَلُّون ، ويعزلون ، ويحبسون ، ويقتلون ، ومن هنا بدأ العامل الرَّئيس في اضمحلال الدَّولة العبَّاسيَّة وسقوطها ، فظهرت الدُّول المستقلَّة ، وشبه المستقلَّة ، كالطَّاهريَّة ، والصَّفَّاريَّة ، والسَّامانيَّة ، والغزنويَّة ، والغوريَّة ، والفاطميَّة ، والزَّيديَّة .. مع إعلان الخلافة في الأندلس سنة ٣١٦ هـ .

وركن المستعصم بالله ـ آخر خلفاء العبَّاسيِّين ـ إلى وزيره مؤيد الدِّين العلقمي ، الَّذي أهلك الحرث والنَّسل ، وأرسل التَّتار سِرّاً ، وناصحهم ، وصار إذا جاء خبر منهم كتمه عن الخليفة ، بينما يطالع التَّتار بأخبار الخلافة ، وطلب أن يكون نائبهم ،

(١٠) الَّتي سكنها أيَّام الرَّشيد مليونان من البشر ، تتعالى فيها القصور ، وتجري إليها التِّجارة من أقصى الأرض إلى أقصاها ، ومن شرقي آسية حتَّى أواسط أُوربة وأعالي النِّيل في إفريقية .

فوعدوه بذلك ، وقصدوا بغداد ، فوصلوها سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م ، وقتلوا المستعصم بالله ، لتنقضي بمقتله الخلافة العبَّاسيَّة ، ولم يتم للعلقمي ما أراد ، وذاق من التَّتار الذُّلَّ والهوان ، فمات كمداً وغمّاً .

قامت دويلات أعلنت تبعيَّتها لبغداد ، كانت ومضات رائعة ، في ركب الحضارة ، منها : الدَّولة الغزنويَّة[11] في أفغانستان والبُنجاب ، ودولة المرابطين[12] والموحِّدين[13] في المغرب الأقصى والأندلس ، والدَّولة النُّوريَّة[14] والصَّلاحيَّة[15] في مصر وبلاد الشَّام .

كما بلغت الأندلس أيَّام عبد الرَّحمن النَّاصر : [٢٧٧ ـ ٣٥٠ هـ = ٨٩٠ ـ ٩٦١ م] أوج نهضتها ، حتَّى غدت قرطبة جوهرة العالم ، يؤمُّها طلاَّب العلم الأُوربيُّون لينهلوا من معين جامعاتها ومعاهدها العالية .

وشهد الشَّرق الأوسط في مطلع القرن السَّادس عشر للميلاد صراعاً أدَّى إلى تغيير في حدوده الجغرافيَّة ، وكان هذا الصِّراع بين ثلاث قوى ، حين التقت مناطق نفوذ العثمانيِّين والمماليك ، بمنطقة نفوذ الصَّفويِّين الفُرس[16] ، ومال ميزان القوى لصالح العثمانيِّين بعد انتصارهم على الصَّفويِّين في شالديران (آب ١٥١٤ م) ، وبدأ الاحتكاك بينهم وبين المماليك بسبب اعتداء المماليك على قوافل المؤن العثمانيَّة ، وفي ٢٣ آب ١٥١٦ التقى سلطان المماليك قانصوه الغوري بالعثمانيِّين الَّذين كانوا بقيادة سليم الأوَّل ، وذلك شمالي حلب في مرج دابق ، فتغلَّب العثمانيُّون على المماليك ، ودخلوا حلب ودمشق والقاهرة بعدها .

(١١) الدَّولة الغزنويَّة : [٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ ـ ١١٣٦ م] .

(١٢) المرابطون : [٤٣٠ ـ ٥٤١ هـ = ١٠٣٨ ـ ١١٤٧ م] .

(١٣) الموحِّدون : [٥٤١ ـ ٦٦٨ هـ = ١١٤٧ ـ ١٢٦٢ م] .

(١٤) نور الدِّين محمود بن زنكي : [٥٤١ ـ ٥٦٩ هـ = ١١٤٦ ـ ١١٧٣ م] .

(١٥) صلاح الدِّين الأيوبي : [٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ = ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م] .

(١٦) عوامل النَّصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ، ص ١٢٦

لماذا انتصر العثمانيّون في شالديران ، وانهزم الصَّفويُّون ؟

ولماذا انتصر العثمانيُّون في مرج دابق ، وانهزم المماليك ؟

لقد انتصر العثمانيُّون بسبب تسلحهم الحديث ، وصناعتهم لمدافعهم وبنادقهم النَّاريَّة ، مع حسن استخدامها ، وانهزم الصَّفويُّون والمماليك بسبب جمودهم ، وإهمالهم الأسلحة النَّاريَّة الحديثة ، واعتمادهم على الأسلحة القديمة الَّتي تجاوزها الزّمن .

وبالفعل ظهر في بلاط عبَّاس الكبير الصَّفوي : [١٥٨٨ ـ ١٦٢٩ م] مغامران إنكليزيَّان ، وهما السِّير أنطوني وَالسِّير روبرت شيرلي ، اللَّذان مكَّناه آخر الأمر ، وبمساعدة صانع مختص بصناعة المدافع كان يصحبهما ، من أن يسلِّح الجيش الصَّفوي بسلاح المدفعيَّة ، هذا السِّلاح الَّذي كان يعوز الصَّفويِّين من قبل ، واستغلّ الصَّفويُّون الفرص فيما بعد ، فعندما انهمكت الإمبراطوريَّة العثمانيَّة في حروبها مع الإمبراطوريَّة النَّمساويَّة المقدَّسة ، أعلن عبَّاس الكبير الصَّفوي الحرب على العثمانيِّين عام ١٦٠٢ م ، وتمكَّن بجيشه الجديد من استرداد تبريز ، والوصول إلى بغداد .

أمَّا المماليك ، فقد اعتمد جيشهم كليّاً على الفروسيَّة التَّقليديَّة من سيف ورمح ، ومالوا أيضاً إلى الرَّاحة والتَّرف ، حتَّى إنَّ غالبيَّة الميادين الَّتي بنيت للتَّدريبات العسكريَّة الحربيَّة تهدَّمت ، ولم تُبْنَ ميادينُ جديدة ، ولما حاولوا إدخال الأسلحة الحديثة في جيشهم ، جاء ذلك متأخِّراً ، بسبب تدهور الأحوال الاقتصاديَّة ، الَّتي سببها تحوُّل طرق التِّجارة العالميَّة من شواطئ بلاد الشَّام ومصر ، إلى رأس الرَّجاء الصَّالح .

وهذا الجمود الَّذي سبَّب انهزام المماليك في مرج دابق ، وقعت فيه الدَّولة العثمانيَّة في سنيِّها الأخيرة ، فأضرَّ ذلك بالإسلام والمسلمين ، لقد أصبحت القاعدة في أواخر الدَّولة العثمانيَّة : إبقاء القديم على قِدَمِه ، كرهوا التَّغيير ، فسبقهم الزَّمن ، وتقدَّمت العلوم وازدهرت الصِّناعات ، وهيهات أن يقف الجمود والمحنَّطون في وجه مطامع

الأُوربيِّين المستعمرين ، الَّذين امتلكوا مع مطامعهم وحقدهم ودسـائسهم وسـائل الحرب الحديثة ، والصِّناعة المتقدِّمة ، فسقطت الدَّولة العثمانيَّة أمام ضربات الطَّامعين بأراضيها من قياصرة الرُّوس ، وأباطرة أُوربة ، الَّذين يهمهم ثروة الشَّرق ، ومركزه الاستراتيجي الهام .

☆ ☆ ☆



المظهَرُ السِّياسي

مَصَادِرُ التَّشريع

* ﴿ إنَّ هذا القُرآنَ يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ المؤمنينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أنَّ لَهُمْ أجْراً كَبِيراً ﴾ .

[الإسراء : ٩/١٧]

إنَّ النُّظم التَّشريعيَّة في الإسلام رُسِمَت حدودها ، ووُضِّحت معالمها في القرآن الكريم ، وسُنَّة رسول الله ﷺ ، وأنبأ ﷺ عن المصدَرَيْن الرَّئيسيَّيْنِ اللَّذَيْن ينظِّمان حياة الأُمَّة في شؤونها التَّشريعيَّة كافَّة ، عندما قال : « إنِّي تركتُ فيكم أمرين إن تمسَّكتم بهما فلن تضلُّوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسُنَّتي » .

ومصادر التَّشريع أربعة أساسيَّة هي : القرآن الكريم ، والسُّنَّة الشَّريفة ، والإجماع أو الاجتهاد ، والقياس .

ومصادر ثانويَّة تابعة ، تلحق بالأُصول الأربعة الأساسيَّة ، منها : الاستحسان ، والمصالح المرسلة .

المصادر الأساسيَّة :

القرآن الكريم : تعدَّدت مواقف اللُّغويِّين من اشتقاق اسم (القرآن الكريم) ، فالشَّافعي يرى أن القرآن اسم علم غير مشتق ، خاص بكلام الله تعالى ، ويرى الفرَّاء أنَّه مشتق من القرائن ، لأنَّ الآيات فيه يصدِّق بعضها بعضاً ، ويشابه بعضها بعضاً ،

وهي قرائن ، وقال قُطْرُب[1] : إنَّما سُمِّي قرآناً لأنَّ القارئ يظهره ويبينه من فيه ، والقرآن يلفظه القارئ من فيه ، ويلقيه فيسمِّيه قرآناً ، ويرى ابن عَطيَّة أنَّ القرآن مصدر من قولك قرأ الرَّجل يقرأ قرآناً وقراءة ، ومن كلِّ هذه الآراء يختار السُّيوطي رأي الشَّافعي ، فيقول : « والمختار عندي في هذه المسألة ما نصَّ عليه الشافعي »[2] .

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلبَابِ ﴾ ، [ص : ٢٩/٣٨] .

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإذْنِ رَبِّهِمْ إلى صِرَاطِ العَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ ، [إبراهيم : ١/١٤] .

إنه كلام الله عزَّ وجلَّ ، نزل به الرُّوح الأمين على قلب رسول الله محمَّد بن عبد الله ﷺ ، ليكون حجَّة له على أنَّه رسول الله : ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ من رَّبِّهِ قُلْ إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وَإنَّمَا أنا نَذيرٌ مُبينٌ ، أَوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلنا عَلَيكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم إنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَومٍ يؤمِنُونَ ﴾ ، [العنكبوت : ٥٠/٢٩ و٥١] ، ودستور هدى للنَّاس يهتدون بهداه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ، [المائدة : ١٥/٥ و١٦] .

وهو كتاب معجز : ﴿ وَإنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ

---

(١) قُطْرُب محمَّد بن المستنير (ت : ٢٠٦ هـ = ٨٢١ م) ، نحوي عالم بالأدب واللُّغة ، من أهل البصرة ، وقطرب لقب دعاه به أستاذه سيبويه فلزمه ، [الأعلام ٩٥/٧] .

(٢) المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ، د . محمد صالح البُنداق ، دار الآفاق الجديدة ، وانظر :
تاريخ التَّشريع الإسلامي ، الشَّيخ محمَّد الخضري .
المدخل لدراسة التَّشريع الإسلامي ، د . عبد الرَّحمن الصَّابوني .
مصادر التَّشريع الإسلامي فيما لا نصَّ فيه ، عبد الوهاب خلَّاف .



*أطلال سوق عكاظ

أحد أسواق العرب في الجاهليَّة ، حيث كانت القبائل تجتمع في ذي القعدة من كلّ عام . وفيه كان الشعراء يتناشدون الجديد من أشعارهم ، فالعرب سادة البلاغة تهزهم القصيدة العصماء ، ترفع منهم أقواماً ذلُّوا ، أو تذل أقواماً عزُّوا ، تحدّاهم القرآن الكريم وهم « الخطباء اللُّد ، والفصحاء اللُّسن » أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا .

يقول الرافعي : « فمن ثمَّ لم يقم للعرب قائمة بعد أن أعجزهم القرآن من جهة الفصاحة الَّتي هي أكبر همهم ، ومن جهة الكلام الذي هو سيد عملهم » .

مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكافِرِينَ ﴾ ، [البقرة : ٢/٢٣و٢٤] ، وهذا التَّحدِّي للعرب خصوصاً ، فهم سادة البلاغة ، تهزُّهم القصيدة العصماء ، فترفع منهم قوماً ذَلُّوا ، أو تذلُّ قوماً عَزُّوا ، فهو معجزة خالدة تتحدَّى الزَّمان والمكان ، ولمَّا طالب العربُ محمَّداً بمعجزة ، إذا هو بشجاعة باهرة ، وثقة مطلقة يدعوهم إلى ظاهرة القرآن الكريم ذاته ، فهم أئمة اللُّغة والأدب ، فعليهم إن هم زعموا أن القرآن من عنده ، لا من عند الله ، أن يأتوا بقول مثله ، فإن هم عجزوا ، والثَّابت تاريخيّاً أنَّهم عجزوا ، فليقبلُوا القرآن معجزة سافرة العيان : ﴿ أَوَلَم يَكْفِهِم أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم ... ﴾ ؟

وليس لهذا الكتاب المجيد ، « الإلهي مصدراً ، والبشري هدفاً » ، من غاية إلاَّ سعادة البشريَّة ورفاهيَّتها ، عندما قدَّم للإنسان فكرة امتزاج الجسد والرُّوح ، أو امتزاج الأرض والسَّماء ، أو امتزاج الدُّنيا بالآخرة : ﴿ وَٱبْتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الفَسَادَ في الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ، [القصص : ٢٨/٧٧] .

والقرآن الكريم ، المصدر الأساسي الأوَّل في التَّشريع .

وقام التَّشريع الإسلامي في القرآن الكريم على أُسس ثلاثة :

- عدم الْحَرَج : ﴿ مَا جَعَلَ عَلَيْكُم فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ ، [الحج : ٢٢/٧٣] .

- وعدم إثقال كواهل المسلمين بالأوامر والنَّواهي : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴾ ، [البقرة : ٢/٢٨٦] .

- تمجيد العقل بمخاطبته ، والدَّعوة إلى التَّفكير السَّليم :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا في الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أو آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ،

فإنَّها لا تَعْمَى الأبْصَارُ وَلكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتي في الصُّدُورِ ﴾ ، [الحج : ٤٦/٢٢] .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا في أنفُسِهِم مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ، أَوَلَمْ يَسِيرُوا في الأرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِم كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُم قُوَّةً وَأَثَارُوا الأرْضَ وَعَمَرُوها أكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوها وَجَاءَتْهُم رُسُلُهُم بالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم وَلَكِنْ كَانُوا أنفُسَهُم يَظْلِمُونَ ﴾ ، [الرُّوم : ٨/٣٠و٩] .

السُّنَّةُ الشَّريفَةُ : يراد بالسُّنَّة في اصطلاح الشَّرع : قول رسول الله ﷺ ، وفعله ، وتقريره .

لقد أشاد القرآن الكريم ذاته بطاعة المسلمين لرسول الله ﷺ ، والتزام سُنَّته ، فانتهى العلماء المحقِّقون إلى أنَّ الحديث الصَّحيح حُجَّة على جميع الأُمَّة ، قال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ ، [الحشر : ٧/٥٩] ، ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لاَ يؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لا يَجِدُوا في أنْفُسِهِم حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ ، [النِّساء : ٧٥/٤] ، **وهكذا خصَّ اللهُ سبحانه نبيَّه بشيءٍ يطاع فيه** ولا يُعْصى ، وهو سُنَّته الَّتي جاءَ بها .

فالسُّنَّة تفصيل لما أجمله القرآن الكريم ، وتقييد لما أطلقه ، وتخصيص ما ورد فيه من ألفاظ العموم ، وتبيان المراد منه في جميع الأحوال ، وتثبيت السُّنَّة أحكاماً لا يَعْرِض لها القرآن الكريم بنفي ولا إثبات ، وما تثبته السُّنَّة حينئذٍ من الأحكام لا بُدَّ أنَّ أصله في كتاب الله ، فلا عجب إذا كانت السُّنَّة هي المصدر الثَّاني للتَّشريع بعد القرآن الكريم .

الإجماع « أو الاجتهاد » : وهو اتِّفاق جميع المجتهدين في عصر من العصور ، بعد وفاة رسول الله ﷺ على حكم شرعي ، وقد كان ذلك ميسوراً في عهد كبار الصَّحابة ،

لأنَّ ذوي الرَّأي منهم كانوا موجودين في بلد واحد هو المدينة المنوَّرة ، ولكنَّه بعد عصر الخلفاء الرَّاشدين ، وتفرُّق العلماء في الأمصار ، أصبح بعيد الوقوع ، وقد ذهب جمهور أهل السُّنَّة والجماعة ، إلى أنَّ الإجماع حُجَّة قطعيَّة ، لما ورد في الحديث الشَّريف : « لا تجتمع أُمَّتي على ضلالة »(٣) ، وقوله ﷺ : « ما رآه المسلمون حَسَناً فهو عند الله حسن »(٤) .

ويبدو أنَّ فكرة الإجماع مستمدَّة من نظام الشُّورى ، الَّذي فرضه الإسلام على أُولي الأمر أن يتشاوروا فيا بينهم : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ ، [الشُّورى : ٣٨/٤٢] ، ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ ، [آل عمران : ١٥٩/٣] .

ومثال الإجماع : إجماع الصَّحابة على إعطاء الجدَّة في الميراث السُّدس ، إذا لم يكن للميِّت أُمٌّ ، إذ إنَّها بمنزلة الأُمِّ ، وقد بُنِيَ هذا الإجماع على نصٍّ من السُّنَّة ظَنِّي الثُّبوت ، فقد جاءت جدَّة إلى أبي بكرٍ رضي الله عنه تطلب ميراثها ، فقال : مالكِ في كتاب الله عزَّ وجلَّ شيء ، وما أعلم لك في سُنَّة رسول الله شيئاً ، ولكن ارجعي حتَّى أسأل النَّاس ، فقال المغيرة بن شعبة : حضرت رسول الله ﷺ أعطاها السُّدس ، فقال : هل معك غيرك ؟ فشهد له محمد بن مسلمة ، فأمضاه لها أبو بكر .

وعلى هذا فالإجماع (**أو الاجتهاد**) يرمي إلى أمرين : **فهم النُّصوص الثَّابتة الَّتي وردت في القرآن الكريم والسُّنَّة الشَّريفة ، واستنباط الأحكام منها ، وإيجاد الأحكام للوقائع الجديدة الَّتي لم يرد نصٌّ بعينه بشأنها ، والَّتي تنشأ مع الزَّمن .**

والاجتهاد هو الوسيلة الأُولى في تاريخ التَّشريع الإسلامي لأجل إظهار حيويَّته ، ولقد ظلَّ الفقه الإسلامي مزدهراً ما بقي باب الاجتهاد مفتوحاً .

---

(٣) الدَّارمي ؛ (المقدِّمة ٣٥/٨) .

(٤) الإمام أحمد : ٣٧٩/١

القيـاس :

القيـاس في اللُّغـة : التَّسويـة ، يقـال : فلان لا يقـاس بفلان ، أي لا يُسَوَّى بـه ، والقياس اصطلاحاً : تسوية واقعـة لم يرد نصٌّ بحكمها بواقعـة ورد نصٌّ بحكمها في الحكم الَّذي ورد به النَّص ، لتساوي الواقعتَيْن في علَّة هذا الحكم .

فلو وردت حادثة لم يرد في حكمها نصٌّ خاصٌّ من كتابٍ أو سُنَّةٍ أو إجمـاع ، وكان لها نظير ورد في حكمه نصٌّ ، وتبيَّن أنَّ عِلَّة حكم هذا النَّظير متحقِّقة في تلك الحـادثـة ، أُلحقت به ، وأُعطيت الْحُكْم نفسهٍ .

ومثـال القيـاس : ابتيـاع الإنسـان على ابتيـاع أخيـه منهيٌّ عنـه بنص الحـديث الشَّريف : « لا يحـلُّ لإنسـان أن يخطب على خطبـة أخيـه ، ولا أن يبتـاع على بيـع أخيه » ، وقيس عليه استئجار الإنسان على استئجار أخيـه ، لتسـاويهما في أنَّ كلاًّ منهما فيه اعتداء إنسان على غيره .

وكقتل الوارث مورِّثه مانع من الإرث بالحـديث الشَّريف : « لا يرث القـاتل » ، وقيس به قتل الموصى للموصي ، وقتل الموقوف عليه للواقف ، لتساويهما في أنَّ القتل فيه مظنَّة استعجال الشَّيء قبل أوانه ، والانتفاع بالإجرام .

ونبَّـه الإمـام الغـزالي إلى وجـوب الاجتهـاد في القيـاس لتخريـج منـاط الحكم واستنباطه ، لأنَّ القياس عمل عقلي يثبت به المجتهـد الحكم للواقعـة الَّتي لم يرد دليل على حكمها بعد مساواة الفرع لأصله في عِلَّة الْحُكْم .

واستُـدِلَّ على حُجِّيَّـة القيـاس بقولـه تعـالى : ﴿ يَـا أَيُّهـا الَّـذِينَ آمَنُوا أَطِيعُـوا اللهَ وأَطِيعُـوا الرَّسُـولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُم فَـإِنْ تَنَـازَعْتُم فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُـولِ إِنْ كُنْتُم تؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ ، [النِّسـاء : ٤/٥٩] ، وهـذا الرَّدُّ هو القياس ، لأنَّه ردُّ ما لا حكم فيه على نصٍّ فيه حكم للتَّسـاوي بين الواقعتَيْن بعلَّـة واحدة .

كما استدلّ على القياس بالسُّنَّة النَّبويَّة ، إذ ورد أنَّ امرأة أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إنَّ أبي أدركه الحجُّ ولم يحج لأنَّه شيخ هرم ، أفأحج عنه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أرأيتِ لو كان على أبوكِ دَيْنٌ فقضيته ، أكان ينفعه ذلك ؟ قالت : نعم يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : فَدَيْن الله أحقُّ بالقضاء » .

☆ ☆ ☆

ومن المصَادِرِ الثَّانويَّة :

الاستحسان : لغةً : هو عدُّ الشَّيء حسناً ، واصطلاحاً : هو العدول بحكم المسألة عن نظائرها إلى حكم آخر لدليل شرعي ، فالاستحسان هو العدول عن قياس إلى قياس أقوى منه ، أو هو العمل بأقوى الدَّليلَيْن ، أو ترجيح دليل على دليل يعارضه بمرجِّح معتبر شرعاً .

مثال : الأجير المشترك ، إذا هلك المال في يده ، مقتضى القياس أنَّه لا يضمن ، ولكن عدل عن هذا ، وحكم بضمانه للمصلحة ، وهي المحافظة على أموال النَّاس وتأمينهم ، فالأمين لا يضمن ما يهلك في يده من غير قصد أو تقصير ، ويستثنى من هذا استحساناً ليطمئن النَّاس على ما يكون عند الأجير ، إلاَّ إذا كان هلاكه بقوَّة قاهرة ، فالخيَّاط أو الكوَّاء أو الصَّبَّاغ .. يضمن ما يهلك بيده ، لضمان المصلحة العامَّة ، وللحفاظ على أموال النَّاس .

المصالح المُرْسَلَة « الاستصلاح » : وهو الحكم في مسألة لا حكم فيها لمصلحة يهتدي إليها المجتهد برأيه ، أو استنباط حكم في واقعة لا نصَّ فيها ولا إجماع بناء على مصلحة لا دليل من المشرِّع على إقرارها ولا على إلغائها ، ويشترط في الاستصلاح أن يكون أخذاً بمصلحة حقيقيَّة عامَّة ، وألاَّ يتعارض مع حكم ثابت بنصٍّ أو إجماع .

مثال : اشتراط وثيقة الزَّواج لسماع الدَّعوى به .

إنَّ مصادر التَّشريع الإسلامي ليس فيها مصادمة لمصالح النَّاس ، لأنَّ فيها مرونة وخصوبة تكفل المصلحة العامَّة للفرد والمجتمع ، وتلائم البيئات المختلفة . ومهما تتباين آراء الفقهاء في الاجتهاد ، فإنَّهم جميعاً مدعوُّون إلى إعمال العقل ، والأخذ بمصلحة الأُمَّة ، وأثبت الفقهاء المجتهدون أنَّ شرع الله يوافق مطالب الحياة ، لأنَّه امتاز بعنايته بمصالح كلٍّ من الفرد والجماعة ، وبرزت في جميع تشريعاته نزعته الجماعيَّة الواضحة .

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه لشريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي لما ولاّه قضاء الكوفة : « انظر ما يتبيَّن لك في كتاب الله فلا تسأل عنه أحداً ، وما لم يتبيَّن لك فاتَّبع به سنَّة رسول الله ﷺ ، وما لم يتبيَّن لك في السُّنَّة فاجتهد به برأيك » .

☆ ☆ ☆

لقد حقَّق الإسلام بما احتوته المبادئ الَّتي حدَّدتها مصادره ، تغييرات جذريَّة في المجتمع العربي ، وأوجد مفهومات جديدة كان من شأنها قلب العالم القديم رأساً على عقب .

فالتَّوحيد المطلق لله عزَّ وجلَّ جوهر العقيدة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ ، [النِّساء : ٤/٤٨] .

ونظام الحكم الَّذي أخذ به رسول الله ﷺ والرَّاشدون ، كان من المفهومات الجديدة الَّتي طبعت حكم الإسلام بالشُّورى ، مع البساطة والعدالة .. فهزَّت المجتمعات المجاورة هزَّة نفسيَّة عميقة .

وعرف العالم نظاماً اجتماعيّاً جديداً ، هو نظام التَّكافل الاجتماعي ، فللمحتاج حدُّ الكفاية من مسكن وملبس ومأكل .

وخاطب العقل ، فلا أسرار ولا خرافات ، وأطلقه من عقاله ، وجعله على طريق البحث العلمي والإبداع : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ ، [الأنبياء : ٢٤/٢١] ، ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يؤمِنُونَ ﴾ ، [يونس : ١٠١/١٠] ..

لقد صحب الفتوح نشاطٌ فكريٌّ لا عهد للشَّرق بمثله من قبل ، حتَّى لقد لاح أنَّ النَّاس جميعهم ابتداءً من الخليفة إلى أيِّ رجل في الشَّارع ، قد أصبحوا طلاَّباً للعلم ، أو على الأقلِّ من مناصريه ، وكان النَّاس طلباً للعلم يسافرون عبر قارات ثلاث ، ثمَّ يعودون إلى ديارهم وكأنَّهم نحل تشبَّع بالعسل ، ليفضوا بما جمعوا من محصول علمي ثمين إلى حشود من التَّلاميذ المتشوِّقين للعلم ، وليؤلِّفوا بهمَّة عظيمة ، تلك الأعمال الَّتي اتَّصفت بالدِّقَّة ، وسعة الأُفُق ، والَّتي استمدَّ منها العلم الحديث ـ بكلِّ ما تحمل هذه العبارة من معان ـ مقوِّماته بصورة أكثر فعاليَّة ممَّا نفترض[٥] .

« أمَّا الفكر الشَّرعي المتمثِّل في الفقه بمعناه الواسع سواء كان متعلِّقاً بالسِّياسة ، أو بالمعاملات الاجتماعيَّة ، أو بالعبادات ، فإنَّ الواقعيَّة تعتبر خاصِّيَّة من أهمِّ خصائصه وأبرزها ، عليها نشأ ، وعليها تطوَّر في عهوده الذَّهبيَّة الأُولى »[٦] .

والشَّريعة الإسلاميَّة مرنة ، ودليل ذلك تعدُّد أدلَّة أحكامها ، وباب الاجتهاد فيها مفتوح إلى أن تقوم السَّاعة ، ويرث الله الأرض ومن عليها ، ومضي خمسة عشر قرناً على نزولها على قلب المصطفى ﷺ إنَّما هو أمر يحسب في صالحها ، ذلك أن عطاءها لا يزال متَّصلاً . ومعروف أنَّها جاءت أحكامها وقواعدها ثابتة فيما يخصُّ المعتقدات والأُصول ، ومن ذلك الإيمان بالله وكتبه ورسله ، وأمَّا فيما يخصُّ الفروع واستنباط الأحكام الخاصَّة بما يَجِدُّ في المجتمعات من أُمور ومستحدثات فموكول أمرها إلى قاعدة

(٥) Nicholson: A Literory History of Arabs P. 281

(٦) مجلَّة كلِّيَّة الدَّعوة الإسلاميَّة ، العدد الثَّاني ١٩٨٥ ، مقال : دور الفكر الواقعي في النَّهضة الإسلاميَّة ، د . عبد المجيد النَّجَّار .

أو أصل إسلامي عظيم ، هو الاجتهاد ، ومعروف أن الاجتهاد من خصائص الإسلام ، إذ لم يعرف من قبله في الأديان ، أو الشَّرائع السَّابقة ، وبالاجتهاد تتأكَّد صلاحيَّة الإسلام لكلِّ زمان ومكان .

ومن أهداف الشَّريعة الإسلاميَّة توسيع الشُّعور بالرِّباط الإنساني ، مع يقظة الضَّمير : ﴿ يَاأَيُّها النَّاسُ إنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] ، ومع ربط المسلم بمثل أعلى ، وجعل عمله مرتبطاً بالجزاء والثَّواب : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤوفٌ بالعِبَادِ ﴾ ، [آل عمران : ٣٠/٣] ، ﴿ إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إنَّا لا نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً ﴾ ، [الكهف : ٣٠/١٨] ، ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ ، [النحل : ١١١/١٦] ، ﴿ وَأن لَيْسَ للإنسانِ إلاَّ مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأوْفَى ﴾ ، [النَّجم : ٣٩/٥٣ ، ٤٠ ، ٤١] ، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أشْتَاتاً لِيُرَوْا أعْمَالَهُم ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ ، [الزَّلزلة : ٦/٩٩ و٧ و٨]

فالمسلم المؤمن مطمئن بالله ، فهو في كلِّ حالاته وساعاته في عبادة ، لقد أيقظ الإيمان عنده الوجدان ، فارتاحت نفسه وسعدت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ القُلُوبُ ﴾ ، [الرَّعد : ٢٨/١٣] ، ولهذا .. فالعقيدة الإسلاميَّة تحقِّق بُعْداً نفسيّاً وروحيّاً ، يملأ القلب راحة وسعادة ، وتقيم مجتمعاً على أساس التَّعارف والتَّراحم ، والتَّكافل والتَّضامن ، إنَّه مجتمع الطُّمأنينة ، المؤمن بالله ، والمتعاون فيما بينه بأمر الله .

☆ ☆ ☆

نظام الحكم

الخلافة

* « من كانت فيه أربع خصال ساد قومه غير مدافع : من كان له دِينٌ يحجزه ، وحسب يصونه ، وعقل يرشده ، وحياء يمنعه » .

[الأحنف بن قيس]

نظام الحكم في شبه جزيرة العرب قبيل الإسلام :

عرف العرب الملكيَّة في اليمن ، وفي مملكة كِنْدَة ، ولكن النِّظام القَبَلي كان أحد الأنظمة الاجتماعيَّة الَّتي لازمت حياة البداوة ، وكان زعيم هذا النِّظام (شيخ القبيلة) ، الَّذي يُخْتَار ضمن شروط ، منها : عَرَاقة الأصل ، والنُّضج ، والكرم ، والشَّجاعة ، والحِلْم ، وكان لشيخ القبيلة مجلس استشاري من عقلاء القبيلة ، وليست دار النَّدوة في مكَّة المكرَّمة ، إلاَّ شكلاً من أشكال المجالس الاستشاريَّة .

حكومة الرَّسول ﷺ :

لقد كانت حكومة رسول الله ﷺ حكومة دينيَّة ، اعتمدت على عقيدة الرَّعيَّة ، وقامت على أساس إحلال الوحدة الدِّينيَّة بدل العصبيَّة القَبَليَّة ، وأخذت صورة الجهاز الحكومي بالظُّهور ، فالسُّلطة التَّنفيذيَّة بدت في قيادته ﷺ للغزوات ، وبعثه السَّرايا ، وتوزيع الغنائم ، وتولية الأُمراء .. وكان ﷺ يجلس في مسجد المدينة المنوَّرة ، ويُقْبِلُ عليه النَّاس يسألونه عن قضاياهم ، وكثيراً ما كان ﷺ يستشير أصحابه ، وخصوصاً أبا بكر الصِّدِّيق ، حتَّى عدَّ بعضهم أبا بكر وزير رسول الله ﷺ .

كا وجدت السُّلطة القضائيَّة ، فكان ﷺ يحكم بين المتخاصمين ، وكان حكمه ملزماً .

أمَّا السُّلطة التَّشريعيَّة ، فقد كانت آيات كتاب الله ، وأحاديث رسول الله ﷺ تسنُّ للنَّاس قواعد السُّلوك في حياتهم الاجتماعيَّة .

سِمَاتُ حكومة الرَّسُول ﷺ :

المساواة : النَّاس متساوون تجاه القانون ، وفي المثول أمام القضاء ، لا فرق بينهم : « النَّاس سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على أعجمي إلاَّ بالتَّقوى » ، وكانت هذه المساواة عامَّة في كلِّ شيء ، سرقت امرأة فأراد ﷺ قطع يدها[1] ، ففزع قومها إلى أُسامة بن زيد بن حارثة يستشفعون به ، فلمَّا كَلَّمه أُسامة ، تلوَّن وجهه ﷺ ، وقال : « أتكلِّمني في حدٍّ من حدود الله تعالى ؟ » ، فقال أُسامة : استغفر لي يا رسول الله ، ثمَّ قام ﷺ خطيباً ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثمَّ قال : « أمَّا بعد ، فإنَّ ما أهلك النَّاس قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضَّعيف أقاموا عليه الحدَّ ، والَّذي نفس محمَّد بيده ، لو أنَّ فاطمة بنت محمَّد سرقت لقطعت يدها »[2] .

أمَّا المساواة في القضاء ، فلم يكن لرسول الله ﷺ في المدينة المنوَّرة سوى قضاء واحد ، يجلس أمامه النَّاس كلُّهم لا فرق بينهم .

مع مساواة في المناصب ، قال ﷺ : « مَن وَلِيَ من أمر المسلمين شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباةً ، فعليه لعنةُ الله ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً حتَّى يدخله

---

(١) يعيب بعضهم على الإسلام قطع اليد ، ورجم الزَّاني المحصن ، ويقولون إنَّها عقوبة موسومة بالوحشيَّة والقسوة ، لن نناقش القول هنا ، فقد فصَّلناه في كتابنا : « آراء يهدمها الإسلام » ، انظر الطَّبعة الثَّالثة ، ص ٥٣

(٢) السِّيرة الحلبيَّة : ١٢٠/٣ ، البداية والنِّهاية : ٣١٨/٤

جهنَّم .. »[٣] ، ومثل هذا يقال في الضَّرائب ، فإنَّها تجبى من النَّاس على قدم المساواة ، فمن كَثُر ماله كَثُرت زكاته ، ومن قَلَّ ماله قَلَّت صدقاته .

وهكذا هدم رسول الله ﷺ - وصحابته الَّذين عاشوا الإسلام ، وفهموا أهدافه - نظام الطَّبقات ، وأقاموا المساواة بين النَّاس ، المساواة في الأُصول ، أو المساواة رغم الأُصول ، ولم يضق العربي بغير العربي ، فنبغ فيهم الكثير من الأعاجم ، ولم يضق بغير المسلم ، ولا بأسود ، ولا بأصفر ، ولا بأحمر .. مع تحقيق كامل إنسانيَّة المرأة ، والمساواة في فرص العيش ، والتَّعليم .

الأُخوَّة : ﴿ إنَّما المؤمِنُونَ إخْوَةٌ ﴾ ، [الحجرات : ٤٩/١٠] ، وهذه الأُخوَّة جعلت الأُمَّة والدَّولة أُسرة واحدة ، لقد آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، حتَّى تقاسموا البيوت والأموال ، وخصَّ الفقراء بالْحَظِّ الأوفر من موارد الدَّولة .

الْحُرِّيَّة : كانت العرب قبل الإسلام يسترقُّ بعضها بعضاً ، خطفاً أو مَيْسِراً أو دَيْناً أو غزواً ، فمنع ﷺ كلَّ هذا ، فما عاد يجوز لمسلم أن يسترقَّ مسلماً ، ولا لعربيٍّ أن يسترقَّ عربيّاً ، وسار بخطوات مدروسة إلى إلغاء الرَّقيق ، وذلك بتضييق المدخل ، وتوسيع المخرج .

ضَيَّق المدخل وسدَّ الموارد والمنابع ، ولم يُبْقِ منها إلاَّ مدخلاً واحداً ، وقد ضيَّقه حتَّى لم يعد ينفذ منه إلى الرِّقِّ إلاَّ القليل النَّادر ، وذلك المدخل هو الجهاد في سبيل الله ، لردِّ اعتداء يقوم به غير المسلمين ، فلا استرقاق إلاَّ في حرب شرعيَّة ، معاملة بالمثل ، أو المنُّ عليهم ، تنفيذاً لقول رسول الله ﷺ : « عودوا المريض ، وأطعموا الجائع ، وفكُّوا العاني »[٤] .

---

(٣) كنز العمَّال : ٣٨/٦ ، الإمام أحمد ، والحاكم عن أبي بكر ، وفي كنز العمَّال أيضاً ٣٨/٦ : « من ولي عملاً وهو يعلم أنَّه ليس لذلك أهل ، فليتبوَّأ مقعده من النَّار » .

(٤) رواه البخاري .

ووسَّع المخرج ، وفسح ووسَّع المصارف ، لأنَّ الإسلام عدَّ الرِّق عارضاً ، وعمل على إزالته ، ففتح الأبواب ليعيد الحرِّيَّة إلى الرَّقيق ، وهذه الأبواب هي : العتق ، الكفَّارات ، المكاتبة ، التَّدبير[٥] .. وقال ﷺ عن الأرقَّاء : « هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه ممَّا يأكل ، ويَكْسُهُ ممَّا يكتسي ، ولا يكلِّفه ممَّا يغلبه ، فإن كلَّفه ما يغلبه فَلْيُعِنْهُ »[٦] .

والمواطن غير المسلم ، يتمتَّع بكامل حرِّيَّته ، فما عُرف عنه ﷺ أنَّه أمر بقتل أحدٍ من أهل الكتاب لأنَّه لم يُسْلِم ، أو أنَّه منعه من التَّعبُّد على طريقته ، ولم يهدم ﷺ كنيسة أو بيعة : ﴿ لاَ يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُم في الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُم وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِم إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ، [الممتحنة : ٦٠/٨] .

وكان ﷺ يحضر ولائم غير المسلمين ، ويشيِّع جنازاتهم ، ويعود مرضاهم ، ولمَّا جاء وفد نجران المسيحي فرش لهم عباءته وأجلسهم عليها ، وقال : « من آذى ذمِّيّاً فأنا خصمه »[٧] ، « من قتل معاهداً لم يَرَح رائحة الجنَّة »[٨] .

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ ، [البقرة : ٢/٢٥٦] .

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَبِّكُم فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر ﴾ ، [الكهف : ١٨/٢٩] .

---

(٥) التَّدبير ـ على أصحِّ الأقوال ـ مَنْ قال له سيِّده : « أنت دبر حياتي حرٌّ » .

(٦) رواه البخاري .

(٧) رواه أبو داود عن عدد من أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم ، وسنده لا بأس به ، وذكره البيهقي في سننه ، انظر : (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عمَّا اشْتُهِرَ من الأحاديث على ألسنة النَّاس) ، لإسماعيل بن محمَّد العجلوني الجراحي : ٢١٨/٢٤ ، دار إحياء التُّراث العربي ، بيروت ، ط٣ ، سنة ١٣٥٢ هـ .

(٨) رواه البخاري .

التَّنظيمات الإداريَّة :

كان رسول الله ﷺ في المدينة المنوَّرة يمثِّل السُّلطتَيْن المدنيَّة والرُّوحيَّة معاً ، وبعد فتح مكَّة المكرَّمة واتِّساع رقعة الدَّولة ، بدأت تتوضَّح الإدارة الجديدة لجزيرة العرب ، الَّتي خضعت ـ معظم أجزائها ـ لرئاسة واحدة ، فكان يساعده في عمله عدد من الكتَّاب ، منهم من يكتب الوحي ، ومنهم من يكتب في حوائج النَّاس ، وكتب زيد بن ثابت إلى الأُمراء والملوك ، واختصَّ أحد الكُتَّاب بالنِّيابة عن كلِّ كاتب يغيب ، ويحفظ خاتمه[(٩)] .

وكان ﷺ حريصاً على مشورة أصحابه ، ومنهم : أبو بكر الصِّدِّيق ، وعمر بن الخطَّاب ، وعلي بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطَّلب ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ..

كما أرسل الأُمراء والعمَّال إلى البلاد الَّتي أسلمت ، يجبون الزَّكاة لإنفاقها على فقراء البلدة ذاتها ، ويُرْسِل الفائض إلى العاصمة لينفق في المصالح العامَّة ، منهم : أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) على مأرب ، والمهاجر بن أبي أُميَّة على صنعاء ، وزياد بن لبيد على حضرموت ، وعدي بن حاتم على طيء ، والعلاء بن الحضرمي على البحرين ، وكان معاذ بن جبل معلِّماً يتنقَّل بين حضرموت واليمن .

☆ ☆ ☆

نظام الحكم بعد رسول الله ﷺ

﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ ، [الشُّورى : ٤٢/٣٨] .

مبدأ الشُّورى ، ظاهرة سليمة ، تجعل الفرد إيجابيّاً وفعَّالاً ومساهماً بدور بارز في

(٩) الوزراء والكُتَّاب ، الجهشياري : ١٢

إدارة مؤسَّسات الحكم ، كما يجعل المسؤولين في المؤسَّسات الإداريَّة ملتزمين برأي المجتمع ، مع إشراك الأفراد في المسؤوليَّة الإداريَّة الَّتي تتميَّز بقوة الإيمان والتَّقوى والورع ، والسُّلطة في الإسلام لا تستند إلى وضع طبقي تسلُّطي ، بل تستند إلى درجة المعرفة ، والعمل ، والتَّقوى ، والتَّفاني ، والأمانة ، والإخلاص .. الإمارة في الإسلام تسعى للمشاركة ، وتتميَّز بدرجة عالية لتقبُّل النَّقد من أجل المصلحة العامة ، فعندما أراد عمر رضي الله عنه تحديد المهور ، قالت له امرأة من آخر الصُّفوف : ليس لك ذلك يا بن الخطَّاب ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْتُم إحداهُنَّ قِنْطاراً فَلا تَأخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً ﴾ ؛ [النِّساء : ٤/٢٠] ، أتدري ما القنطار ؟! فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وسأل رضي الله عنه يوماً : ماذا تقولون إذا اعوججت ؟ أجابوا : نقوِّمك بحدِّ سيوفنا[١٠] .

والقرآن الكريم ، والسُّنَّة الصَّحيحة لم يعرضا لموضوع الخلافة بمفهومها الحديث ، وليس هذا قصوراً أو نقصاً في التَّشريع الإسلامي ، ولكن شاء الله ورسوله ترك هذا الأمر للأُمَّة الإسلاميَّة في اختيار الحاكم الَّذي يرتضونه ، متَّخذين ما في القرآن الكريم والسُّنَّة الصَّحيحة من قواعد عامَّة وشموليَّة في إقامة النِّظام ، ووكَّل للأُمَّة طريقة الاختيار .

ولم يؤثر عن رسول الله ﷺ نصٌّ صريح في مسألة الحكم من بعده ، لقد ترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من أحبُّوا ، مع إشارات إلى الصِّدِّيق رضي الله عنه ، قال ﷺ عند مرضه : « لِيُصَلِّ أبو بكر بالنَّاس » ، قالوا : لو أمرتَ غيره ؟ - لرأفته وضعف صوته - قال ﷺ : « لا ينبغي لأُمَّتي أن يؤمَّهم إمام وفيهم أبو بكر »[١١] ، وجاءت

(١٠) في الرِّياض النَّضرة في مناقب العشرة ، للمحب الطَّبري ٢/٥٠ : قال يوماً على المنبر : يا معشر المسلمين ، ماذا تقولون لو ملت برأسي إلى الدُّنيا كذا (ومَيَّل رأسه) ، فقام إليه رجل فقال : أجل ، كنَّا نقول بالسَّيف كذا (وأشار إلى القطع) ، فقال : إيَّاي تعني بقولك ؟ قال : نعم إيَّاك أعني بقولي ، فقال عمر : رحمك الله ، الحمد لله الَّذي جعل في رعيَّتي من إذا تعوجت قوَّمني !

(١١) منتخب كنز العمَّال ٤/٣٤٣ ، أُسد الغابة ٣/٣٣٠ ، وفي ابن سعد ٣/١٧٨ : « مروا بلالاً فليؤذِّن ، ومروا أبا بكر فليصلِّ بالنَّاس » .

امرأة لرسول الله ﷺ في شيء فأمرها بأمر ، فقالت : أرأيت يا رسول الله إن لم أجدك ؟ ـ تعني الموت ـ قال ﷺ : « إن لم تجديني ، فأتي أبا بكر »[١٢] ، فبايع النّاس أبا بكر بيعة خاصّة في سقيفة بني ساعدة ، وفي اليوم التّالي بايع النّاس في المسجد البيعة العامّة ، وفي رواية الطّبري ٢٠٧/٣ : كان عليٌّ في بيته إذ أُتِيَ فقيل له : قد جلس أبو بكر للبيعة ، فخرج في قميص ما عليه إزار ولا رداء ، عَجِلاً كراهية أن يُبطئ عنها ، حتّى بايَعَهُ ، ثمّ جلس إليه ، وبعث من أتاه بثوبه فتجلّله ولزم مجلسه .

نتائج السّقيفة : بيعة السّقيفة توضّح أن ليس في القرآن الكريم ، أو الحديث الشّريف نصٌّ على خلافة رجل ما ، ولو وُجِدَ ما خالفه أحد من أُلوف الصّحابة ، ولم يخصّص ﷺ الخلافة من بعده في قبيلة أو أُسرة ما : ﴿ إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] .

وفي السّقيفة اتّضح إجماع المسلمين على ضرورة الخلافة ، للنّظر في المصلحة العامّة ، وأن للمهاجرين فضلهم على سائر المسلمين لسبقهم إلى الإسلام ، فأسرعوا في بيعة أبي بكر رضي الله عنه ، كي لا يبقى منصب الرّئاسة شاغراً ، لسبقه في الإسلام ، وفضله ، وسِنّه ، مع إشاراته ﷺ إليه[١٣] .

☆ ☆ ☆

---

(١٢) ابن سعد : ١٧٨/٣ ، أُسد الغابة : ٣٣٠/٣ ، الاستيعاب : ٢٤٩/٢ ، صحيح مسلم : ١٨٥٦/٤ الحديث ٢٣٨٦

(١٣) لبحث الخلافة ونظام الحكم في الإسلام ، انظر مع عبقريّة الإسلام في أُصول الحكم للدكتور منير العجلاني الكتب التّالية :

- مآثر الإنافة في معالم الخلافة ، للقلقشندي .
- الأحكام السّلطانيّة ، للماوردي ، والأحكام السّلطانيّة للفرّاء .
- الفخري في الآداب السّلطانيّة ، لابن طباطبا .
- الفصل في الملل والأهواء والنّحل ، لابن حزم الأندلسي .
- النُّظم الإسلاميّة ، د . حسن إبراهيم حسن ، وعلي إبراهيم حسن .

الخِلافَةُ

الخلافة مصدر خَلَف ، يقال : خَلَفَه في قومه يخلُفُه خلافة فهو خَليفة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى لأخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾ ، [الأعراف : ١٤٢/٧] ، ثُمَّ أُطلقت في العُرف العام على الزَّعامة العظمى ، وهي الولاية العامَّة على الأُمَّة كافَّة ، والقيام بأمورها ، والنُّهوض بأعبائها .

والخِلِّيفي ـ بكسر الخاء وتشديد اللاَّم المكسورة ـ لغةٌ في الخلافة حكاها الجوهري في الصِّحاح ، وقال ابنُ الأثير في نهايته في غريب الحديث : وهو من المصادر الدَّالَّة على معنى الكثرة ، ومنه قول أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه : لو أُطيق الأذان مع الخِلِّيفي لأذَّنت ، يريد أنَّه مشتغل عن الأذان بكثرة اجتهاده في ضبط أُمور الخلافة ، وتصريف أعنَّتها .

وقد اختلف في لفظ الخليفة ، فقيل : هو فَعِيلٌ بمعنى مفعول ، كجريح بمعنى مجروح ، ويكون المعنى أنَّه يخلفه مَنْ بعده ، وعليه حُمِلَ قوله تعالى في حقِّ آدم عليه السَّلام : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ ، [البقرة : ٣٠/٢] ، على قول من قال : إنَّ آدم أوَّل من عَمَرَ الأرض ، وخلفه فيها بنوه بعده .

وقيل : هو فعيل بمعنى فاعل ، كعليم بمعنى عالم ، وقدير بمعنى قادر ، ويكون المعنى فيه أنَّه يَخْلُف من قبله ، وعليه حَمَلَ الآية السَّابقة من قال : إنَّه كان قبل آدمَ في

= ـ تاريخ التَّشريع الإسلامي ، محمد الخضري .
ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، للمقريزي .
ـ صبح الأعشى ، للقلقشندي .
ـ السُّلوك في دول الملوك ، للمقريزي .
ـ الْخَرَاج ، لأبي يوسف القاضي .
ـ وكتب التَّاريخ المعتمدة : طبقات ابن سعد ، الطَّبري ، الكامل في التَّاريخ ، البداية والنِّهاية ، تاريخ الخلفاء ، وكتاب السِّير الكبير للشَّيباني .

الأرض مخلوقات منها الملائكة مثلاً ، وإنّه خلفهم فيها ، وعليه خوطب أبو بكر رضي الله عنه بخليفة رسول الله .

ويُجمع الخليفةَ على خُلَفاء ، كما في كريم على كُرَماء ، وعليه ورد قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ ، [الأعراف : ٦٩/٧] ، ويجمع أيضاً على خلائف حملاً على تأنيث اللَّفظ ، كما تجمع صحيفة على صحائف ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ﴾ ، [الأنعام : ١٦٥/٦] ، ويجوز أن يُجمع على خِلافٍ ، ككريم وكِرام ، لأنَّ الهاء في (خليفة) زائدة حسب رأي بعض النَّحويِّين .

وتكون الخلافة عن الله ، فيقال في الخليفة : خليفة الله[١٤] ، وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك ، محتجِّين بأنَّه إنَّما يَسْتَخْلِف من يغيب أو يموت ، والله باقٍ لا يغيب ، ويؤيِّد ذلك ما رُوي أنَّه قيل لأبي بكر الصِّدِّيق : يا خليفة الله ، فقال : لست بخليفة الله ، ولكنِّي خليفة رسول الله ﷺ[١٥] ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا خليفة الله ، فقال : ويلك لقد تناولتَ مُتناولاً بعيداً ، إنَّ أُمِّي سمَّتني عُمَر ، فلو دعوتني بهذا الاسم قبلتُ ، ثمَّ كبرت فَكُنِّيتُ أبا حَفْص[١٦] ، فلو دعوتني به قبلت ، ثمَّ وَلَّيتموني أموركم فسمَّيتموني أمير المؤمنين ، فلو دعوتني بذلك كفاك .

وتكون الخلافة عن رسول الله ﷺ ، فيقال فيه : خليفة رسول الله ﷺ لأنَّه خلفه في أُمَّته ، وعلى ذلك خوطب أبو بكر رضي الله عنه .

وتكون الخلافة عن الخليفة قبل ذلك الخليفة ، ويقال : فلان خليفته فلان ، واحدٌ بعد واحد ، حتَّى ينتهي إلى أبي بكر رضي الله عنه فيقال فيه : خليفة رسول الله ﷺ ، وعلى ذلك خُوطب أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، في أوَّل أمره بخليفة خليفة رسول الله .

(١٤) هذه إضافة تشريف ، مثل : ناقة الله ، بيت الله .

(١٥) مآثر الخلافة في معالم الخلافة ، للقلقشندي : ١٥/١

(١٦) الأسد يكنَّى أبا حفص ، ويُسَمَّى شبله حفصاً ، (اللِّسان : حفص) .

ألقاب الخلافة : أمَّا ألقاب الخليفة فأربعة ، هي : عبد الله ، وأوَّل من تَلَقَّب بذلك من الخلفاء عمر بن الخطَّاب ، فكان يكتب في كتبه الصَّادرة عنه : من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، وتبعه مَنْ بعده من الخلفاء على ذلك ولزموه ، وأضاف الفاطميُّون (وَوَلِيِّه) ، فكان يكتب في كتبهم : من عبد الله ووليِّه أمير المؤمنين .

واللَّقب الثَّاني : الإمام ، وهو من الألقاب الْمُسْتَجدَّة للخليفة في أثناء الدَّولة العبَّاسيَّة بالعراق .

واللَّقب الثَّالث : لقب الخلافة الخاص بها ، كالمنصور ، والهادي ، والرَّشيد ، والمأمون ، والمعتصم بالله ، والمتوكِّل على الله ، وابتُدِئ بها في الدَّولة العبَّاسيَّة .

واللَّقب الرَّابع : أمير المؤمنين ، وأوَّل من لُقِّب به أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في أثناء خلافته ، وكان يدعى في أوَّل خلافته خليفة خليفة رسول الله ، وذكر أبو هلال العسكري في كتابه (الأوائل)[١٧] أنَّ أصل ذلك أن عمر خليفة خليفة رسول الله رضي الله عنه بعث إلى عامله بالعراق أن يبعث إليه رَجُلَيْن عارِفَيْن بأُمور العراق ، يسألهما عمَّا يريد ، فأنفذ إليه لبيد بن ربيعة وعَدِيَّ بن حاتم ، فلمَّا وصلا المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص ، فقالا له : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقال لهما عمرٌو : أنتا والله أصبتما اسمه ، ثمَّ دخل على عمر ، فقال : السَّلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال : مابَدَا لك يابن العاص ؟ لتخرجَنَّ من هذا القول ، فقصَّ عليه القصَّة فأقرَّه على ذلك ، فكان ذلك أوَّل تلقيبه بأمير المؤمنين[١٨] .

---

(١٧) كتاب الأوائل لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ، المتوفَّى سنة ٣٩٥ هـ = ١٠٠٥ م .

(١٨) مآثر الخلافة في معالم الخلافة : ٢٧/١ ، وفي تاريخ اليعقوبي ١٥٠/٢ : كتب أبو موسى الأشعري لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، وجرت عليه ، وقيل إنَّ المغيرة بن شعبة دخل على عمر فقال : السَّلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال : لتخرُجَنَّ ممَّا قلتَ ، فقال : ألسنا مسلمين ؟ قال : بلى ، قال : وأنت أميرنا ، قال : اللَّهم نعم .

ولزم هذا اللَّقب مَنْ ولي الخلافة بعده ، خلا خلفاء بني أُميَّة بالأندلس ، فإنهم كانوا يخاطبون بالإمارة فقط ، إلى أن ولي عبد الرَّحمن بن محمَّد ، فتلقَّب بأمير المؤمنين ، أمَّا في المغرب الأقصى ، فمنذ أيَّام يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، خُوطب أُمراؤها بلقب (أمير المسلمين) ، واستخدمه من بعدهم الموحِّدون وبنو مَرِين ، حتَّى عندما انفصلت مملكة غانة عن دولة المرابطين ، وأعلنت استقلالها ، أصبح ملكها يخطب لنفسه تحت رعاية أمير المؤمنين العباسي في بغداد(١٩) .

وهكذا (الخلافة) ، أُطلقت على الولاية العامَّة على الأُمَّة والقيام بأُمورها ، والنُّهوض بأعبائها ، إنَّها رئاسة عامَّة في أُمور الدِّين والدُّنيا نيابة عن رسول الله ﷺ ، فهي خلافة عن صاحب الشَّرع في حراسة الدِّين ، وسياسة الدُّنيا به ، فالخليفة حاكم زمني وروحي بآن واحد ، ومهما اتَّسعت سلطته ، لا يستطيع مخالفة الشَّريعة : القرآن الكريم ، والسُّنَّة الشَّريفة(٢٠) .

آراءُ المسلمينَ حَوْلَ اختيارِ الخليفة :

اختلاف الصَّحابة(٢١) ، دليل على أنَّ هذا الأمر متروك للمسلمين ليروا فيه رأيهم ،

---

(١٩) دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية : ص ١٣٧

(٢٠) لبحث الخلافة ينظر في كتاب « مآثر الإنافة في معالم الخلافة » للقلقشندي ، ويمكن الرُّجوع إلى الجزء ٣٥ والجزء ٣٦ من (المختار من التُّراث العربي) ، الَّذي تصدره وزارة الثقافة في القطر العربي السُّوري ، حيث قدِّمت في الجزء الأوَّل كلّ ما يتعلَّق بالخلافة ، وفي الجزء الثَّاني وُلاة الأمصار زمن الخلفاء ، والجزآن نشرا تحت عنوان : [من كتاب مآثر الإنافة في معالم الخلافة] ، اختار النُّصوص وعلَّق عليها وقدَّم لها : شوقي أبو خليل .

(٢١) عرَّف ابن حجر الصَّحابي بما يلي : الصَّحابي من لقي النَّبي ﷺ ، مؤمناً به ومات على الإسلام ، فيدخل في من لقيه من طالت مجالسته له ، أو قَصُرَت ، ومن روى عنه أو لم يروِ ، ومن غزا معه أو لم يغزُ ، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه ، ومَنْ لم يره لعارض كالعمى ، (مقدِّمة الإصابة) . وعند الشِّيعة لا يقال (صحابي) إلاَّ لمن كَثُرَت ملازمته ، إنَّ الصُّحبة تقتضي طول اللُّبث ، والمعاشرة ، ولا يقال إلا لمن كثرت ملازمته ، والصُّحبة نسبة بين اثنين .

والمسلمون كُلُّهم متَّفقون : على إقامة خليفة لرسول الله ﷺ ، فقال المهاجرون : تحصر الخلافة في قريش ، قوم رسول الله ﷺ وعشيرته : « الأئمَّة في قريش ما حكموا فعدلوا ، ووعدوا فوفُّوا ، واسْتُرحِمُوا فرحموا » ، أمَّا الأنصار فرأيهم أن يكون منهم لأنَّهم أعزُّوا الدِّين ، ونصروا رسول الله ﷺ عندما تنكَّرت له قريش وحاربته .

ويرى الشِّيعة أن تكون الخلافة في بيت رسول الله ﷺ ، وترى الإماميَّة أنَّ رسول الله ﷺ عيَّن عليّاً رضي الله عنه صراحة : « من كنت مولاه فعليٌّ مولاه ، اللَّهمَّ والِ من والاه ، وعادِ من عاداه » . .

ورأي الخوارج الاختيار الحرَّ ، يتولى الخلافة من تتوفر فيه شروطها ، ويصحُّ أن يكون الخليفة من قريش أو من غيرها ، ولو كان عبداً حبشيّاً ، واشترطوا : الإسلام والعدل .

والمرجئة محايدون ، ونظرتهم واحدة نحو جميع الَّذين أدلوا بنظرياتهم في الخلافة .

والمعتزلة يقولون بحرِّيَّة إرادة الإنسان ، وأنَّ الأُمَّة تختار إمامها ، وقالوا بصحَّة الخلافة الرَّاشديَّة ، وأنَّ خلافة بني أُميَّة غير صحيحة ، فوقفوا منها موقف الكراهة ، ولم يثوروا عليها كما ثار الخوارج .

طريقة اختيار الخليفة :

١ً ـ المرشَّحون للخلافة ، وهم الَّذين يستوفون شروط الخلافة .

٢ً ـ فحص الشُّروط المتوافرة في المرشَّحين ودراستها ، من قِبَل أهل الاختيار ، وهم أهل الحلِّ والعقد ، وأورد الماوردي لهم شروطاً ، منها العلم والحكمة ..

٣ً ـ الأُمَّة ، وهي المرجع الأوَّل والأخير في اختيار الخليفة ، وهو حقٌّ من حقوقها ، لا يصلح اختياره إلاَّ برضاها .

☆ ☆ ☆

الخلافة وتطورها زمن الرَّاشدين والأُمويِّين والعبَّاسيِّين :

أيَّـام الرَّاشـدين : الأنصـار أوَّل من فكَّر في ضرورة الإسراع في انتخـاب خلف لرسول الله ﷺ ، كي لا تدبَّ الفوضى ، وتتشعَّب الآراء ، وفي سقيفة بني ساعدة رشَّحوا سعد بن عُبَادة سيِّد الخزرج ، وقـالوا : منَّـا أمير ، ومنكم أمير ، فقـال عمر بن الخطَّـاب رضي الله عنه : يا معشر الأنصار ، ألستم تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ أمر أبـا بكر أن يؤمَّ النَّـاس ؟ فـأيُّكم تطيب نفسـه أن يتقـدَّم أبـا بكر ؟ فقـالـوا : نعـوذ بـالله أن نتقـدَّم أبا بكر[٢٢] ، فكانت البيعة ، وهي أن يجتمع أهل الحلِّ والعقـد ، ويعقـدون الخلافـة لمن يستجمع شرائطها .

واستشـار أبـو بكر رضي الله عنـه في مرضـه كبـار الصَّحـابـة ، كعبـد الرَّحمن بن عوف ، وعثمان بن عفَّان ، وأُسيد بن حضير ، وسعيد بن زيد ، فأثنوا كلُّهم على عمر بن الخطَّاب ، فعيَّنـه خلفـاً لـه : « بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، هـذا مـا عَهـد أبو بكر خليفـة رسول الله عند آخر عهده بالدُّنيا وأوَّل عهده بالآخرة ، في الحال الَّتي يؤمن فيها الكافر ، ويتَّقي فيها الفاجر : إنِّي استعملت عمر بن الخطَّاب ، فإن برَّ وعدل فذلك علمي بـه ، وإن جار وبدَّل فلا علم لي بالغيب ، والخيرَ أردت ، ولكلِّ امرئ مـا اكتسب ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ »[٢٣] .

وكانت وصيَّة أبي بكر الصِّدِّيق لعمر بن الخطَّاب ، التَّالي :

« إنِّي مستخلفك من بعدي ، وموصيـك بتقوى الله : إنَّ لله عملاً بـاللَّيل لا يقبلـه بالنَّهار ، وعملاً بالنَّهار لا يقبله باللَّيل ، وإنَّه لا تقبل نافلة حتَّى تودَّى الفريضة ، فـإنَّما ثقُلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة بـاتِّبـاعهم الحقَّ في الـدُّنيـا وثقلـه عليهم ، وحق لميزان لا يوضـع فيـه إلاَّ الحـق أن يكـون ثقيـلاً ، وإنَّما خفَّت مـوازين من خفَّت

(٢٢) أُسد الغابة ٣٣٢/٣ ، الاستيعاب ٢٥١/٢ ، طبقات ابن سعد ١٧٩/٣

(٢٣) عيون الأخبار لابن قتيبة : ١٤/١

موازينه يوم القيامة باتِّباعهم الباطل وخفَّته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلاَّ الباطل أن يكون خفيفاً . إنَّ الله ذكر أهل الجنَّة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيِّئاتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنِّي أخاف أن لا أكون من هؤلاء ، وذكر أهل النَّار فذكرهم بأسوأ أعمالهم ، ولم يذكر حسناتهم ، فإذا ذكرتهم قلت إنِّي لأرجو أن لا أكون من هؤلاء ، وذكر آية الرَّحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ، ولا يتمنَّى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التَّهلكة ، فإذا حفظت وصيَّتي فلا يكن غائب أحبَّ إليك من الموت وهو آتيك ، وإن ضيَّعت وصيَّتي فلا يكن غائب أبغض إليك من الموت ، ولست بمعجز الله »[٢٤] .

فانتقال الخلافة بالعهد هو أن يعهد الخليفة إلى غيره ممَّن استجمع شرائط الخلافة بعد موته إلى المعهود إليه ، ولا تتم إلا بعد بيعة المسلمين له .

وجعل عمر رضي الله عنه لجنة سداسيَّة هي : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفَّان ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وعبد الرَّحمن بن عوف ، والزُّبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، فانتُخِبَ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه .

وكانت وصيَّة عمر للخليفة من بعده ، التَّالي :

« أُوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأُوصيك بالمهاجرين الأوَّلين خيراً ، أن تعرف لهم سابقتهم ، وأُوصيك بالأنصار خيراً ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مُسيئهم ، وأُوصيك بأهل الأمصار خيراً فإنَّهم درء العدو ، وجباة الفيء ، لا تحمل فيئهم إلاَّ عن فضل منهم ، وأُوصيك بأهل البادية خيراً ، فإنَّهم أصل العرب ، ومادَّة الإسلام أن تأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فتردَّ على فقرائهم ، وأُوصيك بأهل الذِّمَّة خيراً أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلِّفهم فوق طاقتهم إذا أدَّوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يَدٍ وهم صاغرون ، وأُوصيك أن تخشى الله في النَّاس ، وتخشى النَّاس في الله ، وأُوصيك بالعدل

(٢٤) البيان والتَّبيين ، ص : ٢٣٥

في الرَّعيَّة والتَّفرُّغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تـؤثر غنيَّهم على فقيرهم ، فـإنَّ ذلـك بـإذن الله سلامة لقلبك ، وحـظٌّ لوزرك ، وخيرٌ في عـاقبـة أمرك ، حتَّى تفضي من ذلـك إلى من يعرف سريرتك ويحول بينك وبين قلبك ، وآمرك أن تشتدَّ في أمر الله وفي حـدوده ومعاصيه على قريب النَّاس وبعيدهم ، ثمَّ لا تأخذك في أحـد رأفـة ، حتَّى تنتهـك منـه مثل مـا انتهـك من حرم الله ، واجعـل النَّـاس عنـدك سـواء ، لا تبـالي على من وجب الحق ، ثمَّ لا تأخذك في الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحابـاة فيما ولاَّك الله ، ممَّـا أفـاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم وتحرم نفسك من ذلك ما قـد وسَّعـه الله عليـك ، وقـد أصبحت بمنزلة من منازل الدُّنيا والآخرة ، فإن اقترفت لدنياك عدلاً وعفَّة عمَّا بسـط الله لك اقترفت به إيماناً ورضواناً ، وإن غلبك الهوى اقترفت بـه سخـط الله ، وأُوصيـك أن لا ترخِّص لنفسك ولا لغيرك في ظلم أهل الذِّمَّة ..

وجاء في آخرها :

ثمَّ اركب الحقَّ وخض إليه الغمرات ، وكن واعظاً لنفسك ، أنشدك الله لما ترحمت على جماعـة المسلمين فـأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقَّرت عـالمهم ، ولا تضربهم فيذلُّوا ، ولا تستأثر عليهم بالفيء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلهـا فتفقرهم ، ولا تجمِّرهم(٢٥) في البعـوث فتقطـع نسلهم ، ولا تجعـل المـال دُولـة بين الأغنيـاء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويُّهم ضعيفهم ، هذه وصيَّتي إيَّـاك ، وأشهـد الله عليـك ، وأقرأ عليك السَّلام »(٢٦) .

وانتُخِبَ علي بن أبي طـالب رضي الله عنـه بعـد عثمان بن عفَّـان ، إلاَّ أنَّ البيعـة لم تكن تامَّة ، إذ امتنع بنو أُميَّة وطلحة والزُّبير عن البيعة .

---

(٢٥) تجمير الجند : حبسهم وإبقاؤهم في ثغر العدو عن العود إلى أهليهم ، (اللِّسان جمر) .

(٢٦) البيان والتَّبيين ، ص : ٢٣٥ و ٢٣٦

أيام الأُمويين : أصبحت الخلافة أيَّام الأمـويين ملكاً وراثيّاً[٢٧] ، بقـوَّة السَّيف والسِّياسة ، قال معاوية : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أنَّ بيني وبين النَّاس شعرةً ما انقطعت ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : كنت إذا مدُّوها خلَّيتها ، وإذا خلَّوْها مددتها »[٢٨] .

وقال عبد الملك بن مروان : « أنصِفونا يا معشر الرَّعيَّة ، تريدون منَّا سيرة أبي بكر وعمر ! ولا تسيرون فينا ولا في أنفسكم بسيرة رعيَّة أبي بكر وعمر ! نسأل الله أن يعين كُلاً على كلٍّ »[٢٩] .

وقال الوليد لعبد الملك : يا أبت ما السِّياسة ؟ قال : « هيبة الخاصَّة مع صدق مودَّتها ، واقتياد قلوب العامَّة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصَّنائع »[٣٠] .

لقد أوجد معاوية بن أبي سفيان نظام (ولاية العهد) ، الَّذي قد يوصل إلى الحكم أحياناً من ليس أهلاً له ، وسَنَّ مروان بن الحكم العهد لاثنين ، فظهر التَّنافس بين أفراد البيت المالك على أثرها ، ويمكننا القول : إنَّ ولاية العهد لاثنين كان لها أثر خطير على كيان الدَّولة الأُمويَّة ، إذ أوصلتها ـ مع عوامل أُخرى ـ إلى نهايتها .

أيَّام العَبَّاسيِّين : وحذا العبَّاسيُّون حذو الأُمويِّين في ولاية العهد ، مع تأثُّر بنظم الحكم لدى ملوك الفُرْس (الحق الملكي المقدَّس) ، خطب أبو جعفر المنصور على منبر عرفة ، فقال : « أيُّها النَّاس ، إنَّما أنا سلطانُ الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه ورشده ، وخازنُه على فيئه بمشيئته ، أقسِمُه بإرادته ، وأُعطيه بإذنه ، وقد جعلني اللهُ تعالى عليه

---

(٢٧) باستثناء خلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فقد عادت الخلافة سيرتها الدِّينيَّة الأُولى أيَّام الرَّاشدين .

(٢٨) عيون الأخبار : ٩/١

(٢٩) عيون الأخبار : ١٠/١

(٣٠) عيون الأخبار : ٩/١

قفلاً ، إذا شاء أن يفتحني لإعطائكم ، وقسم أرزاقكم ، وإذا شاء أن يُقْفِلني عليه أقفلني ، فارغبوا إلى الله تعالى .. »[٣١] .

شروط الخلافة :

أوّلها (الحُرِّيَّة) : فالعبد لا يملك نفسه ، وحديث : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عَبْدٌ حبشيٌّ كأن رأسه زبيبة ، ماأقام فيكم كتاب الله تعالى » ، من قبيل المبالغة في طلب الطّاعة ، وثانيها (الذُّكورة) : والإجماع في هذه القضيَّة يكاد يكون تامّاً ، وثالثها (البلوغ) : فلا تنعقد إمامة الصَّبيِّ لأنَّه مُوَلَّى عليه ، والنَّظر في أُموره إلى غيره ، فهو وإن ورث الملك عن أبيه[٣٢] ، إلاَّ أنَّه لا يباشر الحكم حتَّى يدرك سِنَّ البلوغ ، ورابعها (سلامة العقل) : فلا تنعقد إمامةُ ذاهب العقل بجنون أو غيره ، لأنَّ العقل آلة التَّدبير ، فإذا فات العقل فات التَّدبيرُ ، وخامسها (سلامة الحواس والأعضاء) : فالفقدان الكامل للبصر أو لليَدَيْن أو الرِّجلَيْن يمنع من عقد الخلافة ومن استدامتها ، وفقدان السَّمع والنُّطق يمنع من عقد الخلافة ابتداءً ، ولكنَّه إذا طرأ بعد الخلافة لا يمنع من استدامتها .

وهناك شروط متِّمة هي :

(العِلْمُ) : بشؤون الدِّين والأحكام الشَّرعيَّة ، لأنَّ الخليفة يجتهد في أُمور المسلمين وحقوقهم ، فينبغي له أن يكون عالماً يُصَرِّف الأُمور على النَّهج القويم ، و (العدالة) : فلا تنعقد إمامة الفاسق ، لأنَّ الخليفة مؤتَمن على أموال المسلمين وحقوقهم ، فينبغي له أن يكون نزيهاً ، مع تجنُّب المعاصي ، معروفاً بحسن السِّيرة والأخلاق ، (والكفاية) :

(٣١) تاريخ دمشق لابن عساكر ، المجلَّد ٣٨ ، ص ٢١٣ ، وكان على رأس نظام الحكم في أُوربة في العصور الوسطى إمبراطور هو الحاكم الزَّمني ، وبابا هو الحاكم الرُّوحي ، وهو يغيِّر ويلغي القوانين ، بينما الخليفة المسلم يجمع السُّلطتَيْن الزَّمنيَّة والرُّوحيَّة في شخصه ليطبِّق شرع الله ، لأنَّ الإسلام يتمحور حول كتاب ، والمسيحيَّة تتمحور حول شخص .

(٣٢) كان العرب يكرهون ولاية العهد لحدث .

أي الشَّجاعة والرَّأي والنَّجدة ، فلا تنعقد خلافة الجبان ، لأنَّه محتاج إلى الشَّجاعة ، ليتوصَّل بذلك إلى حماية الحدود ، وجهاد العدو ، وتجهيز الجيوش .. فإذا لم يكن شجاعاً لم يستطع ذلك .

أمَّا (النَّسَب) ، والمراد به أن يكون الخليفة من قريش ، فقد اختلف فيه ، وقيل : صحيح أنَّ المسلمين في سقيفة بني ساعدة أجمعوا على أن تكون الخلافة في قريش ، ولكن تخصيص قريش بها لم يكن مطلقاً ، إنَّما بسبب المصلحة العامَّة ، وذلك أنَّ العرب كانت تعرف لقريش تقدُّمها ورئاستها فتستكين لها إذا حكمت ، ولو جُعِلَت الرِّئاسة في غير قريش لتفرَّقت الكلمة ، ووقعت الفتنة آنذاك .

ويرى ابن خَلْدون : أن هذا الشرط ـ شرط النَّسَب ـ إنَّما كان سارياً في مرحلة زمنيَّة معيَّنة ، كانت العصبيَّة فيها لقريش ، فكانت تمثِّل العمود الفقري للدَّولة الإسلاميَّة آنذاك ، أمَّا فيما بعد حيث ذابت العصبيَّة القرشيَّة في غمار الشُّعوب والأعراق الكثيرة الَّتي دخلت في الإسلام ، فلم تعد ضرورة لبقاء هذا الشَّرط[٣٣] .

(٣٣) ولشخصيَّة المرشَّح دورها أيضاً ، يقول عمر : إنَّ هذا الأمر لا يصلح له إلاَّ اللَّيِّن في غير ضعف ، والقوي في غير عنف ، (وفي بعض الرِّوايات : والجواد في غير سرف) ، [عيون الأخبار : ٩/١] ، وفي كتاب الْخَرَاج ص : ١٢٨ : وكان عمر يقول : لا يصلح هذا الأمر إلا بشدَّة من غير تجبُّر ، ولين في غير وهن ، وقال علي : إنَّما يستحقُّ السِّيادة من لا يصانع ، ولا يخادع ، ولا تغرُّه المطامع . وقال الأحنف بن قيس : من كانت فيه أربع خصال ساد قومه غير مُدافَع ، من كان له دين يحجزه ، وحسب يصونه ، وعقل يرشده ، وحياء يمنعه ، وفي عيون الأخبار : ١٢/١ : كَلَّم النَّاسُ عبدَ الرَّحمن بن عوف أن يكلِّم عمر بن الخطَّاب في أن يلين لهم ، فإنَّه قد أخافهم حتَّى إنَّه قد أخاف الأبكار في خدورهن ، فقال عمر : إنِّي لا أجد لهم إلاَّ ذلك ، إنَّهم لو يعلمون مالهم عندي لأخذوا ثوبي عن عاتقي . وقال عبد الملك بن مروان لمصعب بن الزبير بحقِّ أخيه عبد الله ، إنَّه لا يصلح للخلافة : لعجب في نفسه ، واستقلال في رأيه ، وبخل لزمه .

عَلامَاتُ الخِلافة :

وهي (البُرْدَة) : بردة رسول الله ﷺ ، خلعها على الشّاعر كعب بن زهير بن أبي سُلْمى المازني[٣٤] لما رجع تائباً مسلماً ، وقال قصيدته اللاّميَّة ، الَّتي مطلعها : « بانت سعادُ فقلبي اليومَ متبول » ، وظلَّت البردة عند أهل كعب حتَّى اشتراها معاوية بن أبي سفيان من الورثة بعشرة آلاف درهم ، وتوارثها الخلفاء الأُمويون والعبَّاسيون .

و (الخاتم) : والأصل فيه ما ثبت في الصَّحيح أنَّ رسول الله ﷺ قيل له : إنَّ الملوك لا يقرؤون كتاباً غير مختوم ، فاتَّخذ خاتماً من الفضَّة ، وجعل نقشه : (محمَّد رسول الله)[٣٥] ، فلمَّا توفِّي رسول الله ﷺ لبسه أبو بكر الصِّدِّيق بعده ، ثم لبسه عمر بن الخطَّاب بعد أبي بكر ، ثمَّ لبسه عثمان بن عفَّان بعد عمر ، فوقع منه في بئر (أريس)[٣٦] ، فالتمسوه ثلاثة أيَّام فلم يجدوه ، ثمَّ اتَّخذ الخلفاء أختاماً خاصَّة ، على بعضها مواعظ وحِكَم ، مثل : على الله توكَّلت ، اعتمادي على الله وهو حسبي ، ثمَّ أصبحت (الطَّغراء) علامة الخلافة ، وهي نسبة إلى الحسين أبي إسماعيل الطَّغرائي وزير السُّلطان مسعود السَّلجوقي ، الَّذي امتاز بخط جميل ، وتشكيلات بديعة .

و (القضيب) : وهو عُود كان رسول الله ﷺ يأخذه بيده ، فقلَّده الخلفاء في حمله[٣٧] .

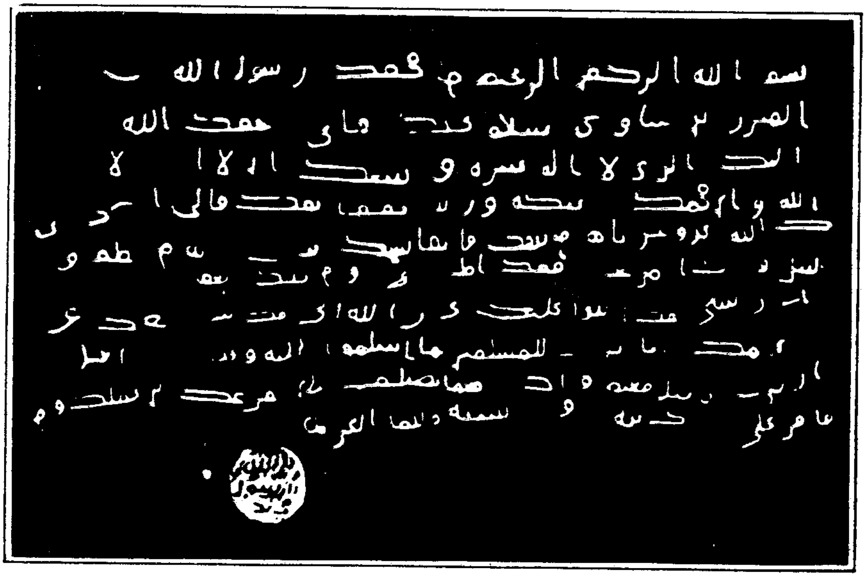
---

(٣٤) من أعرق النَّاس في الشِّعر ، هجا المسلمين وشبَّب بنسائهم ، فهدر رسول الله ﷺ دمه ، فجاءه كعب مستأمناً وقد أسلم ، وأنشده لاميَّته فعفا عنه وخلع عليه بردته ، توفِّي كعب سنة ٢٦ هـ = ٦٤٥ م .

(٣٥) في فتوح البلدان ص : ٤٤٨ : كان خاتم رسول الله ﷺ من فضَّة كله ، وفصه منه .

(٣٦) هي بئر معروفة بالقرب من مسجد قُباء عند المدينة المنوَّرة .

(٣٧) تناول جهجاه بن قيس عصا رسول الله ﷺ من يد عثمان بن عفَّان وهو يخطب ، فكسرها على ركبته ، فأخذته الإكْلَة في ركبته فمات منها ، (أُسد الغابة : ١/٣٦٥) .



* صورة رسالة رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى ، (لاحظ الخاتم)

شَارَاتُ الخِلافَة :

وهي (الخطبة) : أي الدُّعاء للخليفة على المنابر في المساجد ، وشاركهم الأُمراء بذلك عند ضعفهم ، و (السِّكَّة) : وهي ضرب النُّقود المتعامل بها بين النَّاس باسم الخليفة ، وكان عليها آية كريمة قصيرة ، أو دعاء موجز ، و (الطِّراز) : وهي ثياب الخلافة ، لقد كانت ثياب الخلفاء الرَّاشدين لا تتميَّز من ملابس أقلِّ رعاياهم شأناً ، ولبس معاوية بن أبي سفيان الحلل الفاخرة ، ثمَّ أخذ الخلفاء يبالغون في اقتناء أغلى الثِّياب وأجلِّها ، مع شكلٍ خاصٍّ من الثِّياب لموظفي البلاد والأُمراء والقادة .

ومن شارات الخلافة أيضاً (لون الأعلام) : فبنو أُميَّة كان شعارهم اللَّون الأخضر ، أمَّا بنو العبَّاس فشعارهم السَّواد .

رَاتِبُ الخُلَفَاء :

لما ولي أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، أصبح فحمل على عاتقه أثواباً ، وغدا إلى السُّوق يبيع ويشتري على عادته ، فلقيه عمر وأبو عبيدة ، فقالا : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السُّوق ، قالا : ماذا تصنع وقد وُلِّيت أُمور المسلمين ؟ قال : فمن

أين أُطعم عيالي ؟ قالا : انطلق معنا حتّى نفرض لكَ شيئاً ، فانطلق معهما ففرضوا له بعضَ شاةٍ كلَّ يوم ، ومئتين وخمسين ديناراً في السَّنة ، ثمَّ جعلوها شاةً كاملة ، وثلاث مئة دينار في السَّنة .

وكان أبو بكر يقول : ولقد أقمت نفسي في مال الله وفيء المسلمين مقام الوصي في مال اليتيم ، إن استغنى تعفَّف ، وإن افتقر أكل بالمعروف ، وإنَّ والي الأمر بعدي عمر بن الخطَّاب ، وإنِّي استسلفت من بيت المال مالاً ، فإذا متُّ فليبع حائطي في موضع كذا ، وليَرُدَّ إلى بيت المال(٣٨) .

ولمَّا ولي عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، مكث زماناً لا يأكل من أموال المسلمين العامَّة شيئاً ، وكان يتَّجر وهو خليفة ، فيعامل النَّاس ويستدين ويوفي ، ويبيع ويربح ، ولمَّا افتقر ودخلت عليه خصاصة ، ولم يعد يكفيه ما يربحه من تجارته ، لأنَّه اشتغل عنها بأمور الرَّعيَّة ، فُرِض له ما يصلحه ويصلح عياله بالمعروف ، لقد ورد « وكان يأخذ في كلِّ يوم من بيت المال ثلاثة دراهم أُجرة » ، وقال رضي الله عنه كما قال الصِّدِّيق من قبل : إنِّي أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وليِّ اليتيم ، إن استغنيت استعففت ، وإن افتقرت أكلت بالمعروف ، فإذا أيسرت قضيت(٣٩) .

ولمَّا جاءته رضي الله عنه برود من اليمن ، فرَّقها على النَّاس بُرْداً بُرْداً ، ثمَّ صعد المنبر يخطب وعليه حلَّة منها (أي بُرْدان) فقال : اسمعوا رحمكم الله ، فقام إليه سلمان الفارسي ، فقال : والله لا نسمع ، فقال : ولِمَ ياأبا عبد الله ؟ فقال : يا عمر ، تفضَّلت علينا بالدُّنيا ، فرَّقت علينا بُرْداً ، وخرجت تخطب في حلَّةٍ منها ؟ فقال : أين عبد الله بن عمر ؟ فقال : هأنذا ياأمير المؤمنين ، فقال عمر : لمن أحد هذَيْن البُرْدَيْن اللَّذَيْن عَلَيَّ ؟ قال : لي ، فقال لسلمان : عجلت عليَّ ياأبا عبد الله ، إنِّي كنت

(٣٨) تاريخ اليعقوبي : ١٣٧/٢

(٣٩) ابن الجوزي : ٩٠ ، ابن سعد (الطبقات) : ١٩٨/١

غسلت ثوبي الْخَلِق ، فاستعرتُ ثوبَ عبد الله ، قال سلمان : أمَّا الآن فقل نسمع ونطع[٤٠] .

هذا ما كان يأخذه الخلفاء الرَّاشدون من بيت المال ، من خزينة الدَّولة ، ثمن طعامهم وكسوتهم[٤١] لا أكثر ولا أقل ، فقد كان عمر رضي الله عنه يغسل ثوبه ، فيضطر إلى انتظاره حتَّى يجفَّ ، لأنَّه لا يجد غيره ، وأمَّا الطَّعام فقد كان بسيطاً جدّاً ، وكان يترك اللَّحم والسَّمن في زمن الغلاء ، حتَّى لا يكون له منهما ما لا يكون لفقير من فقراء المسلمين ، لذلك قيل : إنَّما الملك الَّذي يأكل خبز الشَّعير ، ويَعِسُّ على رجلَيْه باللَّيل ماشياً ، ويفتح مشارق الأرض ومغاربها .

وأخذ الخلفاء الأُمويُّون ـ باستثناء عمر بن عبد العزيز[٤٢] ـ من بيت المال بغير حساب ، لتوطيد دعائم الدَّولة ، وتأليف القلوب ، فلم يكن للخليفة الأُموي ـ والعبَّاسي ـ راتب معيَّن[٤٣] ، فقد نظروا إلى بيت المال وكأنه بيت مالهم يتصرَّفون به كما يشاؤون .

وَاجِبَاتُ الْخَلِيفَةِ :

يلزم الرَّعيَّة للخليفة أمران : (الطَّاعة) : « على المرء المسلم السَّمْعُ والطَّاعة فيما أحبَّ أو كره ، إلاَّ أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[٤٤] ، و (المعاضدة والمناصرة)

---

(٤٠) الرِّياض النَّضرة : ٥٦/٢ ، ابن الجوزي ١٢٧!

(٤١) كان لأبي بكر كسوة شتاء ، وكسوة صيف ، إذا أخلقت واهترأت ردَّها وأخذ غيرها .

(٤٢) جاء في عيون الأخبار ٢٦٤/١ : قام عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فأصلح من السِّراج ، فقال له رجاء بن حَيْوة : ياأمير المؤمنين لِمَ لاأمرتني بذلك ، أو دعوت له من يصلحه ؟ فقال : قمت وأنا عمر ، وعدت وأنا عمر .

(٤٣) ومحمود بن زنكي كان مِمَّن زهد بأموال الأُمَّة ، وأنفق من ماله الخاص .

(٤٤) كما ورد في حديث شريف متَّفق عليه .

في أُمور الـدِّين ، وجهـاد العـدو : ﴿ وَتَعَـاوَنُوا عَلَى البرِّ والتَّقْـوَى ﴾ ،[المائدة : ٢/٥]، و « من خرج من الطَّاعة ، أو فارق الجماعة ، مات ميتةً جاهليَّة » (٤٥) .

ولخَّص المـاوردي في (الأحكام السُّلطـانيَّـة) ، والقـاضي أبو يَعْلى محمـد بن الحسين الفرَّاء في (الأحكام السُّلطانيَّة) أيضاً ، واجبات الخليفة بعشرة أشياء ، هي :

١ ـ حفـظ الـدِّين على الأُصول الَّتي أجمع عليهـا سلف الأُمَّـة ، فـإن زاغ ذو شبهـة عنه ، بيَّن له الحجَّة وأوضح له الصَّواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحدود ، ليكون الدِّين محروساً من الخلل ، والأُمَّة ممنوعة من الزَّلل .

٢ ـ تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين ، وقطع الخصام بينهم ، حتَّى تظهر النَّصَفَـةُ ، فلا يتعدى ظالم ، ولا يضعف مظلوم .

٣ ـ حماية البيضة (٤٦) ، والذَّب عن الحوزة ليتصرَّف النَّاس في المعايش ، وينتشروا في الأسفار آمنين .

٤ ـ إقامة الحدود لتُصان محارم الله تعالى عن الانتهاك ، وتحفـظ حقوق عبـاده من إتلاف واستهلاك .

٥ ـ تحصين الثُّغور بالعُدَّة المانعـة ، والقوَّة الـدَّافِعـة ، حتَّى لا يظفر الأعـداء بغرة ينتهكون بها محرَّماً ، ويسفكون فيها دماً لمسلم أو معاهَد .

٦ ـ جهاد من عاند الإسلام بعد الدَّعوة ، حتَّى يسلم أو يدخل في الذِّمَّة .

٧ ـ جباية الفيء والصَّدقات على ما أوجبه الشَّرع نصّاً واجتهاداً من غير عسف .

(٤٥) في صحيح مسلم : وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهليَّة .

(٤٦) بيضة القوم : ساحتهم ، وبيضة الإسلام : جماعتهم ، (اللِّسان : بيض) .

٨ ـ تقدير العطاء ، وما يُسْتَحَقُّ في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه ، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

٩ ـ استكفاء الأُمناء ، وتقليد النُّصحاء فيما يفوّضه إليهم من الأعمال ، ويكِله إليهم من الأموال ، لتكون الأعمال مضبوطة ، والأعمال محفوظة .

١٠ ـ أن يباشر بنفسه مشارفة الأُمور ، وتصفُّح الأحوال ، ليهتمَّ بسياسة الأُمَّة ، وحراسة الملَّة ، ولا يعول على التَّفويض تشاغلاً بلذَّة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ، ويغشُّ النَّاصح ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يا دَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى ﴾ ، [ص : ٢٦/٣٨] ، فلم يقتصر سبحانه على التَّفويض دون المباشرة ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ : « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسؤول عن رعيَّته »(٤٧) .

وتصدر عن الخليفة عشر وظائف :

وهي : الوزارة ، الإمارة ، الإمارة على القتال ، القضاء ، ولاية المظالم ، النِّقابة على ذوي الأنساب ، النَّظر على إقامة الصَّلوات ، الإمارة على الحجِّ ، جباية الصَّدقات ، والنَّظر في الحِسْبَة .

ويجب أن يوصف (الوزير) بحسن التَّدبير ، وجزالة الرَّأي ، والاحتياط في الأُمور ، وعمارة البلاد ، والنُّهوض في المهمَّات .. ويوصف (الوالي) الَّذي هو نائب السُّلطان في ولايته ، بالشَّجاعة والنَّجدة وقوة الحزم ، وشدَّة التَّحرُّز ، و (كاتب السِّر) يوصف بالفصاحة والبلاغة ، وسداد الرَّأي ، وكتم الأسرار ، و (ناظر المال) يوصف بالأمانة والعفَّة ، و (القاضي) بغزارة العلم ، وسعة الفضل ، ونصرة الحق ، وقمع البدعة ، والعدل في الأحكام ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، والأخذ للضَّعيف من القوي ، والبُعد عن الأهواء في الحكم ، و (المحتسب) يوصف بالفضل والعفَّة والأمانة ،

---

(٤٧) الأحكام السُّلطانيَّة للفرَّاء ، ص ٣٧ ، دار الكتب الوطنيَّة .

وعلوُّ الهمَّة ، وقوَّة العزم ، والنَّظر في مصالح المسلمين ، وعدم محاباة أهل الدُّنيا وأرباب الجاه ، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم[٤٨] .

مقرّاتُ الْخُلَفَاء :

كانت أوّل عاصمة للمسلمين (المدينة المنوّرة) ، ثمَّ انتقل عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى (الكوفة) ، ثمَّ (دمشق) أيّام بني أُميَّة ، ثمَّ بنى أبو العبَّاس السَّفَّاح مدينة قرب الأنبار[٤٩] وسمَّاها (الهاشميَّة) ، وبقيت مقرُّ الخلافة العبَّاسيَّة حتَّى بنى أبو جعفر المنصور (بغداد) ، فصارت منزلاً لخلفاء بني العبَّاس بعده إلى حين قُتِلَ المستعصم بالله[٥٠] ، فانتقلت العاصمة إلى (القاهرة) أيّام المماليك ، الَّذين حكموا باسم العبَّاسيِّين حتَّى سنة ١٥١٧ م ، ثمَّ انتقلت العاصمة إلى (الأستانة ، إسطنبول) إلى أن أُلغيت الخلافة في آذار سنة ١٩٢٤ م .

وممَّا يذكر أنَّه بعد دور الضَّعف في الخلافة العبَّاسيَّة ، وتسلُّط الأعاجم ، تجزَّأت وحدة العالم الإسلامي ، وتشكَّلت : خلافة أُمويَّة في الأندلس ، وخلافة فاطميَّة في المغرب ومصر ، إلى جانب الخلافة العبَّاسيَّة في بغداد ، الَّتي قضى عليها التَّتار سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م ، بعد أن أصبح الخلفاء رمزاً دينياً فقط ، في دولة يحكمها وزراؤهم قادة الجند ، مع انغماس الخلفاء في اللَّهو والملذَّات بين نسائهم ، وإحاطة أنفسهم بالخصيان والعبيد ، ﴿ وَإذا أَرَدْنَا أن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرناها تَدْميراً ﴾ ، [الإسراء : ١٧/١٦] ، لقد أفقدهم التَّرف والانغماس في الشَّهوات صفات الرُّجولة ، فتركوا وزراءهم يلقِّبون أنفسهم بالملوك ، ويوزِّعون مناصب الدَّولة ، ويتصرَّفون بالحكم كما يشتهون .

---

(٤٨) صبح الأعشى : ٨٨/١١

(٤٩) مدينة على الفرات في غربي موقع بغداد ، فتحت سنة ١٢ هـ أيَّام الصِّدِّيق على يد خالد بن الوليد ، (معجم البلدان : ٢٥٧/١) .

(٥٠) انتقلت العاصمة إلى (سامراء) من عام ٨٣٣ م أيَّام المعتصم بالله ، وحتَّى المعتمد عام ٨٩٢ م ، حيث عادت إلى بغداد ثانية .

الوزارة

« إنّي قلّدتك أمر الرّعيّة ، وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل من شئت ، واعزل من شئت ، وافرض لمن رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنّي غير ناظر معك في شيء » .

[هارون الرّشيد]

جاءت كلمة وزير في كتاب الله المجيد في سورة طه : ﴿ وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ﴾ ، وهي تعني المشير والمؤازر ، وجاء في حديث السّقيفة : « نَحْنُ الأُمراءُ وأنتم الوزراء » ، وفي طبقات محمّد بن سعد أنّ أبا بكر كان وزيراً للنّبي ﷺ .

وجاء في (عيون الأخبار) : إنّ كلمة (الوزير) مشتقّة من الوِزْر ، وهو الحِمْل ، يراد أنّه يحمل من الأُمور مثل الأوزار ، ويقال للإثم وِزْرٌ تشبيهاً له بالحمل على الظّهر ، قال تعالى في سورة الانشراح : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ .

وفي (اللّسان) الوِزْرُ : الحِمْل الثّقيل ، والوِزْرُ : الـذّنب لِثِقَلِه ، وجمعها أوزار ، والوزير : الّذي يحمل ثقل الْمَلِك ويعينه برأيه ، وقد استوزره وحالته الوَزارة والوِزارة ، ووازره على الأمر أعانه وقوّاه ، والأصل آزره ، والوزير في اللُّغة اشتقاقه من الوَزَر ، والوَزَرُ الْجَبَل الَّذي يُعْتَصَم به لِيُنْجى من الهلاك ، وكذلك وزير الخليفة ، معناه الّذي يعتمد على رأيه في أُموره ، ويلتجئ إليه ، وقيل لوزير السُّلطان وزيرٌ لأنّه يزر عن السُّلطان أثقال ما أُسند إليه من تدبير المملكة ، أي يحمل ذلك .

قال ابن طباطبا[١] في (الفخري في الآداب السُّلطانيَّة والدُّول الإسلاميَّة) : « الوزير وسيط بين الملك ورعيَّته ، فيجب أن يكون في طبعه شَطْرٌ يناسب طباع الملوك ، وشطر يناسب طباع العوام ، ليعامل كلاًّ من الفريقين بما يوجب له القبولَ والمحبَّة ، والأمانةُ والصِّدقُ رأسُ ماله ، قيل : إذا خان السَّفير ، بَطَلَ التَّدبير ، وقيل : ليس لمكذوب رأي ، والكفاءةَ والشَّهامة من مهمَّاته ، والفطنة والتَّيقُّظ والدَّهاء والحزم من ضروريَّاته ، ولا يستغنى أن يكون مفضالاً مطعاماً ، ليستميل بذلك الأعناق ، وليكون مشكوراً بكلِّ لسان ، والرِّفقَ والأناة والتثبُّت في الأُمور ، والحلمُ والوقار والتمكُّن ونفاذ القول ممَّا لا بدَّ له منه » .

قال الجهشياري في كتاب (الوزارة والكُتَّاب) : قال الرَّشيد لوزيره يحي بن خالد : إنِّي قلَّدتك أمر الرَّعيَّة ، وأخرجته من عنقي إليك ، فاحكم بما ترى ، واستعمل ما شئت ، واعزل من شئت ، وافرض لمن رأيت ، وأسقط من رأيت ، فإنِّي غير ناظر معك في شيء[٢] .

تاريخ الوزارة :

ظهرت الوزارة في عهد رسول الله ﷺ : « .. وزيراي من أهل الأرض أبو بكر وعمر »[٣] ، وكان عمر وزير أبي بكر ، وعثمان وعلي وزيري عمر ، وعلي ثم مروان بن الحكم وزيري عثمان ، وعمرو بن العاص وزياد[٤] وغيرهما وزراء معاوية ، وبذلك اتَّخذ الأُمويُّون منذ أيَّام معاوية المساعدين أو الوزراء كما كانوا يدعون أيضاً ، فآل المهلَّب ، والحجَّاج كانوا من وزراء بني أُميَّة ، لا بمعنى أن منصب الوزارة كان قد أصبح محدوداً معروفاً ، بل بمعنى أن هؤلاء كانوا يساعدون الخلفاء ، ويقومون بجميع الأعمال الَّتي

(١) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، الفخري ، ص : ١٥٢

(٢) وانظر الطَّبري : ٢٣٣/٨ ، والمسعودي (مروج الذَّهب) : ٣٤٨/٣

(٣) طبقات ابن سعد ، وهذا الحديث أخرجه التِّرمذي ، وفيه ضعف .

(٤) في الطَّبري : « إنَّ زياداً كان يُسَمَّى وزير معاوية » .

يقوم بها الوزراء عادة في كلّ زمان ، ومعنى الوزارة في بني أُميَّة : حجب العامَّة عن الخليفة ، والقيام بالأعمال(٥) .

تبلورت الوزارة في العصر العبَّاسي ، فعرفت قواعدها ، وتقرَّرت مهمَّاتها ، وسُمّي الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمَّى كاتباً أو مشيراً ، وكان أوَّل من لُقِّب بالوزارة في الإسلام أبو سلمة الْخَلاَّل (حفص بن سليمان الْخَلاَّل) ، وزير أبي العبَّاس السَّفَّاح أوَّل خلفاء بني العبَّاس ، ولم يكن ذلك قبله(٦) .

وكان أبو أيوب الموريـاني(٧) وزير المنصور ، ثمَّ أبو الفضل الرَّبيع بن يونس ، وفي أيَّام محمَّد المهدي بن أبي جعفر المنصور ظهرت أُبَّهة الوزارة ، بسبب كفاءة وزيره أبي عبيد الله معاوية بن يسار ، وهو أوَّل من صنَّف كتاباً في الْخَرَاج ، وتبعه النَّاس بعد ذلك ، فصنَّفوا كتب الْخَرَاج(٨) ، ثمَّ تسلَّم الوزارة أبو عبد الله يعقوب بن داود(٩) ، ثمَّ الفيض بن أبي صالح . وفي خلافة موسى الهادي : الرَّبيع بن يونس ، وقد سبقت له الوزارة ، ثمَّ إبراهيم بن دكوان الحرَّاني .

وفي أيَّام الرَّشيد : يحي بن خالد البرمكي ، ومن بعده أبو العبَّاس الفضل بن الرَّبيع « الَّذي كان شهماً خبيراً بأحوال الملوك وآدابهم »(١٠) ، وأيَّام المأمون : الفضل بن سهل (ذو الرِّياستَيْن)(١١) ، ومن بعده الحسن بن سهل ، استوزره المأمون بعد أخيه الفضل ، وزوَّجه ابنته بوران(١٢) .

---

(٥) مروج الذَّهب : ٣٢٠/٢ و ٣٣٢ ، و ٢٥١/٣

(٦) الفخري : ١٥٣ ، وصبح الأعشى : ٢٧٣/٣

(٧) موريان : قرية من قرى الأهواز ، (الفخري ١٧٥) .

(٨) الفخري : ١٨٢

(٩) الفخري : ١٨٥

(١٠) الفخري : ٢١١

(١١) ذو الرِّياستَيْن : لجمعه السَّيف والقلم .

(١٢) وتوالى الوزراء في دولة بني العبَّاس ، واشتهر منهم محمَّد بن عبد الملك الزَّيَّات (أيَّام المعتصم) ، =

أمّا في الأندلس ، فكما يقول ابن خلدون[١٣] : « وأمّا دولة بني أُميَّة بالأندلس ، فأنِفُوا اسم الوزير في مدلوله أوّل الدَّولة ، ثمَّ قسَّموا خطَّته أصنافاً ، وأفردوا لكلّ صنف وزيراً ، فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللتَّرسيل وزيراً ، وللنَّظر في حوائج المتظلِّمين وزيراً ، وللنَّظر في أحوال الثُّغور وزيراً ، وجعل لهم بيتاً يجلسون فيه على فُرُشٍ منضَّدة لهم ، وينفِّذون أمر السُّلطان هناك ، كلٌّ فيما جُعِلَ له ، وأُفرد للتَّردُّد بينهم وبين الخليفة واحد منهم ، ارتفع عنهم بمعاشرة السُّلطان في كلِّ وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصُّوه باسم (الحاجب) ، ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم ، فارتفعت خطَّة الحاجب على سائر الرُّتب »[١٤] .

فالحجابة[١٥] : كان موضوعها حفظ باب الخليفة ، والاستئذان للدَّاخلين عليه ، لا التَّصدِّي للحكم في المظالم ، وهو في أصل الوضع عبارة عمَّن يبلِّغ الأخبار من الرَّعيَّة إلى الإمام ، ويأخذ لهم الإذن منه ..

وفي دولة المرابطين لم يكن هناك مجلس للوزراء ، وإنما كانت هناك هيئة استشاريَّة يشارك فيها مجموعة الفقهاء والأعيان والوزراء جنباً إلى جنب ، وكان الوزير أو جماعة الوزراء يلازمون أمير المسلمين في قصره أو تنقُّلاته ، تطرح المشكلة فيبدي الوزراء والفقهاء وشيوخ المرابطين وجهة نظرهم فيها ، وتبقى الكلمة العليا لأمير المسلمين[١٦] .

= وعبيد الله بن يحي بن خاقان (أيَّام المتوكّل) ، وعلي بن الفرات ومحمد بن علي بن مقلة - صاحب الخطّ الحسن المشهور - (أيّام المقتدر) .. انظر الفخري ، الّذي أفرد بعد ترجمة كلّ خليفة عباسي فقرة لوزرائه .

(١٣) المقدّمة ص : ٩٩

(١٤) توضّحت في هذا النّص وزارة الماليّة ، ثمّ وزارة للبريد (التّرسيل أي المراسلات) ، ثمّ وزارة العدل ، ثمّ وزارة الدّفاع ، والحاجب يمثّل رئيس الوزراء في عرفنا اليوم .

(١٥) صبح الأعشى : ٤٤٩/٥

(١٦) النّظام السّياسي والحربي في عهد المرابطين ، ص ٨٨

بينما في مملكة مالي الإسلاميَّة حيث النِّظام الصَّارم كثير التَّشعُّب : نائب للسُّلطان ، وزراء ، قضاة ، كُتَّاب ، دواوين ، ولاة في الولايات ، ووالي كل ولاية هو القائد للجيش المحلّي ، يتلقى تعليماته من السُّلطان مباشرة ، وكان الوزير في مملكة مالي يسمّى Fama أو Farama ، ووجد وزير ثقافة ، وآخر للأملاك ، وثالث لشؤون مياه نهر النيجر والملاحة النَّهريَّة والصَّيد ، ورابع للغابات ، وخامس للخزانة ، وكانت هناك وظيفة كبيرة تدعى صاحب السُّلطان (الحاجب) ، وفي مقدِّمة هؤلاء الوزراء نائب السُّلطان ، وهو رئيس للوزراء ، يليه القاضي الأعلى[١٧] .

أمّا في مملكة السونراي في (غاؤ)[١٨] ، فقد سادت الشريعة الإسلاميَّة بحذافيرها ، أمّا المجالس الملكيَّة فهي تشبه تلك الَّتي كانت موجودة في مالي ، وكان قائد الجيش والقاضي يجلسان إلى جانب الملك أثناء مقابلاته ، ونشير هنا إلى أن نظام الوزراء في (غاؤ) يضمُّ وزيراً للقصر ، وهو رئيس الوزراء ، وآخر للزراعة والغابات ، وثالث للخزانة ، ورابع للرّي ، وخامس للعلاقات الأجنبيَّة ، وقد يجمع الوزير بعض المهامّ الأخرى بالإضافة إلى وظيفته الأصليَّة[١٩] .

وفي الدَّولة السَّعديَّة في المغرب الأقصى ، من المناصب العليا في بلاط أحمد المنصور (صاحب انتصار وادي المخازن ، أو الملوك الثَّلاثة سنة ١٥٧٦ م) منصب (المِزْوَار) أو الحاجب ، ومن أبرز الَّذين تولوه في عهده عزوز بن سعيد الوزكيتي ، ومقام (المزوار) دون مقام الحاجب (رئيس الوزراء) عند الحفصيِّين أو المرينيِّين ، أو أيَّام الأُمويِّين في الأندلس .

☆ ☆ ☆

---

(١٧) إفريقية الغربيَّة في ظلّ الإسلام ، ص : ١٠٦

(١٨) قامت في حوض نهر النيجر - إفريقية الغربيَّة - في القرن الخامس عشر الميلادي .

(١٩) إفريقية الغربيَّة في ظلّ الإسلام ، ص : ١٠٩

نَوْعا الوَزَارَة :

وزارة التَّفويض : وهي أن يستوزر الخليفة من يُفَوِّض إليه تدبيرَ الأُمور برأيه وإمضائه على اجتهاده ، وهي أجلُّ الولايات بعد الخلافة ، قال الماوردي[٢٠] : فهو ينظر في كلِّ ما ينظر فيه الخليفة ، وهذا لا يعني تخلِّي الخليفة عن كلِّ شيء ، فهو الأصيل ، وله مباشرة الأُمور كلِّها متى أراد .

ويرى الفَرَّاء[٢١] أن على وزير التَّفويض مطالعة الخليفة بما أمضاه من تدبير ، وأنفذه من ولاية وتقليد كيلا يستبدَّ بأُمور الدَّولة ، وعلى الخليفة أن يتصفَّح أفعال الوزير وتدبيره الأُمور ليقرَّ منها ما وافق الصَّواب ، ويستدرك ما خالفه ، لأنَّ تدبير الأُمَّة موكول إليه وإلى اجتهاده ، ويجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه ، وأن يقلِّد الحكم ، كما يجوز ذلك للخليفة ، لأنَّ شروط الحكم فيه معتبرة ، ويجوز أن ينظر في المظالم ويستنيب فيها ، لأنَّ شروط المظالم فيه معتبرة ، ويجوز أن يتولَّى الجهاد بنفسه ، وأن يقلِّد من يتولاَّه ، لأنَّ شروط الجهاد فيه معتبرة ، ويجوز أن يباشر تنفيذ الأُمور الَّتي دبَّرها ، وأن يستنيب في تنفيذها لأنَّ شروط الرَّأي والتَّدبير فيه معتبرة ، وكلُّ ما صحَّ من الإمام صحَّ من هذا الوزير ، إلاَّ ثلاثة أشياء :

أحدها : ولاية العهد ، فإن للخليفة أن يعهد إلى من يرى ، وليس ذلك للوزير .

والثَّاني : للخليفة أن يستعفي الأُمَّة من الإمامة ، وليس ذلك للوزير .

والثَّالث : للخليفة أن يعزل من قلَّده الوزير ، وليس للوزير أن يعزل من قلَّده الإمام ، وما سوى هذه الثَّلاثة فحكم التَّفويض إليه يقتضي جواز فعله وصحَّة نفوذه منه .

ويستوجب الماوردي أن يكون وزير التَّفويض جامعاً للخصال المطلوبة في

---

(٢٠) الأحكام السُّلطانيَّة ، ص : ١٨ ـ ٢١

(٢١) الأحكام السُّلطانيَّة ، ص : ٣٠

الخليفة ، ينقص عنه في واحدة وهي النَّسب ، ويزيد في واحدة ، وهي المعرفة بأمْرَي الحرب والْخَرَاج ليباشرهما بنفسه ، أو يختار من يباشروهما تحت إشرافه .

وَزَارةُ التَّنفيذ : النَّظر فيها مقصور على رأي الخليفة وتدبيره ، والوزير فيها واسطة بينه وبين الرَّعيَّة والولاية ، يؤدِّي عنه ما أمر ، وينفِّذ ما ذكر ، ويُمضي ما حكم ، ويُجيز تقليد الولاة ، وتجهيز الجيوش ونحو ذلك ، ويعرض على الخليفة ما ورد منهم ، وما جرى وما حدث في الأمصار ، ليعمل بما يؤمر به ، فهو مُعِين في تنفيذ الأُمور ، وليس بِوَالٍ عليها ، ولا متقلّد لها ، فإن شُورِكَ فيها بالرَّأي كان باسم الوزارة أخص ، وإن لم يشارك فيه كان باسم الواسطة والسَّفارة أشبه .

ولا يشترط الفقهاء في وزير التَّنفيذ أن يكون حرّاً ، ولا أن يكون عالماً ، وأجازوا أن يكون من أهل الذِّمَّة[(٢٢)] ، واستوجبوا فيه سبعة أوصاف[(٢٣)] :

١ ـ الأمانة حتَّى لا يخون فيما اؤتمن فيه .

٢ ـ صدق اللَّهجة ، حتَّى يوثق بخبره فيما يؤدِّيه ويعمل على قوله فيما ينهيه .

٣ ـ قلَّة الطَّمع ، حتَّى لا يرتشي فيما يلي ، ولا ينخدع فيتساهل .

٤ ـ أن يسلم فيما بينه وبين النَّاس من عداوة وشحناء ، لأنَّ العداوة تصدُّ عن التَّناصف ، وتمنع من التَّعاطف .

٥ ـ أن يكون ذكوراً لما يؤدِّيه إلى الخليفة وعنه ، لأنَّه شاهد له وعليه .

٦ ـ الذَّكاء والفطنة ، حتَّى لا تدلَّس عليه الأُمور فتشتبه ، ولا تموَّه عليه فتلتبس ، فلا يصح مع اشتباهها عزم ، ولا يتم مع التباسها حزم .

٧ ـ أن لا يكون مع أهل الأهواء ، فيخرجه الهوى عن الحقِّ إلى الباطل ، ويتدلَّس

---

(٢٢) أجاز الماوردي في وزير التَّنفيذ أن يكون ذمّيّاً ، وأنكر عليه الجويني ـ إمام الْحَرَمَيْن ـ ذلك إنكاراً شديداً ، فيعقوب بن كِلّس (اليهودي) أوَّل من قيل له الوزير في الدَّولة الفاطميَّة (وزير العزيز بالله الفاطمي) ، المقريزي : ٤٣٩/١ ، ابن خِلّكان : ٤٩١/٢

(٢٣) الأحكام السُّلطانيَّة (الفرَّاء) ، ص : ٣٢

عليه المحقُّ بالمبطل ، فإن الهوى خادع الألباب ، وصارف عن الصَّواب ، وقد روى بعضهم عن النَّبيِّ ﷺ : « حُبُّكَ الشَّيء يُعمي ويُصِمُّ »[٢٤] .

فإن كان هذا الوزير مشاركاً في الرَّأي احتاج إلى وصف ثامن ، وهو : الحنكة والتَّجربة الَّتي تؤدِّي به إلى صحَّة الرَّأي ، وصواب التَّدبير ، فإنَّ في التَّجارب خبرة لعواقب الأُمور ، وإن لم يُشارَك في الرَّأي لم يحتج إلى هذا الوصف .

والفرق بين وزير التَّفويض ووزير التَّنفيذ وجوه أربعة :

يجوز لوزير التَّفويض مباشرة الحكم ، والنَّظر في المظالم ، وليس ذلك لوزير التَّنفيذ .

ويجوز لوزير التَّفويض أن يتصرَّف بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التَّنفيذ .

ويجوز لوزير التَّفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش ، وتدبير الحرب ، وليس ذلك لوزير التَّنفيذ .

ويجوز لوزير التَّفويض أن يتصرَّف في أَموال بيت المال ، بقبض ما يستحق له ودفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التَّنفيذ .

ويفترقان أيضاً في أَربعة شروط :

أَحدها : أن الحريَّة معتبرة في وزارة التَّفويض ، وغير معتبرة في وزارة التَّنفيذ .

الثَّاني : أَن الإسلام معتبر في وزارة التَّفويض ، وغير معتبر في وزارة التَّنفيذ ، على رأي من جوَّز أن يكون من أهل الذِّمة .

الثَّالث : أن العلم بأحكام الشَّريعة معتبر في وزارة التَّفويض ، وغير معتبر في وزارة التَّنفيذ .

---

(٢٤) رواه الإمام أحمد وأبو داود والبخاري في التَّاريخ عن أبي الدَّرداء (عويمر بن عامر بن مالك الخزرجي) ، وقال السُّيوطي والقاري وغيرهما : حديث حسن .

الرَّابع : المعرفة بأمر الحرب والخراج معتبرة في وزارة التَّفويض ، وغير معتبرة في وزارة التَّنفيذ[٢٥] .

هَل يُعْزَلُ الوَزير ؟ : نعم ، قد يُعزل الوزير من غير سبب ، لذلك قيل : « العزل أحد الطَّلاقَيْن » ، وقد يُعزَل لخيانة ظهرت ، فيعزل ويعاقب ، أو لعجز وقصور ، ويجوز عندها أن يُقَلَّد من العمل ما هو أسهل ، أو لعسف وخرق ، فإمَّا أن يعزل ، وإمَّا أن يكفَّ عن العسف ، أو للين وقلَّة هيبة ، فإمَّا أن يعزل ، أو يضم إليه من تتكامل به القوَّة والهيبة ، أو يعزل لوجود من هو أكفأ منه ، فيحلَّ محلَّه ، أو لقصور العمل عن كفاءته ، وهذا أجمل ألوان العزل ، فيعزل من هذه المرتبة ليولَّى أعلى منها .

ولا يجوز لوزير التَّنفيذ أن يُولِّي معزولاً ، ولا يعزل مولَّى .

ويجوز لوزير التَّفويض أن يولِّي معزولاً ويعزل مولاَّه ، ولا يجوز له أن يعزل من ولاَّه الخليفة[٢٦] .

من تاريخ الوزارة :

حينما صحَّت عزيمة الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور على الفتك بقائده الأكبر أبي مسلم الخراساني[٢٧] ، فزع من هول ذلك الموقف وزيره عيسى بن موسى ، فكتب إلى أبي جعفر المنصور يقول :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا تَدبُّرٍ ... فَإنَّ فسادَ الرَّأيِ أن تَتَعجَّلا

فأجابه المنصور :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُن ذا عزيمةٍ ... فإنَّ فسادَ الرَّأيِ أن تتردَّدا

(٢٥) الأحكام السُّلطانيَّة (الفرَّاء) ، ص : ٣٢

(٢٦) المرجع السَّابق ، ص : ٣٣

(٢٧) لرفضه ولاية الشَّام ، ورغبته في ولاية خراسان حيث أنصاره .

ولا تمهلِ الأعداءَ يوماً بغَدْوَةٍ   وَبادرهمو أن يملكوا مِثْلَها غَدا

ولَّما عزم المأمون على قتل إبراهيم بن المهدي - وكان مصمِّماً على قتله - شاور فيه أحمد بن أبي خالد الوزير ، فقال : ياأمير المؤمنين ، إن قتلته فَلَكَ نظراء ، وإن عفوتَ فمالك نظير ، فعفا عنه(٢٨) .

وأورد الماوردي أن المأمون كتب في اختيار وزير : « إنِّي التمست لأُموري رجلاً جامعاً لخصال الخير : ذا عِفَّة في خلائقه واستقامة في طرائقه ، هذَّبته الآداب ، وأحكمته التَّجارب ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلِّد مهمَّات الأُمور نهض فيها ، يسكتُه الحلم ، وينطِقُهُ العلم ، وتكفيه اللَّحظة ، وتغنيه اللَّمحة ، له صولة الأُمراء ، وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، إن أُحسن إليه شكر ، وإن ابتُلِيَ بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرِّجال بخلابة لسانه ، وحسن بيانه » .

هذه صفات المثل الأعلى ، والإنسان الكامل المنشود لتسنُّم منصب الوزارة .

ولكن الخلفاء لم ينشدوا كلُّهم في وزرائهم مانشده المأمون ، لقد استوزر المقتدر مثلاً محمد بن يحي بن خاقان(٢٩) ، فكان سيئ الرَّأي ، سيئ التَّدبير ، سيئ الضَّمير ،

---

(٢٨) أقسم الواثق أن يعزل محمد بن عبد الملك الزَّيَّات فقال له : ياأميرَ المؤمنين أنا عبدٌ إن عاقبتَه فأنت حاكم فيه ، وإن كفَّرت عن يمينك واستبقيتَهُ كان أشبه بك ، فقال الواثق : والله ماأبقيتك إلاَّ خوفاً من خُلُوِّ الدَّولة من مثلك ، وسأُكفِّر عن يميني ، فإنِّي أجد عن المال عوضاً ، ولا أجد عن مثلك عوضاً ، ثمَّ كفَّر عن يمينه واستوزره وقدَّمه وفوَّض الأُمور إليه ، وكان ابن الزَّيَّات شاعراً مُجيداً ، ولَّما ولي المتوكِّل ، قبض على ابن الزَّيَّات وقتله ، وقيل السَّبب أنَّ ابن الزيَّات عمل تنُّوراً من حديد ومساميره إلى داخل ليعذِّبَ به من يريد عذابه ، فكان هو أوَّل مَنْ جُعل فيه ، وقيل له : ذُقْ ماكنتَ تُذيق النَّاس ، (الفخري ، ص : ٢٣٤) .

(٢٩) محَّمد بن يحي بن عبيد الله بن يحي بن خاقان ، ولي الوزارة للمقتدر سنة ٢٩٩ هـ ، ولم يكن من الأكفاء ، وفيه يقول أحد الشُّعراء :

وزيرٌ لا يملُّ مِنَ الرِّقاعَهْ   يُوَلِّي ثُمَّ يَعْزِلُ بعد سَاعَهْ =

سألـه أحـد القـادة أمراً ، فقـال : اكتب رقعـة حتّى أوقع لـك فيهـا ، فـاحضر بيـاضـا وقال : يوقّع الوزير في آخره بالإجابة إلى المسؤول لأكتب العرض بعد ذلـك ، فوقّع لـه بذلـك ، وكان يـدخل إليـه الرَّجل يعرفـه طويلاً ، فيسـأل عنـه ، ثمَّ يتلقّـاه بعـد يوم فتكون حاله معه مثل الحال الأُولى .

وأصبحت للوزارة ألقابٌ ، ولعلَّ المهدي العبّاسي أوَّل من أطلق على وزيره لقبـاً ، وقـد لَقَّب وزيره يعقوب بن داود[٣٠] : (الأخ في الله) ، وجـاء المـأمون فلقَّب وزيره الفضـل بن سهـل : (ذا الرِّيـاسِتَين) ، ولقَّب وزيره بعـده الحسن بن سهـل : (ذا الكفايتَيْن) ، لأنَّه جمع له بين السَّيف والقلم .

ثمَّ ظهرت الألقاب الفخمة في أواخر العهد العبَّاسي ، وفي الـدَّولـة الفـاطميَّـة ، وفي العهود المتأخِّرة ، فـالألقـاب تتعـاظم حين تتضـاءل الحقـائق ، ففي سنـة ٤١٦ هـ خلع جلال الدَّولة ببغداد على وزيره لقب : علم الدِّين ، سعـد الـدَّولـة ، أمين المِلَّـة ، شرف المُلْك .

☆ ☆ ☆

= عزلـه المقتـدر قبل أن يَتمَّ عـامين ، وحبسـه أيّـامـاً ، ولم يَلِ عمـلاً بعـد ذلـك ، تـوفِّي سنـة ٣١٢ هـ = ٩٢٤ م ، (الأعلام : ١٣٥/٧) .

(٣٠) استحضره المهدي وخاطبه ، فرآه أكمل النَّاس عقلاً ، وأفضلهم سيرة ، فشُغف به ، واستخلصه لنفسه ، ثمَّ استوزره وفوَّض الأُمور إليه ، (الفخري ، ص : ١٨٤) .

الإمارَةُ

« دلُّوني على رَجُلٍ أستعملـه على أمْرٍ قد أهمَّني .. أُريـد رجلاً إذا كانَ في القـومِ وليس أميرهم كان كأنَّـه أميرهم ، وإذا كانَ أميرهم كانَ كأنَّـه رجل منهم ، قـالـوا : مـا نعرفُ هـذه الصِّفـة إلاَّ في الرَّبيـع بن زيـاد الحـارثي ، قـال : صدقتم ، فولاَّه » .

[عمر بن الخطَّاب]

استعملت كلمة أمير في تـاريخنـا العربي الإسلامي في موضعَيْن : (أمير الجيش) ، أي قائده ، و (أمير البلاد) ، وهو يقابل المحـافـظ في لغـة الإدارة اليوم ، كما استعملت كلمتا عاملٍ ووالٍ في هذا المعنى أيضـاً ، ولعلَّ كلمـة أمير الإداريَّـة مـأخوذة من الإمـارة الحربيَّة ، فإنَّ الخليفـة كان يؤمِّر الرَّجل على جيش الفتح ، فـإذا كتب الله لـه الظَّفر ، فقد يستبقيه عاملاً على البلاد المفتوحة ، فيسمِّيه النَّاس باسمـه الَّـذي عرفوه بـه من قبل (أمير)[1] .

لقـد أدار الخليفـة الأُمـور في مقرِّ الخـلافـة ، أمَّـا في الأمصـار فكان يـديرهـا (الأُمراء) ، وكانت الإمارة تعني ولاية الأُمور الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والحربيَّـة والقضـائيَّـة والإداريَّة ، باستثنـاء جبـايـة المـال ، فـإذا جمع الأميرُ الصَّلاة والْخَرَاج ، كانت إمـارتـه (عامَّة) ، وإن قصروا إمارته على الصَّلاة ، فهي إمارة (خاصَّة) .

---

(١) في (اللِّسان) أمر : المصدر الإمْرَة والإمارة بـالكسر ، والتَّـأمير توليـة الإمـارة ، وأميرٌ مؤمَّرٌ : مُمَلَّك ، وأولـو الأمر : الرُّؤسـاءُ وأهـل العِلْم ، وفي (صبـح الأعشى ، ٤٤٩/٥) : الأمير : وهـو زعيم الجيش أو النَّاحية ونحو ذلك ممن يوليه الإمام ، وأصله في اللُّغة ذو الأمْر .

نَوعا الإمارة :

١ ـ الإمارة العامَّة : وهي إمَّا : استكفاء أو استيلاء :

إمارة استكفاء بعقد عن اختيار ، ويشمل عمل الأمير فيها سبعة أُمور : تدبير الجيوش وترتيبهم في النَّواحي ، وتقدير أرزاقهم(٢) ، والنَّظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكَّام ، وجباية الْخَرَاج واستلام الصَّدقات وتقليد العمَّال فيها ، وتفريق ما استحقَّ منها ، وحماية الدِّين ومراعاته دون تغيير أو تبديل ، وإقامة الحدود في حقٍّ الله وحقوق الآدميين ، والإمامة في الْجُمَع والجماعات ، يؤم بها أو يستخلف عليها ، وتسيير الحجيج بأمان وراحة .

وإذا كان الإقليم ثغراً متاخماً للعدو ، كان عليه واجب ثامن ، وهو جهاد من يليه من الأعداء ، وقسم غنائمهم في المقاتلة ، وأخذ خُمْسِها لأهل الْخُمْس(٣) .

إمارة استيلاء ، وهي عقدٌ على اضطرار ، أو إقرار حالة راهنة ، وهي أن يستولي الأمير بالقوَّة على بلد من بلاد الخلافة ، فيُقِرُّ الخليفة واقعاً ، رغبة في حقن الدِّماء ، واستدعاءً للطَّاعة ، وحفاظاً لمنصب الخلافة ألاَّ يتعدَّد ، مع اجتماع الكلمة على الأُلفة والتَّناصر ، ليكون المسلمون يداً على من سواهم .

وحفاظاً لأحكام الدِّين حتَّى تكون الولاية جائزة ، والحدود مستوفاة بحقٍّ .

٢ ـ الإمارة الخاصَّة : مقصور دور الأمير فيها على تدبير الجيش ، وسياسة الرَّعيَّة ، وليس له أن يتعرَّض للقضاء والأحكام وجباية الْخَرَاج والصَّدقات .

---

(٢) إلاَّ أن يكون الخليفة قدَّرها .

(٣) الأحكام السُّلطانيَّة (الفرَّاء) ، ص : ٣٤

تقليد الأمير :

إذا ولَّى خليفةٌ أميراً ، كتب له بذلك كتاباً يُسَمَّى (التَّقليد) ، أو (العهد) ، يحدِّد له فيه مهمَّته ، ويوصيه بالآداب المطلوبة .

عزل الأمير :

إذا قلَّد وزيرٌ أميراً ، فإنَّه ينعزل بعزله ، أو بموته ، لأنَّه وكيل عنه ، إلاَّ إذا جَدَّد له خلف الأمير العهد ، أمَّا الأمير الَّذي قلَّده الخليفة فلا ينعزل بموته ، ويعزل الأمير لخيانته ، أو لعجزه ، أو للرَّغبة في رجل أصلح منه ، أو استجابة لرغبات الرَّعيَّة ، وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه إذا عَزَلَ عاملاً من غير خيانة ، يعلن ذلك بكلِّ وسائل الإعلام ليُعْرَف ، ويذكر الأسباب الَّتي دعته إلى صرفه ليُعْذَر .

وهناك نوع آخر من الإمارة ، هو : **الإمارة على القتال**(٤) ، وعلى أمير الجيش المكلَّف بالقتال مراعاة الأُمور التَّالية :

أن يرفق بالجند أثناء المسير ، وأن يتفقَّد خيلهم الَّتي يجاهدون عليها ، مع تفقُّدهم جُنْداً نظاميين ومتطوعة ، وأن يجعل عليهم العرفاء والنُّقباء ، ليعرف منهم أحوال جنده ، وأن يجعل لكلِّ طائفة شعاراً يتداعون إليه ليصيروا به متميِّزين ، وأن يتصفَّح الجيش ومن فيه ، فيُخْرِج من كان فيه لتخذيل المجاهدين ، وإرجاف المسلمين ، أو كان عيناً عليهم للأعداء ، وأن لا يمالئ من ناسبه ، أو وافق رأيه ، وأن يبتعد عن كلِّ ما يفرِّق الكلمة .

ويلزم أمير الجيش أيضاً بحراسة جيشه من غِرَّة يظفر بها العدو ، وأن يتخيَّر لجنده المنازل المناسبة لمحاربة عدوِّهم ، مع إعداد ما يحتاجون إليه من زاد وعلوفة تفرَّق

(٤) القتال أو الجهاد مرتبط دوماً في القرآن الكريم بعبارة (في سبيل الله) ، ممَّا يدلُّ على أن الغاية من القتال غاية مقدَّسة نبيلة هي إعلاء كلمة الله ، لا السَّيطرة أو المغنم ، أو إظهار بطولة ، أو شجاعة ، أو استعلاء في الأرض .

عليهم في أوقات الحاجة ، وأن يعرف أخبار عدوّه فيأمن مكره ، وتعبئة جيشه في مصافّ الحرب ، ويضع لكلّ جهة من يراه كفؤاً لها ، ويرفع الرُّوح المعنويَّة ، وأن يقوّي نفوس الجند بما يشعرهم من الظّفر ، وأن يشاور ذوي الرّأي فيما أعضل من الأُمور ، ويرجع إلى أهل الحزم فيما أشكل ، ليأمن من الخطأ ، ويسلم من الزَّلل ، وأن لا يمكّن أحداً من جيشه أن يتشاغل بتجارة أو زراعة ، يصرفه الاهتمام بها عن مصابرة العدو(٥) .

ويقسم الفقهاء الإمارة على القتال ، إلى أربعة أقسام :

١ ـ إمارة على الجهاد ، جهاد الأعداء المقيمين في (دار الحرب) ، خارج دار الإسلام .

٢ ـ وإمارة على قتال المرتدّين مِمّن اعتنق الإسلام ثمَّ أنكره ، بعد استتابتهم ثلاثة أيَّام ، ولا يجوز إقرار المرتد على رِدَّته بجزية ولا عهد ، وإذا قُتِلَ لم يغسل ، ولم يُصَلَّ عليه ، ولا يدفن في مقابر المسلمين لخروجه بالرِّدَّة عنهم(٦) .

٣ ـ وإمارة على قتال أهل البغي : وهم الخارجون على طاعة الخليفة ، المخالفون للجماعة .

٤ ـ وإمارة على قتال قُطَّاع الطُّرق ، إذا اجتمعت طائفة من أهل الفساد على شهر السّلاح ، وقطع الطَّريق ، وأخذ الأموال ، وقتل النُّفوس ، وقتل السَّابلة .. فمن قَتَلَ وأخَذَ المال قُتِلَ وصُلِبَ .. وإن تاب قاطع الطَّريق قبل أن يقدر عليه السُّلطان ، سقطت عنه حدود الله تعالى ، ولا تسقط حقوق العِبَاد .

وربَّما جمع الفقهاء الأقسام الثَّلاثة الأخيرة (قتال المرتدّين ، وقتال أهل البغي ، وقتال قُطَّاع الطُّرق) تحت عنوان واحد هو : (حروب المصالح) .

---

(٥) الأحكام السُّلطانيّة (الفرّاء) ، ص : ٤٥

(٦) المرجع السَّابق ، ص : ٥٨ ، ورأي بعض الفقهاء : لا يُقتل إلا الْمُرْتَد الْحَرِب .

اختيار الأُمراء :

الأصل في اختيـار الأُمراء أن يكـونـوا من أصحـاب الأمـانـة والـزُّهـد[٧] ، والبصر بـالعمـل المـوكل إليهم ، دون النَّظر إلى قرابـة . وفي العصرين الأُمـوي والعبَّـاسي اختير الرَّجل القوي القادر على قمع الفتن ، وضبط الأموال .

أراد عمر رضي الله عنه أن يستعمل رجلاً ، فبدر رجل بطلب العمل ، فقال لـه : قد كنَّا أردناك لذلك ، ولكن من طلب هذا العمل لم يُعَن عليه .

ولم يكن رضي الله عنـه ينظر إلى صـلاح الرَّجـل في ذاتــه ، ولكن إلى صـلاحــه للولاية ، لذلك كان يولِّي الولايات ناساً وعنده من هو أتقى منهم ، وأكثر علماً ، وأشدُّ عبـادة ، وكان يقـول : إنِّي لأتحرَّج أن أستعمـل الرَّجـل وأنـا أجـد أقـوى منـه ، قـال رضي الله عنه لأصحابه : دلُّوني على رجل أستعملـه على أمْرٍ قـد أهمَّني ، قـالوا : فلان ، قال : لا حاجة لنا فيه ، قالوا : فمن تريد ؟ قـال : أُريـد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم كان كأنَّه أميرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنَّه رجل منهم ، قـالوا : مـا نعرف هـذه الصِّفة إلاَّ في الرَّبيع بن زياد الحارثي ، قال : صدقتم فولاَّه[٨] .

وأمر رضي الله عنه بكتابة عهد لرجل قد ولاَّه ، فبينما الكاتب يكتب ، جاء صبيٌّ فجلس في حِجْر عمر فلاطفه ، فقـال الرَّجل : يـا أمير المؤمنين ، لي عشرة أولاد مثلـه ، ما دنا أحد منهم منِّي ، قال عمر : فما ذنبي إن كان الله عزَّ وجلَّ نزع الرَّحمة من قلبك ، وإنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماء ، ثمَّ قال : مزِّق الكتـاب ، فـإنَّـه إذا لم يرحم أولاده ، فكيف يرحم الرَّعيَّة ؟

وكان رضي الله عنـه إذا استعمل رجلاً كتب عليـه كتـابـاً أشهـد عليـه رهطـاً من المهاجرين والأنصار ، بأنَّه لا يظلم أحداً في جسده ، ولا في مـالـه ، ولا يستغل منصبـه

(٧) ويعتبر في هذه الإمارة الشُّروط المعتبرة في وزارة التَّفويض .

(٨) الإصابة : ٥٠٤/١ ، وعيون الأخبار : ١٦/١

لفائدة أو مصلحة له أو لمن يلوذ به ، فكان ذلك بمثابة القَسَم الَّذي يوجبه القانون على القضاة والأطبَّاء وأمثالهم قبل مباشرتهم العمل ، وكان يقول للعامل بعد ذلك محدِّداً سلطته ، مبيِّناً له حقيقة عمله : إنِّي لم أستعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولكن أستعملك لتقيم فيهم الصَّلاة ، وتقسم بينهم[٩] ، وتحكم فيهم بالعدل ، ثمَّ يشترط عليه رابعاً : ألاَّ يركب برذوناً[١٠] ، ولا يلبس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل نقيّاً ، ولا يغلق بابه دون حوائج النَّاس[١١] .

وكتب إلى أبي موسى الأشعريّ : أن سَوِّ بين النَّاس في مجلسك وجاهك ، حتَّى لا ييأس ضعيف من عدلك ، ولا يطمع شريف في حيفك[١٢] .

وكان رضي الله عنه إذا قدم عليه الوفد سألهم عن حالهم وأسعارهم ، وعمَّن يَعْرِفُ من أهل البلاد ، وعن أميرهم هل يدخل عليه الضَّعيف ؟ وهل يعود المريض ؟ فإن قالوا نعم ، حمد الله تعالى ، وإن قالوا لا ، كتب إليه : أقْبِلْ[١٣] .

وكان رضي الله عنه إذا بلغه أن عاملاً لا يعود المريض ، ولا يدخل عليه الضَّعيف نزعه[١٤] ، وكان يقول : أرأيتم إذا استعملتُ عليكم خير مَنْ أعلم ، ثمَّ أمرته بالعدل ، أكنتُ قضيتُ ما عليَّ ؟ قالوا : نعم ، قال : لا ، حتَّى أنظر في عمله أعَمِلَ بما أمرته أمْ لا .

وكتب رضي الله عنه إلى عُمَّاله أن يوافوه بالموسم ، فوافوه ، فقام فقال : يا أيُّها النَّاس ، إنِّي بعثت عُمَّالي هؤلاء ولاة بالحق عليكم ، ولم أستعملهم ليصيبوا من أبشاركم ،

---

(٩) أُعطياتهم من بيت مال المسلمين .

(١٠) البِرْذَوْن : الدَّابَّة ، (اللِّسان : برذن) .

(١١) الْخَرَاج : ١٢٥ ، عيون الأخبار : ٥٣/١

(١٢) الْخَرَاج : ١٢٦

(١٣) عيون الأخبار : ١٤/١

(١٤) الْخَرَاج ، ص : ١٢٦

ولا من دمائكم ، ولا من أموالكم ، فمن كانت له مظلمة عند أحد منهم فليقم ، قال : فما قام من النَّاس يومئذٍ إلاَّ رجل واحد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، عاملك ضربني مئة سوط ، فقال عمر : أتضربه مئة سوط ، قُم فاستقدَّ منه ، فقام إليه عمرو بن العاص فقال له : ياأمير المؤمنين إنَّك إن تفتح هذا على عُمَّالك كَبُرَ عليهم ، وكانت سُنَّة يأخذ بها مَنْ بعدك ، فقال عمر : ألا أُقيده منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه ؟ قُم فاستقد ، فقال عمرو : دعنا إذاً فلنرضه ، فقال : دونكم ، فأرضوه بأن اشترِيَت منه بمئتي دينار ، كلُّ سوط بدينارين[١٥] .

ولما سبق ، كان لعمر رضي الله عنه جهاز سِرِّي ، مربوط به[١٦] ، لمراقبة أحوال الولاة ، فكان علمه بمن نأى عنه من عُمَّاله ورعيَّته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد ، وعلى وساد واحد ، فلم يكن له في قطر من الأقطار ، ولا مصر من الأمصار ، ولا ناحية من النَّواحي والٍ ولا عاملٌ ولا أميرُ جيش إلا وعليه له عَيْنٌ لا يفارقه ما وجده ، فكانت أخبار من بالمشرق والمغرب عنده في كلِّ مُمْسى ومُصْبَح ، حتَّى كان العامل منهم ليتَّهم أقرب الْخَلْق إليه ، وأخصَّهم به .

وكان إذا استعمل عاملاً أحصى ماله[١٧] ، وقد قاسم غير واحد منهم ماله إذا عزله[١٨] ، استناداً على الاحتياط ، ولو تبيَّن خيانتهم لم يدع لهم شيئاً ، وكان يأمر إذا قدم عليه العمَّال أن يدخلوا نهاراً ، ولا يدخلوا ليلاً كَيْ يحجبوا شيئاً من الأموال .

---

(١٥) الْخَرَاج ، ص : ١٢٥

(١٦) كان برئاسة الصَّحابي الجليل محمَّد بن مسلمة الأنصاري (أبي عبد الرَّحمن) : [٣٥ ق.هـ - ٤٣ هـ = ٥٨٩ - ٦٦٣ م] ، شهد بدراً وما بعدها إلا تبوك ، كان عند عمر مُعَدّاً لكشف أمور الولاة في البلاد ، (الأعلام : ٩٧/٧) .

(١٧) ابن سعد : ٢٠٣/١ و ٢٢١ ، وابن الجوزي ، ص : ١٠٥

(١٨) منهم سعد بن أبي وقَّاص وأبو هريرة ، ولم يظهر له منهم ما يوجب التُّهمة ، فقاسمهم من قبيل الاحتياط ، (عيون الأخبار : ٥٣/١ و ٥٤) .

وأوصى عمر بن عبد العزيز والياً ، فقال : عليك بتقوى الله ، فإنَّها جماع الدُّنيا والآخرة ، واجعل رعيَّتك الكبير منهم كالوالد ، والوسط كالأخ ، والصَّغير كالولد ، فَبِرَّ والدك ، وصِل أخاك ، وتلطَّف بولدك .

واستشار عمر بن عبد العزيز في قوم يستعملهم ، فقال له بعض أصحابه : عليك بأهل العُذْرِ ، قال : ومَنْ هُم ؟ قال : الَّذين إذا عدلوا فهو ما رجوتَ منهم ، وإن قصَّروا قال النَّاس : قد اجتهد عمر[(١٩)] .

ويمكن قبل إيراد نموذج مثالي من ولاة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، القولَ إنَّ فلسفة الإمارة في الإسلام تتلخَّص بكتاب عمر رضي الله عنه ، إلى أبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) ، يقول فيه : « أمَّا بعد ، فإنَّ للنَّاس نَفْرة من سلطانهم ، فأعوذ بالله أن يدركني وإيَّاك عمياءُ مجهولة ، وضغائن محمولة ، أقِم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله ، والآخر للدُّنيا ، فآثر نصيبَكَ من الله فإنَّ الدُّنيا تنفَد ، والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفسَّاق واجعلوهم يداً يداً ورجلاً رجلاً ، وعُدْ مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أُمورهم بنفسك ، فإنَّما أنت رجل منهم غير أنَّ الله جعلك أثقلهم حِملاً ، وقد بلغني أنَّه قد فشا لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإيَّاكَ يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرَّت بوادٍ خصيب فلم يكن لها همٌّ إلاَّ السِّمَن ، وإنَّما حتفها في السِّمَن ، واعلم أنَّ العامل إذا زاغ زاغت رعيَّتُه ، وأشقى النَّاس مَن شقي النَّاس به والسَّلام »[(٢٠)] .

فأيَّة عدالة تلك الَّتي أراد عمر رضي الله عنه أن تتحقَّق في حياة المسلمين ؟ فالأمير في حكم الإسلام يجب أن يكون من طينة أُخرى تختلف عن طينة المحكومين ! فالأمير من طينة تجعله أثقل من الرَّعيَّة حِملاً ومسؤوليَّة ، من طينة ستجعله يَبرُّ الكبير ، ويرحم الصَّغير ، ويقسم بينهم بالحقِّ أُعطياتهم ، ويحكم فيهم بالعدل .

(١٩) عيون الأخبار : ١٧/١

(٢٠) عيون الأخبار : ١١/١ ، والبيان والتَّبيين ، ص : ٣٥٨

قام رضي الله عنه في يوم جمعة خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمَّ ذكر نبيَّ الله ﷺ وأبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، ثمَّ قال : « اللَّهمَّ إنِّي أُشهدك على أمراء الأمصار ، فإنِّي إنَّما بعثتهم ليعلِّموا النَّاس دينهم ، وسُنَّة نبيِّهم ﷺ ، ويقسموا فيهم فيئهم ، ويعدلوا بينهم ، فمن أشكل عليه شيء رفعه إليَّ »[٢١] .

نموذجٌ من أُمراء عُمَر رضي الله عنه :

سعيد بن عامر الجمحي [ت ٢٠ هـ = ٦٤١ م] ، ولاَّه عمر رضي الله عنه على مدينة حمص ، ولمَّا قدم عمر حمصَ أمرهم أن يكتبوا له أسماء فقرائهم ، فَرُفِعَ الكتاب ، فإذا فيه سعيد بن عامر ، قال عمر : مَنْ سعيد بن عامر ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين ، أميرنا ، قال عمر : وأميركم فقير ؟ قالوا : نعم ، فعجب وقال : كيف يكون أميركم فقيراً ، أين رزقه[٢٢] ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين لا يُمْسِكُ شيئاً ، فبكى عمر ، ثمَّ عمد إلى ألف دينار فَصَرَّها وبعث بها إلى سعيد بن عامر ، وقال : أقرئوه منِّي السَّلام ، فذهبوا بالمبلغ إلى سعيد بن عامر ، وقالوا له : بعث بها إليك أمير المؤمنين ، فاستعن بها على حاجتك ، فنظر إليها فإذا هي دنانير ، فجعل سعيد يسترجع ، فقالت له امرأته ، ما شأنك ؟ أُصيب أمير المؤمنين ؟ قال : أعظم ، قالت : فظهرت آية ؟ قال : أعظم من ذلك ، قالت : فأمر مِنَ السَّاعة ؟ قال : بل أعظم من ذلك ، قالت : فما شأنك ؟ قال : الدُّنيا أتتني ، الفتنة أتتني ، دخلت عليَّ ، قالت : فاصنع بها ما شئت ، قال لها : أعندك عون ؟ قالت : نعم ، فَصَرَّ الدَّنانير فيها صُرَراً ، ثمَّ جعلها في مِخْلاة ، ثمَّ بات يُصلِّي حتَّى أصبح ، ثمَّ وزَّعها إلى أرملة ، أو يتيم ، أو مسكين ، أو إلى مبتلى .

وقال عمر : يا أهل حمص ، كيف وجدتم عاملكم ؟

---

(٢١) الْخَرَاج ، ص : ١٥

(٢٢) كان عمر رضي الله عنه يفرض للأُمراء في العطاء على قدر ما يصلحهم من الطَّعام ، وما يقومون به من الأمور ، (الْخَرَاج : ٥٥) .

قالوا : نشكو أربعاً ، لا يخرج إلينا حتَّى يتعالى النَّهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله يوم في الشَّهر لا يخرج فيه إلينا ، ويغنط[٢٣] الغنطة بين الأيَّام ، فجمع عمر رضي الله عنه بينهم وبينه ، وقال : اللَّهم لا تُفَيِّل[٢٤] رأيي فيه اليوم ، فقال سعيد بن عامر : ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ، ثمَّ أجلس حتَّى يختمر ، ثمَّ أخبز خبزي ، ثمَّ أتوضَّأ ، ثمَّ أخرج إليهم ، وليس لي خادم يغسل ثيابي ، ولا لي ثياب أُبدِّلها ، فأجلس حتَّى تجفَّ ، ثمَّ أدلكها ، ثمَّ أخرج إليهم من آخر النَّهار ، وشهدت مصرع خُبَيْب الأنصاري بمكَّة ، وقد بضَّعت قريش لحمه ، ثمَّ حملوه على جذعة ، فقالوا : أتحبُّ أنَّ محمَّداً مكانك ؟ فقال : والله ما أحبُّ أنِّي في أهلي وولدي ، وأنَّ محمَّداً ﷺ شيك بشوكة ، فما ذكرت ذلك اليوم ، وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك ، إلاَّ ظننت أنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يغفر لي بذلك الذَّنب أبداً ، فتصيبني تلك الغنطة ، وجعلت النَّهار لهم واللَّيل لله عزَّ وجلَّ[٢٥] ، فقال عمر : الحمد لله الَّذي لم يُفَيِّل فراستي .

وأخيراً .. عندما وصلت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه غنائم المدائن ، وفيها تاج كسرى وسواراه ، جعل يقلِّبه بعود في يده ويقول : والله إنَّ الَّذي أدَّى إلينا هذا لأمين ، فقال رجل : ياأمير المؤمنين ، أنت أمين الله ، يؤدُّون إليك ما أدَّيت إلى الله ، فإذا رتعت رتعوا ، قال : صدقت[٢٦] .

☆ ☆ ☆

---

(٢٣) يذهب وعيه ، وفي أُسد الغابة : ١٩٣/٢ ، يصيبه لَمَمٌ ، غَشْيَة .

(٢٤) فَال رأيُه يفيل فَيْلولة : أخطأ وضَعُف ، وفيَّل رأيه خطَّأهُ وقبَّحهُ .

(٢٥) أُسد الغابة : ٣٩٣/٢

(٢٦) ابن سعد : ٢١٠/١ ، وعيون الأخبار : ٥٢/١

الحِسْبَةُ

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

[التَّوبة : ٧١/٩]

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

[آل عمران : ١١٤/٣]

﴿ وَلْتَكُن مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

[آل عمران : ١٠٤/٣]

الحِسْبَةُ لغة : مصدر احتسابك الأجر على اللهِ ، تقول : فعلته حِسْبَة ، وأحتسب فيه احتساباً ، والاحتساب : طلب الأجر ، والاسم : الحِسْبَة (بالكسر) ، وهو الأجر ، [اللِّسان : حسب] ، والمحتسب ـ كما يقول الماوردي ـ مشتق من قولهم حسبك بمعنى (اكفُفْ) ، سمّي بذلك لأنّه يكفي النّاس مؤنة من يبخسهم حقوقهم[1] .. وفي صبح الأعشى [٢٠٩/١١] : الحسبة : موضوعها التّحدُّث على أرباب المعايش والصّنائع والأخذ على يد الخارج عن طريق الصّلاح في معيشته وصناعته .

والحِسْبَة (وظيفة) يتولاّها مسؤول من قبل ولي الأمر ، وهي فرض عين عليه

(١) صبح الاعشى : ٤٥٢/٥

وعلى من تبعه من أعوان وعاملين عليها معه ، فحكمها إذن ، الوجوب على الكفاية ، فهي واجب ملقى على عاتق المجتمع الإسلامي ، لتضبط حركة الحياة في داخلها ، ومن حولها ، من خلال الشّريعة ، لذلك فرّقوا بين المحتسب (الموظَّف) الْمُعَيَّن من قبل الدّولة ، وبين المحتسب الفرد ، وهو المسلم (المتطوّع) في المجتمع عند قيامه بهذا الواجب ، دون تعيين من الدّولة ، ولا تعارض بينهما ، لأنَّ ترك زمام الحِسْبة في يد موظفيها فحسب ، تفتقد الحِسْبة فاعليتها ، خصوصاً إذا اتَّسع نطاق المجتمع ، أو تهاون ولاة الحسبة لرقّة في الدّين عن الالتزام بأوامره ، ولكن للمحتسب (الموظَّف) أن يبحث عن المنكرات ، وليس ذلك على المحتسب (المتطوّع) ، وللمحتسب (الموظَّف) سلطة التعزير عقاباً وتأديباً ، وليس ذلك للفرد (المتطوّع) ، والمحتسب (المتطوّع) أقدم زمناً وأجره على الله ، والمحتسب (الموظَّف) أحدث زمناً ، وله أن يتقاضى أجراً ماديّاً ، لكونه موظَّفاً .

والحِسْبة نظام من النُّظم الإداريّة الإسلاميّة ، يطلق بالمعنى الواسع على وظيفة المحافظة على النِّظام العام ، والمراقبة ، لما يجري بين النّاس من معاملات ، والفصل الفوري في المنازعات ممّا لا يدخل في اختصاص القاضي[2] .

ويمكن القول عموماً : الحِسْبَةُ أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله ، وهي تتعلّق بالنِّظام العام ، والآداب ، ومراقبة الأسواق والتُّجّار وأرباب الحِرَف ، يمنعهم من الغش في تجارتهم وعملهم ومصنوعاتهم ، ويأخذهم باستعمال المكاييل والموازين الصّحيحة ، وربّما سعّر عليهم بضائعهم[3] .

(٢) وموضوع (الحِسْبَة) هنا ، الحِسْبَة الرّسميّة ، وظيفة في النُّظم الإداريّة الإسلاميّة .

(٣) كتب في الحِسْبة : (نهاية الرُّتبة في طلب الحسبة) لعبد الرّحمن بن نصر الشيزري ، و (معالم القُرْبة في أحكام الحسبة) لمحمد بن محمد القرشي المشهور بابن الإخوة ، و (نهاية الرُّتبة في طلب الحسبة) لابن بسّام ـ وهو غير المؤلّف الأندلسي صاحب الذّخيرة ـ ، و (آداب الحسبة) لمحمّد بن أحمد السّقطي المالقي ، و (كتاب الحسبة) لجمال الدّين يوسف بن عبد الهادي ، و (الدّولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية) للمرحوم الأُستاذ محمد المبارك .

منشأ الحِسْبة :

لقـد نهى ﷺ عن الغش ، وقـال : « مَنْ غَشَّ فليسَ مِنَّـا »[٤] ، وربَّما تعرَّض للغشَّاش فزجره ، كما جاء في صحيح مسلم : أنَّ الرَّسول ﷺ مرَّ على صَبْرَة طعـام[٥] ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : ما هذا يا صاحب الطَّعام ، فقال : أصابته السَّماء يا رسول الله ، قال : أفلا جعلته فوق الطَّعام كي يراه النَّاس ، « مَنْ غَشَّنـا فليس منَّا » .

وكان عمر رضي الله عنه يطوف الأسواق ودرَّته معه ، فمتى رأى غشَّاشاً خفقه بها مهما يكن شأنه ، وربَّما أتلف بضاعته .

وأجمع المؤرِّخون على أن منصب الحِسْبة نشأ في العهد العبَّاسي أيَّام المهدي ، وظلَّت من جملة التَّشكيلات الَّتي أخذت بها الممالك الإسلاميَّة فيما بعد ، ولخطورة هذا المنصب ، كان يُنتقى المحتسب من أصحاب الرَّأي والصَّرامة والعلم والورع والتَّقوى ، لأنَّ الحِسْبَة : صيانة حقوق الله ، ورعاية حقوق العباد .

وأُفرد للمحتسب أيَّام المماليك مجلس بدار العـدل في القـاهرة مع القضـاة[٦] ، وأورد القلقشندي وصيَّة محتسب ، نقتطف منها بعض المقاطع لطولها : « وقـد وَلِيَ أمرَ هـذه الرُّتبة ، ووُكِل بعينه النَّظرُ في مصالح المسلمين لله ـحِسبةٍ ، فلينظُرْ في الدَّقيق والجليل ، والكثير والقليل ، وما يُحْصَر بالمقادير ومـا لا يحصر ، ومـا يُؤمر فيـه بمعروفٍ أو يُنهى عن منكر ، وما يشترى ويباع .. وليعمَلْ لديـه معـدَّلاً لكلِّ عمل ، وعيـاراً إذا عُرضتْ عليه المعاييرُ يعرفُ مَنْ جـار ومَنْ عَـدَل ، وليتفقَّـد أكثر هـذه الأسبـاب ، ويحـذِّر من الغِشِّ فإنَّ الدَّاء أكثره من الطَّعام أو الشَّراب ، وليتعرَّف الأسعار ويستعْلِم الأخبار ، في

(٤) رواية مسلم : « من غشَّنا فليس منَّا » .

(٥) الصَّبْرَة : ما جُمِعَ من الطَّعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض ، (اللِّسان : صبر) .

(٦) صبح الأعشى : ٢٠٩/١١

كلّ سوق من غير إعلام لأهلـه ولا إشعـار ، ولِيُقِمْ عليهم من الأُمنـاء من ينوب عنـه في النَّظر ، ويطمئِنَّ به وإن غاب أو حضر ، ويأمُرَه بإعلامه بمـا أعضَل ، ومراجعتـه مهما أمكن فإنّ رأي مثلـه أفضل ، ودار الضَّرب والنُّقود الَّتي منهـا تنبثّ ، وقـد يكون فيهـا من الزَّيف ما لا يظهر إلاّ بعد طَول اللُّبث ، فليتصدّ لمهمَّاتها بصـدره الَّـذي لا يَحْرَج ، وليَعْرِض منهـا على المِحَـكّ من رأيـه مـا لا يجـوز عليـه بهرج ... وليُقِم الضُّمَّـان على العَطَّـارين والطُّرُقيَّـة من بيع غرائب العقـاقير إلاّ مِمَّن لا يستراب فيـه وهو معروف ، وبخـطّ متطبِّب مـاهر لمريضٍ معيَّنٍ في دواء موصـوف ... ومن يـأخُـذ أمـوال الرِّجـال بالحيلـة ويـأكلهم بـاللِّسـان ، وكلّ إنسـان سَوْء من هـذا القبيل هو في الحقيقـة شيطـانٌ لا إنسان ، امنعهم كلَّ المنع ، واَصـدَعْهم مثلَ الزُّجـاج حتَّى لا ينجبر لهم صَـدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال ، وإلاّ فما يُجْـدي في تـأديبهم ذاتُ التَّـأديب والصَّفـع ، واَحْسِم كلَّ هـذه الموادّ الخبيثة ، واقطع ما يُجَدِّد ضعفاءُ النَّاس من هذه الأسباب الرَّثيثـة ، ومَنْ وجـدتـه قد غشّ مسلمـاً ، أو أكل ببـاطلٍ درهمـاً ، أو أخبر مشتَرِيـاً بزائـد ، أو خرجَ عن معهود العوائد ، أشْهِره في البلد ... وغيرُ هؤلاء من فُقَهاء المكاتب وعالمات النِّسـاء وغيرهمـا من الأنواع ممن يُخاف من ذِئبه العائث في سِرْب الظِّباء والجـآذر[٧] ، ومن يُقْـدِم على ذلـك ومثله وما يُحاذِر ، اَرشُقْهم بسهامك ، وزلزل أقدامهم بإقْدامك ، ولا تـدع منهم إلاّ من اختبرت أمانَتَه ، واخترت صيانته ... »[٨] .

وَظائفُ المحتَسِب :

مراقبة الأسواق والحرف : من مهامّ المحتسب ومسؤوليَّاته مراقبة كلّ صاحب مهنة يتكسَّب بها ، مهما يكن نـوع هـذه المهنـة ، سواءً كان طبيبـاً ، أو معلِّماً ، أو بـائـع حلْوى .. ويراقب الصُّنَّاع والتُّجَّار مراقبة حازمة ، ويفاجئ أرباب الحِرَف مفـاجـأة ، أو يـدسّ إليهم رجـالاً لا يعرفونهم ، وتوصَّل المحتسبون إلى تقرير مبـدأ قـانوني لم يصـل

(٧) الجُؤذَر والجُوذر : ولد البقرة ، وفي الصِّحاح : البقرة الوحشيَّة ، والجمع جآذِرَ ، (اللِّسان : جذر) .

(٨) صبح الأعشى : ٢١٤/١١

إليه الأُوربيُّون إلاَّ في العصر الحاضر ، وهو أن يجعلوا صاحب العمل (الْمُعَلِّم) مسؤولاً عن أجيره بطريقة التَّكفيل ، وذلك أنَّ بعض أصحاب المتاجر والصَّنعاتِ يحاولون التَّهرُّب من تبعة أعمالهم بادّعائهم أنَّهم غير مسؤولين عنها ، لأنَّ أُجراءهم هم الَّذين فعلوها .

وجعل المحتسبون لأهل كلِّ صنعة منهم سوقاً يختصُّ به ، وتعرف صناعتهم فيه ، فإنَّ ذلك لقاصدهم أرفق ، ولصنائعهم أنفق ، ومن كانت صناعته تحتاج إلى وقود نار ، كالخبَّاز والطَّبَّاخ والحدَّاد ، فللمحتسب أن يبعد حوانيتهم عن العطَّارين والبزَّازين ، لعدم المجانسة بينهم وحصول الأضرار .

وينبغي أن يمنع أحمال الحطب وأعدال(٩) التِّبن ، وروايا(١٠) الماء ، وشرائج(١١) السِّرْجين والرَّماد ، وأشباه ذلك من الدُّخول إلى الأسواق ، لما فيه من الضَّرر بلباس النَّاس ، ويأمر جلابي الحطب والتِّبن ونحوهم ، إذا وقفوا بها في العراص أن يضعوا الأحمال عن ظهور الدَّواب ، لأنَّها إذا وقفت والأحمال عليها أضرَّتها ، وكان في ذلك تعذيب لها .. ويأمر أهل الأسواق بكنسها وتنظيفها من الأوساخ والطِّين الْمُجْتَمِع ، وغير ذلك ممَّا يضرُّ بالنَّاس .

ومن أمثلة مراقبتهم للخبَّازين مثلاً ، أنَّهم كانوا يأمرون عَمَلَة الخبز أن يصنع كلُّ واحد منهم طابعاً ينقش فيه اسمه ويطبعه على خبزه ، ليتميَّز خبز كل واحد بطابعه ، وتقوم الحجَّة به على صاحبه ، وكانوا يأمرون الخبَّازين برفع سقائف أفرانهم ، وبجعل منافذ واسعة للدُّخان في سقوفها ، وبكنس بيت النَّار في كلِّ تعميرة ، وغسل مستودع الماء ، وتنظيف مائه ، وغسل المعاجن وتنظيفها .. ولا يعجن العجَّان بقدميه ،

---

(٩) جمع عدل ، وهو الحمل ، سُمِّي كذلك لتعادل الحملين على ظهر الدَّابَّة .

(١٠) جمع راوية ، وهو البعير أو البغل أو الحمار الَّذي يُستقى عليه الماء ، (اللِّسان : روي) .

(١١) الشَّريجة قفص أو وعاء كبير يصنع من سعف النَّخل وما يشبهه ، يوضع على ظهر الدَّابَّة ليحمل فيها ، والسِّرْجين : الرَّوث والزِّبل .

ولا بركبتيه ، ولا بمرافقه ، لأنَّ في ذلك مهانة للطَّعام ، وربما قَطَرَ في العجين شيء من عرق إبطيه أو بدنه ، ولا يعجن إلاّ وعليه مِلْعَبَة[١٢] ضَيِّقة الكُمَّين ، ويكون ملثَّماً أيضاً ، لأنَّه ربَّما عطس ، أو تكلَّم فقطر شيء من لُعابه أو مخاطه في العجين ، ويشد على جبينه عصابة بيضاء ، لئلا يعرق فيقطر منه شيء ، ويحلق شعر ذراعيه لئلا يسقط منه شيء في العجين ، وإذا عجن في النَّهار ، فليكن عنده إنسان على يده مذَبَّة يطرد عنه الذُّباب ، ويتفقَّد المحتسب ما يغشُّون به الخبز من الكركم والزَّعفران ، وما يجري مجراه ، فإنَّهما يورِّدان وجه الخبز ، ومنهم من يغشه بالحُمَّص والفول ، ويلزمهم ألاَّ يخبزوه حتَّى يختمر ، فإنَّ الفطير يثقل في الميزان ، وفي المعدة .

مراقبة الأسعار والموازين : وهي من أعظم أعمال المحتسب ، فقد يتدخَّل المحتسب في التَّسعير ، ويمنع احتكار السِّلع ، وللمحتسب أن يكره المحتكر على بيع النَّاس ماعنده بقيمة المِثْل ، وكانوا في الأندلس يُسَعِّرون الأشياء الضَّرورية للحياة ، كالخبز واللَّحم ، ويضعون عليها أوراقاً بسعرها ، يقول المقري في (نفح الطِّيب) : « ولا يجسر الجزَّار أن يبيع بأكثر أو دون ما حَدَّد له المحتسب في الورقة ، ولا يكاد تخفى خيانته ، فإنَّ المحتسب يدسُّ عليه صبيّاً أو جارية يبتاع أحدهما منه ، ثمَّ يختبر المحتسب الوزن ، فإن وجد نقصاً قاس على ذلك حاله مع النَّاس ، فلا تسأل عمَّا يلقى ، وإن كثر ذلك منه ، ولم يتب بعد الضَّرب والتجريس[١٣] ، نُفي من البلد » .

« وكانت الحكومة تحدِّد الأثمان ، وتقبض على من يبيع بأغلى منها ، ويطاف به في شوارع المدينة على جمل ، وهو يدقُّ بيده ناقوساً ، ويعلن بنفسه جُرْمَهُ »[١٤] .

---

(١٢) المِلْعَبَة ـ أصلاً ـ ثوب لا كُمَّ له ، (اللِّسان : لعب) .
(١٣) التجريس لغة : التَّحكيم والتَّجربة (اللِّسان : جرس) ، والمراد هنا : التَّعزير .
(١٤) قصَّة الحضارة : ٢٦٧/٣

وورد : « إذا سعَّر الإمـام انقـادت الرَّعيَّـة لحكمـه ، ومَنْ خـالفـه استحـقَّ التَّعزير »[١٥] .

مراقبـة الأخلاق العـامَّـة : وكان المحتسبون يريقون الخمور ، ويمنعـون النَّـاس من تطيير الْحَمَام ، وعن اتِّخاذ الأكساب الفاجرة ، ومنع السَّحرة والكُهَّان عن منكراتهم ، ومنع تعرُّض الرِّجـال للنِّسـاء ، ويتفقَّـد ـ المحتسب ـ المواضع الَّتي يجتمع فيهـا النُّسوان ، مثل سوق الغزل والكتَّان ، وشطوط الأنهار ، وأبواب حمـامـات النِّسـاء ، وغير ذلـك ، فإن رأى شابّاً متعرِّضاً بامرأة يكلِّمها في غير معاملة في البيع أو الشِّراء ، أو ينظر إليهـا عزَّره ومنعه من الوقوف هناك ، فكثير من الشَّبـاب المفسـدين يقفون في هـذا الموضع ، وليس لديهم حاجة .

جاء في (نهـايـة الأرب في فنون الأدب) للنُّويري : ٢٩١/٦ : وللمحتسب أن يمنع أربـاب السُّفن حمـل مـا لا تسعـه ويخـاف من غرقهـا ، أو من اشتـداد الرِّيـح ، ويمنـع اختلاط الرِّجال بالنِّساء في سوق النِّسوان ، ويمنع البناء في الطَّريق السَّابل .

مُرَاقَبَـةُ العِبَـادات : وكان المحتسبون يعنون بنظـافـة الجوامع وهيبتهـا ، ويمنعـون الصِّبيان والمجانين من دخول المساجد ، وينهون عن وضع الأمتعة فيها ..

مُرَاقَبَةُ الأبنيَةِ وَالطُّرُق : ومن حقِّ المحتسب أن يهدم كلَّ بناءٍ يبرز به صاحبه إلى الطَّريق ، فالطَّريق مُلْكُ العـامَّـة ، ويمنع النَّـاس من فتح النَّوافـذ على صورة يشرفون منها على منازل غيرهم ، ويدعو أصحاب الدُّور المتداعية إلى هدمها ، ورفع أنقاضهـا عن الطَّريق ، ويراقب المحتسب مقاعد الأسواق ، فيمنع ما يضرُّ منها بحركة المرور .

« وأمَّا الطُّرقات ودروب المحلاَّت فلا يجوز لأحد إخراج جدار داره أو دكَّانـه فيهـا إلى الممرِّ المعهود ، وكذلك كل ما فيه أذيَّة أو إضرار على السَّالكين ، كالميازيب الظَّاهرة من الحيطان في زمن الشِّتاء ، ومجاري الأوساخ الظَّـاهرة من الـدُّور في زمن الصَّيف إلى

(١٥) معيد النِّعم ومبيد النِّقم ، ص : ٥٦

وسط الطَّريق ، بل يأمر المحتسب أصحاب الميـازيب أن يجعلوا عوضهـا سيلاً محفوراً في الحائط مكلَّساً يجري فيه ماء السَّطح ، وكل من كان في داره مخرج للوسخ إلى الطَّريق ، فإنَّه يكلِّفه سدَّه في الصَّيف ، ويحفر له في الدَّار حفرة يجتمع بها » .

القضاءُ في بَعْضِ الدَّعـاوَى : وهي ثلاثـة أنواع من الـدَّعـاوى : دعوى البَخْس في الكيل والوزن ، ودعوى الغش والتَّـدليس في بيـع أو ثمن ، ودعـوى المطـل والتَّـأخير في سداد دَيْن ثابت مع المكنة .

أعمال أُخرى مختلفة : مراقبةُ النُّقود من الذَّهب والفضَّة المضروبين ، فعليه اعتبـار العيار بمحكِّ النَّظر ، والتَّثبت من الوزن ، ومراقبة توزيع ميـاه الأنهـار على الأراضي ، ويتحرَّى صحَّة هذا التَّوزيع ..

ويقوم المحتسب بـأُمور كثيرة تـدخـل في بـاب الـدَّعـوة إلى عمـل الخيرات والمبرَّات والرِّفق بالضُّعفاء ، حتَّى تدخَّل بعلف البهائم ، وألاَّ تُسْتَعْمَل في مـا لا تُطيق ، مع السَّهر على الدَّواب الضَّالَّة ، والأشياء الضَّائعة ، والتماس من يحفظها ، ثمَّ يعيدها إلى أصحابها ، ومنع السُّفن من الإقلاع إذا خاف غرقهـا لزيـادة حمولتهـا ، أو بسبب الأحوال الجوِّيَّـة المضطَّربة .

وقد يتعرَّض للموظَّفين الَّذين يتهاونون في قضاء مصالح العبـاد ، يـذكر المـاوردي أنَّ محتسبَ بغـداد مرَّ بـدار قـاضي القضـاة ، فرأى الخصوم جلوساً على بـابـه ينتظرون جلوسـه للنَّظر بينهم ، وقـد تعـالى النَّهـار ، وهجرت الشَّمس[١٦] ، فـوقف واستـدعى حـاجبـه ، وقـال : تقول لقـاضي القضـاة ، الخصـوم جلـوس على البـاب ، وقـد بلغتهم الشَّمس ، وتأذَّوا بالانتظار ، فإمَّا جلستَ لهم ، أو عرَّفتهم عذرك فينصرفوا ويعودوا .

---

(١٦) الهَجير والهَجيرة والهـاجِرَةُ : نصف النَّهـار عنـد زوال الشَّمس إلى العصر ، وقيل : هـو نصف النَّهـار عنـد اشتداد الحرِّ ، (اللِّسان : هجر) .

شروط المحتَسِب :

(الإسلام) لأنَّ الحسبة من الواجبات الدِّينيَّة الَّتي يراد بها نصرة الدِّين ، وإعلاء كلمة الإسلام ، وغير المسلم لا يكون من أهل نصرة الإسلام وتعاليمه ، وتكليفه إكراه له على غير ما يعتقد ، و (البلوغ والعقل) ليتحقَّق التَّكليف(١٧) ، و (القدرة) فوجود ضعف أو مرض أو عي في اللِّسان ، يسقط الوجوب عند الجمهور .

ويشترط بعض الفقهاء : (العدالة) وهي تجنُّب الكبائر ، وخوارم المروءة ، يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ أتأمُرُونَ النَّاسَ بالبرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ وأنتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ ، [البقرة : ٢/٤٤] ، ﴿ يَاأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أن تَقُولُوا مَا لاَ تَفعَلُونَ ﴾ ، [الصَّف : ٦١/٢و ٣] .

و (الذُّكورة) ليست شرطاً في الحسبة ، **لأنَّ النُّصوص جاءت تخاطب جميع المسلمين المكلَّفين . ولقد ولَّى عمر الشِّفَّاء العدوية الحسبة في السوق ، [الإصابة ٤/١٠٠] .**

يقوم المحتسب بأعباء كثيرة وخطيرة ، ولذا اختار لهذه الأعباء نُوَّاباً عنه ، يوزِّعهم في الجهات المختلفة ، وكلُّ واحدٍ من هؤلاء النُّوَّاب يقوم بوظيفة (الحِسْبَة) في محلَّته الَّتي عُيِّنَت له .

وليس للمحتسب أن يقيم حدّاً من اختصاص الولاة والقُضَاة ، وله حقُّ (التَّعزير)(١٨) ، فإذا عجز عن استعمال هذا الحق ، طلب من الولاة معاقبة المخالف .

وكان المحتسب يأخذ أجراً عن عمله ، يساوي أحياناً أُجور بعض القضاة .

صِفَاتُ المحتَسِب وآدابُهُ :

١ ـ (الرِّفْقُ) : يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظاً

---

(١٧) إحياء علوم الدِّين : ٢/٣١٢

(١٨) التَّعزير : التَّأديب ، ولهذا يُسمَّى الضَّرب دون الحدِّ تعزيراً إنَّما هو أدب ، (اللِّسان : عزر) .

غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. ﴾ ، [آل عمران : ١٥٩/٣] ، ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ ، [البقرة : ٨٣/٢] ، ويقول الرَّسول الكريم ﷺ : « من كان آمراً بمعروف فليكن أمره بمعروف »[١٩] .

قال المأمون لرجل جلف أغلظ في كلامه وموعظته : يا رجل ارفق ، فقد بعث الله من هو خير منك ، إلى من هو شرٌّ منّي ، وأمره بالرِّفق ، قال تعالى : ﴿ ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَونَ إِنَّهُ طَغَى ، فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، [طه : ٤٣/٢٠ و ٤٤] .

٢ ـ (التَّأنِّي وَالصَّبْرُ) : لأنَّ العَجَلة تورث الخطأ والنَّدامة ، « وليكن المحتسب متأنِّياً غير مبادر إلى العقوبة ، ولا يؤاخذ أحداً بأوَّل ذنب صدر منه ، ولا يعاقب على أوَّل زلَّة تبدو ، لأنَّ العصمة في الْخَلْق مفقودة فيما سوى الأنبياء »[٢٠] .

٣ ـ (العِفَّة عَنْ أموالِ النَّاس) : ومنها التَّورُّع عن قبول الهدايا ، ويبتعد عن أخذ الرُّشى[٢١] ، والتَّعفُّف أصون لعرضه ، وأقوم لهيبته ، ويلزم المحتسب أعوانه وأهله بما التزمه من هذه الآداب .

وهناك آداب كثيرة تطلب مع المحتسب ، فهو يراقب الأُمور الظَّاهرة ، ولا يتجسَّس ، ولا يقتحم على أصحاب الدُّور دورهم ليحاسبهم على ما يصنعونه فيها سِرّاً ، فللدُّور حرمة مصانَة .

ومن آداب المحتسب ، أن يظهر في النَّاس بهيئة حسنة ، ويقصَّ شاربيه ، ويقلِّم أظافره ، وينظِّف ثيابه ، ويتعطَّر بالمسك ، ويذكر التَّاريخ أنَّ رجلاً حضر عند السُّلطان محمود بن سُبُكْتكين الغزنوي يطلب الحِسْبَة ، فنظر السُّلطان إليه فرأى أنَّ

---

(١٩) البيهقي في شعب الإيمان .

(٢٠) نهاية الرُّتبة في طلب الحسبة ، أبو عبد الرَّحمن الشَّيزري ، تحقيق د . مصطفى زيادة ، ص ٩ ، القاهرة ١٩٤٥ م .

(٢١) الرَّشْوَةَ والرُّشْوَةَ والرِّشْوَةَ ، والجمع رُشى ورِشى ، (اللِّسان : رشا) .

شاربه قد غطّى فاهُ من طوله ، وأذياله تسحب على الأرض ، فقال لـه : يـا شيخ امضِ واحتسب على نفسك ، ثمَّ عُدْ واطلب الحسبة على النَّاس .

يقول السَّقطي في (آداب الحِسْبَـة) : « يجب أن يكون من ولي النَّظر في الحسبـة فقيهاً في الدِّين ، قائماً مع الحقِّ ، نزيه النَّفس ، عـالي الهمَّـة ، معلوم العـدالـة ، ذا أنـاة وحلم ، وتيقُّظ وفهم ، عارفـاً بجزئيَّـات الأُمور ، وسيـاسـة الجمهور ، لا يستخفـه طمع ، ولا تلحقه هوادة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم[٢٢] ، مع مهابـة تمنع من الإدلال عليـه ، وترهب الجاني لديه .. » .

وروى ابن الإخـوة أنَّ أتـابـك بن طغتكين ـ أحـد سـلاطين السَّـلاجقـة ـ طلب محتسباً ، فَذُكِرَ له رجلٌ من أهلِ العِلْم ، فأمر بإحضاره ، فلمَّا نظره قـال : إنِّي ولَّيتـك أمر الحسبة على النَّاس ، بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر .

قـال : إن كان الأمر كما تقـول ، فقُم عن هـذه الطُّرَّاحـة ، وارفـع المسنـد ، فـإنَّهما حرير ، واخلع هذا الخاتم فإنَّه ذهب ، وقد قال ﷺ هذان حرام على ذكور أُمَّتي ، حِلٌّ لإناثها ، فنهض السُّلطان ، عن طُرَّاحته ، وأمر برفع مسنده ، وخلع الخاتم من أُصبعه ، وقال : قد ضممت إليك النَّظر في أُمور الشُّرطة ، فما رأى النَّاس محتسباً أهيب منه[٢٣] .

وهكذا .. الحِسْبَـةُ نظـام إسلامي أصيل ، ليسَ مستجلبـاً أو مقتبسـاً من رومـة أو بيزنطة[٢٤] ، لأنَّ المحتسب لم يكن قط فرضاً أو واقعـاً مختصّـاً بـأمر السُّوق فحسب ، بل إنَّ نشاطه يمتدُّ ، واختصاصاته تتَّسع لتشمل كُلَّ المخالفاتِ الَّتي تقع في المجتمع الإسلامي ، ويمكن الاحتساب فيها على عامَّة المسلمين ، وعلى ذوي الجاه والسُّلطـان ، وعلى الخليفـة نفسه أيضاً .

---

(٢٢) وهذا لا يمنع أن يكون رفيقاً ، ليِّن القول ، طلق الوجه .

(٢٣) نهاية الرُّتبة في طلب الحسبة ، ص : ٧٨

(٢٤) القائم على أمر السُّوق في النِّظام البيزنطي جانب من الحسبة .

والحِسْبَة في الإسلام ليست نظاماً وقتيّاً أقامه عرف ، أو جاء به تاريخ ، ولكنّه حكم شرعي ملزم تَأْثم الأُمَّة الإسلاميَّة كلُّها بتركه ، كما أنَّها لا تملك تغييره ، أو التَّخلِّي عنه ، والهدف إقامة مجتمع الطُّمأنينة والعدالة ، حيث تدخل أعماله واختصاصاته ضمن إطار الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أينما كان .

☆ ☆ ☆

القَضَاءُ

« القانون الَّذي يثغر مرَّة يثغر مراراً ، ثمَّ يكون كالثَّوب الَّذي تهلهل ، حتَّى ما تنفع به الرَّقع » .

[د . أحمد زكي]

تعريف :

يستعمل القضاء والْحُكْم في معنى واحد[(١)] ، قال الجرجاني : « القضاء في الخصومة ، هو إظهار ما هو ثابت » ، وقال ابن فرحون : « حقيقة القضاء ، الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام ، ومعنى قولهم : قضى القاضي ، أي ألزم الحق أهله » ، وقال السُّبكي : « القضاء جمعه أقضية ، وهو الإلزام وفصل الخصومات ، وولاية رتبة دينيَّة » .

أمَّا ابن خلدون فعرَّف القضاء بما يلي : « القضاء : منصب الفصل بين النَّاس في الخصومات ، حَسْماً للتَّداعي ، وقطعاً للتَّنازع ، ويرى القلقشندي أنَّ : « القاضي : هو عبارة عمَّن يتولَّى فصل الأمور بين المتداعين في الأحكام الشَّرعيَّة »[(٢)] .

---

(١) في اللّسان (مادة قضي) ، القضاء : الْحُكْم ، والجمع : الأقضية ، والقضيَّة مثله ، والجمع : القضايا ، وقضي عليه يقضي قضاء وقضيَّة ، والقاضي : القاطع للأُمور المحكم لها ، واستُقْضِيَ فلان ، أي جُعل قاضياً يحكم بين النَّاس ، وقضى الأمير قاضياً : كما تقول أمَّر أميراً ، وتقول : قضى بينهم قضيَّة وقضايا ، والقضايا : الأحكام ، ويقال : قضى يقضي قضاء ، فهو قاضٍ إذا حكم وفَصَل ، وقضاء الشَّيء : إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه ، والقضاء : انقطاع الشَّيء وتمامه ، وكلُّ ما أُحكم عمله ، أو أُتِمَّ أو خُتِم أو أُدِّي أداء ، أو أُوجبَ أو أُعْلِمَ أو أُنفذ أو أُمضي فقد قضي .

(٢) صبح الأعشى : ٤٥١/٥

تاريخُ القَضاء :

في صدر الإسلام : كان رسول الله ﷺ يتولّى القضاء بين النَّـاس : ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يؤمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُم ، ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ ، [النِّساء : ٦٥/٤] ، وباتِّساع رقعة الدَّولة ، بعث ﷺ عليّاً ، ومعاذ بن جبل إلى اليمن للقضاء ، واختبر ﷺ معاذاً حين بعثه فقال : « بِمَ تقضي إنْ عَرض قضاءٌ ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله ، قال : فإن لم يكن في كتاب الله ؟ قال : أقضي بما قضى به الرَّسول ، قال : فإن لم يكن فيما قضى به الرَّسول ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو[٣] ، قال معاذ : فضرب صدري وقال ﷺ : الحمد لله الَّذي وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسولَ الله[٤] .

وتولّى عمر القضاء لأبي بكر الصِّدِّيق[٥] .

وعيَّن عمر في خلافته القضاة في كلِّ الأمصار ، لضمان حصانة القاضي في الولاية ، ولبعده عن سلطة الوالي فيها ، وبالتَّالي تحقيق العدل وإحقاق الحق ، بعيداً عن سلطة الولاية التَّنفيذيَّة ، وكان رضي الله عنه أوَّل من وضع دستور القضاء ، في رسالته المشهورة إلى أبي موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) :

« بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك ، أمَّا بعد : فإنَّ القضاء فريضة محكمة ، وسُنَّةٌ مُتَّبعة ، فافهم إذا أُدلي إليك ، وأنفذ إذا تبيَّن لك ، فإنَّه لا ينفع حق لا نفاذ له ، آسِ بين النَّاس في مجلسك ووجهك[٦] ، حتَّى لا يطمع شريف في حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

---

(٣) ألا يألو ألواً أو ألواً .. قصَّر وأبطأ ، (اللِّسان : ألا) .

(٤) الطَّبقات الكبرى لابن سعد : ٣٤٧/٢ ـ ٣٤٨ ، والإمام أحمد : ٢٣٦/٥ ـ ٢٤٢ ، وأبو داود في الأقضية (٣٥٩٢ و ٣٥٩٣) باب الاجتهاد بالرَّأي في القضاء ، والتِّرمذي في الأحكام (١٣٢٧ ، ١٧٢٨) ، انظر نصب الرَّاية : ٦٣/٤

(٥) صبح الأعشى : ٤٥١/٥

(٦) أي سَوِّ بين النَّاس ..

البيِّنة على من ادَّعى ، واليمين على من أنكر .

والصُّلح جائز بين المسلمين إلاَّ صلحاً أحلَّ حراماً ، أو حرَّم حلالاً ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت لرشدك أن ترجع إلى الحق[7] ، فإنَّ الحقَّ قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحقِّ خير من التَّمادي في الباطل .

الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج في صدرك مِمَّا ليس في كتاب ولا في سُنَّة ، واعرف الأشباه والأمثال ، ثمَّ قِسِ الأُمور عند ذلك ، واعمد إلى أحبِّها إلى الله ، وأشبهها بالحق فيما ترى .

واجعل لمن ادَّعى حقّاً غائباً ، أو بيِّنة أمداً ينتهي إليه ، فإن أحضر بيِّنته أخذت له بحقِّه ، وإلاَّ استحللت عليه القضاء ، فإنَّ ذلك أنفى للشَّكِّ ، وأجلى للعمى ، وأبلغ في العذر .

والمسلمون عدول في الشَّهادة بعضهم على بعض ، إلاَّ مجلوداً في حدٍّ ، أو مجرَّباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة ، فإنَّ اللهَ قد تولَّى منكم السَّرائر ، ودرأ عنكم الشُّبهات .

وإيَّاك والقلق والضَّجر والتَّأذِّي بالنَّاس ، والتَّنكُّر للخصوم في مواطن الحقِّ ، الَّتي يوجب اللهُ بها الأجر ، ويحسن الذُّخر ، فإنَّه مَنْ يخلص نيَّته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه ، يَكْفِهِ الله ما بينه وبين النَّاس ، ومن تزيَّن للنَّاس فيما يعلم الله خلافه منه شانَهُ اللهُ ، وهتك ستره ، وأبدى فعله ، فما ظنُّك بثواب عند الله عزَّ وجلَّ في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته ، والسَّلام »[8] .

---

(٧) في دعوى أُخرى مثلها ، أمَّا الَّتي صدر فيها الحكم وصار حقّاً مكتسباً لصاحبه ، فلا يُبَدَّل الحكم فيها ، قال رضي الله عنه لَمَّا سُئِل عن اختلاف حُكْمَيْن في دعوتَيْن متشابهتَيْن : « تلكَ كما قضينا ، وهذه كما نقضي » .

(٨) عيون الأخبار : ٦٦/١ ، وصبح الأعشى : ٢٥٧/١ ، والبيان والتَّبيين ، ص : ٢٣٧

لقد جمعت هذه الرّسالة العجيبة : آداب القضاء ، وأُصول المحاكمة .

وكان رضي الله عنه إذا أتاه الخصمان ، برك على ركبتيه وقال : اللّهمّ أعنّي عليهما ، فإنّ كلّ واحد منهما يريدني عن ديني ، وقال : وما أُبالي إذا اختصم إليّ لأيّهما كان الحق[٩] . ومن روائعه رضي الله عنه ، قوله : لأن أُعطّل الحدود في الشُّبهات ، خير من أن أُقيمها في الشُّبهات[١٠] .

وفي أيّام الأُمويّين : بدأ تسجيل الأحكام ، وطلب عمر بن عبد العزيز من أُمرائه أن يمتنعوا من إيقاع عقوبة القتل بمن يستحقها ، إلاّ بعد عرض الأمر عليه ، والحصول على موافقته ، وكان يوصي قضاته : إيّاكم والْمُثْلة في العقوبة وجرَّ الرّأس واللّحية .

وفي أيّام العبّاسيّين : ظهر منصب (قاضي القضاة) ، وهو بمثابة وزير العدل اليوم ، وأوّل من تولّى هذا المنصب أبو يوسف[١١] ، تلميذ أبي حنيفة ، فكان لا يُولّى قاض ، أو يُعزل إلاّ بإشارته .

قال المأمون : أوّل العدل أن يعدل الرّجل على بطانته ، ثمّ على الّذين يلونهم ، حتّى يبلغ العدل الطّبقة السُّفلى[١٢] .

هذا .. وتحقّق في الحضارة العربيّة الإسلاميّة فصل السُّلطة القضائيّة عن بقيّة سلطات الدّولة ، ولم يجد القاضي حرجاً في إصدار حكم ضدّ الولاة ، أو الخليفة نفسه .

(٩) ابن سعد : ٢٠٨/١ و ٢٠٩

(١٠) الْخَرَاج ، ص : ١٦٥ ، قال ﷺ : « ادرؤوا الحدود عن المسلمين بالشُّبهات ما استطعتم ، فإذا وجدتم للمسلم مخرجاً فخلُّوا سبيله ، فإنّ الإمام لأن يخطئ في العفو خير له من أن يخطئ في العقوبة » ، حتّى أنّ أبا الدّرداء (عويمر بن عامر الخزرجي) أتى بامرأة سرقت ، فقال : أَسَرَقْتِ ؟ قولي : لا ، (عيون الأخبار : ٢٠/١) .

(١١) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري : [١١٣ ـ ١٨٢ هـ = ٧٣١ ـ ٧٩٨ م] ، أوّل من دُعي (قاضي قضاة الدُّنيا) ، وأوّل من وضع الكتب في أُصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ، وكان واسع العلم بالتّفسير والمغازي وأيّام العرب ، أشهر كتبه (الْخَرَاج) ، [الأعلام : ١٩٣/٨] .

(١٢) عيون الأخبار : ٢٣/١

شُروطُ القُضاة :

الذُّكورة : وشذَّ الطَّبري فأجاز القضاء للمرأة في كلِّ شيء ، وأجاز أبو حنيفة قضاءها فيما تصحُّ فيه شهادتها .

والبلوغ : لأنَّ الصَّبي ناقص التَّمييز من جهة ، وليس له ولاية على نفسه ، فلا يعقل أن تكون له ولاية على النَّاس من جهة ثانية .

والعقل : فلا يجوز أن يُوَلَّى القضاء مجنون ، بل يجب أن يكون عاقلاً ، صحيح التَّمييز ، جيِّد الفطنة ، بعيداً عن السَّهو والغفلة ، يتوصَّل بذكائه إلى إيقاع ما أشكل ، وفصل ما أعضل .

والحُرِّيَّة : فلا يجوز للعبد أن يكون قاضياً .

والإسلام : لا يجوز أن يُوَلَّى غير المسلم القضاء بين المسلمين .

وسلامة السَّمع والبصر والنُّطق : ليسأل الخصوم ، ويستمع إلى أقوالهم ، ويرى ما يصنعون بحضرته .

والعدالة : وهي عند أبي حنيفة أن يكون ظاهر الإسلام ، وأن لا تعلم عنه جرحة ، فمعنى العدالة ضدَّ الفسق هنا .

والعِلْم : صفة ضروريَّة للقاضي ، وبعضهم استوجب أن يكون مجتهداً ، فكان يحيي بن أكثم يمتحن من يريدهم للقضاء ، فقال لرجل : ما تقول في رَجُلَيْن زوَّج كلٌّ واحدٍ منهما الآخر أُمَّه فَوُلِدَ لكلِّ واحد من امرأته ولد ، ما قرابةُ ما بين الولدين ؟ فلم يعرفها ، فقال له يحيي : كلٌّ واحد من الولدين عمٌّ الآخر لأُمِّه(١٣) .

وقال عمر بن عبد العزيز : « لا ينبغي للرَّجل أن يكون قاضياً حتَّى تكون فيه

---

(١٣) عيون الأخبار : ٦٥/١

خمس خصال : يكون عالماً قبل أن يُسْتَعْمل ، مستشيراً لأهل العلم ، ملقياً للرَّثَع[١٤] ، منصفاً للخصم ، مقتدياً بالأئمَّة »[١٥] .

ويـنظر القاضي في الأُمور التَّالية :

ينظر القاضي في الدَّعاوى الحقوقيَّة الَّتي يقدِّمها إليه الأفراد في المنـازعـات الَّتي تقع بينهم ، والفصل فيها صلحاً ، أو بحكم بـاتٍّ ، والنَّظر في الـدَّعـاوى الجزائيَّـة ، كـدعوى القذف والجرح ، والنَّظر في الحدود الَّتي تعدُّ من حقوق الله ، ولو لم تقدَّم بذلـك دعـاوى من رجل ما يتَّخذ لنفسه صفة المدَّعي ـ، وتنفيذ الأحكام واستيفاء الحدود ، والحجر على السُّفهاء ، وتنصيب الأولياء والأوصيـاء .. والنَّظر في الأوقـاف ، والوصـايـا ، وتزويج الأيـامى إذا جـاءهنَّ من يخطبهنَّ من أكفـائهنَّ وأعضلهنَّ أوليـاؤهنَّ ـ أي منعـوهُنَّ من الزَّواج ظُلماً ـ، وتصفُّح الشُّهود ، والتَّعـديل على النُّزهـاء منهم ، واطراح من لا يـوثـق به .

مجلسُ القاضي وآدابُهُ :

« قبول الهدايا من أقبح ما يرتكبه القضاة ، فَلْنَسُـدُّ بـابها بـالكلِّيَّـة ، وقـد علم أن مذهب الشَّافعي رضي الله تعالى عنه أنَّه لا يجوز له أن يقبل الهديَّة مِمَّن لم تكن له عادة أن يهاديه قبل ولايته القضاء ، ولا ممَّن كانت له عادة ما دامت له حكومـة ، والمـذاهب في المسألة معروفة ، وأنا أعتقد أنَّه يحرم على القاضي قبول هـديَّـة من يُهـدي للقـاضي في العرف ليستميل خاطره لقضاء أربه .. »[١٦] .

امرأة من قريش كان بينهـا وبين رجل خصومـة ، فـأراد أن يخـاصمهـا إلى عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، فأهدت المرأة إلى عمر فخـذ جَزور ، ثمَّ خـاصمتـه إليـه ، فوجَّـه

---

(١٤) الرَّثَعُ : الطَّمع والحرص الشَّديد ، الدَّناءة والشَّره وميل النَّفس إلى دنيء المطامع ، (اللِّسان : رثع) .

(١٥) عيون الأخبار : ١/٦٠

(١٦) معيد النِّعم ومبيد النِّقم ، ص ٤٨

القضاء عليها ، فقالت : ياأمير المؤمنين ، افْصِل القضاء بيننـا كما يُفْصَل فخـذ الجزور ، فقضى عليها عمر وقال : إيَّاكم والهدايا[١٧] .

واستعمـل الحجَّـاجُ المغيرةَ بنَ عبيـد الله الثَّقفي على الكـوفـة ، فكان يقضي بين النَّاس ، فأهدى إليه رجل سِراجاً من شَبَهٍ[١٨] ، وبلغ ذلك خصمه ، فبعث إليـه ببغلـة ، فلمَّا اجتمعا عند المغيرة جعل يحمل على صاحب السِّراج ، وجعل صاحب السِّراج يقول : إنَّ أمري أضوأُ من السِّراج ، فلمَّـا أكثر عليـه قـال : ويحـك ، إنَّ البغلـة رَمَحَت السِّراج فكسرته[١٩] .

كان القـاضي يجلس للقضـاء في داره ، أو في المسجـد ، أو في السُّـوق ، وربَّما ركب وتجوَّل في البلـد ، فوقف حيث يطلب للقضـاء ، واتُّخِـذَت دار للقضـاء في أغلب المـدن الكبرى ، تحتفظ فيها سجلات الدَّعاوى .

وكانت لهيئة القاضي في جلوسه وكلامه وحركاته وإدارة الجلسات ، وإقامته هيبـة القضاء ، قواعد ورسوم يُعنى بها الفقهاء كثيراً : « عليه السَّكينة والوقار ، لا يتضاحـك في مجلسـه ، ويلـزم العبـوسيَّـة من غير غضب ، ويمنـع من رفـع الصَّـوت عنـده .. » ، وذكروا عن القاضي ابن حَرْبَوَيْه[٢٠] أنَّه كان شـديـد الوقـار ، فـاختصم عنـده رجلان ، فضحـك أحـدهم ، فصـاح ابن حَرْبَويـه صيحـة مـلأت الـدَّار ، وقـال : لاأضحـك اللهُ سِنَّك ، تضحك في مجلس ، الله مطَّلع عليـك فيـه ؟ ويحـك ! تضحـك وقـاضيـك بين الجنَّة والنَّار[٢١] .

---

(١٧) عيون الأخبار : ٥٢/١

(١٨) الشَّبَه : النُّحاس الأصفر .

(١٩) عيون الأخبار : ٥٢/١

(٢٠) تولَّى ابن حربويه القضاء سنة ٣٢٩ هـ أيَّام الخليفـة المقتـدر ، وكان آخر من ركب إليـه الأُمراء ، وكان لا يقوم للأمير إذا حضر ، وكان عزيـز النَّفس ، عدلاً ، لا يفعـل أمـام الجمهـور مـا يحـطُّ من كرامتـه . لا يتقيَّد بمذهب من المذاهب ، بل يجتهد .

(٢١) عيون الأخبار : ٦٥/١

كره الفقهاء أن يأخذوا أجراً قُبَالة قضائهم ، ثمَّ عُيِّن لهم أجر قليل ، والقاعدة أن يكون للقاضي رزق يجري عليه من بيت المال ، ليفرغ من هَمِّ المعيشة إلى هَمِّ القضاء ، فعبد الرَّحمن بن حُجَيْرَة الخولاني : [ت ٨٣ هـ = ٧٠٢ م] ، ولاَّه عبد العزيز بن مروان القضاء وبيت المال في مصر ، فكان رزقه كل سنة ألف دينار[٢٢] ، وعبد الله بن لَهيعة بن فُرعان الحضرمي : [٩٧ ـ ١٧٤ هـ = ٧١٥ ـ ٧٩٠ م] ، ولي قضاء مصر للمنصور العبَّاسي سنة ١٥٤ هـ ، فأجرى عليه ثلاثين ديناراً كل شهر[٢٣] ، واتَّجر بعض القضاة إلى جانب منصبهم ليعيشوا عيشة لائقة محترمة .

كتب يحي بن حمزة قاضي دمشق زمن الرَّشيد إلى الأمير إسحاق بن عيسى كتاباً ، بدأه بقوله : « أمَّا بعد ، فلا ينبغي لقاضٍ أن يكون غارماً[٢٤] ، لأنَّ الغارم يعد فيُخلِف ، ويقول فيكذب ، ولا ينبغي أن يكون به حاجة إلى أحد فَيَهِنُ في الحقِّ ، وينعاق[٢٥] عن مقطعه ، لأنَّ طلب الحاجات فقر ظاهر وهمٌّ شاغل ، ولا ينبغي أن يعارض همٌّ الحكم همَّ غيره ، فيزري بصاحبه ، ويشغله عنه » .

وفي مدينة البَصْرة كان القاضي سَوَّار بن عبد الله[٢٦] ، فلم يَرَ النَّاسُ حاكماً قطُّ ، ولا زِمِّيتاً ولا رَكيناً[٢٧] ، ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، ومَلَك من حركته مثلَ الَّذي ضَبَط ومَلَك ، كان يُصَلِّي الغداةَ في منزله ، وهو قريب الدَّار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتَّكئ ، فلا يزالُ منتصباً لا يتحرَّك له عضوٌ ، ولا يلتفت ، ولا يحلُّ حُبْوَته[٢٨] ، ولا يحوِّل رِجلاً عن رجل ، ولا يعتمد على أحد شِقَّيه ، حَتَّى كأنَّه

(٢٢) الأعلام : ٣٠٣/٣

(٢٣) الأعلام : ١١٥/٤

(٢٤) الْغُرْمُ : الدَّيْن ، ورجلٌ غارمٌ : عليه دَيْن ، (اللِّسان : غرم) .

(٢٥) هكذا وردت في (تاريخ دمشق) لابن عساكر ، ولعلَّها (يعاق) عن قضائه .

(٢٦) سَوَّار بن عبد الله بن قدامة العنبري البصري .

(٢٧) الزِّميت : العظيم الوقار ، والرَّكين : الرَّزين .

(٢٨) الْحُبْوَة : أن يجمع الرَّجل بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

بنـاءً مبنيٌّ ، أو صخرة منصوبـة ، فلا يزال كـذلـك ، حتَّى يقوم إلى العصر ، ثمَّ يرجع لمجلسه ، فلا يزال كـذلـك حتَّى يقوم لصلاة المغرب ، ثمَّ ربَّما عـاد إلى محلِّـه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك إذا بقي عليه من قراءة العهود والشُّروط والوثائق ، ثمَّ يُصلِّي العشاء الأخيرة وينصرف ، فالحقُّ يقـال : لم يَقُمْ في طول تلـك المـدَّة والولايـة مرَّة واحـدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شربَ ماءً ولا غيرَه من الشَّراب ، كذلـك كان شـأنـه في طوال الأيَّام وفي قصـارهـا ، وفي صيفهـا وفي شتـائهـا ، وكان مع ذلـك لا يحرِّك يـده ، ولا يُشير برأسه ، وليس إلاَّ أن يتكلَّم ثمَّ يوجز ، ويبلغ بالكلام اليسير المعـاني الكثيرة ، فبينا هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه ، وفي السِّماطين[٢٩] بين يديه ، إذْ سقـط على أنفـه ذبـابٌ فـأطـال المكث ، ثمَّ تحوَّل إلى مُـؤقِ عينـه[٣٠] ، فرام الصَّبر في سقـوطـه على المؤق ، وعلى عضِّـه ونفـاذِ خرطومـه كما رام من الصَّبر على سقوطـه على أنفـه من غير أن يحرِّك أرنبته ، أو يغضِّن[٣١] وجهـه ، أو يـذبَّ بـإصبعـه ، فلمَّـا طـال ذلـك عليـه من الذُّباب وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكانٍ لا يحتمل التَّغافُلَ ، أطبق جفنـه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلـك إلى أن وَالى الإطبـاق والفتح ، فتنحَّى ريثما سكن جفنُه ، ثمَّ عاد إلى مؤقه بأشدَّ من مرَّته الأُولى ، فغمس خرطومه في مكان كان قـد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف ، وعجزه عن الصَّبر في الثَّـانيـة أقوى ، فحرَّكَ أجفانَهُ وزاد في شدَّة الحركة وفي فتح العين ، وفي تتـابعِ الفتح والإطبـاق ، فتنحَّى عنـه بقدر ما سكنت حركتـه ثمَّ عـاد إلى موضعـه ، فما زال يلحُّ عليـه حتَّى استفرغ صبرَه ، وبلغ مجهوده ، فلم يجـد بُـدّاً من أن يـذبَّ عن عينيـه بيـده ، ففعل ، وعيون القوم إليـه ترمقه ، وكأنَّهم لا يرونه ، فتنحَّى عنه بقـدر مـا رَدَّ يـده ، وسكنت حركتـه ثمَّ عـاد إلى موضعه ، ثمَّ ألجأه إلى أن ذبَّ عن وجهه بطرف كُمِّه ، ثمَّ ألجـأه إلى أن تـابع بين ذلـك ،

---

(٢٩) السِّماط (بالكسر) : الصَّف .

(٣٠) المؤق : طرف العين ممَّا يلي الأنف .

(٣١) غضَّن وجهه : جعل به غضوناً ، وذلك بأن يقبض جلده .

وعلِمَ أنَّ فعله كله بعين من حضره من أُمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أنَّ الذُّباب ألَحُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ! واستغفر الله ! فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد اللهُ عزَّ وجلَّ أن يعرِّفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ! وقد علمت أنّي عند النَّاس مِنْ أزمَتِ النَّاس(٣٢) ، فقد غلبني وفضحني أضعف خَلْقِه ، ثُمَّ تلا قولَهُ تعالى : ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٢٢/٧٣] .

وكان بيِّن اللِّسان ، قليلَ فضولِ الكلام ، وكان مَهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمَنَالة(٣٣) .

وللقاضي أن يتَّخذ كاتباً لتسجيل الأحكام وحجج المتداعين ، وخازناً يحفظ الدَّعاوى ، وأعواناً يرسلهم في إحضار الخصوم ، وحاجباً ينظِّم أوقات حضور الخصوم ، وأحياناً ترجماناً ينقل إليه أقوال الأعاجم .

وقد يولَّى القاضي على بلد بكامله ، وتكون بذلك ولايته عامَّة ، وقد تخصَّص ولايته بالنَّظر في أقضية معيَّنة ، أو في ناحية من المدينة فقط ، عندها تقسَّم المدينة الواحدة محلاَّت ، وفي كلِّ محلَّة منها قاضٍ .

وعرفت حضارتنا العربية الإسلاميَّة (**قضاء العسكر**)(٣٤) أيضاً ، وأورد القلقشندي وصيَّة لقاضي العسكر ، منها : « وهو الحاكم حيث لا تنفُذُ إلاَّ أقضيةُ السُّيوف ، ولا تزدحم الغرماء إلاَّ في مواقف الصُّفوف .. وأكثَرُ ما يتحاكم إليه في الغنائم الَّتي لم تَحِلَّ لأحدٍ قبل هذه الأُمَّة ، وفي الشَّركة وما تُطلب فيه القسمة ، وفي المبيعات وما يُرَدُّ منها بعيب ، وفي الدِّيون المؤجَّلة وما يُحْكَم فيها بغيب ، وكلٌّ هذا مِمَّا لا يحتمل

(٣٢) أزمت النَّاس : أي أشدهم وقاراً وسكوناً .

(٣٣) المنالة : مصدر نلت أنال ، ومجلس عبد الله بن سَوَّار هذا في (كتاب الحيوان) : ٣/٣٤٣

(٣٤) « يَجْعَل له ـ للقاضي ـ مستقراً معروفاً في العسكر يُقصد فيه إذا نُصبت الخيام ، وموضعاً يمشي فيه ليقضي فيه وهو سائر ، وأشهر ما كان على يمين الأعلام » ، صبح الأعشى : ١١/٢٠٧

طُولَ الأناة في القضاء ، واشتغالَ الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتَّردُّد إليه بالإمضاء ، فليكن مستحضراً لهذه المسائل ليَبُتَّ الحكم في وقته ، ويُسارع السَّيفَ الْمُصلَتَ في ذلك الموقف بِبَتِّه »[٣٥] .

نزاهة القضاء :

« إنَّ الغرض من القضاء هو إقامة العدل بين النَّاس بنصر المظلوم ، والأخذ على يد الظَّالم ، وإيصال الحقوق إلى أربابها ، والقضاء على المنازعات والخصومات ، والإصلاح بين النَّاس ، ولا يتحقَّق ذلك إلاَّ بنزاهة القضاة ، وتحرِّيهم العدل ، وإعانتهم عليه ، وبعدهم عن الظُّلم ، وإبعادهم عنه ، وابتعادهم عن كلِّ ما يوجب الشُّبهة والتُّهمة في أحكامهم وإلزامهم بذلك ، وقد وضعت الشَّريعة الإسلاميَّة نُظُماً كفيلة بتحقيق هذه النَّزاهة على أكمل وجه ، وأوسع نطاق ، جعلت من نظام القضاء في الإسلام مضرب المثل في العدالة والنَّزاهة والفقه ، وكان للإسلام وسيرة الَّذين أُوتوا العلم من رجاله أثر في إصلاح القضاء كبير ، فهو يلقِّن القاضي أنَّه مستقل في قضائه ، ليس لأحدٍ عليه من سبيل .. قال ابن عبد السَّلام يصف قضاة الإسلام العادلين : وربَّما كان بعضهم يحكم على من ولاَّه ، ولا يقبله إن شهد عنده »[٣٦] .

وهذا لا يعني ألاَّ تتدخَّل الدَّولة في القضاء مطلقاً ، لقد كانت تتدخَّل في حال بُعْد السُّلطان عن العدل بين رعيَّته ، أو في حال فقه السُّلطان وخطأ القاضي عن حسن نيَّة[٣٧] . والأصل : ضمنت الشَّريعة صون القضاء من التدخُّل فيه ، وهذه أمثلة على ما كان عليه القضاء في الإسلام :

---

(٣٥) صبح الأعشى : ٢٠٦/١١

(٣٦) نظام القضاء في الإسلام ، من البحوث المقدَّمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الَّذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميَّة بالرِّياض سنة ١٣٩٦ هـ ، أشرفت على طباعته ونشره إدارة الثَّقافة والنَّشر بالجامعة سنة ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤ م .

(٣٧) تاريخ اليعقوبي : ٤٦٨/٢

شُرَيح بن الحارث بن قيس الكندي (أبو أُميَّة) ، من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام ، ولي قضاء الكوفة في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية ، كان ثقة في الحديث ، مأموناً في القضاء ، له باع في الأدب والشِّعر[٣٨] ، أقام خمساً وسبعين سنة في القضاء لم يتعطَّل فيها إلاَّ ثلاث سنين ، امتنع فيها من القضاء في فتنة عبد الله بن الزُّبير ، واستعفى الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي من القضاء ، فأعفاه ولم يقضِ بين اثنين حتَّى مات[٣٩] .

دخل الأشعث بن قيس بن معِديكرِب ، أمير كندة في الجاهليَّة والإسلام[٤٠] ، على شُريح في مجلس القضاء ، فقال له شريح : مرحباً ، أهلاً بشيخنا وسيِّدنا ، وأجلسه معه ، فبينما هو جالس معه ، إذ دخل رجل يتظلَّم من الأشعث ، فقال له شريح : قُمْ فاجلس مجلس الخصم ، وكلِّم صاحبك ، قال : بل أُكلِّمه في مجلسي ، فقال له : لتقومَنَّ ، أو لآمرَنَّ من يقيمك ، فقام امتثالاً لأمر القضاء[٤١] .

كتب أبو جعفر المنصور إلى سَوَّار بن عبد الله قاضي البصرة : انظر الأرض الَّتي يخاصم فيها فلان القائدُ فلانَ التَّاجر ، فادفعها إلى فلان القائد ، فكتب إليه سَوَّار : إنَّ البَيِّنة قد قامت عندي أنَّها لفلان التَّاجر ، فلست أُخْرِجُها من يديه إلاَّ ببيِّنة ، فكتب إليه المنصور : واللهِ الَّذي لا إله إلا هو لتدفعنَّها إلى فلان القائد ، فكتب إليه سَوَّار : والله الَّذي لا إله إلاَّ هو لا أخرجتها من يدي فلان التَّاجر إلاَّ بحق !

فلمَّا جاءه الكتاب ، قال أبو جعفر المنصور : ملأتها والله عَدْلاً ، صار قُضَاتي يردُّونني إلى الحقِّ[٤٢] .

---

(٣٨) أصله من اليمن ، عُمِّرَ طويلاً ، ومات بالكوفة سنة ٧٨ هـ = ٦٩٧ م ، (الأعلام : ١٦١/٣) .

(٣٩) وفيَّات الأعيان : ٤٦٠/٢

(٤٠) وكان من ذوي الرَّأي والإقدام ، موصوفاً بالهيبة ، توفِّي سنة ٤٠ هـ = ٦٦١ م ، (الأعلام : ٣٣٢/١) .

(٤١) تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ٢٢ ، محمود محمد عرنوس .

(٤٢) تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر ، المجلد ٣٨ ، ص : ٢٢٧

وشُكِيَ سوَّار بن عبد الله إلى أبي جعفر المنصور ، وأُثْني عليه عنده شرّاً ، فاستقدمه من البصرة ، فلمَّا أن قدم دخل عليه ، فعطس المنصور ، فلم يشمِّتْه سَوَّار ، فقال : ما يمنعك من التَّشميت ؟ قال : لأنَّك لم تحمدِ اللهَ ، فقال : قد حَمِدْتُ في نفسي ، قال سَوَّار : فقد شَمَّتُّكَ في نفسي ، فقال : ارجع إلى عملِكَ ، فإنَّكَ إذا لم تحابني لم تحاب غيري[٤٣] !

قال نمير المدني : قدم علينا أمير المؤمنين المنصور المدينةَ ، ومحمد بن عمران الطَّلْحي على قضائه ، وأنا كاتبه ، فاستعدى الجمَّالون على أمير المؤمنين في شيء ذكروه ، فأمرني أن أكتب إليه كتاباً بالحضور معهم وإنصافهم ، فقلت : تعفيني من هذا ، فإنَّه يعرف خطِّي ، فقال : اكتب ! فكتبت ، ثمَّ ختمه ، فقال : لا يمضي به ـ واللهِ ـ غيرُك ، فمضيت به إلى الرَّبيع ، وجعلتُ أعتذر إليه ، فقال : لا عليك ، فدخل عليه بالكتاب ، ثمَّ خرج الرَّبيع فقال للنَّاس ، وقد حضر وجوه أهل المدينة والأشراف ، وغيرهم : إنَّ أمير المؤمنين يقرأ عليكم السَّلام ، ويقول لكم : إنِّي قد دعيتُ إلى مجلس الْحُكْم ، فلا أعلمنَّ أحداً قام إليَّ إذا خرجتُ ، أو تدانى بالسَّلام ، ثمَّ خرج والْمُسَيَّبُ بين يديه ، والرَّبيع ، وأنا خلفه ، وهو في إزارٍ ورداءٍ ، فسلَّم على النَّاس ، فما قام إليه أحدٌ ، ثمَّ مضى حتَّى بدأ بالقَبْرِ ، فسلَّم على رسول الله ﷺ ، ثمَّ التفت إلى الرَّبيع ، فقال : يا ربيعُ ، ويحك ! أخشى إن رآني ابن عمران أنْ يدخل قلبَه لي هيبة ، فيتحوَّل عن مجلسه ، وبالله لئن فعل لا وليَ ولايةً أبداً !

فلمَّا رآه ، وكان متَّكئاً ، أطلق رداءه عن عاتقه ثمَّ احتبى به ، ودعا بالخصوم والجمَّالين ، ثمَّ دعا بأمير المؤمنين ، ثمَّ ادَّعى عليه القومُ ، فقضى لهم عليه ، فلمَّا دخل الدَّار قال للرَّبيع : اذهب ، فإذا قام وخرج مَنْ عنده مِنَ الخصوم فادعه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ما دعا بك إلاَّ بعد أن فرغ من أمر النَّاس جميعاً ، فلمَّا دخل عليه

(٤٣و٤٤) المرجع السَّابق ، ص : ٢٢٨

سلّم ، فقال : جزاك الله عن دينك ، وعن نبيِّك ، وعن حَسَبِك ، وعن خليفتك أحسن الجزاء ، قد أمرت لك بعشرة آلاف دينار ، فاقبضها ، وكانت عامّة أموال محمد بن عمران من تلك الصّلة[٤٤] .

ويروي أبو يوسف ـ وهو من أفذاذ القضاة ـ عن نفسه ، أنَّه جاءه رجل يدَّعي أنَّ له بستاناً في يد الخليفة ، فأحضر الخليفة إلى مجلس القضاء ، وطلب من المدَّعي البيِّنة ، فقال : غصبه المهدي[٤٥] منِّي ولا بيِّنة لديَّ ، وليحلف الخليفة ، فقال أمير المؤمنين : البستان لي اشتراه لي المهدي ، ولم أجد به عقداً ، فوجَّه القاضي أبو يوسف إلى الخليفة اليمين ثلاث مرَّات ، فلمَّا لم يحلف ، قضى بالبستان للرَّجل .

ومن ذلك أن أبا يوسف ردَّ شهادة الوزير الفضل بن الرَّبيع ، فسأله الرشيد أعظم ملوك الأرض في عصره في ذلك ، فقال : سمعته يقول : أنا عبد الخليفة ، فإن كان صادقاً فلا شهادة لعبد ، وإن كان كاذباً فشهادته مردودة أيضاً لكذبه ، وبالغ الخليفة في الجدل ، فقال : وما شأني كشاهد ، أتقبل شهادتي ؟ فقال أبو يوسف : لا ، فيعجب الخليفة ، وسأله عن السَّبب ، فقال : لأنَّك تتكبَّر على الْخَلْق ، ولا تحضر الجماعة من المسلمين ، وهذا ينافي العدالة الَّتي هي شرط لقبول الشَّهادة ، فبنى الرَّشيد مسجداً في داره ، وأذن للعامَّة في الصَّلاة فيه ، فحضر بذلك صلاة الجماعة .

ويروي البيهقي في الجزء الثَّاني من كتابه (المحاسن والمساوئ) ، ما حدث بين الخليفة المأمون ، وقاضيه يحي بن أكثم[٤٦] ، قاضي بغداد في زمنه ، وقد وقف رجل من

---

(٤٥) المهدي والد الرَّشيد ، فالقصَّة هنا بين الرَّشيد وقاضي القضاة أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة .

(٤٦) يحي بن أكثم بن محمد بن قطن التَّميمي (أبو محمد) : [١٥٩ ـ ٢٤٢ هـ = ٧٧٥ ـ ٨٥٧ م] ، قاضٍ رفيع القدر ، عالي الشُّهرة من نبلاء الفقهاء ، ولاه المأمون قضاء البصرة سنة ٢٠٢ هـ ، ثمَّ قضاء القضاة ببغداد ، وأضاف إليه تدبير دولته ، فكان وزراء الدَّولة لا يقدمون ولا يؤخرون في شيء إلاَّ بعد عرضه عليه ، وغلب على المأمون ، حتَّى لم يتقدَّمه عنده أحد ، (الأعلام : ١٣٨/٨) .

عامَّة الشَّعب بين يدي المأمون ، وهو في مجلس المظالم يتظلَّم منـه ، فترادَّ الكلام سـاعـة فلم يتَّفقا ، وقف هذا الرَّجل المغمور يحاجج الخليفة على حقٍّ له عنـدهُ ، فلا يصل معـه إلى اتِّفاق ، فيقول له المأمون الإمام الأعظم : فمن يحكم بيننا ؟ فيقول الرَّجل غير هيَّاب ولا وَجِل : القاضي الَّذي أقمته لرعيَّتك ، وكان يومئذٍ يحيي بن أكثم ، فدعا به المـأمون ، فقال له : اقضِ بيننا ، قال القاضي : في حكم وقضيَّة ـ أي دعوى ـ قال المـأمون : نعم ، قـال القـاضي : لا أفعـل ، فعجب المـأمـون ، وقـال : لمـاذا ؟ قـال القـاضي : لأنَّ أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضـاء ، فـإن كانت لـه دعوى ، فليـأتِ مجلسَ الحكم ، قال الخليفة : قد جعلت داري مجلساً للقضاء ، قـال القـاضي : إذاً فـإنِّي أبـدأ بـالعـامَّـة ليصحَّ مجلس القضاء ، وتكون المحـاكمـة علنيَّـة ، قـال الخليفـة : افعل ، ففتح البـاب ، وقعد في ناحية من الدَّار ، وأذِنَ للعامَّـة ، ونـادى المُحْضِر ، وأُخـذت الرِّقـاع ـ عرائض الدَّعاوى ـ ودعا الخصوم على ترتيبهم حتَّى جاءت النَّوبة إلى المتظلِّم من الخليفة ، فقـال لـه القـاضي : مـا تقول ؟ قـال الرَّجل : أقول أن تـدعو بخصمي أمير المـؤمنين ، فنـادى المحضر : عبد الله المأمون ، فإذا بـأمير المؤمنين قـد خرج في رداء وقميص وسروال في نعلٍ رقيـق ، ومعـه غـلام يحمـل مصلَّى ، حتَّى وقف أمـام القـاضي يحيي بن أكثم ، ويحيي جالس في مكانه ، فقال للمأمون : اجلس ، فطرح المصلَّى ليقعد عليها الخليفـة ، فمنعـه القاضي ، حتَّى جاء بمصلى مثله ، فَبُسِطَ للخصم ، وَجلسِ عليه ، وقضى بينهما[(٤٧)] .

وغضب المعتصم على رجل من أهـل الجـزيرة الفراتيَّـة ، وأحضر السَّيف والنِّطـع ، فقال له المعتصم : فعلتَ وصنعتَ ، وأمر بضرب عنقه ، فقال له أحمد بن أبي دُوَاد[(٤٨)] :

---

(٤٧) نظام القضاء في الإسلام ، عن : (القضـاء في الإسلام) تـاريخـه ونظـامـه ، ص : ٨١ـ٨٢ ، د . إبراهيم نجيب محمد عوض .

(٤٨) أحمد بن أبي دُوَاد بن جرير بن مالك الإيـادي (أبو عبـد الله) : [١٦٠ ـ ٢٤٠ هـ = ٧٧٧ ـ ٨٥٤ م] ، أحد القضاة المشهورين من المعتزلـة ، قـال أبو العينـاء : مـا رأيت رئيسـاً قـطُّ أفصح ولا أنطق من ابن أبي دُوَاد ، وهو أوَّل من افتتح الكلام مع الخلفاء ، اتَّصل أوَّلاً بالمأمون ، فلمَّا قرب موته أوصى بـه أخـاه المعتصم ، فجعله قاضي قضاته ، وجعل يستشيره في أُمور الدَّولة كلِّها ، (الأعلام : ١/١٢٤) .

ياأمير المؤمنين ، سَبَقَ السَّيفُ العَذَل ، فتأنَّ في أمره فإنه مظلوم ، قال : فسكن قليلاً ، قال ابن أبي دواد : وغمرني البول ، فلم أقدر على حبسه ، وعلمت أنّي إن قمت قتل الرَّجل ، فجعلت ثيابي تحتي وبُلْتُ فيها حتَّى خلَّصت الرَّجل ، قال : فلمَّا قمت نظر المعتصم إلى ثيابي رَطبة ، فقال : ياأبا عبد الله كان تحتك ماء ؟ فقلت : لا ياأمير المؤمنين ، ولكنَّه كان كذا وكذا ، فضحك المعتصم ودعا لي ، وقال : أحسنت بارك الله فيك ، وخلع عليه ، وأمره له بمئة ألف درهم(٤٩) .

لَّما اشتدَّ الصِّراع بين أفراد البيت الأيوبي بعد وفاة الكامل ، عمد الصَّالح إسماعيل سلطان دمشق إلى محالفة الصَّليبيِّين ، وسلَّم بعض البلاد الإسلاميَّة مقابل أن يقفوا معه ضدَّ الصَّالح أيوب سلطان مصر ، وسمح سلطان دمشق للصَّليبيِّين بدخولها وشراء السِّلاح منها ، فثار الرَّأي العام الإسلامي ضدَّه ، فأفتى الشَّيخ عز الدِّين بن عبد السَّلام بتحريم بيع السِّلاح ، وبخلع السُّلطان ، وخطب في المسجد الأُموي بدمشق ، ودعا إلى الجهاد ، وحرَّم ذكر اسم السُّلطان في الخطبة ، فاعتقله السُّلطان ، وحدَّد إقامته ، فترك دمشق قاصداً مصر ، وفي الطَّريق وافاه أمير من السُّلطان ليسترضيه ، ووعده بردِّ جميع ما كان له من سلطة ، وقال : بل أكثر من ذلك ، بشرط أن يخضع للسُّلطان ، ويقبِّل يده ، فردَّ الشَّيخ على الأمير : والله يامسكين ماأرضاه أن يقبِّل يدي ، فضلاً عن أن أُقبِّل يده .. ياقوم أنتم في وادٍ وأنا في واد ، والحمد لله الَّذي عافاني مِمَّا ابتلاكم به(٥٠) .

وفي مصر ولي عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام منصب قاضي القضاة ، فنظر في واقع أُمراء الدَّولة من المماليك الَّذين اشتراهم السَّلاطين بأموال بيت المال ، وانخرطوا في سلك الجنديَّة ، وبلغوا رتبة الإمارة ، فكان يقضي ببطلان تصرُّفاتهم وعقودهم من بيع إلى شراء إلى رهن ، لما ثبت لديه من بقاء الرِّق في أعناقهم ، ولما نوقش في ذلك أصرَّ على

---

(٤٩) وفيات الأعيان : ٨٣/١

(٥٠) نظام القضاء في الإسلام ، عن : نظم الحكم والإدارة في الشَّريعة الإسلاميَّة والقوانين الوضعيَّة ، علي علي منصور .

رأيه ، إلاَّ أن ينادى على هؤلاء الأُمراء ويباعون ، ويوضع ثمنهم في بيت المال ، وبذلك ينال كل منهم حرِّيَّته ، ويصبح أهلاً للتَّعاقد ، فعجبوا لذلك وهمُّوا بقتله ، واستَعْدَوا عليه السُّلطان ، فأمره أن يدعهم وشأنهم ، فلم يقبل ابن عبد السَّلام ، واستقال وخرج من مصر ، ووضع أمتعته على حمار ، وأركب أُسرته على حمار آخر ، وسار خلفهم ، فهاج النَّاس في ثورة ، فخاف السُّلطان على ملكه ، وخرج إلى الشَّيخ فلحق به ، واسترضاه وأعاده إلى عمله ، وتمَّ له ما أراد ، ونادى على الأُمراء واحداً بعد الآخر ، وغالى في ثمنهم ، ثمَّ كتب لكلٍّ منهم إشهاداً شرعيّاً بحرِّيَّته[٥١] .

كمال الدِّين بن برهان الغزنوي ، قاضي قضاة السُّلطان أبي المجاهد محمد شاه بن غياث الدِّين تغلق شاه ملك الهند والسِّند ، جاءه رجل من كبار الهنود يدَّعي أنَّ السُّلطان قتل أخاه من غير موجب ، فدعا السُّلطان إلى مجلس القضاء ، فمضى السُّلطان على قدميه ، ولا سلاح معه إلى مجلس القاضي فسلَّم وجلس ، وكان قد أمر القاضي قبل ذلك أنَّه إذا جاءه إلى مجلسه ، فلا يقوم له ولا يتحرَّك ، فصعد إلى المجلس ، ووقف بين يدي القاضي ، فحكم عليه أن يرضي خصمه عن دم أخيه ، فأرضاه[٥٢] .

وروي عن إياس بن معاوية أنَّه قال : ما غلبني قط سوى رجل واحد ، وذلك أنِّي كنت في مجلس القضاء بالبصرة ، فدخل عليَّ رجل ، وشهد عندي أنَّ البستان الفلاني ، وذكر حدوده ، هو ملك فلان ، فقلت له : كم عدد شجره ؟ فسكت ، ثمَّ قال : منذ متى تحكم سيدنا القاضي في هذا المجلس ؟ فقلت : منذ كذا ، قال : فكم عدد خشب سقفه ؟ فقلت له : الْحَقُّ معك ، وأجزت شهادته .

وبنى أحد وجهاء البصرة داراً ، وكان في جواره بيت لامرأة عجوز يساوي عشرين ديناراً ، واحتاج صاحب الدَّار لبيت العجوز ، كي يوسع داره ، فبذل فيه مئتي دينار ،

---

(٥١) المرجع السَّابق ، ص : ٣٧٥ـ٣٧٦

(٥٢) رحلة ابن بطوطة ، ص ٤٥٥

فرفضت ، فقيل لها : إنَّ القاضي يحجر عليكِ بسفهك حيث ضيَّعت مئتي دينار لما يساوي عشرين ديناراً ، فقالت : لماذا لا يحجر على من يشتري بمئتين ما يساوي عشرين ديناراً ، فأفحمت القاضي ومن معه ، وظلَّ البيت في يدها حتَّى ماتت .

وفي الأندلس : يحي بن يحي اللَّيثي ، أسَّس لقضاة الأندلس أُسساً متينة ، فقد وضع نظام القضاة ، وسمَّى قاضي القضاة ، وقاضي الجماعة ، ورتَّب مجلساً للشُّورى وسمَّى أعضاءه ، فكان إذا تُرجم لشخص منهم كان من شرفه أنَّه من رجال الشُّورى ، ينظر هذا المجلس في الفتيا ، وفي المشاكل الفقهيَّة ، ويبدي فيها رأيه ، وكان عددهم في بعض الأحيان ستَّة عشر .

لقد كان يحي بن يحي اللَّيثي كأبي يوسف في المشرق ، وممَّا يدلُّ على جلالته وجاهه ، أن الأمير عبد الرَّحمن النَّاصر(٥٣) اتَّصل بجارية يحبّها في شهر رمضان ، ثمَّ ندم على ما فعل ندماً كبيراً ، فسأل يحي عن الكفَّارة ، فقال له : تصوم شهرين متتابعين ، فلمَّا خرج قيل له : لِمَ لم تُفتِ بمذهب مالك (وهو مالكي) في التَّخيير بين الصَّوم وعتق رقبة ؟ فقال : لو فتحنا له هذا الباب لَسَهُل عليه أن يتَّصل كل يوم بجواريه ، ثمَّ يعتق رقبة ، ولكن حملتُه على أصعب الأمرين لئلا يعود .

وأبو إبراهيم التَّميمي القرطبي ، تخلَّف عن الحضور في وليمة دعاه إليها عبد الرَّحمن النَّاصر ، وكان صديقاً لابنه الحكم ، فلما سُئِل في ذلك ردَّ فقال : إنَّ من قبلك من الأُمراء والخلفاء ، كانوا يستبقون من هذه الطَّبقة بقيَّة لا يمتهنونها بما يشينها ويرد منها ، يستعدون بها لدينهم ، ويتزيَّنون بها عند رعاياهم ، ولهذا تخلَّفت(٥٤) .

---

(٥٣) عبد الرَّحمن النَّاصر الأموي (٢٧٧ ـ ٣٥٠ هـ = ٨٩٠ ـ ٩٦١ م) ، أوَّل من تلقَّب بالخلافة في الأندلس ، ولد وتوفِّي بقرطبة ، وكان عاقلاً داهية مصلحاً طموحاً ، حكم خمسين سنة ، وكان يكتب في دفتر أيَّام السُّرور الَّتي كانت تصفو له من غير تكدير فلم تتجاوز أربعة عشر يوماً ، (الأعلام : ٣٢٤/٣) .

(٥٤) ظهر الإسلام : ٦٧/٣ . وما يجدر ذكره أن العرب المسلمين في الأندلس تركوا للنَّصارى القضاء الخاص فيما بينهم ، وكذلك كان لليهود تنظيم قضائي على غرار ما كان للنَّصارى .

وفي إفريقية الغربية ، في مدينة تُمبُكت ، المدينة التِّجاريَّة الدَّوليَّة ، وجد إلى جانب القاضي الَّذي يحكم بالشَّريعة الإسلاميَّة ، قاض مساعد ، يفصل في قضايا الأجانب .

وكان بيت القاضي في (غاؤ) محرَّماً (له حصانته) كالمسجد ، يلتجئ إليه زعماء المعارضة ، خوفاً من السُّلطان ، وكان القاضي يجيرهم ، وجرت العادة ألاَّ يقبل الفقيه في (غاؤ) هذا المنصب ، إلاَّ بعد رفض متواصل ، وإلحاح مستمر من الملك ، وقد أشار ابن بطوطة إلى الاستقرار والأمن والعدل في الأحكام في مملكة مالي الإسلاميَّة ، ونوَّه بقيمة القاضي العظيمة(٥٥) :

جاء في (رحلة ابن بطوطة) ص ٦٧٢ : « فمن أفعالهم الحسنة قلَّة الظُّلم ، فهم أبعد النَّاس عنه ، وسلطانهم لا يسامح أحداً في شيء منه ، ومنها شمول الأمن في بلادهم ، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب » . وأورد ابن بطوطة تحت عنوان (حكاية عن عدل السُّلطان) ، هي : « وحضرتُ الجمعة يوماً ، فقام أحد التُّجَّار من طلبة مسوفة ، ويسمَّى بأبي حفص ، فقال : ياأهل المسجد ، أُشهدكم أنَّ منسي سليمان(٥٦) في دعوتي إلى رسول الله ﷺ ، فلما قال ذلك ، خرج إليه جماعة الرجال من مقصورة السُّلطان ، فقالوا له : من ظلمك ؟ من أخذ لك شيئاً ؟ فقال : منشاجو ايوالاتن يعني مشرفها(٥٧) ، أخذ منِّي ما قيمته ستمائة مثقال ، وأراد أن يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصَّة ، فبعث السُّلطان إليه للحين ، فحضر بعد أيَّام وصرفها للقاضي ، فثبت للتَّاجر حقَّه ، فأخذه ، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله »(٥٨) .

---

(٥٥) إفريقية الغربيّة في ظلّ الإسلام ، ص : ١١٦

(٥٦) منسي « ومعناه السُّلطان » ، رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٦٥ ، والنَّصُّ هذا ورد حرفيّاً .

(٥٧) منشاجو : المشرف ، ايوالاتن : اسم مدينة « على بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة ، وهي أوّل عمالة السُّودان » ، ابن بطوطة ، ص : ٦٦٠

(٥٨) رحلة ابن بطوطة ، ص : ٦٧٢

تلك بعض أمثلة لما كان عليه قضاة الإسلام في عصوره الزّاهرة ، وغيرها كثير ممّا لا يتّسع المجال لذكره ، فمنصب القاضي منصب خطير ، كان يُنْظَر إليه على أنّه مسؤوليّة كبيرة ، وعبء ثقيل ، تحاشاه كثير من الفقهاء والعلماء ، قال ابن سيرين : كنّا عند أبي عبيدة بن أبي حذيفة في قُبَّة له ، وبين يديه كانُون له فيه نار ، فجاءه رجل فجلس معه على فراشِهِ ، فسارّه بشيء لا ندري ما هو ، فقال أبو عبيدة : ضَع لي أُصبعك في هذه النّار ، فقال له الرَّجل : سبحان الله ! أتأمرني أن أضع لك أُصبعي في هذه النّار ! فقال له أبو عبيدة : أتبخل عليَّ بأُصبع من أصابعك في نار الدُّنيا ، وتسألني أن أضع لكَ جسدي كلّه في نار جَهَنَّم ، قال : فظننّا أنّه دعاه إلى القضاء(٥٩) .

قَضيَّةٌ خَالِدَةٌ في القَضَاء الإسلامي :

فتح المسلمون مدينة سمرقند الّتي اشتهرت في الإسلام بعد ذلك بأنّها من مواطن الثّقافة والحضارة الإسلاميّة ، فتحها سعيد بن عثمان بن عفّان عندما ولاّه معاوية بن أبي سفيان على خراسان سنة ٥٦ هـ ، ثمّ فتحها عنوة بعد ذلك قتيبة بن مسلم الباهلي ، سنة ٩٣ هـ في عهد الوليد بن عبد الملك ، وهناك روايتان في سبب غزو قتيبة لها .

الرّواية الأُولى تقول : إن أهل سمرقند غدروا بالمسلمين وأجلوهم عنها ، فردَّ قتيبة على صنيعهم هذا بالتّوجُّه إليهم بجيش كبير فتح به بلدهم ، وترك بها حامية كبيرة ، حتّى لا يعاودوا الغدر بالمسلمين .

والرّواية الثّانية تقول : إنّ سعيد بن عثمان فتحها صلحاً عن مالٍ يؤدُّونه ، قُبَالة حمايتهم ، فلمّا مات وتولّى بعده قتيبة بن مسلم الباهلي قيادة الجيوش الفاتحة لأرض خراسان ، استقلّ هذا المال الّذي يدفعونه ، وفتح بلادهم عنوة دون أن يخطرهم بنقض العهد السّابق ، وإيذانهم بالحرب .

---

(٥٩) عيون الأخبار : ٦٥/١

هاتـان الرِّوايتـان رواهمـا أبو عبيـدة معمر بن المثنَّى ، المتوفَّى سنـة ٢١٠ هـ ، ولم يرجِّح واحـدة منهما على الأُخرى ، إلاَّ أنَّ منطق الحوادث يؤكِّـد رجحـان الثَّـانيـة على الأُولى ، ومعنى ذلك أنَّ قتيبة قد فتح سمرقند غدراً ، وهذا أمر تـأبـاه تعـاليم الإسلام في شؤون الحرب والمعاهدات .

قَبِلَ أهلُ سمرقند الأمر على مضض ، ولمَّا آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز سنـة ٩٩ هـ ، وبلغ أهل سمرقند عنه ما ملأ أطراف الدَّولة وجوانبهـا من الحـديث عن عـدلـه ونصرتـه للحقّ ووفـائـه ، وبغضـه للظُّلم ، أنـابوا عنـه وفـداً يَلْقَى الخليفـة ، يشكو لـه ما كان من قتيبة معهم .

ولقي الخليفة وفدهم ، فعرضوا الأمر عليه ، وقالوا فيا قـالوه : إنَّ قتيبـة غـدر بنـا ظلماً ، وأخذ بلادنا ، والأمر إليك لترفع عنَّا مـا نزل بنـا على يـديـه ، فتنـاول الخليفـة قرطاساً وقلماً ، وكتب إلى سليمان بن أبي سرح عامله على سمرقند كتابـاً قـال فيـه : إن أهل سمرقند شكوا ظلماً أصابهم وتحاملاً من قتيبة عليهم ، فإذا أتاكَ كتابي هذا فـأجلس لهم قاضيّاً يقضي بالحقّ في هذه الظُّلامة .

وعاد وفدهم بكتـاب الخليفـة إلى عـاملـه ، فـأحـال قضيَّتهم إلى القـاضي جُمَيْع بن حـاضر النَّـاجي قـاضي سمرقنـد ، فـاستمع إلى ظلامتهم ، واستـدعى شهـودهم عليهـا ، ثمَّ استدعى شهوداً من الجيش الَّذي حضر الموقعـة مع قتيبة ، فشهـدوا بـالحقّ ، شهـدوا أنَّ قتيبة لم ينبذ إليهم عهدهم ، بل فاجأهم بفتح بلادهم عنوة .

وعندما وضح هذا أمام القـاضي ، أصـدر حكمـه في هـذه القضيَّـة صريحـاً لا غموض فيه ، قويّاً مجلجلاً ناطقاً بعدالة الإسلام وسماحته ، قال القـاضي : على الجيش الإسلامي الَّذي فتح سمرقند بقيادة قتيبـة أن يتـأهَّب للخروج منهـا فوراً ، وكـذلـك يخرج منهـا المسلمون الَّذين دخلوها بعد الفتح(٦٠) .

---

(٦٠) الحادثة في تاريخ الطَّبري ٥٦٧/٦ ، أحداث سنة ٩٩ هـ ، وانظر : مقال في (العربي) العدد ٨٦ ، كانون الثَّاني ١٩٦٦ ، ص : ١٧ـ١٠٩ : (قضيَّة في القضاء الإسلامي خالدة) ، د . أحمد عبد المنعم البهي .

لقد كان لهذا الحكم رجّة في أنحاء سمرقند ، إذ ما كان يتصوَّر أحد أنَّ تعـاليم الإسلام تمضي على هـذا النَّحو ، وتعطي الحقَّ للقـاضي أن يـأمر الجيش بـالخروج من بلـد فتحـه واستقرَّ فيه .

وأسرع الـوالي يخطر الخليفـة بـالحكم ويطلب مشـورتـه ، فجـاء الرَّدُّ بتنفيـذ حكم القـاضي بحذافيره ، وعنـدئـذٍ أصـدر أمره إلى الجيش بـالتَّـأهُّب للرَّحيل ، وإلى المسلمين المدنيِّين بمغادرة سمرقند .

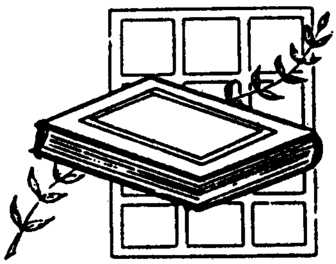
وبينمـا هـذا يجري على قـدم وسـاق ، والجيش يجمـع أسلحتـه وأمتعتـه ، ويفـكُّ مخيَّماته ، وبينمـا المسلمون المقيمون بـالمدينـة يودِّعون أهل سمرقنـد ، ويحزمون أمتعتهم ، ويعلنون بيع أملاكهم فيها ، وإذا بمفاجأة تَجِدُّ لم تكن في الحسبان ، فقد جاء وفـد يمثِّل أهل سمرقند إلى الوالي ، وأبلغوه أنَّهم تشاوروا فيما بينهم ، بعد هذا الحُكْم ، الَّذي مـا دار بخلدهم لحظة واحدة أنَّ تعاليم الإسلام لا تضيق بمثله ، وأنَّهم مـا كانوا يتوقَّعون أنَّ هنـاك قاضيّاً يجرؤ على مطالبة الجيش الفاتح بالجلاء عن بلد فتحـه ، وأنَّهم مـا كانوا يتصوَّرون أنَّ القاضي سيهمل في القضيَّـة عصبيَّتـه لقومـه ، ولا يعيرهـا اعتبـاراً ولا وزنـاً ، وأنَّهم استبعدوا أن يأمر الخليفة بتنفيـذ الحكم كما صـدر مع انصيـاع الجميع لـه ، دون أن يكون هناك اعتبار لما يترتَّب على تنفيذه من عنت لمن صدر في شأنهم .

أمام هذا ، وأمام حسن المعاملة الَّتي وجـدوهـا من إخوانهم المسلمين المقيمين بـالبلـد حال إقامتهم بها ، لا يسعهم إلاَّ أن يعلنوا عن تنازلهم عن حقِّهم ، والمطالبة ببقـاء الحـال على ما هي عليه ، لأنَّهم لن يخشوا بعد اليوم ضُرّاً ينالهم ، وإزاء هذه الرَّغبة الصَّادقة من أهل سمرقند ، أُمِرَ الجيش بالبقاء ، وأُمر المسلمون بعدم الخروج ، وكانت فرحة مزدوجـة من الجانبين .

وكانت هذه القضيَّـة سببـاً في إسلام كثير من أهل سمرقنـد ، وانضوائهم تحت رايـة الإسـلام ، والإخـلاص لتعـاليمـه ، والعمـل على نشرهـا ، والاستمسـاك بمـا أمرت بـه ،

والاعتصام بحبل الله المتين ، حتّى غدت سمرقند بعد مركزاً من المراكز الإسلاميّة المرموقة ، يأتيها الدّاني والقاصي للتّزوُّد بزاد المعرفة من علمائها .

هذه قضيّة خالدة في تاريخ الإسلام وقضائه بلا جدال ، ونوع فريد من قضايا العالم بلا خلاف ، وإنّها لصفحة مجيدة يفخر بها كلُّ مسلم في كلّ جيل ، وفي كلّ عصر .



وِلايَةُ المَظَالِم

(مجلس الدّولة)

أبو جعفر المنصور لابنه المهدي : « يا أبا عبد الله ، إنّ الخليفة لا يصلحه إلاّ التّقوى ، والسُّلطان لا يصلحه إلاّ الطّاعة ، والرّعية لا يصلحها إلاّ العدل ، وأولى النّاس بالعدل أقدرهم على العقوبة ، وأنقص النّاس عقلاً من ظلم مَنْ هو دونه » .

[تاريخ مدينة دمشق : ٢١٦/٣٨]

الْمَظَالِمُ : جمع ظُلامة ومَظْلَمة[1] ، وتقسم إلى قسمين اثنين :

ظلم الولاة والجباة والموظّفين .

وظلم الأفراد للرّعيّة .

يقول القلقشندي : « ولاية المظالم ، موضوعها قَوْدُ المتظالمين إلى التّناصُف بالرّهبة ، وزجر المتنازعين عن التّجاحد بالهيبة » ، وهي من أعلى الوظائف وأرفعَها رتبة ، لا يتولاّها إلاّ ذوو الأقدار الجليلة ، والأخطار الحفيلة[2] .

فولاية المظالم ، (أو صاحب المظالم) : منصب للنّظر في أعمال الولاة والحكّام ، ورجال الدّولة ، والمتنفّذين خاصّة ، والرّعيّة عامّة ، وكان رسول الله ﷺ أوّل من نظر

(١) في اللّسان « مادة ظلم » : والظُّلامة والظّلية والمظلمة : ما تطلبه عند الظّالم ، وهو اسم ما أُخذ منك ، والظّلامة اسم مظلمتك الّتي تطلبها عند الظّالم .

(٢) صبح الأعشى : ٢٧٣/٣ . والأحكام السّلطانيّة (الفرّاء) ، ص : ٧٣

في المظالم ، عندما أرسل عليّاً لدفع دية القتلى الَّذين قتلهم خـالـد بن الوليـد خطـأ من قبيلة بني جذيمة[٣] .

وأفرد عبد الملك بن مروان يوماً للظُّلامات يتصفَّح فيه قصص المتظلِّمين من جور الولاة ، وظلم العتاة[٤] ، وجلس المهدي والهادي والرَّشيد والمأمون .. للنَّظر في المظـالم ، حتَّى عادت الأملاك إلى مستحقِّيها .

مجلس صاحب المظالم :

يستكمل صاحب المظالم مجلسه بحضور خمسـة أصنـاف ، لا يستغني عنهم ، لا ينتظم نظره إلاَّ بهم ، أحدهم الحماة والأعوان لجذب القوي ، وتقويم الجريء ، والصِّنف الثَّاني : القضاة والحكَّام لاستِعْلام ما يثبت عندهم من الحقوق ، ومعرفة ما يجري في مجـالسهم بين الخصـوم ، والصِّنف الثَّـالث : الفقهـاء ، ليرجـع إليهم فيما أشكل ، ويسـألهم عمَّـا اشتبـه وأعضل ، والصِّنف الرَّابع : الكُتَّـاب ، لتـدوين مـا جرى بين الخصوم ، ومـا توجَّب لهم أو عليهم من الحقوق ، والصِّنف الخـامس : الشُّهود ليشهـدهم على مـا أوجبـه من حـقٍّ ، وأمضـاه من الحكم ، فـإذا استكمـل مجلس المظـالم بمن ذكرنـا من الأصنـاف الخمسـة شرع حينئذٍ في نظرها[٥] .

شروط النَّاظر في المظالم :

« أن يكون جليل القدر ، نافذ الأمر ، عظيم الهيبة ، ظاهر العفَّة ، قليل الطَّمع ، كثير الورع ، لأنَّه يحتاج في نظره إلى سطوة الحماة ، وتثبت القضاة ، فـاحتـاج إلى الجمع بين صفتي الفريقين .

---

(٣) ابن سعد : ١٤٧/٢ ، ابن هشام : ٥٣/٤ ، الطَّبري : ٦٦/٣ ، البداية والنِّهاية : ٣١٣/٤ ، الكامل في التَّاريخ : ١٧٣/٢ ، عيون الأثر : ١٨٥/٢

(٤) وفي الأحكام السُّلطانيَّة ، ص : ٨٧ : « عمر بن عبد العزيز أوَّل من ندب نفسه للنَّظر في المظالم » .

(٥) الأحكام السُّلطانيَّة ، ص : ٨٩

فإن كان ممّن يملك الأُمور العامّة كالخلفاء ، أو من فوّض إليه الخلفاء في الأُمور العامّة كالوزراء والأُمراء ، لم يحتج النّظر فيها إلى تقليد ، وكان له ـ لعموم ولايته ـ النّظر فيها ، وإن كان ممن لم يفوّض إليه عموم النّظر ، احتاج إلى تقليد وتولية ، إذا اجتمعت فيه الشّروط المتقدّمة .

وإنّما يصحُّ هذا فيمن يجوز أن يختار لولاية العهد ، أو لوزارة التّفويض ، أو لإمارة الأقاليم ، إذا كان نظره في المظالم عامّاً ، فإن اقتصر به على تنفيذ ما عجز القضاة عن تنفيذه ، جاز أن يكون دون هذه الرُّتبة في القدر والخطر ، بعد أن لا يستخفّه الطّمع إلى رشوة »(٦) .

أقسام المظالم :

والنّظر عند الماوردي ، يَشْتَمِل على عشرة أقسام هي : النّظر في :

تعدّي الولاة على الرّعيّة ، وأخذهم بالعسف في السِّيرة .

جور العمال فيما يجبونه من الأموال .

كُتّاب الدّواوين ، لأنّهم أُمناء المسلمين على ثبوت أموالهم فيما يستوفونه ويوفُّونه ، فإن عدلوا بحق من دخل أو خرج إلى زيادة أو نقصان ، أرجعه إلى قوانينه ، وأدّب المذنب منهم .

تظلُّم المسترزقة من نقص أرزاقهم أو تأخُّرها عنهم ، فيرجع إلى ديوانه في فرض العطاء العادل فيجريهم عليه .

ردُّ الغصوب ، وهي ضربان : غصوب سلطانيّة قد تغلّب عليها ولاة الجور ، وهي موقوفة على تظلُّم أربابه ، والضّرب الثّاني من الغُصوب ما تغلب عليه ذوو الأيدي القويّة ، وتصرّفوا فيه تصرُّف المُلاّك بالقهر والغلبة ، وهذا موقوف على تظلُّم أصحابه .

---

(٦) الأحكام السّلطانيّة (الفرّاء) ، ص : ٧٣

مشارفة الوقوف العامّة والخاصّة ، والعامّة يبدأ تصفُّحها وإن لم يكن فيها متظلّم ليجريها على سبلها ، وأمّا الخاصّة فإنّ نظره فيها موقوف على تظلُّم أهلها عند التنازع فيها .

تنفيذ ما وقف من أحكام القضاة ، وكل ما عجز عنه القضاة أو غيرهم (كالولاة مثلاً) من إمضائه ، لضعفهم عن إنفاذه ، وعجزهم عن المحكوم عليه لتعزُّزه وقوّة يده ، أو لعلوّ قدره .. فيكون ناظر المظالم أقدر يداً ، وأنفذ أمراً .

النّظر فيما عجز عنه النّاظرون من الحِسْبَة في المصالح العامّة ، كالمجاهرة بمنكر ضعف عن دفعه ، والتّعدّي في طريق عجز عن منعه ، والتّحيف فيما يقدر على ردّه .

مراعاة العبادات الظّاهرة ، كالجُمَع والأعياد والحج والجهاد من تقصير فيها ، أو إخلال بشروطها .

والنّظر في المتشاجرين ، والحكم بين المتنازعين ، فلا يخرج في النّظر بينهم عن موجب الحقّ ومقتضاه .

الفَرْقُ بين نظر المظالم ونظر القضاة :

أورد (الفرّاء) عشرة أوجه للفرق بين نظر المظالم ، ونظر القضاة(٧) ، هي :

١ ـ أنّ لناظر المظالم من فضل الهيبة ، وقوّة اليد ما ليس للقضاة في كفّ الخصوم عن التّجاحد ، ومنع الظّلمة عن التّغالب والتّجاذب .

٢ ـ أن نظر المظالم يخرج من ضيق الوجوب إلى سعة الجواز ، فيكون النّاظر فيه أفسح مجالاً ، وأوسع مقالاً .

٣ ـ أنّه يستعمل في فصل الشّدّة ، وكشف الأسباب بالأمارات الدّالّة ، وشواهد

(٧) الأحكام السُّلطانيّة (الفرّاء) ، ص : ٧٩

الأحوال اللائحة ، ما يضيق على الحكّام ، فيصل به إلى ظهور الحقّ ، ومعرفة المبطل من المحقّ .

٤ ـ أن يقابل من ظهر ظلمه بالتّأديب ، ويأخذ من بانَ عداوته بالتّقويم والتّهذيب .

٥ ـ أن له ردّ الخصوم عند اشتباه أُمورهم ، ليمعن في الكشف عن أسبابهم وأحوالهم ، ما ليس للحكّام إذا سألهم أحد الخصمين فصل الحكم ، فلا يسوغ أن يؤخره الحاكم ، ويسوغ أن يؤخّره والي المَظَالم .

٦ ـ أن له ردّ الخصوم إذا أعضلوا إلى وساطة الأُمناء ، ليفصلوا التّنازع بينهم صلحاً عن تراضٍ ، وليس للقاضي ذلك إلاّ عن رضى الخصمين بالرّد .

٧ ـ أنه يفسح في ملازمة الخصمين إذا وضحت أمارات التّجاحد ، ويأذن في إلزام الكفالة فيما يسوغ فيه التّكفيل ، لينقاد الخصوم إلى التّناصف ، ويعدلوا عن التّجاحد والتّكاذب .

٨ ـ أنه يسمع من شهادات المستورين ، ما يخرج عن عرف القضاة في شهادة المعدلين .

٩ ـ أنه يجوز له إحلاف الشُّهود عند ارتيابه بهم إذا بذلوا أيمانهم طوعاً ، ويستكثر من عددهم ، ليزول عنه الشّك ، وينتفي عنه الارتياب ، وليس كذلك الحكّام .

١٠ ـ أنّه يجوز أن يبتدئ باستدعاء الشُّهود ، ويسألهم عمّا عندهم في تنازع الخصوم .

وعادة الحكّام والقضاة : تكليف المدّعي إحضار بيّنة ، ولا يسمعونها إلاّ بعد مسألته .

صُوَرٌ مِنْ مَجَالِسِ المظالِم :

جلس أبو جعفر المنصور بإرمينية ـ وهو أميرها لأخيه أبي العبَّاس ـ للمظالم ، فدخل عليه رجل ، فقال : إنَّ لي مظلمة ، وإنِّي أسألك أن تسمع منّي مثلاً أضربه قبل أن أذكر مظلمتي ، قال : قل ، قال : إنِّي وَجِلْتُ[٨] لله تبارك وتعالى ، خَلَق الْخَلْق على طبقات ، فالصَّبي إذا خرج إلى الدُّنيا لا يعرف إلاَّ أُمَّه ، ولا يطلب غيرها ، فإذا فزع من شيء لجأ إليها ، ثمَّ يرتفع عن ذلك طبقةً ، فيعرف أنَّ أباه أعزّ من أُمِّه ، فإن أفزعه شيء لجأ إلى أبيه ، ثمَّ يبلغ ويستحكم ، فإن أفزعه شيء لجأ إلى سلطانه ، فإن ظلمه ظالم انتصر به ، فإذا ظلمه السُّلطان لجأ إلى رَبِّه ، واستنصره ، وقد كنت في هذه الطَّبقات ، وقد ظلمني ابن نَهِيك[٩] في ضيعة لي في ولايته ، فإن نصرتني عليه ، وأخذت بمظلمتي ، وإلاَّ استنصرت إلى الله عزَّ وجلَّ ، ولجأتُ إليه ، فانظر لنفسك ، أيُّها الأمير ، أو دع !

فتضاءل أبو جعفر ، وقال : أعِد عليَّ الكلام ، فأعاده ، فقال : أمَّا أوَّل شيء فقد عزلت ابن نهيك عن ناحيته ، وأمر بردِّ ضيعته[١٠] .

وكان المأمون يجلس للمظالم في يوم الأحد من كلِّ أُسبوع ، فنهض ذات يوم من مجلس نظره في المظالم ، فلقيته امرأة في ثياب رَثَّةٍ ، فقالت (من البسيط) :

يَا خَيْرَ مُنْتَصِفٍ يُهْدى لَهُ الرَّشَدُ ... وَيَا إمَاماً بِهِ قَدْ أَشْرَقَ البَلَدُ
تَشْكُو إليكَ عَمِيدَ الْمُلْكِ أَرْمَلَةٌ ... عَدَا عَلَيْها ، فَمَا تَقْوى بِهِ أَسَدُ
فَابتَزَّ مِنْها ضِياعاً بَعْدَ مَنْعَتِها ... لَمَّا تَفَرَّقَ عَنْها الأَهْلُ وَالوَلَدُ

---

(٨) الوَجَل : الفزع والخوف ، يريد بقوله هذا أنَّه يخاف من قوَّة الله تعالى وجبروته وقدرته وحكمته في تصريف أُمور عباده .

(٩) عثمان بن نَهِيك ، كان على حرس أبي جعفر المنصور ، (الطَّبري : ٧/٤٨٨ـ٤٩١) .

(١٠) تاريخ مدينة دمشق : ٢٣١/٣٨ (مطبوعات مجمع اللُّغة العربيَّة بدمشق) ، سنة ١٩٨٧ م .

فأطرق المأمون يسيراً ، ثمّ رفع رأسه ، وقال (من البسيط) :

مِنْ دُونِ مَا قُلْتِ عِيلَ الصَّبْرُ والْجَلَدُ وَأَقْرَحَ القَلْبَ هـذا الْحُزْنُ والكَمَدُ
هـذا أوانُ صَلاةِ الظُّهرِ فَانْصَرِفي وَأحْضِري الْخَصْمَ في اليَوْمِ الَّذي أعِدُ
الْمَجْلِسُ السَّبْتُ إن يَقْضِ الجلوسَ لنا أُنْصِفْكِ مِنْهُ ، وَإلاَّ المجلسُ الأحَدُ

فانصرفت ، وأحضرت يوم الأحد في أوّل النّاس ، فقال لها المأمون : مَن خصمك ؟

فقالت : القائم على رأسك ؟ العبّاس ابن أمير المؤمنين .

فقال المأمون لقاضيه يحي بن أكثم(١١) ، أجلسها معه ، وانظر بينهما .

فأجلسها معه ، ونظر بينهما بحضرة المأمون ، وجعل كلامها يعلو ، فزجرها بعض حُجّابه ، فقال له المأمون : دعها ، فإن الحقّ أنطقها ، والباطل أخرسه ، وأمر بردّ ضياعها عليها ، وتمّ النّظر بينهما بحضرة المأمون ومشهده ، ولم يباشر القضاء بنفسه لما اقتضته المصلحة العامّة ، فالخصم امرأة ربّما خشيت موقف الخليفة من جلالة قدره وهيبته ، وربما حكم لولده ، أو حكم عليه ، والتزم المأمون بتنفيذ الحكم ، ورضخ للحقّ دون تردّد(١٢) .

ملك شاه [١٠٧٢ ـ ١٠٩٢ م] ، أعظم سلاطين السّلاجقة ، أسبغ وزيره القدير الوفي نِظَام الْمُلْك(١٣) على البلاد ، في عهده وعهد أبيه ألب أرسلان ، كثيراً من الرّخاء والبهاء ، فقد ظلّ نظام الملك ثلاثين سنة ينظّم شؤون البلاد ، ويشرف على أحوالها

---

(١١) وقيل لوزيره أحمد بن أبي خالد .

(١٢) الأحكام السّلطانيّة ، ص : ٩٤ و ٩٥

(١٣) الحسن بن علي بن إسحاق الطّوسي : [٤٠٨ ـ ٤٨٥ هـ = ١٠١٨ ـ ١٠٩٢ م] ، الملقّب بقوام الدّين ، نظام الملك ، وزير حازم عالي الهمّة ، تأدّب بآداب العرب ، وسمع الحديث الكثير ، واشتغل بالأعمال السّلطانيّة ، « وكان من حسنات الدّهر » ، (الأعلام ٢/٢٠٢) .

الإداريَّة والسِّياسيَّة والماليَّة ، ويشجِّع الصِّناعة والتِّجارة ، ويصلح الطُّرق والجسور والنُّزُل ، ويجعلها آمنة لجميع المسافرين ، وأسَّس مدرسة كبرى في بغداد ذاع صيتها في الآفاق .

كتب نظام الملك وهو في سنِّ الخامسة والسَّبعين فلسفة في الحكم في كتابه (سياسة نامة) ، أي فنُّ الحكم ، وهو يوصي فيه بقوَّة أن يتمسَّك الملك والشَّعب بأُصول الدِّين ، ويرى أن الحكومة لا يمكن أن تستقرَّ إلاَّ إذا قامت على هذا الأساس ، واستمدَّت من الدِّين حقَّ الحاكم المقدَّس وسلطانه ، ولم يبخل على مليكه في الوقت ذاته ببعض النَّصائح الإنسانيَّة يبصِّره فيها بما على الحاكم من واجبات ، منها : أن يتبيَّن كلَّ ما يرتكب الموظَّفون من فساد أو ظلم ويعاقبهم عليه ، وأن يعقد مجلساً عامّاً مرَّتين في كلِّ أُسبوع يستطيع أن يتقدَّم فيه أحقر رعاياه بما لديهم من الشَّكاوى والمظالم(١٤) .

ويذكر الإدريسي موكب ملك غانة ، فيقول : ومن سيرته قربه من النَّاس ، وعدله فيهم ، وله جملة قُوَّاد ، يركبون إلى قصره ، في كلِّ صباح ، ولكلٍّ قائد منهم طبل يضرب على رأسه ، فإذا وصل إلى باب القصر سكت ، فإذا اجتمع إليه جميع قُوَّاده ، ركب معهم وسار يقدمهم ، ويمشي في أزقَّة المدينة ، ودائر البلد ، فمن كانت له مظلمة ، أو نابه أمر تصدَّى له ، فلا يزال حاضراً بين يديه حتَّى يقضي مظلمته ، ثمَّ يرجع إلى قصره ، ويتفرَّق قُوَّاده ، فإذا كان بعدَ العَصر ، وسكن حرُّ الشَّمس ، ركب مرَّة ثانية ، وخرج حوله أجناده ، فلا يقدر أحد على قربه ، ولا على الوصول إليه ، وركوبه كلَّ يوم مرَّتين سيرة معلومة ، وهذا مشهور من عدله(١٥) .

وفي دولة الأشراف السَّعديِّين أوجد السُّلطان أحمد المنصور مجلساً استشاريّاً سمَّاه (الدِّيوان) ، أو (مجلس الملأ) ، اختصاصاته سياسيَّة وقضائيَّة وعسكريَّة ، وهو أعلى

---

(١٤) قصَّة الحضارة : ٣١٥/١٣

(١٥) صفة المغرب وأرض السُّودان ومصر والأندلس ، ص ٦٧ و ٦٨

مرجع قانوني للبلاد ، ويتقبَّل أحكام قضاته ، ولو كانت بحقٍّ بعض رجال المجلس ، أو ضدَّ المجلس كلِّه .

عدا محمَّد الكبير خال السُّلطان أحمد المنصور على رجل بدرعة[١٦] في ضيعة له ، فشكاه إلى المنصور ، فقال له : كم تساوي ضيعتك ؟ قال : سبع مئة أوقيَّة ، قال : خذها وقل لخالي : الموعد بيني وبينك الموقف الَّذي لا أكون أنا فيه سلطاناً ، ولا أنت خال السُّلطان ، فرجع صاحب الضَّيعة ، وأبلغ العامل كلام المنصور ، فأمسك برأسه ساعة ، ثمَّ قال له : الْحَق بضيعتك ، وغرم له كلَّ ما أكل منها[١٧] .

وكان (الدِّيوان) يعقد يوم الأربعاء للمشورة ، وسمَّاه يوم الدِّيوان ، تجمع فيه وجوه الدَّولة ، ويتطارحون فيه وجوه الرَّأي فيما ينوب من جلائل الأُمور ، وعظيم النَّوازل ، وهناك يظهر شكايته من لم يجد سبيلاً للوصول إلى السُّلطان ، قالوا : ومن حزمه أنَّه كان متطلِّعاً لأخبار النَّواحي بحَّاثاً عنها ، غير متراخٍ في قراءة ما يرد عليه من رسائل عُمَّاله ، ولا يبطئ بالجواب ، ويقول : كلُّ شيء يقبل التَّأخير إلاَّ مجاوبة العمَّال عن رسائلهم ، وكان الكُتَّاب لا يفارقون مراكزهم إلاَّ في أوقات مخصوصة[١٨] .

وفي الدَّولة الْمَرِينيَّة جرت عادة من له ظُلامة أن يرتقب السُّلطان في ركوبه في موكبه يوم جلوسه للمظالم ، فإذا اجتاز به السُّلطان صاحَ من بُعْدٍ : « لا إله إلا الله ، انصرني نصرك الله » ، فتؤخذ رقعته (عريضة التَّظَلُّم) وتدفع لكاتب السِّر ، فإذا عاد جلس في قبَّة معيَّنة لجلوسه ، ويجلس معه أكابر أشياخه مقلَّدين السُّيوف ، ويقف من دونهم على بُعد ، مصطفِّين متَّكئين على سيوفهم ، ويقرأ كاتب السِّر رقاع أصحاب المظالم فينظر فيها بما يراه[١٩] .

(١٦) دَرْعَةُ : مدينة صغيرة بالمغرب من جنوب البلاد ، بينها وبين سجلماسة أربعة فراسخ ، ودرعة غربيها ، (معجم البلدان : ٢/٤٥١) .

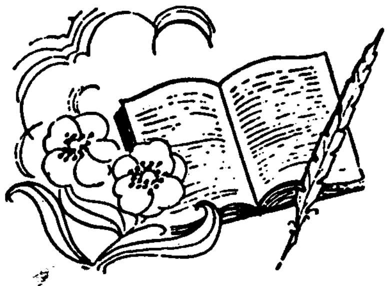
(١٧) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : ٥/١٩٠

(١٨) الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : ٥/١٨٨

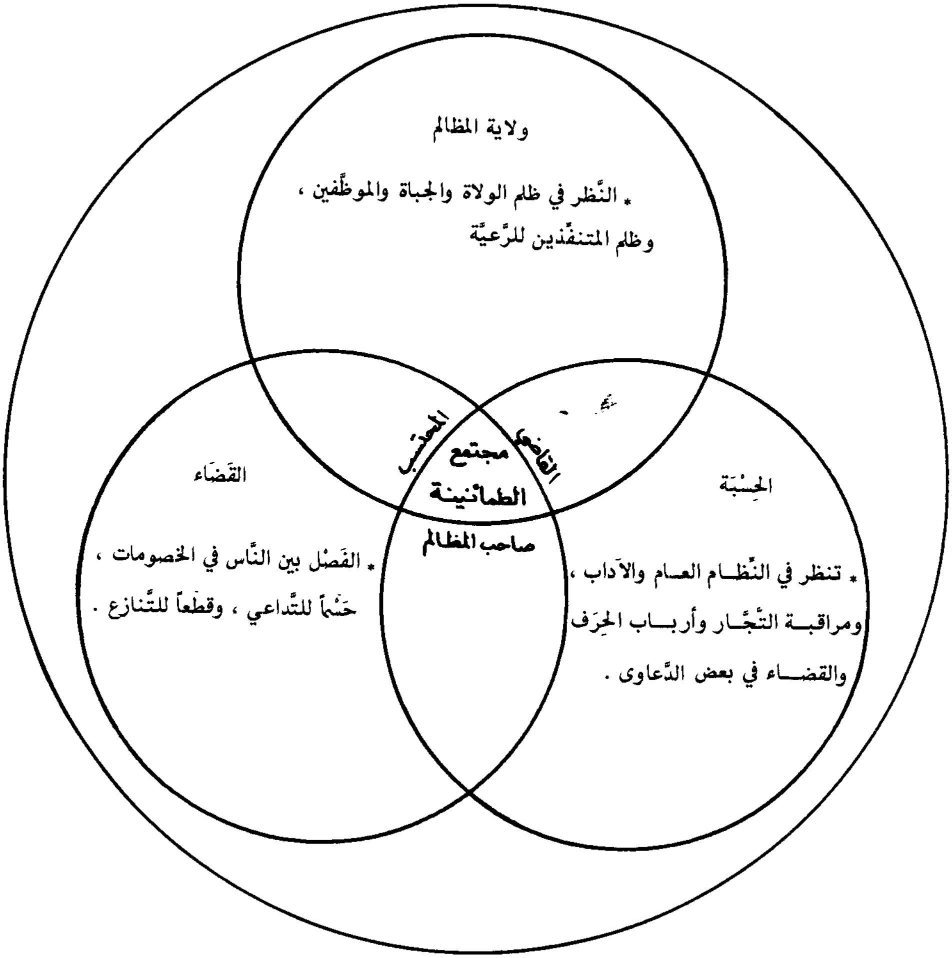
(١٩) صبح الأعشى : ٥/٢٠٦

ومِمَّا يذكر .. أنَّ الرَّحمة كثيراً ما سادت مجلس صاحب المظالم في حقّ الدَّولـة ، أُتِي المنصور العبَّاسي برجل يعاقبه على شيء بلغه عنـه ، فقـال : يـا أمير المؤمنين ، الانتقـام عَـدْلٌ ، والتَّجـاوز فضـل ، ونحن نُعيـذُ أميرَ المـؤمنين بـالله أن يرضى لنفســه بــأَوْكَسِ النَّصيبَيْنِ دون أن يبلغ الدَّرجتَيْن ، قال : فعفا عنه »[٢٠] .

☆ ☆ ☆



(٢٠) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر : ٢٢١/٣٨ ، وعيون الأخبار : ٩٨/١



ولاية المظالم + الحِسْبَة + القَضَاء =

ثلاث مؤسَّسات ، تعمل ضمن حلقة واحدة ، غايتها تحقيق العدل ، وحفظ الحقوق والأموال والدِّماء وفق شرع الله ، وبالتَّالي تحقيق الطُّمأنينة والعدالة الاجتماعيَّة والمجتمع الفاضل السَّعيد

الشُّرْطَةُ

* طلب أحد الولاة من الخليفة عمر بن عبد العزيز مالاً يعينه على بناء سور حول المدينة عاصمة الولاية ، فأجاب عمر : وماذا تنفع الأسوار ؟ حَصِّنها بالعدل ، ونَقِّ طريقها من الظُّلم .

شُرَطِيٌّ وشُرْطِيٌّ ، مشتق من الشَّرَط ، وهي العلامة ، لأنَّهم يجعلون لأنفسهم علامات يُعْرَفُون بها[(١)] ، وقيل من الشَّرَط وهو رُذَال المال ، لأنَّهم يتحدَّثون في أراذل النَّاس وسِفْلتهم ، ممن لا مال له ، من لصوص ونحوهم[(٢)] ، وتطلق على الَّذين يحفظون الأمن ، ويسهرون على النِّظام ، وأوَّل من استعمل الشُّرطة معاوية بن أبي سفيان ، وكانت الشُّرطة في أوَّل نشوئها فرقة من المقاتلة عليها رئيس يُسَمَّى (صاحب الشُّرطة) ، ويستعين بهم الخليفة ، أو الأمير ، في حفظ النِّظام العام داخل المدن ، والبحث عن أهل الرِّيبة .

ومِمَّا لا شكَّ فيه ، أنَّ العَسَسَ كان نواة الشُّرطة ، فقد كان عبد الله بن مسعود أمير العسس أيَّام أبي بكر الصِّدِّيق ، وتولَّى عمر بن الخطَّاب العسس بنفسه ، ولَمَّا تكاثر المفسدون ، وتظاهروا بالمنكر في وضح النَّهار ، جاءت ضرورة ترصُّدهم نهاراً أيضاً ، فأُنشئت الشُّرطة كعسس دائم .

---

(١) الاشْتِراط : العلامة الَّتي يجعلها النَّاس بينهم ، ومنه الشُّرطة ، لأنَّهم جعلوا لأنفسهم علامة يُعْرَفُون بها ، والشُّرطة في السُّلطان : من العلامة والإعداد ، ورجل شُرْطِيٌّ وشُرَطِيٌّ منسوب إلى الشُّرطة ، سمُّوا بذلك لأنَّهم أُعِدُّوا لذلك وأعلموا أنفسهم بعلامات ، (اللِّسان : شرط) .

(٢) صبح الأعشى : ٥/٤٥٠

يذكر المقريزي[٣] : وعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، أوَّل من اتَّخذ دار ضيافة في الإسلام ، وذلك سنة ١٧ هـ ، أعدَّ فيها الدَّقيق والسَّمن والعسل وغيره ، وجعل بين مكَّة والمدينة من يحمل المنقطعين من ماء إلى ماء ، حتَّى يوصلهم إلى البلد ، وتطوَّر هذا حتَّى وصل إلى ما عُرِفَ بشرطة الطُّرق ، ففي دولة الأشراف السَّعديِّين مثلاً ، ولاتِّساع رقعة الدَّولة ، أُقيمت محطَّات عديدة في أرجاء البلاد ، تحت حماية حُرَّاس مُقيمين ، لا يبعد بعضها عن بعض إلاَّ بمسافة عشرين كيلومتراً ، وبهذه المحطَّات ينزل المسافرون والقوافل المارَّة عبر القرى والبوادي ، وتتوفَّر في هذه المحطَّات المؤن الضَّروريَّة ؛ ليشتري منها النَّازلون ما يحتاجون إليه .

تطوُّرُ الشُّرطة :

كانت الشُّرطة في العهد الأُموي أداة تنفيذ فقط ، وفي العهد العباسي وفي الأندلس ، تعاظمت اختصاصات الشُّرطة ، حتَّى أُعطي صاحبها حقَّ القضاء في الجرائم ، وإقامة الحدود .

إنَّ الشُّرطة كانت تستأثر بالقضاء الجزائي كلِّه ، من تهمة وحُكْم وتنفيذ ، وتَسْتَعْمِل في التَّحقيق وإظهار الجرائم أساليب مخصوصة كالحبس والضَّرب والتَّعذيب ، ثمَّ عادت سيرتها الأُولى ، فأصبحت قوَّة تنفيذيَّة للقضاء والْخَرَاج والحِسْبَة .

اختصاصات الشُّرطة الإداريَّة :

تحفظ الشُّرطة النِّظام في الطُّرق والأماكن العامَّة ، وتحفظ الأمن بمراقبة الأشرار واللُّصوص[٤] ، وتراقب الملاهي والحانات ، وتنفِّذ أوامر القضاء والمحتسبين ، وتساعد عمَّال الْخَرَاج ، وتُدِير السُّجون بسجل خاص .

---

(٣) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : ٤٦٠/١

(٤) أمسك شرطي برجلين قد اتُّهما بالسَّرقة ، لا يدري أيُّهما البريء ، فأقامهما بين يديه ، ثمَّ طلب شربة ماء ، فلمَّا أُجيب إلى مطلبه جعل يشرب ، ثمَّ ألقى الكوب من يده عمداً ، فوقع الكوب وانكسر ، =

وكان صاحب الشُّرطة في مصر يرفع تقريراً يومياً إلى السُّلطان ، يكتب فيه مطالعةً جامِعَةً لأحوال البلد .

آدابُ صَاحِبِ الشُّرطة :

ينبغي أن يكون حكيماً مهيباً ، عميق الفكر ، بعيد الغور ، غليظاً على أهل الرِّيب ، شديد اليقظة ، يلزم أصحابه باليقظة الدَّائمة ، وملازمة المحابيس ، وتفتيش الأطعمة ، وما يدخل السِّجن ، ويتفقَّد الدُّروب ليلاً ، وعمارة سور المدينة وأبوابها ، ومعرفة من يدخلها ، ويمنع الدُّروب ليلاً ، وعمارة سور المدينة وأبوابها ، ومعرفة من يدخلها ، ويمنع المظلوم(٥) من الانتصار لنفسه بيده ، ويأمر العامَّة ألاَّ يجيروا أحداً ، ولا ينبِّهوه إلى الهرب ، بل يدلُّوا على الظَّالم ، أو المجرم ، أو المسيء .

ومن آداب الشُّرطة أن يعاقب الخاصَّ والعام عقوبة واحدة ، كما أمرت الشَّريعة ، ضمن حدود الله عزَّ وجلَّ .

يقول زياد بن أبيه : ينبغي أن يكون صاحب الشُّرطة شديد الصَّولة ، قليل الغفلة ، وينبغي أن يكون صاحب الحرس مسنّاً ، عفيفاً ، مأموناً لا يُطعن عليه(٦) .

وقال الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي : دلُّوني على رجل للشُّرَط ، فقيل : أيُّ الرِّجال تريد ؟ فقال : أُريده دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، لا يخفق في الحقّ على جرة ، يهون عليه سِبَالُ الأشراف(٧) في الشَّفاعة ، فقيل له : عليكَ

= فانزعج أحد الرَّجلين ، وثبت الآخر ، فقال للمنزعج : اذهب أنتَ لشأنك ، وقال لمن ثبت : أنتَ السَّارق ، فلترد ماأخذت ، فقيل له : من أين علمتَ ؟ فأجاب : اللِّص قوي القلب لا ينزعج ، وهذا المنزعج بريء ، لأنَّه لو تحرَّكت في البيت فأرة لأزعجته ، ومنعته أن يسرق .

(٥) عُرِّف الظُّلم بأنَّه نقل الحقّ من صاحبه إلى غيره .

(٦) تاريخ اليعقوبي : ٢٣٥/٢

(٧) جاء فلان وقد نشر سَبَلتَه ، إذا جاء يتوعَّد ، والسَّبلة : ما ظهر من مقدَّم اللِّحية بعد العارضين ، والعُثْنون مابطن ، والسَّبلة أيضاً : الشَّارب ، والجمع السِّبال ، (اللِّسان : سبل) .

بعبد الرَّحمن بن عبيد التَّميمي ، فأرسل إليه يستعمله ، فقال له : لست أقبلها إلاَّ أن تكفيني عيالكَ وولدكَ وحاشيتك[٨] ، قال : يا غلام ، نادِ في النَّاس : من طلب إليه منهم حاجة ، فقد برئت منه الذِّمَّة ، قال الشَّعبي[٩] : فوالله ما رأيتُ صاحب شرطة قطُّ مثله ، كان لا يحبس إلاَّ في دَيْنٍ ، وكان إذا أُتي برجل قد نَقَبَ[١٠] على قوم وضع مِنْقَبَته في بطنه حتَّى تخرج من ظهره ، وإذا أُتي بنبَّاش حفر له قبراً فدفنه فيه ، وإذا أُتي برجل قاتل بحديدة ، أو شَهَرَ سلاحاً قطع يده ، وإذا أُتي برجل قد أحرق على قوم منزلهم أحرقه[١١] ، وإذا أُتي برجل يشكُّ فيه ، وقد قيل إنَّه لصٌّ ، ولم يكن منه شيء ، ضربه ثلاث مئة سوط ، قال : فكان ربَّما أقام أربعين ليلة لا يُؤتى بأحد ، فضمَّ إليه الحجَّاج شرطة البَصْرة مع شرطة الكوفة[١٢] .

تقليد الشُّرطة :

كان الخليفة يقلِّد صاحب الشُّرطة عاصمة الدَّولة ، وربَّما جعل ذلك لوزيره ، أمَّا في الأقاليم ؛ فكان لكلِّ أمير أن يولِّي صاحب الشُّرطة ، وكانت الشُّرطة تقسم أحياناً تبعاً للمناطق في المدن الكبرى .

وفي الأندلس ، كانت الشُّرطة على نوعين :

الشُّرطة الكبرى على الخاصَّة ، وهدفها الضَّرب على أيدي أقارب السُّلطان ومواليه وأهل الجاه ، ولصاحب الشُّرطة الكبرى كرسي بباب دار السُّلطان ، وهو مرشَّح للوزارة ، أو الحجابة .

(٨) لذلك قيل : لا تصلح العامَّة إلاَّ ببعض الحيف على الخاصَّة .

(٩) الشَّعْبي : عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشَّعبي الحميري ، أبو عمرو : [١٩ ـ ١٠٣ هـ = ٦٤٠ ـ ٧٢١ م] ، من التَّابعين ، يضرب المثل بحفظه ، اتَّصل بعبد الملك بن مروان ، فكان نديمه وسميره ، ورسوله إلى ملك الرُّوم ، واستقضاه عمر بن عبد العزيز ، (الأعلام : ٣/٢٥١) .

(١٠) النَّقْبُ : الثُّقب في أي شيء كان ، نَقَبه يَنْقُبُه نَقْباً ، (اللِّسان : نقب) .

(١١) الجزاء ـ هنا ـ من جنس العمل .

(١٢) عيون الأخبار : ١/١٦

والشُّرطة الصُّغرى للعامَّة .

صورة تقليد صاحب الشُّرطة[١٣] :

« اعتمد المساواة بين النَّاس ، ولا تجعل بين الغني والفقير في الحقِّ فرقاً ، اشمل أهل المدينة بطمأنينةٍ تُنيم الأخيار[١٤] ، وتوقظ الأشرار ، وأمنةٍ تساوي فيها بين ظلام اللَّيل ونور النَّهار .. وأنصف المظلوم ، واقمع الظَّالم ، وخُذ ـ في الحدود ـ بالاعتراف أو الشَّهادة ، ولا تتعدَّ حدَّها بنقص ولا زيادة ، وكما تقيمها بالبيِّنات ، فكذلك تدرؤها بالشُّبهات .

وفي هذه المدينة من أعيان الدَّولة ووجوهها ، وكلٌّ سامي الأقدار نَبيهها ، والتُّجَّار الَّذين هم عين الحلال والحرام ، والرَّعية الَّذين بهم قوام العيش من يلزمك أن تكون لهم مكرماً ، ولإيالتهم ـ أي سياستهم ـ محكماً ، ومن ظلمهم متحرِّجاً متأثِّماً .

وأوعز إلى أصحاب الأرباع[١٥] باطِّلاعك على الخفايا ، وإبانَةِ كلِّ مستورٍ من القضايا ، وأن يتيقَّظوا لسكنات اللَّيل ، وغفلات النَّهار .. وواصل التَّطواف في العدد الوافر والسِّلاح الظَّاهر في أرجاء المدينة وأطرافها ، وعَمِّر بسرِّك سائر أرجائها وأكنافها » .

وممَّا يذكر أن السُّجون عُرفت منذ أيَّام الخلفاء الرَّاشدين ، وهي ضرورة في المجتمع ، فالسِّجن : هو المكان الَّذي يُمْسَك فيه المجرم ، وهو العقاب المناسب له ، والرَّادع للجريمة ، إنَّه لحفظ حقوق المجتمع ، وصيانة النِّظام العام والمصالح العامَّة ، وبما أن وجود الجاني حُرّاً دون عقاب يؤثر سلباً في هذه الحقوق ، وهذه المصالح ، ويهدِّد

---

(١٣) كما أورده القلقشندي في صبح الأعشى .

(١٤) وهذا هو الهدف الأسمى في الحضارة الحقَّة : الطمأنينة في حياة الإنسان .

(١٥) الرَّبع : المنزل والدَّار بعينها ، والوطن متى كان وبأي مكان كان ، وجمعه : أَرْبُعٌ ورِباعٌ ورُبُوع وأرْباع ، (اللِّسان : ربع) .

أمن النَّاس واستقرارهم ، ومن أجل هذا ، كان الهدف من سجن المجرم ، إصلاح شأنه ، وتهذيب نفسه ، مع حماية المجتمع من أن ينفذ إليه الفساد أو الإيذاء .

فالمقصود من السجون أن تكون (سجون إصلاحيَّة) ، لذلك فرَّقوا بين سجون النِّساء ، وسجون الرِّجال ، وسجون الأحداث ، حيث إن الاختلاط بين المساجين ، نساء ورجال ، أو رجال وأحداث ، ذريعة للفساد ، وسمح بعض الفقهاء خروج المسجون لتشييع جنازة أقاربه ، وفي صلاة العيدَيْن ، ومعالجته من مرضه في داره ، إذا ابتلي السَّجين بمرض لا يرجى شفاؤه ، وأصرَّ الإمام علي رضي الله عنه على تعليم الحِرَف لمن يستطيع التَّعلُّم من السُّجناء ، وذلك لكي يواجه السَّجين المجتمع بعد خروجه من السِّجن ، وهو في وضع يكفل له العيش بكرامة وسعادة ، « وكذلك كان يحال بين السُّجناء وبين الوقوع في أي كبت جنسي ينعكس على سلوكهم ، ويمسون بؤرة للفساد بعد خروجهم من السِّجن ، وأثناء وجودهم فيه ، لذلك كان يسمح لهم بالصِّلة المشروعة ضمن نطاق يحدِّده نظام السِّجن »[(١٦)] .

وتنتهي مدَّة السِّجن إما بانقضاء مدة العقوبة المقرَّرة في الحكم بأكملها ، أو إصدار عفو عام أو خاص عن المساجين ، أو وجود السَّجين في حالة صحيَّة لا تسمح له بالبقاء في السِّجن فيصدر العفو عنه ليقضي بقيَّة مدَّة محكوميته في بيته ، أو إبراء ذمَّة الجاني أمام المجني عليه أو أمام الحقِّ العام .

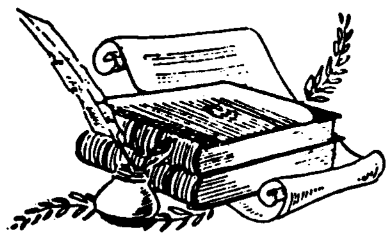
حبس أبو لبابة (رفاعة بن المنذر) نفسه أيَّام رسول الله ﷺ في المسجد ، وجعل عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه بيتاً في مكَّة ينسب لعبد الله بن سباع بن عبد العزى سجناً أسماه (سجن سباع) ، وفي المدينة المنوَّرة استأجر داراً سمِّيت فيما بعد (بسجن عارم) ، وفي أيَّام علي رضي الله عنه أسَّس سجناً أسماه (نافع) ، وآخر باسم (المخيس) .

---

(١٦) أحكام السُّجون ، ص ١٣٧ ، د . أحمد الوائلي ، ط ٣ ، سنة ١٩٨٣ م .

وأنفقت الدَّولة على السُّجون من بيت مالها ، حيث إن السُّجون كفّ شَرِّ السُّجناء وأذاهم عن النَّاس ، فهو من المصالح العامَّة ، والإنفاق عليها إنَّما يكون من بيت المال ، حتَّى اقترح أبو يوسف ـ قاضي القضاة أيَّام الرَّشيد ـ تزويد المساجين ـ إناثاً وذكوراً ـ بِحُلَّةٍ قطنيَّة صيفاً ، وأُخرى صوفيَّة شتاءً[17] .

☆ ☆ ☆



(١٧) الحُلَّة : رداء قميص ، وتمامها العِمَامة ، (اللِّسان : حلل) . واقترح أبي يوسف القاضي في (الخراج) ص ١٦١

الدَّواوينُ

أصبحت العربيّة لغة الدّواوين كُلّها منذ أيّام عبد الملك بن مروان سنة ٨١ هـ ، « وينبغي أن يكون في الكاتب خمس خلال : بُعْدُ غور ، وحسن مداراة ، وإحكام للعمل ، وألاّ يؤخّر عمل اليوم لغدٍ ، والنّصيحة لصاحبه » .

[اليعقوبي : ٢/٢٣٥]

الدّيوان : كلمة فارسيّة في رأي الأصمعي ، وعليه اقتصر الجوهري في صحاحه ، فقال : الديوان « فارسي معرَّب » ، ومعناها سجل ، أو دفتر(١) ، وفي اللّسان (دون) ، الدّيوان : مجتمع الصُّحف ، فارسي معرَّب ، وفي الحديث : « لا يجمعهم ديوان حافظ » ، قال ابن الأثير : هو الدّفتر الّذي يُكْتَبُ فيه أسماء الجيش ، وأهل العطاء .

وأُطلق الدّيوان من باب المجاز على المكان الّذي يُحْفَظُ فيه الدّيوان ، ويجلس فيه الكُتّاب ، يقول الماوردي : « والدّيوان موضع لحفظ ما يتعلّق بحقوق السّلطنة ، من الأعمال والأموال ، ومن يقوم بها من الجيوش والعمال »(٢) . ويضيف الفرّاء : والدّيوان بالفارسيّة : اسم للشّياطين ، فسمّي الكُتّاب باسمهم لحذقهم بالأُمور ، ووقوفهم منها

---

(١) وقيل عربي ، قال النحاس : والمعروف في لغة العرب أن الديوان في الأصل الّذي يُرْجَع إليه ويُعْمَل بما فيه ، وقد روي عن ابن عباس : « إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن ، فالتمسوه في الشّعر ، فإنّ الشّعر ديوان العرب ، (صبح الأعشى : ١/٩٠) ، ويقال دوّنته ، أي أثبته ، وإليه يميل كلام سيبويه .

(٢) الأحكام السّلطانيّة ، ص : ٢٢٦ ، [إن لم نورد أمامها في الحواشي كلمة (الفراء) فهي (للماوردي)] .

على الجلي والخفي ، وجمعهم لِمَا شذَّ وتفرَّق ، ثمَّ سمي مكان جلوسهم باسمهم ، فقيل ديوان[٣] .

أخذ الدِّيوان ملامحه منذ أن كتب الرَّسول ﷺ إلى الأُمراء والملوك يدعوهم إلى الإسلام ، وعندما كتبَ إلى أَصحاب السَّرايا من أَصحابه ، ذكر القضاعي في تاريخه (عيون المعارف وفنون أَخبار الخلائف) أَنَّ الزبير بن العوام ، وجهيم بن الصَّلت كانا يكتبان للنَّبي ﷺ أَموال الصَّدقات ، وأَنَّ حذيفة بن اليمان كان يكتب له خَرْص النَّخل[٤] ، وأَنَّ المغيرة بن شعبة ، والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات .

وبذلك تكون هذه الدَّواوين قد وُضِعَت في زمن رسول الله ﷺ ، إلاَّ أَنَّها ليست في الشُّهرة وتواتر الكتابة في زمانه ﷺ[٥] .

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه أَوَّل من دوَّن الدَّواوين في الإسلام ، وذلك في المحرَّم سنة عشرين للهجرة ، فأَنشأ ديوان الجند لكتابة أَسماء الجند المجاهدين ، وما يخصُّ كلاً منهم من عطاء ، وديوان الخَرَاج ويختص ببيت المال من دخل وإنفاق[٦] .

أَهمُّ الدَّواوين :

ديوان الجند : أوجده عمر بن الخطّاب رضي الله عنه (المحرَّم ٢٠ هـ) ، وهو في حقيقته سجل للجيش ، أَمَّا الَّذي دعا إلى إيجاده فهو ؟ أَن الهرمُزان لما رأى عمر يبعث البعوث بلا ديوان ، قال له : ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم ؟ فإنَّ من تخلَّف أَخلَّ بمكانه ، وإنَّما يضبطُ ذلك الكتاب ، فأَوجد عمر رضي الله عنه ديوان العساكر

(٣) الأحكام السلطانيّة (الفرَّاء) ، ص : ٢٣٧

(٤) الْخَرْصُ حَزْرُ ما على النَّخل من الرُّطب تمراً ، وقد خَرَصْتُ النخلَ والكَرْمَ أخرصُهُ خَرْصاً إذا حزر ما عليها من الرُّطب تمراً ، ومن العنب زبيباً ، وهو من الظّن لأنَّ الْحَزْرَ إنَّما هو تقديرٌ بِظَنٍّ ، (اللّسان : خرص) .

(٥) صبح الأَعشى : ٩١/١

(٦) الأَحكام السُّلطانية ، ص : ٢٢٦

الإسلاميَّة ، على ترتيب الأَنساب ، مبتدئاً من قرابة رسول الله ﷺ ، وما بعدها الأَقرب فالأَقل قرباً ، ومن أَعمال هذا الديوان إعطاء النَّاس أُعطياتهم .

ديوان الخَرَاج : وينظِّم جباية الأَموال ، وضبط حساباتها ، ثمَّ الموازنة بين الواردات والنفقات ، ويشترط بكاتب الدِّيوان ـ وهو صاحب ذمامه ـ العدالة والكفاية ، فأَمَّا العدالة فلأَنَّه مؤتمن على حقِّ بيت المال والرَّعيَّة ، فاقتضى أَن يكون في العدالة والأَمانة على صفات المؤتَمَنين ، وأَمَّا الكفاية فلأَنَّه مباشر لعمل يقتضي أن يكون في القيام مستقلاً بكفاية المباشرين ، فإذا صحَّ تقليده ، فالَّذي ندب له ستة أَشياء : حفظ القوانين ، واستيفاء الحقوق ، وإثبات الرُّفوع ، ومحاسبات العمال ، وإخراج الأَحوال ، وتصفُّح الظُّلامات .

حفظ القوانين : على الرُّسوم العادلة من غير زيادة تتحيَّف بها الرَّعيَّة ، أَو نقصان ينثلم به حقُّ بيت المال .

واستيفاء الحقوق : ممن وجبت عليه من العاملين ، فيعمل على إقرار العمَّال بقبضها ، واستيفائها من القابضين لها من العمَّال .

وإثبات الرُّفوع : وهي رفوع مساحة وعمل ، ورفوع قبض واستيفاء ، ورفوع خرج ونفقة .

ومحاسبة العمال : لأَنَّهم ملزمون برفع الحساب ، ووجب على كاتب الدِّيوان محاسبتهم على صحَّة ما رفعوه .

وإخراج الأَحوال : وتعني استشهاد صاحب الدِّيوان على ما ثبت فيه من قوانين وحقوق ، فصار كالشَّهادة ، فلا يخرج من الأَموال إلاَّ ما علم صحَّته ، كما لا يشهد إلاَّ بما علمه وتحقَّقه .

وتصفُّح الظُّلامات : وهو يختلف بسبب اختلاف التَّظلُّم ، وليس يخلو من أَن يكون المتظلِّم من الرَّعيَّة أَو من العمال .

ديوان الرَّسائل : أو (ديوان الإنشاء) : وهو يشبه رئاسة الوزراء في أيامنا ، فرئيس ديوان الرَّسائل ويسمَّى (الكاتب) ينشئ الرَّسائل الَّتي يبعث بها الخليفة إلى الولاة والعمال والملوك ، ويتلقَّى الرَّسائل الَّتي ترد إلى الخليفة .

وكتب هذا الديوان باللغة العربية منذ إيجاده ، فالرَّسائل الَّتي وجَّهها رسول الله ﷺ كتبت بالعربيَّة .

كان عمر بن عبد العزيز يكتب الرَّسائل أحياناً بيده ، ولكن لما تشعَّبت أمور الدَّولة ، أخذ الخليفة يعتمد على كُتَّابِهِ شيئاً فشيئاً ، فقد كان قبيصة بن ذؤيب يكتب لعبد الملك ، وبلغ من مكانته عنده أنَّه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك ، وكان له ذلك عادة .

وأصبح (الكاتب) مأموناً في كلِّ ما يكتب ، ولا يفعل الخليفة أكثر من أن يوقِّع فقط ، ولذلك كثيراً ما كان الكُتَّاب يتلاعبون بالأُمور ، من ذلك ما روي من أن هشاماً أُقْطِعَ قبل أن يَلِيَ الخلافة ـ ربما في أيَّام يزيد بن عبد الملك ـ أرضاً يقال لها دورين ، فأرسل في قبضها فإذا هي خراب ، فقال لذُويد ـ كاتب كان بالشَّام ـ وَيْحَك ، كيف الحيلة ! فقال ذويد : ما تجعل لي ؟ فقال هشام : أربع مئة دينار ، فكتب ذويد : دورين وقراها ، ثم أمضاها في الدواوين ، فأخذ هشام شيئاً كثيراً .. ولقد حصَّل الكتاب أنفسهم من مناصبهم أموالاً جليلة ، وبلغت الجرأة بالكُتَّاب إلى أنَّ قَطَناً مولى يزيد بن الوليد ، وكان يتولَّى ديوان الخاتم والحجابة ، كتب على لسان الخليفة يزيد بن الوليد كتاباً بولاية العهد لإبراهيم بن الوليد ، وقرأه على النَّاس فبايعوا لإبراهيم خلافاً لإرادة الخليفة المُحْتَضر[٧] ، وقبل أن ينقضي العصر الأُموي ، كانت الكتابة قد أصبحت صناعة ذاتَ قواعدَ وأُصول ، وأصبح الكاتب كأنَّه وزير له رأي في أُمور الدَّولة ، وله سلطة عظيمة في تسييرها .

(٧) تاريخ صدر الإسلام والدولة الأُمويَّة ، ص : ٢١٣

وفي دولة المرابطين ، كانت (الهيئـة الاستشـاريَّـة) التي ضمَّت مجموعـة من الفقهـاء والأعيـان والوزراء تلي السلطـان مكانـة ، وأهم دائرة حكـوميـة تليهـا مبـاشرة ، كانت (ديوان الرَّسائل) الَّذي يرأسـه كاتب كبير ، وكان المرابطون « يتخيَّرون الكُتَّـاب من كبار الأُدباء ، حيث كان الأُسلوب الكتـابي في العصور الوسطى يلعب دوراً يفوق دور المفـاوضـات الشَّفويَّـة ، وكان لأَمير المسلمين[٨] عـدة كتَّـاب في آن واحـد ، وعلى رأسهم كاتب كبير ، هو في الواقع رئيس ديوان الرَّسائل »[٩] .

وأيـام المماليـك كان لا يتـولَّى (دِيـوان الرَّسـائـل) إلاَّ أَجـل كتـاب البـلاغـة ، ويُخَـاطَب بـالشيخ الأَجـل ، ويقـال لـه : كاتب الـدَّسْت الشَّريف ، ويسلم المكاتبـات الواردة مختومة فيعرضها على الخليفة من بعده ، وهو الَّذي يأمر بتنزيلها والإجابة عنهـا للكتـاب ، والخليفـة يستشيره في أكثر أُمـوره ، ولا يحجب عنـه متى قصـد المثـول بين يديه ، وهذا أمر لا يصل إليه غيره ، وربمـا بـات عنـد الخليفـة ليـالي ، وكان جـاريـه - راتبـه - مئـة وعشرين دينـاراً في الشَّهر ، وهـو أوَّل أربـاب الإقطـاعـات ، وأربـاب الكسوة والرُّسوم والملاطفـات ، ولا سبيـل أن يـدخـل إلى ديـوانـه بـالقصر ، ولا يجتمع بكتـابـه أحـد إلاَّ الخواص ، ولـه حـاجب من الأُمراء الشُّيوخ ، وفرّاشون . ولـه المرتبـة الهائلة ، والمخادّ والمسند والدَّواة ، لكنها بغير كرسيّ ، وهي من أُخص الدَّوى ، ويحملهـا أُستاذ من أُستاذي الخليفة »[١٠] .

(٨) في الأصل (أُمير المؤمنين) ، ومن المعلـوم أن المرابطين تسمـوا بـإمرة المسلمين تـاركين للخليفـة العبـاسي ببغداد لقب (أُمير المؤمنين) .

(٩) النِّظام السِّياسي والحربي في عهد المرابطين ، ص : ٩٣ و٩٤

(١٠) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي : ٤٠٢/١ ، وهذا لا يعني أن كل الكُتَّاب كانوا بلغـاء ، فقد ورد : تلقَّى أحـد السَّلاطين خطـابـاً من أمير لـه ، جـاء فيـه : إن سلنـدرَيْن ، أي مركَبَيْن ، من مراكب المسلمين ، أي المؤمنين ، قـد هلكا ، أي غرقـا ، فهلك من فيهـا ، أي مـاتوا ، فـارسم لنـا ، أي أخبرنا ، ماذا نصنع ؟ فدفع السُّلطان الكتاب إلى رئيس ديوانه ليرد عليه فكتب : جاءنا كتابـك ، أي وصل ، ففضضناه ، أي فتحناه ، وعلمنا ما فيه ، أي قرأناه ، فأدِّب كاتبك ، أي اصفعه ، واستبدل به ، أي اعزله ، والسَّلام .

وأورد القلقشندي (صفة صاحب هذا الديوان وآدابه) فقال :

« قال أبو الفضل الصُّوري في مقدّمة تذكرته : يجب أن يكون صبيح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طَلْق اللّسان ، أصيلاً في قومه ، رفيعاً في حَيِّه ، وقوراً ، حليماً مؤْثراً للجِدّ على الهزل ، كثير الأناة والرِّفق ، قليلَ الْعَجَلة والْخُرْق ، نَزْر الضحك ، مَهِيب المجلس ، ساكن الظّل ، وقور النَّادي ، شديد الذَّكاء ، متوقِّد الْفَهْم ، حسن الكلام إذا حَدَّث ، حسن الإصغاء إذا حُدِّث ، سريع الرضا ، بطيء الغضب ، رؤوفاً بأهل الدين ، ساعياً في مصالحهم ، محبّاً لأهل العلم والأدب ، راغباً في نفعهم ، وأن يكون محبّاً للشُّغْلِ أكثر من محبَّته للفراغ ، مقسّماً للزمان على أشغاله ، يجعل لكل منها جزءاً منه حتّى يستوعبه في جميع أقسامها ، ملازماً لمجلس الملك إذا كان جالساً ، وملازماً للديوان إذا لم يكن الملك جالساً ، ليتأسّى به سائر كُتّاب الديوان ، ولا يجدوا رخصة في الغيبة عن ديوانهم ، وأن يُغَلِّب هوى الملك على هواه ، ورِضاه على رضاه ، ما لم يَرَ في ذلك خللاً على المملكة ، فإنّه يجب أن يُهْدِي النصيحة فيها للملك من غير أن يُوجده فيما تقدّم من رأيه فساداً أو نقصاً ، لكن يتحيَّل لنَقْص ذلك وتهجينه في نفسه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأنٍّ ، وأفضل تلطُّف ، وأن يَنْحَلَ الملك صائبَ الآراء ولا ينتحلها عليه[١١] ، ومهما حدث من الملك ، من رأيٍ صائب ، أو فعل جميل ، أو تدبير حميد ، أشاعه وأذاعه ، وعظّمه وفخّمه ، وكرّر ذكره ، وأوجب على النّاس حمدَه عليه وشكره ، وإذا قال الملك قولاً في مجلسه ، أو بحضرة جماعة ممن يخدُمه فلم يره موافقاً للصّواب ، فلا يَجْبَهْه بالرّد عليه واستهجان ما أتى به ، فإنّ ذلك خطأ كبير ، بل يصبر إلى حين الْخَلْوة ، ويُدخل في أثناء كلامه ما يوضّح به نهجَ الصّواب من غير تلقٍّ برد ، ولا يتبَجّح بما عنده ، ويكون متابعاً للملك على أخلاقه الفاضلة ، وطِباعه الشّريفة ، من بَسْط الْمَعْدِلَة[١٢] ، ومَدّ رُواق الأَمَنة ، ونشر جناح الإنصاف ، وإغاثة الملهوف ،

(١١) يَنْحَل : يعطي ، ونحله القول ينحله نحلاً نسبه إليه ، إذا أضاف إليه قولاً ، (اللّسان : نحل) .

(١٢) العَدالة والعُدولة والمَعْدِلة والمَعْدَلة كله : العدل ، (اللّسان : عدل) .

ونُصْرة المظلـوم ، وجَبْر الكسير ، والإنعـــام على الْمُعْتَرّ المستحـق[١٣] ، والتـوفُّر على الصَّدقـات ، وعِمارة بيوت الله تعـالى ، وصَرْف الهِمَم إلى مصـالحهـا ، والنَّظر في أحـوال الفقهاء ، وحَمَلَـة كتـاب الله العزيز بمـا يَصْلُح ، والالتفـاتِ إلى عمـارة البلاد ، وجهـاد الأعـداءِ ، ونشر الهيبـة ، وإقـامـة الحـدود في مـواضعهـا ، وتعظيم الشَّريعـة ، والعمـل بأحكامها ، فيكون لجميع ذلك مؤكداً ، ولأفعاله فيه موطِّداً ممهِّداً ، وإن أحسَّ منه بخَلَّة تُنافي هذه الخلال ، أو فَعْلةٍ تخالف هـذه الأفعـال ، نقلـه عنهـا بـألطف سَعْي ، وأحسن تدريج ، ولا يَدَعُ ممكناً في تبيين قُبْحها ، وإصلاح رداءه عاقبتهـا ، وفضيلـة مخـالفتهـا إلاَّ بيَّنه وأوضحه إلى أن يعيده إلى الفضـائل الَّتي هي بـالملوك النُّبلاء أليقُ ، وأن يكون مع ذلك بأعلى مكانـة من اليقظـة والاستـدلال بقليل القول على كثيره ، وببعض الشَّيء على جميعه ، ويستغني عن التَّصريح بالإشارة والإيماء ، بل بالرَّمزِ والإيحاء ، لينبِّه الملك على الأُمور من أوائلها ، ويعرِّفه خواتم الأشياء من مُفْتتحـاتهـا ، ويحـذِّر حين تبـدو لـه لوائح الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل ...

وأن لا يكتب عن الملـك إلاَّ مـا يقيم منـار دولتـه ويعظِّمهـا ، ولا يخرج عن حكم الشَّريعة وحـدودهـا ، ولا يكتبُ مـا يكون فيـه عيب على المملكـة ، ولا ذمٌّ على غـابر الأيَّـام ، ومستـأنف الأحقـاب ، وإن أمر بشيء يخرُج عن ذلـك ، تلطَّف في المراجعـة بسببـه ، وبيَّن وجـه الصَّواب فيـه إلى أن يرجع بـه إلى الواجب ، وأن يكون من كتمان السِّر بالمنزلة الَّتي لا يُدانيه فيها أحد ، ولا يقاربُه فيها بشر ، حتَّى يقرِّر في نفسه إماتـة كل حديث يعلمه ، ويتناسى كلَّ خبر يسمعه ، وأن لا يُطْلع والـداً ولا ولـداً ، ولا أخـاً شقيقاً ، ولا صديقاً صَـدُوقـاً ، على مـا دَقَّ أو جَلَّ ، ولا يُعْلِمـه بمـا كَثُر منـه ولا قَلَّ ، ويتوهم بل يتحقَّق أنَّ في إذاعته ما يَعْلم بـه وَضْعَ منزلتـه وحَـطَّ رتبتـه ، ويجتهـد في أن يصير له ذلك طبعاً مركَّباً وأمراً ضروريّاً .

---

(١٣) المعترّ : الَّذي يُطِيف بـك يطلب مـاعندك ، سـألـك أو سكت عن السؤال ، (اللّسـان : عرر) ، وفي سورة الحج ٢٢/٣٦ : ﴿ وَأَطْعِمُوا القَانِعَ وَالْمُعْتَر .. ﴾ .

قلت : وهذه الصِّفة هي الشَّرط اللاَّزم ، والواجب المحتَّم ، بها شُهِر ، وبالإضافة إليها عُرِف ، وقد قال المأمون وهو من أعلَى الخلفاء مكاناً ، وأوسعِهم علماً : الملوك تحتملُ كلَّ شيء إلاَّ ثلاثة أشياء : القَدْحُ في الملك ، وإفشاءُ السِّر ، والتَّعرُّضُ لِلْحُرَم »[١٤] .

خازن الدِّيوان : ويُختار لديوان الرِّسائل خازن ذكي عاقل ، مأمون بالغ في الأمانة والثِّقة ونزاهة النَّفس ، وقلَّة الطَّمع إلى الحدِّ الَّذي لا يزيد عليه ، فإنَّ زمام جميع الدِّيوان بيده ، فمتى كان قليل الأمانة ، ربَّما أمالته الرِّشوة إلى إخراج شيء من المكاتبات من الدِّيوان ، وإفشاء سرٍّ من الأسرار ، فيضر بالدَّولة ضرراً كبيراً .

وعلى خازن ديوان الرِّسائل أن يكون ملازماً للحضور بين يَدَيْ كُتَّاب الدِّيوان ، فمتى كتب المنشئ ، أو المتصدِّي لمكاتبة الملوك كتاباً ، أخذه وسلَّمه للمتصدِّي للنَّسخ ، فينسخُه حرفاً حرفاً ، ويكتب بأعلى نسخه كتاب كذا ، ويذكر التَّاريخ بيومه وشهره وسنته ، ثمَّ يتسلَّمه الخازن ، وكذلك يفعل بالكتب الواردة ، بعد أن يأخذ خَطَّ الكاتب الَّذي كتب جوابها ، وإن كان لا جواب عنه ، أخذ عليه خطَّ صاحب الدِّيوان أنَّه لا جواب عنه لتبرأ ذمَّتُه منه ، ولا يتأوَّل عليه في وقت من الأوقات أنَّه أخفاه ولم يُعْلِم به ، ثمَّ يجمع كلَّ نوع إلى مثله ، ويجعل لكلِّ شهر إضبارة ، ويجعل عليها بطاقةً ، ليسهل استخراج ما أراد استخراجه من ذلك[١٥] .

كما ينبغي لصاحب ديوان الإنشاء (الرِّسائل) أن يقيم لديوانه حاجباً لا يمكِّن أحداً من سائر النَّاس أن يدخل إليه ، لأنَّه يجمع أسرار السُّلطان الخ[illegible] ، فمن الواجب كتمها ، ومتى أهمل ذلك لم يؤمن أن يُطَّلع منها على ما يكون بإظهاره سبب سقوط مرتبته ، وإذا كثر الغَاشُون له والدَّاخلون إليه ، أمكن أهلَ الدِّيوان معه إظهار الأسرار

---

(١٤) صبح الأعشى : ١٠٤/١ وما بعدها .

(١٥) صبح الأعشى : ١٣٥/١

اتّكالاً على أنّها تُنْسَب إلى أولئك ، فإذا كان الأمر قاصراً عليهم ، احتاجوا إلى كتمان ما يعلمونه خشية أن ينسب إليهم إذا ظهر[١٦] .

ديوان الْمُسْتَغلاَّت : وهو ديوان خاص بما يجمع من أجور الأملاك السُّلطانيَّة ، أو ما يعرف بأملاك الدولة حالياً .

ديوان الْخَاتَم : أنشأه معاوية بن أبي سفيان ، وهو من أهمّ دواوين الدَّولة ، مهمَّته نسخ أوامر الخليفة ، وإيداعها هذا الدِّيوان بعد أن تحزم بخيط ، وتختم بالشَّمع ، وتختم بخاتم صاحب هذا الدِّيوان .

« وكانت الخواتم في خزائن الملوك ، لا تدفعها إلى الوزراء ، فاطَّرد الأمر على ذلك حتَّى ملك بنو أُميَّة ، وأفرد معاوية ديوان الخاتم ، وولاَّه عبيد بن أوس الغسَّاني ، وسلَّم الخاتم إليه ، وكان منقوشاً عليه (لكلِّ عمل ثواب) ، وكان سبب ذلك ، أنَّ معاوية كتب لعمرو بن الزُّبير إلى بعض عُمَّاله بمائة ألف درهم ، ففرَّق عمرو الهاء في مائة وجعلها ياء (مائتي) ، وأخذ مائتي ألف درهم ، فلمَّا مرَّت الرُّقعة بعدئذٍ بمعاوية ، ذكر أنَّه لم يَصِلْه إلاَّ بمائة ألف درهم ، فأحضر العاملُ الكتابَ ، فوقف معاوية على الأمر ، فاتَّخذ ديوان الْخَاتَم »[١٧] .

ديوان الطِّراز : وهو الَّذي يهتم بلباس الخليفة وحاشيته وموظَّفيه ، لقد بنى الخلفاء في دورهم دوراً لنسيج ثيابهم ، وكان القائم عليها ينظر في أُمور الصِّياغ والحياكة .

ديوان الْجَهْبَذَة : نشأ في العهد العبَّاسي ، واختصَّ بأُمور أهل الذِّمَّة وأحوالهم .

تعريب الدَّواوين :

وكان ذلك في عهد عبد الملك بن مروان : [٦٥ ـ ٨٦ هـ] ، وكانت السِّجلاَّت تُكْتَب بالرُّوميَّة في بلاد الشَّام ، جاء في (أدب الكُتَّاب) : « وكان ديوان الشَّام إلى

(١٦) صبح الأعشى : ١/٣٦٧

(١٧) أدب الكُتَّاب ، ص : ١٤٣

سرجون بن منصور ، وكان روميّاً نصرانيّاً ، كتب لمعاوية ولمن بعده إلى عبد الملك بن مروان ، ثمَّ رأى عبد الملك منه توانياً ، فقال عبدُ الملك لسليمان بن سعد[١٨] : ماأحتمل سحب سرجون ، أفما عندك حيلة في أمره ، فقال : بلى ، أنقل الحساب إلى العربيَّة من الرُّوميَّة ، فقال : افعل ، فحوَّله ، فولاَّه عبد الملك جميع دواوين الشَّام ، وصرف سرجون ، فلم يزل (سليمان بن سعد) على ذلك إلى أيَّام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، ثمَّ إنَّ عمر بن عبد العزيز وَجَدَ عليه فعزله ، واستكتب مكانه صالح بن كثير الصداي من أهل طبرية »[١٩] .

وكانت السِّجلاَّت تكتب بالفارسيَّة في العراق ، عرَّبها الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي « نقله له صالح بن عبد الرَّحمن[٢٠] كاتب كاتبه زاذان فرُّوخ »[٢١] ، « وكان صالح يكتب لزادان فروخ على الدَّواوين أيَّام الحجَّاج ، وكان أوَّل من جمع له الغزاة أن زياداً قال فاستكتب عليها زادان فرُّوخ الأعور ، فبقي إلى هذا الوقت ، قال : فلمَّا رأى الحجَّاج ذكاء صالح قرَّبه ، فقال لزادان فرُّوخ : إنَّ الأمير يقدِّمني عليك ، وأنت سببي منه ، وما أُحبُّ ذلك ، فلم يزل يؤخِّره عنه ، والحجَّاج يطلبه ، فقال له زادان فرُّوخ : لا بُدَّ للحجَّاج منِّي ، لأنَّه لا يجد من يقوم بحساب ديوانه غيري ، فقال له صالح : إنَّه

---

(١٨) سليمان بن سعد الْخُشَني بالولاء [ت نحو ١٠٥ هـ = نحو ٧٢٣ م] ، أوّل من نقل الدّواوين من الرُّوميّة إلى العربيّة ، وأوّل مسلم ولي الدّواوين كلّها في العصر الأموي ، عرض على عبد الملك أن ينقل الحساب من الرُّوميّة إلى العربيّة ، فأمر بذلك ، فحوّله فولاّه جميع دواوين الشّام ، (الأعلام : ١٢٦/٣) .

(١٩) أدب الكُتّاب ، ص : ١٩٣ ، وانظر (فتوح البلدان) ص : ١٩٦ أيضاً .

(٢٠) صالح بن عبد الرّحمن التّميمي بالولاء [ت نحو ١٠٣ هـ = نحو ٧٢٢ م] ، أوّل من حوّل كتابة دواوين الْخَرَاج من الفارسيّة إلى العربيّة في العراق ، وكان يجيد الإنشاء في اللُّغتين ، فوضع اصطلاحات للكُتّاب والْحُسّاب استغنوا بها عن المصطلحات الفارسيّة ، وكان جميع كُتّاب عصره تلاميذ له ، قال عبد الحميد بن يحيى الكاتب : لله درُّ صالح ما أعظم منّته على الكُتّاب ، (الأعلام : ١٩٢/٣) .

(٢١) صبح الأعشى : ٤٢٣/١ ، وهو في أدب الكُتّاب زادان (بالدّال بدل الذّال) .

إن أمرني بنقل الحساب إلى العربيَّة فعلت ، قال : فانقل شيئاً منه بين يدي ، ففعل ، فقال زادان فرُّوخ لكتابه الفرس : التمسوا مكسباً غير هذا[٢٢] .

قال : وقدَّم الحجَّاج صالحاً ، فقلب صالحُ الدِّيوانَ إلى العربيَّة ، وكان كُتَّاب العراقين كلُّهم غلمانه وتلاميذه »[٢٣] .

وكانت السِّجلاَّت تكتب بالقبطيَّة بمصر ، فعرَّبها عبد العزيز بن مروان في إمارته على مصر : [٦٥ ـ ٨٥ هـ] .

وتعريب الدَّواوين تبعه تقدُّمَ علم الرِّياضيات بشكل ملحوظ ، وسببه إجراء العمليَّات التِّجاريَّة بالعربيَّة ، مع حسابات ميزانيَّة بيت المال ، وحساب الفرائض ، وأُمور واردات بيت المال ونفقاته بشكل عام .

وهكذا أصبحت العربيَّة لغة الدَّواوين الرَّسمية منذ سنة ٨١ هـ ، ممَّا ساعد على تقلُّص نفوذ أهل الذِّمَّة ، وانتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدي المسلمين من العرب ، جاء في (فتوح البلدان ، ص ١٩٦) تحت عنوان : (نقل ديوان الرُّوميَّة) : « فلمَّا كانت سنة إحدى وثمانين أمر ـ عبد الملك ـ بنقله ـ بنقل الدِّيوان ـ وذلك أنَّ رجلاً من كُتَّاب الرُّوم احتاج أن يكتب شيئاً ، فلم يجد ماءً ، فبال في الدَّواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدَّبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأُردن سنة ، ففعل ذلك ، وولاَّه الأُردن ، فلم تنقض السَّنة حتَّى فرغ من نقله ، وأتى به عبد الملك ، فدعا بسرجون كاتبه ، فعرض ذلك عليه ، فغمَّه وخرج من عنده كئيباً ، فلقيه قوم من كُتَّاب الرُّوم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصِّناعة ، فقد قطعها الله عنكم » .

---

(٢٢) قيل : لمَّا أراد نقل الدِّيوان إلى العربيَّة بذل له كتاب الفرس ثلاث مئة ألف درهم على أن لا يفعل ، فأبى .

(٢٣) أدب الكتَّاب ، ص : ١٩٢ ، وهكذا وردَ النَّصُّ حرفياً .

وبـذلـك تمّت مراقبـة السّجـلاّت في كلّ الـدّواوين ، الّتي أضحت العربيّـة لغتهـا الرّسميّة ، والّتي هي لغة الدّولة ، ولغة القرآن الكريم .

كما ابتدأت تظهر طبقة من الكتّاب من ذلك الوقت ، وهم أصناف :

« أصنـاف الكُتّـاب على مـا ذكره ابن مقلـة خمسـة : كاتب خـط ، وكاتب لفـظ ، وكاتب عقـد ، وكاتب حكم ، وكاتب تـدبير ، فكاتب الخـط هو الورّاق والمحرّر ، وكاتب اللّفظ هو المترسّل[٢٤] ، وكاتب العقد هو كاتب الحساب ، الّذي يكتب للعامل ، وكاتب الحكم هو الّذي يكتب للقـاضي ونحوه ممّن يتولّى النّظر في الأحكام ، وكاتب التّـدبير هو كاتب السّلطان أو كاتب وزير دولته .. »[٢٥] .

وكان في الأمصار دواوين محلّيّة على غرار تلك الّتي في العاصمة[٢٦] .

☆ ☆ ☆



(٢٤) التّرسُّل في القراءة والتّرسيل واحد : التّحقيق بلا عَجَلة ، (اللّسان : رسل) .

(٢٥) الاقتضاب في شرح أدب الكُتّاب ، ص : ٦٦

(٢٦) اليعقوبي : ٢/٢٣٤

بَيْتُ الْمَالِ

التَّكافل الاجتماعي نظام مُسَلَّم به في حضارتنا العربيَّة الإسلاميَّة منذ أربعة عشر قرناً : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ ، [الحَشْر : ٩/٥٩] ، والمِلْكِيَّةُ الحقيقيَّة لله : ﴿ وَآتُوهُمْ مِن مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُم ﴾ ، [النُّور : ٣٣/٢٤] .

إنَّ النِّظام المالي في الإسلام مستقلٌّ كلَّ الاستقلال عن جميع النُّظم الماليَّة ، وأكثر مبادئ هذا النِّظام قواعد كليَّة أقرَّها القرآن الكريم : ﴿ كَيْلَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُم ﴾ ، [الحشر : ٧/٥٩] ، ﴿ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ، [البقرة : ٢٧٩/٢] ، وأوضحها رسول الله ﷺ(١) ، وجرى بها العمل في أيَّامه ﷺ ، وعلى القواعد الكبرى قيست الفروع الجزئيَّة المستجدَّة ، ولا بُدَّ في جميع الأحوال من تحقيق التَّوازن الاجتماعي من خلال كلِّ قاعدة كبرى ، وكلِّ مسألة فرعيَّة .

والاقتصاد الإسلامي ، اقتصاد ربَّاني ، توجيهاته ربَّانيَّة إلهيَّة ، يتميَّز بالأمور التَّالية :

---

(١) كتب بحثت في الاقتصاد الإسلامي : (اقتصادنا) محمَّد باقر الصَّدر ، (النَّظريَّة الاقتصاديَّة في الإسلام) د . أحمد عبد العزيز النَّجَّار ، (بنوك لا ربويَّة) د . النَّجَّار أيضاً ، (البنك اللاَّربوي) د . نور الدِّين العتر ، (الاتِّجاه الجماعي في التَّشريع الاقتصادي الإسلامي) محمَّد فاروق النَّبهان ، (نظام الحياة في الإسلام) أبو الأعلى المودودي ، (الأحكام السُّلطانيَّة) الماوردي ، (الأحكام السُّلطانيَّة) الفرَّاء ، (الخراج) أبو يوسف القاضي ، (فقه الزَّكاة) د . يوسف القرضاوي ، (أثر تطبيق النِّظام الاقتصادي الإسلامي في المجتمع) من البحوث المقدَّمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الَّذي عقدته جامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلاميَّة بالرِّياض سنة ١٣٩٦ هـ .

مرونة تعاليمه : فالتَّعميم لا ينزل إلى التَّفصيلات الجزئيَّة ، وهو بذلك لا يقيِّد الأجيال المقبلة ، إنَّها مرونة يراد لها الخلود ، لتكون ملائمة لتطوُّر احتياجات البشر ، ليست تعاليم جامدة لا تقبل التَّطبيق إلاَّ على أُسلوب واحد ، لا فكاك منه ، ولا محيص عنه ، إنَّ طريق الوصول إلى الهدف ، قابل للتَّبديل والتَّغيير في ضوء ظروف كلِّ مجتمع .

ونظرته واقعيَّة إلى المِلْكيَّة : إنَّه نظام يقرُّ الملكِيَّة الفرديَّة ويحميها ، مع وجود الملكِيَّة الجماعيَّة الَّتي هدفها المنافع العامَّة ، ونظام الحِمَى خير مثال على المِلكِيَّة العامَّة ، قال رسول الله ﷺ : « لا حِمَى إلاَّ لله ورسوله »[٢] ، أي لا حمى إلاَّ لمنفعة عامَّة للمسلمين .

ويمكن القول : هناك انسجام بين مصلحة المجتمع وبين المصلحة الفرديَّة : ﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾ ، [البقرة : ٢/١٨٨] ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بالبَاطِلِ إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُم .. ﴾ ، [النِّساء : ٤/٢٩] ، فلا كسب بغير وجه حق ، بلا عمل ، بلا مقابل .

ومن الانسجام : منع الاحتكار ، والتَّسعير الإجباري لمنعه ، وجعل تلقِّي السِّلع وبيعها بأسعار غالية احتكاراً واستغلالاً ، وكذلك بيع المضطر استغلال لا يجوز ..

ودور الدَّولة يتميَّز بالاتِّساع والشُّمول : لذلك تعدَّدت وظائفها لتغطِّي الكثير من جوانب النَّشاط الاقتصادي ، وترتبط وظائفها ارتباطاً وثيقاً بنشاطها المالي لإشباع الحاجات العامَّة ، وذلك رهن بدورها في الحياة الاقتصاديَّة المتجدِّدة للمجتمع الإسلامي ، وخدمة المصالح الحقيقيَّة فيه لضمان التَّكافل الاجتماعي والتَّقدُّم والرَّفاهية ،

(٢) رواه البخاري وأبو داود ، انظر فصل : (في الحمى والإرفاق) ، ص : ٢٢٢ ، الأحكام السُّلطانيَّة (الفرَّاء) .

ولتحقيق أكبر إشباع ممكن للأفراد ، في ظلّ قيم هذا المجتمع المسلم ، ومن الطّبيعي إذن أن تحصل الدّولة على جزءٍ من الموارد المختلفة ، يمكنها إنفاقها من القيام بدورها[٣] .

أهمُّ وَارِداتِ بَيْتِ المال :

الزّكاة ، والْخَرَاج ، والجزيَة ، والغنيمة ، والفَيء ، والعُشُور ، والأوقاف ، وفيها جميعاً ـ باستثناء الأوقاف ـ معنى الضّريبة على الثّروة والأرض والأنفس .

الزّكاة : وهي أوّل ضريبة إسلاميّة فرضت على الأغنياء والقادرين ، وهي مظهر من مظاهر التّضامن والتّكافل الاجتماعي والأُخوّة في العقيدة ، تؤخذ من الّذي يملك كثيراً ، لتعطى إلى الّذي يملك قليلاً ، أو لا يملك شيئاً ، ووجوه إنفاقها حُدّدت بالآية الكريمة : ﴿ إنّما الصَّدَقَاتُ لِلفُقَراء وَالْمَسَاكِينِ والعَامِلِينَ عَلَيْها والمؤلَّفةِ قُلُوبُهُم وَفي الرِّقابِ وَالغَارِمينَ وَفي سَبِيلِ اللهِ وَابنِ السَّبيلِ فَريضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، [التّوبة : ٦٠/٩] .

وتجب الزّكاة في الأموال المرصدة للنّماء ، إمّا بنفسها ، وإمّا بالعمل فيها ، والأموال المزكاة ضربان :

ظاهرة : (ما لا يمكن إخفاؤه) من الزّروع والثّمار والمواشي .
والباطنة : (ما أمكن إخفاؤه) من الذّهب والفضّة وعروض التّجارة[٤] .

يقول الماوردي[٥] : إن الأموال المزكاة أربعة :

١ ـ المواشي وهي الإبل والبقر والغنم ، (ولكل منها نصاب معيّن تستحق بعدها زكاتها)[٦] .

---

(٣) الاقتصاد الإسلامي ، العدد ١٩ سنة ١٩٨٣ ، ص ١٦ ، د . عوف محمود الكفراوي .
(٤) الأحكام السّلطانيّة (الفرّاء) ، ص ١١٦
(٥) الأحكام السّلطانيّة ، ص ١٢٨
(٦) الأحكام السّلطانيّة (الفرّاء) ، ص ١١٦ـ١١٩

٢ ـ وثمار الزّروع : كالبر والشّعير والأرز والذّرة .. (تجب الزّكاة في المكيل المدّخر)[٧] .

٣ ـ وثمار الشّجر والكروم ، (وما في معناهما ممّا يكال ويدّخر كالنّخيل واللّوز والفستق والبندق ..)[٨] .

٤ ـ والذّهب والفضّة ، وزكاتها ربع العُشْر ، ولهما نصاب ، وكذلك المعادن كالحديد والرّصاص والنّحاس والأحجار الكريمة ..

أمّا الرّكاز ، وهو كلّ مالٍ وُجد مدفوناً ، فيكون لواجده ، ولكن عليه دفع خمسه ليصرف في مصرف الزّكاة[٩] ، قال ﷺ : « وفي الرّكاز الْخُمْس »[١٠] .

الْخَرَاج[١١] : وهو ضريبة تُفرض على الأرض الّتي صُولح عليها عند الفتح ، وبقيت في أيدي أصحابها ، تدفع كلّ عام مرّة واحدة ، « وإذا كانت أرض الخراج لا يمكن زرعها في كلّ عام تراح في عام ، وتزرع في عام آخر ، روعي حالها في ابتداء وضع الخراج عليها »[١٢] .

---

(٧) الفرّاء (المرجع السّابق) : « يعطى من كلّ شيء يكال ويدّخر ، العُشر » .

(٨) زكاة الزّروع : العشر إذا سُقيت عَثْرياً (الّذي يشرب بعروقه) ، أو سيحاً (الّذي يجري إليه الماء ويفيض) ، ونصف العُشر إذا سقيت غَرْباً (ما يسقى بالدّلاء والنّواضح) أو نضحاً ، (الأحكام السّلطانيّة ـ الفرّاء) ، ص ١٢١

(٩) جاء في (اللّسان : ركز) : اختلف أهل الحجاز والعراق ، أهل العراق : الرّكاز المعادن كلّها ، فما استخرج منها من شيء فلمستخرجه أربعة أخماسه ، ولبيت المال الخمس ، وكذلك المال العادي يوجد مدفوناً هو مثل المعدن سواء .. وأهل الحجاز قالوا : إنّما الرّكاز كنوز الجاهليّة .

(١٠) رواه البخاري ومسلم ، وأبو داود والتّرمذي ، وابن ماجه والإمام أحمد .

(١١) وقيل : يُسَمّى الطّسْق أيضاً ، في (اللّسان : طسق) : الطّسْق : فارسي معرّب ، ما يوضع من الوظيفة على الْجُرْبانِ من الخراج المقرر على الأرض ، الطّسْق شبه الخراج ، له مقدار معلوم .

(١٢) الأحكام السّلطانيّة ص١٧١ ، وانظر الأحكام السّلطانيّة (الفرّاء) ، ص : ١٦٢ ـ ١٧٢ ، وأدب الكتّاب ، ص ١٩٨ : (وجوه الأموال الّتي تحمل إلى بيت المال وأصنافها ولمن تجب) .

الجِزْيَة : وهي مبلغ بسيط معيَّن ، يدفعه الذِّمّي قبالة إعفائه من الجنديَّة ، وانتفاعه بالمرافق العامَّة ، وخدمات الدَّولة : كالقضاء ، والشُّرطة ، والطُّرق والجسور ، ومشاريع الرَّي ، والمستشفيات والمدارس .. مع حماية من أدَّاها في نفسه وعرضه وماله ، « ولا تجب الجزية إلاَّ على الرِّجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة ولا صبي ، ولا مجنون ، ولا عبد ، لأنهم أتباع وذراري »(١٣) .

مقدارها : وهي على الأغنياء والموسرين ثمانية وأربعون درهماً ، كلُّ سنة مرَّة واحدة فقط ، وعلى أوساط القوم أربعة وعشرون درهماً ، وما دون ذلك اثنا عشر درهماً(١٤) .

ويُعَيَّن مقدار الجزية اعتباراً لحالتهم الاقتصاديَّة ، فيؤخذ من الموسرين أكثر ، ومن الوسط أقل منه ، ومن الفقراء شيء قليل جدّاً ، والَّذين لا معاش لهم ، أو هم عالة على غيرهم يعفون من أداء الجزية .

هذا ، وإن كانت الجزية لم يعين لها مقدار بعينه ، إلاَّ أنَّه من اللاَّزم عند تعيين المقدار أن تراعى فيه السُّهولة ، فيقرر منه ما يتيسَّر أداؤه لأهل الذِّمَّة .

الغَنيمَةُ : وهي ما يظفر به المسلمون على وجه الغلبة والنَّصر ، خُمْسُها لبيت المال ، وأربعة أخماسها للمجاهدين : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ ما غَنِمْتُم مِنْ شَيءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالْمَسَاكينِ وَابنِ السَّبيلِ ﴾ ، [الأنفال : ٤١/٨] .

الفَيءُ : وهو المال الَّذي يصيبه المسلمون دون قتال : ﴿ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فَلِلهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالْمَسَاكينِ وَابنِ السَّبيلِ كَي لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُم ﴾ ، [الحشر : ٧/٥٩] .

---

(١٣) الأحكام السُّلطانيَّة ، ص ١٦٣

(١٤) انظر الخراج ، ص ١٣٢ وما بعدها .

العُشْرُ : ضريبة على الأراضي ، مقدارها عُشْرُ غلّتها مالاً أو عيناً ، وتدفع عن الأراضي الّتي أسلم أهلها دون حرب وبقيت بأيديهم ، وعلى الأراضي الّتي ملكها المسلمون عنوة ، وقسّمها الخليفة عليهم ، وعلى الأراضي الموات الّتي أحياها المسلمون .

المكوس(١٥) : وهي ضريبة عن كلّ تجارة واردة في البرّ أو البحر ، ولا تؤخذ إلاّ إذا انتقل التّاجر من بلاده إلى بلاد أُخرى ، واختلف مقدارها باختلاف الزّمان والمكان ، وعرفت ضريبة السُّفن بـ (أعشار السُّفن) ، وهي ضريبة على السُّفن الّتي تمرُّ ببعض الثُّغور ، كمدينة عدن ، وجزيرة طريف جنوبي الأندلس ، فيؤخذ منها العشر عيناً ، ومن جزيرة طريف اشتُقّت كلمة Tariff الّتي تدلُّ عند الأُوربيّين على الرُّسوم الّتي تؤخذ على البضائع . أمّا (العُشُور) ، فهي ضرائب على بضائع التُّجّار الغرباء ، إذا قدموا بها من بلادهم إلى ديار المسلمين ، (الجمارك حالياً) ، وقيمتها عُشْرُ بضائعهم .

ومن واردات بيت المال أيضاً : أخماس المعادن المستخرجة من مناجمها ، وريع دار الضَّرب ، وما يخرج من البحر كالحلية والعنبر ..

وعرفت الأندلس أيّام المرابطين (ضريبة التّعتيب) ، والغرض منها ترميم الحصون والأسوار الّتي تحيط بالمدن الهامّة ، ويقوم بسدادها أهل هذه المدن المنتفعة بها ، وقد أجاز فقهاء الأندلس هذه الضَّريبة(١٦) .

☆ ☆ ☆

الأوقاف : وهي عمل من أعمال الخير ، ينعكس على المجتمع كلّه ، مثل بناء المدارس والميااتم ، وإصلاح الجسور والطُّرقات ، وبناء الفنادق للمسافرين ، والرِّباطات للمجاهدين ، أو منح البذار مجّاناً للمزارعين والفلاحين ..

(١٥) المكْسُ : الجباية ، والمكْسُ : دراهم كانت تؤخذ من بائع السّلع ، والمكس ما يأخذه العَشّار ، (اللّسان : مكس) .

(١٦) البيان المغرب ٧٣/٤

ومن أرقّ ما وجد في الإسلام من هذا المعنى وألطفه (وقف الزّبادي) الّذي كان في دمشق ، وقد حدّث عنه ابن بطوطة بعد أن قال : « والأوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها ، فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج ، يعطى لمن يحج عن الرّجل منهم كفايته ، ومنها أوقاف على تجهيز البنات إلى أزواجهنّ ، وهنّ اللّواتي لا قدرة لأهلهنّ على تجهيزهنّ ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السّبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزوّدون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطّريق ورصفها ، لأن أزقّة دمشق لكلّ واحد منها رصيفان في جنبيه يمرّ عليهما المترجّلون ، ويمرّ الرُّكبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير »[(١٧)] .

ثمّ يقول تحت عنوان (المملوك الصّغير والصّحفة) : « مررت يوماً ببعض أزقّة دمشق ، فرأيت به مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخّار الصّيني ، وهم يسمّونها الصّحن ، فتكسّرت ، واجتمع عليه النّاس ، فقال له بعضهم : اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني ، فجمعها وذهب الرّجل معه إليه ، فأراه إياها ، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصّحن ، وهذا من أحسن الأعمال ، فإنّ سيّد الغلام لا بدّ له أن يضربه على كسر الصّحن ، أو ينهره ، وهو أيضاً ينكسر قلبه ويتغيّر لأجل ذلك ، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب ، جزى الله خيراً من تسامت همّته في الخير إلى مثل هذا »[(١٨)] .

وكانت في دمشق عدا دور المجانين والمجاذيب والمجاذيم ، أوقاف على الحيوانات ، ومرجة دمشق على ضفّة نهر بردى الجنوبيّة ، كانت كلّها وقفاً على الخيل الّتي تعبت في الجهاد وأسنّت ، فتأكل من نبات هذه الأرض ، وتشرب من مياه بردى ، حتّى تموت بشكل طبيعي .

---

(١٧) رحلة ابن بطوطة ، ص ٩٩ ، دار الفكر ، بيروت .

(١٨) المرجع السّابق ، ص ١٠٠ ، ومثل هذا الوقف كان موجوداً في تونس وفاس أيضاً .

ووجد في الشَّام وقف لتزويج البنات الفقيرات .

ووقف لسُقيا المـاء المثلوج في الصَّيف لعـابري السَّبيـل ، وقـد يسقـونـه بمـاء الْخُرْنُوب[١٩] ، أو غيره من الأشربة .

وفي مكَّة المكرَّمة وقف مخصَّص ريعه لمنع الكلاب من دخول مكَّة .

وفي أكثر من بلـد وقف لإعـارة الحلي والـزِّينـة في الأعراس والأفراح ، بحيث إنَّ العامَّة والفقراء ، لا بل الطَّبقة الوسطى يرتفقون بهـذا الوقف الخيري ، فيستعيرون منـه ما يلزمهم من الحلي لأجل التَّزيُّن به في الحفلات ، ويعيدونه إلى مكانه بعـد انتهـائها ، فيتيسَّر للفقير أن يبرز يوم عرسه بحلَّة لائقة ، ولعروسـه أن تحلَّى بحليـة رائعـة ممَّـا يجبر خاطرهما ، وكذلك يستغني المتوسِّط في الثَّروة عن أن يشتري ما لا طاقة له به[٢٠] .

وفي تونس وقف للصِّبيـان ، لهم يوم مخصوص ، هو يـوم الخميس ، يسـألـونهم فيـه عن جميع ما قرؤوه في الأُسبوع ، ويعطونهم بعد ذلك دراهم استنهاضاً لهممهم ، وتفريحـاً لقلوبهم ، وفيهـا وقف للاستحمام مجَّـانـاً ، توضـع فيـه صرر من الـدَّراهم ، كلُّ صُرَّة فيهـا مقـدار أُجرة الحمَّام ، فيـدخـل المحتـاج إلى الاستحمام ، ويتنـاول إحـدى هـذه الصُّرر ، ويذهب إلى الحمَّام ، فيدفعها بعينها ويستحم .

وفي تونس أيضاً وقف لختان أولاد الفقراء ، يختَنُ الولـد ، ويعطى كسوة ودراهم ، وهناك وقف توزَّع منه الحلواء في شهر رمضان مجَّـانـاً ، ويـأتي إلى تونس في بعض أيَّـام السَّنة نوع من السَّمك ، تفيض به شواطئها ، لذلك يوجد فيهـا وقف يشترى من ريعـه جـانب كبير من هـذا السَّمـك ، ويوزَّع على الفقراء مجَّـانـاً ، وفيهـا وقف لمن وقع عليـه

---

(١٩) الْخُرْنوب والْخَرُّوب : نبت معروف ، والخروب الشَّامي حلو يؤكل ، وثمره طِوالٌ كالقثـاء الصِّغـار ، إلاَّ أنَّه عريض ، (اللِّسان : خرب) .

(٢٠) حاضر العالم الإسلامي ، شكيب أرسلان : ٨/٣

زيت مصباح ، أو تلوّث ثوبه بشيء آخر ، يذهب إلى هذا الوقف ، ويأخذ منه ما يشتري به ثوباً آخر .

وهناك وقف سيدي أبي العبّاس السّبتي للعميان والزّمنى[٢١] ، يأخذون كلّ يوم من ريعه ما يعيشون به ، ذكوراً وإناثاً على كثرة عددهم .

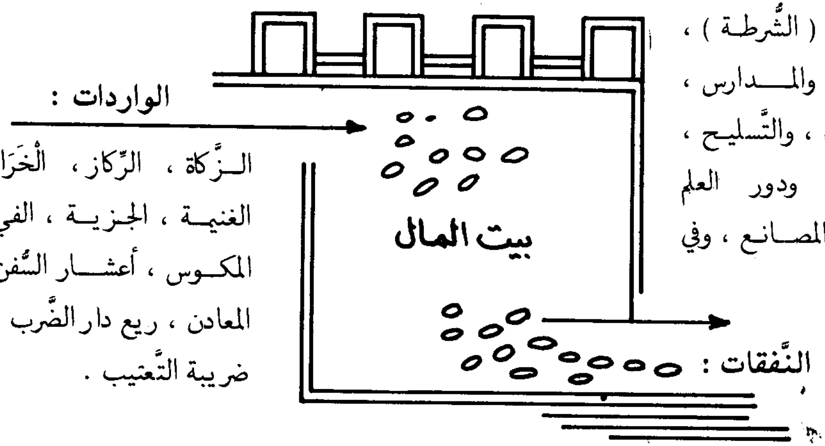
وفي مدينة فاس وقف لرفع الحجارة من الطّرقات ، ووقف للمؤذّنين الّذين يحيون اللّيل بالنّوبة ، كلّ منهم يسبّح الله نحو ساعة بصوته الرّخيم ، ويُسَمّى هذا المؤذّن (مؤنس الغرباء) ، أو (مؤنس المرضى) ، لأنّ المريض لا يقدر أن ينام ، ولا يوجد في كلّ الأحيان من يحيي اللّيل لأجله ، فليس له أنيس أحسن من هذا المؤذّن ، الّذي يشجيه بصوته الرّخيم ، في تسبيح الباري تعالى في ساعات اللّيل الأخيرة .

وفي مَرّاكُش مؤسّسة اسمها (دار الدُّقّة)[٢٢] ، وهي ملجأ تذهب إليه النّساء اللاّئي يقع نفور بينهنّ وبين بعولتهنّ ، فلهنّ أن يقمن آكلات شاربات ، إلى أن يزول ما بينهنّ وبين أزواجهنّ من النّفور ، وعلى دار الدّقّة هذه أوقاف عديدة دارّة .

إن هذه الموارد الماليّة كلّها ، لا بدّ أن توزّع على جميع أفراد الأُمّة توزيعاً عادلاً ، وألاّ تحتكر في أيدٍ معدودة ، يقول عزّ وجلّ : ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُم ﴾ ، [الحشر : ٧/٥٩] ، ومبدأ التّكافل الاجتماعي نظام مُسَلّم به في أُمّتنا العربيّة الإسلاميّة منذ أربعة عشر قرناً ، « ما آمن بي ساعة من نهار من أمسى شبعان ، وجاره

(٢١) الزّمِنُ : ذو الزّمانة ، رَجُلٌ زَمِنٌ : أي مبتلى بيّن الزّمانة ، والزّمانة العاهة ، الجمع : زَمِنُون ، وزَمِين وزَمْنَى ، (اللّسان : زمن) .

(٢٢) الدُّقّة : التّوابل ، وما خَلِطَ من الأبزار ، وقيل الدُّقّة هو المِلْح مع ما خلط به من أبزاره ، أو هو الملح المدقوق وحدَه ، ومنه قولهم : مالها دُقّة ، أي غير مليحة ، وهو مجاز ، والدقة الجمال والْحُسْن ، فدار الدُّقّة : دار الجمال والْحُسْن ، تصحح ما فسد وتشوّه في العلاقة الزّوجيّة ، وترجعه حسناً جميلاً ، أو هي دار التّوابل والأبزار والملح الّتي توضع على تلك العلاقة الزّوجيّة المرّة فتقومها ، والدّقّة بفتح الدّال : المرّة من الدّق ، فلعل المعنى : دار الدّقة : الدّار الّتي تدق على يدي الزّوج الظّالم المسيء في معاملته ، حتّى توقفه عند حدّه .



الـزَّكاة ، الرِّكاز ، الْخَرَاج ، خُمْسَ الغنيمـة ، الجزيـة ، الفيء ، العُشْر ، المكـوس ، أعشـار السُّفن ، أخمـاس المعادن ، ريع دار الضَّرب ، الأوقاف ، ضريبة التَّعتيب .

للفقراء والمساكين ، وابن السَّبيل ، وتحرير العبيد ، والأمن (الشُّرطة) ، والمرافق العامَّة ، والمدارس ، والمستشفيات والقضاء ، والتَّسليح ، ورواتب الموظَّفين ، ودور العلم والمكتبات ، وإقامة المصانع ، وفي مصالح الدَّولة عامَّة .

جائع جنبه وهو يعلم » . مع تحريم الاحتكار بنصّ أحاديث الرّسول ﷺ القاطعة : « من احتكر فهو خاطئ »[٢٣] ، وتحريم الرّبا والرّبح الفاحش أيضاً .

ومجموعة النُّظم الإسلاميَّة تمنع الغنى الفاحش ، فنظام الإرث يفتّت الثّروة على رأس كلّ جيل ، والإسلام لم يكتفِ بالتّشريعات الاقتصاديّة ، بل يلجأ إلى الدّعوة الخلقيّة الرُّوحيّة ، حيث تحريم التّرف ، وتحريم أكل حقوق النّاس ، مع الدّعوة إلى الإنفاق في سبيل الله .. فالإسلام ربط الإنسان بالله ، وجعله يشعر بأخيه الإنسان ، ماديّاً ومعنويّاً ، وله بذلك أجر الله وثوابه ، فالتّشريعات لم تكن طاعتها ناشئة من خوف السُّلطة ، وإنّما انبعثت هذه الطّاعة من رغبة داخل الضّمير .

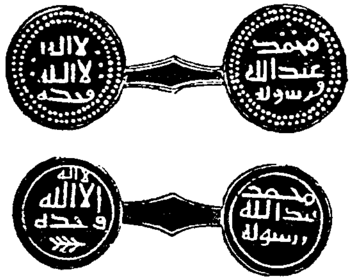
ومن الملاحظ في النّفقات العامّة في الدّولة الإسلاميّة أنّ منها نفقات معيّنة ، لها موارد مخصّصة ، كإنفاق الزّكاة في مصارفها الثّمانية ، وإنفاق الْخُمْس كما حُدّد في كتاب الله عزّ وجلّ ، ونفقات ليس لها موارد مخصّصة ، كرواتب الجهاز الحكومي والقيام بالمشروعات عامّة ، ومنها ما هو دوري كمصروفات إدارة الدّولة والضّمان الاجتماعي ، ونفقات غير دوريّة ، كنفقات الحروب ، ومكافحة الأوبئة والفيضانات والثُّغور ..

وإذا خلا بيت المال ، يأخذ الحاكم المسلم من أموال الأغنياء بالقدر الذي ينفق منه على هذه الضّروريّات ، فلقد ورد عن الرّسول ﷺ : « إنّ في المال حقّاً سوى الزّكاة »[٢٤] .

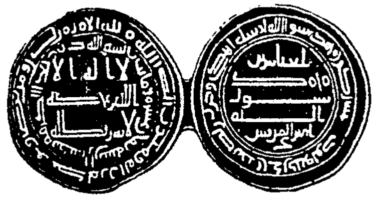
☆ ☆ ☆

(٢٣) رواه مسلم وأبو داود والتّرمذي .

(٢٤) رواه التّرمذي .

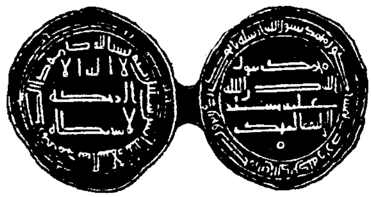


* من نقود الخلفاء الراشدين



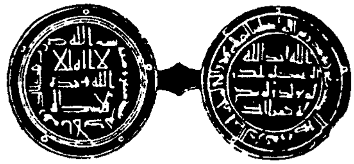
* من نقود الخليفة الأُموي هشام بن عبد الملك

[١٠٧ هـ = ٧٢٥ م]



* من نقود الخليفة المهدي

[١٦٢ هـ = ٧٧٩ م]



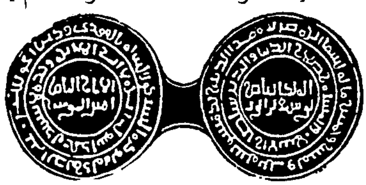
* من نقود الخليفة المأمون

[٢١٨ هـ = ٨٣٣ م]



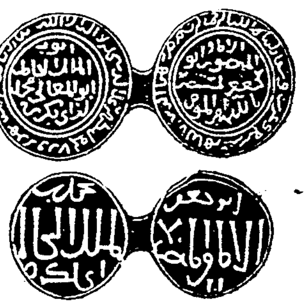
* من نقود الخليفة الفاطمي المستنصر

[٤٤٢ و ٤٦٥ هـ = ١٠٥٠ و ١٠٧٢ م]



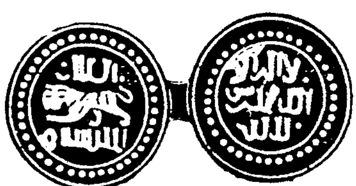
* من نقود صلاح الدين ، ضربت بدمشق

[٥٨٣ هـ = ١١٨٧ م]



* من نقود الملك الكامل

(أول القرن الثالث عشر من الميلاد)



* من نقود السلطان بيبرس

[١٢٦٠ ـ ١٢٧٧ م]

البَريدُ وَصاحِبُ الخبَرِ

قلم الاستخبارات ـ عين الخليفة

« ولّيتُكَ ما حضر بابي إلاّ أربعة : المؤذّن فإنّه داعي الله ، فلا حجاب له ، وطارق اللّيل ، فشرٌّ ما أتى به ، ولو وجد خيراً لنام ، والبريد فمتى جاء من ليلٍ أو نهار فلا تحجبه ، فربّما أفسد على القوم سنة إذا حُبِسَ البريد ساعة ، والطّعام إذا أدرك » .

عبد الملك بن مروان

جاء في (اللّسان : برد) : البَرِيدُ : فرسخان[1] ، وقيل : ما بين كلّ منزلتين بريد ، والبريد : الرّسل على دواب البريد ، والجمع بُرُد ، وبَرَدَ بريداً : أرسله ، وفي الحديث الشّريف : « إذا أبردتم إليّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم »[2] ، والبريد : الرّسول ، وإبْرَادَهُ : إرساله .

وقال القلقشندي عن البريد : المراد منه مسافة معلومة مقدَّرة باثني عشر ميلاً ، وقد قدَّر الفقهاء وعلماء المسالك والممالك بأنّه أربعة فراسخ[3] .

---

(١) والصّحيح : أربعة فراسخ كما في صبح الأعشى ٣٦٦/١٤ ، فالفرسخ الشّرعي = ٥,٥٤٤ كم ، والبريد الشّرعي = ٢٢,١٧٦ كم = ٤ فراسخ .

(٢) رواه البزار عن بريدة ، انظر فيض القدير للمناوي .

(٣) الميل الشّرعي ١٨٤٨ متراً ، فتكون سكّة البريد : ١٨٤٨ × ١٢ = ٢٢١٧٦ متراً = ٢٢,١٧٦ كم ، وفي الحديث الشّريف : « لاتُقْصَر الصّلاةُ في أقلَّ من أربعة بُرُد » ، فتكون مسافة القصر بذلك : ٨٨,٧٠٤ كم ، انظر : الإيضاح والتّبيان في معرفة المكيال والميزان ، لابن الرفعة الأنصاري .

وجاء أيضاً في اللّسان أيضاً : البريـد : كلمـة فـارسيَّـة يراد بهـا في الأصل البَرْد ، وأصلها : (بريده دم) ، أي محذوف الذّنب .

والأصح ـ كما يذكر القلقشندي ـ: مقصوص الذّنب ، وذلك أنَّ ملوك الفُرْس كانت من عادتهم أنَّهم إذا أقاموا بغلاً في البريد ، قصُّوا ذنبـه ليكون ذلـك علامـة ، لكونـه من بغال البريد ، وذهب الخليل إلى أنَّه عربي ، وأنه مشتقٌّ من بَرَدتُ الحـديـد ، إذا أرسلت ما يخرج منه ، وقيل : من أبْردتُه إذا أرسلته ، وقيل : من بَرَدَ إذا ثبت ، لأنَّـه يـأتي بمـا تستقرُّ عليه الأخبار ، يقال : « اليومَ يومٌ باردٌ سَمُومُه » أي ثابت[٤] .

ومراكز البريد : هي الأماكن الَّتي تقف فيهـا خيلُ البريـد لتغيير خيل البريـديَّـة فيها فرساً بعد فرس ، وليست على المقدار المقدَّر في البريد الْمُحَرَّر ـ أي ٢٢,١٧٦ كم ـ بل هي متفاوتة الأبعاد ، إذا ألجأت الضَّرورة إلى ذلـك : تـارة لبُعْـدِ مـاءٍ ، وتـارة للأُنس بقرية ، حتَّى إنَّك لترى في هذه المراكز البريدَ الواحـد بقـدر بريـدين ، ولو كانت على التَّحرير الَّذي عليه الأعمال لما كان تفاوُت[٥] .

ومهمة البريد نقل الأخبار والرَّسـائل بين الولايـات ومركز الـدَّولـة ، والبريـد في بداياته كان « لا يُساق إلاَّ لمهمَّات السُّلطة »[٦] .

وعنـــدمـــا أراد رســول الله ﷺ أن يكتب إلى الملـوك والأُمراء ، قيـل لـــه : « يا رسول الله ، إنَّهم لا يقرؤون كتاباً إلاَّ إذا كان مختوماً » ، أي ليكون في ذلك إشعاراً بـأنَّ الأحوال المعروضـة عليهم ينبغي أن تكـون مِمَّـا لا يطَّلـع عليهـا غيرهم ، ويكـون الغرض من ذلك أيضاً أمن التَّزوير ، لعدم إمكان وقوعه مع الخاتم ، فاتَّخذ ﷺ خـاتمـاً

---

(٤) صبح الأعشى : ٣٦٧/١٤

(٥) صبح الأعشى : ٣٧٢/١٤

(٦) معيد النِّعم ومبيد النِّقم ، ص ٣٢

من فِضَّة ، عليه ثلاثة أسطر : محمَّد سطر ، ورسول سطر ، والله سطر ، والأسطر الثَّلاثة تُقرأ من أسفل إلى فوق ، فمحمَّد آخر الأسطر ، ورسول في الوسط ، والله فوق(٧) .

وبعد انتشار الإسلام في جزيرة العرب ، كانت ترد رسول الله ﷺ أخبار أرجائها ، فعندما تنبَّأ الأسود العَنَسي مثلاً ، كتب ﷺ كتاباً حمله وَبَر بن يُحَنَّس الأزدي ، يأمر المسلمين الَّذين هناك بمقاتلة الأسود العنسي ومصاولته ، وقام معاذ بن جبل - الَّذي كان معلِّماً هادياً في اليمن - بهذا الكتاب أتمَّ القيام(٨) .

وكان أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه على اتِّصال دائم ومستمر مع جيوشه كلِّها في حروب الرِّدَّة(٩) ، تصله أخبارها بانتظام ، وبشكل سريع ، وبرز من الرُّسُل ما بين الجبهات وبين مقرِّ القيادة : أبو خيثمة النَّجَّاري ، وسلمة بن سلامة ، وأبو برزة الأسلمي ، وسلمة بن وقش .. فكان رضي الله عنه على اتِّصال دائم مع كلِّ الجبهات ، يعلم دقائق أُمورها وتحرُّكاتها ، وما حقَّقت ، وما عليها في غَدٍ من واجبات .

وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يدير جبهات المعارك في العراق وبلاد الشَّام ومصر ، وهو في عاصمة الخلافة ، في المدينة المنوَّرة ، يرسم الخطط ، ويبعث بأوامره وتعليماته إلى القُوَّاد ، فكانت مراسلاته مع الجبهات يوميَّة ، ترد أخبارها في كلِّ صباح ، وفي كلِّ مساء ، وتابع أعمال عُمَّاله وتحرُّكاتهم ، يعرف أخبارهم بتفاصيلها ، ويُلْمَسُ ذلك في كثرة كتبه إلى عُمَّاله وعُمَّالهم .

وكانت المراسلات في صدر الإسلام منظَّمة وسريعة إثر كلِّ معركة ، إذ كان القائد يرسل بشيراً إلى المدينة المنوَّرة ، يحمل بشرى النَّصر .

---

(٧) ابن هشام ١٨٨/٤ ، السِّيرة الحلبيَّة ٢٧٠/٣ ، السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ٥٠٧/٣ ، البداية والنِّهاية ٢٦٨/٤ ، الطَّبقات الكبرى لابن سعد ٢٦٤/١

(٨) الطَّبري ٢٢٩/٣ ، الكامل في التَّاريخ ٢٢٨/٢ ، البداية والنِّهاية ٣٠٧/٦ و ٣٠٨

(٩) وكان عددها أحد عشر جيشاً .

أيّامُ الأُمويين : واحتاج المسلمون أيّام الأُمويين إلى استخدام البريد على نطاق واسع ، فنظّمه معاوية بن أبي سفيان[١٠] ، « وذلك حين استقرّت له الخلافة .. فوضع البريد لتُسْرِعَ إليه أخبارُ بلاده من جميع أطرافها ، فأمر بإحضار رجالٍ من دَهَاقِين الفُرْس ، وأهلِ أعمال الرُّوم ، وعرَّفهم ما يريد ، فوضعوا له البريد »[١١] .

وأتمَّ عبد الملك بن مروان[١٢] عمل معاوية ، فأحكمه وأعطاه طابعه النِّهائي ، ووضع (الصُّوَى)[١٣] على الطُّرق ، لترشد المسافر إلى الاتجاه ، وتحدّد المسافة المتبقّية ، وأوصى رجاله بحمل البريد في أي ساعة من ليل أو نهار ، « فتأخير البريد ساعة من نهار ، إضرار سنة بمصالح العباد » ، وقال لحاجبه[١٤] يوماً : « ولَّيتك ما حضر بابي إلاَّ أربعة : المؤذِّن ، فإنّه داعي الله تعالى فلا حجاب عليه ، وطارق اللّيل ، فَشَرٌّ ما أتى به ، ولو وجد خيراً لنام ، والبريد ، فمتى جاء من ليلٍ أو نهارٍ فلا تحجبه ، فربّما أفسد على القوم سَنَةً حبسهم البريدَ ساعة ، والطَّعام إذا أدرك ، فافتح الباب ، وارفع الحجاب ، وخلِّ بين النَّاس وبين الدُّخول »[١٥] .

أيّامُ العَبّاسيِّين : عندما أرسل المهدي ابنه هارون الرَّشيد لغزو الرُّوم ، أحبَّ أن لا يزال على علم قريب من خبره ، فرتَّب فيما بينه وبين معسكر ابنه بُرُداً تأتيه بأخباره ، فلمّا قَفَلَ الرَّشيدُ قطع المهديُّ تلك البُرُد ، فلمَّا كانت خلافة الرَّشيد ، ذكر حسن صنيع أبيه في البُرُد الَّتي جعلها بينهما ، فقال له يحي بن خالد : لو أمر أمير المؤمنين بإجراء البريد على ما كان عليه ، كان صلاحاً لملكه ، فأمره به فقرَّره

(١٠) ٢٠ ق.هـ ـ ٦٠ هـ = ٦٠٣ ـ ٦٨٠ م ، وكانت خلافته من ٤١ ـ ٦٠ هـ .

(١١) صبح الأعشى ٣٦٨/١٤

(١٢) ٢٦ ـ ٨٦ هـ = ٦٤٦ ـ ٧٠٥ م ، وكانت خلافته من سنة ٦٥ هـ ، إلى ٨٦ هـ .

(١٣) الصُّوى : حجر على قارعة الطَّريق ، تكتب عليه المسافة المتبقّية ، ويثبت عليه الاتّجاه أيضاً .

(١٤) في صبح الأعشى : ٣٦٨/١٤ اسم الحاجب ابن الدُّغيدغة نقلاً عن أبي هلال العسكري .

(١٥) صبح الأعشى ١١٤/١ و ٤٥٠/٥ و ٣٦٨/١٤ ، ويذكر هذا الكلام عن زياد ـ بن أبيه ـ أيضاً .

يحيى بن خالد ، ورتَّبه على ما كان عليه أيَّام بني أُميَّة ، وجعل البغالَ في المراكز ، وكان لا يُجَهِّز عليه إلاَّ الخليفة ، أو صاحب الخبر[١٦] .

وتوسَّعت مهامُّ البريد زمن العبَّاسيِّين ، فأخذ يهتمُّ (صاحب البريد) بما تهتم به المخابرات العامَّة اليوم ، وأنشؤوا له ديواناً خاصّاً ، فأصبح صاحب البريد يراقب الولاة ، وما يدور في المجتمع ، ويتجسَّس على الأعداء ، يرسل عيوناً بصفة تُجَّار أو سوَّاح .

وجعل الخلفاء والأُمراء بينهم وبين صاحب بريدهم علامات سرِّيَّة يتَّفقون عليها ، ولو كان مختوماً بخاتمهم ، من ذلك ما فعله أبو مسلم الخراساني حين دخل على المنصور[١٧] ، وكان يخشى مغبَّة هذه المقابلة ، فاستخلف أبو مسلم على عسكره أبا نصر بن الهيثم ، وقال له : إن جاءك كتابي وهو مختوم بنصف خاتمي فهو خاتمي ، وإن كان مختوماً بكلِّ الخاتم فاعلم أنَّه ليس ختمي ، ولمَّا أمر المنصور بقتل أبي مسلم ، أخذ خاتمه وختم به رسالة إلى ابن الهيثم ، فلمَّا اطَّلع عليه هذا الأخير ، عرف أنَّه كُتِبَ وخُتِمَ رغم إرادة أبي مسلم ، أو دون علمه[١٨] .

وكان المنصور يقول : « ما أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر ، لا يكون على بابي أعف منهم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، مَنْ هم ؟ قال : هم أركان الْمُلْك ، ولا يصلح الْمُلْك إلاَّ بهم ؛ كما أن السَّرير لا يصلح إلاَّ بأربع قوائم ، إن نقصت واحدة وَهى ، أمَّا أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومةُ لائم ، والآخر صاحب شُرْطة يُنْصِفُ الضَّعيف من القويِّ ، والثَّالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرَّعيَّة ، فإنِّي عن

(١٦) صبح الأعشى ٣٦٩/١٤

(١٧) المنصور : عبد الله بن محمد بن علي العبَّاسي : ٩٥ ـ ١٥٨ هـ = ٧١٤ ـ ٧٧٥ م ، وكانت خلافته من ١٣٦ إلى ١٥٨ هـ .

(١٨) قال المنصور لسَلْم بن قتيبة : ما ترى في قتل أبي مسلم ؟ فقال سَلْم : لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فقال المنصور : حسبك يا أبا أُميَّة ، (عيون الأخبار ٢٦/١) .

ظلمها غنيٌّ ، والرَّابع ، ثمَّ عضَّ على أُصبعه السَّبابة ثلاث مرَّات ، يقول في كلِّ مرَّة : آه آه ، قيل له : ومَنْ هو ياأمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصِّحَّة »(١٩)

وولَّى المنصور رجلاً من عرب حضرَموت ، فكتب إليه صاحب البريد أنَّه يكثر الخروجَ في طلب الصَّيد ببزاةٍ وكلاب قد أعدَّها ، فعزله وكتب إليه : « ثكلتْكَ أُمُّك وعدمتك عشيرتك ! ما هذه العِدَّة الَّتي أعددتها للنّكاية في الوحش ! إنَّا إنَّما استكفيناكَ أُمور المسلمين ، ولم نستكفك أُمورَ الوحش ، سلِّم ما كنت تلي من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوماً مدحوراً »(٢٠) .

لقد بلغ من انتظام إدارة البريد في عهد المنصور أن عمَّاله كانوا يوافونه بالأخبار مرَّتين في اليوم ، فكان يوقف القاضي عند حدِّه إذا ظلم ، ويرجع السِّعر إلى حالته الأُولى إذا ارتفع .. قال المنصور للمهدي : « ياأبا عبد الله ، لا يصلح السُّلطان إلاَّ بالتَّقوى ، ولا تصلح رعيَّة إلاَّ بالطَّاعة ، ولا تعمَّر البلاد بمثل العدل ، ولا تدوم نعمة السُّلطان وطاعته إلاَّ بالمال ، ولا تَقْدُمُ في الحياطة بمثل نقل الأخبار ، وأقدر النَّاس على العفو ، أقدرهم على العقوبة ، وأعجز النَّاس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك ، وعلمه باختباره »(٢١) .

وحذَّر قاضي القضاة أبو يوسف الرَّشيدَ ونبَّهه لصاحب البريد : « على أنَّه قد بلغني عن ولاتك على البريد والأخبار في النَّواحي تخليط كثير ومحاباة فيما يُحتاج إلى معرفته من أُمور الولاة والرَّعيَّة ، وأنَّهم ربَّما مالوا مع العمَّال على الرَّعيَّة وستروا أخبارهم وسوء معاملتهم للنَّاس ، وربَّما كتبوا في الولاة والعمَّال بما لم يفعلوا إذا لم يرضوهم ، وهذا ممَّا ينبغي أن تتفقَّدَه وتأمر باختيار الثِّقات العدول من أهل كلِّ بلد ومصر فتولِّيهم

(١٩) الطَّبري ٦٧/٨

(٢٠) الطَّبري ٦٨/٨

(٢١) الطَّبري ٧١/٨

البريـد والأخبـار ، وكيف ينبغي ألاّ يقبـل خبر إلاّ من ثقـة عـدل ؟ ويجرى لهم من الرِّزق من بيت المـال ، وليُـدَرَّ عليهم ، وتتقـدَّم إليهم في أن لا يستروا عنـك خبراً عن رعيَّتك ، ولا عن ولاتك ، ولا يزيدوا فيما يكتبونه به عليـك خبراً ، فمن لم يفعل منهم فنكِّل به ، ومتى لم يكن البُرُد والأخبار في النَّواحي ثقات عدولاً ، فلا ينبغي أن يقبل لهم خبر في قاضٍ ولا والٍ ، إنَّما يحتاط بصـاحب البريـد على القـاضي والوالي وغيرهمـا ، فإذا لم يكن عدلاً فلا يحلُّ ولا يسع استعمال خبره ولا قبولـه ، وتقـدم إليهم أن لا يحملوا على دواب البريد إلاّ من تأمر بحمله في أُمور المسلمين ، فإنَّها للمسلمين .

حـدَّثنـا عبيـد الله بن عمر أن عمر بن عبـد العزيز نهى أن يجعل البريـد في طرف السَّوط حديدة ينخس بها الدَّابّة ، ونهى عن اللُّجم الثِّقال .

وحدَّثنـا طلحـة بن يحي أن عمر بن عبـد العزيز رضي الله عنـه كان يبرد ، فحمل مولى له رجلاً على البريد بغير إذنه فدعاه ، فقـال : لا تبرح حتَّى تقوِّمـه ، ثمَّ تجعلـه في بيت المال »[٢٢] .

ورتَّب المعتصم البريـد بين سـامرَّاء والبـذ ـ في أذربيجـان ـ حيث قـائـده الأفشين يقاتل بَابَك الْخُرَّمي ، حتَّى إن الخبر كان يأتيه من مسيرة شهر في أربعة أيَّام[٢٣] .

ونقل البريد أثناء الحرب بالجمازات[٢٤] . وأهم طرق البريد في الدَّولة العبَّاسيَّة :

من بغداد إلى القيروان عبر أرض الجزيرة ، فدمشق ، فالقاهرة ، فالاسكندريَّـة .. إلى القيروان .

ومن بغداد إلى الشَّام عن طريق الصِّفَّة الغربيَّة لنهر الفرات .

---

(٢٢) الخراج ، ص ٢٠١

(٢٣) النُّجوم الزَّاهرة ٢٣٧/٢ ، كما استخدم حمام الزَّاجل خلال القضاء على بَابَك الْخُرَّمي .

(٢٤) الجمازات أشبه بالعربة الَّتي تجرُّها الخيل السَّريعة ، وكان يركبها عمَّال البريد ورجـال الحرب ، وأمثـالهم مِّن يتطلَّب عملهم السُّرعة .

ومن بغـداد إلى المشرق مرو ، فبخـارى ، فسمرقنـد إلى أن يصـل إلى الصِّين ، ومن مرو يتفرَّع طريق إلى فرغانة[٢٥] .

وأدخل بنو بويه عندما سيطروا على الخلافة في بغداد نظامَ السُّعـاة ، وكان يقـال لهم الفيوج ، وهم طـائفـة من موظفي البريـد ، يتخصَّصون في نقـل البريـد السَّريـع ، واستمال معزُّ الدَّولة هؤلاء السُّعاة بالأرزاق والجرايـات الكثيرة ، حتَّى رغب الشُّبَّـان في هذه الحرفة ، وأقبل فقراء المسلمين على تسليم أبنائهم إلى معزِّ الدَّولة لتدريبهم .

وكان البريـد ينتقـل من محطَّـة إلى أُخرى على ظهـور خيـل مهيَّـأة تنتظر البريـد لتنقله المسافة المخصَّصة لها بسرعة كبيرة ، وفي أعناقها أجراس يُسْمَع لها رنين تعرف بهـا ، تسمَّى عادة (قعقعة البريد) ، « وكان جمـاعـة من النَّجـابين يبيتون في كلِّ ليلـة ببـاب الـدِّيوان ، يبيتُ أحـدهم وتحت رأسـه راحلتـه وزاده ونفقتـه ، وقـد ودَّع أهلـه ، فـإن عرض في اللَّيل مهمٌّ توجَّه فيه »[٢٦] .

وممَّـا يـذكر أن ديوان البريـد كان « يصـدِّر أدلَّـة مكتوبـة ، ليستعين بهـا التُّجَّـار والحجَّـاج ، تحوي أسماء محـاط البريـد المختلفـة ، وبُعـد كل واحـدة منهـا عن الأخرى ، وكانت هذه الأدلَّة أساس علم تقويم البلدان عنـد العرب »[٢٧] ، وكانت محطَّـة البريـد ، خاناً حصيناً ، فيه غرف إقامة لرجال البريـد ، وأمـاكن لـدوابهم ، واصطبلات لتبـادل الخيول ، والعناية بها ، ومطـاعم وميـاه نقيَّـة ، وفي ديوان البريـد في كلِّ ولايـة تقـاويم خـاصَّـة فيهـا ذكر للمسـالـك في الولايـة ومراكـز محطَّـات البريـد ، وفي ديـوان بريـد العاصمة ، نسخة عن كلِّ ما في الولايات ، مع تصنيف يغطِّي شبكة المواصلات ، ومراكز البريد في جميع أنحاء الدَّولة .

(٢٥) في صبح الأعشى ١٤/٣٧٢ ـ ٣٩٤ مراكز البريد أيَّام المماليك .

(٢٦) الفخري ، ص ٦١

(٢٧) قصَّة الحضارة ١٣/١٤٧

وعرفت الهند تحت حكم المغول المسلمين ـ أيّام السُّلطان أكبر ـ « خدمة منتظمة للبريد يقوم على ظهور الإبل ، وأقام في الطُّرُق الرَّئيسيَّة الوكائل والخانات على مسافات قصيرة »(٢٨) ، يقول ابن بطوطة : « والبريد ببلاد الهند صنفان : فأمَّا بريد الخيل فيسمُّونه الولاق (أولاق) ، وهو خيل تكون للسُّلطان في كلِّ مسافة أربعة أميال ، وأمَّا بريد الرَّجالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ، ويسمُّونها الدَّاوة ، والدَّاوة هي ثلث ميل ، والميل عندهم يسمَّى الكروة ، وترتيب ذلك أن في كلِّ ثلث ميل قرية معمورة ، ويكون بخارجها ثلاث قباب ، يقعد فيها الرِّجال مستعدِّين للحركة ، قد شدُّوا أوساطهم ، وعند كلٍّ واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين ، بأعلاها جلاجل نحاس ، فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكِتَاب بأعلى يده ، والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأُخرى ، وخرج يشتدُّ بمنتهى جهده ، فإذا سمع الرِّجال الَّذين بالقباب صوت الجلاجل تأهَّبوا له ، فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ، ومرَّ بأقصى جهده ، وهو يحرِّك المقرعة حتَّى يصل إلى الدَّاوة الأُخرى ، ولا يزالون كذلك حتَّى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه .

وهذا البريد أسرع من بريد الخيل ، وربَّما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند ، من فواكه خراسان ، يجعلونها في الأطباق ، ويشتدُّون بها حتَّى تصل إلى السُّلطان ، وكذلك يحملون أيضاً الكبار من ذوي الجنايات ، يجعلون الرَّجل منهم على سرير ، ويرفعونه فوق رؤوسهم ، ويسيرون به شدّاً ، وكذلك يحملون الماء لشرب السُّلطان ، إذا كان بدولة أباد ، يحملونه من نهر الكنك ـ الغانج ـ الَّذي تحجُّ الهنود إليه ، وهو على مسيرة أربعين يوماً منها ، وإذا كتب المخبرون إلى السُّلطان بخبر من يصل إلى بلاده ، استوعبوا الكتاب ، وأمعنوا في ذلك ، وعرفوه أنَّه ورد رجل صورته كذا ، ولباسه كذا ، وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدَّامه ودوابه ، وترتيب حاله وسكونه ، وجميع تصرُّفاته ، لا يغادرون من ذلك كلِّه شيئاً ، فإذا وصل إلى مدينة

---

(٢٨) تاريخ العالم ٥٧٥/٦

مُلْتَان ، وهي قاعدة بلاد السِّند ، أقام بها حتَّى ينفذ أمر السُّلطان بقدومه وما يجري له بالضِّيافة ، وإنَّما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرُّفاته وهمَّته ، إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه »[٢٩] .

وبلغ نظام البريد ذروته ، من حيث الإتقان والإحكام زمن المماليك ، حيث أُتقن نظام البريد الجوِّي (حمام الزَّاجل)[٣٠] ، ونظم المماليك شبكات له غطَّت أرجاء الدَّولة ، وكانت المسافة بين أبراجها تزيد كثيراً عنها في البريد البرِّي ، « الْحَمَام أوَّل ما نشأ بالدِّيار المصريَّة والبلاد الشَّاميَّة من الموصل ، وأنَّ أوَّل من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل السُّلطان نور الدِّين بن زَنْكي صاحب الشَّام رحمه الله ، في سنة خمس وستِّين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميُّون بمصر ، وبالغوا حتَّى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام ، وصنَّف فيه الفاضل محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر كتاباً سمَّاه (تَمَائِم الْحَمَائِم) .. وقد سبقه إلى التَّصنيف في ذلك أبو الحسن بن مُلاعِب الفَوَارِس البغدادي ، فصنَّف فيه كتاباً للنَّاصر لدين الله الخليفة العبَّاسي ببغداد ، وذكر فيه أسماء أعضاء الطَّائر ورياشه ، والوُشُوم الَّتي تُوسَم في كلِّ عُضْوٍ ، وألوان الطُّيور ، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفيَّة إفْراخِها ، وبُعْد المسافات الَّتي أرسلت فيها ، وذكر شيئاً من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا المجرى ، وأظنُّ أنَّ كتاب القاضي محيي الدِّين بن عبد الظَّاهر نتيجةٌ عن مُقَدِّمته »[٣١] .

« وذكر ابن سعيدٍ في كتابه (حَيَا الْمَحْل وجَنَى النَّحْل) أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميِّين بمصر ، ذكر لوزيره يعقوب بن كِلِّس أنَّه ما رأى القَرَاصِيَة[٣٢] البعلبكِّيَّة ،

(٢٩) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣٧٩

(٣٠) انظر : صبح الأعشى ٣٨٩/١٤ : (مطارات الحمام الرَّسائلي وذكر أبراجها المقرَّرة بطرق الدِّيار المصريَّة والبلاد الشَّاميَّة) .

(٣١) صبح الأعشى ٣٩٠/١٤ ، ويقال : للحمام الزَّاجل بوصلتان : الشَّمس ، والحقل المغناطيسي للكرة الأرضيَّة .

(٣٢) القراصيَّة : تطلق على الثِّمار المجفَّفة لنوع من البرقوق (الكمثرى) ، لونها أزرق ضارب إلى السَّواد ، [قراصيَّة في الموسوعة العربيَّة الميسَّرة] ، والعطارون اليوم يطلقونها على نوع صغير من الخوخ .

وأنّـه يحبُّ أن يراهـا ، وكان بـدمشق حمـام من مصر ، وبمصر حمـام من دمشق ، فكتب الوزير لوقته بطاقةً يـأمر فيهـا من هو تحت أمْرِه بـدمشق أن يجمع مـا بهـا من الْحَمَـام المصري ، ويعلّـق في كلّ طـائرٍ حبّـاتٍ من القراصيـة البعلبكيَّة ، ويرسلهـا إلى مصر ، ففعل ذلك ، فلم يمضِ النّهار حتّى حضرت تلـك الحمـائم بمـا عُلّق عليهـا من القراصيّـة ، فجمعه الوزير يعقوب بن كِلّس وطلع به إلى العزيز في يومـه ، فكان ذلـك من أغرب الغرائب لديه »[٣٣] .

كما نقـل المماليـك الثّلـج من الشّـام إلى مصر ، إمّـا على المركب : « والمراكب تـأتي دميـاط في البحر ، ثمّ يخرج الثّلج في النّيل إلى سـاحل بولاق ، فينقل منـه على البغـال السُّلطانيَّة »[٣٤] ، إلى القلعة ـ مقر السُّلطان ـ حيث يخزّنه ثلاجون بشكل سليم . وإمّـا على الْهُجْن « من دمشق إلى الصّنمين ، ثمّ منها إلى بانياس ، ثمّ منها إلى أرْبَد ، ثمّ منها إلى بيسان ، ثمّ منها إلى جينين ، ثمّ منها إلى قاقون ، ثمّ منهـا إلى لُـدّ ، ثمّ منهـا إلى غزّة ، ثمّ منها إلى العريش ، ثمّ منها إلى الوَرّادة ، ثمّ منهـا إلى الْمُطَيْلب ، ثمّ منهـا إلى قَطْيـا ، ثمّ منها إلى القُصَيْر ، ثمّ منها إلى الصَّالحيَّة ، ثمّ منها إلى بُلْبَيْس ، ثمّ منهـا إلى القلعـة »[٣٥] ، في القاهرة .

يـذكر الجـاحـظ : « وللحمام من حسن الاهتـداء ، وجـودة الاستـدلال ، وثبـات الحفـظ والـذّكر ، وقـوّة النّـزاع إلى أربـابـه ، والإلف لـوطنـه ، مـا ليس لشيءٍ »[٣٦] ، « ويرى البصريُّون : الذّكر أحَنّ إلى بيته لمكان أُنثاه ، وهو أشـدُّ متنـاً ، وأقوى بـدنـاً ، وهو أحسن اهتداء »[٣٧] .

كما وأُرسل البريد على السُّفن في البحار والأنهار ، ولكن بشكل محدود .

---

(٣٣) صبح الأعشى ٣٩١/١٤

(٣٤) صبح الأعشى ٣٩٥/١٤

(٣٥) ضبح الأعشى ٣٩٦/١٤

(٣٦) الحيوان ٢١٤/٣

(٣٧) الحيوان ٢٢٣/٣

وكانت للنّيران ودخانها اصطلاحات بين الأبراج ، وفي الرّباطات السّاحليّة خاصّة ، يتفاهمون بها ، فيخبر كلٌّ برج البرجَ الّذي يليه ، كتحذيرهم من سفن معادية متسلّلة[٣٨] ، وعرفت أبراج النّيران (بالْمَنَاوِرِ) : « وهي رفع النّار في اللّيل ، والدّخان في النّهار »[٣٩] .

وتنبّه الموحّدون في المغرب العربي والأندلس إلى أهمّيّة البريد ، فجاء في « الرّسالة المشهورة » ، الّتي تعتبر بمثابة دستور دأب الموحّدون على ترديده : « .. وتخيّروا لرسائلكم إرسالاً ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثّقة رجالاً ، وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المجيء والانصراف ويقطع شأنهم عن التّكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أيّاماً معروفة محدّدة ، معلومة الأمد ، لينتهوا إليها إلى مواقف رسائلهم ، ويوزّعوها على مسافات مراحلهم ، وحذّروهم من تكليف أحدٍ من النّاس ولو مثقال ذرّة ، وأوعدوا من تسبّب منهم بمساءة أو مضرّة .. »[٤٠] .

وعرف (البريد) الكتابة بحبر سرّي ، فإذا وصلت الرّسالة إلى المكتوب إليه فعل فيه فعلاً يكون مقرّراً بين المتكاتبين ، من إلقاء شيء على الكتابة ، أو بمسحه بشيء ، أو عرضه على النّار ، ونحو ذلك .. مثل : أن يكتب في الورق بلبن حليب قد خلط به نشادر ، فإنّه لا تُرى فيه صورة الكتابة ، فإذا قُرّب من النّار ظهرت الكتابة ، ومنها : أن يكتب في الورق أيضاً بماء البصل المعتصر منه فلا يُرى الكتابة ، فإذا قُرّب من النّار أيضاً ظهرت الكتابة[٤١] ..

---

(٣٨) كان على شواطئ المتوسّط من الإسكندرونة إلى الرّباط عاصمة المغرب ألف رباطٍ ، وذلك بمعدّل رباط واحد كلّ ستّة كيلومترات ، وذلك لمراقبة الشّواطئ ، والتّحذير من غارات السّفن المعادية .

(٣٩) صبح الأعشى ٣٩٨/١٤

(٤٠) المَنّ بالإمامة (تاريخ المغرب والأندلس في عهد الموحّدين) ص ٢٣٠ ، عبد الملك بن صاحب الصّلاة ، تحقيق د . عبد الهادي التّازي . دار الغرب الإسلامي .
وممّا يذكر أن إشبيلية احتفلت بنصر الزلاقة العظيم ، الّذي أحرزه المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين بواسطة حمام الزّاجل ، قبل أن يغادر جيش المرابطين ميدان القتال .

(٤١) صبح الأعشى ٢٣٠/٩

وعرفت أيضاً (الشِّيفرة) ، أي الرُّموز السِّريَّة ، حتَّى إذا وقعت بيد إنسان لا يعرف مضمونها ، والمراد منها ، وأفرد القلقشندي فصلاً عنوانه : (في إخفاء ما في الكُتُب من السِّرِّ) ، وقال : « وهو ممَّا تَمَسُّ الحاجة إليه عند اعتراض معترض من عدوٍّ ونحوه يَحُولُ بين المكتوب عنه والمكتوب إليه »(٤٢) .

☆ ☆ ☆

ويمكننا إجمال أهداف نظام الحكم في الإسلام ، في كلِّ الوظائف السَّابقة الَّتي ذكرنا : تحقيق سعادة الإنسان ، وطمأنينة الفرد ، وتحقيق العدالة الاجتماعيَّة ، وممَّا عرضناه يتَّضح :

احترام رأي الأُمَّة في تسيير شؤون الحكم والسُّلطة : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأمْرِ ﴾ ، [آل عمران : ١٥٩/٣] .

سيادة الشَّريعة على المجتمع دون استثناء : ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ﴾ ، [المائدة : ٤٨/٥] .

العدالة والمساواة بين أبناء الأُمَّة في الحقوق والواجبات بمختلف فئاتهم : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تؤدُّوا الأمَانَاتِ إلَى أهْلِهَا وَإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بِالعَدْلِ ﴾ ، [النِّساء : ٥٨/٤] .

الكفاءة والاستقامة في تولِّي شؤون الأُمَّة : ﴿ إنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأمِينُ ﴾ ، [القصص : ٢٦/٢٨] .

العدالة في توزيع الثَّروة : ﴿ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ ، [الحشر : ٧/٥٩] .

حقُّ النَّقد الإيجابي ، والنُّصح لله خالصاً دون رياء ، قال العتبي : بُعث إلى عمر بن

(٤٢) صبح الأعشى ٢٢٩/٩

الخطَّاب بحلل فقسَّمها ، فأصاب كلَّ رجل ثوب ، فصعد المنبر وعليه حلَّة ، والْحُلَّة ثوبان ، فقال : أيُّها النَّاس ألا تسمعون ، فقال سلمان ـ الفارسي ـ: لا نسمع ، قال : وَلِمَ ياأبا عبد الله ؟ قال : لأنَّك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حُلَّة ، قال : لا تعجل ياأبا عبد الله ، ثمَّ نادى ياعبد الله ، فلم يُجبه أحد ، فقال : ياعبد الله بن عمر ، قال : لبَّيك ياأمير المؤمنين ، قال : نشدتك بالله ، الثَّوب الَّذي اتَّزرت به هو ثوبك ؟ قال : اللَّهمَّ نعم ، فقال سلمان رضي الله عنه : أمَّا الآن فقل نسمع(٤٣) .

قال معاوية بن أبي سفيان لابن الكوَّى : صِفْ لي الزَّمان ، فقال : أنت الزَّمان ، إن تصلح يصلح ، وإن تفسد يفسد .

وقال رجل لعبد الملك بن مروان : إنِّي أُريد أن أُسِرَّ إليك شيئاً ، فقال عبد الملك لأصحابه : إذا شئتم ، فنهضوا ، فأراد الرَّجل الكلام ، فقال له عبد الملك : قف ، لا تمدحني فأنا أعلم بنفسي منك ، ولا تكذبني فإنَّه لا رأي لكذوب ، ولا تغتب عندي أحداً ، فقال الرَّجل : ياأمير المؤمنين ، أفتأذن لي في الانصراف ؟ قال له : إن شئت .

وقال عمر بن عبد العزيز لمزاحم مولاه : إنَّ الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي ، فإن سمعتَ منِّي كلمة تربأ بي عنها ، أو فعالاً لا تحبه ، فعظني عنده ، وانهني عنه .

وقال المنصور لابنه المهدي : أي بُني ، ائْتَدِم النِّعمة بالشُّكر ، والمقدرةَ بالعفو ، والطَّاعة بالتَّآلف ، والنَّصرَ بالتَّواضع والرَّحمة للنَّاس(٤٤) .

☆ ☆ ☆

---

(٤٣) عيون الأخبار ٥٥/١

(٤٤) تاريخ مدينة دمشق ، لابن عساكر ٢١٨/٣٨

الجَيْشُ والأُسطُولُ

إذا كان الإسلام قد خاضَ حروباً ضدَّ أعدائه ، فهو لم يبادر إليها ، ومتى فرضت عليه أرادها رادعة وعادلة لامدمِّرة ، فليست الحرب من أهداف الإسلام ، ولا من اختراعه ، فهي قديمة في التَّاريخ ، وربط الإسلام ضمير المجاهد ، بمثل أعلى هو الله ، فجهاد المسلم في سبيل الله حصراً ، لذلك لااعتداء على الأنفس والأموال والأعراض ..

الْجَيْشُ :

لم يكن للعرب في جاهليَّتهم نظامٌ خاصٌّ للجند ، فكلُّ رجال القبيلة مدعوُّون للقتال مشاة أو فرساناً ، إذا مادعا الدَّاعي ، حاملين السُّيوف والرِّماح والأقواس ، فإذا ماانتهى القتال ، عادوا إلى مساكنهم ، وانصرفوا إلى أعمالهم .

أمَّا الدُّول الَّتي تأسَّست في جزيرة العرب ـ في اليمن والشَّام والعراق ـ فقد كانت متقدِّمة حربيّاً ، وفيها نُظُم للجنديَّة .

وفي عصر رسول الله ﷺ كان كلُّ مسلم مدعوّاً للجهاد في سبيل الله ، كُلَّما نادى منادي الجهاد : ﴿ ٱنفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأموالِكُمْ وأنفُسِكُمْ في سَبِيلِ اللهِ ذلِكُم خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ ﴾ ، [التَّوبة : ٤١/٩] .

وجعل عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه الجند فئة مخصوصة ، وأنشأ لهم ديوانَ الجند ، فسجَّل أسماءهم ، ومقدار أرزاقهم ، وأكمل الأُمويُّون مابدأه عمر في نظام

الجنديَّة ، وأوَّل من طبَّق التَّجنيد الإجباري على نطاق واسع الحجَّاجُ بن يوسف الثَّقفي ، زمن عبد الملك بن مروان ، ونما الجيش نموّاً كبيراً في زمن العبَّاسيِّين ، واستُعينَ بالأعاجم وخصوصاً الخراسانيِّين ، وكان هؤلاء الجند يكوِّنون الجيش النِّظامي للدَّولة ، تدفع لهم الرَّواتب بانتظام ، ولكن عندما أساء الجند الَّذين جاء بهم المعتصم من ما وراء النَّهر ، بنى لهم عاصمة جديدة (سامرَّاء) ، ثمَّ أضحت السُّلطة بيدهم ، يولُّون خليفة ، ويعزلون آخر ، ويقتلون ويحبسون .

واهتمَّ المرابطون بالقوَّة الاحتياطيَّة الَّتي ضمَّت صفوة الجند ، والَّتي كانت تُزَج في المعركة في الوقت المناسب لتحقيق النَّصر .

الجِهَادُ :

بقي رسول الله ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو النَّاس بالحجَّة والموعظة الْحَسَنة ، وقد أذاقته قريش ـ وأذاقت المؤمنين عامَّة ـ كلَّ صنوف الأذى ، وصبَّر الله عزَّ وجلَّ نبيَّه : ﴿ وَاَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ ، [الأحقاف : ٤٦/٣٥] ، فتخلَّى المسلمون في مكَّة المكرَّمة عن العنف ، وسلكوا طريق المسالمة ، لطراوة عود الإسلام الَّذي يحتاج إلى فرصة كي يشتدَّ ويصلب ، ولأنَّ الإسلام جعل التَّعامل الإنساني ، والكلمة الطَّيِّبة ، والمحبَّة والقناعة منهجاً للرُّوح الإيمانيَّة ولدعوته ، ولكن عندما ضاعت الكلمة الطَّيِّبة وسط بحر زاخر من القوَّة المستكبِرَة للمشركين ، كانت المواجهة بعد الهجرة[1] : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ☆ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ﴾ ،

(١) ولو قاتل رسول الله ﷺ في مكَّة قبل الهجرة ، وقامت قريش للقضاء عليه وعلى مَنْ معه مِنَ المسلمين المستضعفين ، لقَوَّم الموقف أن قبيلة قريش تؤدِّب فرداً من أفرادها ، فالأمر مسألة داخليَّة تحدث في كلِّ قبيلة عربيَّة ، ولا شأن للآخرين بها ، أمَّا بعد الهجرة ، وبعد عمليَّة الفرز الَّتي تمَّت بين مجتمع مسلم مؤمن في المدينة ، ومجتمع وثني مشرك في مكَّة ، تغيَّرت المسألة ، وتبدَّل الموقف .

[الحج : ٣٩/٢٢ و٤٠] ، ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ ، [البقرة : ١٩٠/٢] .

إنَّ القتال في الإسلام لم يُشرَّع إلاَّ (دفاعاً عن النَّفس) ، وما إلى ذلك من العِرْض والمال ، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على عدم سفك الدِّماء ، ففي بدر الكبرى أراد حصاراً اقتصاديّاً ليعوِّض عمَّا صادرته قريش في مكَّة المكرَّمة ، وفي أُحُد أراد البقاء في المدينة المنوَّرة ، والمحاصرة لدفع قريش بأقلِّ خسائر ، وفي الخندق كان موقفه ﷺ موقف المدافع ، ودخل مكَّة عام الفتح (٨ هـ) دون إراقة دماء تُذْكَر ..

وربط الإسلام ضمير المجاهد بمثل أعلى هو الله تبارك وتعالى ، فجهاد المسلم في سبيل الله حصراً ، لذلك .. لا اعتداء على الأنفس والأموال والأعراض .

فالجهاد لردِّ الظُّلم والبغي والعدوان ، ولتأمين حرِّيَّة الدَّعوة ، وحرِّيَّة الدِّين والاعتقاد : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، [البقرة : ٢٥٦/٢] ، ﴿ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ ، [النَّحل : ٨٢/١٦] ، ولنصرة المظلومين المضَّطهدين من الشُّعوب : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَنَا مِن لَدُنكَ نَصِيراً ﴾ ، [النِّساء : ٧٥/٤][٢] .

(٢) قال توينبي ـ شيخ المؤرِّخين في القرن العشرين ـ : من الميسور أن نسقط الدَّعوى الَّتي شاعت بين جوانب العالم المسيحي غلوّاً في تجسيم أثر الإكراه في الدَّعوة الإسلاميَّة ، إذ لم يكن التَّخيير ببلاد الرُّوم والفرس بين الإسلام والسَّيف ، وإنَّما كان تخييراً بين الإسلام والجزية ، وهي الخطَّة الَّتي استحقَّت الثَّناء لاستنارتها ، حين اتُّبِعَت بعد ذلك في البلاد الإنكليزيَّة على عهد الملكة أليزابيت . (ما يُقال عن الإسلام ، ص ٣٧) ، ويقول وُل ديورانت عن المسلمين : « لم يكونوا في حروبهم همجاً متوحِّشين .. ولم يكن الأعداء يخيَّرون بين الإسلام والسَّيف ، بل كان الخيار بين الإسلام والجزية والسَّيف .. حتَّى أصبحت الفتوح العربيَّة ـ الَّتي كانت أسرع من الفتوح الرُّومانيَّة ، وأبقى على الزَّمان من الفتوح المغوليَّة ـ أعظم الأعمال إثارة للدَّهشة في التَّاريخ الحربيِّ كلِّه » ، (قصَّة الحضارة ٧٢/١٣ و٧٣) .

آداب الجهاد : إنَّ الأساس الأخلاقي الَّذي قامت عليه الفتوحات ، وكان عليه الجهاد ، يستقيم مع كلِّ أساس سليم لكلِّ اعتقاد سليم قويم ، وهو دستور خالد لآداب الحروب ، فالتَّسامح الَّذي فرضه الإسلام على أتباعه ، يخلق في نفس المسلم شعوراً بالوُدِّ والصَّداقة : ﴿ .. مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً .. ﴾ ، [المائدة : ٣٢/٥] ، ولقد لَخَّص أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه آدابَ الجهاد في عشر خصال ، جاءت في وصيَّته الَّتي ودَّع بها جيش أُسامة بن زيد ، حيث يقول :

« يا أيُّها النَّاس ، قِفوا أُوصيكم بعشر فاحفظوها عنِّي : لا تخونوا ولا تُغِلُّوا ، ولا تغدروا ولا تمثِّلوا ، ولا تقتُلُوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلاَّ لمأكلة ، وسوف تمرُّون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصَّوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .. »(٣) .

لقد أباح الإسلام قتال المحاربين فقط ، ومنع قتل النِّساء والأطفال والشُّيوخ .. وأخلاقه لا تراهن على الانتصار في الحرب بوسائل الغدر والظُّلم والتَّصرُّفات الوحشيَّة ، والأحداث الهمجيَّة ، إنَّما الغاية أن تنتصر مبادئ الإسلام الإنسانيَّة .

ومن آداب الإسلام في الجهاد : عدم التَّمثيل ، أو الإحراق بالنَّار ، أو تجويع الأعداء ، أو إرهاب الأسرى .. لقد رفض ﷺ التَّمثيل بسهيل بن عمرو ، عندما اقترح

---

(٣) الكامل في التَّاريخ ٢٢٧/١ ، الطَّبري ٢٢٦/٣ ، هذه آداب الإسلام منذ بدء فتوحه سنة ١١ هـ = ٦٣٣ م ، وما جرى في أُوربة ـ وباسم الكنيسة ـ بعد ذلك بألف عام وأكثر ، بما عرف بمحاكم التَّفتيش ، أو التَّحقيق ، لن نعلِّق عليه بشيء ، بل نورد قول وِل ديورانت في قصَّة الحضارة ١٠٦/١٦ : « فلا بدَّ لنا أن نضع محاكم التَّحقيق في مستوى حروب هذه الأيَّام واضطهاداتها ، ونحكم عليها جميعاً بأنَّها أشنع الوصمات في سجلِّ البشرية كلِّه ، وبأنَّها تكشف عن وحشيَّة لا نعرف لها نظيراً عند أي وحش من الوحوش » .

بعضهم أن ينزعوا ثنيتي سهيل ، فيدلع لسانه ، حتّى لا يقوم خطيباً ضدّ الإسلام[٤] ، وقال : « استوصوا بالأسرى خيراً »[٥] ، فَخُصَّ أسرى بدر بأفضل ما لدى المسلمين من الطَّعام .

ومن الآداب ضرورة إعلان الحرب قبل البدء بالقتال ، للابتعاد عن الخداع والخيانة .. مع تحريم الإجهاز على الجريح ، وجعله مريضاً يقتضي إسعافه ، وتجب معالجته والحفاظ عليه ، فآلامه توجب العطف والشّفقة والرّحمة .

وكان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إذا بعث أُمراء الجيوش أوصاهم بتقوى الله ، ثمّ يقول عند عقد الألوية : « بسم الله ، وعلى عون الله ، وامضوا بتأييد الله بالنّصر : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ ﴾[٦] ، وبلزوم الحقّ والصّبر ، فقاتلوا في سبيل الله من كفر بالله : ﴿ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾[٧] ، ولا تجبنوا عند اللّقاء ، ولا تُمَثِّلوا عند القدرة ، ولا تسرفوا عند الظّهور ، ولا تقتُلوا هَرِماً ولا امرأةً ولا وليداً ، وتوقّوا قتلهم إذا التقى الزّحفان ، وعند حُمَّة النّهضات[٨] ، وفي شَنّ الغارات ، ولا تَغُلُّوا عند الغنائم ، ونزّهوا الجهاد عن عَرَض الدُّنيا ، وأَبشروا بالرّباح بالبيع الَّذي بايعتم به ، وذلك هُوَ الفوزُ العظيم »[٩] .

وكتب عمر رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقّاص : « .. وترفّق بالمسلمين في

---

(٤) ابن هشام ٢/٢٩٣

(٥) ابن هشام ٢/٢٨٢

(٦) [آل عمران : ٣/١٢٦] : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلاَّ بُشْرَى لَكُم وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ .

(٧) [البقرة : ٢/١٩٠] : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

(٨) أي شدّتها ومعظمها ، في (اللّسان : حمم) : وحمُّ الشّيء : معظمه ، ثمّ أورد اللّسان حديث عمر رضي الله عنه .

(٩) عيون الأخبار ١/١٠٧ ، ابن الجوزي : ٧٥

سيرهم ، ولا تجشِّمهم والسَّفر يتعبهم ، ولا تُقصِّر بهم عند منزل يرفق بهم ، حتَّى يبلغوا عدوَّهم والسَّفر لم ينقص قوَّتهم ، فإنَّهم سائرون إلى عدوٍّ مقيم جامِّ الأنفس والكُراع[١٠] ، وأقِم بمن معك في كلِّ جمعة يوماً وليلة ، حتَّى تكون لهم راحة يُجمُّون[١١] فيها أنفسهم ، ويَرُمُّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونَحِّ منازلهم عن قرى أهل الصُّلح والذِّمَّة ، فلا يدخلها من أصحابك إلاَّ من تثق بدينه ، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإنَّ لهم حرمة وذمَّة ، ابتُليتُم بالوفاء بها ، كما ابتُلوا بالصَّبر عليها ، فما صبروا لكم وفُّوا لهم ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصُّلح » .

الميِّزات القِتَالِيَّة للجندي المسلم : اعتنى المسلمون بصحَّة أبدانهم وسلامتها ، فالمؤمن القويُّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضَّعيف ، وحضَّ ﷺ على السِّباحة والرِّماية وركوب الخيل ، « فارموا واركبوا ، وإنْ ترموا أحب إليَّ من أن تركبوا ، ألا إنَّ القوَّة الرَّمي ، ألا إنَّ القوَّة الرَّمي ، ألا إنَّ القوَّة الرِّمي ، ومن ترك الرَّمي بعدما علمه ، فإنَّما هي نعمة كفرها » .

وكانت خفَّة حركة الجندي المجاهد ، نتيجة طبيعيَّة لكمال تدريبه وشجاعته وخفة سلاحه ، وإيمانه بعقيدته ، أمَّا الانضباط فقد كان المسلم المجاهد على درجة كبيرة من الانضباط والطَّاعة وحبِّ النِّظام ، قال خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما عزل عن قيادة جيوش الشَّام : « سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين ، والله لو ولَّى عليَّ الفاروق امرأة لسمعت وأطعت »[١٢] .

الأسْلِحَـةُ : يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا ٱسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ .. ﴾ ، [الأنفال : ٨/٦٠] ، والتَّنكير الَّذي في كلمة (قوَّة) يفيد استغراق الجنس ، ويجعل إرادة التَّطور في مفهوم القوَّة باختلاف العصور واجبة . كما توجب الآية تقصِّي الاستطاعة

(١٠) الكراع : الخيل ، وجام : كثير ، (اللِّسان : جمم) .

(١١) يجمُّون : يريحون ، الْجَمَام (بالفتح) : الرَّاحة ، (اللِّسان : جمم) .

(١٢) ومن الانضباط عدم التَّعدِّي على غير المسلمين ، أو على أموال سكَّان البلاد المفتوحة وأملاكهم .

إلى أبعد مداها لإعداد الوسائل الصّناعيّة والفنّيّة لإنتاج القوّة ، وذلك ما أدركته العقليّة الإسلاميّة حين رأت شيئاً جديداً ، وواجهت أمراً واقعاً لا سبيل إلى دفعه إلاّ بوسائلـه ، فانصرفت إلى إعداد جيوشٍ لها كل مـا للجيوش الحـديثـة من صفـات الطّـاعـة والنّظـام وآلات القتال ، وإلى إعداد أساطيل بحريّة كالّتي يملكها البيزنطيّون وأجود .

والآية : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ .. ﴾ تقرر أيضاً أمرين اثنين :

ـ قانون الدّفاع الاستراتيجي ، ويرسمـه الإعـداد والتّسليح والتّـدريب ، للحفـاظ على الوجود .

ـ الوقاية السّلميّة ، لأنّ القوّة تردع الأعداء ، فالقويُّ لا يطمع بالقوي ، إنّما يغريه الضّعيف استجابة لشريعة الغاب الّتي غلبت على الطّبـائع البشريّـة ، إنّ التّوازن يؤلّف عنصراً رئيسيّـاً للتّخفيف من المواجهـة والصّـدمـات ، بل يلغي الحروب أحيـانـاً ، لأنّ نتائج المعركة غير مضمونة إذا قامت ضدّ دولة قويّـة ومسلّحـة ، في حين يسهل اجتيـاح الدّولة الضّعيفة الّتي لا تقدر على الدّفاع ، لأنّها تخلّت عن الإعداد والتّهيُّؤ[١٣] .

استعمل الجندي العربي المسلم الدّرع ، وهي إمّا من صفـائح من الحـديـد ، فتسمّى عنـد ذلـك (لأْمَـة) ، وإمّـا أن تكون من زرد الحـديـد ، فتـدعى (الـزَّرْد) . ولبس الخوذة ، وهي بيضة الحديد الّتي تغطّي الرّأس ، والتُّرس للوقاية من ضربات السُّيوف .

ومن الأسلحـة الفرديّـة : السّيف والرُّمـح ، والـدَّبّـوس ، والطَّبر[١٤] ، والفـأس ، والخنجر .. والقوس والسّهام .

قال عمرُ بن الخطّاب رضي الله عنـه لعمرو بن معـديكرب : أخبرني عن السّلاح ، قال : سَلْ عمّا شئت منه ، قال : الرُّمح ؟ قال : أخوك وربّما خانـك ، قـال : النّبل ؟ قال : منايا تخطىء وتصيب ، قال : التُّرس ؟ قال : ذاك المِجَنُّ وعليه تـدور الـدّوائر ،

(١٣) والطّاقة النّوويّة اليوم ، شتّان بين وجودها بيد المعتدي الظّالم ، وبين وجودها بيد الرّادع المسالم .

(١٤) الطّبر ، أو الطّبرزين : سلاح يشبه الفأس أو البلطة ، برأس نصف مستدير .

قال : الدِّرع ؟ قال : مُثْقلة للرَّاجل ، مُتْعِبَة للفارس ، وإنَّها لحصن حصين ، قال : السَّيف ؟ قال : هنالك[١٥] .

أمَّا الأسلحة الجماعيَّة ، فمنها : القسي الثَّقيلة ، والمجانيق ، والدَّبَّابات ، وسلالم وأبراج الحصار ، والحسك الشَّائك .. وكانت المجانيق أعظم الآلات الحربيَّة الهجوميَّة ، وأشدَّها تأثيراً ولا سيَّما في الحصار ، إذ هي بمثابة مدفعيَّة التَّدمير في عصرنا الحاضر[١٦] ، ومنها مجانيق قذف الحجارة ، وتعمل على مبدأ الزِّيار ، أو الثِّقل المعاكس ، أو على مبدأ المقلاع ، لقد صنع سلمان الفارسي رضي الله عنه أثناء حصار الطَّائف منجنيقاً ، وعُني عمر رضي الله عنه بصناعة المجانيق ، حتَّى كان لدى الجيش الإسلامي الَّذي فتح فارس عشرون منجنيقاً ، وكذلك جيش خالد وأبي عبيدة الَّذي فتح الشَّام ، كان مزوَّداً بالمجانيق ، وصنع جيش عمرو بن العاص المجانيق بعد نزوله في الفسطاط من أرض مصر .

واهتمَّ الأُمويُّون بصناعة المجانيق ، حتَّى استطاع الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي صنع منجنيقٍ أسماه (العَرُوس) يحتاج إلى خمس مئة رجل لخدمته والعمل عليه ، وقد سلَّم عدداً من هذه المنجنيقات إلى ابن عمِّه محمَّد بن القاسم الثَّقفي ، ففتح بها مدينة الدَّيْبُل (كراتشي حاليّاً) سنة ٨٩ هـ = ٧٠٧ م ، وعدَّة مدن في وادي السِّند[١٧] .

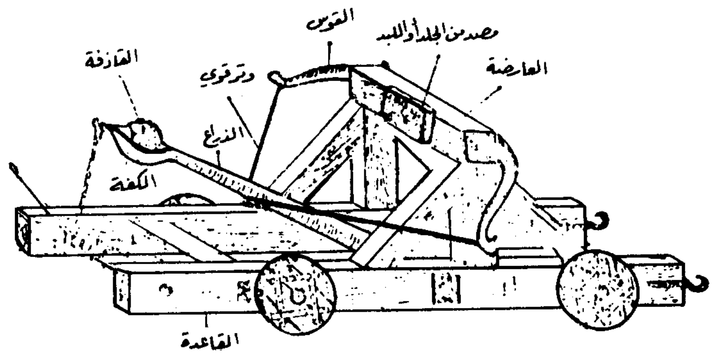
وما إن بدأ القرن الثَّاني الهجري ، حتَّى أصبح المنجنيق شائع الاستعمال عند المسلمين ، وخصوصاً في حصار المدن ، ثمَّ صار في نهاية الأمر سلاحاً عاديّاً لدى العبَّاسيِّين ، الَّذين استخدموه في أغلب معاركهم ، وخصوصاً (عمورية) سنة ٢٢٣ هـ = ٨٣٧ م .

وكان الجند المسلمون يكبِّرون ويتلون الآيات الكريمة أثناء رميهم بالمجانيق ، فإذا

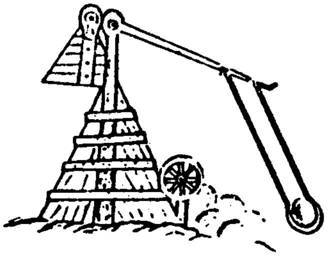
(١٥) عيون الأخبار ١٢٩/١ ، وهنالك : أي هنالك السِّلاح الَّذي يُحارب به .

(١٦) للتَّوسُّع (الحياة العسكريَّة عند العرب) ، د . إحسان الهندي ، طبع وزارة الثَّقافة ، دمشق ١٩٦٤ م .

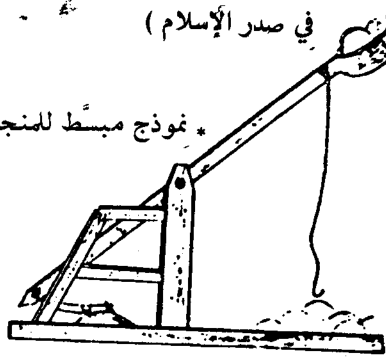
(١٧) الفتوحات الإسلاميَّة بعد مضي الفتوحات النَّبويَّة ، أحمد بن زيني دَحْلان ، طبعة المطبعة الحسينيَّة في مصر .



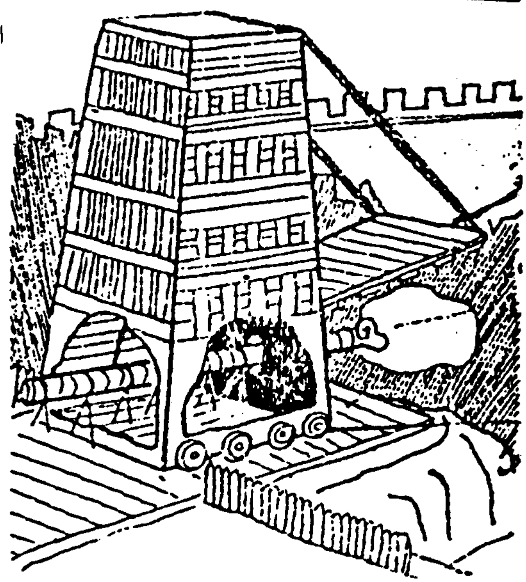
* منجنيـق لقـذف الحجـارة يعمل على مبدأ (الزّيار) ، (عن كتـاب : الفن الحربي في صدر الإسلام)



* رَمْيُ الأحجار بالمنجنيق (مقتبس عن جامع التّواريخ لرشيدّ الدّين) ، المجانيق المقلاعيَّة ، ويمكنها الدَّوران ٥٦٠ (أي دورة كاملـة) قبـل رمي المقذوف



* نموذج مبسَّط للمنجنيق



* الدَّبَّابـة العربيَّـة (عن السِّلاح في الإسلام) لاحظ الكَبْش المعلّق داخل الدَّبَّابة

كان المنجنيق يقذف الحجارة ، قالوا : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ، مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ ، [هود : ١١/٨٢و٨٣] ، وإذا كان المنجنيق يقذف النَّفط والنَّار ، قالوا : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ ، [المُلك : ٦٧/٥] ، ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ ، [المُلك : ٦٧/١١] .

وليس المنجنيق هو السِّلاح الوحيد الَّذي صنعه وطوَّره المسلمون ، فالدَّبَّابة أيضاً ، والَّتي هي برج من الخشب الصُّلب مغلَّف بـاللُّبود والجلود المنقوعة في الْخَلّ كي لا تحترق ، وتثبَّت على قاعدة خشبيَّة لها عجلات ، فإذا أراد المحاربون العمل بها ، وضعوها أمامهم متَّخذين منها درعاً يقيهم سهام الأعداء وحجارتهم ، أو جلسوا في جوفها ودفعوها وهم بداخلها حتَّى يصلوا إلى جدار الحصن لينقبوه بما يحملونه من أدوات ، بينما يقيهم سقفها ممَّا يرشقهم به الأعداء .

وزادوا حجمها حتَّى اتَّسعت لأكثر من عشرة رجال ، وقوُّوا سقفها وجوانبها الأكثر تعرُّضاً لنبال العدو وحجارته بالخشب السَّميك ، والحديد والرَّصاص ، وجعلوا لها باباً متفصلاً يمكن إذا فُتِحَ أن يسند إلى حافَّة السُّور ، ويشكِّل قنطرةً يمرُّ عليها الجنود الَّذين كانوا مختبئين في جوف الدَّبَّابة إلى داخل السُّور ، خلال الفتحة الَّتي نقبوها .

كما جعلوا في الدَّبَّابات سلالم معترضة ، تنتهي في أعلاها إلى شرفات تقارب السُّور في الارتفاع ، حتَّى إذا اقتربت الدَّبَّابة من السُّور ، ولم يستطع سدنتها خرقه ، صعدوا إلى الشُّرفات ، ومدُّوا السَّلالم والقناطر الَّتي توصلهم إلى داخل القلعة باستعلاء السُّور .

وكانوا يمهِّدون بالرَّمي بالمجانيق ، ثمَّ تتقدَّم الدَّبَّابات للاقتحام ، وفطن المسلمون إلى أهميَّة (سلاح المهندسين) فرافق الدَّبَّابات عدد من الجند الفَعَلة ، حيث كان هؤلاء يكلَّفون بردم الخنادق ، وإزالة الحواجز الَّتي تعيق سير الدَّبَّابات قبل وصولها إلى السُّور (١٨) .

---

(١٨) أهمُّ معركة إسلاميَّة استُخْدِمَت فيها الدَّبَّابات استخداماً جيِّداً ، هي معركة عموريَّة ، حيث أمر المعتصم =

وعلّق المسلمون (الكَبْشَ)[١٩] بوساطة سلاسل قويّة تجري على بَكَرٍ بسقف الدَّبّابة أو البرج المخصَّص لحمله ، فإذا أراد الجند هدم سور قلعة أو بابها ، قرّبوا رأس الكبش منه ، ثمَّ أخذوا في أرجحته إلى الأمام والخلف بالقوّة كلّها ، حتّى تنهار بعض حجارة السُّور من تأثير اصطدام رأس الكبش بها ، وعندها يعمدون إلى توسيع هذا الْخَرْق ودعمه لكي لا ينهار على المجاهدين عند مرورهم من خلاله .

وعرف المسلمون الأبراج وسلالم الحصار ، والحسكُ الشَّائك ، وهو قطع من الحديد أو الخشب ، لها عدّة شُعَب يبقى منها سن - أو أكثر - مرتفع كيفما وقعت على الأرض ، وهي تطرح حول المعسكرات لعرقلة خيل العدو حين تقدُّمها أو تسلُّلها ليلاً ، وأوَّل من استعمل الحسك الشَّائك في الإسلام رسول الله ﷺ عندما حاصر الطَّائف[٢٠] .

وصنع العرب المسلمون المكاحل (المدافع) ، وهي أنابيب ترسل فيها المقذوفات بفعل ضغط البارود المشتعل ، والبارود اختراع صيني اقتبسه العرب منذ أيّام الرَّشيد ، وبلغت دقّة الصُّنع والاستخدام لهذا السّلاح أقصاها زمن المماليك .

رُتَبُ الْجَيْش : كان على كلّ عشرة من الْجُنْد عريفٌ ، وعلى كلّ عشرة من العرفاء نقيب ، وعلى كلّ عشرة من النُّقباء قائد ، وعلى كلّ عشرة من القادة أميرٌ ، ثمَّ القائد الأعلى للجند ، وكان رسول الله ﷺ القائد الأعلى للجند في غزواته ، وربَّما أسند القيادة إلى غيره في سراياه وبعوثه ، وعندما اتَّسعت رقعة الدَّولة اختار الخلفاء القوّاد

= بصنع عدد كبير من الدّبّابات تتّسع كلٌّ منها لعشرة رجال ، يدحرجونها فوق الجلود باتّجاه السُّور ، وأمر مفارز الفَعَلَة بأن تردم الخندق المحيط بسور عموريّة بجلود الغنم المملوءة تراباً ، كي يمكّن الدّبّابات من الوصول إليه ، وكلّف مفارز الرّجالة بحماية من في الدّبّابة وحماتها الفعلة أيضاً .

(١٩) الكَبْشُ : عمود مستدير من الخشب بطول يقارب عشرة أمتار ، يحمل في مقدّمته رأساً من الحديد ، أو الفولاذ ، على شكل رأس الكبش تقريباً ، ولذا سُمّي بهذا الاسم .

(٢٠) إمتاع الأسماع المقريزي ٤١٨/١

ممَّن عرفوا بالشَّجاعة والقدرة والإقدام وحسن التَّدبير ، فلمعت أسماء خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، والمهاجر بن أبي أُميَّة ، وعرفجة بن حارثة البارقي .. في سماء حروب الرِّدَّة ، ولمعت أسماء المثنى بن حارثة الشَّيباني ، وسعد بن أبي وقَّاص ، والنُّعمان بن مقرِّن المزني في سماء العراق وفارس ، وأبي عبيدة بن الجرَّاح ، وشرحبيل بن حَسَنة في سماء بلاد الشَّام ، وأسماء عمرو بن العاص ، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح ، وعقبة بن نافع في سماء الشَّمال الإفريقي ، وطارق بن زياد وموسى بن نُصير ، والسَّمح بن مالك الخولاني ، وعبد الرَّحمن الغافقي في سماء إسبانية وفرنسة ، ومحمَّد بن القاسم الثَّقفي في سماء السِّند ، وقتيبة بن مسلم الباهلي في ما وراء النَّهر ، وفي قلب الصِّين .

طُرُقُ القِتَال : كان نظام القتال عند العرب في الجاهليَّة (الكَرّ والفَرّ) ، فكلَّما كرُّوا وتكسَّرت هجماتهم فرُّوا ليجتمعوا ثانية ، ويعاودوا الكَرَّة ..

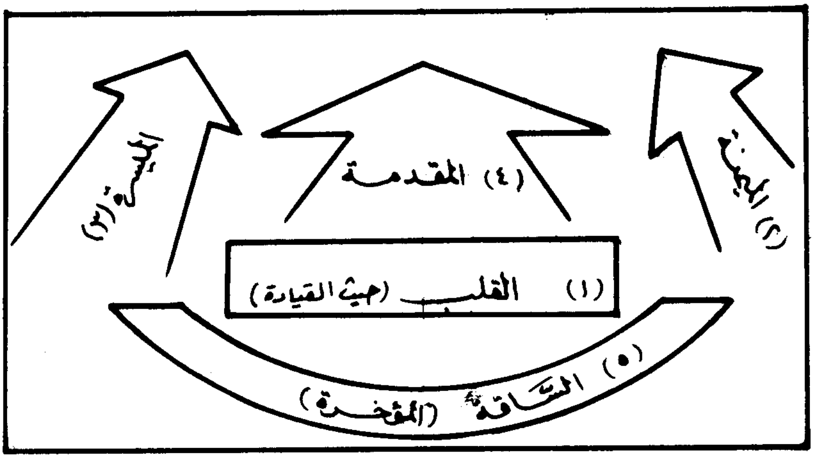
وفي معركة بدر الكبرى ، فوجئت قريش بنظام الصَّف : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ ، [الصَّف : ٦١/٤] .

وخاض خالد بن الوليد معركة اليرموك بنظام الكراديس(٢١) ، وقسَّم الجيش إلى : قلب فيه القيادة ، ومَيْمَنَة ، ومَيْسَرة ، ومقدِّمة ، وساقة(٢٢) (مؤخِّرة) ، ومن هنا جاء اسم (الخميس) للجيش ، أي خمس قطع(٢٣) .

(٢١) الكُرْدوس : القطعة من الخيل العظيمة ، والكراديس : الفِرَق منها ، وكَرْدَسَ القائد خيله أي جعلها كتيبة كتيبة ، (اللِّسان : كردس) .

(٢٢) في اللِّسان (سوق) : وفي صفة مشيته ﷺ ، كان يسوق أصحابه أي يقدِّمهم ويمشي خلفهم تواضعاً ، ولا يدع أحداً يمشي خلفه ، وساق الجيش : مؤخَّره .

(٢٣) وفي رأي : كان يأخذ الأمير خمس الغنيمة ، فسمِّي خميساً .



* تنظيمات الخميس

وممَّا يذكر ، أنَّ نظام استطلاع أخبار العدو وأحواله وروحه المعنويَّة كان معروفاً ، فأُرسلت العيون مثلاً إلى بيزنطة متنكِّرين في ثياب التُّجَّار أو الأطبَّاء ، فرصدوا تحرُّكات العدو من قرب ، واستطلعوا نيَّاته .

كما عرف جيش المسلمين (كلمة اللَّيل) ، أي كلمة السِّر للتَّعارف ليلاً ، وغالباً ما كان الصَّحابي محمَّد بن مسلمة الأوسي الأنصاري ، أيَّام رسول الله ﷺ صاحب الحرس اللَّيلي ، والمشرف على أمن معسكر المسلمين ليلاً .

صُنُوفُ جُنُودِ الْجَيْشِ واختصاصاتهم : نجد في الجيوش البرِّيَّة : الْمُشَاة (الرَّجَّالة) ، يحملون السُّيوف والرِّماح والحراب والقِسِي والسِّهام ، ويرتدون الدُّروع والْخُوَذ ، ولعب المشاة دوراً بارزاً وهامّاً في فتوح الشَّام والعراق ، والْخَيَّالة : الفُرْسان على خيولهم ، واعتنى عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه عناية فائقة بخيول الجيش ، حتَّى راقب تمريناتها في حمى الخيل القريب من المدينة المنوَّرة ، وعلى كاهل الفرسان كان الاستطلاع ، والإغارة ، واستثمار النَّصر ، والنَّشَّابة : وهم رماة السِّهام ، ومن واجباتهم الدِّفاع عن الممرَّات الإجباريَّة الهامَّة ، والتَّمهيد للقتال ، والحماية .

وكان مع الَّذين يعملون على الدَّبَّابات الفَعَلَة الَّذين يعملون مع سلاح المهندسين ، وهم الَّذين كانوا ينشرون حسك الحديد ، مع تحديد دروب خاصَّة يتركونها دون فرش ، لاستخدامها عند القيام بهجمات معاكسة إذا سمحت لهم الظُّروف بذلك[٢٤] ، ورماة المجانيق : ومهمَّتهم التَّمهيد بالرِّمايات التَّدميريَّة أو الْمُحْرِقة ، والعَيَّارون : وهم رماة الحجارة ، أو قطع الحديد والرَّصاص من المقاليع ، والنَّفاطون : الَّذين يرمون النَّفط على معدَّات العدو ، والأطباء والمضمِّدون والنَّقَّالون : للاعتناء برجال الجيش ورواحله ، فمنذ أيَّام رسول الله ﷺ عُرِفَ المشفى الميداني ، فكانت خيمة رُفَيْدَة الأسلميَّة[٢٥] مكاناً لمعالجة الجرحى ، وإصلاح شؤونهم .

☆ ☆ ☆

الأُسْطُولُ :

اهتمَّ اليمنيُّون بالتِّجارة البحريَّة ، فوصلت سفنهم إلى بلدان جنوب شرقي آسية ، وإلى الشَّواطئ الشَّرقيَّة للقارَّة الإفريقيَّة ، ولم تهتم الأجزاء الأُخرى من شبه جزيرة العرب في الجاهليَّة بالبحريَّة لبداوتها .

ولَمَّا ولي معاوية بن أبي سفيان الشَّام ، ألحَّ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه في غزو البحر ، وذلك لقرب الرُّوم من السَّواحل العربيَّة ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص واليه على مصر : « صِف لي البحر وراكبه ، فإنَّ نفسي تنازعني عليه » ، فكتب عمرو بن العاص مجيباً : « إنِّي رأيتُ خلقاً كبيراً ، يركبه خَلْقٌ صغير ، ليس إلا السَّماء

(٢٤) الجيش العربي في عصر الفتوحات ، د . إحسان الهندي ، ص ١٤٩ وما بعدها .

(٢٥) رُفَيْدَة الأسلميَّة الأنصاريَّة ، عن ابن إسحاق قال : وكان رسول الله ﷺ حين أُصاب سعداً ـ بن معاذ ـ السَّهم بالخندق قال لقومه : « اجعلوه في خيمة رُفيدة حتَّى أعود من قريب » ، وكانت امرأة من قبيلة أسْلَم في مسجده ، فكانت تداوي الجرحى ، وتحتسب بنفسها على خِدْمَة مَنْ كانت به ضَيْعَة من المسلمين ، (أُسد الغابة : ٧/١١٠ و١١١) .

والماء ، إن ركد خرق القلوب ، وإن تحرَّك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين ـ بالنَّجاة ـ قِلَّة ، والشَّك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا بَرَق »[٢٦] .

قرأ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه كتاب عمرو بن العاص ، فأرسل قراره إلى معاوية واليه على الشَّام قائلاً : « والَّذي بعث محمَّداً ﷺ بالحقّ لا أحمل فيه مسلماً أبداً ، وبالله لمسلم واحد أحبُّ إليَّ ممَّا حَوَت الرُّوم » .

لم يقف عمر بن الخطَّاب هذا الموقف بسبب وصول رسالة عمرو بن العاص من مصر ، لقد وقف رضي الله عنه موقفه لأسباب منها : خوفه على أرواح المسلمين ، حيث إنَّهم ما عهدوا ركوب البحر مقاتلين فيه ، وأُسطولهم فتيٌّ حديث ، ودولة الرُّوم البيزنطيَّة عريقة في علوم البحار وفنونه ، تسيطر بأُسطولها القوي على مياه البحر المتوسِّط ، وغزا العلاء بن الحضرمي[٢٧] أمير البحرين ، أيَّام عمر في البحر ، وقد نهاه عن ذلك ، فأُصيب المسلمون على ساحل فارس المقابل للبحرين ، فصار عمر لا يأذن لأحدٍ في ركوب البحر غازياً مجاهداً ، كما أرسل عمر عَلْقَمَةَ بن مُجزِّز المدلجي[٢٨] في البحر الأحمر في نفرٍ من المسلمين ، ليرد غزوة حبشيَّة ، فأُصيب القوم ، فأخذ على نفسه عهداً ألاَّ يحمل في البحر أحداً للغزو .

هذا .. ولم يكتمل بناء أُسطول الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، والغزو في البحر يحتاج إلى استعدادات لإيجاد أُسطولٍ قويٍّ .

هذه الأسباب مجتمعة كانت غير مشجِّعَة ، ولكن عمر بن الخطَّاب ما عارض في بناء أُسطول حربي ، بُدِئ إنشاؤه في عكَّا ومصر ، لقد أراد التَّريُّث وحبَّذه ، ليتحقَّق النَّصر

---

(٢٦) تاريخ الخلفاء ، ص ١٥٥ ، وفي اللِّسان بَرَقَ وأبْرَق : تهدَّد وتوعَّد .

(٢٧) ولاَّه رسول الله ﷺ البحرين ، وتوفِّي ﷺ وهو عليها ، فأقرَّه أبو بكر الصِّدِّيق خلافته كلها ، ثمَّ أقرَّه عمر بن الخطَّاب ، أُسد الغابة ٧٤/٣ ، الكامل في التَّاريخ ٢٤٩/٢

(٢٨) أُسد الغابة ٨٧/٢

بأقلِّ خسائر ممكنة ، خصوصاً وعشرات الآيات في كتاب الله المجيد ، تذكر السُّفن والمنشآت الجاريات في البحر كالأعلام[٢٩] :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ ، [إبراهيم : ٣٢/١٤] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي الأَرْضِ وَالفُلْكَ تَجْرِي فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ ، [الحج : ٦٥/٢٢] .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ ٱلْجَوَارِ فِي البَحْرِ كَالأَعْلَامِ ﴾ ، [الشُّورى : ٣٢/٤٢] .

﴿ اللهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ لِتَجْرِيَ الفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ، [الجاثية : ١٢/٤٥] .

وعمر رضي الله عنه أدرى بهذه الآيات الكريمة ، ولكن المهم عنده توفير أسباب النَّصر ، وسيحين موعد انطلاق المسلمين في البحر ، ولكلِّ أجَلٍ كتاب[٣٠] .

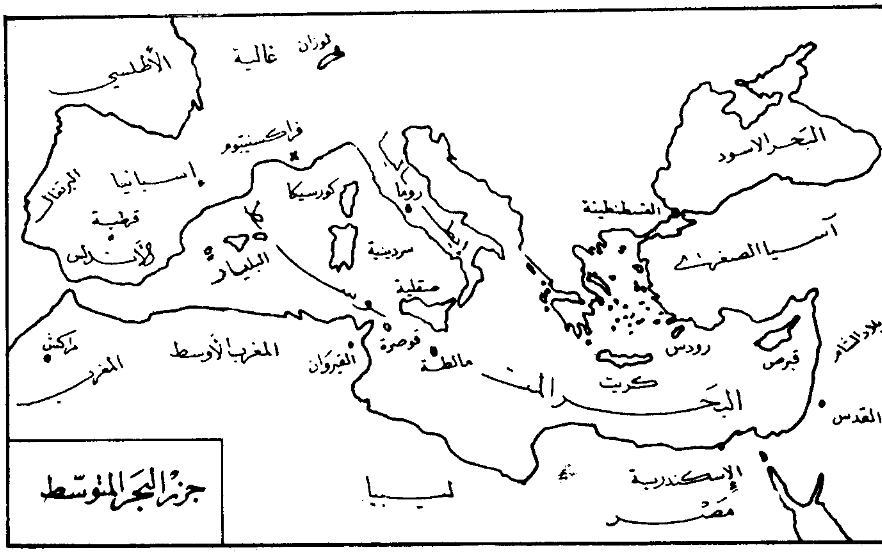
ولمّا ولي عثمان بن عفّان الخلافة ، استأذنه معاوية في الغزو في البحر ، فوافق عثمان واشترط عليه : « لا تنتخب النّاس ، ولا تقرع بينهم ، خيِّرهم ، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعِنْهُ » .

استعمل معاويةُ على البحر عبدَ الله بن قيسٍ الجاسي ، وفتحت قبرص سنة ٢٧ هـ ، ثمَّ حقَّق الأُسطول الإسلامي نصراً حاسماً سنة ٣١ هـ ، في معركة ذات الصَّواري (اليرموك البحريَّة) ، بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح .

---

(٢٩) وردت كلمة (بحر) ومشتقّاتها أكثر من أربعين مرَّة في القرآن الكريم ، ووردت كلمة (يَم) في عدَّة مواضع أيضاً .

(٣٠) انظر : حصن بابليون وذات الصَّواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ص ٥١ وما بعدها .



* **قبرص :** فتحت سنة ٢٧ هـ/٦٤٧ م عندما استعمل معاوية على البحر عبد الله بن قيس الجاسي .
* **رودس :** فتحها جنادة بن أبي أُميَّة سنة ٥٢ هـ/٦٧٠ م .
* **أقريطش (كريت) :** وصلها جنادة بن أبي أُميَّة الأزدي سنة ٥٥ هـ/٦٧٣ م أيَّام معاوية ، ففتح بعض أجزائها ، وفتحت أجزاء أُخرى أيَّام الوليد ، وفتح الجزء الأكبر منها حميد بن معيوف الهمداني أيَّام الرَّشيد ، وأتمّ الفتح أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي أيَّام المأمون .
* **مَالِطَة :** فتحت سنة ٢٥٦ هـ/٨٧٠ م أيَّام عبد الله محمد الأغلبي ، وجاء فتحها مكمِّلاً لفتح صِقِلِّيَّة .
* **قَوْصَرَة :** فتحها سنة ٨٨ هـ/٧٠٧ م عبد الله بن قطن الفهري ، خلال ولاية موسى بن نصير لشمالي إفريقية .
* **صِقِلِّيَّة :** أوّل غزو لها كان أيَّام عثمان بن عفَّان سنة ٣٦ هـ/٦٥٦ م ، وذلك على يد معاوية بن حديج الكندي الَّذي انطلق من شواطئ بلاد الشَّام بمئتي سفينة ، وتابع عبد الله بن قيس الفزاري قيادة الأُسطول ، ثمّ غزاها عبَّاس بن أخيل (من رجال موسى بن نصير) ، ثمّ عبد الرَّحمن بن حبيب الفهري أيَّام المنصور العبَّاسي ، وتكرَّر الغزو سنة ١٤٦ هـ/٧٦٣ م ، والفتح الأكبر كان أيَّام زيادة الله بن الأغلب بقيادة أسد بن الفرات سنة ٢١٢ هـ/٨٢٧ م .
* **كورسيكة وسردينية :** أوّل غزو لهما كان سنة ٩٢ هـ/٧١٠ م ، وتمّ الفتح سنة ٢٢٧ هـ/٨٤٩ م أيَّام عبد الرَّحمن بن الحكم ، وسنة ٤٠٦ هـ/١٠١٥ م غزاها مجاهد العامري ، واتَّخذ المسلمون من فتوحهم لسردينية قاعدة انطلاق لمهاجمة إيطالية وجنوبي فرنسة .
* **جزر الباليار :** أوّل من غزاها موسى بن نصير عندما أرسل ابنه عبد الله فغزا ميورقة ، وتكرَّر غزوها بعد ذلك ، منها أيَّام الحكم بن هشام سنة ١٨٢ هـ/٧٩٨ م ، وسنة ٢٠٠ هـ/٨١٥ م ، وفي سنة ٢٩٠ هـ أرسل عبد الله بن محمد الأُموي الأندلسي [٢٧٥ ـ ٣٠٠ هـ/٨٨٧ ـ ٩١٢ م] أُسطولاً بقيادة عصام الخولاني فأعاد فتح ميورقة ومينورقة .

وانطلق المسلمون في عرض البحر المتوسّط فاتحين : أقْريطش (كريت) ، ورودس ، وكورسيكة وسردينية ، وصِقِلِّيَّة ، وقوصرة ، ومالطة ، وجزر الباليار[٣١] .. وتمكّن الأسطول الأندلسي من الوصول إلى رومة بقيادة مجاهد العامري[٣٢] .

صِنَاعَةُ السُّفُنِ العَرَبِيَّة : بعث عبد الملك بن مروان إلى عامله على إفريقية حسان بن النّعمان يأمره بإنشاء دار لصناعة السُّفن في تونس ، فكانت هذه أوّل (دار صناعة) متخصّصة في الإسلام ، وتابع الأمويُّون بناء دور الصّناعة في شتّى الأمصار العربيَّة ، وأهمها تلك الّتي أُنشئت في جزيرة الرّوضة بمصر سنة ٥٤ هـ/٦٧٣ م ، وأُخرى في بيروت ، وثالثة في صور[٣٣] ..

واهتمّ العبَّاسيُّون بإنشاء دور الصّناعة في أحواض المتوسّط ، والمحيط الهندي .

وزاد إنتاج دور الصّناعة القديمة في عهد الفاطميّين ، وأُنشئت دور جديدة في كلٍّ من القاهرة ، ودمياط ، والإسكندرية ، وطرابلس الغرب ، وسوسة .

كما تولّى الأُمويُّون في الأندلس إنشاء دورٍ لصناعة السُّفن في كلٍّ من الموانئ التّالية : الجزيرة الخضراء ، دانية ، سبتة .. فقوي الأُسطول الأندلسي بشكل ملحوظ ، وخصوصاً في عهد الخليفة عبد الرّحمن النّاصر[٣٤] ، حيث قارب عدد سفنه مئتي سفينة ، وأشهر قادة الأُسطول الأندلسي أيّام الموحّدين أحمد الصِّقِلّي ، الّذي انتهت أساطيل المسلمين في أيّامه إلى مالم تبلغه قبله ولا بعده ، وذلك بتوجيه من السُّلطان يوسف بن عبد المؤمن الموحّدي .

وأنشأ صلاح الدّين الأيُّوبي أُسطولاً لمحاربة الصّليبيّين ، وخصّص له ديواناً كبيراً ،

---

(٣١) جزر الباليار شرقي الشّاطئ الأندلسي في البحر المتوسّط ، وهي : منورقة ، وميورقة ، ويابسة .

(٣٢) انظر مصوّر حوض البحر المتوسّط ، ص : ٣٧١

(٣٣) الجيش العربي في عصر الفتوحات ، د . إحسان الهندي ، ص ١٦٤ وما بعدها .

(٣٤) عبد الرّحمن النّاصر : ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ/٩١٢ ـ ٩٦١ م .

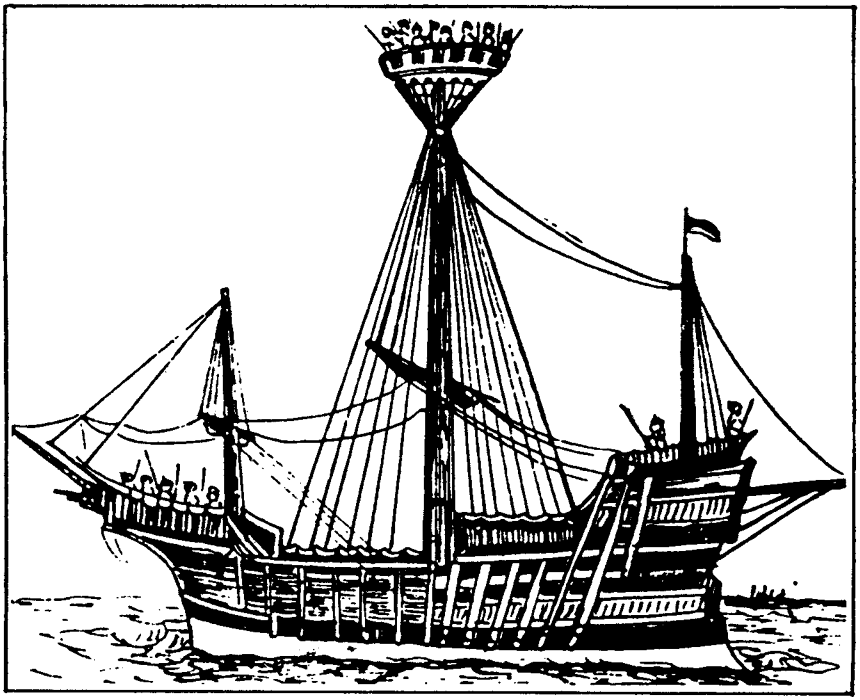
عُرِف بـاسم (ديـوان الأُسطـول) ، وأيَّـام الظَّـاهر بيبرس ، أشرف بنفســه في جـزيرة الرَّوضة على صناعة قطع الأُسطول .

ولقـد صنع العرب المسلمـون سفنـاً خـاصَّـة بـالعمـل في البحر المتـوسِّـط ، اتَّصفت بضخامتها ، صُنِعَت من خشب الأرز ، الَّذي حُمِل إلى دور الصِّناعة من جبال لبنـان ، أو من الأناضول ، واعتمدت هذه السُّفن المسامير في تثبيت ألواحها .

كما صنعوا سفناً خاصَّة بـالعمل في البحر الأحمر (بحر القُلْزُم) ، والمحيـط الهنـدي ، وهي أقلُّ حجماً من السُّفن العاملة في البحر المتوسِّط ، استُقْدِم خشبها من صعيـد مصر ، اعتمدت الغِراء في تثبيت ألواحها ، وقُطِعَت أشجار من عُمَان ، وجبال فارس ، لصناعـة السُّفن العاملة في المحيط الهندي .

أنواع السُّفُن : بلغت أنواع السُّفن أكثر من ثلاثين نوعاً ، حسب حاجتها وطريقة عملها ، منهـا : البوصي ، البـارجـة ، البطسـة (وكانت تحمل منجنيقـاً) ، الجلاسـة ، الحرَّاقـة (وكانت فيهـا أسلحـة نـاريَّـة ومجـانيـق) ، الحمَّــالــة (وكانت تحمـل الأزواد للرِّجال) ، الخليَّة ، الزَّورق ، السَّفينـة ، السُّنبوك ، السَّميريَّـة ، الشُّونـة ، الشَّلنـدي ، الشّبّاك ، الشّـذاة ، الطّراد أو الطَّريـدة ، العـدوليَّـة ، العشـاري ، العكيري ، العمارة ، الغراب ، القـارب ، القرقور ، القبق ، المـاعونـة ، المسطَّح وهو من أكبر سفن الأُسطول الإسلامي ، وغيرها كثير جدّاً .

وكان لكلِّ سفينة قائد (مُقَدَّم) له القيادة في كلِّ مـا يختصُّ في البحر في سفينتـه ، وكان القـائـد العـام لـلأُسطـول يـدعى (أمير البحر) ، ومنـه اشتُـقَّ لفـظ (أدميرال) الأجنبيَّة : Admiral .



* حَرَّاقة عَرَبِيَّة

النَّشَاطَاتُ الاقتِصَادِيَّةُ

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

[سَبَأ : ١٥/٣٤]

« مَنْ أحْيَا أرضاً ميتةً فهي له » .

[رسول الله ﷺ]

الزِّراعةُ :

عرف عرب اليمن قبل الإسلام أُسلوباً متقدِّماً في الرِّي ، فبنوا السُّدود الَّتي كان أشهرها سد مأرِب ، الَّذي بُني في منطقة جافَّة لا تزيد أمطارها على مئة ميليمتر ، وهو سدٌّ تخزيني توزيعي ، تأتيه السُّيول فيرتفع مستوى المياه خلف السَّدِّ ، حيث توزِّع الفتحات والقنوات المياه إلى أراضٍ قُدِّرت مساحتها بستَّة آلاف هكتار ، وهي كافية لحياة تجمُّع سكني جيِّد .

ولقد هُدِمَ هذا السَّد لتجمُّع الطَّمي خلفه بكمِّيَّات كبيرة ، ولتملُّح الأرض الَّتي رواها لعدم تنظيم كمِّيَّات المياه في الرِّيِّ ، ولعدم إيجاد مصرف في الوادي الطَّبيعي لصرف كمِّيَّات المياه الزَّائدة ، وبسبب هجمات القبائل الَّتي أدَّت إلى إهمال ترميم جسم السَّد ، وبسبب الرِّياح الموسميَّة الَّتي تأتي بسيول هائلة ، كسيل العَرِم[1] .

لم يؤخِّر اهتمامُ المسلمين بنشر الإسلام الزِّراعة وتقدُّمَها ، قال رسول الله ﷺ :

---

(١) من محاضرة للدُّكتور محمد نذير سنكري ، معهد التُّراث العلمي العربي ، حلب : ١٩٨٦/٧/١١ م .

« مَنْ أحيا أرضاً مَوَاتاً فهي له »[1] ، وروى البخاري حديثاً نَصُّه : « ما بـالمـدينـة أهل بيت هجرة إلاَّ يزرعون على الثُّلث أو الرُّبع » ، وأعمر ﷺ أرض خيبر بـالنِّصف ، ولَّما رأى ﷺ يداً خشنة من أثر الْمَرِّ والمِسْحاة[3] قال : « هذه يَدٌ يحبُّها اللهُ ورسولُه »[4] .

وشجَّع عمر بن الخطَّاب رضي الله عنـه الزِّراعـة في سواد العراق ، لكنَّـه منعهـا عن الصَّحابة ، لسلامة مسيرة الفتوح والجهاد في سبيل الله .

« وفي زمن الخلفاء الرَّاشـدين مُسِحَت الأراضي ، واحتفظت الحكومـة بسجلاَّتهـا ، وأنشـأت عـدداً كبيراً من الطُّرُق وعنيت بصيـانتهـا ، وأُقيمت الجسور حول الأنهـار لمنـع فيضانها ، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملاً وحجـارة ، فـأصبحت خصبـة غنيَّة عامرة بالسُّكَّان »[5] .

الزِّراعة أيَّام الأُمويِّين :

أمر معـاويـة بن أبي سفيـان بـاستصلاح الأراضي البور ، واهتمَّ الأُمويُّون بتجفيف المستنقعـات بين البَصْرة والكوفـة ، وبنوا السُّـدود في جبـال عسير ، كسـدِّ عبـد الله بن معاوية قرب الطَّائف ، ونهر يزيد بن معاوية يسقي في مـدينـة دمشق أراضي مرتفعـة واسعـة يشهـد على عنـايــة الأُمـويِّين بـزيــادة الأرض المـزروعــة[6] ، وكتب عمر بن عبـد العزيـز إلى وُلاَتِـه : انظر إلى من قِبَلَـك مِنَ الأَرض فـأعطـوهـا بـالمـزارعـة على

(٢) البخاري (حرث ١٥) ، التِّرمذي (أحكام ٣٨) .

(٣) المِسْحَاةُ : هي المجرفة من الحديد ، (اللِّسان : مسح) .

(٤) رواه أنس ، أُسْدُ الغابة ٢٦٩/٢

(٥) قصَّة الحضارة ١٥٠/١٣

(٦) وشقُّوا قنوات كثيرة ، وما يعرف اليوم في البلاد العربيَّة (بالقنوات الرُّومانيَّة) ، لم تكن نظاماً رومانياً قطُّ ، نشـأ نظـام الأفلاج في الجزيرة العربيَّـة وفي إيران حـوالي سنة ٢٥٠٠ ق.م ، ولقـد كان التَّركيز الرُّوماني ضمن خطٍّ معيَّنٍ هو ٥٠٠ ملم .

النِّصف ، وإلاّ فعلى الثُّلث ، حتَّى تبلغ العُشْرَ ، فإن لم يزرعها أحَدٌ فامنحها ، وإلاّ فأنفق عليها من مال المسلمين ، ولا تُبِيرَنَّ قبلك أرضاً .

« كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرَّحمن[٧] أن انظر الأرض ولا تحمل خراباً على عامر ، ولا عامراً على خراب ، وانظر الخراب فإن أطاق شيئاً ، فخذ منه ما أطاق وأصلحه حتَّى يعمر ، ولا تأخذ من عامر لا يعتمل شيئاً ، وما أجدب من العامر من الْخَرَاج فخذه في رفق وتسكين لأهل الأرض .. »[٨] .

الزِّراعة أيَّام العبَّاسيِّين :

وجَّه العبَّاسيُّون عناية خاصَّة لأرض السَّواد ، فَعَدَّت الدَّولة المحافظة على شَقِّ القنوات وتجديدها من أعمال الدَّولة ، فَوُصِلَت مياهُ دِجْلة بالفرات ، وبقيت هذه الأقنية يستفاد منها حتَّى أيَّامنا هذه .

« كانت الحكومة ـ العبَّاسيَّة ـ تشرف على قنوات الرَّيِّ الرَّئيسيَّة وتتعهدها بالصِّيانة والتَّطهير ، فأوصلت ماء الفرات إلى أرض الجزيرة ، وماء دجلة إلى أرض فارس ، وشُقَّت قناة كبيرة بين النَّهْرَيْن التَّوأمَيْن عند بغداد ، وكان خلفاء الدَّولة العبَّاسيَّة الأوَّلون يشجِّعون الأعمال الخاصَّة بتجفيف المستنقعات ، وتعمير القرى المخرَّبة والضِّياع الَّتي هجرها سكَّانها ، وكان الإقليم المحصور بين بخارى وسمرقند يُعَدُّ في أثناء القرن العاشر (إحدى الجنَّات الأرضيَّة الأربع) ، وكانت الثَّلاث الأُخرى هي جنوبي فارس ، وجنوبي العراق ، والإقليم المحيط بدمشق في بلاد الشَّام »[٩] .

لقد حضَّ أبو يوسف القاضي هارون الرَّشيد[١٠] على تشييد الجداول الجديدة على

(٧) أبو عمر عبد الحميد بن عبد الرَّحمن بن زيد بن الخطَّاب العدوي ، والٍ من أهل المدينة ، ثقة في الحديث ، استعمله عمر بن عبد العزيز على الكوفة ، توفِّي بحرَّان نحو ١١٥ هـ/ نحو ٧٣٣ م ، (الأعلام ٢٨٦/٣) .

(٨) الْخَرَاج ، ص ٩٣

(٩) قصَّة الحضارة ١٠٧/١٣

(١٠) « فكَّر هارون الرَّشيد في حفر قناة تربط البحرين المتوسِّط والأحمر في موضع قناة السُّويس ، =

نفقة الدَّولـة الخـاصَّـة ، بغيـة تحسين الزَراعـة وتوسُّعهـا ، مع تنظيف الجـداول الموجودة وترميمها ، كما أوصى بتشكيل شرطة نهريَّة ذات كفاءة ممتازة[١١] ، لذلك أنشأ العبَّـاسيُّون ديواناً خاصّاً لهذه الأُمور ، عرف (بديوان الماء) بلغ عدد المشتغلين فيه عدَّة آلاف .

قال وليم ويلكوكس المهندس الَّـذي زار العراق إبَّـان الانتـداب البريطـاني : « إنَّ عمل الخلفاء في ريِّ الفرات ، يشبه أعمـال الرِّي في مصر والولايـات المتَّحـدة الأمريكيَّـة وأسترالية في هذا العصر[١٢] .

كما خفَّضوا مبلغ الْخَرَاج على الفلاَّحين بين آونـة وأُخرى تشجيعـاً لهم ، وزيـادة في دخلهم ورفاهيتهم .

و « حرروا رقيق الأرض من عبودية الإقطاع »[١٣] .

ومن المناطق الزِّراعيَّة الهامَّة خراسان وبلاد ما وراء النَّهر ، ففي بُخارى مثلاً : إذا علوت مرتفعـاتهـا لم يقع بصرك من جميع النَّواحي إلاَّ على مغـارس تتَّصل خضرتهـا بلون السَّماء ، وكأن السماء مكبَّة زرقاء على بساط أخضر .

الزِّراعَةُ في الأَنْدَلُسِ :

عاش سكَّان الأندلس في طمأنينة بعـد الفتح الإسلامي ، « لم تنعم الأنـدلس طوال تاريخها بحكم رحيم وعادل ، كما نعمت به في أيَّـام الفـاتحين العرب[١٤] ، وكانت الحكومـة تقوم بإحصـاءٍ عـامٍّ للسُّكَّـان والأملاك في فترات منظَّمـة ، وكانت الضَّرائب معقولـة إذا

= وخطَّطها ، ولكن يحي البرمكي لم يشجِّعه على حفرها لأسباب لا نعرفها ، ولعلَّها أسباب ماليَّة » ، قصَّة الحضارة ١٠٩/١٣

(١١) انظر فصل (في الجزائر في دجلة والفرات والغروب) ، الخراج ، ص ٩٩

(١٢) الإسلام في حضارته ونظمه ، أنور الرِّفاعي ، ص ٢٨٠

(١٣) قصَّة الحضارة ٢٩٣/١٣

(١٤) القول لستانلي لين بول .

قورنت بما كانت تفرضه عليهم رومة وبيزنطة »[15] ، لذلك نشطت الزِّراعة وازدهرت ، لقد جعل المسلمون جبال الأندلس مدرَّجات صالحة للزِّراعة ، وجعلوا لمياه الثُّلوج مستودعات ضخمة للرِّي ، وممَّا يذكر أنَّ صقر قريش (عبد الرَّحمن الدَّاخل) ، أدخل أوَّل شجرة نخيل إلى أُوربَّة ، وأدخل المسلمون إلى أُوربَّة أيضاً : الأرز ، والحنطة السَّوداء ، والموز ، والبرتقال والليمون ، والسَّفرجل ، والقطن ، وقصب السُّكَّر ، والفستق الحلبي ..

وكانت زراعة الكروم من الإعمال الكبرى في بلاد الأندلس ، وأحالت حدائقَ الْخُضَر ، وغياضُ الزَّيتون ، وبساتينُ الفواكه مساحات من الأندلس ـ وخصوصاً حول قرطبة وغَرْناطة وبلنسية ـ جنَّات على الأرض ، كما استحالت جزيرة ميورقة الَّتي فتحها العرب المسلمون في القرن الثَّامن الميلادي بفضل علمهم بالزِّراعة ، وعنايتهم بها ، فردوساً مليئاً بالفاكهة والأزهار ، تشرف عليها أشجار النَّخيل الَّتي سُمِّيت الجزيرة باسمها فيما بعد .

ومن الكلمات العربيَّة الزِّراعيَّة الَّتي دخلت الإسبانيَّة واللُّغات الأُوروبيَّة :

Abelmosco : حبُّ المسك ، Acebibe : الزَّبيب ، Aceite : الزَّيت ، Aceituna : الزَّيتونة ، Acequia : السَّاقية ، Alazan : الحصان ، Alhabaca : الْحَبَق ، Zucker : السُّكَّر ، Karaffe : الغرَّافة ، Limonade : عصير اللَّيمون ، Aprikosen : البرقوق (المشمش) ، Bananen : بنان الموز ، Orange : النَّارنج ، Sorbett : الشَّربة ، Artischoken : الأرضي شوكي ، Reis : الأرز ، Spinat : السَّبانخ ، Koffer : القُفَّة ، Kattun : القطن ..

☆ ☆ ☆

(١٥) قصّة الحضارة ١٣/٢٩٢



* خَــزَّان مــاء بُني في القرن التَّـاسـع الميلادي قرب القيروان

الصِّناعَةُ :

كانت الصّناعة في الجاهليّة بسيطة ، تُرِكت للعبيد ، وازدهر منها في اليمن صناعة الرِّماح والسُّيوف والمجانيق[16] .

وحضَّ رسول الله ﷺ على تصنيع السِّلاح بأيدٍ وطنيَّة عربيَّة ، عن علي رضي الله عنه ، قال : كانت بيد رسول الله ﷺ قوسٌ عربيَّة ، فرأى رجلاً بيده قوس فارسيَّة ، فقال : « ماهذه ؟ ألقها ، وعليكم بهذه وأشباهها ، ورماح القنا ، فبِها يزيدُ اللهُ لكم في الدِّين ، ويمكّن لكم في البلاد »[17] ، لقد خصَّ القوسَ العربيَّة ، لأنَّ رقعة الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة كانت جزيرة العرب فقط ، فروح الحديث الشَّريف تحضُّ على تصنيع السِّلاح بأيدٍ وطنيَّة ، ورفض المستورد منه ، والمهمُّ تصنيعه في أرض الإسلام ، وعدم الإعجاب والتَّعظيم ، والاعتماد على الأجنبي المستورد .

---

(١٦) جاء في كتب التَّاريخ : « ولم يشهد حُنيناً ولا حصار الطَّائف عروة بن مسعود ، ولا غَيْلان بن سلمة ، كانا بجُرَش - وهي مدينة عظيمة في اليمن - يتعلّمان صنعة الدَّبَّابات والمجانيق والضُّبُور ، والضُّبُور : الدَّبَّابات الَّتي تقرّب إلى الحصون لتنقب من تحتها ، (السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ٦٥٢/٣) .

(١٧) ابن ماجه ، الجهاد ٢٨١٠ ، ص ٩٣٩

لقد تمّ تصنيع أوّل منجنيق في الإسلام ، أثناء حصار الطّائف ، وعُنِي عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بالتّصنيع الحربي ، الّذي جهّز به جيوش الفتوح في بلاد الشّام ، ومصر ، والعراق .

وتقدّم التّصنيع الحربي أيّام العبّاسيّين ، فحسّنوا المجانيق والدّبّابات .. وتقدّمت صناعة السّفن وتعدّدت أنواعها ، واستخرجوا المعادن كالذّهب والفضّة من مناجم المغرب ومصر والسّودان والحجاز وكرمان وما وراء النّهر وخراسان ، والحديد من مناجم الشّام وفارس وكرمان ، واللؤلؤ من مياه الخليج العربي ، والعقيق من اليمن ، والكبريت من غور فلسطين وفارس ، والنّفط والرّصاص من فارس ، والزّئبق والفحم الحجري من مناجم ما وراء النّهر .

أهمّ الصّناعات :

الصّناعات النّسيجيّة : الحريريّة منها : في فارس والعراق والشّام ، ومنه (الْخَزّ) وهو النّسيج الحريري النّاعم ، و (الدّيباج) وهو الحرير الموشّى بالقصب .

وكان التّجّار الأوربيّون يقدّرون منسوجات الدّولة الفاطميّة تقديراً يفوق سائر المنسوجات ، ويتحدّثون وهم مذهولون عن منسوجات القاهرة والإسكندريّة ، الّتي تبلغ من الرّقّة درجة يستطاع معها أن تمرّ في خاتم الإصبع .

والكتّانيّة : في مصر وفارس .

والصّوفيّة : في كلّ أرجاء الدّولة ، ولكن فارس امتازت بتصنيع السّجّادات الفاخرة ، واشتهرت أرمينية وبخارى بأنواع متميّزة من البُسُط .

ومن **الصّناعات المعدنيّة** تكفيت المعادن(١٨) ، البرونز أو النّحاس بالذّهب أو

(١٨) التّكفيت هنا : التّطعيم .

الفضَّة ، واشتهرت الموصل بصنع الأدوات النُّحاسيَّة للموائد ، واشتهرت مدينة حَرَّان بصناعة أدوات القياس الدَّقيقة ، كالموازين والأَسْطُرلابات .

ومن **الصِّناعات الغذائيَّة** : السُّكَّر في الأهواز وبلاد الشَّام ، وماء الورد ، والعطور ..

واشتهرت بلاد الشَّام ومصر بصناعة الزُّجاج ، الَّذي احتفظ بكلِّ ما كان له من جمال في العهود القديمة ، وازداد دقَّة وبراعة ، ونوافذ المساجد المملوءة بالزُّجاج الملوَّن شواهد على هذه الصِّناعة الجميلة ، واشتهرت فارس ومصر بالفَخَّار والخزف ، والمغرب العربي وبلاد الشَّام والعراق بصناعة الجلود .

وفي الأندلس : استخرج العرب المسلمون الحديد والذَّهب والفضَّة والرَّصاص والقصدير والنحاس والكبريت والياقوت والزُّجاج والإثْمِد (الكُحْل) ، وأقاموا في غَرْناطة وطليطلة معامل الحديد والصلب ، وكان الفولاذ الأندلسي ذا شهرة عالميَّة ، كما اشتهرت طليطلة بالسُّيوف ، وقرطبة بالدُّروع ، وأُنشئت في الأندلس أيضاً معامل البُسُط والحرير[١٩] ، والفخَّار والزُّجاج والفسيفساء ، ودباغة الجلود والصِّياغة ، وصناعة البارود والسُّكَّر والورق ..

لقد قدَّم المسلمون إلى العالَم الورق الرَّخيص ، واخترع ابن يونس المصري الرَّقَّاص - بندول السَّاعة - ووصف ابن جبير ساعة المسجد الأُموي وصفاً دقيقاً في أحداث رحلته المشهورة[٢٠] .

إنَّ الصِّناعة العربيَّة الإسلاميَّة في العصور الوسطى - كما تقول زيغريد هونكه - كانت موضع فخر الأُوروبي واعتزازه ، فعندما يرى بين يديه سلعة كُتِبَ عليها إنَّها من

(١٩) كان في قرطبة وحدها (١٣٠٠٠) نسَّاج .

(٢٠) انظر الصُّورة ص : ٥٣٦

صنع دمشق أو بغداد ، أو القاهرة أو قرطبة .. تراه يفاخر بها مَنْ حوله ، لأنَّها صناعة عربيَّة .

☆ ☆ ☆

التِّجارَةُ :

ازدهرت التِّجارة وبلغت أوجها في العصر العبَّاسي ، لاتِّساع رقعة الدَّولة العربيَّة الإسلاميَّة ، ولتنوُّع المنتجات لتنوُّع الأقاليم واختلاف سلعها ، كما سهَّلت وحدة النَّقد المتداول التَّعامل التِّجاري ، وسبَّب تدفُّق الثَّروات ارتفاع مستوى المعيشة ، ورقيّ الصِّناعة وتقدُّمها .

وشجَّع الخلفاء التِّجارة عندما حفروا الآبار ، وأقاموا المحطَّات (الخانات) على طول طرق القوافل ، كما أنشؤوا المنائر في الثُّغور ، وأدَّى وصول التُّجَّار المسلمين الأُوَل إلى سواحل إفريقية الشَّرقيَّة ، والهند ، وسرنديب (سيلان) ، والملايو ، والصِّين[(٢١)] .. إلى تنوُّع السِّلع في أسواق المدن الكبرى ، وإلى انتشار الإسلام حيث وصلت قدم التَّاجر المسلم .

استورد المسلمون من :

الهند : الذَّهب والقصدير ، والتَّوابل ، والعاج ، والآنية ، وبعض أنواع الثِّياب القطنيَّة .

الصِّين : العود والمسك ، والسُّروج ، والحرير .

سرنديب : الياقوت والماس .

أرمينية : البُسُط ، والوسائد الفاخرة ، والجلود .

روسية وما وراء النَّهر : الفِرَاء ، وجلود الثَّعالب ، والورق .

(٢١) ازدهرت التِّجارة في المحيط الهندي ، وبقيت في البحر المتوسِّط علاقات ذات صبغة حربيَّة مع الأُوربيِّين .

الحبشة : العقيق والعاج ، والجلود المدبوغة ، واللآلئ من شواطئ البحر الأحمر الغربيَّة .

وصدَّروا : الشَّعير والحنطة والأرز ، والفاكهة ، والسُّكَّر ، والزُّجاج ، والحرير المنسوج ، والأقمشة الصُّوفيَّة والكتَّانيَّة والحريريَّة ، والزَّيت والعطور كماء الورد ، وزيت البنفسج ..

وازدهرت تجارة الأندلس مع أُوروبَّة والمغرب العربي ، فصدَّرت الذَّهب والفضَّة والحرير والسُّكَّر .

وازدهرت تجارة المغرب مع حوض النَّيجر ، حيث تجارة الملح والعاج والمعادن الثَّمينة ..

☆ ☆ ☆

طُرُقُ الْمُوَاصَلات :

لقد جابت قوافل المسلمين البلاد ، ومخرت سفنهم عباب البحار ، فوصلوا الصِّين ، والدَّائرة القطبيَّة الشَّماليَّة ، ومفاوز الصَّحراء الكبرى .

وبالإضافة إلى طرق البحريَّة الَّتي كانت تربط موانئ الجزيرة العربيَّة ببلاد الشَّام ومصر والعراق ، أصبحت الطَّريق الرَّئيسيَّة تبدأ من بغداد ، وتتَّجه شرقاً إلى خراسان فالبُنجاب ، ومنها إمَّا جنوباً إلى الهند ، وإمَّا أن تتابع شرقاً حتَّى الصِّين . ومن بغداد إلى بلاد الشَّام غرباً فمصر ، ومنها على طول شواطئ المتوسِّط حتَّى المغرب ، تتفرَّع عنها طرق باتِّجاه مدن الشَّمال الإفريقي الهامَّة .

وكانت على طول هذه الطُّرق البرِّيَّة ـ وهي غالباً طرق البريد أيضاً ـ خانات للمسافرين ، لتأمين حاجاتهم من طعام ونوم ، والعناية بدوابهم وبضائعهم ، وأهمُّ هذه الخانات ما كان عند ملتقى الطُّرق ، حيث يجد التُّجار فيها (الكاتب بالعدل) مثلاً ، ليحرِّر عقود البيع والإيجار .

أما الطَّرق البحريَّة فقد كانت عبر البحر المتوسِّط ، والبحر الأحمر ، والمحيط الهندي .

لقد كانت السُّفن تقطع البحر المتوسِّط من ميناء أَنْطاكِيَـة إلى مضيق جبل طـارق في ستـة وثـلاثين يـومـاً ، ووصلت سفن المسلمين منـذ القرن الأوَّل الهجري إلى الصِّين ، وفتحت كانتون ميناءها لهم منذ سنة ٨٢ هـ .

وفي الخليـج العربي ، اتَّخـذ المسلمـون مينـاء سيراف مرسى لسفنهم الَّتي كانت محمَّلـة بـالسِّلـع الـواردة من البَصْرة والأُبُلَّـة وعُمان وغيرهـا ، وتنقـل تجـارة العرب والفرس إلى الصِّين ، واستطاع المسلمون منذ أواخر القرن الثَّاني للهجرة أن يستقرُّوا في ميناء خـانفو إلى الجنوب من شنغهاي حـاليّـاً ، وكان لهم قـاضٍ مسلم يحكم بينهم وفق أحكام الشَّريعـة الإسلاميَّة ، ويؤمُّهم في صلاتهم ، وكانت الرِّحلة من سواحل الخليج العربي ، إلى سواحل الهنـد ، تستغرق مـدَّة تتراوح بين شهرَيْن وثلاثـة أشهر ، وقـد تستغرق شهراً واحـداً إذا ساعدت الرِّياح الموسميَّة .

وكانت الملاحة النَّهريَّة نشطة في نهر النِّيل ، ونهرَيْ دِجْلة والفرات .

وفي الأنـدلس ، كانت قرطبـة عقـدة مـواصـلات بريَّـة ، تتَّجـه منهـا الطُّرق إلى المتوسِّط والأطلسي ، وتتَّجـه شمالاً عبر جبـال البرانس إلى فرنسـة ، وكانت سفنهم تتنقَّل مابين مالقَّة والمريَّة والموانئ المغربيَّة ، وكانت السُّفن النَّهريَّة دائمة الحركـة في نهر الوادي الكبير .

☆ ☆ ☆

النَّقْدُ :

قرَّر عبد الملك بن مروان سكَّ[٢٢] عملة عربيَّة إسلاميَّة ، بدلاً من العملة البيزنطيَّـة والفارسيَّة ، فبنى داراً لضرب النُّقود بدمشق ، وأمر بجمع العملة المستعملة في جميع أنحاء

(٢٢) السّكة في الاصطلاح الشَّائع يقصد بها العملة المضروبـة ـ أي المسكوكـة ـ من معـدن ، اشْتُقَّ هـذا المعنى للسّكة من معناها الأصيل ، وهو القالب الَّذي تضرب به العملة باستخـدام الطَّبع أو الضَّغـط ، ويكون عادة بوساطة معدن شديد الصَّلابة كالحديد ، كما قـد ينصرف اسم السّكـة إلى النُّقوش الَّتي تطبعهـا هـذه القوالب على سبيكة العملة من رسوم أو كتابات ، يقول ابن خلدون : « السّكة هي الختم على الـدّنـانير =

الدَّولة ، وضرب بدلها عملة جديدة من الذَّهب والفضَّة ، عليها بعض الآيات الكريمة ، وجعل وزنها ٣٪ زيادة عن العملات المعروفة آنذاك كالبيزنطية مثلاً ، ممَّا جعلها نقداً مطلوباً موثوقاً به .

جاء في (فتوح البلدان) : « كان عبد الملك أوَّل من أحدث الكتاب الَّذي يكتب في رؤوس الطَّوامير من ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وغيرها ، من ذكر الله ، فكتب إليه ملك الرُّوم أنَّكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه ، فإن تركتموه وإلاَّ أتاكم في الدَّنانير من ذكر نبيِّكم ما تكرهونه ، فكبر ذلك في صدر عبد الملك ، فكره أن يدع سُنَّة حسنة سنَّها ، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقال له : يا أبا هاشم ، إحدى بنات طَبَق[٢٣] ، وأخبره الخبر ، فقال : افرخ روعك يا أمير المؤمنين ، حرِّم دنانيرهم فلا يتعامل بها ، واضرب للنَّاس سككاً ، ولا تعف هؤلاء الكفرة ممَّا كرهوا في الطَّوامير ، فقال عبد الملك : فرَّجتها عنِّي فرَّج الله عنك وضرب الدَّنانير .. »[٢٤] .

وفي الصُّبح الأعشى : « أوَّل من ضرب الدَّنانير والدَّراهم في الإسلام عبد الملك بن مروان ، وكان النَّاس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفرس والرُّوم ، ولما ضربها عبد الملك كتب إلى الحجَّاج بالعراق بإقامة رسم ذلك ، فضرب الدَّراهم ونقش عليها : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ إلى آخر السُّورة ، فسمِّيت الدَّراهم الأحديَّة ، وكرهها النَّاس لنقش القرآن عليها ، مع أنَّه قد يحملها المُحْدث ، فسُمِّيت المكروهة .. »[٢٥] .

= والدَّراهم المتعامل بها بين النَّاس بطابع حديد تنقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ، ويضرب بها على الدَّنانير والدَّراهم فتخرج رسوم تلك النُّقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، ولفظ السّكة كان اسماً للطَّابع وهي الحديدة المتَّخذة لذلك ، ثمَّ نقل إلى أثرها وهي النُّقوش الماثلة على الدَّنانير والدَّراهم ، ثمَّ نقل إلى القيام على ذلك .. » ، القاموس الإسلامي ٣٩٩/٣

(٢٣) بنات الطَّبَق : الدَّواهي ، ويقال للدَّاهية : إحدى بنات طَبَق ، (اللِّسان : طبق) .

(٢٤) فتوح البلدان ، ص ٢٤١

(٢٥) صبح الأعشى ٤٢٤/١

« ولقد عُني أوائل أباطرة المغول عناية كبيرة بشكلة العملة المستقرَّة ، وكانت للسّكة المغوليَّة علاوة على قيمتها الأصليَّة مظهرها الفنِّي أيضاً ، وقد استمدُّوا نماذجها من فارس .. وكان للإمبراطور أكبر نحو سبعين من دور الضَّرب تقوم كلُّها بسكِّ العملة من الذَّهب والفضَّة والنُّحاس ، وكانت الرُّوبيَّة هي وحدة النُّقود .

وحافظ ابنه وخليفته جهانكير على معيار السّكة ، وأمر بإصدار قطع أُخرى بديعة مدهشة لم تفقها أُخرى من عدَّة نواح .. وكان أوَّل من أجاز من المغول نقش صورته على السّكة ، وكان أوَّل وآخر حاكم للهند ضمَّ اسم زوجته الإمبراطورة نورجيهان العظيمة إلى اسمه على قطع السّكة المستعملة في أنحاء مملكته .

وأهمُّ ما تمتاز به العملة الَّتي سُكَّت في عهد خلفه شاه جيهان قطع من النُّقود الذَّهبيَّة كبيرة الحجم ، وكانت نسبة الفضَّة إلى الذَّهب فيها كنسبة ١ إلى ١٥ ، وقد أُدخلت إلى الهند من فارس قطعة جميلة تعرف باسم موهور (Mohour) في القرن السَّادس عشر ، وظلَّت تصدر حتَّى بعد سقوط دولة المغول في الهند ، تصدرها دور الضَّرب البريطانيَّة لأغراض خاصَّة .. »[٢٦] .

وفي سنة ٤٦٤ هـ « صنع الأمير يوسف بن تاشفين دار السّكة بمرَّاكُش ، وضرب فيها السّكة بدراهم مدوَّرة ، زنة الدِّرهم منها درهم وربع ، سكة من حساب عشرين درهماً للأوقيَّة ، وهو الدِّرهم الجوهري المعلوم في وقتنا هذا ، وضرب الدِّينار الذَّهبيَّ باسم الأمير أبي بكر بن عمر[٢٧] في هذا العام »[٢٨] .

كانت الدَّنانير ذهبيَّة ، والدَّراهم من الفضَّة ، والدَّوانق من النُّحاس[٢٩] .

---

(٢٦) تاريخ العالم ٦/٦٠١

(٢٧) أبو بكر زكريا بن عمر أمير المرابطين بعد وفاة عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ/١٠٥٩ م ، وهو ابن عمِّ يوسف بن تاشفين ، (الزَّلاَّقة ، ص ٢٥) .

(٢٨) البيان المغرب ٤/٢٢

(٢٩) يذكر ابن بطوطة في رحلته (ص ٦١٨) أنَّ الصِّين عرفت العملة الورقيَّة : « وأهل الصِّين لا يتبايعون

دُورُ الضَّرْبِ[٣٠] : أو (صناعة السّكة) ، ويقصد بها فَنُّ ضرب العملة ، وتعرف دار السّك بدار الضَّرب ، وهو الاسم الأكثر شيوعاً ، وكان يتولّى عليها رئيس مسؤول يعرف باسم (متولّي دار الضَّرب) ، ولكن لأهمِّيّة العملة في إشاعة الثّقة في المعاملات ، كان الإشراف الأعلى على دار الضَّرب للقاضي ، والسَّبب هو ضمان شرعيَّة الدَّنانير والدَّراهم الَّتي تصدر على دار السّك بأسمائهم (أي أسماء السَّلاطين والحكّام) سواء من حيث جواز العيار أو الوزن .

أمّا من النَّاحية الفنِّيّة ، فيضطلع بالعمل في دار الضَّرب أربع فئات تمثّل كلٌّ فئة ناحية فنِّيّة في صناعة السَّك ، كما يمثّل كلّ فئة شخص واحد أو أكثر حسب أهمِّيَّة دار الضَّرب ، وهؤلاء هم :

١ ـ المقدَّم ، وهو الَّذي يتولّى حفظ الأعيرة للتَّحقُّق من أوزانها .
٢ ـ النَّقّاش ، وهو الَّذي يتولّى حفر القوالب .
٣ ـ السَّبّاك ، ومهمّته إعداد السَّبيكة ، بالنِّسَب المقرَّرة رسميّاً لكلّ عملة .
٤ ـ الضَّرّاب ، ومهمّته الضَّرب ، أو الختم على السَّبيكة بعد إعداد القضبان المعدنيَّة من السَّبائك المصهورة .

وكانت دور الضَّرب تتناول ١٪ عن كمِّيَّة الأموال الَّتي تضربها ، كأُجرةٍ للعمل وثمن الوقود ، فدار واحدة في القرن الرَّابع الهجري بلغ دخلها ٢٠٠,٠٠٠ دينار في العام .

= بدينار ولا درهم ، وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعاً كما ذكرناه ، وإنّما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغَد ، كل قطعة منها بقدر الكفّ مطبوعة بطابع السُّلطان ، وتسمّى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت وهي بمعنى الدّينار عندنا ، وإذا تمزّقت تلك الكواغد في يد إنسان ، حملها إلى دار كدار السّكة عندنا فأخذ عوضاً جديداً ودفع تلك ، ولا يُعطِي على ذلك أُجرة ولا سواها ، لأنّ الّذين يتولّون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السُّلطان » .

(٣٠) القاموس الإسلامي ٤٠٠/٣

ومّا يذكر ، أنّ الدّينار المرابطي أصبح النّقد الدّولي بسبب سمعة المرابطين الممتازة في العالم كلّه ، ولاقتصادهم المتين ، ولرفاهية دولتهم .

بَعْضُ وَحَداتِ الوَزْنِ والكَيْلِ والقِيَاسِ :

وحدات الوزن : الأُوقيَّة الشَّرعيَّة لوزن الفضَّة = ١١٩ غراماً .

الأُوقيَّة الشَّرعيَّة لوزن الذَّهب = ٢٩,٧٥ غراماً

الحبَّة الشَّرعيَّة من الدّينار الشَّرعي = ٠,٠٥٩ غراماً

الحبَّة الشَّرعيَّة من المثقال الشَّرعي = ٠,٠٦٢ غراماً

الدَّانق الشَّرعي من درهم الكيل الشَّرعي = ٠,٥٢٨ غراماً

الدِّرهم الشَّرعي لوزن النَّقد الفضَّة = ٢,٩٧٥ غراماً

الدِّرهم الشَّرعي لوزن الكيل أو الوزن المجرَّد = ٣,١٧١ غراماً

الدّينار الشَّرعي لوزن النَّقد (مثقال النَّقد) = ٤,٢٥ غراماً

الرَّطل الشَّرعي لوزن الكيل أو الوزن المجرَّد (البغدادي) = ٤٠٨ غراماً

الرَّطل الشَّرعي لوزن النَّقد الفضَّة = ١٤٢٨ غراماً

المثقال الشَّرعي لوزن الكيل أو الوزن المجرَّد = ٤,٥٣ غراماً[٣١]

وَحَداتُ الكَيْل وما يعادلها في النِّظام المتري :

الوحدة :	ما يعادلها باللتر من الماء المقطَّر في درجة ٤° مئويَّة :	ما يعادلها بالغرام من القمح[٣٢] :
الأُردُب المصري في زمن الفاروق رضي الله عنه	٦٦	٥٢١٤٠

(٣١) انظر : (كتاب الإيضاح والتّبيان في معرفة المكيال والميزان) لأبي العبّاس نجم الدّين بن الرّفعة الأنصاري ، المتوفّى ٧١٠ هـ/١٣١٠ م ، حقّقه وقدّم له الدُّكتور محمد أحمد إسماعيل الخاروف ، جامعة الملك عبد العزيز ، ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م ، الصَّفحات : ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

(٣٢) « إنّ نسبة وزن القمح من الماء ٧٩٪ تقريباً » ، المرجع السَّابق ، ص ٨٨

الأُردَب المصري (الأسيوطي) الرَّسمي	١٩٨	١٥٦٤٢٠
الجريب الفارسي العراقي في زمن الفاروق رضي الله عنه	١٣٢,٢١٣	١٠٤٤٨
الصَّاع النَّبوي (الشَّرعي) عند الحنفيَّة	٤,١٢٧	٣٢٩٦
الصَّاع النَّبوي (الشَّرعي) عند الشَّافعيَّة والحنابلة والمالكيَّة	٢,٧٥	٢١٧٥
القفيز العراقي عند فتح العراق وفارس	٣٣,٠٥٣	٢١٦١١٢
القُلَّتان الشَّرعيَّتان (بالتَّقريب)	٣٠٧	-
الْمُدُّ النَّبوي عند الحنفيَّة	١,٠٤٣	٨٢٤,٢
الْمُدُّ النَّبوي عند الشَّافعيَّة والحنابلة والمالكيَّة	١,٠٤٣	٥٤٣,٤
الْمُدُّ الشَّرعي	٢٣,٢٤٠	١٨٣٦٠

وَحَداتُ القِيَاسِ وَمَا يُعَادِلُها في النِّظامِ المتري :

الإصبع الشَّرعي	١,٩٢٥ سم (سانتيمتر) طول
الذِّراع الشَّرعي	٤٦,٢ سم طول
الذِّراع العُمَرِيَّة	٧٦,٣٧ سم طول
البريد الشَّرعي	٢٢,١٧٦ كيلومتر طُول
الجريب الشَّرعي (العمري)	١٣٦٦,٠٤١٦ متراً مربَّعاً
الخطوة الشَّرعيَّة	٤٦,٢ سم
شعرة البغل	٠,٠٥٣٤ سم
الشَّعيرة الشَّرعيَّة	٠,٣٢٠ سم
مسافةُ القَصْرِ الشَّرعيَّة = ٤ بُرُد	٨٨,٧٠٤ كيلومتر طول
الميل الشَّرعي	١٨٤٨٠٠ سم طول
الفرسخ الشَّرعي	٥٥٤٤٠٠ سم طول
القدم الشَّرعيَّة	١٥,٤ سم طول

أمَّـا المرحلـة ، ففي (اللِّســان) : المنزلـة يُرْتَحَـل منهـا ، ومــا بين المنزلتين (مرحلة) ، والمرحلة مسيرة يوم ، وتقدَّر بنحو ٩٠ كيلومتر .

☆ ☆ ☆

* دينـار من الـذَّهب ، (سوريَّـة : القرن ١٧ م)





المجتمع

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُـونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُـونَ مِنْ فَضْـلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾
[المزّمّل : ٢٠/٧٣]

تمهيد :

جعل الإسلام غـايـة وجـود الإنسـان عمران الأرض ، وعـدَّ هـذا العمران عبـادة ، فنظرته إلى الإنسان نظرة التّكريم ، ويؤيّد هذا التّكريم النّظرة الإيجابيّـة للحيـاة منـذ علّم اللهُ آدمَ ـ وبصورة مبـاشرة ـ الأسماء كلّهـا ، فـالإنسـان في المجتمع الإسـلامي مخلـوق رائع ، أُودِعَت به مواهب مدهشة ، وطاقات عظيمة ، مع تمتُّعه بحرِّيَّة الاختيار .

في هذا المجتمع ، ألغى الإسلام رابطة العصبيّة القبليّـة المفرِّقـة ، الَّتي كانت في المجتمع الجاهلي ، وأحلَّ محلَّها رابطة العقيدة : ﴿ يَا أَيُّهـا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَـاكُم مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم ﴾ ، [الحجرات : ١٣/٤٩] .

وسوَّى أبـو بكر بين النَّـاس في القسم ، فقيـل لعمر في ذلـك فقـال : لا أجعـل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه ، فكان يقدم الأقرب فـالأقرب من رسول الله ﷺ فـإذا استووا في القرابة ، قدَّم أهل السَّابقـة ، حتَّى انتهى إلى الأنصـار ، فقـالوا : بمن نبـدأ ؟ قال : ابدؤوا برهط سعد بن معاذ ثمَّ الأقرب فالأقرب إليه[1] .

وحضر بـاب عمر بن الخطّـاب رضي الله عنـه جمـاعـة ، منهم سهيـل بن عمرو ، وعُيَيْنَـة بن محصن ، والأقرع بن حـابس ، فخرج الإذن فقـال : أين صُهَيْب ؟ أين

(١) طبقات ابن سعد : ٢١٣/١ ، الطّبري : ١٦٢/٤

عَمَّـار ؟ أين سلمـان ؟ فتمعَّرت وجوه القوم ، فقـال واحـد منهم : لِمَ تتمعَّر وجـوهكم ؟ دُعوا ودُعينا ، فأسرعوا وأبطـأنـا ، ولئن حسـدتموهم على بـاب عمر ، لَمَـا أعـدَّ اللهُ لهم في الجنَّة أكثر[٢] .

بدأ التَّمييز بين المسلم العربي ، والمسلم الأعجمي أيَّام الأُمويِّين ، وعادت العصبيَّة ، وعاد معها النِّزاع القَبَلي ما بين يمنيِّين (قحطانيِّين) ، وقيسيِّين (عـدنـانيِّين) ، وأصبح المجتمع العربي أيَّام الأُمويِّين يتألَّف من :

العرب : وهم أصحاب الحكم والقيادة ، ولكنَّهم منقسمون إلى يمنيِّين وقيسيِّين .

والمـوالي : وهم المسلمـون الأعـاجم ، وجُلُّهم من الفرس ، الَّـــذين أظهر بعضهم شعوبيَّةً ، أرادوا منها المساواة حسب تعاليم الإسلام ، واتَّجه بعضهم إلى الثَّورة والسَّيف ، فتلقَّفتهم الدَّعوة العبَّاسيَّة .

والرَّقيق : ومصدره أسير الحرب معاملة بـالمِثْل ، لأنَّ الإسلام شرَّع العتق ، وحرَّم نظام الرِّق بأنواعه ، ولم يبح منه إلاَّ ما هو مبـاح اليوم في نظـام الأسرى ، وتسخيرهم في أعمال جسديَّة مع وصيَّة رسول الله ﷺ : « استوصوا بـالأسرى خيراً » ، ريثما يتحرَّروا بتبـادل الأسرى ، أو المنِّ على الأسرى من غير مقـابل ، أو بـالعتـق ، أو بـالمكاتبـة[٣] ، أو التَّدبير[٤] .

والرِّقُّ يتَّصل بالعمل الجسماني فقـط ، ولا صلـة لـه بـالعقل أو الفكر ، لـذلـك من

---

(٢) عيون الأخبار : ٨٥/١

(٣) المكاتبة : عقد بين السَّيِّد والعبد لإعادة الحرِّيَّة نظير دفعه مالاً لسيِّده ، ويرى بعض الفقهاء أن المكاتبـة واجبة ، إذا طلبها العبد ، استناداً لقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم فَكَـاتِبُـوهُم إنْ عَلِمْتُم فِيهِم خَيْراً ﴾ ، [النُّـور : ٣٣/٢٤] ، وبعـد المكاتبـة يعطى العبـد حـق التجـارة والعمل وحق التَّملُّك ، وحق العمل لنفسه .

(٤) التَّدبير : من قال له سَيِّدُه : « أنتَ دبر حياتي حرٌّ » .

آداب الإسلام ألاَّ يقال للرَّقيق عبد ، بل يكرَّم بقول (فتى) ، و « مَنْ لَطَمَ مملوكه أو ضربه فكفَّارته عتقه » .

وأهل الذِّمَّة : وهم غير المسلمين الَّذين تمتَّعوا بحرِّيَّة تامَّة ، مع حماية لأنفسهم ومعابدهم(٥) .

وفي زمن العبَّاسيِّين عاد التَّوازن بين العرب والفرس اجتماعيّاً ، ولكن ظهور الأتراك منذ أيَّام المعتصم أوجد منافساً سيطر على الخلافة والحكم .

وعرف المجتمع الأندلسي صراعاً بين قيسيَّة ويمنيَّة ، وبين عرب وبربر ، وعُرفت فيه شريحة من الإسبان الَّذين أسلموا .

☆ ☆ ☆

المرأة : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا .. ﴾ ، [الأعراف : ١٨٩/٧] .

قرَّر الإسلام المساواة بين الرَّجل والمرأة في كلِّ شيء : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ ، [البقرة : ١٨٧/٢] ، ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ، [البقرة : ٢٢٨/٢] ، وهذه الدَّرجة إمَّا درجة النُّبوَّة ، وإمَّا درجة صبره عليها إن غضبت ، وأرجح الأقوال : درجة المسؤوليَّة عن أُسرة وحمايتها والإنفاق عليها ، فالقوامة وظيفة داخل كيان الأُسرة لإدارة هذه المؤسَّسة الخطيرة . ووجود القيِّم في مؤسَّسة ما ، لا يلغي وجود حقوق الشُّركاء فيها ، والعاملين في وظائفها ، ولقد حدَّد الإسلام صفة قوامة الرَّجل ، وما يصاحبها من لطف ورعاية وصيانة وحماية ، مع تكاليف في نفسه وماله ، وآداب في سلوكه مع زوجه وعياله ، فالسِّمة المسيطرة على هذه المؤسَّسة الصَّغيرة ، هي سمة المودَّة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أن خَلَقَ

---

(٥) انظر (الإسلام في قفص الاتِّهام) : الذِّميُّون والجزية .

لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، [الرُّوم : ٢١/٣٠] ، وللمرأة حق اختيار زوجها ، فهي بذلك تختار القيِّم عليها .

ويشرِّع الإسلام تشريعاً مثاليّاً ، كما يشرِّع لمن لا يقوون على الوصول لهذه الغاية المثلى ، فالزَّوجة الواحدة هي الأصل في الإسلام ، وجعل الزَّوجة الثَّانية لأسباب ، منها : العُقْم ، والمرض المزمن ، والحروب .. **فالإسلام أباح التَّعدُّد ، ولم يأمر به ، أباحه لضرورات ، ولم يجعله فرضاً . .**

والطَّلاق أبغض الحلال إلى الله ، لأنَّ الزَّواج كما في سورة البقرة : ٢٨٢/٢ ميثاق غليظ ، فلا يقع الطَّلاق إلاَّ إذا استحالت الحياة الزَّوجيَّة بين الزَّوجَيْن ، والإيمان عاصم ، والعقيدة ملزمة لدى كلٍّ من الطَّرفَيْن ، وهي السَّبيل إلى مراعاة حدود الله ، وأحكام الشَّرع ، فلا يصحُّ الالتجاء إلى الطَّلاق لأسباب يمكن أن تتغيَّر في المستقبل .

والطَّلاق أبغض الحلال إلى الله : « تزوَّجوا ولا تطلَّقوا فإن الطَّلاق يهتزُّ له العرش » ، « لعن اللهُ كلَّ مِزواجٍ مِطْلاق » ، ولكن الإسلام يعترف بالأمر الواقع إن لم يتم الوفاق بين الزَّوْجَيْن : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ ، [البقرة : ٢٢٩/٢] ، إنَّ الطَّلاق دواء مرٌّ المذاق ، ولكن مرض الشِّقاق أكثر مرارة وقسوة ، والطَّلاق خير من الموقف الَّذي يحصل كثيراً في الغرب ، عندما تسوء العلاقة بين الزَّوج وزوجه ، ولا طريق للتَّوفيق بينهما ، فيأخذ كلٌّ منهما خديناً له ، لأنَّ الطَّلاق غير مباح لأيٍّ منهما ، ويصعب الحصول عليه ، فلتكن الخدانة الأثيمة هي الحلُّ ، وأدركت بعض الدُّول الغربيَّة خطورة الأمر ، فيسَّرت الحصول على الطَّلاق ، وكانت آخر هذه الدُّول إيطالية ، حيث أباحته عام ١٩٧١ م ، وما إن أُقِرَّ حتَّى قُدِّم إلى المحاكم أكثر من مليون طلب طلاق ، وعلينا أن نتصوَّر حياة مليون أُسرة كانت تعيش حياة الشَّقاء والنَّكد داخل البيت ، يفرُّ منها الزَّوجان إلى العلاقات غير الشَّرعيَّة ليقوم

بذلك نظام غير شرعي هو نظام الخليلات ، وهو ما تعاني منه المجتمعات الأُوربيَّة(٦) .

وأعطى الإسلام المرأة نصيباً من الإرث ، مع أنَّها معفاة من الإنفاق منه قبل الزَّواج وبعده .

ويكفي المرأة فخراً أنَّ أوَّل قلب خفق بالإسلام ، وتألَّق بنوره ، قلب امرأة ، إنَّه قلب خديجة بنت خويلد ، فهيَّأت للإسلام الكثير من أسباب نجاحه ، وأوَّل شهداء الإسلام امرأة ، إنَّها سُمَيَّة بنت خبَّاط (أُمُّ عمَّار بن ياسر) ، ودور أسماء بنت أبي بكر (ذات النِّطاقَيْن) يذكر لها في الهجرة ، وأحبطت صفيَّة بنت عبد المطَّلب في غزوة الخندق تسلُّلاً واستطلاعاً يهوديّاً ، وفي خيبر ، أُمُّ سليم ، وأُمُّ عطيَّة الأنصاريَّة سارتا مع نساء أُخريات ، وقالوا لرسول الله ﷺ : « نُعين المسلمين ما استطعنا ، نناول السِّهام ، ونسقي السَّويق(٧) ، ونداوي الجرحى ، ونغزل الشَّعر ، ونعين في سبيل الله » ، وفي حُنَيْن سهلة بنت مِلْحان الَّتي تزوَّجت أبا طلحة (زيد بن سهيل) بمهر هو إسلامه ، حملت خنجراً دون رسول الله ﷺ ، وجعلت ابنها أنساً خادماً لرسول الله ﷺ ، وبرز اسم خولة بنت الأزور في اليرموك ، وفي القادسيَّة موقف الخنساء لا يُنسى .

---

(٦) نشرت الأُسبوع العربي ، العدد ٦٨١ ، ص ٦٥ : « بدأت صناعة التَّهنئة المختلفة ، تتَّجه إلى قضايا الطَّلاق ، بِعَدِّها أمراً واقعاً ، فظهرت في بعض أسواق الدُّول الغربيَّة بطاقات مخصَّصة للأشخاص الَّذين أنهوا علاقاتهم الزَّوجيَّة ، وللأشخاص الَّذين يودُّون تهنئتهم بذلك ، فقد حوت بعض البطاقات عبارات مثل : « تهانينا لطلاقكم » ، « نحسدكم على حرِّيَّتكم » ، « وما أجمل ما صنعتم .. حظّاً سعيداً » ، كما أنَّ في الأسواق أيضاً بطاقات مزدوجة متوَّجة بكلمة (انقسام) ، وهي خاصَّة بالأزواج المطلَّقين ، بحيث يكتب الزَّوج المطلق إسمه وعنوانه ورقم هاتفه على جهة ، وتكتب الزَّوجة المطلَّقة كل ذلك على الجهة الأُخرى ، والسُّوق الأمريكيَّة هي الَّتي يجري فيها حاليّاً تصريف بطاقات الطَّلاق أكثر من الأسواق الأُخرى ، إذ إن معدَّل الطَّلاق في أمريكة قد ارتفع ٣٣ في المئة خلال الأعوام العشرة الماضية » .

(٧) السَّويق : طعام يتَّخذ من الحنطة والشَّعير ، [اللِّسان : سوق] .

مكانة العمل في المجتمع الإسلامي :

﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ مِنْ فَضْلِ اللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ ﴾ ، [المزّمّل : ٢٠/٧٣] .

احترم الإسلام العمل ، والمسلم يعلم أنَّ نبيَّ الله داود كان حدّاداً ، وإدريس كان خيَّاطاً ، وزكريا كان نجَّاراً ، وموسى رعى الغنم ، لقد قال رسول الله ﷺ : « من أمسى كالاًّ من عمل يده أمسى مغفوراً له » ، فَعَمِل الصَّحابة ، فكان أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه تاجر قماش ، وسقى علي رضي الله عنه بالدِّلاء ، وكان الزُّبير بن العوَّام خيَّاطاً ، وسعد بن أبي وقَّاص كان يبري النَّبل ، وعمرو بن العاص كان جزّاراً .

وأُطلق على وُلاة الأمصار لقب (عامل) ، ودخل بعض الصَّحابة على معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة ، فحيُّوه بقولهم : السَّلام عليك أيُّها الأجير .

وقدَّم الإسلام مفهوم الأجر بأُسلوب يسمو عن مجرَّد النَّظرة المادِّيَّة ، عندما ربطه بالعقيدة والخير والثَّواب ، فجعل الأجر أجْرَيْن ، أجراً في الآخرة عن العمل الصَّالح ، بالإضافة إلى الأجر المادّي الدُّنيوي : « إنَّ الله يحبُّ إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

وكما حضَّ الإسلام على العمل ، حارب البطالة : « إنَّ السَّماء لا تمطر ذهباً ولا فِضَّة » ، ولقد شملت المساواة في الإسلام الأصل الإنساني ، فلا فضل في عنصر أو لون ، وشملت الإنسان تجاه أحكام الشَّريعة ، وفي التَّكاليف كلِّها ، الحقوق والواجبات ، أمَّا في السَّعي والعمل فالجزاء على قدر الجهد الذَّاتي ، والمساواة هنا في الإنتاج والجهد والعمل غير عادلة ، ومن هنا جاء التَّفاوت في ثمرات السَّعي والرِّزق : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ ، [الأحقاف : ١٩/٤٦] ، وعندما أثنى بعضُ الصَّحابة على رجل منقطع إلى العبادة ، قال ﷺ : « فَمَنْ كان يكفيه علف بعيره ، وإصلاح طعامه ؟ » ، قالوا : كُلُّنا ، فقال ﷺ : « كُلُّكم خير منه »[(٨)] .

---

(٨) فالعمل واجب على قدر طاقة الإنسان ، لا على قدر حاجته ، فلو عمل كلٌّ على قدر حاجته ، فمن لمن =

وتحريم الرّبا تاكيد على انّ الجزاء على قدر الجهد الذّاتي ، وأنّ المال في نظر الإسلام لا يلد المال ، وفيه استغلال أصحاب رؤوس الأموال لجهد العاملين ، سواء أصابوا ربحاً أم أُصيبوا بخسارة ، فالعمل هو أساس الكسب وتوزيع الثّروة : ﴿ وَلاَ تُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ، [يس :٣٦/٥٤] .

المرأة والعمل : ليس من معنى الحجاب احتباس المرأة في البيت والحيلولة بينها وبين العمل ، فمفهوم الحجاب الاحتشام والعفّة ، مع ستر مواضع الفتنة ، وتجنُّب التّبرُّج ومواطن الرّيبة[(٩)] ، واستقلال المرأة في مالها يستلزم حرّيّة العمل ، على ألاّ تستهين بأقدس أمانة في عنقها ، ألا وهي : (الأُسرة : زوجاً وأولاداً) .

والمرأة آثمة إذا تسبّبت في تخلُّف مجتمعها ، وفي وسعها النُّهوض به ، على أن يكون عملها في جوٍّ نقيٍّ طاهر ، ففي الإسلام : « إنّما النّساء شقائق الرّجال » ، [الإمام أحمد ، والتّرمذي ، وأبو داود] ، وفي القرآن الكريم وردت كلمة رجل مفردة ٢٤ مَرَّة ، ووردت كلمة امرأة مفردة ٢٤ مرّة أيضاً ، قمّة المساواة .

وحديث : « يا معشر النّساء ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبِّ الرَّجل الحازم من إحداكُنَّ » ، [متّفق عليه] ، قيل يوم عيد ، فلا يعقل من رسول الله صاحب الخُلُق العظيم أن ينقص من شأن النّساء ، أو يحطَّ من كرامتهنَّ في مناسبة

= لا يستطيع العمل لعلّة ؟ وأين نظرة التّكافل الاجتماعي .

(٩) في عالم التّجميل عند المرأة ، ولكلّ المناسبات ، وفي جميع الأوقات ، يُنْصَح بما يلي : « لكي تكوني أكثر جمالاً وجاذبيّة ، أنصحك بالآتي : اجعلي غضّ البصر كحل عينيك تزدادا صفاءً وبريقاً ، ضعي لمسات من الصّدق على شفتيك تصبحا أكثر جمالاً ، أمّا أحمر الخدود فاستعمليه من صنف الحياء الّذي يُباع في مركز الإيمان ، واستخدمي صابون الاستغفار لإزالة أي ذنوب أو خطايا تشتكين منها .
أمّا شعرك فاحميه من التّقصّف بالحجاب الإسلامي الّذي يحفظه من نظرات الأجانب المحرقة ، أمّا الحلي ، فأنصحك بأن تضعي في أذنيك حلق الأدب ، وزيّني يديك بسوار التّواضع ، وأُصبعك بخاتم التّسامح ، وقلادة العفّة خير ما تطوّقين به عنقك ، وهذا الحلي الجميل لا يوجد إلاّ في تجارة الإسلام الرّابحة ، فاغتنمي الفرصة ، وبادري في الشّراء » .

بهيجة ، فليست صيغة الحديث صيغة تقرير ، ولا قاعدة عـامّـة أو حكماً عـامّـاً ، إنَّهـا صيغة تعجُّب من التَّنـاقض القـائم في ظـاهرة النِّسـاء الأنصـاريّـات ، اللَّواتي فيهنَّ رقّـة ونعومة ، وعلى الرَّغم من ذلك كلمتهن هي العليا عند الرِّجال ذوي الحزم ، أي كلٌّ مـا في الأمر التَّعجُّب من حكمة الله ، كيف وضع القوّة حيث مظنّـة الضَّعف ، وأخرج الضَّعف من مظنَّة القوّة[١٠] .

والمرأة في الإسلام (المُحْصَنَةُ) ، منارة العفَّة والفضيلة ، فتح أمامها مجال التَّعليم ، وأسبغ عليها مكاناً اجتماعيّاً كريماً في مختلف مراحل حياتها ، تنمو الكرامة بنموّ سِنّها ، من طفلة إلى زوجة إلى أمٍّ ، حيث تكون في سِنِّ الشَّيخوخة الَّتي تحتاجُ معهـا إلى مزيـد من الحبِّ والحنوّ والإكرام .

المرأة نصف المجتمع ، وترعى نصفـه الآخر بحكم موقعهـا المـؤثر في زوجهـا وأولادهـا ومحيطها .

« قضيَّة المرأة هي قضيَّة كلِّ أبٍ ، وكلِّ ابن ، وما دام في الدُّنيا آبـاء وأبنـاء ، ففي الـدُّنيـا احترامٌ عميـق لكرامـة النِّسـاء ، والَّـذين لا يفرّقـون بين الكرامـة والابتزاز ، هم غارقون في الأوهـام والأوحـال »[١١] ، انطلاقتهـا في الحيـاة لا شـك فيهـا ، ولكن دون مجالٍ لاستغلال أُنوثتها بما يرهقها ، ويؤدّي إلى شقـائهـا ، رجـاء ألا تقع فيما وقعتِ فيـه أُختها في الغرب بما ضجَّ منه عقلاء القوم ومفكروهم الأحرار .

الغِناءُ والموسِيقَى :

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينـة المنوَّرة ، لبس النَّـاس أحسن ملابسهم ، كأنَّهم في يوم عيـد ، ولمـا وصـل ﷺ ظـاهر المـدينـة ، صـاح النَّـاس رجـالهم ونسـاؤهم جـاء

(١٠) تحرير المرأة في عصر الرِّسالة ، عبد الحليم أبو شقَّة ، دار القلم ـ الكويت .

(١١) المرأة بين الفقه والقانون ، ص : ٣

رسول الله ، **وجعل الإماء والجواري ينشدن ويغنين ويضربن بالدُّفوف** ، والحبشة تلعب بحرابها فرحاً بقدومه ﷺ ، وفي الصَّحيحين ، وجعلت النِّساء والصِّبيان والولائد ينشدن :

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا   مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاع
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا   مَا دَعَا للهِ دَاع
أيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا   جِئْتَ بِالأمرِ المُطَاع
جِئْتَ شَرَّفتَ المَدِينَة   مَرْحَباً يَا خَيْرَ دَاع

ودخل ﷺ المدينة ، والمسلمون يحيطون به مشاة وركباناً ، وقد تقلَّدوا سيوفهم ، وتحلَّوا بأحسن ملابسهم ، وعلا وجوههم الزُّهو والبشر والابتهاج بمقدمه ﷺ ، واعترضته القبائل لينزل عندها ، وقد أخذت بزمام النَّاقة ، فقال ﷺ : « خَلُّوا سبيلها ، فإنَّها مأمورة » ، فخلُّوا سبيلها ، فانطلقت ، حتَّى إذا حلَّت ديار بني عدي بن النَّجَّار ، **فإذا بجوارٍ يضربن بِدُفِّهِنَّ ويتغنين ويقلن :**

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ   يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ

فقال رسول الله ﷺ : « اللهُ يعلم إنِّي لأُحبُّكُنَّ »[(١٢)] .

ولَمَّا تقرَّرت صيغة الأذان ، أمر ﷺ أن يتعلَّمه بلال ، **لأنَّه كان ندي الصَّوت[(١٣)]** .

وكان ﷺ يكره نكاح السِّر حتَّى يُضْرَب بدُفٍّ[(١٤)] .

وعن عائشة قالت : دخل عليَّ أبو بكر ، وعندي جاريتان **من جواري الأنصار**

(١٢) انظر « الوفا بأحوال المصطفى » ٢٥٢/١ ، وابن ماجه ، الحديث ١٨٩٩

(١٣) عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لكلِّ شيء حلية ، وحلية القرآن الصَّوت الحسن » .

(١٤) انظر « مجمع الزَّوائد ومنبع الفوائد » للحافظ نور الدِّين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧ هـ) ، المجلَّد الثَّاني ، دار الكتاب العربي ، ط٢ ، سنة ١٩٦٧ م .

تغنيان بما تقاولت به الأنصار في يوم بُعَاثٍ[١٥] ، قالت : وليستا بمغنيتين ـ أي محترفتين ـ فقال أبو بكر : أبمزمور الشَّيطان في بيت النَّبي ﷺ ؟ وذلك في يوم عيد الفطر ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « يا أبا بكر ، إنَّ لكلِّ قومٍ عيداً ، وهذا عيدنا »[١٦] .

وعن ابن عبَّاس ، قال : أنكحت عائشةُ ذات قرابة لها من الأنصار ، فجاء رسول الله ﷺ ، فقال : « أهديتُمُ الفتاة ؟ » ، قالوا : نعم ، قال : « أرسلتم معها من يُغنِّي ؟ » ، قالت : لا ، فقال رسول الله ﷺ : « فهلاً بعثتم معها من يُغَنِّيهم ، يقول :

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ　　فَحَيُّونا نَحَيِّيكُمْ
وَلَوْلا الذَّهَبُ الأحْمـ　　ـر مَا حَلَّت بِوَادِيكُمْ
ولَوْلاَ الحِنْطَةُ السَّمْرا　　ءُ مَا سمنت عَذاريكُمْ

فإنَّ الأنصار قوم فيهم غزل »[١٧] .

« والحِداءُ » أيَّام رسول الله ﷺ كان معروفاً ، ففي الطَّريق إلى غزوة خيبر[١٨] ، قال ﷺ لعامر بن الأكوع : « انزل فحدِّثنا من هناتك[١٩] ، انزل فحرِّك بنا الرِّكاب » ، فقال : يا رسول الله قد تولَّى قولي الشِّعر ، فقال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه : اسمع وأطِع ، فنزل عامر يرتجز :

---

(١٥) يوم بُعَاث : يوم من أيَّام العرب ، كان فيه حرب بين الأوس والخزرج في الجاهليَّة ، وبُعاث : اسم حصن للأوس ، (اللِّسان : بعث) .

(١٦) ابن ماجه ، الحديث ١٨٩٨

(١٧) ابن ماجه وابن حنبل والبيهقي والبخاري والحاكم ، والبيتان الثَّاني والثَّالث في الطَّبراني في الأوسط .

(١٨) غزوة خيبر : المحرَّم ٧ هـ ، آب (أُغسطس) ٦٢٨ م .

(١٩) هناتك : جمع هنة ، كناية عن كلِّ شيء لا تعرف اسمه ، أو تعرفه ، فتكنِّي عنه ، وأصل الهنة : هنهة وهنوة ، قال الشَّاعر : « على هنوات شأنها متتابع » ، وفي البخاري : « ألا تنزل فتسمعنا من هُنَيْهاتِك » مصغَّرة بالهاء ، وإنَّما أراد ﷺ أن يحدوَ بهم من أراجيزه وشعره ، فالإبل تستحث بالحداء .

وَاللهِ لـولا الله مـا اهتَـدَيْنـا وَلاَ تَصَـدَّقنـا وَلاَ صَلَّيْنـا
إنَّـا إذا قَـوْمٌ بغـوا عَلَيْنـا وَإنْ أرادُوا فِتْنَـةً أبَيْنَـا
فَـأنـزِلَنْ سَكِينَـةً عَلَيْنـا وَثَبِّتِ الأقـدامَ إنْ لاقَيْنـا
فـاغفِرْ فـداءً لَـكَ مـا اقتَفَينـا[21] وَألقِيَنْ سَكِينَـةً عَلَيْنـا
إنَّـا إذا صِيـحَ بِنَـا أبَيْنَـا وَبِـالصِّيـاحِ عَـوَّلُـوا عَلَيْنـا[22]

فقال له رسول الله ﷺ عند إنشاده هذه الأبيات : « يرحمك الله »[23] ، « يرحمك ربُّك »[24] .

وفي عمرة القضاء ، دخل ﷺ مكَّة المكرَّمة ، وعبد الله بن رواحة آخذ بخطام ناقته ، وهو يقول :

بِـاَسْمِ الَّـذي لا دينَ إلاَّ دِينُـه بِـاَسْمِ الَّـذي مُحَمَّـدٌ رَسُـولُـه
خَلُّوا بَنِي الكُفَّارِ عَنْ سَبيلِهِ[25]

وكان العبَّاس رضي الله عنه يداعب ابنه (قُثَم)[26] وهو يقول منشداً :

حِـبِّي قُـثَمْ شِبْـهُ ذي الأنْفِ الأشَمّ
بَـنِي ذي النِّـعَمْ بِرَغْـمِ مَنْ زَعَـمْ[27]

---

(٢٠) في السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ٢٤٦/٢ : « لاَهُمَّ لولا أنتَ ما اهتدينا » .
(٢١) أي فاغفر ما اكتسبنا ، وأصل الاقتفاء الاتِّباع .
(٢٢) الأبيات مجموعة من عدَّة مصادر : الاكتفاء ١٣٢/١/أ ، السِّيرة الحلبيَّة ٣٧/٣ ، طبقات ابن سعد ١١١/٢ ، الرَّوض الأُنُف ٥٦/٤ و ٥٧ ، ابن هشام ٢١١/٣ ، البداية والنِّهاية ١٨٢/٤ ، عيون الأثر ١٣٠/٢
(٢٣) الاكتفاء ١٣٣/١/أ
(٢٤) السِّيرة الحلبيَّة ٣٧/٣ ، البداية والنِّهاية ١٨٢/٤
(٢٥) السِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ٤٣٢/٣
(٢٦) رجل « قُثَمْ » : إذا كان معطاء ، (اللِّسان : قثم) .
(٢٧) البداية والنِّهاية ٢١٦/٤ ، والسِّيرة النَّبويَّة لابن كثير ٤٠٩/٣ ، (هكذا ورد النَّصُّ) .

وجاء قوم إلى عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ، فقالوا له : إنَّ إماماً يصلِّي بنا العصر ، ثمَّ يغنِّي بعد ذلك ، فقام معهم ، واستنشده الأبيات الَّتي يغنِّيها ، فإذا هي الأبيات التَّالية :

وفؤادي كُلَّما عَاتَبْتُهُ عَادَ فِي اللَّذَّاتِ يَبْغِي تَعَبِي
لاأراهُ الدَّهرَ إلاَّ لاَهِياً في تماديه فقد بَرَّحَ بي
ياقَرِينَ السُّوءِ ما هذا الصِّبا فَنِيَ العمرُ كذا في اللَّعِبِ
وشبابٌ بانَ منِّي فمضى قبلَ أن أُدركَ مِنْهُ أرَبِي
نفسيَ لا كُنْتِ وَلاَ كَانَ الهوى اتَّقِي اللهَ وَخَافِي وَارْهَبِي

فجعل عمر يردِّد البيتَ الأخير :

نفسي لا كُنتِ ولا كانَ الهوى اتَّقي اللهَ وَخَافِي وَارْهَبِي

وصار يبكي ، ثمَّ قال : مَنْ كان منكم مغنِّياً ، فليغَنِّ هكذا .

فالإنشاد والغناء ـ وبلحن جميل محبَّب ـ لأبيات تحمل معانيَ فاضلة سامية ، أمرٌ مباح[٢٨] ، ولم يقف الإسلام في وجه كلِّ غناء ، بل وقف في وجه المعاني السَّاقطة الماجنة ، وهي خطيرة جدّاً في حياة كلِّ الأُمَّم والشُّعوب ، ولعظيم خطر الأُغنية ،

(٢٨) انظر : إيضاح الدَّلالات في سماع الآلات ، تأليف الشَّيخ عبد الغني النَّابلسي ، تحقيق الأستاذ أحمد راتب حمُّوش ، طبع دار الفكر بدمشق عام ١٩٨١ م .
« واعلم أنَّ سماع الألحان بالأشعار الطَّيِّبة والنَّغَم المستلذَّة ، إذا لم يعتقد المستمع محظوراً ، ولم يسمع على مذموم في الشَّرع ، ولم ينخرط في زمام هواه مباح في الجملة ، ولا خلاف أنَّ الأشعار أُنشدت بين يدي رسول الله ﷺ ، وأنَّه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها ، فإذا جاز سماعها بغير الألحان الطَّيِّبة ، فلا يتغيَّر الحكم بأن تسمع بالألحان .. » ص ١٠٢ ، « وكل من ورد عنهم السَّماع من الصَّحابة والتَّابعين والعلماء العاملين رضي الله عنهم ، مقاصدهم في ذلك حسنة ، ونيَّاتهم صحيحة ، ومن أنكر السَّماع من المتقدِّمين ، ومن المتأخِّرين إنَّما مرادهم القسم الفاسد من ذلك .. » ص : ١٤٠

وعميق أثرها في المجتمع ، يقول دانيل أوكنل : « **دَعُوني أكتب أغانيَ الأُمّةِ ، وَلستُ أُبالي بعدَ ذلكَ مَنْ يَسِنُّ شَرَائِعَها** »[(٢٩)] .

ولمّا انتشر شعراء الغزل في **العصر الأُموي** ، أمثال : عمر بن أبي ربيعة ، وكثير عزَّة ، وجميل بثينة ، تغنَّى كثير من النَّاس بأشعارهم . وكان الخلفاء الأُول في هذا العصر ، يستمعون في أوقات فراغهم لقصائد الشُّعراء ، ولم يلبث الغناء أن حلَّ محلَّ الشِّعر . فكان الخلفاء لا يظهرون للنُّدماء ، بل كان بينهم حجاب ، حتّى لا يطَّلع النُّدماء على ما يفعله الخليفةُ إذا طرب ، فقد تأخذ نشوةُ الطَّرب بِلُبِّه ، فيقوم بحركات لا يطَّلع عليها ، إلاَّ خواص جواريه ، وإذا ارتفع من خلف السِّتارة صوت ، أو حركة غريبة ، صاح صاحب السِّتارة : « حسبك ياجارية ! كفى ! انتهى ! أقصري ! » ، موهماً النُّدماء أنَّ الفاعل لتلك الحركات هو بعض الجواري[(٣٠)] .

ويذكر الجاحظ أن بعض خلفاء بني أُميَّة ، ظهروا للنُّدماء والمغنين ، ولم يحفلوا بإتيان حركات تثيرها نشوة الطَّرب في نفوسهم .

وفي عهد الوليد الثَّاني كلف النَّاس بالموسيقى والغناء ، وأسرفوا في ذلك . وكان للقيان أثر ملحوظ في تقدُّم الغناء ، وكانوا من غير العرب .

ومن أشهر المغنين في هذا العصر (طُوَيْس) ، وأبو مروان الغَريض . ومن آلات الطَّرب : الصَّنج ، وبه يُسَمَّى أعشى قيس « صنَّاجة العرب » ، لجودة شعره ، والطُّنبور ، والدَّريج وله أوتار كالطُّنبور ، والمزمار .

أمَّا العصر العبَّاسي ، فقد وردت أخبار غنائه ومغنِّيه في كتاب « الأغاني » لصاحبه أبي الفرج الأصفهاني ، والأصفهاني متَّهم في أمانته الأدبيَّة والتَّاريخيَّة . جاء في

---

(٢٩) قصَّة الحضارة ٦٢/٤

(٣٠) تاريخ الإسلام ٥٣٣/١

« ميزان الاعتدال في نقد الرِّجال » للدهبي ١١٢/٣ : « إنَّ الأصفهاني في كتابه الأغاني كان يأتي بالأعاجيب بحدَّثنا وأخبرنا » . وجاء في « لسان الميزان » بشأنه : يأتي بأعاجيب بحدَّثنا وأخبرنا . فمن يقرأ الأغاني يَرَ حياة العبَّاسيِّين[٣١] حياة لهو ومجون وغناء كلّها ، وهذا يناسب المؤلِّف وخياله وحياته ومن حوله ، فنشك بصحَّة ما كُتِبَ في هذا الموضوع اعتماداً على الأغاني فقط .

وما سبق لا يعني مطلقاً أنه لم يكن غناء وموسيقى في الدَّولة العبَّاسيَّة ، بل كان ، ولكن ليس بالحجم الَّذي صوَّره الأصفهاني .

ولا يعني مطلقاً أنَّه لم يكن هناك مجون وحانات ، بل كان ، ولكن ليس بالصُّورة الَّتي صوَّرها الأصفهاني .

فالرَّشيد كانت مجالسه فيها سمر وأشعار تنشد ، ولكن في مستوى رفيع ، ومعانٍ فاضلة ، كقول ابن السِّمَاك ، عندما دخل على الرَّشيد وبين يديه حمامة تلتقط حبّاً ، فقال له : صِفها وأوجز ، فقال : كأنَّما المنظر من ياقوتتين ، وتلتقط بدرتين ، وتطأ على عقيقتين ، وأنشدونا لبعضهم :

هتفت هاتفة آ ... ذَنَها إلْفٌ ببين
ذاتُ طَوْقٍ مثل عَطْف الْنُّـ ... ـون أقنى الطَّرفين
وتراها ناظرة ... نحوك من ياقوتتين
ترجع الأنفاس من ثقـ ... ـبين كاللؤلؤتين
وترى مثل البساتيـ ... ـن لها قادمتين
ولها لحيان كالصَّد ... غين من عرعرتين
ولها ساقان حمرا ... وانِ مثل الوردتين

(٣١) وخصوصاً عصر القوَّة في الدَّولة العبَّاسيَّة ، الَّذي بدأه أبو العبَّاس السَّفَّاح [١٣٢ هـ - ١٣٦ هـ] ، وانتهى بوفاة المتوكِّل بن المعتصم ٢٥٢ هـ .

نسجت فـوق جنـــاحيـ ـهـــا لهـــا برنـــوستين
وهي طـــاووسيَّـــة اللَّـــو ن بنـــــــــان المنكبين
تحت ظـلٍّ من ظـلال الـ أيْـــكِ صـــافي الكتفين
فَقَـدَتْ إلفـاً فنـــاحت من تبــــاريــــحٍ وبين
فهي تبكيـــه بـــلا دمـ ـــعٍ جمــــود المقلتين
وهي لا تصبــغ عينـــا هـــا كما تصبـغ عَيْنَي[٣٢]

وغنّى للرَّشيد مسكين المدني ، الَّذي يعرف بأبي صدقة :

قفْ بـالمنـازِل سـاعـةً فتـأمَّـلِ فلســوفَ أُحمـــل للبلى في محمـــلِ

وكان ابن أبي مريم هو الَّذي ينادم الرَّشيد ويضحكه ، وكان عنده فضيلة بـأخبـار الحجاز وغيرها ، وكان الرَّشيد قد أنزله في قصره ، نبَّهه الرَّشيـد يومـاً إلى صلاة الصُّبح ، فقام فتوضّأ ، ثمَّ أدرك الرَّشيد وهو يقرأ : ﴿ وَمَالِيَ لاَأَعْبُدُ الَّـذِي فَطَرَنِي ﴾ ، فقـال ابن أبي مريم : لا أدري والله ، فضحك الرَّشيـد ، وقطع الصَّلاة ، ثمَّ أقبل عليـه وقـال : ويحك اجتنب الصَّلاةَ والقرآنَ وقل فيما عدا ذلك[٣٣] ، ومَنْ هذه شروطه مع نديمه ، لن نجد في كتب التَّاريخ الصَّحيحة عن مجالسه مجوناً ، كما أعتقد[٣٤] .

وغنَّى إبراهيم الموصلي للرَّشيد ولأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم من بعـده ، وأجـاد ابنـه إسحـاق بن إبراهيم الموصلي في وضع الألحـان ، وكتب رسـالـةً مطوَّلـةً في الغنـاء ، صحَّح فيها أنغامه وطرائقه ، واحتفظ بالغناء القديم ، وخـالف بـذلـك أبـاه ومن ذهب مذهبه في تغييرات أصوات المتقدّمين .

---

(٣٢) مروج الذَّهب ٣٥٩/٣

(٣٣) البداية والنِّهاية ٢١٤/١٠ . وانظر : هـارون الرَّشيـد أمير الخلفـاء وأجلُّ ملوك الـدُّنيـا ، طبع دار الفكر بدمشق .

(٣٤) تاريخ الإسلام ٣٩٩/٢

وكان الخليفة الواثق يتقن الغناء إتقاناً لم يسبق إليه خليفة ولا ابن خليفة ، وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة(٣٥) ، يقول السُّيوطي : « وكان الواثق أعلم الخلفاء بالغناء ، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت ، وكان حاذقاً بضرب العود ، ورواية الأشعار والأخبار »(٣٦) .

أمّا في الأندلس ، فقد أولع أمويُّو الأندلس بالغناء والموسيقى ، وأجزلوا العطاءَ للمغنِّين والموسيقيِّين ، ففي عهد عبد الرَّحمن بن هشام : [٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ] وفد على الأندلس أبو الحسن علي بن رافع الملقَّب بزرياب(٣٧) ، تلميذ إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، الَّذي قدم من بغداد إلى بلاط زيادة الله الأغلبي ، أمير القيروان ، ثمَّ تاقت نفسه إلى الأندلس ، فلمَّا سمعه عبد الرَّحمن بن هشام قدَّمه على جميع المغنِّين(٣٨) .

زاد زرياب على العود وتراً خاصّاً ، واتَّخذ مضرب العود من قوادم النَّسر بدل الخشب ، وإليه يرجع تعليم الجواري الغناء في عصره ، علَّمهنَّ الغناء والعزف على العود ، ومن هؤلاء : غزلان وهنيدة ومنفعة ، وأثَّر في أذواق النَّاس ، في لباسهم ، وطعامهم ، وآداب المائدة وتنظيمها ، « فكانوا يبدؤون بالحساء ، ثمَّ يقدِّمون اللُّحوم والطُّيور ، وينتهون بالحلوى ، كما أخذوا عنه تفضيل الأكواب الزُّجاجيَّة الرَّفيعة على أكواب الذَّهب والفضَّة ، وابتكر أسمطة الطَّعام من الجلد الرَّقيق بدل الكتَّان ، واتَّخذ أمراء الأندلس وخلفاؤها وخواصهم زرياب قدوة فيما سنَّه لهم من آداب المائدة واستحسنه من الأطعمة الَّتي نسبت إليه(٣٩) .

---

(٣٥) و (٣٦) تاريخ الخلفاء : ٣٤٢ و٣٤٣

(٣٧) أُطلق عليه هذا اللَّقب لسواد لون بشرته ، وفصاحة لسانه ، تشبيهاً له بطائر أسود الرِّيش ، حسن الصَّوت . يقول ليڤي بروفنسال : أثبت أنه مجدد عبقري ، فقد أوجد معهداً موسيقيّاً عالياً ، حيث طُوِّرت الموسيقى الأندلسية » ، [الحضارة العربيَّة في إسبانية ، ط باريس ١٩٤٨ م] .

(٣٨) نفح الطِّيب ٧٥٣/٢ و ٧٥٤

(٣٩) تاريخ الإسلام ٤١٣/٢ عن نفح الطِّيب ٧٥١/٢ و ٧٥٢ ، بروفنسال : الشَّرق الإسلامي والحضارة العربيَّة ـ الأندلسيَّة ، ص ٣٠ـ٣٤

ولم تلقَ الموسيقى إقبال النّاس في العصر العبّاسي الثّاني ، ولعلّ سبب ذلك مناهضة فقهاء الحنابلة لأسباب اللّهو ، واللّعب عامّة ، ومن بينها الموسيقى .

ولّما كثر روّاد الحانات في العصر العبّاسي المتأخّر ، قام بعض الصّالحين في وجه هذا التّيّار ، ويذكر ابن الأثير أنّ شخصاً أتلف آلة الغناء الّتي تستعملها إحدى المغنّيات ، كانت تصطحب جنديّاً من السّلاجقة الأتراك[٤٠] ، وذكر أنّ الخليفة المقتدي بأمر الله : [٤٦٧ ـ ٤٨٧ هـ] ، أمر بنفي المغنّيات والمفسدات من النّساء ، وخرّب أبراج الْحَمَام ، ومنع اللّعب بها ، صيانة لِحُرَم النّاس .

وفي خطط المقريزي ٢٨٧/٢ ، أنّ الخليفة الحاكم الفاطمي ، أصدر بين سنتي [٣٩٨ ـ ٤٠١ هـ] ، قوانين تحرّم اجتماعات اللّهو والطّرب على شواطئ خليج القاهرة ، وتلاها بقوانين منع بموجبها سماع الموسيقى ، والاستمتاع بالألعاب ، ومنع آخرين من سماع المغنّيات .

☆ ☆ ☆



(٤٠) الكامل في التّاريخ ٣٨/١٠

اللّهو واللّعب :

الحيـاة زمن يمضي ، ولا يقبل الإسلامُ أن يمضي زمن في حيـاة معتنقيـه غير مُنْتِجٍ نافع ، لا يقـدّم خيراً في حيـاة الفرد أو المجتمع ، لـذلـك قـال عزَّ وجلَّ : ﴿ لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْ مَعْرُوفٍ أو إصلاحٍ بَيْنَ النَّـاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِـكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نؤتِيهِ أجْراً عَظِيماً ﴾ ، [النِّساء : ٤/١١٤] .

وهـذا لا يعني ألاَّ يلهو المسلم ، ويلعب ، فرسول الله ﷺ يقول : « الْهُـوا والعبـوا فـإنِّي أكره أن أرى في دينكم غلظـةً »[٤٨] ، فترويـح النُّفـوس إذا سئمت ضرورة : « إنَّ لجسـدك عليـك حقّـاً » ، وجـلاؤهـا إذا ملَّت بـاللَّهـو واللَّعب المبـاح : ﴿ فَـإذا فَرَغْـتَ فَٱنْصَبْ ☆ وَإلَى رَبِّكَ فَٱرْغَبْ ﴾ ، [االشَّرح : ٩٤/٧و٨] .

يقول ﷺ : « خير لهو المؤمن السِّبـاحـة ، وخير لهو المرأة الغَزْل » ، كما حضَّ ﷺ على تربية الفَرَس والاعتناء بها أوقات الفراغ .

واللَّهو المحرَّم ، هو كلُّ لهوٍ اقترن بالفجور والفسوق وترك الفرائض والواجبات .

وهكذا .. أحلَّ الإسلام ضروب التَّسلية البريئة والمفيـدة كالصَّيـد وسبـاق الخيل ، لذلك كلف بعض الخلفاء الأُمويِّين بالصَّيـد ، لأنَّـه تمرين على الرَّكض والكرِّ والرَّمي .. والفروسيَّة عموماً ، واختيار الخيول واختبـارهـا ، ولـذلـك كان سبـاقُ الخيل أهمَّ تسليـة للشَّعب في كلِّ العهـود الإسـلاميَّـة ، تستهـوي نفـوس الشَّبـاب ، حيث تظهر مهـاراتهم وفروسيَّتهم وإمكانـاتهم ، حتّى أصبحت حلبـات السِّبـاق وامتطـاء الغلمـان والعسكر صهوات الجياد ـ وهم كُثُر ـ بالعُدَد الكاملة ، والأسلحة التَّـامَّـة ، ومـا يرافق ذلـك من إقامة معالم الزينة ، كل أولئك كان بمثابة أعياد فيها الفرحة والبهجة .

---

(٤٨) رواه البيهقي وابن حجر الهيتمي في : كفِّ الرَّعاع .

ويقال إنَّ هشام بن عبد الملك كان أوَّل من أقام حلبات السِّباق ، وكانت الأميرات يتدرَّبن على ركوب الخيل ، ويشتركن في السِّباق[٤٩] .

ومن أنواع التَّسلية « الكرة » ، وكانوا يتدافعونها في الهواء بالعصيِّ ، والقُلة والمقلاة وهما عودان يلعب بهما الصِّبيان[٥٠] .

أمَّا في **العصر العبَّاسي الأوَّل** ، فقد قضى النَّاس بعض أوقات فراغهم في سماع الحكايات الهادفة ، والنَّوادر الهزليَّة ، والأحاديث الَّتي تتجلَّى فيها الفطنة والذَّكاء ، كما لعبوا في منازلهم الشَّطرنج[٥١] ، وعرفوا النَّرد ، والرَّمي بالنَّشَّاب ، والصَّيد .. وكان سباق الخيل من أجلِّ أنواع التَّسلية وأرقاها عند الخلفاء والأُمراء وكبار رجال الدَّولة .

وعرف هذا العصر « **التِّنس** » ، ويسمُّونها لعبة « القراح » ، وكان النِّساء يمارسن الرَّمي بالسِّهام .

واستمرَّ اللَّعب بالشَّطرنج في **العصر العبَّاسي الثَّاني** ، مع النَّرد وسباق الخيل ، وانتشرت في أوقات الفراغ مجالس الاستماع إلى الغناء أو الموسيقى . كما انتشرت مجالس الوعظ ، حيث أدَّت المساجد مهمَّة الوعظ ، وعالجت مسائل الدِّين والدُّنيا ، وكان لها أثر ملحوظ في حفظ القيم الإسلاميَّة ، ولا سيَّما ما يتعلَّق بالمثل العليا .

واستهوت مجالسُ القصص العامَّةَ ، فعقدت في الطُّرقات ، وفي المنازل ، وفي المساجد انطوت القصص على أهداف كالشَّجاعة ، والنَّجدة ، والكَرَم ، والوَفاء ، والعفَّة ، والشَّهامة ..

---

(٤٩) مروج الذَّهب ١٨٨/٣ و ١٨٩

(٥٠) يرمي الصَّبي بالقلَّة في الهواء ثمَّ يضربها بمقلاة في يده ، وهي خشبة طولها ذراع ، فتستمر القلَّة في حركتها ، وإذا وقعت كان طرفاها مجانبين للأرض ، فيضرب الصَّبي أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثمَّ يعترضها بالمقلاة فيضربها في الهواء ، فتستمر ماضية .

(٥١) وفي أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، عرفوا نوعاً من الشَّطرنج يسمَّى « الجوارحيَّة » ، أو اللَّعب =

ويقول الدَّميري في حياة الحيوان الكبرى : ولعب بعض النَّاس بتربية الْحَمَام ، هوايةً ومحبَّةً ، وشارك بتربيته شرائح مختلفة من المجتمع ، ولكن السُّلطات عملت على محاربة هذه الهواية ، لأنَّ فيها انتهاك حرمات الجيران ، وإقلاق راحتهم ، وما يستتبع ذلك من الصِّياح ، ورمي الحجارة وتساقطها على سطوح المنازل المجاورة(٥٢) .

واعتنى الخلفاء الفاطميُّون بعرض الخيل ، وتسييرها في مواكب يحضرها الخليفة .

☆ ☆ ☆

الأعياد :

أعياد المسلمين اثنان : **عيد الفطر** بعد شهر الصَّوم ، **وعيد الأضحى** بعد موسم الحجِّ ، وكان الخلفاء يحتفلون بهما احتفالاً دينيّاً مهيباً ، فيؤمُّون النَّاس في الصَّلاة ، ويلقون عليهم خطبة العيد ، وكانت الأنوار تسطع في أرجاء المدن الإسلاميَّة في ليالي العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتَّهليل والتَّكبير ، وتضرب الطُّبول ، وتدقُّ الأبواق ، وترفع الأعلام والرَّايات ذات الألوان الزَّاهية(٥٣) .

واحتُفِلَ في الدَّولة العبَّاسيَّة بأعياد الفُرْس ، كالنَّوْروز ، وهو أوَّل أيَّام السَّنة عندهم ، ويقع في ابتداء فصل الرَّبيع ، وكان المسلمون قد أبطلوا الاحتفال بهذا العيد في

= بالجوارح ، تعمل فيه كل حاسَّة من حواس الإنسان وتنافس غيرها من الحواس ، تاريخ الإسلام ٤٣٠/٢ ، عن متز : « الحضارة الإسلامية » ٢١٣/٢ و ٢١٤

(٥٢) روى ابن ماجه « الحديث ٣٧٦٤ و ٣٧٦٥ و ٣٧٦٦ » ، عن عائشة رضي الله عنها ، أنَّ النَّبي ﷺ نظر إلى إنسان يتبع طائراً ـ حمامة ـ، فقال : « شيطان يتبع شيطانة » .

(٥٣) وكان الاحتفال بهذين العيدين يبلغ منتهى روعته وأُبهته في الثُّغور ـ كما يقول ابن حوقل ـ مثل طَرَسُوس حيث يرابط المجاهدون القادمون من مختلف بقاع العالم الإسلامي ، فكان لهذه الاحتفالات أثر كبير في إظهار عظمة الإسلام وأفراحه ، حتَّى أصبح عيد الفطر وعيد الأضحى في هذه الثُّغور من الأيَّام البديعة الجميلة المشهودة .

بلاد فارس ، غير أنَّه عاد في العصر العبَّاسي الأوَّل ، وكانوا يتهادون فيه بالهدايا ، ومنها السُّكَّر والملابس ، ويلبس الجند ملابس الرَّبيع والصَّيف .

كما احتفلوا **بالمهرجان** أوَّل الشِّتاء ، ويسمُّونه « روزمهر » ، ومعناه « محبَّة الرُّوح » ، وكان الفرس يتَّخذون المهرجان دليلاً على نهاية العالم ، والنَّوْرُوز دليلاً على بدايته ، وكان اليوم الخامس من المهرجان ، من أعظم أيَّام الفُرْس ، ويسمُّونه « رام روز » ، وهو المهرجان العظيم .

وأولى الفاطميُّون عيد الفطر عناية خاصَّة ، فكانت الخيرات تعمُّ النَّاس ، حيث توزَّع الفِطْرَة ، والكسوة ، ويعمل السِّماط ، ويركب الخليفة لصلاة العيد . كلٌّ ذلك ، بعدما اتَّخذوا من غرَّة رمضان المبارك من المواسم الدِّينيَّة البهيجة ،حيث تعمَّر المساجد بتلاوة القرآن الكريم ، وبصلاة التَّراويح .

وكان عندهم نَوْرُوز خاص يُسَمَّى « النَّوْرُوز القِبْطي » ، وهو أوَّل السَّنة القبطيَّة ، توقد فيه النِّيران ، ويرشُّ الماء ، ولقد اهتمَّ الفاطميُّون بالاحتفال بهذا العيد ، وأعادوا الاحتفال بوفاء النِّيل .

واحتفل الفاطميُّون بمولد الرَّسول الكريم ﷺ ، وبيوم عاشوراء ، وبمولد علي رضي الله عنه .. وكان معزُّ الدَّولة بن بُوَيْه أوَّل من احتفل بعيد الغدير ، وذلك سنة ٣٥٢ هـ .

ومن الاحتفالات ، الاحتفالات بالانتصارات الحربيَّة ، كما حدث سنة ٤٦٣ هـ ، عندما انتصر السُّلطان ألْب أرسلان على البيزنطيِّين في موقعة ملاذكرد .

وممَّا يذكر أنَّ الاحتفالات بعيد المولد النَّبويِّ الشَّريف بلغت أوجها أيَّام المماليك ، وعمَّت العالم الإسلامي كلَّه .

☆ ☆ ☆

المَلابِسُ والأزْياءُ : لم يتـأنّق المسلمون الأوّلون في ملابسهم ، لقـد عرفوا ببسـاطـة اللّباس ، فلبس أبو بكر الصّـدّيق رضي الله عنـه الشّملـة والعبـاءة ، وعرف عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنـه لبسـه خشن الملبس ، وكثيراً مـا رقّع ثوبـه ، قـال علي رضي الله عنه : رأيت لعمر بن الخطّاب إزاراً فيه إحدى وعشرون رقعة من أُدم ـ أي جلد ـ . وخطب مرّة النّاس وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة[٥٤] .

وقـال أنس : لقـد رأيت في قميص عمر أربـع رقـاع بين كتفيـه . وأبطـأ جمعـة في الصّلاة ، ثمّ خرج ، فلمّا صعد المنبر اعتذر إلى النّاس فقـال : إنّما حبسني قميصي هـذا ، لم يكن لي قميص غيره .

وعن عبد الله بن عبّاس قال : خرجت أُريد عمر بن الخطّاب فلقيتـه راكبـاً حمـاراً وقد ارتسنه بحبلٍ أسود ـ أي جعله رسناً له ـ في رجليـه نعلان مخصوفتـان ، وعليـه إزارٌ وقميص صغير ، وقـد انكشفت منـه رجـلاه إلى ركبتيـه ، فمشيت إلى جـانبـه ، وجعلت أجذب الإزار وأُسوّيه عليه ، كلّما سترت جانباً انكشف جانب . فيضحك ويقول : إنّـه لا يطيعك ، حتّى جئنـا العـاليـة فصلّينـا ، ثمّ قـدّم بعض القوم إلينـا طعـامـاً من خبز ولحم ، فـإذا عمر صـائم ، فجعـل يقـدّم إليّ طيّب اللّحم ، ويقـول : كُـلْ لي ولـك ، ثمّ دخلنـا حـائطـاً فـألقى إليّ رداءه ، وقـال : اكفنيـه ، وألقى قميصـه بين يـديـه وجعل يغسله ، وأنا أغسل رداءه ، ثمّ جففناه وصلّينا العصر ومشينا .

وكان سلمـان الفـارسي رضي الله عنـه عـامـل عمر على المـدائن ، يلبس الصّوف ، ويركب الحمـار ببرذعتـه بغير إكاف ، ويـأكل خبز الشّعير . وكان أبو عبيـدة بن الجرّاح يلبس الصوف الجافي ، فلاموه على ذلك ، وقالوا له : إنّك بالشّـام ، وحولنـا الأعـداء ، فغيّر في زيّك ، وأصلح من شارتك ، فقال : مـا كنت بـالّـذي أترك مـا كنت عليـه في عصر الرسول ﷺ[٥٥] .

---

(٥٤) تاريخ أبي الفداء ١٧٤/١ ، والحلية ٥٣/١ ، وابن الجوزي ١١٩

(٥٥) المسعودي ٤١٨/١

أمَّا اللِّباس ـ وخصوصاً في البادية ـ فقد كان يتألَّف من قباء طويل مشقوق الوسط ، ومتدلٍّ على العقب ، مربوطٍ في الوسط بحزام من جلد ، كما ارتدوا العباءة فوق القباءِ ، وهي مصنوعة من وبر الْجَمَل . وكان لباس الرَّأس العمامة .

وفي الحرب لبسوا أردية خاصَّة ، كالسِّروال والرِّداء القصير ، بدلاً من الثِّياب الفضفاضة المتدلِّية .

وفي عهد سليمان بن عبد الملك شاع الوشي[٥٦] ـ كما يقول المسعودي ـ الَّذي كان يجلب من اليمن والكوفة والإسكندريَّة ، واتَّخذ النَّاس منه جلابيب وأردية وسراويل وعمائم .

أمَّا في **العصر العبَّاسي** فقد ظهر التَّأثير الفارسي في الأزياء ، فلبس أبو جعفر المنصور القلانس ، وهي القُبَّعات السُّود الطَّويلة المخروطيَّة الشَّكل . وأصبح لباس عُلْيَةَ القوم يشتمل على « سروالة » فضفاضة ، وقميص وقباء وقلنسوة ، ولبس العامَّة إزاراً وقميصاً ودراعة وسترة طويلة وحزاماً ، وانتعلوا الأحذية ، ولبسوا الجوارب وسمَّوها « موزاج » .

وأبو يوسف قاضي هارون الرَّشيد ـ كما في وفيَات الأعيان ـ أوَّل من غيَّر لباس العلماء إلى هذه الهيئة الَّتي هم عليها في زماننا هذا .

وفي **الأندلس** ، تحكَّم زرياب في ابتداع الأزياء ، وحثَّ النَّاس على تغيير الملابس لتكون مناسبة للفصول ، وعلَّمهم أن يلبسوا ملابس بيضاء في الصَّيف ، وملابس حريريَّة خفيفة في الرَّبيع ذات ألوان زاهية ، وأنَّ الشِّتاء فصل الفراء والملابس الثَّقيلة .

وفي عهد الفاطميِّين في مصر ، كانت القاهرة من أهمِّ مراكز النَّسيج ، واشتهرت بأنواع خاصَّة من الثِّياب الحريريَّة والقطنيَّة والكتَّانيَّة والصُّوفيَّة ، وفي دار الكسوة الَّتي

(٥٦) الوشي ـ في اللِّسان ـ نوع من الثِّياب معروف ، وهو يكون من كلِّ لون ، خلط لون بلون .

بناها الخليفة المعز لدين الله الفاطمي في القاهرة ، كانت تفصّل الثّياب للخليفة والأُمراء والوزراء وسائر موظّفي الدّولة ، على اختلاف مراتبهم ، والخلع الّتي كانت تمنح بسعة للوزراء والأُمراء والأشراف في عيد الفطر حتّى سُمّي « عيد الْحُلَل » .

أمّا ثياب المرأة فقد اشترِط بها الحشمة ، وعدم إظهار مفاتن الجسم ، لذلك كانت ملاءتها طويلة تغطّي جسمها ، كما لفّت المرأة رأسها بمنديل ربطته فوق جيدها . وفي العصر العبّاسي تطوّر لباس المرأة ، فاتّخذت وجيهات المجتمع غطاء للرّأس مرصّعاً بالجواهر ، ومحلّى بسلسلة ذهبيّة مطّعّمة بالأحجار الكريمة ، ويعزى هذا الابتكار إلى عليّة بنت المهدي أُخت الرّشيد .

أمّا نساء عامّة النّاس ، فكنّ يزيّنّ رؤوسهنّ بحلية مسطّحة من الذّهب ، ويلففن حولها عصابة منضّدة باللؤلؤ والزّمرّد ، ولم يجهل جميعهنّ فنّ التّجميل الّذي أخذنه من الفارسيّات .

☆ ☆ ☆

الطّعَامُ :

كان الطّعام في صدر الإسلام في غاية البساطة ، واكتُفِي بالقليل منه ، وضمّت المائدة العامرة لوناً أو لونين على الأكثر ، وخير الأُدم اللّحم ، مع مراعاة القواعد الصّحيّة ، فلا إدخال طعام على طعام ، وغسل الأيدي قبل الطّعام وبعده .

وأفضل أطعمة العرب **الثّريد** ، وهو الخبز يفتّ ويبلّ بالمرق ، ويوضع فوقه اللّحم ، ومنه **اللّمزة** وهو الخبز يكسر عليه السّمن ، **والكوتان** وهو الأرز والسّمك ، **والأطرية** وهو طعام فيه خيوط من الدّقيق ، **والرّبيكة** وهي شيء يطبخ من بُرٍّ وتمر ويعجن بالسّمن ، **والجشيش** وهو دقيق مجروش يوضع في قدر ويلقى عليه لحم أو تمر يطبخ ، **والعكّة** وهو طعام يتّخذ من دقيق يعجن بسمن ثمّ يشوى ، **والقديد** وهو اللّحم

يُشْرَح ويقدَّد ، والصَّفيف إذا شرح اللَّحم عراضاً ، والشَّواء ، والبسيسة وهي الدَّقيق ، والسَّويق ويتَّخذ من الحنطة والشَّعير ، والخزير وهي الحساء من الدُّسم والدَّقيق ، والخزيرة أيضاً أن تنصب القدر بلحم يقطَّع صغاراً على ماء كثير ، فإذا نضج ذر عليه الدَّقيق ، فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة ، ولا تكون الخزيرة إلاَّ وفيها لحم(٥٧) .

ويتَّضح ممَّا سبق قلَّة استعمال العرب للخضروات في طعامهم ، ولعلَّ السَّبب أنَّ بلادهم ليست زراعيَّة(٥٨) .

هذا .. وبُدئ باستعمال الملاعق الَّتي صنعت من الخشب أو الفخَّار زمن الأُمويِّين ، ويذكر الإمام أحمد أنَّ رسول الله ﷺ كان يستعمل السِّكين في قَطْعِ اللَّحم .

وبدأ النَّاس يجلسون على موائد حولها الكراسي زمن الأُمويِّين(٥٩) ، وروي عن معاوية وسليمان بن عبد الملك حبّهما للطَّعام وتفنُّنهما في اختيار ألوانه .

ونوَّع العبَّاسيُّون طعامهم منذ أيَّام أبي جعفر المنصور ، وتفنَّن أهل بغداد في طعامهم من صيد وفاكهة وخضروات ، وشربوا « النَّبيذ » الَّذي أحلَّه أبو حنيفة ، وهو طبعاً غير نبيذ هذا العصر ، وإن اتَّفقت التَّسمية . جاء في كتاب « بدائع الصَّنائع في ترتيب الشَّرائع » للإمام علاء الدِّين الكاشاني ، المُلقَّب بملك العلماء : « وما يتَّخذ من الزَّبيب شيئان : نقيع ونبيذ ، فالنَّقيع أن ينقع الزَّبيب في الماء أيَّاماً حتَّى تخرج حلاوته إلى الماء ، ثمَّ يطبخ أدنى طبخ ، فما دام حلواً يحلُّ شربه ، وإذا غَلاَ واشتدَّ وقذف بالزَّبد يحرّم ـ لأنَّه تخمَّر ـ، وأمَّا النَّبيذ فهو الَّذي يؤخذ من ماء الزَّبيب إذا

(٥٧) تاريخ الإسلام ٥٤٢/١ و ٥٤٣ عن ابن سيده « المخصَّص » ١٢٠/٤ ـ ١٤٨

(٥٨) ولكنَّهم عرفوا بالكرم ، يجودون بطعامهم ولا سيا في البوادي ، حتَّى كانوا يوقدون النَّار ليلاً ليهتدي بها الضِّيفان الغرباء ، يقول شاعرهم :

وَإِنِّي لمعطٍ ما وجدتُ وقائل ... لموقدِ ناري : ليلة الرِّيح أوقدِ

(٥٩) بينما كانوا يبسطون سماطاً على الأرض ، ثمَّ يجلسون صَفَّين من حوله .

طبخ أوفى طبخ ، يحلّ شربه ما دام حلواً ، فإذا غَلاَ واشتدَّ وقذف بالزَّبد يحلّ شربه ما دون السُّكر عند أبي حنيفة وأبي يوسف ، وعند محمد والشَّافعي لا يحلّ شربه » ، كما يحلّ عند أبي حنيفة وأبي يوسف شرب نبيذ التَّمر ما دام حلواً .. ويحرم إذا أسكر ، وكذلك الشَّراب المتَّخذ من حَلّ العسل بالماء دون تخمُّر ، وكذلك الأشربة المتَّخذة من الشَّعير والدُّخن والذُّرة والتِّين والسُّكر .. لذلك ، شرب هارون الرَّشيد ـ مثلاً ـ النَّبيذ بعرف زمانهم ، لا نبيذ هذا الزَّمان ، ولقد تنبَّه إلى ذلك ابن خلدون فقال : لم يعاقر الرَّشيد الخمر لأنَّه كان يصحب العلماء والأولياء ، ويحافظ على الصَّلوات والعبادات ، ويصلِّي الصُّبح في وقته ، ويغزو عاماً ويحجُّ عاماً ، وإنَّما كان الرَّشيد يشرب نبيذ التَّمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيه معروفة ، وأمَّا الخمر الصِّرف فلا سبيل إلى اتِّهامه بها ، ولا تقليد الأخبار الواهية بها ، فلم يكن الرَّجل بحيث يُواقع محرَّماً من أكبر الكبائر عند أهل الملَّة(٦٠) .

ونقل زرياب إلى **الأندلس** ، أرقى أنواع الطَّهي البغدادي ، وقرَّر أنماطاً جديدة في تنظيم المائدة ، فكانوا يبدؤون بالحساء ، ثمَّ يقدِّمون اللُّحوم والطُّيور ، وينتهون بالحلوى .

وفي مصر **أيَّام الطُّولونيِّين** ، تعدَّدت ألوان الطعام ، كالدَّجاج ولحوم الجدي والضَّأن ، والفالوذج واللَّوزينج والقطايف ، والعصيدة الَّتي كانت توفَّر في عهد المقريزي باسم « المأمونيَّة » ، وبلغ من وفرة هذه الأطعمة ، أنَّها أصبحت في متناول العامَّة .

(٦٠) وهذا لا يعني أنَّ الخمرة لم تعرف ، ولكنَّها ليست شرطاً في حفلاتهم الَّتي اهتمُّوا بها اهتماماً بالغاً ، تتجلَّى فيها مظاهر الرَّوعة والجلال ، كحفلة زواج الرَّشيد من زبيدة ، والمأمون من بوران بنت الحسن بن سهل ، وقطر النَّدى والمعتضد العبَّاسي ؛ وابنة السُّلطان ملكشاه السَّلجوقي إلى الخليفة العبَّاسي المقتدي .. أو عند استقبال الوفود الأجنبيَّة ، كاستقبال المقتدر سنة ٣٠٥ هـ رسولي إمبراطور الرُّوم لطلب عقد الهدنة ، واستقبال الحاكم الفاطمي لرسول إمبراطور الرُّوم ، واستقبال الحكم المستنصر في الأندلس ملك الجلالقة سنة ٣٥١ هـ . والشَّعب على مختلف شرائحه كان يقلِّد هذه الاحتفالات الرَّائعة ، كل حسب إمكاناته .

واعتنى الإخشيديُّون بتنويع الطَّعام واشتماله على العناصر الضَّروريَّة للتَّغذية ، وأقام الفاطميُّون الأسمطة في الأعياد والمواسم ، طول كل سماط منها نحو ثلاث مئة ذراع ، وعرضه سبع أذرع ، تنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشَّهيَّة . ممَّا أُعِدَّ في دار الفطرة الخليفيَّة .

وكان الخلفاء والأُمراء ذوو اليسار يحصلون على بواكير الفواكه بوساطة البريد ، الَّذي بلغ حدَّ الكمال في عهد بني بُوَيْه في المشرق ، وفي عهد الفاطميِّين والمماليك في مصر .

وفي العصر العبَّاسي المتأخِّر ألَّف **محمد بن عبد الكريم الكاتب البغدادي** كتاباً تحت اسم « **الطَّبيخ** » ، وذلك سنة ٦٢٣ هـ = ١٢٢٦ م ، وصف فيه الطَّعام في عصره ، وفيما سبقه من العصور العبَّاسيَّة ، ذكر فيه من الأطعمة : **الدَّجاج** ، يسلق ويقطَّع ثمَّ تعرَّق بالشِّيرج ـ زيت السُّمسم ـ المضاف إليه الكزبرة والمستكة والدَّار صيني . **والمَضيرة** : وهي اللَّحم السَّمين من الإلية ، يقطَّع ويوضع في قدر ، ثمَّ يضاف إليه ماء وملح ، ثمَّ يغلى ، فإذا قارب النُّضج أُضيف البصل والكرّات والكُّمون والمستكة والدَّارصيني ، فإذا نضج وجفَّ ماؤه ولم يبقَ سوى الدُّهن ، غُرِف في إناء ، وأُضيف إليه اللَّبن واللَّيمون والنعناع ، ثمَّ ترك على النَّار حتَّى يغلي قليلاً ، تضاف إليه بعدها التَّوابل ، ثمَّ تمسح جوانب القدر ، ويترك ويغطَّى حتَّى يهدأ .

« **والسِّكباج** » : حيث يقطَّع اللَّحم السَّمين ، ويوضع في قدر ، ثمَّ تُضاف الكزبرة الخضراء ، والدَّارصيني والملح ، ويظل على النَّار حتَّى يغلي ، ثمَّ يضاف إليه الكزبرة اليابسة ، والبصل ، والكرَّات ، والجزر أو الباذنجان .

ومن الأطعمة الشَّهية الشَّعبيَّة **السَّمك** واللَّحم والباقِلاَّء ، **والهريسة** من أنواع الحلوى الَّتي تباع في الأسواق كل صباح ، **والعصيدة** من التَّمر والسُّكر والعسل ، **والثَّريد** من المرق واللَّحم والحمص ، والأرز يؤكل مع اللَّبن والسَّمن والسُّكر ، والكباب

والرؤوس والأكارع ، وتُبَاع في الأسواق مطبوخة ونيِّئة .. ويزيد في قيمة الطَّعام ما يضاف إليه من المسك والعنبر والعود والزَّعفران والقرنفل ، واللَّوز والفستق والجوز والبندق ..

وتميَّز المغرب العربي بألوان خاصَّة من الطَّعام ، مثل « **الكفتة** » ، الَّتي تطهَّى بالزَّيت ، ويضاف إليها كمِّيَّة كبيرة من التَّوابل ، وفي مدينة فاس سوق يباع فيه الخبز المقلي بالزَّيت ، ويُحَلَّى بالعسل ، ويتناول النَّاس هذا الخبز على طعام الإفطار ، ولا سيَّما في أيَّام الأعياد ، وتؤكل هذه الفطائر مع اللَّحم المشوي ، أو مع العسل ، أو مع الحريرة . وفي فاس ـ وغيرها من المدن المغربيَّة ـ يشوى اللَّحم في السَّفافيد ، ويُبنى كانونان ، أحدهما فوق الآخر ، وتوقد النَّار في الكانون الأسفل ، وعندما يحمى الكانون العُلْوي يوضع فيه الْحَمَل كاملاً من فوَّهة في أعلى الكانون ، حتَّى لا تحترق الأيدي ، وهكذا يتمُّ شواء اللَّحم ، ويأخذ لوناً جميلاً ، ونكهة لطيفة ، لأنَّ الدُّخان لا يصل إلى اللَّحم ، وإنَّما يصل إليه اللَّهب المشتعل ، ويستمرُّ شيُّ اللَّحم على نار خفيفة طول اللَّيل ، وفي الصَّباح يبدأ بيع هذا اللَّحم في الأسواق .

أمَّا **أسواق الجزَّارين** ، فقد كانت المواشي قبل أن تُحْمَل إلى الحوانيت ، تعرض على أمين الجزَّارين لفحص اللَّحم والتَّأكُّد من سلامته من الأمراض ، ثمَّ تسلَّم لحاملها ورقة يحدِّد فيها ثمن البيع ، بحيث يستطيع كلّ شخص أن يراها ، ويقرأ الثَّمن الَّذي يباع به اللَّحم ، ويشرف المحتسب على ذلك ، وعلى باعة السَّمك بصفة خاصَّة ، كي لا يخلط السَّمك الطَّازج والسَّمك الفاسد ، ومن أنواع السَّمك الشَّهيرة في المغرب « **الشَّابْل** » ، وقيل : « **وكفى بالشَّابْل لحماً طريّاً** » .

☆ ☆ ☆

الحَيَاةُ الفِكْرِيَّةُ

الفِرَقُ الدِّينيَّةُ

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّيْنِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمَينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيْداً عَلَيْكُم وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ .

[الْحَجُّ : ٧٨/٢٢]

مصلحة المسلمين العُلْيا توجب وحدة الكلمة ، وألاَّ سُنَّة ولا شيعة ـ خصوصاً وأن القرآن الكريم بقي بنجوة من كلِّ تحريف أو تبديل ، سليماً لم يمسسه تحريف ـ بل الجميع مسلمون مؤمنون ، كما كانت تسميتهم أيَّام رسول الله ﷺ ، يقول عزَّ وجلَّ : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُم إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ، [الحجُّ ٧٨/٢٢] .

ولكن .. صادفت دعوة عبد الله بن سَبَأ ـ لتفريق كلمة الأُمَّة ، وإثارة الفتنة أيَّام عثمان ـ في البَصْرة والكوفة والشَّام ومصر مرتعاً خصيباً ، فراح يبذر سمومه في المجتمع الإسلامي ، فهيَّأ العقول إلى الاعتقاد بأنَّ عثمان بن عفَّان اغتصب الخلافة ، وأخذ يؤلِّب النَّاس على عثمان وعلى ولايته : « إنَّ عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا علي وصي الرَّسول ﷺ ، فانهضوا في هذا الأمر فحرِّكوه ، وابدؤوا بالطَّعن على أُمرائكم ،

وأظهروا الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر تستميلوا النَّاس ، وادعوهم إلى هذا الأمر »[1] .

وأصبحت الحال في الأمصار حرجة ، ممَّا اضطر عثمان إلى ندب محمد بن مسلمة الأنصاري إلى الكوفة ، وأُسامة بن زيد إلى البَصْرة ، وعبد الله بن عمر إلى الشَّام ، وعمَّار بن ياسر إلى مصر ، ليقفوا على حقيقة الأمر ، ولكن الأمر أُفلت من يد عثمان وولاته ، عندما بدأ دور العمل والتَّنفيذ حسب خطَّة رسمها ابن سبأ بدقَّة ، عندما كاتب من مصر أشياعه من أهل البصرة والكوفة ، واتَّفقوا على الشُّخوص إلى المدينة المنوَّرة ، فوصلوها ، واستطاع عثمان أن يعيد وفد مصر راضياً ، إلاَّ أن كتاباً زوَّره ابن سبأ ، أمر فيه أن تستأصل شأفة هذا النَّفر ، أعاد القوم إلى المدينة ، فأغلظ عثمان رضي الله عنه الأيمان على أنَّه ما كتب ، ولا أمر بكتابة هذا الكتاب ، ولا علم له به . ولكن أصحاب الفتنة اقتحموا داره وقتلوه في الثَّامن عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هـ/٦٥٦ م ، وبويع علي رضي الله عنه بالخلافة ، ونصح الَّذين طالبوا بدم عثمان أن يتريَّثوا ، حتَّى إذا هدأت النُّفوس ، وعاد الأمن إلى نصابه ، أُجري الحقُّ مجراه ، إلاَّ أنَّ نصائحه لم تُجْدِ نفعاً ، فكان خروج طلحة والزُّبير وعائشة إلى البصرة ، وكانت موقعة الْجَمَل في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، والَّتي انتصر فيها علي ، فبادر إلى عزل الولاة الَّذين ولاَّهم عثمان ، والَّذين كانوا مثار الفتنة ، فأذعنوا إلاَّ معاوية بن أبي سفيان ـ والي الشَّام ـ قريب عثمان ، والمطالب بدمه ، فسار علي رضي الله عنه من الكوفة إلى صفِّين في تسعين ألفاً ، وسار معاوية بن أبي سفيان من الشَّام في خمسة وثمانين ألفاً ، فكانت صفِّين في صفر عام ٣٧ هـ ، واستطاع عمرو بن العاص بما

(١) الطَّبري ٣٤٠/٤ ، ولدراسة الفرق الإسلاميَّة انظر :
ـ الفصل في الملل والأهواء والنِّحل ، لابن حزم الظَّاهري الأندلسي .
ـ الملل والنِّحل للشَّهرستاني .
ـ الفَرْقُ بين الفِرَق للبغدادي .
ـ والمصادر التَّاريخيَّة المعتمدة ، كالطَّبري ، والكامل في التَّاريخ ، والبداية والنِّهاية ، ومروج الذَّهب .

أُوتيه من دهاء[2] وحنكة أن يفرّق بين جند علي ، عندما قال بفكرة التَّحكيم : « هذا كتاب الله عزَّ وجلَّ بيننا وبينكم » ، وكان ما كان للتَّحكيم من أثر ، أبقى على التحام جند الشَّام ، وانقسام جند علي ، الَّذي أراد أن يحكم السَّيف بينه وبين معاوية ، ولكن الخوارج اعتزلوه ، وساروا متَّجهين إلى المدائن[3] .

☆ ☆ ☆

الخَوَارِجُ :

وهم أعداء الأُمويِّين ، وأعداء شيعة علي رضي الله عنه ، لم يدخلوا الكوفة بعد صِفِّين مع علي ، ونزلوا قرية بظاهرها تسمَّى حَرُوراء ، وكان عددهم اثني عشر ألفاً ، ونادى مناديهم : إنَّ أمير القتال شَبَثُ بن رِبْعي ، وأمير الصَّلاة عبد الله بن الكوَّاء اليشكري ، والأمر شورى بعد الفتح ، والبيعة لله عزَّ وجلَّ ، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر . ويسمَّى هؤلاء الخوارج ، كما يسمَّوْن الحروريَّة ، وأمرهم غريب يدعو إلى العجب ، لأنَّهم قبلوا بالتَّحكيم ، وعلي رضي الله عنه لم يقبله ، إلاَّ بعد أن أكرهوه على قبوله ، وهم يخرجون على ما أبرموه بعد قبول التَّحكيم .

سار الخوارج من أهل البَصْرة والكوفة إلى النَّهروان مستخلفين عليهم عبد الله بن وهب الرَّاسبي ، وأخذوا يقتلون كُلَّ من لم يشاطرهم رأيهم ، فسار إليهم علي ، وانتصر عليهم ، ولكنَّ فئة منهم اعتزلت القتال ، ولم تعتزل رأيها ، فكانوا أشد الأحزاب خطراً ، إذ يرون أن غيرهم من المسلمين كفَّار ، وأنَّ دماءهم وأموالهم حلال .

---

(٢) قال الشَّعبي : « دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد ـ بن أبيه ـ فأمَّا معاوية بن أبي سفيان فللأناةِ والحلم ، وأمَّا عمرو بن العاص فللمعضلات ، وأمَّا المغيرة فلِلْمُبادَهَة ، وأمَّا زياد فللصَّغير والكبير » ، وكان قيس بن سعد بن عبادة من الدُّهاة المشهورين ، وكان أعظمهم كرماً وفضلاً ، (أُسْدُ الغابة ٢٤٨/٥) .

(٣) تاريخ الإسلام ٣٦٤/١

ضعف شأن الخوارج أيَّام الأُمويِّين ، عندما ولي العراق زياد بن أبيه ، لما بدأه من الشِّدَّة والقسوة والعنف في معاملتهم ، وكذلك أيَّام الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي ، الَّذي نكَّل بهم على يد المهلَّب بن أبي صُفْرَة ، ومنذ ذلك الوقت ، وبعد مقتل قطَري بن الفُجَاءَة[٤] ، ضعفت شوكتهم ، وقلَّ عددهم ، فلم يحرِّكوا ساكناً أيَّام الوليد وأخيه سليمان بن عبد الملك ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة ، خرج شَوْذب اليشكري[٥] ، فكتب عمر بن عبد العزيز إليه يقول : بلغني أنَّك خرجت غضباً لله ولنبيِّه ، ولستَ أَوْلى بذلك منِّي ، فهلمَّ أُناظرك ، فإن كان الحقُّ بأيدينا دخلتَ فيما دخل فيه النَّاس ، وإن كان في يَدِك نظرنا في أمرنا ، فأجاب شوذبُ عمرَ قائلاً : « لقد أنصفت ، وقد أرسلت إليك رَجُلَيْن يدارسانك ويناظرانك » ، وأثمرت سياسة عمر بن عبد العزيز فشهد أحد الرَّجُلَيْن بأنَّ عمر على صواب : « ما سمعتُ كاليوم قطُّ حجَّة أبْيَن وأقرب مأخذاً من حُجَّتك ، أمَّا أنا فأشهد أنَّك على حقٌّ ، وأنا بريء ممَّن بَرِئَ منك »[٦] ، فنصَّب الخوارج أنفسهم في العراق وأرض الجزيرة حماة للضُّعفاء والمضطهدين .

---

(٤) قطري بن الفجاءة بن مازن بن يزيد الكناني المازني التَّميمي ، من رؤساء الأزارقة الخوارج وأبطالهم ، بقي ثلاث عشرة سنة يقاتل ويُسَلَّم عليه بالخلافة وإمارة المؤمنين ، والحجَّاج يُسَيِّر إليه جيشاً بعد جيش وهو يردّهم ويظهر عليهم ، وكانت كنيته في الحرب أبا نعامة (ونعامة فرسه) ، وفي السِّلْم أبا محمَّد ، كان طامَّة كبرى ، وصاعقة من صواعق الدُّنيا في الشَّجاعة والقوَّة ، اختلف المؤرِّخون في مقتله سنة ٧٨ هـ/٦٩٧ م ، فقيل عثر به فرسه فاندقَّت فخذه فمات ، وقيل توجَّه إليه سفيان بن الأبرد الكلبي فقاتله وقتل في المعركة بالرّي أو بطبرستان ، (الأعلام ٥/٢٠٠) .

(٥) بِسْطَام اليشكري المعروف بشوذب ، ثائر جبَّار ، كان أصحابه ٨٠ رجلاً ، حاربهم أهل الكوفة فلم يفلحوا ، سَيَّر إليهم يزيد بن عبد الملك ثلاثة جيوش ، كلُّ جيش في ألفين ، فانهزمت الجيوش ، فجهَّز مسلمة بن عبد الملك جيشاً فيه عشرة آلاف مقاتل بقيادة سعيد بن عمرو الحرشي ، فأحاطوا بشوذب ثمَّ قتلوه سنة ١٠١ هـ/٧٢٠ م . (الأعلام ٢/٥١) .

(٦) مروج الذَّهب ٢/١٣٠

وفي أواخر الدَّولة الأُمويَّة ظهر أبو حمزة الخارجي(٧) ، الَّذي بايع عبد الله بن يحي المعروف بطالب الحق سنة ١٢٨ هـ على الخلافة ، ودعا إلى قتال مروان بن محمَّد ، ولكن مروان بن محمَّد سار إليه ، فالتقى بالخوارج في وادي القرى ، فقتل أبا حمزة وكثيراً ممَّن معه ، ثمَّ سار مروان بن محمَّد إلى اليمن ، وهزم عبد الله بن يحي (طالب الحق) وقتله مع كثير من أتباعه ، وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج ، وإلى مروان بن محمَّد يرجع الفضل في القضاء عليهم .

وألمع فكرة عندهم نظريَّتهم بالخلافة ، ورأيهم إن كان لا بدَّ منها ، فأصلح النَّاس لها أحقُّ بها ، قرشيّاً كان أمْ غير قرشي ، عربيّاً كان أم غير عربي ، وليس عندهم نظام وراثة ، أو تفويض لمن يليها ، لذلك بقوا مصبوغين بصبغة النِّزاع مع السُّلطة ، كثيري التَّفرُّق ، محدودي النَّظر ، ومع ذلك جمعوا شجاعة وصراحة وبساطة ، أسهل شيء عليهم بيع أنفسهم لعقيدتهم ، فيقتل مثلاً عبد الرَّحمن بن ملجم عليّاً رضي الله عنه ، ويظل يقرأ القرآن ، ويرى أنَّه تقرَّب إلى الله ، وعندما أُريد قطع لسانه ، جزع لكرهه أن لا يذكر الله به .

وقطَّع عبيد الله بن زياد أوصالَ خارجيَّة ، وقال : كيف تَرَيْن ؟ فأجابت : إنَّ في فكري من هول المطلع لشغلاً عن حديدتكم هذه . وأقسمت غزالة الحروريَّة لتُصَلِّيَنَّ في مسجد الكوفة ركعتين ، تقرأ في الأُولى سورة البقرة ، وفي الثَّانية سورة آل عمران ، والكوفة معقل الحجَّاج ، ودار إمارته ، وبرَّت غزالة بقسمها ، وأرتج الحجَّاج عليه باب بيته .

ومن فِرَق الخوارج : الأزارقة : أصحاب نافع بن الأزرق(٨) ، الذي كفَّر كلَّ

---

(٧) المختار بن عوْف الأزدي السّليمي البصري (أبو حمزة الخارجي) ثائر فتّاك من الخطباء القادة ، انهزم بوادي القرى سنة ١٣٠ هـ ، فلحقه عبد الملك بن محمَّد بن عطيَّة السَّعدي ، فكانت بينهما وقعة انتهت بمقتل أبي حمزة سنة ١٣٠ هـ/٧٤٨ م ، (الأعلام ١٩٢/٧) .

(٨) صحب نافعُ عبدَ الله بن عبَّاس ، وكان هو وأصحابٌ له من أنصار الثَّورة على عثمان ، ووالوا عليّاً ، =

المسلمين ، والنَّجديَّة أصحاب نجدة بن عامر(٩) ، والبيهسيَّة أصحاب أبي بَيْهَس بن جابر(١٠) ، والإباضيَّة أصحاب عبد الله بن إباض التَّميمي(١١) ، الَّذين لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم ، وهم إلى المسالمة أميل ، والصُّفْريَّة أصحاب زياد بن الأصفر(١٢) .. وكلُّ هذه الفِرَق الخارجيَّة اشتطَّت في الحكم على مخالفيهم ، وعاملوهم معاملة الكافر عابد الوثن .

☆ ☆ ☆

الشِّيعَةُ :

أنصار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويرون أنَّه أحقُّ بالخلافة من أبي بكر وعمر وعثمان ، وعليه فالواجب المترتِّب عليهم ، ردُّ الحقّ إلى صاحبه سِرّاً وجهراً .

= وبعد التَّحكيم خرجوا عليه ، ولمَّا علموا بثورة عبد الله بن الزُّبير على الأمويِّين بمكَّة توجَّهوا إليه ، وقاتلوا عسكر الشَّام في جيش ابن الزُّبير إلى أن مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، وانصرف الشَّاميُّون ، وبويع ابن الزُّبير بالخلافة ، ولمَّا علم نافع برأي عبد الله بن الزُّبير بعثمان : « أنا ولي لابن عثمان وعدوّ لأعدائه » ، لم يرضه ذلك ، فانصرف وأصحابه إلى البصرة ، وخرج بثلاث مئة ، قاتله المهلَّب بن أبي صفرة ، ولقي الأهوال في حربه ، قتل نافع يوم (دولاب) على مقربة من الأهواز سنة ٦٥ هـ/٦٨٥ م ، (الأعلام ٣٥٢/٧) .

(٩) نَجْدَة بن عامر الحروري ، من بني حنيفة ، رأس الفرقة النَّجديَّة نسبة إليه ، كان أوَّل أمره مع نافع بن الأزرق ، ثمَّ استقلَّ باليمامة سنة ٦٦ هـ ، وتسمَّى بأمير المؤمنين ، وجَّه إليه مصعب بن الزُّبير خيلاً بعد خيل ، قتل سنة ٦٩ هـ/٦٨٨ م ، (الأعلام ١٠/٨) .

(١٠) أبو بَيْهَس هَيْصَم بن جابر ، كفَّر نافع بن الأزرق وعبد الله بن إباض في بعض ما ذهبا إليه ، وتبعته جماعة ، طلبه الحجَّاج ، واستطاع عثمان بن حيَّان المرّي والي المدينة المنوَّرة اعتقاله ، وصُلِبَ بالمدينة سنة ٩٤ هـ/٧١٣ م .

(١١) عبد الله بن إباض (ت ٨٦ هـ/٧٠٥ م) ، لا يزال مذهبه منتشراً في الجزائر (وادي ميزاب) ، وفي سلطنة عُمَان ، (الأعلام ٦٢/٤) .

(١٢) الصُّفْريَّة الزِّياديَّة : « خالفوا الأزارقة والنَّجدات والإباضيَّة في أمور منها : أنَّهم لم يكفِّروا القعدة عن القتال إذا كانوا موافقين في الدِّين والاعتقاد ، ولم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم في النَّار .. » ، (الملل والنِّحل ١٣٧/١) .

خفَّت جـذوة التَّشيُّع في نفوس أهـل العراق ، بعـد نـزول الحسن بن علي رضي الله عنه عن حقِّه في الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، ومغادرته العراق إلى المـدينـة المنوَّرة ، ولكن سبَّ علي رضي الله عنه وآل البيت على المنابر ، أثـارَ حنق الشِّيعـة ، وبعـد مقتل حجر بن عدي[١٣] أيَّام معاوية ، هدأ أمر الشِّيعة ، وأصبح التَّشيُّع أمراً نظريّاً .

وأيَّام يزيد بن معاوية ، وبعد استشهـاد الحسين رضي الله عنـه في أرض كربلاء ، وحَّـد الشِّيعـة صفوفهم ، وزاد حنقهم على بني أُميَّـة وولاتهم ، وظهر (التَّـوَّابـون) أيَّـام مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، الَّـذين نصَّبوا سليمـان بن صُرَد[١٤] ، ودعوا النَّـاس للأخـذ بثأر الحسين ، ولكن عبيد الله بن زياد ، ألحق بهم هزيمة ، وقُتِل ابن صُرَد .

ولمَّـا انضمَّ المختـار بن أبي عبيـد الثَّقفي إلى الشِّيعـة ، مؤسِّسـاً (الكيسـانيَّـة)[١٥] ، وانتصر على ابن زيـاد ، استفحـل أمره ، فعمـل عبـد الله بن الـزُّبير ـ المعتصم في مكَّـة المكرَّمة ـ على الإيقـاع بـه ، فـأرسل إليـه جيشـاً بقيـادة أخيـه مصعب ، بعـد أن ولاَّه العراق ، فانتصر قرب الكوفة سنة ٦٧ هـ ، وقَتَلَ المختار .

---

(١٣) سنة ٥١ هـ/٦٧١ م ، ويسمَّى حجر الخير ، صحابي شجاع شهد القـادسيَّـة ، من أصحـاب علي ، قُتِل في مرج عذراء ـ قرب دمشق ـ مع أصحاب له ، (الأعلام ١٦٩/٢) .

(١٤) سليمـان بن صُرَد [٢٨ ق.هـ ـ ٦٥ هـ = ٥٩٥ ـ ٦٨٤ م] ، صحابي ، شهـد الجمل وصِفِّين مـع علي ، كان ممَّن كاتب الحسين وتخلَّف عنه ، وخرج بعد ذلك مطالبـاً بـدمـه ، فترأس (التَّوابين) ، ونشبت معـارك بين سليمـان وعبيـد الله بن زيـاد ، فقُتِـلَ سليمـان بعين الـوردة ، قتلـه يـزيـد بن الحصين ، (الأعـلام ١٢٧/٣) .

(١٥) لم يلق المختار عطف محمد بن الحنفيَّة وتـأييـده ، لأنَّـه لم يكن يثق بـأهل الكوفـة الَّـذين خـذلوا أبـاه وأخويه من قبل ، والكيسانيَّة نسبة إلى كيسان مولى علي رضي الله عنه ، والكيسانيَّـة تغـالي في وجوب طاعة الإمام وانفراده بتأويل الشَّريعة ، ويعتقدون بالرَّجعة ، أي برجعة محمد بن الحنفيَّة ، كما يعتقدون بنبوّة علي والحسن وابن الحنفيَّة ، ويقول الشَّهرستاني : « إنَّ جميع الكيسانيَّة يعتقدون أنَّ الدِّين طـاعـة رجل ، وأنَّ طـاعتهم ذلـك الرَّجل تبطـل ضرورة التَّمسُّـك بقـواعـد الإسـلام كالصَّلاة والصَّوم والحج وهكذا » ، (الملل والنِّحل ١٩٦/١) .

وظلَّ عبد الملك بن مروان يرقب الأحداث ، وينتظر ضعف كلِّ الأطراف المتحاربة ، فلم يكد مصعب يفرغ من قتال المختار ، حتَّى خرج إليه عبد الملك يحاربه ، وراسل قوَّاد مصعب وأعيان الكوفة ، ومنَّاهم الأماني حتَّى أفسدهم عليه ، إلا إبراهيم بن الأشقر ، فصفا الجوُّ لعبد الملك في العراق ، ولم يبقَ أمامه إلا بلاد الحجاز ، فسيَّر الحجَّاج بن يوسف الثَّقفي للقضاء على عبد الله بن الزُّبير[١٦] .

ويمكن تمييز مذهبين كبيرين باقيين إلى يومنا هذا : الزَّيديَّة ، والإماميَّة .

الزَّيْدِيَّة : خرج زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، في عهد هشام ، وإليه تنسب الزَّيديَّة الَّتي تفرَّعت عنها جماعة الرَّافضة[١٧] ، قتل زيد سنة ١٢٢ هـ ، وكان رحمه الله قويّاً عالماً ، نجح أتباعه في اليمن وطبرستان ، تتلمذ الأُصول لواصل بن عطاء ، ومن مذهبه جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، ومن أجل هذا صحَّح إمامة أبي بكر وعمر ، ولم يتبرَّأ منهما .

ولا تقيَّة عند الزَّيديَّة ، ولا عصمة للأئمَّة ، ولا غيبة لهم ، فهم أقرب الفِرَق إلى السُّنَّة .

---

(١٦) استطاع عبد الله بن الزُّبير بن العوَّام أن يعكِّر صفو الأُمويِّين ردحاً من الزَّمن ، ولكن عبد الملك بعد أن صفا له الجوُّ في العراق ، سيَّر الحجَّاج بجيش كثيف للقضاء على ثورة ابن الزُّبير ، فحاصر مكَّة المكرَّمة ، وأظهر ابن الزُّبير مع من بقي معه شجاعة نادرة ، حتَّى قتل في جمادى الآخرة سنة ٧٣ هـ ، وبذلك قضي على الزُّبيريِّين بعد حكم تسع سنين (٦٤ ـ ٧٣ هـ) للحجاز والعراق ومصر .

(١٧) ويرجع السَّبب في تسميتهم (الرَّافضة) إلى أنَّ زيداً لمَّا اشتبك مع يوسف بن عمر الثَّقفي ، قالوا له : « إنَّا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللَّذَيْن ظلما جدَّك علي بن أبي طالب » ، فقال زيد : « إنِّي لاأقول فيهما إلاَّ خيراً ، وما سمعت أبي يقول إلاَّ خيراً ، وإنما خرجت على بني أُميَّة لأنَّهم قتلوا جدِّي الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الْحَرَّة ، ثمَّ رموا بيت الله بحجر المنجنيق والنَّار » ، ففارقوه عند ذلك حتَّى قال لهم رفضتموني ، فأُطلق عليهم (الرَّافضة) .

الإماميّة : سمُّوا بهذا الاسم لاهتمامهم بالإسلام من ناحيـة الإمـامـة ، وهم يرون أنَّ الأئمَّة هم عليٌّ وأبناؤه من فاطمة حصراً ، وعلى التَّعيين واحداً واحداً[(١٨)] .

ومن تعاليمهم : عصمة الإمام ، وغيبة الحجَّة محمد بن الحسن العسكري ، وهو المهدي المنتظر ، والرَّجعة ، والتَّقيَّة .

وأهم فِرَق الإماميَّة (الاثنا عشريَّـة) ، وسُمِّيت بهـذا الاسم لأنَّهـا تقول بـاثني عشر إماماً على التَّرتيب من علي رضي الله عنه ، إلى محمد المهدي المنتظر[(١٩)] .

المُرْجِئَةُ : نشـأت هـذه الفرقـة في مـدينـة دمشق خلال النِّصف الثَّاني من القرن الأوَّل الهجري ، وإذا كان أسـاس الاعتزال الموقف من مرتكب الكبيرة ، أَيُسَمَّى مـؤمنـاً أمْ لا ، فأساس التَّشيُّع هو الإمامة ، وأساس الإرجاء هو تحديد معنى الإيمان ، ومـا يتبع ذلك من أبحاث .

والإرجاء هو التَّأخير ، ورأي أصحـاب هـذه الفرقـة إرجـاء الحكم على العصـاة إلى يوم القيامة ، ويتحرَّجون عن إدانة أيِّ مسلم مهما كانت الذُّنوب الَّتي اقترفهـا ، ويقولون ما الإيمان ؟ ويجيبون : لدينا عناصر ثلاثة : تصديق بالقلب ، وإقرار باللِّسان ، وقيام بأنواع الأعمال من صلاة وصوم وزكاة وحج ، فـأيُّ هـذه هو الإيـمـان ؟ أو هل هو كلُّهـا

---

(١٨) وهم اثنـا عشر إمـامـاً : ١ ـ علي بن أبي طـالـب ، ٢ ـ الحسَّن ، ٣ ـ الحسين ، ٤ ـ علي بن الحسين زين العابدين ، ٥ ـ محمـد بن علي البـاقر ، ٦ ـ جعفر بن محمـد الصَّـادق ، ٧ ـ موسى بن جعفر الكاظم ، ٨ ـ علي بن مـوسى الهـادي ، ٩ ـ محمـد بن علي الجـواد ، ١٠ ـ علي بن محمـد الهـادي ، ١١ ـ الحسن بن علي العسكري ، ١٢ ـ الْحُجَّة بن الحسن المهدي المنتظر ، (سيرة الأئمَّة الاثني عشر ، جـ١ و٢ ، دار التَّعارف بيروت ، هاشم معروف الحسني) .

(١٩) وينتسب إلى الشِّيعة الإماميَّة (الإسماعيليَّـة) ، ومنهم : (إخوان الصَّفـا وخُلاَّن الوفـا) ، الَّـذين عملوا بكلِّ طاقاتهم لتقويض أُسس جميع الأديان ، فهم من الباطنيَّة الَّذين عَدُّوا الفلسفة فوق الشَّريعـة ، وهم يدعون إلى دين جديد ، ودولة جديدة ، وتشيُّعهم ستار يخفون تحتـه آراءهم الحقيقيَّـة ، وجعلوا للدِّين باطناً وظـاهراً ، والحنيقـة في البـاطن ، ومن وجـد البـاطن ، فهو ليس بحـاجـة إلى الظَّـاهر من صلاة وصوم .

جميعاً ؟ وعلى هذا البحث دار الإرجاء ، فكثير منهم ظنّه تصديقاً بالقلب فقط ، أو هو معرفة الله بالقلب ، ولا عبرة بـالمظهر ، فـإنَّ مَنْ آمن قلبـه مؤمن مسلم ؛ وليس الإقرار باللِّسان ، ولا الأعمال من صلاة وصوم ونحوها إلاَّ جزءاً من الإيمان .

وحجَّتُهم أنَّ الإيمـان في اللُّغـة هو التَّصـديق ، ومنهم من رأى أنَّ الإيمـان تصـديق بالقلب ، وإقرار باللِّسان .

بينما الإيمان تصديق بالقلب ، ثمَّ إقرار باللِّسان ، وعمل بـالطَّـاعـات ، لأنَّ الصَّلاة لغةً الدُّعاء ، وفي الشَّرع لها معناها الخـاص ، فـالآيـات ربطت بين الإيمـان والعمل : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا .. ﴾[20] .

وكان أشـدُّ خصـومهم : المعتزلـة ، والخـوارج ، لأنَّ هـاتين الفرقتَيْن اشترطتـا في الإيمان العمل بالطَّاعات ، واجتناب المعاصي .

وروي عن المأمون ـ الخليفة العبَّاسي ـ أنَّـه قـال : « الإرجـاء دين الملوك »[21] ، وهذه الجملة تحتمل معاني عديدة ، منها أن الإرجـاء هو الـدِّين الَّـذي يرضـاه الملوك من أتبـاعهم ، فـلا يثيرون شغبـاً مهما ارتكب الملـك من معـاصٍ ، وتَكِـلُ أمرهم وعقـابهم أو العفو عنهم لله ، أو إنَّ الإرجاء أنسب المذاهب لأن يعتنقـه كلُّ مَلِـك ، لأنَّـه يحملـه على أن ينظر لأهل المذاهب كلِّهم من معتزلة وخوارج وشيعة .. نظرة واحدة معتدلـة ، فلا يكفِّر أحداً ، ولا يتَّخذ إجراء ضـدهم ، فكلُّهم مؤمنون ، ومن عصى فـأمره إلى الله ، وهذا يجعله فوق المذاهب ، فهو مَلِكُ الجميع ، ولكن المأمون كان أبعد النَّـاس عن هـذا ،

---

(٢٠) في كتـاب الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَبَشِّرِ الَّـذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَـاتِ ﴾ ، [٢٥/٢] ، ﴿ وَالَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَـاتِ ﴾ ، [٨٢/٢ ، ٥٦/٤ و ١٢١ ، ٤١/٧ ، ٧/٢٩ و ٥٨ ، ٧/٣٥ ، ٥٨/٤٠ ، ٢٢/٤٢ ، ٢/٤٧] ، ﴿ إِنَّ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّـالِحَـاتِ ﴾ ، [٩/١٠ ، ٢٣/١١ ، ٣٠/١٨ و ١٠٨ ، ٩٧/١٩ ، ٨/٣١ ، ٨/٤١ ، ١١/٨٥ ، ٧/٩٨] ، وعشرات الآيات الأُخرى الَّتي تربط الإيمان بالعمل .

(٢١) تاريخ بغداد لطيفور ، ص ٨٦

فقد تورَّط في الاعتزال ، وحَمَل النَّاس على اعتناقه ، وأجبرهم على القول بخلق القرآن ، وأوصى المعتصم بالاعتزال .

والمرجئة رضيت بحكم بني أُميَّة ، ما داموا نطقوا بالشَّهادَتَيْن ، تاركين الفصل في أمرهم إلى الله وحده ، وبسقوط الدَّولة الأُمويَّة سنة ١٣٢ هـ أفل نجم المرجئة ، ومن أعلامهم جَهْم بن صفوان[٢٢] ، الَّذي وضع العقيدة فوق العمل ، وهذا يدفع مثل هذه العقيدة إلى طرح الفرائض العمليَّة للإسلام .

☆ ☆ ☆

المُعْتَزِلَةُ : قامت هذه الطَّائفة عندما اختلف واصل بن عطاء[٢٣] مع أستاذه الحسن البَصْري[٢٤] في مسألة المؤمن العاصي الَّذي ارتكب كبيراً ، أيسمَّى مؤمناً أمْ لا ؟ ورأي واصل أن مثل هذا الشَّخص لا يمكن أن يسمَّى مؤمناً ، كما لا يسمَّى كافراً ، بل يجب أن يوضع في منزلة بين المنزلتَيْن ، وانتحى واصلُ ناحية بعيدة من المسجد ، وأخذ يشرح رأيه لزملائه من التَّلاميذ الَّذين اتَّبعوه ، فكان الحسن البصري يقول للَّذين التفُّوا حوله : « إنَّ واصلاً اعتزل عنَّا » ، ومن هنا جاءت التَّسمية : (المعتزلة) .

« كان مبدؤهم أوَّل أمرهم البُعد عن السِّياسة ، والتَّفرُّغ لعبادتهم ودعوتهم ..

---

(٢٢) جَهْم بن صفوان السَّمرقندي (أبو محرز) : [ت ١٢٨ هـ/٧٤٥ م] ، وهو رأس الجهميَّة ، قبض عليه نصر بن سيَّار وقتله ، (الأعلام ٢/١٤١) .

(٢٣) واصل بن عطاء الغزَّال (أبو حذيفة) : [٨٠ ـ ١٣١ هـ/٧٠٠ ـ ٧٤٨ م] ، رأس المعتزلة ، ومن أئمَّة البلغاء والمتكلِّمين ، له تصانيف منها : (أصناف المرجئة) ، و (المنزلة بين المنزلتَيْن) ، و (معاني القرآن) ، و (طبقات أهل العلم والجهل) ، و (السَّبيل إلى معرفة الحق) ، و (التَّوبة) ، (الأعلام ٨/١٠٩) .

(٢٤) الحسن بن يسار البصري (أبو سعيد) : [٢١ ـ ١١٠ هـ/٦٤٢ ـ ٧٢٨ م] ، تابعي كان إمام أهل البَصْرة ، وحَبْر الأُمَّة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشُّجعان النُّسَّاك ، وُلِد بالمدينة ، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب ، (الأعلام ٢/٢٢٦) .

ولكنَّهم تحوَّلوا عن هذا المبدأ بعد ذلك وانغمسوا في السِّياسة ، وصاروا وزراءَ وعمّالاً ، وأطلق المأمون والمعتصم والواثق أيديهم في السِّياسة ، فنكَّلوا بخصومهم ، وأذاقوا النَّاس العذاب إذا هم لم يقولوا بخلق القرآن .. وسمَّى المؤرِّخون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن »[٢٥] ، وأبطل المتوكِّل القول بخلق القرآن ، فهجر النَّاس المعتزلة ، فقلَّ عددهم ، وضعف شأنهم .

من أعلام المعتزلة :عمرو بن عبيد[٢٦] ، وأبو الهذيل العلاَّف[٢٧] ، وإبراهيم بن سيَّار النَّظَّام[٢٨] الَّذي تناول مسائل كثيرة عُدَّت من مسائل الاعتزال ، فردَّ كثيراً على شبه الملحدين ، وتكلَّم في إعجاز القرآن ، وفي القياس والإجماع ، وطالب بعرض الأحاديث على العقل ، ونفي مالم يقبله العقل منها ، وجاء بعده الجاحظ[٢٩] ، وكان لسان المعتزلة في عصره ، فردَّ على المُشَبِّهة ، وتكلَّم في إعجاز القرآن ، وألَّف كتاب : (حجج النُّبوَّة)[٣٠] ، نصرة للرِّسالة واحتجاجاً لها .

---

(٢٥) ظهر الإسلام ٩/٤

(٢٦) عمرو بن عُبَيْد التَّيمي بالولاء (أبو عثمان) : [٨٠ ـ ١٤٤ هـ/٦٩٩ ـ ٧٦١ م] ، شيخ للمعتزلة في عصره ، ومفتيها ، اشتهر بزهده وعلمه ، (الأعلام ٨١/٥) .

(٢٧) محمَّد بن الهُذَيْل العلاَّف (أبو الهذيل) : [١٣٥ ـ ٢٣٥ هـ/٧٥٣ ـ ٨٥٠ م] ، من أئمَّة المعتزلة ، اشتهر بعلم الكلام ، (الأعلام ١٣١/٧) .

(٢٨) إبراهيم بن سيَّار بن هانئ البصري (أبو إسحاق النَّظَّام) : [ت ٢٢١ هـ/٨٤٥ م] ، من أئمَّة المعتزلة ، تبحَّر في علوم الفلسفة ، (الأعلام ٤٣/١) .

(٢٩) عمرو بن بَحْر بن محبوب الكناني بالولاء (أبو عثمان الجاحظ) : [١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ/٧٨٠ ـ ٨٦٩ م] ، كبير أئمَّة الأدب ، ورئيس الفرقة الجاحظيَّة من المعتزلة ، له تصانيف منها : (الحيوان) ، و (البيان والتَّبيِّين) ، و (سحر البيان) ، و (التَّاج) ، و (البخلاء) ، و (المحاسن والأضداد) .. (الأعلام ٧٤/٥) .

(٣٠) وصلنا منه نتف ضمن (رسائل الجاحظ) ، وممَّا قاله الجاحظ فيه : « راح محمد ﷺ يتحدَّاهم بالقرآن منذ أوَّل لحظة ، ثمَّ أن يأتوا بسورة واحدة من مثله ، ولم يكن القوم الذين ينازلهم محمد ﷺ قوماً عاديِّين ، إنَّهم شَكِسون خَصِمُون ، لا يسكتون على ضيم ، ولا ينامون على مَوْجِدَة .. ما السِّرُّ في سكوت العرب عن المعارضة وقد صكَّ التَّحدِّي أسماعهم بإلحاح وشدَّة ؟ إنَّ القوم قد أدركوا علوَّ كعب القرآن =

انقسم المعتزلة إلى فِرَق ، أو إلى مدارس ، نسبة إلى رئيسهم ، مثل : الواصليَّة نسبة إلى واصل بن عطـاء ، والهـذليَّـة نسبـة إلى أبي الهـذيل العلاَّف ، والنِّظـاميَّـة نسبـة إلى إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام ، والجاحظيَّة نسبة إلى عمرو بن بحر الجاحظ .

وتتكوَّن عقيدة المعتزلة من خمسة أُصول هي :

التَّوحيد[٣١] : وهي الأصل الأوَّل ، والعدل : وهو الأصل الثـاني ، ومعنـاه أنَّ الله لا يحبُّ الفساد ، ولا يخلق أفعـال العبـاد ، بل إنَّهم يفعلون مـا أُمروا بـه ، ونُهوا عنـه ، بالقدرة الَّتي جعلها الله لهم ، وركَّبها فيهم ، وإنَّه لم يـأمر إلاَّ بمـا أراد ، ولم ينـهَ إلاَّ عمَّـا كره ، وإنَّـه ولي كلِّ حسنـة أمر بهـا ، بريء من كلِّ سيِّئـة نهى عنهـا . والوعيـد : وهو الأصل الثَّالث ، ومعناه أنَّ الله لا يغفر لمرتكب الكبائر إلاَّ بالتَّوبة . وأمَّا القول بالمنزلة بين المنزلتَيْن : وهـو الأصـل الرَّابـع ، فهـو أنَّ الفـاسـق المرتكب للكبـائر ليس بمـؤمن ولا بكافر ، بل يسمَّى فاسقـاً . أمَّـا القول بوجوب الأمر بـالمعروف والنَّهي عن المنكر : وهو الأصل الخامس ، فإنَّه واجب على سائر المؤمنين على حسب استطـاعتهم في ذلـك ، بالسَّيف فما دونه ، ولا فرق بين مجاهدة الكافر والفاسق .

وقالوا بخلق القرآن[٣٢] ، وبسلطة العقل وقدرتـه على معرفـة الحسن والقبيح ، ولو لم يرد بها شرع .

= الكريم في البلاغة والنَّظم ، وأحسُّوا بعجزهم التَّام عن الإتيان بمثلـه .. فسكتوا إيثـاراً للسَّلامـة ، وحتَّى لا ينكشف أمرهم أمام النَّاس » ، وأكَّد الجاحظ (إعجاز القرآن) في بيانه ونظمه . (انظر مجلة المجمع : الجزء الرَّابع ، المجلَّد الثَّالث والسِّتُّون) .

(٣١) آمن المعتزلة إيماناً عميقاً بوحدانيَّة الله عزَّ وجلَّ ، ولكنَّهم فلسفوا الوحدانيَّة ، فقالوا : ليست ذاته مركَّبـة من اجتماع أُمـور كثيرة ، لأنَّ كلَّ مركَّب مفتقر إلى غيره ، والله منزَّه عن الافتقـار ، إنَّـه واحـد تـام الأحديَّة ، ثمَّ قالوا : إنَّ ذات الله وصفاته شيء واحد ، فالله حيٌّ عالم قادر بذاته ، وهـذه مسـألـة لم تُثَر في الإسلام من قبل ، ولم يعرف عن الصَّحابـة شيء من هـذا ، فرأى السَّلف الصَّـالح أنَّـه يجب أن نؤمن بصفـات الله كما جـاءت ، ونكفَّ عن التَّـأويل ، لأنَّ صفـوة الصَّحـابـة والتَّـابعين لم يتعرَّضـوا لـذلـك ، وأنكروا الجدل والمراء في الدِّين .

(٣٢) أوَّل من قال بِخَلْقِ القرآن الْجَعْد بن دِرْهَم [ت نحو ١١٨ هـ/نحو ٧٣٦ م] ، جاء في ترجمتة : مبتدع لـه =

ولهم نظرة في آيـات كثيرة ، مثـل قـولـه تعـالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ ﴾ ، [الشّورى ١١/٤٢] . وآيـات ظـاهرهـا يـدلُّ على التّجسيم : ﴿ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ، [الفتح ١٠/٤٨] ، فقالوا : نتمسّك بـآيـات التّنزيـه ونشرحهـا ونوضّحهـا ونحلّلهـا ، ونؤوّل آيات الوجه واليدين بما يتّفق مع التّنزيـه ، فمعنى : (يدُ اللهِ) كما وصفهـا اليهود إنّهـا مغلولة ، يعني البخل ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ، [المائدة ٦٤/٥] ، تعبير مجـازي يـدلُّ على إثبـات غـايـة السّخـاء ، ونفي البخـل ، وفي قـولـه تعـالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ، [طه ٥/٢٠] ، قالوا : كناية عن المُلْك ، و (وجه الله) يعني ذاته ..

وهكذا ، لمّا خلص لهم دليل التّنزيه على النّحو الّذي فسّروه به ، أوّلوا كلَّ الآيـات الدّالّة على الجهة ، وعلى الأعضاء ، فعلوا ذلك في جميع الآيات والأحـاديث الّتي يخـالف ظاهرها أصل التّوحيد بالمعنى الّذي شرحوه ، فنفوا الجهة ، لأنَّ إثبـاتهـا إثبـات المكان ، وإثبـات المكان إثبـات الجسميَّـة ، وكانـوا منطقيّين مـع أنفسهم ، وسـاروا في تطبيـق نظريّاتهم إلى آخر حدود التّطبيق .

☆ ☆ ☆

= أخبار في الزّندقة ، سكن الجزيرة الفراتيّة ، وأخذ عنه مروان بن محمد لمّا ولي الجزيرة في أيّام هشـام بن عبد الملك فنسب إليه ، قال ابن تغري بردي في كلامـه عن مروان : « كان يعرف بـالجعـدي نسبـة إلى مؤدّبه جعد بن درهم » ، وقـال ابن الأثير : كان مروان يلقّب بـالجعـدي لأنّـه تعلّم من الجعـد بن درهم مذهبه في القول بخلق القرآن والقـدر ، (الأعلام ١٢٠/٢) . ثمَّ قـال بـذلـك الجهمُ بن صفوان ، ثمَّ جـاء المعتزلة وقالوا بخلاصة مـا قـال بـه الجهميَّـة ، وفي كتـاب (الْحَيْدَة) أو المنـاظرة الكبرى في محنـة خلق القرآن ، للإمـام عبـد العـزيـز بن يحيى بن مسلم الكنـاني المكي (ت : ٢٤٠ هـ) ، دار الفتـح ، بيروت ١٩٨٣ نقض لاعتقاد المعتزلة بخلق القرآن .

أهْلُ السُّنَّة :

عُرِفَ هذا الاسم منذ أيَّام أبي الحسن الأشعري البصري[٣٣] ، الَّذي نشأ معتزليّاً ، ثمَّ عَدَّلَ في بعض مسائل الاعتزال وصوَّب ، بعد تفكُّر وتدبُّر ، وبعد مناظرة أُستاذه أبي علي الْجُبَّائي[٣٤] ، حيث رجَّح رأي الأشعري ، ولا ينكر أنَّ الظُّروف التَّاريخيَّة ساعدته في انتشار مذهبه ، لقد ملَّ النَّاسُ المناظرات والمماحكات والمحن الَّتي شهدوها أو سمعوا بها في (محنة خَلْقِ القرآن) ، وتخلَّت السُّلطة أيَّام المتوكِّل[٣٥] عن نصرة المعتزلة ، ممَّا جذب نفوس النَّاس إلى الأشعري ، خصوصاً وقد امتلك حجَّة قويَّة لفتت الأنظار ، مع صلاح وتقوى وحسن منظر[٣٦] .

كما رُزِقَ الأشعري أتباعاً كثيرين من العلماء الأقوياء من شافعيَّة ومالكيَّة وحنفيَّة وحنبليَّة ، كالجويني (إمام الحرمين) ، والإسفراييني ، والباقلاني ، والشَّيخ أبي بكر القفَّال ، والحافظ الجرجاني ، والشَّيخ أبي محمَّد الطَّبري ، والحافظ الهروي ، والخطيب البغدادي ، وأبي القاسم القشيري ، وأبي حامد الغزالي ، وابن عساكر ، وأبي طاهر السِّلَفي ، وفخر الدِّين الرَّازي ، وسيف الدِّين الآمدي ، وعز الدِّين بن عبد السَّلام .. وكلُّ هؤلاء نصروا الأشعريَّة ، مع علوِّ مكانتهم ، وسعة نفوذهم ، ممَّا آل أخيراً إلى انتشار المذهب ، وتراجع خصومهم وأُفول نجمهم .

---

(٣٣) علي بن إسماعيل بن إسحاق (أبو الحسن الأشعري) : [٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ/٨٧٤ ـ ٩٣٦ م] ، من نسل الصَّحابي أبي موسى الأشعري ، مؤسِّس مذهب الأشاعرة ، كان من الأئمَّة المتكلِّمين المجتهدين ، وُلد في البصرة ، وتوفِّي ببغداد ، بلغت مصنَّفاته ثلاث مئة كتاب ، منها : (إمامة الصِّدِّيق) ، و (الرَّدُّ على المجسِّمة) ، و (مقالات الإسلاميِّين) ، و (الإبانة عن أُصول الديانة) .. (الأعلام ٢٦٣/٤) .

(٣٤) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الْجُبَّائي (أبو علي) : [٢٣٥ ـ ٣٠٣ هـ/٨٤٩ ـ ٩١٦ م] ، من أئمَّة المعتزلة ، ورئيس علماء الكلام في عصره ، نسبته إلى (جبى) من قرى البصرة ، اشتهر في البصرة ، ودفن بجبى ، (الأعلام ٢٥٦/٦) ، وجُبَّى في (معجم البلدان ٩٧/٢) .

(٣٥) جعفر (المتوكِّل على الله) بن محمد (المعتصم بالله) بن هارون الرَّشيد (أبو الفضل) : [٢٠٦ ـ ٢٤٧ هـ/٨٢١ ـ ٨٦١ م] ، (الأعلام ١٢٧/٢) .

(٣٦) انظر : ظهر الإسلام الجزء الرَّابع ، فصل أهل السُّنَّة ، والملل والنِّحل ٩٤/١ بحث (الأشعريَّة) .

لقد خالف الأشعري المعتزلة في أُصول فكرهم ، فقال بإثبات الصِّفات لله تعالى ، فإثبات العلْم والقدرة والإرادة له ، يدلُّ على وجود هذه الصِّفات متميِّزة ، لأنَّه لا معنى لكلمة عالم إلاَّ أنَّه ذو علم ، ولا لقادر إلاَّ أنَّه ذو قدرة .. إنَّ الله تعالى عالم بعلم ، قادر بقدرة ، حيٌّ بحياة ، مريدٌ بإرادة ، متكلِّم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، « وهذه الصِّفات أزليَّة قائمة بذاته تعالى ، لا يقال : هي هو ، ولا هي غيره ، ولا : لا هو ، ولا : لا غيره . والدَّليل على أنَّه متكلِّم بكلام قديم ، ومريد بإرادة قديمة أنَّه قد قام الدَّليل على أنَّه تعالى مَلِك ، والملك من له الأمر والنَّهي ، فهو آمرٌ ، ناهٍ . فلا يخلو إمَّا أن يكون آمراً بأمر قديم ، أو بأمرٍ محدَث ، وإن كان محدثاً فلا يخلو : إمَّا أن يحدثه في ذاته ، أو في محل أو لا في محل ، ويستحيل أن يحدثه في ذاته ، لأنَّه يؤدِّي إلى أن يكون محلاً للحوادث ، وذلك محال ، ويستحيل أن يحدثه في محل ، لأنَّه يوجب أن يكون المحل به موصوفاً ، ويستحيل أن يحدثه لا في محل ، لأنَّ ذلك غير معقول فتعيَّن أنَّه قديم ، قائم به ، صفة له ، وكذلك التَّفسير في الإرادة والسَّمع والبصر »[٣٧] .

وفي مسألة خلق القرآن ، خالف المعتزلة أيضاً : إنَّ الألفاظ المنزَّلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلي ، والدَّلالات مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلي .

وفي (العدل) مال الأشعريَّة إلى التَّوسُّط بين الجبر والاختيار ، وأنَّ الله يوجد القدرة والإرادة في العبد ، وقدرة العبد وإرادته لها مدخل في فعله ، فجميع المخلوقات من فعل الله ، بعضها بلا واسطة ، وبعضها بوساطة ، وكون العبد يتوسَّط ، هو موضوع المسؤوليَّة والمؤاخذة ، « والعبد قادر على أفعاله إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقة ضروريَّة بين حركات الرِّعْدَة والرِّعْشَة ، وبين حركات الاختيار والإرادة ، والتَّفرقة راجعة إلى أنَّ الحركات الاختياريَّة حاصلة تحت القدرة ، متوقفة على اختيار القادر » .

(٣٧) الملل والنِّحل ١/٩٥

وفي (الوعد والوعيد) قالوا : يخلد الكفّار في النّار ، والله قادر على أن يغفر لمن يشاء ، كما قالوا بالشّفاعة ، وأساس فكرتهم أنّ الله مالكٌ لخلقه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد .

كما قالوا بجواز رؤية الله في الآخرة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ، [القيامة ٧٥/٢٢و٢٣] .

أمّا خلق الأفعال الّتي قال عنها المعتزلة : إنّ الإنسان يخلق أفعال نفسه ، ولذلك يُسأل عنها ، فقد قال الأشاعرة عنها : إنّ للعبد قدرة مؤثّرة بإذن الله تعالى ، وإنّ له اختياراً ، ولكنّه مجبور على اختياره ، وقدرته ليست مؤثّرة أصلاً ، فنفوا الاختيار عن العبد ، وهذا هو الّذي يتّفق مع أنّ الله يخلق ما يشاء ، وبقيت أدقُّ مسائل الاختلاف بين الأشاعرة والمعتزلة تفسير الآية الّتي علّقت المشيئة ، مثل : ﴿ وَمَا تَشَاؤونَ إلاَّ أَنْ يَشَآءَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ ،[التّكوير ٨١/٢٩] .

وممّا يذكر أنّ أبا حامد الغزالي[٣٨] ، وفخر الدّين الرّازي[٣٩] ، اللّذين كان لهما مقام كبير جليل عند المسلمين ، فقوّيا مذهب الأشعري بما قدّماه أيضاً من مؤلّفات ، وَصَلا إلى نتيجة واحدة ، وهي : التّقليل من قيمة علم الكلام ، قال فخر الدّين الرّازي في وصيّته الّتي وضعها في آخر أيّامه : « ولقد اختبرت الطّرق الكلاميّة والمناهج الفلسفيّة ،

(٣٨) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطّوسي (أبو حامد) حجّة الإسلام : [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ/١٠٥٨ ـ ١١١١ م] ، وهو الغزّالي لمن نسبه إلى صناعة الغزل ، والغَزَالي لمن نسبه إلى غَزَالة من قرى طوس ، وهو فيلسوف متصوّف ، له نحو مئتي مصنّف ، من أشهرها : إحياء علوم الدّين ، وتهافت الفلاسفة ، والمنقذ من الضّلال ، وفضائح الباطنيّة ، (الأعلام ٢٢/٧) .

(٣٩) محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التّيمي البكري (أبو عبد الله) فخر الدّين الرّازي : [٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ/١١٥٠ ـ ١٢١٠ م] ، الإمام المفسّر ، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشي النّسب ، مولده في الرّي وإليها نسبته ، وتوفّي في هراة ، أقبل النّاس على كتبه في حياته يتدارسونها ، وكان واعظاً بارعاً باللّغتَيْن العربيّة والفارسيّة ، (الأعلام ٣١٣/٦) .

فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة الَّتي وجدتها في القرآن ، لأنَّه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله ، ويمنع عن التَّعمُّق في إيراد المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلاَّ للعلم بأن العقول البشريَّة تتلاشى في تلك المضايق العميقة ، والمناهج الخفيَّة » .

وأيَّام أبي منصور الماتريدي (٤٠) ـ الحنفي المذهب ـ ظهرت خلافات جزئيَّة مع الأشعري ـ الشَّافعي المذهب ـ ترجع إلى خلافات قليلة بين المذهبين ، لذلك انتصر للماتريديَّة علماء الحنفيَّة ، مثل فخر الإسلام البَزْدَوي ، والتفتازاني والنَّسَفي .. ولكنَّهم لم يبلغوا مبلغ الأشاعرة ، فرجحت كفَّة الأشاعرة .

سُمِّي الأشعري وأتباعه ، والماتريدي وأتباعه بأهل السُّنَّة ، والسُّنَّة هنا بمعنى الطَّريقة ، أي أنَّ أهل السُّنَّة اتَّبعوا طريقة الصَّحابة والتَّابعين في تسليمهم بالمتشابهات من غير خوض دقيق في معانيها ، بل تركوا علمها إلى الله ، وقد يسمَّون (الأثريَّة) نسبة إلى الأثر ، وهو الحديث .

واعتمدت حكومات قويَّة مذهب أهل السُّنَّة مثل : الدَّولة الأيوبيَّة في مصر وبلاد الشَّام ، ودولة الموحِّدين في المغرب والأندلس ، والدَّولة الغزنويَّة في أفغانستان والهند ، والدَّولة العثمانيَّة الَّتي ضمَّت قلب القارات القديمة الثَّلاث .

وأهل السُّنَّة يقولون إنَّهم لم يأتوا بشيء جديد ، وإنَّما اتَّبعوا مذهب السَّلَف ، أي مذهب الصَّحابة والتَّابعين ، يقول أحمد أمين في ظهر الإسلام ٤/١٠٥ :

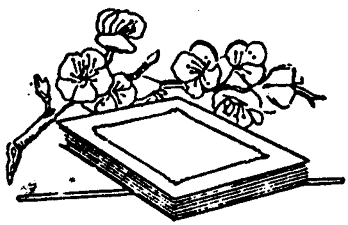
« لئن كان التَّسامح في زمانهم واجباً ، فهو في زماننا أوجب لسببَيْن :

الأوَّل : أنَّ كثيراً من أسباب الخلاف كان تاريخيّاً ، وقد أصبح في ذمَّة التَّاريخ كالخلاف في أيِّ الصَّحابة أفضل ، والخلاف فيما عمله الصَّحابة في حروبهم وسيرهم ، وقد انقضى كلُّ هذا ودفن في التَّاريخ ، فمالنا نفتح صفحة طواها الله ، ونحاكم التَّاريخ .

(٤٠) محمد بن محمد بن محمد أبو منصور الماتريدي : [ت ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م] ، نسبة إلى ماتريد محلَّة بسمرقند ، من كتبه : التَّوحيد ، أوهام المعتزلة ، الرَّدُّ على القرامطة ، (الأعلام ١٩/٧) .

والثَّـاني : أنَّ المسلمين اليوم مـدعُـوُّون للـوحـدة امتثـالاً لأمر الله ، ولـوقـوعهم في مشكلات أمام أُوروبَّة ، وأمام أنفسهم ، لا ينقذهم منها إلاَّ وحدتهم ، وليس أَسَرَّ لعـدوهم من فرقتهم ، فما بـالنـا نسيء إلى أنفسنـا بفرقتنـا ونُفرح العـدو بشتـاتنـا .. والله تعـالى يقـول : ﴿ وَٱعْتَصِمُـوا بِحَبْـلِ اللهِ جَمِيعـاً وَلاَ تَفَرَّقُـوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَـةَ اللهِ عَلَيكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً ﴾ ، [آل عمران ١٠٣/٣] .

☆ ☆ ☆



الحيَاةُ الفِكْرِيَّةُ

حركة التَّعريب والتَّرجمة والتَّأليف

العلوم الاجتماعيَّة ، العلوم الكَوْنِيَّة

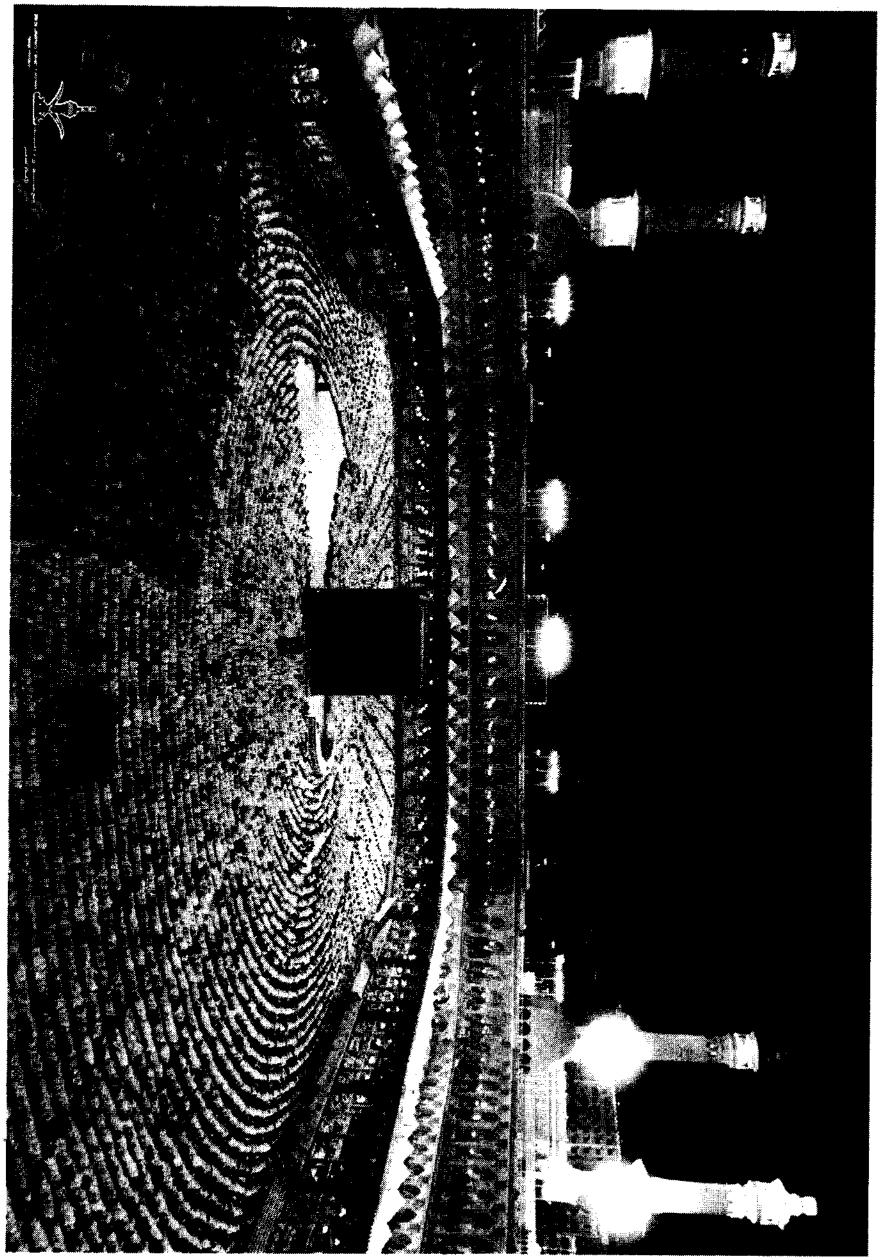
« لَمَّـا ألقـوا عصـا التَّسيـار ، واطمأنَّت بهم الـدَّار ، لم يلبثـوا أن نشطـوا للفتـح الثَّـاني ، وهـو الفتـح العلمي ، فـأتَـوْا في الفتحَيْن على قصر المدَّة بما لم يسبـق لـه مثيـل في الأُمم السَّالفـة ، وكان من ذلـك أنَّهم ملكـوا ناصية العلم كما ملكوا ناصية العالم » .

أحمد تيمور

[المهندسون في العصر الإسلامي : ١٠]

مـا إن استقرَّ الإسلام في البلدان الَّتي فُتِحَت ، حتَّى بـدأت الحركـة الفكريَّـة تنمو وتزدهر ، وَوصلت إلى أوج عطائها زمن العبـاسيِّين . والعـامل الأوَّل في ازدهـار الحيـاة الفكريَّة في الحضارة الإسلاميَّة ، تأكيد الإسلام على أهمِّيَّة العلم منـذ أن نزلت أوَّل كلمـة على قلب رسول الله ﷺ في غار حِرَاء ، وكانت ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ ، ورفع جلَّ شأنه من مكانـة العِلْم عندما أقسم بالقلم : ﴿ نٓ وَالقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ ، [القلم ٦٨/١] .

والآيـات الكريمـة الَّتي تحضُّ على إعْمال العقـل كثيرة ، حثَّت على تـوظيف الفكر واستخدامه ، ومع التَّفكُّر حضَّت على التَّدبُّر والتَّذكُّر ، من أجل الحصول على المعرفـة في الكون والحياة : ﴿ قُلْ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَـدِيرٌ ﴾ ، [العنكبوت ٢٩/٢٠] ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّـذِينَ



يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ ﴾ ، [الزُّمر ٩/٣٩] ، ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأُولِي الأَلْبابِ ﴾ ، [آل عمران ١٩٠/٣] .

وقال ﷺ : « ليس منِّي إلاَّ عالم أو متعلِّم »[1] ، « وطلب العلم فريضة على كلِّ مسلم »[2] .

وجعل ﷺ مداد العلماء أثقل في الميزان من دم الشُّهداء ، كما جعل فكَّ إسار المتعلِّمين من أسرى قريش في بدر الكبرى ، تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، لأنَّ التَّعليم مفتاح كلِّ مغلق من مغاليق الحياة ، فكان عند العرب المسلمين منذ بزوغ فجر الدَّعوة الإسلاميَّة جزءاً من الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، فليس عجباً أن يكون طلب العلم ـ بكلِّ مجالاته النَّافعة الْخَيِّرة ـ عبادة وفريضة في الإسلام .

قال أبو معاوية الضَّرير ـ وكان من علماء النَّاس ـ : أكلتُ مع الرَّشيد يوماً فصبَّ على يدي الماء رجل ، فقال لي : ياأبا معاوية ! أتدري مَنْ صبَّ الماء على يديك ؟ فقلت : لا ياأمير المؤمنين ، قال : أنا ، فقلت : ياأمير المؤمنين أنت تفعلُ هذا ؟ ودعوت له ، فقال الرَّشيد : إنَّما أردتُ تعظيم العِلْم[3] .

ومن عوامل ازدهار الحياة الفكريَّة في الحضارة الإسلاميَّة ، التَّعريب الَّذي بدأ زمن عبد الملك بن مروان ، واطِّلاع المسلمين على حضارات البلاد الَّتي فُتِحَت ، فازدهرت حركة التَّرجمة ونقل المعارف ، لينتقلوا بعدها إلى الإبداع ، ومن النَّقل إلى الاصطفاء والنَّقد ، مع طرح البدائل المشفوعة بالحجج والبراهين ، فبعد اطِّلاعهم على

---

(١) روى الدَّارمي ، والطَّبراني في الكبير عن ابن مسعود : « النَّاس رجلان ، عالم ومتعلِّم ، ولا خير فيما سواهما » .

(٢) رواه البيهقي عن أنس ، والطَّبراني في الأوسط .

(٣) البداية والنِّهاية ٢١٥/١٠ ، وتاريخ بغداد ٢٩٣/١٤ ، والفخري في الآداب السُّلطانيَّة ١٩٤

الفلسفات اليونانيّة والهنديّة والفارسيّة ، جابهوا خصومهم بالمنطق ، وقارعوهم بالحجّة ، ممّا أدّى إلى ظهور أساتذة العصور الوسطى : الغزالي ، ابن رُشد ، ابن خلدون ، ابن طفيل ، جابر بن حيان ، ابن الهيثم ، البيروني ، الخوارزمي ، ابن سينا ، ابن النّفيس ..

ويجمل الدّكتور عمر فرّوخ (بواعث النّقل في الإسلام) بما يلي(٤) :

كانت البواعثُ على نقل كتب العلوم والفلسفة إلى اللّغة العربيّة جمّة :

أ ـ احتكاك العرب بغيرهم من الأمم أطْلَعَ العربَ على ثقافات جديدة ، فأحبَّ العربُ أن يوسّعوا بهذه الثّقافات آفاقهم الفكريّة ، ولعلَّ ذلك كان ـ في أوّل الأمر ـ عاملاً من التّقليد المحض .

ب ـ حاجة العرب إلى علوم ليست عندهم ، ممّا كانوا يحتاجون إليه في الطّبِّ ، وفي معرفة الحساب والتّوقيت لضبط أوقات الصّلوات ، وتعيين أشهر الصّوم والحجِّ وأوّل السّنة .

جـ ـ القرآن الكريم وحثّه على التّفكير وطلب العلم .

د ـ العِلْمُ من توابع الحضارة . فحينما تزدهر البلاد سياسيّاً واقتصاديّاً ، ويكثر فيها التّرفُ ، ويستبحر العمران ، تتّجهُ النُّفوسُ إلى الحياة الفكريّة ، والتّوسُّع في طلب العلم .

هـ ـ رعايةُ الخلفاء للنّقل والنَّقَلَة ، فقد كان الخلفاء يدفعون للنّاقل ثقل الكتاب المنقول ذهباً ، ثمَّ إنَّ الخليفة العبّاسي المأمون أنشأ (بيت الحكمة) ، وجمع فيه النّاقلين ، فأصبح نقل الكتب الفلسفيّة جزءاً من سياسة الدّولة ، وكانت ثمّت أُسَرٌ وجيهةٌ غنيّة مُحِبّة للعلم ، تبذل الأموال في سبيل الحصول على الكتب ، وفي سبيل نقلها ، فإنَّ آل الْمُنَجِّم كانوا ينفقون خمس مئة دينار في الشّهر على نقل الكتب .

---

(٤) تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ـ بيروت ، ص : ١١٢

و ـ وزعم بعضهم أنَّ حُبَّ السُّريان لثقافتهم وحرصهم على نشرها ، حملاهم على نقل الكتب الفلسفيَّة إلى اللُّغة العربيَّـة ، ولا وجـه لهـذا الزَّعم ، لأنَّ الكتب المنقولـة لم تكن سُريانيَّة مسيحيَّة ، بل وثنيَّـة يونـانيَّـة ، أوهنـديَّـة ، ثمَّ إنَّ هؤلاء النَّقلـة السُّريـان ، لم ينقلوا هـذه الكتب تطوُّعـاً وابتـداءً من عنـد أنفسهم ، ولا هم نقلـوا الكتب الَّتي أحبُّـوا نقلها ، بل كانوا ينقلون ما يُطْلَب منهم نقله بأجْرٍ .

☆ ☆ ☆

حَرَكَةُ التَّعريبِ والتَّرجَمَةِ والتَّأليفِ :

التَّعريب : نقل الكتب والنُّصوص من لغة أجنبيَّة إلى اللُّغة العربيَّة .

والتَّرجمة : نقل الكتب وترجمتها من لغةٍ إلى لغةٍ أُخرى .

في العصر الأُموي : كان خالد بن يزيد بن معاوية أوَّل من بدأ حركة التَّعريب في العصر الأُموي ، لأنَّ خالداً المتوفَّى سنـة ٨٥ هـ/٧٠٤ م ، لمـا يئس من الفوز بـالخلافـة انقلب إلى العِلْم ، ودرس الكيمياء (علم الصَّنعة) على يد مريانوس الإسكندراني ، ثمَّ أمر بنقل كتب الكيمياء إلى العربيَّة ، وفي عهد عبد الملك ترجم أوَّل كتـاب في الطِّبِّ ، وهو (الموسوعة الطِّبيَّة) لمؤلِّفها أهرون بن عبة الإسكندراني .

في العصر العبَّاسي :

١ ـ قبل عصر المأمون[٥] : « أوَّل نقلٍ في الدَّولة العبَّـاسيَّـة ، قـام بـه عبـد الله بن المقفَّع (ت ١٤٢ هـ/٧٥٩ م) ، فقـد نقل عـدداً من كتب السُّلـوك إلى اللُّغـة العربيَّـة ، ووضع كتاب كليلة ودمنة بالاستناد إلى قصص فارسيَّة وهنديَّـة ، ومنـذ عهـد أبي جعفر المنصور (ت ١٥٨ هـ/٧٧٥ م) ، أصبح النَّقل في رعاية الدَّولة »[٦] .

(٥) من قيام الدَّولة العبَّاسيَّة سنة ١٣٢ هـ ، إلى بدء خلافة المأمون ١٩٨ هـ .

(٦) تاريخ العلوم عند العرب ، د . عمر فرُّوخ ، ص : ١١٤

وفي زمن هارون الرَّشيد أصبح التَّعريب عملاً منظَّماً ، وممَّن قام به ، يوحنا بن ماسويه ، وسَلَم أمين مكتبة بيت الحكمة ، والحجَّاج بن مطر .

٢ ـ **في عصر المأمون** (عصر الازدهار العلمي) : أصبحت بغداد أعظم منارة للعلم والمعرفة في العصور الوسطى ، وكان التَّعريب من كلِّ اللُّغات ، وقُدِّم لكلِّ مترجم قُبَالة كلِّ كتاب عرَّبه ، زِنَتَه ذهباً .

ولَمَّا انتصر المأمون على تيوفيل ملك الرُّوم سنة ٢١٥ هـ/٨٣٠ م ، علم بأنَّ اليونان كانوا قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات ، وألقوا بها في السَّراديب ، عندما انتشرت النَّصرانيَّة في بلادهم ، فطلب المأمونُ من تيوفيل أن يعطيه هذه الكتب مكان الغرامة الَّتي كان قد فرضها عليه ، فقبل تيوفيل بذلك ، وعدَّه كسباً كبيراً له ، أمَّا المأمون فعدَّ ذلك نعمة عظيمة عليه(٧) .

ومن المترجمين في هذه الفترة ، شيخ المترجمين حنين بن إسحاق ، وثابت بن قُرَّة ، والحجَّاج بن مطر .

وأورد الجاحظ (شرائط التَّرجُمان) فقال :

« ولا بُدَّ للتَّرجُمان من أن يكون بيانُه في نفس التَّرجمة ، في وَزْن علمه في نفس المعرفة ، وينبغي أن يكون أعلمَ النَّاس باللُّغة المنقولة والمنقول إليها ، حتَّى يكون فيهما سواءً وغاية ، ومتى وجدناه أيضاً قد تكلَّم بلسانَيْن ، علمنا أنَّه قد أدخل الضَّيمَ عليهما ، لأنَّ كلَّ واحدةٍ من اللُّغتَيْن تجذب الأُخرى ، وتأخذُ منها ، وتعترض عليها ، وكيف يكونُ تمكُّنُ اللِّسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكُّنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنَّما له قوَّةٌ واحدة ، فإن تكلَّم بلغةٍ واحدة استُفْرِغَتْ تلك القوَّة عليهما ، وكذلك إن تكلَّم بأكثر من لغتَيْن ، على حساب ذلك تكون التَّرجمة لجميع اللُّغات ، وكلَّما كان الباب من العلم أعسرَ

(٧) لذلك تمَّ تفجُّر علمي معرفي في العالم الإسلامي ، أدَّى إلى قيام حضارة عالميَّة جديدة ، راقية مزدهرة ، لها سماتها الخاصَّة .

وأضيق ، والعلماءُ بـه أقلّ ، كان أشـدَّ على المترجم ، وأجـدرَ أن يخطئ فيـه ، ولن تجـد البتَّةَ مترجماً يفي بواحدةٍ من هؤلاء العلماء »[٨] .

وكان المنهج العلمي المتَّبع في التَّرجمـة والتَّعريب الآتي : أوَّلاً العودة إلى عـدَّة نسـخ من الكتـاب المراد تعريبـه ، ومن ثَمَّ انتقـاء أفضل نسخـة موثَّقـة لاعتمادهـا ، ومراجعـة التَّرجمـات السَّـابقـة للكتـاب إن وُجِـدَت للاستفـادة منهـا ، والاطِّـلاع على أخطـائهـا لتداركها ، ثمَّ تقسيم العمل بين عـدَّة أشخـاص ، وإلى عـدَّة مراحل ، فواحـد يترجم من اليونـانيَّـة إلى السُّريـانيَّـة ، وآخر يترجم من السُّريـانيَّـة إلى العربيَّـة ، وثـالث يراجـع النُّصوص وينقِّح ويدقِّق .

وكان للنَّقل طريقتان :

ـ لفظيَّة : انتهجها يوحنا بن البِطْريق ، وعبد المسيح بن النَّاعمـة الحمصي ، وكانت التَّرجمة فيها حرفيَّة .

ـ ومعنويَّة : انتهجها حنين بن إسحاق ، وكانت تعطي المعنى واضحاً ، دون التَّقيُّد باللفظ .

ونتج عن حركة النَّقل والتَّعريب هذه ، اتِّساع الثَّقافة العربيَّة بما دخل عليهـا من ثقـافـات الأُمم ومنـاحي تفكيرهـا ، واطِّلاع العرب على علـوم كانـوا في حـاجـة إليهـا كالرِّيـاضيَّـات والطِّب ، وأتـاحت فرصـة بـاكرة للعرب المسلمين مكَّنتهم من أن يـؤدُّوا رسالتهم في تقدُّم الثَّقافـة الإنسـانيَّـة ، فارتقت الحضـارة العربيَّـة الإسلاميَّـة في الحيـاة العمليَّة العامَّة في البناء وأسباب العيش ، وفي الزِّراعة والصِّناعة والأسفار والتَّطبيب .. واغتنت اللُّغة العربيَّة بالمصطلحات العلميَّة والتَّعابير الفلسفيَّة[٩] .

---

(٨) الحيوان ٨٦/١

(٩) تاريخ العلم عند العرب ، ص ١١٩ ، وذكر د . عمر فرُّوخ بعدها سيِّئات النَّقل الَّتي قد تكون ، ومنهـا : عجز بعض النَّاقلين عن الإحاطة بالموضوعات الَّتي كانوا ينقلونها ، وخصوصـاً حينمـا كان يتولَّى النَّـاقل =

المكتبات :

وأقبل النَّاس في هذه الحضارة ، على اقتناء الكتب لازدهار صناعة الورق في كلّ من سمرقند ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، والأندلس .. ومن الملاحظ أنَّ عدداً من الورَّاقين ، كانوا باعة كتب وأُدباء أيضاً ، كابن النَّديم صاحب كتاب (الفهرست) ، وياقوت الْحَمَوي صاحب (معجم البلدان) ، و (معجم الأُدباء) .

وكانت المكتبات على ثلاثة أنواع :

مكتباتٌ عامَّة : ملحقة بالمساجد والمدارس ، منها مكتبة البَصْرة الَّتي كانت فهارسها عشرة مجلَّدات ، وكان في بغداد ست وثلاثون مكتبة عامَّة .

ومكتباتٌ خاصَّة : وهي مكتبات شخصيَّة في البيوت .

ومكتباتٌ عامَّة ـ خاصَّة : اقتصر استخدامها على طبقة من العلماء والطُّلاب والباحثين ، فيها كتب قيِّمة نادرة ، لا قدرة للأشخاص العاديِّين على اقتنائها ، مثل مكتبة (بيت الحكمة) في بغداد ، « لقد كانت نوعاً من الفتح الفكري ، الَّذي بلغ ذروته في صورة من صور النَّشوة الأدبيَّة والعلميَّة بين رجال الفكر »[١٠] ، « وإنَّ ما يميِّز مدرسة بغداد عن سواها ، الرُّوح العلميَّة الَّتي سادت أعمالها ، وذلك المضي من المعلوم إلى المجهول ، وملاحظة الظَّواهر بدقَّة لاستخلاص الأسباب من النَّتائج ، وكذلك عدم قبول الأشياء إلاَّ ما كان منها ثابتاً بالتَّجربة ، وكان العرب في القرن التَّاسع قد أصبحوا يملكون ذلك النَّهج العلمي الخصب ، الَّذي كتب له بعد ذلك بزمن طويل ، أن يكون ذا فعاليَّة في أحداث اكتشافاتهم العظيمة »[١١] .

= نقل كتاب في غير اختصاصه ، وعجز النَّاقلين في اللُّغات ، وقلَّة الأمانة في نفر من النَّاقلين ، وطمع النَّاقلين في التَّكسُّب بالنَّقل ، حتَّى كانوا ينقلون الفصل من الكتاب ويسمُّونه كتاباً .

(١٠) Louis Gardet : Méditerranée : Dialogue cultures dans les Etudes Méditerranéé nnes Ete 1957.No1

(١١) L.A.Sédillot : Histoire des Arabes Paris 1854

ويرى سيموندي : « أنَّ مدرسة بغداد لم تسهم في بعث أُوربة فحسب ، بل أثارت الفكر في آسية أيضاً ، فقد شقَّت العلوم الإسلاميَّة طريقها إلى الهند حوالي سنة ١٠١٦ م تحت إشراف محمود الغزنوي ، وانتقلت إلى السَّلجوقيِّين عن طريق عمر الْخَيَّام حوالي سنة ١٠٧٦ م ، ثمَّ إلى المغول عن طريق ناصر الدِّين الطُّوسي ، مؤسِّس مرصد مراغة سنة ١٢٦٠ م ، وإلى العثمانيِّين سنة ١٣٣٧ م ، ثمَّ أُدخلت إلى الصِّين حوالي سنة ١٢٨٠ م خلال حكم قبلاي خان ، أدخلها كوتشوكنج ، أمَّا أِلغ بك ، فقد أقام نصباً تذكاريّاً على شرفها في سمرقند سنة ١٤٣٧ م »[١٢] .

ويرى ابن خلدون أن (بيت الحكمة) كانت من أبرز الحوادث الَّتي وقعت في العصور الوسطى ، لقد كانت مجمعاً علمياً ، ومرصداً فلكيّاً ، ومكتبة عامَّة .

لقد كان لمكتبة بيت الحكمة مدير عام ، وفيها قاعات ترجمة ، وقاعات نُسَّاخ ، وعُمَّال تجليد .

أمَّا (دار الحكمة) في القاهرة ، فقد أُقيمت زمن الحاكم بأمر الله ، أواخر القرن الرَّابع الهجري ، ويسمِّيها ابن خلدون (دار المعرفة) ، أو (دار العِلْم) ، وكان فيها مئة ألف مجلَّد ، مع ست مئة مخطوطة في الفلك والرِّياضيَّات ، وزُوِّدت بكرتَيْن سماويتَيْن ، أُولاهما من صنع بطليموس ، والثَّانية من عمل عبد الرَّحمن الصُّوفي لشرح علم الفلك للطَّلبة ، وكان لهذه الدَّار أوقاف للإنفاق عليها .

و (مكتبة العزيز) في القاهرة أيضاً ، أقامها العزيز بالله ، وكان فيها مليون وست مئة ألف مجلَّد ، مع ستَّة آلاف مجلَّد في الرِّياضيَّات ، وعشرة آلاف مجلَّد في الفلسفة .

و (مكتبة قرطبة) ، وهي من عهد الحكم المستنصر في القرن الرَّابع الهجري ، وكان

---

(١٢) دور المسلمين في بناء المدنيَّة الغربيَّة ، ص ٢٥

فيها أربع مئة مجلَّد ، وكانت فهارسها أربعة وأربعين سجلاً ، ووجَّه الحكم إلى التَّخصُّص في اقتناء كتب العلوم والطِّب .

ومن المكتبات : مكتبة سيف الدَّولة ، وكان فيها عشرة آلاف مجلَّد ، والخزائن النُّوريَّة بدمشق ، ومكتبة أبي الفداء بحماة ، وكان فيها سبعون ألف مجلَّد .

« ولمَّا أدخل العرب صناعة الورق إلى الأندلس ازداد حجم الكتب وتضاعف عددها ، حتَّى كان في الأندلس الإسلاميَّة سبعون مكتبة عامَّة ، وكان الأغنياء يتباهون بكتبهم المجلَّدة بالجلد القرطبي ، ومحبُّو الكتب يجمعون النَّادر المزخرف منها .. »(١٣) .

كلُّ هذه النَّهضة العلميَّة ، في الوقت الَّذي تفشَّت الأُمِّيَّة في أوروبَّة في العصور الوسطى ، حيث الكتب نادرة ، حتَّى كتابهم المقدَّس لا يوجد خارج الأديرة ، لقد اقتنى الْحَكَم في قرطبة مكتبة فيها أربع مئة مجلَّد ، وبعد أربعة قرون كان عند ملك فرنسة شارل الخامس مكتبة فيها ألف مجلَّد فقط(١٤) .

---

(١٣) قصَّة الحضارة ٣٠٧/١٣

(١٤) يقول وُل ديورانت في قصَّة الحضارة ١٧٧/١٣ : « دعا سلطان بخارى طبيباً مشهوراً ليقيم في بلاطه ، فأبى محتجّاً بأنَّه يحتاج إلى أربع مئة جَمَل لينقل عليها كتبه ، ولمَّا مات الواقدي ترك وراءه ست مئة صندوق مملوءة بالكتب ، يحتاج كلُّ صندوق منها رَجُلَيْن لينقلاه » .
لقد عشقوا المعرفة عندما عشقوا الكتب ، الَّتي قالوا عنها : « الكتب إن خلوت لذَّتي ، وإن اغتممت سلوتي ، وإن قلت إن زهر البستان ونور الجِنَان يجلوان الأبصار ، ويمتعان بحسنها الألحاظ ، فإنَّ بستان الكتب يجلو العقل ، ويشحذ الذهن ، ويحيي القلب ، ويقوِّي القريحة ، ويعين الطَّبيعة ، ويبعث نتائج العقول ، ويستثير دفائن القلوب ، ويمتع في الخلوة ، ويؤنس في الوحشة ، ويضحك بنوادره ، ويسرُّ بغرائبه ، ويفيد ولا يستفيد ، ويعطي ولا يأخذ ، وتصل لذَّته إلى القلب من غير سأمة تدرك ، ولا مشقَّة تعرض لك .. إنَّها حياة الأزمنة الماضية ، ولبّها وجوهرها ، إنَّها تبرِّر لماذا عاش البشر وعملوا وماتوا ، وهي معنى حياتهم وخلاصتها .. » .



* رسم مكتبـــة من المكتبـــات الّتي كان العلماء يتردّدون إليها

العُصُورُ الوُسْطَى :

وبعد هـذا كلـه ، يقع بعضهم في خطـأ عظيم ، عنـدمـا يعمّمون قـائلين : العصور الوسطى عصور ظلام ، وتحريق العلماء ، ومحاربة للمعرفـة ، وهـذا حقٌّ لا ريب فيـه ، ولكنّه ينطبق هناك عندهم ، في أُوربّة وحدها ، عندما كانت تخاطب الإنسان بقولها : « أطِع وأنت أعمى » ، وهذا يقابلـه في الفترة ذاتهـا في حضـارتنـا العربيّـة الإسلاميّـة : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم إنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ ﴾ ، [البقرة ١١١/٢] ، ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ الظَّنَّ وَإنْ أَنْتُمْ إلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ ، [الأنعام ١٤٨/٦] .

تحريـق العلمـاء كان عنـدهم ، هنـاك في أُوروبّـة ، لا في بغـداد ودمشـق والقـاهرة وقرطبة .. ثلاث مئـة ألف عوقبوا على آرائهم في أُوروبّـة ، أُحرق منهم اثنـان وثلاثون ألفاً أحياء ، كان منهم العَالِمُ الطَّبيعي برونو Brunoe ، الّذي قـال بتعـدُّد العَوَالم ، فحكم

عليه بالقتل وأُحرق ميتاً ، وعوقب العالم الطَّبيعي الشَّهير غاليلو بالقتل لأنَّه اعتقد بدوران الأرض حول الشَّمس ، وحُبِس دي رومنس في رومة حتَّى مات ، ثمَّ حوكمت جثته وكتبه ، فحكم عليها بالحرق ، وأُلقيت في النَّار لأنَّه قال : إنَّ قوس قُزَح ليست قوساً حربيَّة بيد الله ، ينتقم بها من عباده ، إذا أراد ، بل هي من انعكاس ضوء الشَّمس في نقط الماء ، وأصاب جيوفت في جينيف ، وفايتي في تولوز ما أصاب هؤلاء ، وحُرِّقا شَيّاً على النَّار لآراء لا تستوجب حتَّى التَّعزير ، إن لم نقل إنَّها تستوجب الاحترام والتَّقدير[15] .

لقد كانت جامعاتنا في العصور الوسطى مفتوحة للطَّلبة الأُوروبيِّين الَّذين نزحوا إليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك أُوروبَّة وأمراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها ، فكانت بلاد العرب المسلمين مصدر إشعاع فكري وعلمي حضاري إلى أُوروبَّة ، إن جربرت الفرنسي درس في مدارس إشبيلية وقرطبة ، وتزوَّد بالحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، ثمَّ نُصِّب بابا في رومة باسم سلفستر الثَّاني ، وأدخل معارف عرب الشَّرق والغرب إلى أُوروبَّة .

وتمنَّى غوستاف لوبون لو أنَّ العرب المسلمين استولوا على فرنسة ، لتغدو باريس مثل قرطبة في إسبانية ، مركزاً للحضارة والعلم ، حيث كان رجل الشَّارع فيها يكتب ويقرأ ، ويقرض الشِّعر أحياناً ، في الوقت الَّذي كان فيه ملوك أُوروبَّة لا يعرفون كتابة أسمائهم ، ويبصمون بأختامهم .

ويضيف لوبون ساخراً ممَّن يقارن العرب المسلمين في العصور الوسطى بالأُوروبيِّين في الوقت نفسه : « فقد كان الوضع على عكس الوقت الحاضر تماماً ، العرب هم المتحضِّرون ، والأُوروبيُّون هم المتأخِّرون ، ولا أدلَّ على ذلك من أنَّنا نسمِّي تاريخ أُوروبَّة في ذلك الوقت العصور المظلمة »[16] .

(١٥) العرب والحضارة الحديثة ، مقالة الأُستاذ محمد بهجة الأثري ، ص ٩٤ ، دار العلم للملايِّين ، ١٩٥١ م .
(١٦) في التَّاريخ العبَّاسي والأندلسي ، د . أحمد مختار العبادي ، ص : ٢٩٤ و ٢٩٥

ويقول بـارتلمي سنت هير في كتـابـه عن القرآن الكريم : « أسفرت تجـارة العرب وتقليدهم ، عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظـة في القرون الوسطى ، وتعلَّم فرسـاننـا أرقَّ العواطف وأنبلها وأرحمها »[١٧] .

« وممَّـا لا شـكَّ فيـه أنَّ أحـداً لا يستطيع اليـوم ، أن يتكلَّم عن العصـور الـوسطى المظلمة ، بل يجب على المرء ألاَّ ينسى أنَّـه بينمـا كانت أُوروبَّـة في ذلـك الحين تتحـدَّر في وهدة البؤس ، وتستسلم لبراثن الانحلال ، كانت الحضارة الإسلاميَّة تزدهر في إسبـانيـة ، وقادة الدِّراسات العربيَّة في إسبانية اليوم ، يفتحون آفاقاً جديـدة لمعرفـة مـدى انتشـار وتأثير الحضارة الأنـدلسيَّـة العربيَّـة ، ومـا جلبتـه من ازدهـار وإشعـاع فكري ، ولقـد أثبت هؤلاء القادة الـدَّور الفعَّـال الَّـذي لعبتـه هـذه الحضـارة في تطوُّر الفلسفـة والعلم والشِّعر ، وفي كلِّ مجال آخر عند أُوروبَّة المسيحيَّة ، وأثبتوا كـذلـك أنَّ تـأثيرهـا تنـاول عمالقة الفكر في العصور الوسطى ، كما يظهر في كتابـات القـديس تومـاس ودانتي ، غير أنَّه لا يزال هناك أُناس كثيرون ، على جانبي البحر المتوسِّط وجبـال البرانس ، يرفضون الاعتراف بهذه الحضارة ودورها التَّكويني الَّـذي لعبتـه ، ومهما يكن في الأمر من شيء ، فإنَّ الدَّليل تلو الدَّليل يبرز أمامنا كلَّ يوم ليؤكِّد هـذه الحقيقـة ، إذ أنَّ تيـار الحضـارة الَّذي تفجَّر من قرطبة قد حافظ على لُبَاب الفكر القديم ونقله إلى العـالم الجـديـد ، قبل أن تملأ النَّهضة الحديثة منابع الفكر الَّتي كادت أن تجفَّ بقرون عديدة »[١٨] .

« ومـا المكتشفـات اليوم لتعـدُّ شيئـاً مـذكـوراً بـالقيـاس إلى مـا نـدين بـه للروَّاد المسلمين ، الَّذين كانوا قبساً مضيئاً لظلام العصور الوسطى في أُوروبَّة »[١٩] .

المؤسَّسَاتُ التَّعْليميَّةُ عِنْدَ الْمُسْلمينَ :

الكتـاتيب : وكانت تُلْحَق بـالمسـاجـد لتربيـة الأطفـال وتعليمهم ، وظهر المؤدِّبـون

(١٧) أورده غوستاف لوبون في (حضارة العرب) ، ص ٥٧٦

(١٨) Sancher Albornoz L Eopagne el L Islam

(١٩) الكيمياء عند العرب (سلسلة من الشَّرق والغرب) ، ص ١١٢

الّـذين أشرفـوا على تعليم أبنـاء الخليفـة وتـأديبهم ، قـال الأحمر النّحـوي : « بعث إليّ الرّشيد لتأديب ولده محمد الأمين ، فلمّا دخلت عليه قال : ياأحمر ، إنّ أمير المؤمنين قـد دفع إليك مهجـة نفسـه ، وثمرة قلبـه ، فصيّر يـدك عليـه مبسوطـة ، وطـاعتـك عليـه واجبـة ، فكن لـه بحيث وضعـك أمير المؤمنين ، أقرئـه القرآن ، وعرّفـه الآثـار ، وروّه الأشعـار ، وعلّمـه السُّنن ، وبصّره مـواقـع الكـلام ، وابـدأه وامنعــه الضّحــك ، إلاّ في أوقـاتـه ، وخـذه بتعظيم مشـايخ بني هـاشم إذا دخلوا عليـه ، ورفـع مجـالس القـوّاد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلاّ وأنت مغتنم منها فائدة تفيـده إيّـاهـا من غير أن تخرق بـه ، فتميت ذهنـه ، ولا تمعن في مسـامحتـه ، فيستحلي الفراغ ويـألفـه ، وقـوّمـه ما استطعت بالقُرْب والملاينة ، فإن أباها فعليك بالشّدّة والغلظة »[٢٠] .

واتّخذ المرابطون العلماء لتهذيب بنيهم ، فيذكر ابن خلدون ذلـك بقولـه : « فقـد نقــل عنهم من اتّخــاذ المتعلّمين لأحكام دين الله لصبيــانهم ، والاستفتــاء في فروض أعيـانهم ، واقتنـاء الأئمّـة للصّلوات في نـواديهم ، وتـدارس القرآن بين أحيـائهم ، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم »[٢١] .

وكان الأمير علي بن يوسف يرسل أبناءه إلى الأندلس ، لتلقّي العلم .يتشدّد في تعليم أولاده ، ويظهر ذلك من الرّسـالـة القصيرة الّتي أرسلهـا علي بن يوسف بن تـاشفين إلى ابنـه أبي بكر الّـذي كان يقـوم على رعـايتــه وتــأديبــه الطّبيب الأنــدلسي المشهـور أبو مروان بن زهر ، ويبـدو أن الأمير أبـا بكر لم يكن مكبّـاً على الـدّرس منصرفـاً إلى التّحصيل ، ممّا دعا والده إلى تقريعـه ونهره ، يقول فيهـا : « كتـابنـا ألهمـك الله رشـد نفســك ، ومن حضرة مَرّاكُش ، بعــد وصـول الـوزير الجليـل أبي مروان ابن الـوزير

(٢٠) مروج الذّهب ٣٦٢/٣

(٢١) ابن خلدون (العبر) ٢٠٨/٦

أبي العلاء بن زهر ، محل أبينا ، يشكو ما يكابده ويقاسيه من تضريبك ، فأمسك عليك رمقك ، وخذ من الأمور ما يسرّ ، وإلاَّ أنفذناك إلى ميورقة »[٢٢] .

المسَاجِدُ : اتُّبع فيها نظام الحلقات ، حيث تعليم القرآن الكريم ، والحديث الشَّريف ، والعلوم .. ثمَّ أصبحت في العصر العبَّاسي بمثابة الجامعات ، حيث الشُّروح والإملاء والمناقشة ، وعندما يأنس الطَّالب في نفسه الكفاءة ، يعتزل حلقة أُستاذه ، ليشكِّل حلقة جديدة لنفسه .

« وكان الطُّلاب يفدون إلىّ جامع تمبكت[٢٣] بعد أن يكونوا قد أتمُّوا حفظ أجزاء من القرآن في مدارسهم المحلِّيَّة ، فإذا أتمُّوا هذه الدِّراسات الأوَّليَّة ، شدُّوا الرِّحال إلى تمبكت ، وأقاموا بها حتَّى يتمّ تعليمهم ، وكانت معيشة هؤلاء الطُّلاب ميسَّرة ، فقد كان يستضيفهم الأثرياء من أهل المدينة وتجَّارها ، وكانت لجامع سنكري أوقافٌ[٢٤] ، ينفق من ريعها على طلبة العلم ...

وعندما ينتهي الطَّالب من هذه الدِّراسات المتنوّعة ، يحصل على إجازة تؤهِّله للعمل بتعليم القراءة ، أو الخطابة ، أو الإمامة ، أو القضاء ، ونتيجة لازدهار هذه الحياة العلميَّة ، أقبل النَّاس في شغف على اقتناء المكتبات الخاصَّة الَّتي تعجُّ بالكتب العربيَّة ، وكثرت المكتبات العامَّة .

---

(٢٢) دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية ، د . عصمت دندش ، دار الغرب الإسلامي ، ص ١٤٤ ، عن سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيَّامهم في الأندلس ، نشرها د . حسين مؤنس (صحيفة معهد الدّراسات الإسلاميّة في مدريد) ، المجلّد الثّاني سنة ١٩٥٤ ، ص : ٦٨ ـ ٧٠

(٢٣) مدينة تمبكت في السُّودان الغربي على نهر النِّيجر ، يقول السَّعدي في (تاريخ السُّودان) ص ١٢١ : « مدينة ـ تمبكت ـ مدينة إسلاميّة منذ البداية ، ما دنّستها عبادة الأوثان ، ولا سجد على أديمها لغير الرّحمن ... » .

(٢٤) جامع سنكري في تمبكت ، بنته سيِّدة تعرف باسم سنكري ، ضمَّ هذا الجامع نخبة من الفقهاء والعلماء ، أكثرهم من قبيلة جدالة .

ومع أن الحسن الوَزّان (ليون الإفريقي)[٢٥] قد زار هذه البلاد بعد انتهاء دولة المرابطين بأكثر من أربعة قرون ، إلاّ أنه ذكر أنّه يوجد بتمبكت كثير من الفقهاء والأطبّاء والدُّعاة ، الّذين كانوا يعيَّنون بأمر ملكي ، وكان الملك يحترم العلماء والأُدباء ، ويشتري كثيراً من المخطوطات ، ولا يبخل بدفع أثمانها مهما ارتفعت ، ممّا يدلُّ على تقديره الشّديد لرجال العلم والأدب ..

وارتبطت المدارس في غرب إفريقية ارتباطاً شديداً بالدّين ، وفي أوّل الأمر أُلحقت المدارس بالرباط ، حيث كان يقيم المرابطون للتّعبُّد والتّعلُّم ، فكان الشّيخ عبد الله بن ياسين معلّمهم الأوّل ، يعلّمهم الشّريعة ، ويقرئ الكتاب والسُّنّة ، حتّى صار حوله فقهاء ، ورتّب لهم أوقاتاً للمواعظ ، وعندما كان ينتهي من تعليم روّاد الرباط هذه الأشياء ، كان يأمرهم بالذّهاب إلى قبائلهم لينشروا الإسلام على أُسس سليمة ، بعيدة عن البدع والجهل .

وبتوسُّع المرابطين ، وخروجهم للجهاد ، أصبحت المدارس ملحقة بالمساجد ، فكان إلى جانب كلّ مسجد غرفة أو غرفتان لتعليم الأولاد ، وكانت هناك أمكنة لنوم الطُّلاب الّذين يحضرون من أماكن بعيدة ، على أنّ المساجد كانت بمثابة المقرّ الرّئيسي لتلقّي العلم ، إذ كانت تعقد في المسجد حلقات للدّراسة والمناقشة في أُمور الدّين الخافية .

وقد قلّد السُّودان هذا النّوع من المدارس ، فأصبحت تلحق بكلّ زاوية من زوايا الفرق المذهبيّة والدّينيّة ، مدرسة لتعليم الأطفال ، على أنّ القرى الصّغيرة الّتي تخلو من المساجد ، كان أطفالها يتلقّون تعليمهم على يد أحد الدُّعاة ، في ساحة صغيرة ، أو في إحدى الغرف في أحد بيوت القادرين »[٢٦] .

---

(٢٥) ستمرُّ ترجمته مفصّلة مع ترجمات (الرّحّالة العرب المسلمين) .

(٢٦) دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقية ، ص ١٦٥ وما بعدها (باختصار) .

وظهر نظام الإجازة (الشَّهادات العالية) ، حيث يستخدم الطَّالب بعد الإجازة كتب أُستاذه ، و يمكنه الرِّواية عنه .

وكان للمرأة دور في التَّدريس في حلقات المساجد ، وسجَّلت كتب التَّاريخ أسماء عشرات النِّساء المحدِّثات ، ومنهنَّ أمُّ الدَّرداء الصُّغرى (هُجَيمة بنت حُيَي الأوصابيَّة الدِّمشقيَّة)[٢٧] ، الَّتي روت عن أبي الدَّرداء ، وسلمان الفارسي ، وفضالة بن عبيدة ، وأبي هريرة ، وكعب بن عاصم ، وعائشة وآخرين كُثُر ، وكان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يجلس إليها بمسجد دمشق ..ومنهنَّ : زينب بنت أحمد بن عبد الرَّحيم المقدسيَّة (ت ٧٤٠ هـ) ، الَّتي كانت تدرِّس صحيح مسلم ، وسمع عنها الرَّحَّالة ابن بطوطة في جامع بني أُميَّة بدمشق .

مَجَالِسُ الْمُنَاظَرَة : وتعقد في بلاط الخلفاء والأُمراء ، أو المستشفيات لتشخيص مرض أو تحديد علاج ، كما في أيَّام عبد الملك بن مروان وهارون الرشيد والمأمون .

لقد بدأت المناظرات بعد الفتح ، فطرق المتناظرون كلَّ مواطن الخلاف بين العقيدتين : (الإسلام والمسيحيَّة) ، وكان البطريق النَّسطوري طيماثاوس Timotheus يعقد مناظرات في المسائل الدِّينيَّة بحضرة الخليفة الهادي ، ثمَّ هارون الرَّشيد[٢٨] .

وفي مجلس الرَّشيد كانت تدور مناظرات أدبية ، كان الأصعي ألمع رجالها ، ومن أهمِّ المناظرات الدِّينيَّة أيَّام الرَّشيد ، مناظرة كان الشَّافعي (محمَّد بن إدريس بن عثمان بن شافع) طرفها الأوَّل ، وطرفها الثَّاني محمد بن الحسن الشَّيباني وبشر المرسي ، ومكانها قصر الرَّشيد وبحضوره ، فأجاب الشَّافعي إجابات تدلُّ على سعة علمه وتبحُّره

---

(٢٧) توفِّيت سنة ٤١ هـ ، وأمُّ الدَّرداء الكبرى هي : خَيْرَة بنت أبي حَدْرَد ، وزوجها أبو الدَّرداء هو : عُوَيْمِر بن مالك ، (أعلام النِّساء ٢٠٥/٥) .

(٢٨) الدَّعوة إلى الإسلام ، السِّير توماس أرنولد ، ص ١٠٣

في الفقه والحديث وفنون العلوم ... وانبسط الشَّافعي في الكلام ، فتكلَّم بكلام حسن ، فأُعجب به الرَّشيد وقرَّبه من مجلسه ورفعه عليهما ، وقال الرَّشيد : أنا أمير المؤمنين وأنت القدوة ، فلا يدخل عليَّ أحد من الفقهاء قبلك[٢٩] .

وفي الأندلس كان المنصور بن أبي عامر يعقد طول أيَّام مملكته في كلِّ أُسبوع مجلساً ، يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ، ما كان مقيماً بقرطبة ، فقد كان كثير الغزوات ، وكان أبو العلاء صاعد بن الحسن[٣٠] سيِّد هذه المناظرات ، فأحبَّه ابن أبي عامر ، ولمَّا مات لم يحضر أبو العلاء مجلساً لأحد ممَّن ولي الأمر بعده ، وادَّعى ألماً لحقه بساقه ، ثمَّ خرج إلى صِقِلِّيَّة فمات فيها عن سِنٍّ عالية[٣١] .

المَدَارِسُ : بدأت المدارس بكثرة منذ القرن الخامس الهجري لازدحام المساجد بالحلقات ، ولإقبال النَّاس على العلم ، وأوَّل مسجد حُوِّل إلى مدرسة الجامع الأزهر سنة ٣٧٨ هـ ، ومن المدارس الشَّهيرة : المدرسة النِّظاميَّة ببغداد ، والمدرسة النُّوريَّة بدمشق ، وبنى صلاح الدِّين الأيُّوبي عدَّة مدارس في مصر ، وذكر ابن جبير عشرين مدرسة بدمشق أيَّام صلاح الدِّين فيها تخصُّص عالٍ ، وسبعاً وعشرين في حلب .

وفي الأندلس كانت المدارس الابتدائيَّة كثيرة العدد ، ولكنَّها كانت تتقاضى أُجوراً نظير التَّعليم ، ثمَّ أضاف الْحَكَم إليها سبعاً وعشرين مدرسة لتعليم أبناء الفقراء بالمجَّان ، وكانت البنات يذهبن إلى المدارس كالأولاد سواء بسواء .. وكان التَّعليم العالي يقوم به أساتذة مستقلُّون يلقون محاضراتهم في المساجد ، وكانت المناهج الَّتي يُدَرِّسُونَها هي الَّتي

---

(٢٩) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ٨٢/٩

(٣٠) صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي (أبو العلاء) : [ت ٤١٧ هـ/١٠٢٦ م] ، عالم بالأدب واللُّغة من الكتَّاب الشُّعراء ، ولد بالموصل ، ونشأ ببغداد ، وانتقل إلى الأندلس حوالي سنة ٣٨٠ هـ ، فأكرمه المنصور بن أبي عامر ، فصنَّف له كتاب (الفصوص) على نسق أمالي القالي ، توفِّي بصقِلِّيَّة ، (الأعلام ١٨٦/٣) .

(٣١) ظهر الإسلام ١٢٨/٣ ، عن : (المعجب) ، طبعة القاهرة .

كوّنت جامعة قرطبة ، والّتي لم يكن يفوقها في القرنين العاشر والحادي عشر إلاّ جامعتا القاهرة وبغداد الشّبيهتان بها ، وأُنشئت الكُلِّيَّات أيضاً في غرناطة وطليطلة وإشبيلية ومرسية والمرية وبلنسية وقادس[٣٢] .. الّتي نقشت فوق مداخلها : « يقوم العِلْم على عُمُد أربعة : حكمة العلماء ، وعدل العظماء ، وصلوات الأتقياء ، وشجاعة الشُّجعان » ، لقد وجدت هذه العبارة محفورة فوق مدخل الجامعات الكبرى الّتي عرفتها الأندلس في ظلّ الحكم الإسلامي ، وتقديم (حكمة العلماء) أمر يلفت النَّظر[٣٣] .

وعرفت هذه الكُلِّيَّات والمدارس الوظائف التّالية :

المدرِّس : وحقٌّ عليه أن يُحسن إلقاء الدَّرس ، وتفهيمه للحاضرين ، ثمَّ إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل يدرِّبهم ويأخذهم بالأهون إلى الأَصعب ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التَّحقيق ، وإن كانوا منتهين فلا يلقي عليهم الواضحات ، بل يدخل بهم في مشكلات الفقه ، ويخوض بهم عُبَابه الزَّاخر ، ومن أقبح المنكرات مدرِّس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب ، ويجلس يلقيها ثمَّ ينهض ، فهذا إن كان لا يقدر إلاَّ على هذا القدر ، فهو غير صالح للتَّدريس ، ولا يحلُّ له تناول معلومه ، وقد عطَّل الجهة ، لأنَّه لا معلوم لها ، وينبغي ألاَّ يستحقَّ الفقهاء المنزلون معلوماً ، لأنَّ مدرستهم شاغرة من مدرِّس ، وإن كان يقدر على أكثر منه ، ولكنَّه يسهِّل ويتأوَّل فهو أيضاً قبيح ، فإنَّ هذا يطرِّق العوام إلى رَوم هذه المناصب ، فقلَّ أن يوجد عاميّ لا يقدر على حفظ سطرين ، ولو أنَّ أهل العلم صانوه ، وأعطى المدرِّس منهم التَّدريس حقَّه ، فجلس وألقى جملة صالحة من العلم ، وتكلَّم عليها كلام محقِّق عارف ، وسأل وسُئِل ، واعتَرِض وأجاب ، وأطال وأطاب ، بحيث إذا حضره أحد

---

(٣٢) قصَّة الحضارة ٣٠٦/١٣

(٣٣) دور المسلمين في بناء الْمَدَنِيَّة الغربيَّة ، الأُستاذ حيدر بامات ، المركز الإسلامي - جنيف ، (بلا تاريخ) .

العوام أو المبتدئين أو المتوسّطين فهم من نفسه القصور عن الإتيان بمثل ما أتى به ، وعرف أنَّ العادة أنَّه لا يكون مدرِّس إلاَّ هكذا ، والشَّرع كذلك لم تطمح نفسه في هذه المرتبة ، ولم تطمع العوام بأخذ وظائف العلماء[٣٤] ..

المُعِيدُ : الَّذي عليه قدر زائد على سماع الدَّرس من تفهيم بعض الطَّلبة ونفعهم ، وعملِ ما يقتضيه لفظ الإعادة ، وإلاَّ فما يكون قد شكر الله تعالى على وظيفة الإعادة ، وأصبح والفقيه سواء .

المُفِيدُ : عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدَّرس فائدة ، من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك ، وإلاَّ ضاعَ لفظ الإفادة وخصوصيَّتها ، وكان أخذه العِوَض في مقابلتها حراماً .

المنتهي من الفقهاء : عليه من البحث والمناظرة فوق ما على مَنْ دونه .

فقهاء المدرسة : وعليهم التفهُّم على قدر أفهامهم ، والمواظبة إلاَّ بعذر شرعي .

قارِئ العُشْر : وينبغي أن يقدِّم قراءة العشر ، فيكون قبل الدَّرس ، وأن يقرأ آية مناسبة للحال ، موضوع الدَّرس .

المُنْشِد : وينبغي أن يذكر من الأشعار ما هو واضح اللَّفظ ، صحيح المعنى ، مشتملاً على مدائح للنَّبي الكريم ﷺ ، وعلى ذكر الله تعالى وآلائه وعظمته ، وخشية مقته وغضبه ..

كاتب الغَيْبة على الفقهاء : عليه اعتماد الحق ، وألاَّ يكتب على كلّ من لم يحضر ، ولكن يستفصح عن سبب تخلُّفه ، فإن كان له عذر بيَّنه ، وإن هو كتب على غير بصيرة فقد ظلمه حقَّه ، وإن سامح بمجرَّد حُطَام يأخذه من الفقيه فقد خان .

(٣٤) لهذه الوظائف ، انظر : معيد النِّعم ومبيد النِّقم ، للسُّبكي ، مؤسَّسة الكتب الثَّقافيَّة ، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦ م ، بيروت .

خَازِنُ الكُتُب : وحقٌّ عليه الاحتفاظ بها ، وترميم شعثها ، وحبكها عند احتياجها للحبك ، والضِّنَّة بها على من ليس من أهلها ، وبذلها للمحتاج إليها ، وأن يقدِّم في العارية الفقراء الَّذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء ، وكثيراً ما يشترط الواقف ألاَّ يخرج الكتاب إلاَّ برهن يحرز قيمته ..

هذا .. ولا ينسى دور الرِّباطات والزَّوايا والتَّكايا كمراكز فكريَّة ، ساهمت في نشر العلم والمعرفة ، بالإضافة إلى أهدافها الدِّينيَّة والاجتماعيَّة ، وممَّا يذكر أيضاً أن نظام التَّقاعد للمعلِّمين كان معمولاً به في العهد العثماني منذ القرن الثَّامن الهجري(٣٥) .

ومن مبادئ التَّربية الإسلاميَّة :

يقول ابن سينا : « إذا اقتضت الضَّرورة الالتجاء إلى العقاب ، ينبغي مراعاة ذلك بمنتهى الحذر والحيطة ، فلا يؤخذ الولد بالعنف ، وإنَّما بالتَّلطُّف ، ثمَّ تمزج الرَّغبة والرَّهبة » .

ويقول حجَّة الإسلام أبو حامد الغزالي : « من اشتغل بالتَّعليم فقد تقلَّد أمراً عظيماً ، فينبغي أن يأخذ نفسه بالشَّفقة على المتعلِّمين ، وأن يجريهم مجرى بنيه » .

وممَّا هو جدير بالذِّكر ، كومضة حضارية رفيعة ، أن وقفاً بدمشق دُعي (وقف القُضامة)(٣٦) ، ينفق ريعه في شراء (القضامة) ، لتُملأ جيوبُ الأطفال بها عند مجيئهم إلى المدرسة للتَّعَلُّم برغبة وإقبال ، وهذا تعزيز إيجابي رائع ، وتشجيع عظيم ، وترغيب كبير على طلب العلم والسَّعي إليه بشوق ومحبَّة .

☆ ☆ ☆

---

(٣٥) العرب والحضارة الحديثة ، ص ٦٣

(٣٦) القضامة : نوع من الحِمَّص المشوي المملَّح ، محبَّب للأطفال جدّاً .

أهَمُّ المراكِزِ الفكرِيَّة عِنْدَ الْمُسْلِمينَ :

المدينة المنوّرة : لقد كان مسجد الرّسول ﷺ مركزاً للحياة الفكريّة والاجتماعيّة والإداريّة ، وظهر فيه التّخصُّص ، فاشتهر علي رضي الله عنه بالقضاء ، ومعاذ بن جبل بالفقه والأحكام ، وأُبَيُّ بن كعب ، وابن عبّاس في القراءات والتّفسير .

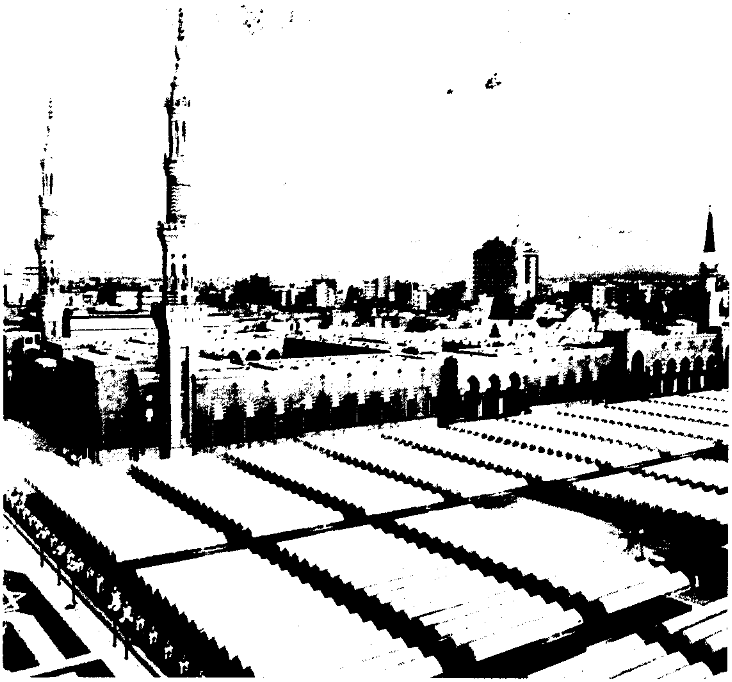
وتميّزت المدينة المنوّرة باعتمادها على الحديث الشّريف أكثر من اعتمادها على الرّأي والقياس ، كما هي الحال في مدارس العراق ، وبرز فيها محمّد بن شهاب الزُّهري ، وسعيد بن الْمُسَيَّب ، وعروة بن الزُّبير ، وكانت أشهر الحلقات العلميّة حلقة :

الإمام مالك بن أنس : إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمّة الأعلام ، صاحب المذهب المالكي ، ولد وتوفّي في المدينة المنوّرة ، فنشأ في البيئة الّتي نزلت فيها الرّسالة الإسلاميّة ، ورأى بعضاً من صحابة الرّسول ﷺ مِمَّن كانوا أحياء حين حياته ، فكان عند المسلمين الحجّة في فقه الدّين ، وتفسير النُّصوص على المبادئ الّتي أُخذت عن رسول الله ﷺ ، ألّف كتاب (الموطّأ) ، وهو أوّل كتاب أُلِّف في الفقه الإسلامي ، فاتّخذ فيه القرآن الكريم وجملة من الأحاديث الصّحيحة أساساً في إخراجه ، معتمداً في انتقاء الأحاديث على سمعة الذّين حدّثوا بها ، وشهرتهم بالصّدق والأمانة والتّقوى ، وعقّب على الموطّأ بما سمّاه : (المدوّنة الكبرى) .

قال الإمام مالك إنّ أُصول الفقه تقوم على الإجماع ، وقصد به إجماع فقهاء المدينة المنوّرة ، بوصفها مركز الفقه الإسلامي ، ومبعث نوره ، ومأوى رجاله وثقاته ، ولقد خالفه في ذلك كثير من الفقهاء وأئمّة الدّين ، وعلى رأسهم أبو حنيفة النُّعمان ، لأنّ الاستئثار بالرّأي لفقهاء المدينة في غير صالح المسلمين ، وإيصاد لباب الاجتهاد عند فقهاء غيرها من الأمصار الإسلاميّة .

أمّا السُّنّة الّتي اتّبعها في إقامة مذهبه ، فترجع إلى أصلَيْن : الإجماع ، والقياس . وقيّد القياس بما سمّاه (الاستصلاح) ، وقصد بذلك عدم الأخذ به إذا كان في ذلك

ما يضرُّ بمصالح المسلمين . ولقد انتشر المذهب المالكي في شمالي إفريقية أوّل الأمر ، ثمَّ دخل الأندلس في عصر عبد الرَّحمن الثَّاني : [٨٢٢ ـ ٨٥٢ م] ، إذ حمله إليها يحي بن يحي[٣٧] ، الَّذي لُقِّب بحكيم الأندلس . والمذهب المالكي لا يزال حتَّى اليوم ، مذهب أكثر المسلمين في صعيد مصر ، وشمالي إفريقية وعُمَان والبحرين والكويت .



(المدينة المنوَّرة)

(٣٧) يحي بن يحي بن أبي عيسى كثير بن وسلاس اللَّيثي بالولاء (أبو محمَّد) : [١٥٢ ـ ٢٣٤ هـ/٧٦٩ ـ ٨٤٩ م] ، عالم الأندلس في عصره ، أصله من قبيلة مصمودة من طنجة ، قرأ بقرطبة ، ورحل إلى المشرق شابّاً ، فسمع الموطَّأ من الإمام مالك ، وأخذ عن علماء مكَّة ومصر ، وعاد إلى الأندلس فنشر فيها مذهب مالك ، وعلا شأنه عند السُّلطان ، فكان لا يُولَّى قاضٍ في أقطار بلاد الأندلس إلاَّ بمشورته واختياره ، توفِّي بقرطبة ، (الأعلام ١٧٦/٨) .

دِمَشْقُ : برز فيها عبادة بن الصَّامت ، وتميم الدَّاري ، و :

الإمام الأوزاعي[٣٨] : عبد الرَّحمن بن عمرو بن يُحْمِد ، إمام الدِّيار الشَّاميَّة في الفقه والزُّهد ، له كتاب (السُّنن) في الفقه ، و (الشَّمائل) ، ويقدَّر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها ، وكانت الفتيا تدور بالأندلس على رأيه إلى زمن الحكم بن هشام .

وتميَّزت مدرسة دمشق بتدوين التَّاريخ المبكِّر ، وذلك منذ أيَّام معاوية بن أبي سفيان على يد عبيد بن شَرِيَّة[٣٩] ، وترك لنا المؤرِّخ الحافظ ، الرَّحَّالة ، محدِّث الدِّيار الشَّاميَّة ابن عساكر الدِّمشقي[٤٠] (تاريخ دمشق) في أكثر من ثمانين جزءاً ، وفي الطِّب كتب أحمد بن أبي أُصيبعة[٤١] ، الطَّبيب المؤرِّخ : (عيون الأنباء في طبقات الأطبَّاء) في مجلَّدَيْن .

بَيْتُ الْمَقْدِسِ : بعد تحريرها من يد الصَّليبيِّين عام ١١٨٧ م ، بنى صلاح الدِّين الأيُّوبي المدرسة النَّاصريَّة والصَّلاحيَّة ، ثمَّ أصبح عدد المدارس عشرين مدرسة ، ويمثِّل هذا المركز الفكري أبو بكر الطُّرطُوشي : محمَّد بن الوليد القرشي الفهري[٤٢] .

---

(٣٨) ولد في بعلبك ، وتوفِّي ببيروت : [٨٨ ـ ١٥٧ هـ/٧٠٧ ـ ٧٧٤ م] .

(٣٩) عبيد بن شَرِيَّة الجرهمي : [ت نحو ٦٧ هـ/نحو ٦٨٦ م] راوية من المعمَّرين ، استحضره معاوية من صنعاء إلى دمشق ، فسأله عن أخبار العرب الأقدمين وملوكهم ، فحدَّثه ، فأمر معاوية بتدوين أخباره ، فأملى كتابين : كتاب الملوك وأخبار الماضين ، وكتاب الأمثال ، (الأعلام ١٨٩/٤) .

(٤٠) علي بن الحسن بن هبة الله : [٤٩٩ ـ ٥٧١ هـ/١١٠٥ ـ ١١٧٦ م] ، ثقة الدِّين ابن عساكر الدِّمشقي .

(٤١) موفَّق الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي ، كان مولده ووفاته في دمشق ، وفيها صنَّف كتابه سنة ٦٤٣ هـ .

(٤٢) الطُّرطُوشي : [٤٥١ ـ ٥٢٠ هـ/١٠٥٩ ـ ١١٢٦ م] ، من فقهاء المالكيَّة الحفَّاظ ، من أهل طرطوشة Tortosa بشرقي الأندلس ، تفقَّه ببلاده ، ورحل إلى الشَّرق سنة ٤٧٦ هـ ، فحجَّ وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان ، وأقام في الشَّام . توفِّي بالاسكندريَّة ، (الأعلام ١٣٣/٧) .

البَصْرَةُ : تميَّزت البصرة أنَّها مركز إشعاع ديني ولغوي وفلسفي ، برز فيها أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس) ، والحسن البصري[٤٣] : وهو تابعي كان إمام أهل البصرة ، وحبر الأُمَّة في زمنه ، وهو أحد العلماء الفقهاء والفصحاء الشُّجعان النُّسَّاك ، قال الغزالي : كان الحسن البصري أشبه النَّاس كلاماً بكلام الأنبياء ، وأقربهم هدياً من الصَّحابة ، وكان غاية في الفصاحة ، تتصبَّب الحكمة من فيهِ ، ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه : إنِّي قد ابتُلِيت بهذا الأمر ، فانظر لي أعواناً يعينونني عليه ، فأجابه الحسن : أمَّا أبناء الدُّنيا فلا تريدهم ، وأمَّا أبناء الآخرة فلا يريدونك ، فاستعن بالله .

وواصل بن عطاء[٤٤] : رأس المعتزلة ، ومن أئمَّة البلغاء والمتكلِّمين ، سُمِّي أصحابه بالمعتزلة لاعتزاله حلقة درس الحسن البصري ، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمَّى (الواصِلِيَّة) ، وهو الَّذي نشر مذهب الاعتزال في الآفاق ، بعث من أصحابه عبد الله بن الحارث إلى المغرب ، وحفص بن سالم إلى خراسان ، والقاسم إلى اليمن ، وأيوب إلى الجزيرة ، والحسن بن ذكوان إلى الكوفة ، وعثمان الطَّويل إلى أرمينية .

ومحمَّد بن سيرين[٤٥] : الَّذي اشتهر بالورع ، وتعبير الرُّؤيا ، وينسب إليه كتاب : (تعبير الرُّؤيا) .

وسيبَوَيْه[٤٦] : (عمرو بن عثمان بن قنبر) : إمام النُّحاة ، وأوَّل من بسَّط علم النَّحو ، ولد في إحدى قرى شيراز ، وقدم البَصْرة ، فلزم الخليل بن أحمد الفراهيدي

---

(٤٣) أبو سعيد الحسن بن يسار البصري : [٢١ - ١١٠ هـ/٦٤٢ - ٧٢٨ م] .

(٤٤) أبو حذيفة واصل بن عطاء : [٨٠ - ١٣١ هـ/٧٠٠ - ٧٤٨ م] .

(٤٥) أبو بكر محمَّد بن سيرين ، مولده ووفاته بالبصرة : [٣٣ - ١١٠ هـ = ٦٥٣ - ٦٢٩ م] .

(٤٦) سيبويه بالفارسيَّة : (رائحة التُّفاح) ، ولد سيبويه سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م ، وتوفِّي سنة ١٨٠ هـ/٧٩٦ م .

ففاقه ، وصنَّف كتابه المسمَّى (كتاب سيبويه) في النَّحو ، لم يصنع قبله ولا بعده مثله ، ورحل إلى بغداد فناظر الكسائي ، وأجازه الرَّشيد بعشرة آلاف درهم .

الكُوفَةُ : نافست البَصْرة في النَّحو ، ومن أشهر علمائها في هذا العلم الكسائي (علي بن حمزة) ، وتلميذه الفرَّاء (يحي بن زياد)(٤٧) ، والمفضَّل الضَّبِّي الَّذي صنَّف كتابه (المفضَّليَّات) وأهداه إلى الخليفة المهدي .

وفي الدِّين برز فيها عبد الله بن مسعود ، والإمام الشَّعبي (عامر بن شراحيل) ، وإبراهيم النَّخعي ، وجعفر الصَّادق .

جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي (أمير المؤمنين) رضي الله عنه : [٨٠ ـ ١٤٨ هـ] الَّذي كان يفخر بجده أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فهو القائل : « إنَّ أبا بكر ولدني مرَّتَيْن » ، [أعيان الشيعة : ٦٥٩/١] ، لأَنَّ أُمَّ جعفر الصَّادق فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وأُمُّها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين .

لقد سلَّم الباقر ابنه جعفر شعار حياته في مقولَتَيْن رائعتين :

١ ـ شيعتنا من أطاع الله .

٢ ـ وإنَّ الله خبأ رضاه في طاعته ، فلا تحقرنَّ من الطَّاعات شيئاً ، فلعل رضاه

---

(٤٧) أبو زكرياء الفرَّاء : [١٤٤ ـ ٢٠٧ هـ = ٧٦١ ـ ٨٢٢ م] ، إمام الكوفيِّين وأعلمهم بالنَّحو واللُّغة وفنون الأدب ، كان يقال : « الفرَّاء أمير المؤمنين في النَّحو ، ولد بالكوفة ، وانتقل إلى بغداد ، وعهد إليه المأمون بتربية ابنيه ، فكان أكثر مقامه بها ، فإذا جاء آخر السَّنة ، انصرف إلى الكوفة فأقام أربعين يوماً في أهله يوزِّع عليهم ما جمعه ويبرُّهم ، وتوفِّي في طريق مكَّة ، وكان مع تقدُّمه في اللُّغة فقيهاً متكلِّماً ، عالماً بأيَّام العرب وأخبارها ، عارفاً بالنُّجوم والطِّب ، يميل إلى الاعتزال ، من كتبه : المقصور والممدود ، المعاني ، اللُّغات ، مشكل اللُّغة ..

فيه ، وخبّأ سخطه في معصيته ، فلا تحقرنّ من معصيته شيئاً فلعل سخطه فيه ، وخبّأ أولياءه في خَلْقه ، فلا تحقرنّ أحداً فلعل ذلك ولي .

كان الإمام مثلاً عالياً للأُمَّة ، وواحداً من كبار فقهاء المدينة المنوَّرة .

من آرائه المتميزة : باب الاجتهاد مفتوح أبداً في الظّنّيات الّتي ليس فيها دليل من الشّرع يفيد اليقين ، أما القطعيات فلا اجتهاد فيها ، كالعقائد الواجبة ، وما ثبت من الأحكام العملية .. و :

أبو حنيفة النُّعمان[٤٨] : الّذي شرع يدرّس في مسجد الكوفة ، حيث وضع قواعد مذهبه ، وبثّ في تلاميذه روح الاستقلال في الرَّأي ، حتّى أتمّ وضع المذهب الحنفي ، وهو أحد المذاهب الفقهيَّة الكبرى في التّشريع الإسلامي ، ولم يكتب أبو حنيفة كتاباً يضمُّ شتات مذهبه ، وإنّما قام بذلك من بعده تلميذه أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم بن حبيب)[٤٩] كبير قضاة بغداد ، فنشر المذهب ، وفسّر ما غمض من أُصوله ، حتّى ارتفع ذكر أبي حنيفة في بلاط الخليفة الرَّشيد ، وأصبح مذهبه من المذاهب الأربعة الكبرى في فقه الإسلام .

يقوم المذهب الحنفي على ثلاثة أُصول :

القرآن الكريم ، وهو المأخذ الثّابت للشّريعة .

ثمّ الحديث الشّريف .

ثمّ القياس ، غير أنّه فسّر القياس تفسيراً أوسع ممّا فُسّر به من قبل ، فأدخل فيه عنصراً جديداً سمّاه (الاستحسان) ، بحيث يرجع فيه إلى حكم العقل ، والأخذ بما هو

---

(٤٨) أبو حنيفة النّعمان بن ثابت : [٨٠ ـ ١٥٠ هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م] .

(٤٩) أبو يوسف : [١١٣ ـ ١٨٢ هـ] ، تنبّأ له أبو حنيفة لما أرادت أُمّه منعه من حضور مجالسه في صنعة يقتات منها ، قال لها أبو حنيفة : سيأتي يوم على ابنك يأكل أطايب الطّعام بأطباق الذّهب ، وكان ذلك أيّام الرّشيد .

حق وعدل ، والعدول عمّا يتّضح أنّه جائر أو منافٍ لصالح المجتمع ، غير أنّ هذا الاتّجاه بما تضمّن من حرّيّة في الرّأي ، عاد من بعد أبي حنيفة فجمد ، وانتهى إلى فكرة الأخذ بالسّوابق الّتي جرى عليها المتقدّمون من الفقهاء .

بَغْدادُ : برز فيها :

محمّد بن إدريس الشّافعي[٥٠] : إمام من أئمّة المذاهب الأربعة الكبرى في فقه الإسلام ، ولكن مذهب مالك في المدينة المنوّرة ، ومذهب ابن حنبل في بغداد ، جعله يهجر بغداد ، وهبط الفسطاط بأرض مصر ، ومضى يبثّ مبادئ مذهبه وقواعده في مسجد عمرو بن العاص ، وكتاب (الأُمّ) أعظم ما خلّف الشّافعي من مؤلّفات في الفقه والشّريعة ، وقد جمع بين دفتيه أطراف منهجه من قواعد وبحوث ومناقشات .

ومن أخصّ ما يجري عليه مذهب الشّافعي ، أنّه وسّع من معنى (الإجماع) ، ومحصّلة إجماع الرّأي بين فقهاء المسلمين على مسألة فقهيّة أو تشريعيّة ، وألاّ يؤخذ بإجماع المدينة المنوّرة من الفقهاء وحدهم على مذهب مالك بن أنس ، فقد كان مالك يقول إن إجماع المدينة على مسألة خلافيّة في الدّين ، كافٍ لتقرير صحّتها ، فخرج الشّافعي على هذا الرّأي ، لأنّ فقهاء المدينة لم يؤتوا العصمة من الخطأ ، أمّا إذا اجتمع فقهاء المسلمين على رأي ، فذلك أدنى إلى العصمة ، وأقرب إلى الحقّ ، كذلك ذهب إلى أنّ الرّأي الفردي ، وإن اعتُرِفَ لصاحبه بالأمانة في الدّين ، لا يصحّ أن يؤخذ به أصلاً من أُصول التّشريع .

وأحمد بن حنبل[٥١] : صاحب (المُسْنَد) ، الّذي يحتوي على ثلاثين ألف حديث في ستّة مجلّدات ، اختارها من سبع مئة ألف حديث ، وهذا ما لم يتّفق لغيره ،

(٥٠) ولد الشّافعي بغزّة ، وتوفّي بمصر : [١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م] .

(٥١) أبو عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل ، ولد ببغداد وتوفّي بها أيّام المتوكّل : [١٦٤ ـ ٢٤١ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م] .

وصاحب الإمام الشَّافعي ، فكان من خواصِّه ، ولم يزل يصاحبه إلى أن ارتحل الشّافعي إلى مصر ، فقال فيه : « خرجتُ من بغداد ، وما خلَّفتُ بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » .

ذاعت مبادئه الَّتي طبَّقها على الفقه في ذلك العصر ، قال إنَّ أُصول الشَّريعة ليست كأُصول النَّحو أو المنطق من حيث الثَّبات وعدم التَّغيُّر ، وإنَّها تنظِّم حالات المجتمع ، فينبغي لها أن تتحوَّل بتحوُّل المجتمع وبحسب حاجاته ، وأسَّس مذهبه على أنَّ الشَّريعة لا مصدر لها غير القرآن الكريم ، والحديث الشَّريف .

وأبو حامد الغزالي (حُجَّة الإسلام)[٥٢] : الَّذي تلقَّى العلم في مسقط رأسه مدينة طُوس ، ثمَّ في جرجان ، ثمَّ قدم نيسابور ، ودرس على أبي المعالي الْجُوَيْني : « وجَدَّ في الاشتغال حتَّى تخرَّج في مدَّة قريبة ، وصار من الأعيان الْمُشَار إليهم في زمن أُستاذه » ، كما يقول ابن خلكان .

وعلَّم أبو حامد بالمدرسة النِّظاميَّة ببغداد ، فارتفعت منزلته عند أهل العراق ، ثمَّ سلك طريق الزُّهد والانقطاع ، ومن أشهر كتبه : (إحياء علوم الدِّين) ، و (المنقذ من الضَّلال) ، الَّذي نقض فيه الباطنيَّة ، و (تهافت الفلاسفة) ، « الَّذي استعان فيه على العقل بجميع فنون العقل »[٥٣] .

لقد أمضى الغزالي عمره يجاهد ويعمل ويؤلِّف في سبيل ما اعتقد أنَّه الحقُّ ، ويصفِّي الإسلام ممَّا لحق بأُصوله من بدع وانحراف عن الأُصول ، ليظهر حقَّه على باطل المبطِلين ، ويقود سفينة الإيمان إلى شاطئ السَّلام ، ممَّا أضفى عليه لقب : (حجَّة الإسلام) .

---

(٥٢) أبو حامد محمد الغَزَالي (أو الغَزَّالي) ، مولده ووفاته بطوس (ضواحي مشهد اليوم) : [٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ ـ ١١١١ م] ، مرَّت ترجمته مفصَّلة .

(٥٣) قصَّة الحضارة ٣٦٤/١٣

يقول وِّل ديورانت : « إنَّ أبا حامد الغزالي أعظم فقهاء المسلمين قاطبة ، وإنَّه ينزل من فقه الإسلام منزلة (أوغسطين) في اللاّهوت النَّصراني ، أو (كَانْت) من فلسفة الاستشراف ، وإنَّ الغزالي نِدُّه ونظيره في قدرة الجدل ، وإنَّه سبق الفيلسوف (هيوم) الإنكليزي بسبعة قرون ، إذ إنَّه ردَّ قدرات العقل إلى منطق السَّببيَّة »[٥٤] .

وخلاصة الرَّأي في الاتِّصال الغيبي عند الغزالي أنَّ العلم السَّديد بالحقّ الأزلي الثَّابت ، وطبيعة الخير والشَّر ، وهي جميعاً ممَّا نزل به القرآن الكريم ، وأوحى به إلى الأنبياء ، وأهل القداسة بفيض من الله ، يمكن لكلِّ إنسان أن يصل إليه ، لا عن طريق العقل ، بل عن طريق الرُّوح واستعلائها ، والاتِّصال بالله عزَّ وجلَّ بالزُّهد والنُّسك والوجد القلبي .



• لوحة من بداية القرن التَّاسع عشر للقاهرة ، كما سجَّلها الفنَّان : (ديفيدو برتس)

القَاهِرَةُ :

درَّس في (الفسطاط) قبل بناء القاهرة[٥٥] ، الإمام الشَّافعي ، واشتهر فيها أيضاً عزُّ الدِّين بن عبد السَّلام ، وأمُّ الخير الحجازيَّة [ت ٤١٠ هـ] ، الَّتي اختصَّت بتعليم النِّساء .

---

(٥٤) المرجع السَّابق ٣٦٤/١٣ أيضاً .

(٥٥) بنيت الفسطاط منذ الفتح الإسلامي لمصر على يد عمرو بن العاص ، ودخل المعز الفاطمي القاهرة بعد أن بناها جوهر الصِّقلي في ٧ رمضان ١٣٦٢ هـ = ١١ حزيران (يونيه) ٩٧٣ م .

لقد اختصَّت القاهرة بأزهرها ، الَّذي اختصَّ بالعلوم الدِّينيَّة والكونيَّة والطَّبيعيَّة ، وبرز فيها :

جلال الدِّين السُّيوطي[٥٦] : الَّذي ترك ستَّ مئة مصنَّف ، منها الكتاب الكبير ، والرِّسالة الصَّغيرة ، من كتبه : (الإتقان في علوم القرآن) ، و (إتمام الدِّراية لقرَّاء النّقاية) ، و (الأشباه والنَّظائر) ، و (الإكليل في استنباط التَّنزيل) ، و (تاريخ الخلفاء) ، و (تفسير الجلالين) ، و (تنوير الحوالك في شرح موطَّأ الإمام مالك) ، و (جمع الجوامع) ، ويعرف بالجامع الكبير ، و (حُسْنُ المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة) ، و (الدُّرُّ المنثور في التَّفسير بالمأثور) ..

وابن حَجَر العَسْقَلاني[٥٧] : الَّذي ولع بالأدب والشِّعر ، ثمَّ أقبل على الحديث الشَّريف ، وأصبح حافظ الإسلام في عصره ، قال السَّخاوي : « انتشرت مصنَّفاته في حياته ، وتهادتها الملوك وكتبها الأكابر » .

من كتبه : (الدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثَّامنة) ، و (لسان الميزان) ، و (الإحكام لبيان ما في القرآن من الأحكام) ، و (الإصابة في تمييز أسماء الصَّحابة) ، و (إنباء الغمر بأبناء العمر) ، و (الإعلام في مَنْ ولي مصر في الإسلام) ، و (فتح الباري في شرح صحيح البخاري) .

القَيْرَوَانُ :

اشتهرت القيروان بالفقه المقارن على يد **أسَد بن الفرات**[٥٨] ، الَّذي رحل إلى

(٥٦) عبد الرَّحمن بن أبي بكر السُّيوطي : [٨٤٩ ـ ٩١١ هـ = ١٤٤٥ ـ ١٥٠١ م] .

(٥٧) أحمد بن علي بن محمَّد الكناني العسقلاني : [٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ = ١٣٧٢ ـ ١٤٤٩ م] .

(٥٨) أبو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان : [١٤٢ ـ ٢١٣ هـ = ٧٥٩ ـ ٨٢٨ م] ، تولَّى قضاء القيروان سنة ٢٠٤ هـ ، واستعمله زيادة الله الأغلبي على جيشه وأسطوله ووجَّهه لفتح جزيرة صِقلِّيَة سنة ٢١٢ هـ ، فهو أوَّل من فتح صِقِلِّيَة ، وتوفِّي من جراحات أصابته وهو محاصر سرقوسة برّاً وبحراً .

الشَّرق في طلب الحديث سنة ١٧٢ هـ ، وفي الحجاز قابل إمام دار الهجرة ، مالك بن أنس ، وشهد حلقاته ، وكتب عنه ، ومضى إلى العراق فوجد في أبي عبد الله محمد بن الحسن الشَّيباني من العناية به ، والرِّعاية لشأنه ما سدَّد خطاه ، ومضى به نحو غايته ، وهكذا قُدِّر لابن الفرات أن يدرس المذهبَيْن الكبيرَيْن السَّائدَيْن في العالم الإسلامي إذ ذاك ، مذهب أهل الحديث في المدينة المنوَّرة ، ومذهب أهل الرَّأي في بغداد .

اتَّخذ ابن الفرات القيروان مقرّاً له بعد عودته ، فأقبل النَّاس يتلمَّسون حصيلة الرِّحلة العلميَّة الطَّويلة ، فكان يجلس إليه أتباع مذهب مالك ، وأصحاب المذهب العراقي ، فيأْخذ في عرض مذهب أبي حنيفة ، وشرح أقوال العراقيّين ، فإذا فرغ منها صاح صائح من جانب المجلس : « أوقد المصباح الثَّاني ياأبا عبد الله » ، فيأخذ في إيراد مذهب مالك ، وشرح أقوال أهل المدينة المنوَّرة ، **فكان هذا نهجاً جديداً في دراسة الفقه المقارن ، اتَّسعت دراسته في القيروان .**

وسَحْنُون : عبد السَّلام بن سعيد بن حبيب التَّنوخي : [١٦٠ ـ ٢٤٠ هـ / ٧٧٧ ـ ٨٥٤ م] ، الَّذي انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب ، مولده في القيروان ، ولي القضاء بها سنة ٢٣٤ هـ واستمر إلى أن مات ، روى (المدوَّنة) في فروع المالكيَّة عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن الإمام مالك .

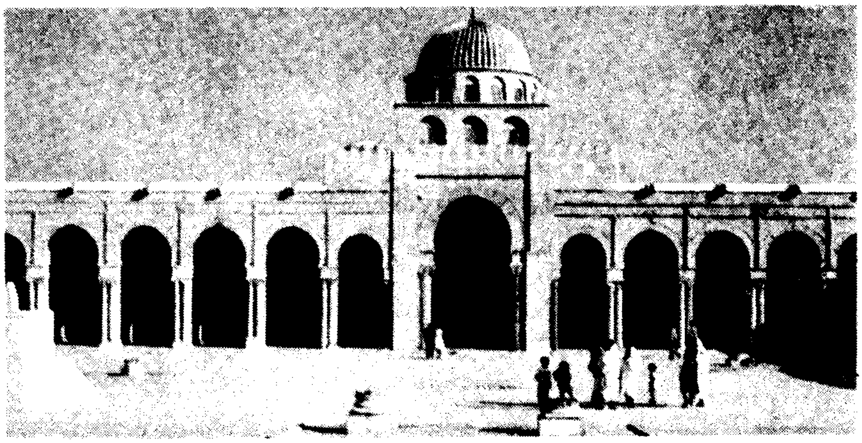
قُرْطُبَةُ :

اشتهر فيها :

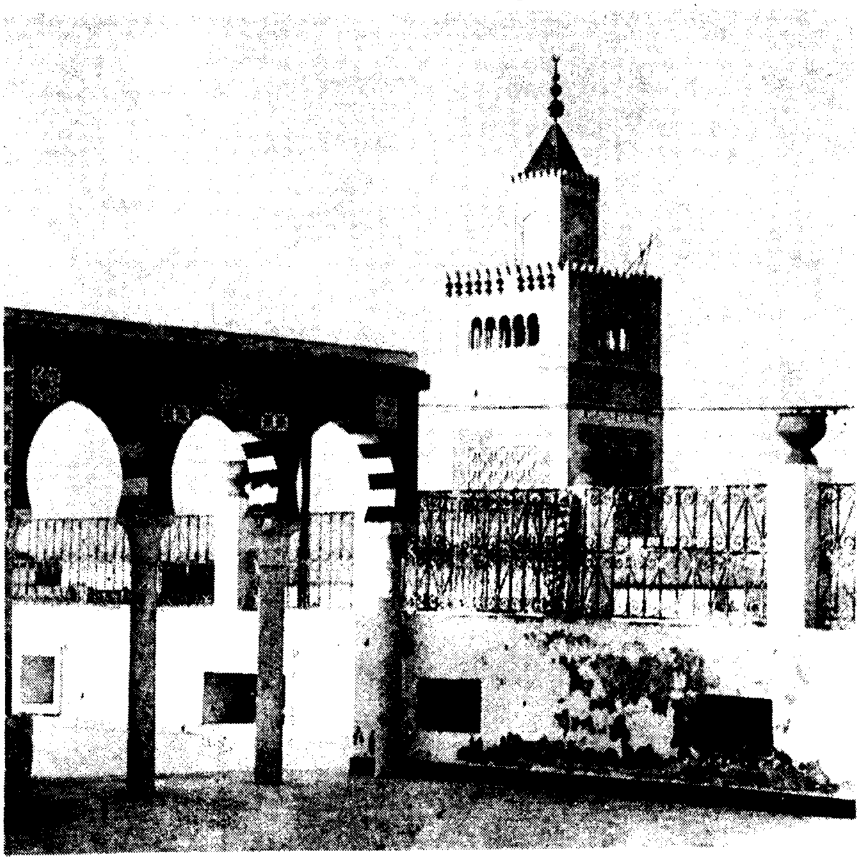
علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظَّاهري[٥٩] : عالم الأندلس في عصره ، وأحد أئمَّة الإسلام ، كان في الأندلس خلق كثير ينتسبون إلى مذهبه ، يقال لهم : (الْحَزْمِيَّة) .

---

(٥٩) ابن حزم : [٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م] .



المسجد الكبير (القيروان)



جامع الزّيتونة (القيروان)

كان ابن حزم على رأس الباحثين ، فقيهاً حافظاً ، يستنبط الأحكام من الكتاب والسُّنَّة ، قال ابنه الفضل : اجتمع عندي بخط أبي من تأليفه نحو أربع مئة مجلَّد ، تشتمل على ثمانين ألف ورقة ، وكان يقال : « لسان ابن حزم ، وسيف الحجَّاج شقيقان » ، وأشهر مصنَّفاته : (الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل) في خمسة أجزاء ، و (المُحَلَّى) في أحد عشر جزءاً .

وابن طُفَيْل : محَّد بن عبد الملك بن محَّد بن محَّد بن طفيل القيسي الأندلسي(٦٠) ، طبيب السُّلطان أبي يعقوب يوسف الموحِّدي ، وهو صاحب القصَّة الفلسفيَّة (حَي بن يقظان) ، قال المراكشي في المعجب : رأيت له تصانيف في أنواع الفلسفة من الطَّبيعيَّات والإلهيَّات وغير ذلك ، ورأيت بخطِّه رسالةً في (النَّفس) ، وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشَّغف به ، والحب له ، يقيم عنده ابن طفيل أيَّاماً ، ليلاً ونهاراً ، لا يظهر ، واستمرَّ إلى أن توفِّي بمرَّاكُش ، فحضر السُّلطان جنازته ، وله (رجز في الطِّب) في أكثر من سبعة آلاف وسبع مئة بيت ، وله شعر جيِّد أورد المراكشي نماذج منه ، وكانت بينه وبين ابن رشد (الفيلسوف) مراجعات ومباحث .

وابن رُشْد : أبو الوليد محَّد بن رشد(٦١) ، الَّذي قَدَّم شروح أرسطو إلى أُوربة ، لقد درس ابن رشد في صباه الدِّين ، والشَّريعة ، والرِّياضيَّات ، والطِّب ، والفلسفة ، آخذاً عن كبار علماء عصره في الأندلس ، من أمثال ابن طفيل ، وابن زُهْر أعظم أطباء المسلمين في عصره ، وكان لابن رُشد طريقته المبتكرة في البحث العلمي ، تجرَّد فيها من مشاعر النَّفس ، واهتدى بهدى العقل ، حتَّى قيل عنه في أُوربة : إنَّ طريقته في البحث دليل قاطع على نبله ، واستقامة أخلاقه ، واستواء ذهنه .

ظلَّ اهتمام أهل أُوربة بابن رشد ذا أثر في ثقافتهم حتَّى أواسط القرن التَّاسع عشر

---

(٦٠) ابن طفيل : [٤٩٤ ـ ٥٨١ هـ = ١١٠٠ ـ ١١٨٥ م] .

(٦١) محمد بن أحمد بن محمد بن رشد : [٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ ـ ١١٩٨ م] .

الميلادي ، ففي سنة ١٨٥٩ م نُشِرَت مقالته في الشَّريعة والحكمة ، وهي الرِّسالة المشهورة باسم : (فصل المقال فيما بين الشَّريعة والحكمة من الاتِّصال) ، وظهرت ترجمة ألمانيَّة في سنة ١٨٧٥ م ، وليس من شيء أدلُّ من هذا على اتِّصال أثره من القرن الثَّاني عشر إلى القرن التَّاسع عشر الميلادي عند الغربيِّين ، ولا شك أن ترجمة تعليقاته على أرسطو كانت الأساس الَّذي قامت عليه فلسفة الكلام عند النَّصارى .

ومن التَّرجمات الَّتي اهتمَّ بها الغربيُّون ، كتابه (الكُلِّيَّات) في الطِّب ، الَّذي ظلَّ متناً للتَّدريس في الجامعات الغربيَّة زمناً طويلاً ، و (تهافت التَّهافت) الَّذي ردَّ به على الإمام الغزالي ، وممَّا يؤثر عنه في الطِّب أنَّه كان أوَّل من كشف عن وظيفة الشَّبكيَّة في العين ، وقوله إنَّ الإصابة بالجدري تولِّد في الجسم مناعة من هذا المرض .

اتَّبع في شروحه على أرسطو أُسلوب التَّأليف الَّذي جرى عليه العلماء في الجامعات الإسلاميَّة ، فبدأ بملخَّص عن أرسطو ، وعقَّب عليه بتعليمات مختصرة ، ثمَّ ختم بشروح مطوَّلة ينتفع بها المتقدِّمون في استيعاب الحكمة .

وذهب في كتابه (تهافت التَّهافت) نفس المذهب الَّذي انتحله فيما بعد (فرنسيس باكون : ١٥٦١ ـ ١٦٢٦ م) ، فقال : إنَّ الدَّرس والتَّفكير ، قد يقودان إلى فهم أقوم لما بين الدِّين والحكمة من صلة ، وله في ذلك آراء ترفعه ولا شك إلى طبقة المعتدلين من أحرار الفكر ، وكان ذلك في نهاية القرن الثَّاني عشر الميلادي .

العُلُوم النَّقْلِيَّةُ :

روى البُخاري حديثاً عن رسول الله ﷺ ، ظهر فيه بدء التَّخصُّص في العلوم النَّقليَّة[1] ، على يد كبار الصَّحابة رضي الله عنهم ، جاء في الحديث الشَّريف : « أرحم

(١) وتسمَّى أيضاً العلوم الشَّرعيَّة ، أو العلوم الدِّينيَّة ، واخترت اسم العلوم النَّقليَّة لأنَّ كل العلوم المفيدة النَّافعة في كلِّ المجالات ، هي علوم شرعيَّة يأمرنا الدِّين بإتقانها .

أُمَّتي بأُمَّتي أبو بكر ، وأشدُّهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياءً عثمان ، وأقضاهم علي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ ، وأفرضهم زيد بن ثابت[٢] ، وأقرؤهم لكتاب الله أُبَي بن كعب ، ولكلِّ أُمَّةٍ أمين ، وأمين هذه الأُمَّة أبو عبيدة بن الجرَّاح » . والعلوم النَّقليَّة هي :

عِلْمُ القِراءاتِ : وهي سبع قراءات للقرآن الكريم ، وسببها أنَّ رسول الله ﷺ سمح للعرب بقراءة القرآن الكريم حسب لهجاتهم ، ولطبيعة الخطِّ العربي ، إذ كان غير منقوط ، ولا حركات فيه ، كقوله تعالى في سورة هود الآية الكريمة ٤٦ : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ ، وتُقرأ أيضاً : ﴿ إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ ﴾ .

ومن أشهر أصحاب القراءات في العصر العبَّاسي يحي بن الحارث الذِّماري (ت ١٤٥ هـ) ، وحمزة بن حبيب الزَّيَّات (ت ١٥٦ هـ) .

التَّفْسِيرُ : وهو إمَّا بالمأثور ، وهو ما أُثر عن رسول الله ﷺ وكبار الصَّحابة ، وإمَّا التَّفسير بالرَّأي ، وهو ما كان يعتمد على العقل وعلوم اللُّغة العربيَّة ، واعتمد المعتزلة والباطنيَّة هذا النَّوع من التَّفسير .

ومن أشهر المفسِّرين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (ت ٣٢ هـ) ، وعبد الله بن عبَّاس (ت ٦٩ هـ) ، والسُّدِّي (ت ١٢٧ هـ) ، والطَّبري (ت ٣١٠ هـ) ، والقرطبي (ت ٦٧١ هـ) ..

الحَدِيثُ الشَّرِيفُ : وهو ما أُثِرَ عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير لشيءٍ رآه ، ويأتي بعد القرآن الكريم أهمِّيَّة ، ومن أشهر مصنِّفي كتب الحديث الشَّريف الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ، والإمامان محمَّد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ، ومسلم بن الحجَّاج القشيري (ت ٢٦١ هـ) ، وأبو داود السِّجستاني (ت

---

(٢) أي أعلمهم بعلم الفرائض ، وهي المواريث .

٢٧٥ هـ) ، وأبو عيسى محمَّد التِّرمذي (ت ٢٧٨ هـ) ، والنّسائي (ت ٣٠٣ هـ) ، وابن ماجه (ت ٢٧٥ هـ) .. ومن رواة الحديث الشَّريف محمَّد بن إسحاق صاحب المغازي .

الفِقْـهُ : نشـأ عن دراسـة القرآن الكريم ، والحـديث الشَّريف ، وعن التعرُّف على معانيهما الخاصَّة الحاجةُ إلى تعلُّم النَّحو واللُّغة ، وتطلَّب ذلـك فهم الشِّعر الجاهلي الَّـذي عُـدَّ أحسن مـا تمثِّلـه اللُّغـة العربيَّـة من الأدب القـديم الخـالص ، كما تطلَّب فهم اللُّغـة العربيَّة ، ودراسة الأنساب ، والتَّاريخ .. تلك العلوم الَّتي مـا لبثت أن أصبحت على مرِّ الزَّمن علوماً مستقلَّة .

ولكن اختـلاف أئمَّـة الفقـه في فهم بعض النُّصـوص الفقهيَّـة ، واستنبـاط الأحكام منها ، أدَّى إلى تعدُّد المذاهب أو المدارس ، كمدرسـة أهل الحـديث في المـدينـة المنوَّرة ، وعلى رأسها الإمام مالك الَّذي كان يأخـذ بمبـدأ التَّوسُّع في النَّقل عن السُّنَّـة ، ومـدرسـة أهل الرَّأي في العراق ، وعلى رأسها الإمام أبو حنيفة الَّذي كان يعتقد بالرَّأي .

وممَّن اشتهر بـالفقـه من تـلاميـذ مـالـك : محمـد بن الحسن الشّيبـاني في العراق ، ويحي بن يحي اللَّيثي في الأنـدلس ، وأسـد بن الفرات في القيروان ، ومن أشهر الأئمَّـة أبو عبد الله محمد بن إدريس الشَّافعي ، الَّذي جمع بين مـدرستي النَّقل والعقل بما أُوتيـه من سعـة العقـل والقـدرة على الابتكار ، وأحمـد بن حنبـل ، وأبـو يـوسف القـاضي ، واللَّيث بن سعد ..

عِلْمُ الكلام : نشأ هذا العلم في العصر العبَّاسي ، ويقصد به الأقوال الَّتي كانت تصاغ على نمط منطقي أو جـدلي ، وكان من أثر ذلـك أن أخـذت كل مـدرسـة تـدافـع عن عقيدتها ، وتعمل على دحض الأدلَّة الَّتي وردت في عقائد مخـالفيهـا ، وكانت المنـاظرات تعقد بين المتكلِّمين في قصور الخلفاء ، وفي المعاهد الدِّينيَّة ، كالمسـاجـد ، وغير الـدِّينيَّـة كبيت الحكمة .

ويرجع ابن خلدون سبب تسمية هذا العلم بهذا الاسم « لما فيه من المناظرة على البدع ، وهي كلام صرف ، وليست براجعة إلى عمل ، وإما لأنَّ سبب وضعه والخوض فيه تنازعهم في إثبات الكلام النَّفسي »[٣] .

ومن أشهر المتكلِّمين واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاَّف ، وإبراهيم بن سيَّار النَّظَّام ، وأبو الحسن الأشعري ، وحجَّة الإسلام الغزالي .

ومن علوم اللُّغة العربيَّة :

النَّحو : نشأ علم النَّحو في البَصْرة والكوفة ، وفيهما نشأت مدرستا النَّحويين واللُّغويين ، وكان أبو الأسود الدُّؤلي أوَّل من اشتغل بالنَّحو في العصر الأُموي . ومن علماء النَّحو المبرِّزين الخليل بن أحمد الفراهيدي ، واضع علم العروض ، وصاحب كتاب « العين »[٤] ، الَّذي يُعَدُّ أوَّل معجم وُضِع في اللُّغة العربيَّة . ثمَّ وضع الجوهري معجم « الصِّحاح » ، الَّذي اختصره الرَّازي في كتاب « مختار الصِّحاح » ، ثمَّ وضع أبو الفضل جمال الدِّين محمد بن مكرم بن منظور « لسان العرب » ، ووضع الفيروزبادي « القاموس المحيط » .

وألَّف محمد بن مالك الأندلسي أرجوزة في النَّحو ، عُرِفت باسم « ألْفِيَّةُ ابن مالك » .

الأدَبُ : اشتهر من شعراء المسلمين في صدر الإسلام حسَّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وفي العصر الأُموي يزيد بن معاوية ، لذلك قيل : « بُدِئ الشِّعر بملك - يعنون امرأ القيس - وخُتِم بملك - ويعنون يزيد بن معاوية - »[٥] . ولمعت أسماء أُمراء الشِّعر العربي في العصر العبَّاسي ، كالحسن بن هانئ

(٣) مقدِّمة ابن خلدون ، ص ٤٠٦

(٤) سُمّي « بالعين » ، لأنَّه ابتدأ بحرف العين .

(٥) قال أبو هلال العسكري في كتابه الصِّناعتَيْن : الشِّعر ديوان العرب ، وخزائن حكمتها ، ومستودع علومها .

« أبي نواس » ، وأبي تمّام الطّائي ، وأبي عبادة الوليد البحتري ، وأبي الحسن علي بن عبّاس بن الرُّومي ، وأبي العتاهية ، وأبي الطّيّب أحمد بن الحسين المتنبّي ، وأبي العلاء المعرّي ، والشّريف الرّضي ، وعمر الخيّام صاحب الرُّباعيّات ..

أمّا في مجال النّثر ، فقد نشأ أدبُ الرّسائل بين القادة والأُمراء والعمّال ومركز الخلافة بعد فتح الجبهات ، واتّساع رقعة الدّولة . ويعد عبد الحميد الكاتب (ت ١٣٢ هـ) مؤسّس الكتابة الفنيّة ، وواضع أُصولها وقواعدها ، حتّى قيل : « بدئت الكتابة بعبد الحميد ، ومن الكتّاب : ابن قتيبة ، صاحب كتاب « أدب الكاتب » ، وعمرو بن بحر الجاحظ ، صاحب كتاب « الحيوان » ، و « البيان والتّبيين » ، وابن مقلة ، وابن العميد ، والصّاحب بن عبّاد ، وأبو إسحاق إبراهيم بن هلال الحرّاني ، وبديع الزّمان أحمد بن الحسين الهمذاني .

☆ ☆ ☆

لا ريبة في أنّ ابن رشد كان يذهب إلى أنّ الشّريعة متمّمة للطّبع البشري ، وعلى هذا قام مذهبه في أنّ اتّصالاً بين الشّريعة والعقل الّذي هو مصدر الحكمة ، لا بدّ من أن يظلّ قائماً ، وإلاّ امتنع على الشّريعة أن تساير الطّبع ، وأُفلت الطّبع من طوق الشّريعة .

☆ ☆ ☆

العُلُومُ الاجتماعِيّةُ :

التّاريخ :

التّاريخ لغةً : التّعريف بالوقت ، يقال : أرّخ الكتاب وورّخه ، أي بيّن وقت كتابته ، وتاريخ الشّيء : وقت حدوثه .

والتّاريخ : هو العِلْمُ الّذي يتضمّن ذكر الوقائع وأوقاتها وأساليبها ، ومظاهر

الحضارة وازدهارها ، وعوامل اضمحلالها وانهيارها ، والتَّاريخ موضوعه الإنسان والزَّمان معاً .

والمؤرِّخ : هو كاتب التَّاريخ ، والمؤرِّخون المسلمون أوَّل من أرَّخ حوادثه باليوم والشَّهر والسَّنة ، كما ربطوا تاريخهم بكلِّ العلوم : الآداب ، والسِّياسة ، والاجتماع ، والفقه ، والجغرافية والرِّحلات .. فكان بحق (عِلْمَ العلوم) ، واهتمُّوا بتدوينه لرغبتهم في معرفة تاريخهم السِّياسي ، وسيرة أعلامهم وزعمائهم ، ولرغبتهم في معرفة كلِّ ما يتَّصل بحياة رسول الله ﷺ ، من أعمال وأقوال ، ليستعينوا بها على تفسير القرآن الكريم ، ولتشجيع الخلفاء والأُمراء ورجال الدَّولة على تسجيل حوادث زمانهم ، لتطَّلع عليها الأجيال القادمة .

لذلك ، نشأ التَّاريخ العربي الإسلامي نشأة طبيعيَّة ، يمكن عدُّها استجابة لحاجة المجتمع العربي الإسلامي ، لقد بدأ تدوين التَّاريخ خلال القرن الأوَّل للهجرة ، منذ مطلع العصر الأُموي ، ويجب ألاَّ يفوتنا أنَّ مؤرخينا لم تكن غالبيَّتهم من المؤرِّخين الرَّسميِّين ـ كما يُدَّعى أحياناً ـ الَّذين يدوِّنون التَّاريخ لخليفة أو أمير ، ممَّا جعل تآليفهم ذات قيمة علميَّة ، ويمكن القول بجزم وعلميَّة : إنَّ حظَّ جمهرة مؤرِّخينا العرب المسلمين من النَّزاهة والحياد لا سبيل إلى جحوده .

الكتب التَّاريخيَّة :

القصص التَّاريخيَّة ، وأيَّام العرب : قيل لبعض أصحاب رسول الله ﷺ : ما كنتم تتحدَّثون به إذا خلوتم في مجالسكم ؟ قال : كنَّا نتناشد الشِّعر ، ونتحدَّث بأخبار جاهليَّتنا .

ومن كُتَّاب هذا الصِّنف من الكتب التَّاريخيَّة :

عبيد بن شَرِيَّة الجرهمي [ت ٦٧ هـ = ٩٨٦ م] : أوَّل من صنَّف الكتب من

العرب . وهو يمني أدرك رسـول الله ﷺ ، لكنَّـه لم يسمـع منـه شيئـاً ، استحضره معـاويـة بن أبي سفيـان من صنعـاء إلى دمشـق ، فسـألـه عن أخبـار العرب الأقـدمين وملوكهم ، فحدَّثه ، فأمر معاوية بتـدوين أخبـاره ، فـأملى كتـابين ، سُمِّي أحـدهمـا : (كتاب الملوك وأخبار الماضين)[(٦)] ، والثَّاني : (كتاب الأمثال) .

ووهب بن مُنَبِّه [ت ١١٤ هـ = ٧٣٢ م] : الَّـذي يُعَـدُّ في التَّـابعين ، ولـد ومـات بصنعاء ، وولاَّه عمر بن عبد العزيز قضاءهـا ، من كتبـه : (ذكر الملوك الْمُتَوَّجـة من حِمْيَر وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم) ، رآه ابن خلكان في مجلَّد واحد ، ولـه : (قصص الأنبياء) ، و (قصص الأخيار) .

كتب المغازي والسِّيرة : بحثت في غزوات رسول الله ﷺ وسيرته ، ومن كُتَّابها :

أبَّـان بن عثمان [ت ١٠٥ هـ = ٧٢٣ م] : أوَّل من كتب في السِّيرة النَّبويَّـة ، وهـو ابن الخليفة الرَّاشدي الثَّالث عثمان بن عفَّان ، مولده ووفاتـه في المـدينـة المنوَّرة ، وكان من رواة الحديث الثِّقـات ، ومن فقهـاء المـدينـة المنوَّرة أهل الفتوى ، دَوَّن مـا سمع من أخبار السِّيرة النَّبويَّة والمغازي ، وسلَّمها إلى سليمان بن عبد الملك في حجَّة سنة ٨٢ هـ ، فأتلفها سليمان .

ويمكننا القول : إنَّ التَّأليف العلميَّ بدأ بكتابة سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه .

محمَّـد بن عمر الواقـدي [ت ٢٠٧ هـ = ٨٢٣ م] : من أقـدم المؤرِّخين في الإسلام ، ومن أشهرهم ، ولد بالمدينة المنوَّرة ، وانتقل إلى العراق سنـة ١٨٠ هـ في أيَّـام الرَّشيـد ، فولي القضاء شرقي بغداد ، واستمرَّ إلى أن توفِّي بها . من كتبـه : (المغـازي النَّبويَّـة) ، و (فتـح العجم) ، و (فتـح مصر والإسكنـدريَّـة) ، و (أخبـار مكَّـة) ،

---

(٦) طُبِعَ مع كتاب (التِّيجان وملوك حِمْيَر) تحت عنوان : (أخبار عبيد بن شَرِيَّة في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) ، الأعلام ١٨٩/٤ ، فهرست ابن النَّديم ٨٩ ، وإرشاد الأريب ١٠/٥٥

و (الطَّبقـات) ، و (فتـوح العراق) ، و (سيرة أبي بكر ووفـاتــه) ، و (تــاريـخ الفقهاء) ، وينسب إليه كتاب (فتوح الشَّام) ، وأكثره ممَّا لا تصحُّ نسبته إليه .

قـال الخطيب البغـدادي : كان الـواقـدي كلَّما ذُكِرَت لـه وقعـة ، ذهب إلى مكانها فعاينه(٧) .

يقول الواقدي : ما أدركت رجلاً من أبناء الصَّحابة ، وأبناء الشُّهداء ، ولا مولى لهم إلاَّ وسألته : هل سمعت أحداً من أهلـك يخبرك عن مشهـده ، وأين قُتِلَ ؟ فـإذا أعلمتني مضيت إلى الموضع فأُعـاينـه ، ولقـد مضيت إلى المريسيع(٨) فنظرت إليهـا ، ومـا علمت غزاة إلاَّ مضيت إلى الموضع حتَّى أُعاينه .

انقسم النَّقدة في حكمهم على الواقدي ، بين مادح وقادح ، فقد وثَّقه مالك ، ثمَّ نـال منه كثيرون من المحدِّثين لأنَّه لم يكن يتقيَّد بمذهبهم ، بل أخـذ من الكتب والصُّحف ، ولم يسمع من الرُّواة .

عروة بن الزُّبير بن العوَّام (٢٢ ـ ٩٣ هـ = ٦٤٣ ـ ٧١٢ م) : أحـد الفقهـاء السَّبعـة بـالمـدينــة المنـوَّرة ، أُمُّــه أسماء بنت أبي بكر (ذات النِّطــاقَيْن) ، وهـو أخ شقيـق لعبد الله بن الزُّبير ، نشأ في المدينـة المنوَّرة ، واستقى أخبـاره من أبيـه وأُمِّـه وخـالتـه عائشة أُمّ المؤمنين ، وعن كبار الصَّحابة الكرام ، كزيد بن ثابت ، وأُسامـة بن زيـد ، وأبي هريرة (عبـد الرَّحمن بن صخر الـدَّوسي) ، وعبــد الله بن عمر ، وعبــد الله بن عبَّاس .

لم ينغمس كأخوَيْه عبد الله ومصعب في شؤون السِّياسة ، كان كثير الحديث ، ثقـة

(٧) تذكرة الحفَّاظ ٣١٧/١ ، وفيَات الأعيان ٥٠٦/١ ، وتـاريخ بغـداد ٣/٣ـ٢١ ، وميزان الاعتـدال ١١٠/٣ ، وعيون الأثر ١٧/١ ، وتهذيب التَّهذيب ٣٦٣/٩ـ٣٦٨

(٨) المُرَيْسِيعُ : اسم ماء في ناحية قُدَيد إلى ساحل البحر الأحمر بين مكَّة والمدينة المنوَّرة ، (معجم البلـدان ١١٨/٥) .

فيما يرويه ، وكان يدوِّن علمه ، روى عنه كثيرون ، ولم يصلنا ممَّا رواه من أخبار وأحاديث سوى ما عثرنا عليه في تآليف محمد بن إسحاق ، والواقدي ، والطَّبري .

محمَّد بن إسحاق بن يسار (ت ١٥١ هـ = ٧٦٨ م) : شيخ مؤرِّخي السِّيرة والمغازي ، ومن أقدم مؤرِّخي العرب ، نشأ في المدينة المنوَّرة ، له : (السِّيرة النَّبويَّة) الَّتي هذَّبها ابن هشام ، و (كتاب الخلفاء) ، و (كتاب المبدأ والمبعث والمغازي) ، سكن بغداد فمات فيها ودفن بمقبرة الخيزران أُم الرَّشيد .

قال ابن حبَّان : لم يكن أحدٌ بالمدينة يقارب ابن إسحاق في علمه ، أو يوازيه في جمعه ، وهو من أحسن النَّاس سياقاً للأخبار[٩] .

عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري البَصْري (ت ٢١٨ هـ) : هذَّب سيرة ابن إسحاق ، نقلها عن تلميذه زياد البكَّائي (ت ١٨٣ هـ) ، وذكر المؤرِّخون أنَّه وضع كتاباً في قصص الأنبياء وملوك عرب الجنوب ، دعاه كتاب التِّيجان .

كتب الطَّبقات : الَّتي اعتمدت تصنيف المحدِّثين حسب أهميَّتهم في رواية الحديث ، ثمَّ صنَّف المؤرِّخون على الطَّريقة ذاتها كتباً في طبقات الصَّحابة أو الأطبَّاء أو الشُّعراء .. وأشهر هذه الكتب :

(الطَّبقات الكبرى)[١٠] لمحمد بن سعد بن منيع الزُّهري (١٦٨ ـ ٢٣٠ هـ = ٧٨٤ ـ ٨٤٥ م) : وهو مؤرِّخ ثقة ، من حفَّاظ الحديث ، ولد في البصرة ، وسكن بغداد فتوفِّي فيها .

صحب ابن سعد الواقدي زماناً ، فكتب له وروى عنه ، وعُرِف بكاتب الواقدي ، لفضله الكبير في صحبته ونشر علمه ، قال الخطيب البغدادي : محمد بن سعد عندنا من

---

(٩) تذكرة الحفَّاظ ١٦٣/١ ، تاريخ بغداد ٢١٤/١ ، دائرة المعارف الإسلاميَّة ٨٨/١ ، وتهذيب التَّهذيب ٣٨/٩

(١٠) وهو في اثني عشر جزءاً ، ويعرف بطبقات ابن سعد .

أهل العدالة ، وحديثه يدلُّ على صدقه ، فإنَّه يتحرَّى في كثير من رواياته[١١] .

أورد ابن سعد في القسم الأوَّل من (الطَّبقات الكبرى) أنباء الأنبياء ، كما ذكر نسب رسول الله ﷺ وسيرته ومغازيه ، راوياً ما أورد في هذا القسم عن جمهرة علماء السِّيرة كالشَّعبي ، والأوزاعي ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحاق ، والواقدي .

وفي القسم الثَّاني عُنِي ابن سعد في تدوين أخبار أصحاب رسول الله ﷺ ، والتَّابعين ، والخلفاء إلى زمانه[١٢] .

واستفاد ابن سعد ممَّا تعرَّض له أُستاذه الواقدي من نقد علماء الحديث ، فتجنَّب المطاعن الَّتي وجِّهت إليه ولابن إسحاق من قبله ، علاوة عن أنَّه لم ينغمس في الفتنة الَّتي ذرَّ قرنها منذ عصر المأمون ، وهي إجبار النَّاس على القول بخَلْقِ القرآن ، فرضي المحدِّثون عنه ، لأنَّه تقيَّد بمبادئهم في الكتابة[١٣] .

و (طبقات الشُّعراء)[١٤] لمحمَّد بن سلاَّم الجمحي (ت ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م) : إمام في الأدب ، من أهل البَصْرة ، مات ببغداد ، وكان يقول بالقدر ، فقال أهل الحديث : يُكتَبُ عنه الشِّعر ، أمَّا الحديث فلا .

و (عيون الأنباء في طبقات الأطبَّاء)[١٥] لأحمد بن القاسم بن أبي أُصيبعة (ت ٦٦٨ هـ = ١٢٧٠ م) : كان مقامه في دمشق ، مع أنَّه عُيِّن طبيباً في البيمارستان

---

(١١) تاريخ بغداد ٣٢١/٥ ، الوافي بالوفيَات ٨٨/٣ ، وتهذيب التَّهذيب ١٨٢/٩

(١٢) نهاية خلافة المعتصم بالله ، قال ابن سعد : والله لو ناداني منادٍ من السَّماء : إنَّ الله أحلَّ الكذب ، ما كذبتُ .

(١٣) وهي العناية بالإسناد .

(١٤) (طبقات الشُّعراء الجاهليين والإسلاميين) ، انظر : لسان الميزان ١٨٢/٥ ، تاريخ بغداد ٣٢٧/٥ ، وفهرست ابن النَّديم ١١٣ ، وطبقات النَّحويين واللُّغويين ١٩٧ ، والوافي بالوفيَّات ١١٤/٣

(١٥) انظر : النُّجوم الزَّاهرة ٢٢٩/٧ ، ودائرة المعارف الإسلاميَّة ٦٩/١ ، وأُدباء الأطبَّاء ٥٢/١

النَّاصري في القاهرة سنة ٦٣٤ هـ ، فبقي عاماً واحداً ، عاد بعدها إلى دمشق ، وفيها صنَّف كتابه (طبقات الأطبَّاء) ، الَّذي أتمَّه سنة ٦٦٧ هـ ، أي قبل وفاته بسنة واحدة .

بلغ عدد أطبَّاء العصر الإسلامي الَّذين كتب عنهم ابن أبي أُصيبعة كتابة دقيقة أربع مئة ، كما أثبت في نهاية ترجمة كلِّ طبيب الكتب الَّتي عُزِيت إليه ، وقد بلغت من الثِّقة حدّاً كبيراً .

ولابن أبي أُصيبعة ثلاثة كتبٍ لم يُعْثَر عليها ، وهي : كتاب حكايات الأطبَّاء في علاجات الأدواء ، وكتاب إصابات المنجِّمين ، وكتاب التَّجارب والفوائد .

كُتُبُ الفُتُوحِ : الَّتي اهتمَّت بفتوح البلدان والأمصار ، مثل (فتوح الشَّام) المنسوب للواقدي ، و (فتوح البلدان) لأحمد بن يحي بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) ، وهو مؤرِّخ ، جغرافي ، نسَّابة ، من أهل بغداد ، جالس المتوكِّل ، ومات في أيَّام المعتمد[١٦] ، وممَّا تجدر الإشارة إليه ، أنَّ البلاذري يشير أثناء سرده للحوادث إلى تاريخ الحضارة والنُّظم الاجتماعيَّة ، كذكره تعريب الدَّواوين ، ومسائل الْخَرَاج ، واستعمال الخاتم ، وأمر السِّكة وتداولها ، وتاريخ الخط العربي .

التَّراجم : وتبحث في حياة مشاهير الرِّجال ، مثل : (أُسْد الغابة في معرفة الصَّحابة) لابن الأثير ، و (معجم الأُدباء)[١٧] لياقوت الْحَمَوي (ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : مؤرِّخ ثقة ، ومن أئمَّة الجغرافيِّين ، ومن العلماء باللُّغة والآداب ، ومن كتبه : (معجم البلدان) ، و (المقتضب من كتاب جمهرة النَّسب) ، و (المبدأ والمآل) في التَّاريخ ، وكتاب (الدُّول) ، و (معجم الشُّعراء) .

---

(١٦) لسان الميزان ٣٢٢/١ ، ودائرة المعارف الإسلاميَّة ٥٨/٤

(١٧) واسمه : (إرشاد الأريب) ، ويعرف بمعجم الأُدباء ، انظر : وفيات الأعيان ٢١٠/٢ ، مرآة الجنان ٥٩/٤

الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ = ١٠٧٢ م) : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي ، أحد الحفَّاظ المؤرِّخين المقدَّمين ، صنَّف أكثر من ستِّين كتاباً في علوم شتَّى ، ولكن غلب عليه الحديث والتَّاريخ ، قال ابن خلكان : لو لم يكن له سوى التَّاريخ لكفاه ، فإنَّه يدلُّ على اطِّلاع عظيم[١٨] .

أهم كتبه وأشهرها : (تاريخ بغداد أو مدينة السَّلام) ، وهو من أُمَّهات المراجع الَّتي لا غنى في دراسة تاريخ الدَّولة العبَّاسيَّة في فترة نيفت على ثلاثة قرون[١٩] ، ويشمل هذا الكتاب وصفاً مستفيضاً لعاصمة العبَّاسيِّين ، كما يطلعنا على سِيَر من تعاقب عليها من خلفاء ، ومن عاش فيها من الأُمراء والوزراء ، أو من أمَّها أو غادرها من أُولي الفضل والعلم[٢٠] .

ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ = ١١٧٦ م) : أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، ثقة الدِّين ابن عساكر الدِّمشقي ، أهمُّ كتبه (تاريخ دمشق) الَّذي جمع فيه تراجم كلِّ الرِّجال الَّذين كانت لهم صلة بدمشق ، مقتدياً في ذلك بطريقة الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) ، ولكن كتاب ابن عساكر بلغ الثَّمانين مجلَّداً[٢١]

ابن بَشْكُوَال (ت ٥٧٨ هـ = ١١٨٣ م) : أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بَشْكُوَال ، كتابه : (كتاب الصِّلة في تاريخ رجال الأندلس)[٢٢] ، وهو معجم ذكر فيه سِيَر علماء الأندلس ، أنجزه سنة ٥٣٤ هـ ، وله كتاب : (الغوامض

(١٨) وفيات الأعيان ٩٢/١

(١٩) من تاريخ بناء بغداد سنة ١٤٥ هـ ، وحتَّى وفاة الخطيب البغدادي سنة ٤٦٣ هـ ، وذلك ضمن أربعة عشر جزءاً .

(٢٠) تحليل نصوص تاريخيَّة ، د . صلاح مدني ، ص ٣٦ ، جامعة دمشق ، كلِّيَّة الآداب ، قسم التَّاريخ ، طبعة : ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ م .

(٢١) اختصره ابن منظور ، صاحب لسان العرب في ٢٩ جزءاً ، طُبِعَت كاملة في (دار الفكر) بدمشق ما بين : ١٩٨٤ ـ ١٩٨٩ م .

(٢٢) ويرد اسمه أيضاً : كتاب الصِّلة في تاريخ أئمَّة الأندلس .

والمبهمات من الأسماء) ، ذكر فيه من جاء اسمه في الحديث مبهماً فعيَّنه . كالأسماء العسيرة التَّهجية ، أو الَّتي كثيراً ما تختلط بغيرها من الأسماء .

ابن خَلِّكان (ت ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م) : أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خَلِّكان الإربِلِّي ، المؤرِّخ الْحُجَّة ، والأديب الماهر ، كتابه : (وَفَيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزَّمان) من أشهر كتب التَّراجم ، ومن أحسنها ضبطاً ، وإحكاماً ، وكان منهجه في البحث : جمع المعلومات من الكتب ومن أساتذته ومن مشاهداته ، مع النَّقد والتَّعليق ، ثمَّ الامتناع عن ذكر تراجم الصَّحابة والتَّابعين والخلفاء ، لأن الكتب المصنَّفة في تراجمهم فيها الكفاية ، ثمَّ لم يترجم إلاَّ للَّذين وقف على سِني وفاتهم ، ثمَّ رتَّب أسماء الأعلام الَّذين ترجم لهم على حروب الهجاء .

الْمَقَّري (ت ١٠٤١ هـ = ١٦٣١ م) : أبو العبَّاس أحمد بن محمَّد بن أحمد بن يحيى المقري ، كتابه : (نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرَّطيب وذكر وزيرها لسان الدِّين بن الخطيب) ، طريقته في التَّأليف التَّاريخي طريقة فذَّة ، فهو يجمع عن الشَّخصيَّة المترجم لها الأخبار الكثيرة ، والمعلومات المستفيضة ، ويتَّخذ تلك الشَّخصيَّة محوراً يدور حوله الموضوع ، فيؤلِّف بين شوارده ويضم أجزاءه ، ويسعى المقَّري إلى فهم الشَّخص المترجم عن طريق فهم عصره ، واستقصاء معارف زمنه ، والإحاطة بالظُّروف التَّاريخيَّة الَّتي مهَّدت له السَّبيل ، واستفتحت له المغلق ، وقرَّبت له البعيد .

والكتاب جامع لأحسن الوثائق الأدبيَّة ، وأهم المصادر في تاريخ الأندلس بوجه عام ، وهو يشمل مجموعة ممتازة من المعلومات التَّاريخيَّة والجغرافيَّة والاجتماعيَّة والأدبيَّة ، اقتبسها المقَّري من مصادر مختلفة معظمها مفقود الآن[٢٣] .

التَّواريخ العامَّة : وأشهر مؤلِّفيها حسب سنيِّ وفاتهم :

---

(٢٣) تحليل نصوص تاريخيَّة ، ص ٣٨

ابن قتيبة الدِّينَوَري (ت ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) : أبو محمَّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَري ، من أئمَّة العرب ، ومن المصنِّفين المكثرين ، وأهمها : (عيون الأخبار) ، الَّذي يضمُّ الأجزاء التَّالية : كتاب السُّلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب السُّؤدُد ، وكتاب الطِّبائع والأخلاق المذمومة ، وكتاب العِلْم والبيان ، وكتاب الزُّهد ، وكتاب الإخوان ، وكتاب الحوائج ، وكتاب الطَّعام ، وكتاب النِّساء .

الطَّبري (ت ٣١٠ هـ = ٩٢٣ م) : أبو جعفر محمَّد بن جرير بن يزيد بن كثير الآمُلي الطَّبري[٢٤] ، شيخ المؤرِّخين ، كتابه : (تاريخ الرُّسل والملوك) ، ويعرف (بتاريخ الطَّبري) ، في أحد عشر جزءاً ، وله : (جامع البيان في تفسير القرآن) في ثلاثين جزءاً .

والطَّبري من ثقات المؤرِّخين ، قال ابن الأثير : أبو جعفر ـ أي الطَّبري ـ أوثق من نقل التَّاريخ ، وفي تفسيره ما يدلُّ على علم غزير وتحقيق[٢٥] .

اعتمد الطَّبري في تاريخه طريقةَ الحوليَّات ، الَّتي تقوم على ذكر الحوادث الهامَّة الَّتي وقعت خلال عام من الأعوام ، فإذا انتهى منها انتقل إلى العام الَّذي يلي ، وأُسلوب الطَّبري سهل بليغ ، ولغته فصيحة ، وتجنَّب في صياغة فِكَره الغريب من الكلام ، فهو طلي العبارة ، يتجنَّب التَّعقيد ، واضح المعاني ، ممَّا يدلُّ على أنَّه كان مالكاً لزمام العربيَّة .

وأثبت الطَّبري عدَّة روايات تدور حول حادثة واحدة ، وهذا أوثق للأمانة

(٢٤) احتُفِل مابين ١٣ و ١٥ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٩ في محافظة مازندران (طبرستان) بمناسبة مرور ١١٠٠ سنة هجريَّة على وفاة أبي جعفر الطَّبري ، وزارت الوفود المشاركة مسقط رأسه (آمُل) حيث فكرة تشييد جامعة تحمل اسم الطَّبري ، وكان عنوان موضوعي الَّذي قُدِّم لهذا المؤتمر (مؤتمر الطَّبري الدَّولي) : الطَّبري في تاريخه بين طريقة المحدِّثين ومنهج المؤرِّخين .

(٢٥) إرشاد الأريب ٤٢٣/٦ ، تذكرة الحفَّاظ ٣٥١/٢ ، طبقات السُّبكي ١٣٥/٢ ـ ١٤٠ ، البداية والنِّهاية ١٤٥/١١ ، ميزان الاعتدال ٣٥/٣ ، تاريخ بغداد ١٦٢/٢ ، لسان الميزان ١٠٠/٥ ، كشف الظُّنون ٤٣٧

العلميَّة في النَّقل ، وذلك كي لا يترك المؤرِّخ لبساً أو إبهاماً في نفس القارئ ، أو اعتقاداً أن المؤرِّخ جاهل للرِّواية الثَّانية ، الَّتي تتعارض مع الرِّواية الَّتي أثبتها في كلامه ، فيحل ذلك منه على الجهل ، أو على سوء القصد ، وإيراد مختلف الرِّوايات المتعلِّقة بخبر واحد ، ميزة انفرد بها مؤرِّخون قلائل كان الطَّبري شيخهم وعميدهم .

قال بعض الباحثين : إنَّ سياق الطَّبري الأخبار دون تمحيصها ، أمر لا يليق بالمؤرِّخ النَّاقد البصير .

وعند الطَّبري في ذلك هو عُذْر رواة الحديث ، الَّذين يذكرون الحديث بطرقه ورجاله ، تاركين الحكم للقارئ ، أمانة للعلم وإبراء للذِّمَّة ، يقول الطَّبري في مقدِّمة تاريخه : « وليعلم النَّاظرِ في كتابنا هذا أن اعتمادي في كلِّ ما أحضرتُ ذكرَه فيه ، ممَّا شرطت أني راسمه فيه ، إنَّما هو على ما رويتُ من الأخبار الَّتي أنا ذاكرها فيه ، والآثار الَّتي أنا مسندها إلى رواتها فيه ، دون ما أُدرك بحجج العقول ، واستنبط بفكر النُّفوس ، إلاَّ اليسير القليل منه ، إذ كان العلم بما كان من أخبار الماضين ، وما هو كائن من أنباء الحادثين ، غيرَ واصل إلى من لم يشاهدهم ، ولم يدرك زمانهم ، إلاَّ بإخبار المخبرين ، ونقل النَّاقلين ، دون الاستخراج بالعقول ، والاستنباط بفِكَر النُّفوس ، فما يكن في كتابي هذا من خبرٍ ذكرناه عن بعض الماضين ممَّا يستنكره قارِئُه ، أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنَّه لم يعرف له وجهاً في الصِّحَّة ، ولا معنى في الحقيقة ، فليعلمَ أنَّه لم يؤتَ في ذلك من قِبَلنا ، وإنَّما أُتيَ من قِبَل بعض ناقليه إلينا ، وأنَّا إنَّما أدينا ذلك على نحو ما أُدِّيَ إلينا »[26] .

وفي هذا النَّص الواضح والصَّريح ، ما يشير إلى مذهبه فيما ورد في كتابه (تاريخ الرُّسل والملوك) من تلك الأخبار ، وأيّاً ما كان شيخ المؤرِّخين ، فإنَّ كتابه سيظلُّ بما اشتمل عليه من الرِّوايات الأصيلة ، والنُّصوص النَّادرة في أُسلوبه الرَّائع الرَّصين ، أشملَ

(٢٦) الطَّبري ٦/١ ـ ٨

كتاب للتّاريخ عند العرب ، وأوفى عمل تاريخي بين مصنّفاتهم ، أقامه الطّبري على منهجٍ مرسوم ، بلغت فيه الرّواية مبلغها من الثّقة والأمانة والإتقان .

المسعودي (ت ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، كتابه : (مروج الذّهب ومعادن الجوهر) ، وهو (مؤرّخ ـ جغرافي) ، ينظر الأُمورَ بعين المؤرّخ ، ويتأمّلها في الوقت نفسه بلواحظ الجغرافي ، ولكنّه لم يظهر براعة في تنسيق المعلومات الّتي جمعها ، ولم يجعل منها كُلاًّ حيّاً متجاوب الأجزاء متناسقاً .

ابن الأثير الْجَزْري (ت ٦٣٠ هـ = ١٢٣٣ م) عزّ الدّين علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشّيباني الْجَزْري[٢٧] ، المؤرّخ الإمام ، سكن الموصل ، فكان منزله مجمع الفضلاء والأُدباء ، وتوفّي بها ، وأكثر من جاء بعده من المؤرّخين عيال على كتابه : (الكامل في التّاريخ) .

وله (أُسْدُ الغابة في معرفة الصّحابة) ، و (تاريخ الدّولة الأتابكيّة) ، و (الجامع الكبير) في البلاغة ، و (تاريخ الموصل) لم يتمّه .

ابن عِذاري الْمَرّاكُشي (نحو ٦٩٥ هـ = نحو ١٢٩٥ م) أبو عبد الله محمد (أو أحمد بن محمد) المرّاكُشي ، كتابه : (البيان الْمُغرِب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب) ، من أهمّ الكتب الّتي تشمل حوادث المغرب والأندلس السّياسيّة والاجتماعيّة والإداريّة ، وأوثقها في موضوعها ، كما تعرّض ابن عذاري إلى الحروب الّتي استعرت بين المسلمين الأندلسيّين والإسبان .

ابن الطقطقي (ت ٧٠٩ هـ = ١٣٠٩ م) : أبو جعفر محمد بن علي ابن طباطبا ، كتابه : (الفخري في الآداب السّلطانيّة والدّول الإسلاميّة) ، في قسمه الأوّل : شؤون السّياسة ، وفي قسمه الثّاني : موجز لتاريخ دول الإسلام ، وذيّل ابن الطّقطقي بحثه

(٢٧) وُلِدَ ونشأ في جزيرة ابن عُمَر على نهر دِجْلَة شمالي الموصل ، (معجم البلدان ١٣٨/٢) .

لتاريخ كلِّ خليفة بأخبار وزرائه ، فهو والحال هذه يعادل من حيث الأهمِّيَّة كتاب (الوزراء والكتَّاب) للجهشياري ، بل فاقه ، لأنَّ الجهشياري توقَّف عند وزراء المأمون من آل سهل ، سنة ٢٠٢ هـ .

ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ = ١٣٧٣ م) : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ثمَّ الدِّمشقي ، حافظ مؤرِّخ فقيه ، كتابه : (البداية والنِّهاية) ، ومن كتبه أيضاً : (طبقات فقهاء الشَّافعيِّين) ، و (تفسير القرآن الكريم) ، و (التَّكميل في معرفة الثِّقات والضُّعفاء والمجاهيل)[٢٨] .

ابن خَلْدُون (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٦ م) : أبو زيد عبد الرَّحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي ، الفيلسوف المؤرِّخ ، العالم الاجتماعي البحَّاثة ، كتابه : (كتاب العِبَر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيَّام العرب والعجم والبربر ، ومَنْ عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر) ، ومقدِّمة هذا الكتاب تقع في جزء كامل ، وكانت صورة حيَّة للحياة الاجتماعيَّة في مختلف البيئات الَّتي تقلَّب فيها ابن خلدون ، وللعصر الَّذي انقضت فيه حياته ، وهي محاولة للنَّقد التَّاريخي ، مع تعليل وتفهُّم وتفسير ، فتوصَّل إلى الخطأ والصَّواب ، ومعرفة الحوادث بدقَّة وضبط ، لا سرد الوقائع والأسماء فحسب .

ثمَّ إنَّ المقدِّمة علَّلت الظَّاهرات الاجتماعيَّة ، وأوضح ابن خلدون فيها أثر السَّكن على الحياة الاجتماعيَّة ، ودرس الظَّاهرات الاقتصاديَّة ، فيكون بذلك قد بحث في علم الاقتصاد والسِّياسة والاجتماع والعمران ، ففتح وولج بذلك باب ما يُسَمَّى اليوم (فلسفة التَّاريخ) ، والمقدِّمة تقع في ستَّة فصول هي :

١ ـ في العمران البشري على الجملة .

٢ ـ في العمران البدوي .

٣ ـ في الدُّول والخلافة والمُلْك ، وذكر المراتب السُّلطانيَّة .

---

(٢٨) الدُّرر الكامنة ٣٧٣/١ ، البدر الطَّالع ١٥٣/١

٤ ـ في العمران الحضري والبلدان والأمصار .
٥ ـ في الصَّنائع والمعاش والكسب ووجوهه .
٦ ـ في العلوم واكتسابها وتعلُّمها .

وبقي هذا الأثر الخالد يُدْرَس ويؤخذ منه ، فترجمت المقدِّمة إلى معظم لغات العالم ، يقول (أرنولد توينبي) في كتابه (دراسة التَّاريخ) : إنَّ ابن خلدون نسيج وحده في تاريخ الفكر ، لم يدانه مفكِّر كان من قبله ، أو جاء من بعده في جميع العصور(٢٩) .

وفلسفة ابن خلدون دارت حول نقطتَيْن رئيسيَّتَيْن : فلسفة الاجتماع ، وفلسفة التَّاريخ ، ولسنا بصدد فلسفة الاجتماع الَّتي يعدُّ علماً من أعلامها البارزين ، ومع ذلك نوجز فنقول : إنَّه بحثَ في علم الاجتماع العام أو الاقتصادي(٣٠) ، ثمَّ الاجتماعي ، ثمَّ السِّياسي ، ونظريَّة الدَّولة . أمَّا فلسفة التَّاريخ ، فقد أراد أن يكتشف العوامل الَّتي تُسَيِّر الوقائع التَّاريخيَّة ، والقوانين العامَّة الَّتي تتمشَّى عليها الدُّول والشُّعوب في تطوُّرها مع إيجاد معيار صحيح يتحرَّى به المؤرِّخون طريق الصِّدق والخطأ فيما ينقلونه من الأخبار والوقائع .

أوجد ساطع الحصري على التَّقريب أهمَّ المؤلَّفات الَّتي تتعلَّق بفلسفة التَّاريخ مباشرة ، فوجدها بعد ظهور مقدِّمة ابن خلدون ، تنحصر في عشرة كتب ، منها :

---

(٢٩) « لم يسبق أن حمل أحد من العرب ، أو من الغربيِّين ، قبل ابن خلدون ، وجهة نظر تجمع بين الشُّمول والفلسفة الحقَّة في آن واحد ، والاعتقاد السَّائد بين منتقدي ابن خلدون هو أنَّه أعظم مؤرِّخ أنتجه الإسلام ، ومن أعظم المؤرِّخين في العصور الوسطى » ،

J.C. Riesler: La Civilisation arabe, Paris 1956

(٣٠) ويرى ابن خلدون أنَّ الدَّولة هي التَّاجر الكبير ، وهي كالتَّاجر البارع البعيد النَّظر ، من واجبها أن تتأكَّد من أنَّ الضَّرائب الَّتي تستوفيها تعود إلى التَّداول بين النَّاس ، والضَّرائب المعتدلة أعظم حافز على العمل ، ومن النَّاحية الأُخرى فإنَّ الضَّريبة لا تثمر إذا هي فرضت تعسُّفياً .

(الأمير) لميكيافيلي الإيطالي ، و (الحكومة المدنيَّة) لجون لوك الإنكليزي ، و (العَالَم الجديد) لباتيستاڤيكو الإيطالي ، و (طبائع الأُمم وفلسفة التَّاريخ) لڤولتير الفرنسي ، و (آراء فلسفيَّة في تاريخ البشريَّة) لهردر الألماني ، وكلُّهم اقتبسوا من مقدِّمة ابن خلدون في كتبهم .

ولقد سبق ابن خلدون علماء الاجتماع بقرون :

سبق غبرييل تارد بالقول بالمحاكاة والتَّقليد ، وكان ابن خلدون أعمق وأدق ، لأنَّه أعطى رأياً متميِّزاً ، وعدَّ التَّقليد ظَّاهرة ضعف ، لا دلالة قوَّة .

وسبق دوركهايم بالقول بالقسر الاجتماعي ، وقال : الإنسان ابن مجتمعه ، وتفرض الظَّاهرة الاجتماعيَّة نفسها على الأفراد .

وامتاز عن ڤيكو في مجرى تاريخ الأُمم وتطوُّراتها بأنَّه كان موضوعيّاً .

والشَّبه جليٌّ بينه وبين ميكياڤيلي في دراسات السُّلطة والحكومات والإمارات ، والأساليب الَّتي يجب اتِّباعها في الحكم .

ووجه الشَّبه بينه وبين جان جاك روسُّو واضحة من حيث الإيمان الشَّديد بحياة التَّقشُّف .

وبينه وبين نيتشه في نظريَّة الحقُّ للقوَّة .

وسبق كارل ماركس في نظريَّة فضل القيمة .

ولابن خلدون لمحات لتفسير الظَّواهر السِّياسيَّة بالعامل الاقتصادي ، وسبق علماء الاجتماع بالدُّخول إلى صلب الظَّاهرة وتقسيمها إلى أجزاء بقصد دراستها . ولم يكن رائداً في علم الاجتماع السُّكوني ، بل هو رائد في علم الاجتماع الحركي (الدِّيناميكي) ، بدليل أنَّه لم يدرس المدن الفاضلة ، بل المدن القائمة ، ووازن بين ما كان وما صار .

لقد كان ابن خلدون بحقٍّ أوَّل كاتب استطاع أن يكتشف ميدان التَّاريخ الحقيقي وطبيعته ، وأن ينظر إلى التَّاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق الَّتي تقع في دائرته ، لقد كانَ شغوفاً بالتَّاريخ مع معاناته للسِّياسة ، فكانت تجربته غنيَّة .

الْمَقْريزي (ت ٨٤٥ هـ = ١٤٤٢ م) : أبو العبَّاس أحمد بن علي تقيِّ الدِّين الْمَقْريزي ، معاصر ابن خلدون ، خلَّف كتابَيْن هامَّيْن : (كتاب السُّلوك لمعرفة دول الملوك) ، وفيه أخبار سلاطين المماليك ، و (كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) ، وهو من أهمِّ المراجع في تاريخ مصر الدِّيني والسِّياسي والإداري والتِّجاري .

ابن تَغْري بِرْدِي[٣١] (ت ٨٧٤ هـ = ١٤٧٠ م) : أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظَّاهري ، مؤرِّخ بحَّاثة ، وصل إلينا من كتبه سبعة كتب في التَّاريخ ، أهمها : (النُّجوم الزَّاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ، عالج فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربي الإسلامي إلى سنة ٨٥٧ هـ ، مشيراً في مواضع كثيرة إلى حوادث البلاد المجاورة ، وإلى وفيات كلِّ عام .

وكتاب (مورد اللَّطافة فيمن ولي السَّلطنة والخلافة) ، ويتضمَّن سيرة موجزة للنَّبيِّ ﷺ ، مع إيراد ثبت بأسماء الصَّحابة وسلاطين مصر ووزرائهم حتَّى سنة ٨٤٢ هـ .

وأتمَّ ابن تغري بردي كتاب السُّلوك للمقريزي ، فوصل بحوادثه من ٨٤٥ هـ إلى ٨٦٠ هـ ، ودعاه : (حوادث الدُّهور في مدى الأيَّام والشُّهور) ، كما أتمَّ كتاب (الوافي) للصَّفدي من سنة ٦٥٠ هـ إلى عهده ، القرن التَّاسع الهجري ، والكتاب هو سيرة لمشاهير الرِّجال رتِّبت أسماؤهم فيها على حروف المعجم ، وقد صار الكتاب يدعى : (المنهل الصَّافي والمستوفى بعد الوافي)[٣٢] .

(٣١) Togri Bardii : [٨١٣ ـ ٨٧٤ هـ = ١٤١٠ ـ ١٤٧٠ م] .

(٣٢) لم ننسَ : أبا الرَّيحان البيروني ، وابن زولاق ، وابن إياس ، وابن بشكوال ، وابن مسكويه ، وابن شداد ، وأبا شامة ، وابن واصل .. ولكن اكتفينا بالأمثلة السَّابقة اختصاراً .

الجغرافية :

ازدهرت الجغرافيـــة (علم وصف الأرض) [٣٣] ، بسبب الفتــوح الَّتي وصلت قلب الصِّين شرقـاً ، وقلب فرنسـة غربـاً ، وبسبب تـدوين التَّـاريخ والأدب ، والرَّحلات ، والحج ، والتِّجارة الواسعة برّاً وبحراً ، وأشهر الجغرافيِّين المسلمين :

عبيد الله بن أحمد بن خُرْدَاذْبَـهْ [٣٤] (ت ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م) : مؤرِّخ جغرافي ، من أهل بغـداد ، اتَّصل بـالمعتمـد العبَّـاسي ، فولاَّه البريـدَ والْخَبَرَ بنـواحي الجبـل [٣٥] ، أهم تصانيفه كتاب : (المسالك والممالك).

محَّد بن حَوْقَل البغـدادي الموصلِّي : (ت بعـد ٣٦٧ هـ = بعـد ٩٧٧ م) ، رحَّـالـة دخل المغرب وصِقِلِّيَّة ، وجابَ بلاد الأندلس وغيرها ، من علماء البلدان ، لـه كتـاب : (المسالك والممالك والمفاوز والمهالك) [٣٦] .

محَّد بن أحمـد بن أبي البنَّـاء المقـدسي : (ت نحو ٣٨٠ هـ = نحو ٩٩٠ م) ، رحَّـالـة جغرافي ، وُلد في القدس ، وتعاطى التِّجارة ، فتجشَّم أسفاراً هيَّأت لـه المعرفـة بغوامض أحوال البلاد ، ثمَّ انقطع إلى تتبُّع ذلـك ، فطـاف أكثر بلاد الإسلام ، وصنَّف كتـابـه : (أحسن التَّقـاسيم في معرفـة الأقـاليم) ، امتـاز فيــه عن ســائر علمــاء البلــدان بكثرة ملاحظاته ، وسعة نظره ، قـال سبرنغر : لم يتجوَّل سـائح في البلاد كما تجوَّل المقـدسي ، ولم ينتبه أحد ، أو يحسن ما علم به مثله [٣٧] .

---

(٣٣) أطلق العرب المسلمون على هذا العلم أسماء متعدِّدة ، منها : علم تقويم البلـدان ، علم المسـالـك والممالـك ، علم مسالك البلدان والأمصار .

(٣٤) كما في لسان الميزان ٩٦/٤

(٣٥) الجبل هنا هو (إقليم الجبال) ، ويقع شرقي العراق ، وغربي الرَّي ، وشمالي الأهواز ، أهم مدنـه : همـدان ونهاوند . (أطلس التَّاريخ العربي ، ص ٤٠ و ٤١) .

(٣٦) دائرة المعارف الإسلاميَّة ١٤٥/١ ، الرَّحَّالة المسلمون في العصور الوسطى ٣٩

(٣٧) أحسن التَّقاسيم ٤٣

محمَّد بن محمَّد بن عبد الله ، الشَّريف الإدريسي : (ت ٥٦٠ هـ = ١١٦٥ م) ، من كبار علماء الجغرافية ، ولد في سبتة ، وتعلَّم بقرطبة ، ورحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صِقِلِّيَّة ، فاستدناه الملك روجر الثَّاني (Roger II) ملك جزيرة صِقِلِّيَّة النُّورماندي ، وخصَّه بالكثير من العطف والعناية ، فصنع له الإدريسي كرة أرضيَّة من الفضَّة ، محفوظة في متحف برلين اليوم ، ووضع له كتاباً سمَّاه : (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، وهو أصحُّ كتاب ألَّفه العرب في وصف بلاد أُوربَّة وإيطالية ، وكل ما كتب عن الغرب من علماء العرب أُخذ عنه ، يقول غوستاف لوبون : « وأشهر جغرافيي العرب هو الإدريسي ، ومن كتبه الَّتي ترجمت إلى اللاَّتينيَّة ، تعلَّمت أُوربَّة علم الجغرافية في القرون الوسطى »[٣٨] .

وخريطة الإدريسي الَّتي اشتملت على منابع النِّيل والبحيرات الاستوائيَّة الكبيرة ـ أي على البقاع الَّتي لم يكشف عنها الأُوربيُّون إلاَّ في العصر المتأخِّر ـ أكثر خرائطه طرافة ، إذ هي تثبت أنَّ معرفة العرب بجغرافية إفريقية ، أكمل ممَّا ظُنَّ من قبل ، ولا أدلَّ على صحَّة هذا القول من وصفٍ لمنابع النِّيل أثبته الإدريسي في (نزهة المشتاق) إذ قال : « وهذان القسمان مخرجها من جبل القمر ، فوق خطِّ الاستواء بستٍّ عشرة درجة ، وذلك أنَّ هذا النِّيل من هذا الجبل عشر عيون ، فأمَّا خمسة أنهار منها ، فإنَّها تصبُّ وتجتمع في بطيحة[٣٩] كبيرة ، وخمسة أنهار أُخَر تنزل أيضاً من الجبل إلى بطيحة أُخرى كبيرة ، ويخرج من كلِّ واحدة من البطيحتين ثلاثة أنهار ، فتمرُّ بأجمعها إلى أن تصبَّ في بطيحة كبيرة جدّاً ، على هذه البطيحة مدينة تسمَّى طرمى » .

وللإدريسي أيضاً كتاب : (الجامع لصفات أشتات النَّبات) ، استفاد منه ابن

---

(٣٨) حضارة العرب ٥٦٧

(٣٩) البطح لغة : البسط ، والمراد هنا مستنقع ، مجمع مياه .



*مصور الإدريسي

البيطار ، و (روض الأنس ونزهة النَّفس) ، ويعرف (بالممالك والمسالك) ، و (أُنس الْمُهَج وروض الفَرَج)[٤٠] .

شهاب الدِّين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرُّومي الْحَمَوي (ت ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : مؤرِّخ ثقة ، وجغرافي من أئِمَّة الجغرافيِّين ، درس الجغرافية بصورة عمليَّة في أسفاره الَّتي زار خلالها : بلاد العرب ، وآسية الصُّغرى ، ومصر والشَّام ، وإيران وما وراء النَّهر وخراسان ، أهم كتبه : (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ويعرف بمعجم الأُدباء ، و (المقتضب من كتاب جمهرة النَّسب) ، و (المبدأ والمآل) في التَّاريخ ، وكتاب (الدُّول) ، و (معجم البلدان) .

---

(٤٠) دائرة المعارف الإسلاميَّة ٥٧/١ ، الوافي بالوفيات ١٦٣/١

جاء في قصّة الحضارة : « وكان ياقوت كثير الأسفار ، سافر أوّلاً للتّجارة ، ثمَّ سافر لدراسة الأرض وأهلها ، لأنّه أُعجب أشدَّ الإعجاب ببلادها ، وسكّانها المختلفي الأجناس ، وبلباسهم وأساليب حياتهم ، وقد سرّه وأثلج صدره أن يجد عشر مكاتب عامّة في مَرْو تحتوي إحداها على ١٢٠٠٠ مجلّد ، وفطن أمين هذه المكتبة لشأن الزّائر ، فسمح له أن يأخذ منها مائتي كتاب إلى حجرته دفعة واحدة ، وما من شكٍّ في أن الَّذين يحبُّون الكتب ويرون أنَّها دم الحياة يجري في عروق عظماء الرِّجال ، يدركون ما شعر به ياقوت من بهجة حين حصل على هذا الكنز العظيم من كنوز العقل »[٤١] .

ومن الرَّحّالة العرب المسلمين :

أحمد بن فضلان بن العبّاس بن راشد بن حمّاد (ت بعد ٣١٠ هـ = بعد ٩٢٢ م) : صاحب الرِّحلة المعروفة إلى بلاد التُّرك والْخَزَر والرُّوس والصَّقالبة ، المعروفة برسالة ابن فضلان ، أوفده المقتدر العبّاسي إلى ملك الصَّقالبة - على أطراف نهر الفولغا - وقد بعثوا برسول منهم إلى عاصمة الخلافة ، يرجون العون على مقاومة ضغط قبائل الخزر عليهم من أطراف بلادهم الجنوبيّة ، وأن ينفذ إليهم من يفقههم في الدِّين ، ويعرِّفهم بشعائر الإسلام ، وكانوا قد اعتنقوه قبل عهد غير بعيد ، وقامت البعثة من بغداد في ١١ صفر ٣٠٩ هـ = ٢١ حزيران (يونيو) ٩٢١ م ، مارّة بهمذان والرّي ونيسابور ومَرْو وبخارى ، ثمَّ مع جيحون إلى خَوَارزم إلى بلغار الفولغا في ١٨ المحرَّم ٣١٠ هـ = ١٢ أيّار (مايو) ٩٢٢ م ، ولم يُعْرَف خطُّ سير الرَّجعة لضياع القسم الأخير من الرِّسالة[٤٢] .

محمَّد بن أحمد بن جُبَير الكناني الأندلسي (ت ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م) : رحَّالة أديب ، وُلد في بلنسية ، ونزل شاطبة ، وبرع في الأدب ، ونظم الشِّعر الرَّقيق ، وأولع

---

(٤١) قصّة الحضارة ٣٥٨/١٣

(٤٢) الرِّسالة مطبوعة : طبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ، ووزارة الثّقافة والإرشاد القومي في سوريّة (مديريّة التُّراث القديم) .

بالتَّرحُّل والتَّنقُّل ، فزار المشرق ثلاث مرَّات ، إحداها سنة ٥٧٨ هـ ـ ٥٨١ هـ ، وهي الَّتي ألَّف فيها كتابه : (رحلة ابن جبير) ، ومات بالإسكندريَّة في رحلته الثَّالثة ، ومن كتبه : (نظم الجُمان في التَّشكّي من إخوان الزَّمان)[٤٣] .

محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن إبراهيم الطَّنجي (ابن بطُّوطة) : (ت ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ م) : رحَّالة مؤرِّخ ، وُلد ونشأ في طنجة ، وخرج منها سنة ٧٢٥ هـ ، فطاف بلاد المغرب ومصر والشَّام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النَّهر ، وبعض مناطق الهند والصّين ، وبلاد التّتر ، وأواسط إفريقية ، ثمَّ انقطع إلى السُّلطان أبي عنان[٤٤] ، فأقام في بلاده ، وأملى أخبار رحلته على محمَّد بن الجزّي الكلبي بمدينة فاس سنة ٧٥٦ هـ ، وسمَّاه : (تحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) .

استغرقت رحلته سبعاً وعشرين سنة ، من سنة ١٣٢٥ إلى سنة ١٣٥٢ م ، ومات في مَرَّاكُش ، وتلقِّبه جامعة كمبردج في كتبها وأطالسها : أمير الرَّحالين المسلمين[٤٥] : Prince of Moslems Travellers .

الحسن بن الوزَّان الغَرْناطي ، المعروف باسم (ليون الإفريقي) : (ت نحو ٩٥٧ هـ = نحو ١٥٥٠ م) ، جغرافي رحَّالة ، ومؤرِّخ أندلسي ، انتُدِب أبوه لبعض السَّفارات والوساطات السّياسيَّة ، ثمَّ انتُدِب هو لمثل ذلك ، فتيسَّرت له الرِّحلة إلى أكثر بلدان إفريقية الشَّماليَّة والمشرق ، وحجَّ سنة ٩٢١ هـ ، ودخل الأستانة ومصر ، وطاف بلاد المغرب الأقصى ، وزار تُمْبُكتُو ، وعاد منها عن طريق سجلماسة ، وحضر حروباً بين البرتغال والشَّريف محمَّد السَّعدي (القائم بأمر الله) ، وأسره قرصان من الإيطاليّين سنة

(٤٣) نفح الطِّيب ٥١٥/١ ، دائرة المعارف الإسلاميَّة ١١٦/١ ، الإحاطة في تاريخ غرناطة ١٦٨/٢

(٤٤) من ملوك بني مَرِين .

(٤٥) دائرة المعارف الإسلاميَّة ٩٩/١ ، الدُّرر الكامنة ٤٨٠/٣ ، الرَّحَّالة المسلمون ١٣٦ ـ ١٧١

٩٢٣ هـ (أو سنة ٩٢٦ هـ) ، قرب جزيرة (جربة)[٤٦] ، وأخذوه إلى نابولي ، وعرفوا أنَّه من أهل العلم ، فقدَّموه هديَّة إلى البابا ليون العاشر في رومة ، ومعه كتبه وأوراق رحلته ، وكانت للبابا عناية بعلوم العرب ، فأكرمه وأدخله في خاصَّته وسمَّاه (جان ليون) ، وكان الحسن بن الوزَّان يكتبها بالعربيَّة (يوحنَّى الأسد) ، وأُشيع أنَّه تنصَّر ، وما من دليل يؤكِّد ذلك ، وتعلَّم الإيطاليَّة واللاَّتينيَّة ، وكان يحسن الإسبانيَّة والعبريَّة ، وطلب منه البابا أن يترجم رحلته إلى الإيطاليَّة ففعل ، وأذن له بتدريس العربيَّة في كليَّة بولونيَّة Bologne ، وبعد موت البابا سنة ٩٢٧ هـ ، دخل تحت حماية الكردينال جيل Gilles de Niterbe ، وعلَّمه العربيَّة ، وصنَّف في خلال ذلك معجماً طبيّاً لاتينيّاً عبريّاً ، لا تزال أوراق منه موجودة بخطِّه ، أنجزه سنة ٩٣٠ هـ ، ثمَّ قدَّم سنة ٩٣٢ هـ كتاب (وصف إفريقية) مترجماً إلى الإيطاليَّة ، وفيه كثير من حوادثها التَّاريخيَّة ، أوردها وعلَّل أسبابها ونتائجها ، وهو القسم الثَّالث من كتاب له ألَّفه في (الجغرافية العامَّة) ، وطبع هذا القسم سنة ١٥٥٠ م بإيطالية ، وأُعيد طبعه عدَّة مرَّات سنة : ١٥٥٤ و ١٥٨٨ و ١٦٠٦ و ٦١٣ و ١٨٣٠ م ، وتُرْجم إلى اللاَّتينيَّة وطبع بها ، ونقله جان تمبورال Jean Temporal إلى الفرنسيَّة عن طبعتَيْ ١٥٥٠ و ١٥٥٤ الإيطاليَّتَيْن ، ثمَّ تكرَّر طبعه في فرنسة وهولندة وألمانية عدَّة طبعات ، وهو أوَّل كتاب فنِّي جغرافي ظهر بأُوربَّة ، وتأثيره في النَّهضة الأُوربيَّة ممَّا لا شكَّ فيه .

عاد الحسن بن الوزَّان إلى بلاده حوالي سنة ٩٣٤ هـ = ١٥٢٧ م ، ومات مسلماً في تونس نحو سنة ١٥٥٢ م ، ومن كتبه أيضاً : (مختصر تاريخ الإسلام) ، و (تاريخ إفريقية) ، و (مجموع شعري) في الوعظ والزُّهد ، وله رسالة باللاَّتينيَّة في (تراجم الأطبَّاء والفلاسفة العرب) ، طبعت سنة ١٦٦٤ م ، وصنَّف كتاباً في (العقائد والفقه

---

(٤٦) جزيرة قبالة ساحل تونس الجنوبي ، أقرب مدن السَّاحل إليها قابس ، (الرَّوض المعطار في خبر الأقطار ص ١٥٨) .

الإسلامي) ، كما ذكر كتاباً له أو رسالة في (الأعياد الإسلاميَّة) ، و (كتاباً في النَّحو)[٤٧] .

فَضْلُ المسلمين في عِلْم الجغرافية :

لقد أبدع العلماء المسلمون في رسم المصوَّرات الجغرافيَّة لأكثر الأمكنة الَّتي زاروها أو عرفوها ، ورسموا المصوَّرات البحريَّة للبحار الَّتي جابوها ، ووضعوا المعاجم الجغرافيَّة الَّتي ما زالت معتمدة حتَّى يومنا هذا ، وطوَّروا الإسطرلاب ، وعرفوا كرويَّة الأرض ، وقاسوا أبعادها بدقَّة ، خصوصاً أيَّام المأمون ، وحدَّدوا خطوط الطُّول والعرض ، متَّخذين جزر الباليار مبدأ خطوط الطُّول ، وظهرت أبحاث حديثة تقول إن (الفتية المغرورين) وصلوا عبر بحر الظُّلمات (الأطلسي) إلى أمريكة قبل كولومبس بمدَّة ٣٠٠ أو ٤٠٠ عام ، واستدلَّ أصحاب هذه النَّظريَّة إلى وجود كلمات عربيَّة في لغة هنود أمريكة ، وأنَّ مدنيَّة بعض الجماعات الهنديَّة في أمريكة تشبه المدنيَّة الإسلاميَّة إلى حدٍّ كبير[٤٨] .

وفي عام ١٩٥٢ م نشرت صحف البرازيل تصريحاً للدُّكتور جفرز أُستاذ العلوم الأثريَّة الاجتماعيَّة في جامعة (ويتواترستراند) في جمهوريَّة إفريقية الجنوبيَّة ، جاء فيه أنَّ كتب التَّاريخ تخطئ عندما تنسب اكتشاف أمريكة إلى كريستوف كولومبس ، ذلك لأنَّ العرب في الواقع هم اكتشفوها قبله بمئات السِّنين[٤٩] .

---

(٤٧) الأعلام ٢/٢١٧ ، عن حياة الوزَّان الفاسي وآثاره لمحمد المهدي الحجوي ، البحث المقدَّم إلى مؤتمر المستشرقين الَّذي انعقد في فاس سنة ١٩٢٣ م .

(٤٨) انظر أعلام الجغرافيِّين العرب ، د . عبد الرَّحمن حميدة ص ٢٣٣ ، عن الأب أنستانس الكرملي ، المقتطف شباط (فبراير) ١٩٤٥ م .

(٤٩) أعلام الجغرافيِّين العرب ، ص ٢٣٥ ، وليس يغمز من قدر البحَّار الكبير كولومبس أن يقال اليوم إنَّ غيره من الملاَّحين قد سبقوه إلى العالم الجديد .

ودراسة الأستاذ المذكور ، والَّتي دامت ستّ سنوات ، اعتمدت على دراسة للهياكل البشريَّة الَّتي عثر عليها في ولاية (غراناده) البرازيليَّة .

☆ ☆ ☆

الفَلْسَفَةُ : لم تصل الفلسفة اليونانيَّة إلى المسلمين مباشرة ، لأنَّهم كانوا يجهلون اللُّغة اليونانيَّة ، من أجل ذلك عهدوا إلى نفر من النَّصارى كانوا يتقنون اللُّغتَيْن اليونانيَّة والسُّريانيَّة ، أو السُّريانيَّة والعربيَّة ، لينقلوا لهم علوم اليونان وفلسفتهم .

ومن سيِّئات النَّقل ، أنَّ النَّقلة ترجموا كثيراً من شروح الإسكندرانيِّين على الفلسفة اليونانيَّة ، والإسكندرانيُّون أو الأفلاطونيُّون المحدثون ، كانوا متفلسفين هالهم أن تكون الفلسفة اليونانيَّة طبيعيَّة مادِّيَّة لا تتَّفق مع ما ورد في التَّوراة والإنجيل ، فراحوا يبدِّلون فيها ، ويفسِّرونها على أهوائهم ، ويزعمون أنَّهم يريدون أن يوفِّقوا بين الدِّين والفلسفة ، فزعموا مثلاً أنَّ أفلاطون ترهَّب في الصَّحراء سبع سنوات ، حتَّى استطاع أن يخرج ببرهان على الثَّالوث المقدَّس ، وكانوا أحياناً يضعون في أفواه القدِّيسَيْن بولس وبطرس أقوالاً لسقراط .

« ولقد كان ثمَّت ما هو أدهى وأمر ، ذلك أنَّ أكثر النَّقلة كانوا نصارى نسطوريِّين ، يعتقدون أنَّ للمسيح عليه السَّلام ، طبيعتَيْن بشريَّة وإلهيَّة ، ومشيئتَيْن بشريَّة وإلهيَّة ، أو نصارى يعاقبة يعتقدون أنَّ فيه طبيعة واحدة هي الطَّبيعة الإلهيَّة ، ومشيئة واحدة هي المشيئة الإلهيَّة ، هؤلاء النَّقلة لم يستطيعوا أن يميِّزوا بين مذاهبهم الدِّينيَّة وفلسفة أرسطو وأفلاطون ، ومن سبقهما ، فكانوا إذا وقع أحدهم على رأي يخالف مذهبه ، حذفه أو حوَّره ، وربَّما أضافوا كلّهم إلى كتب الفلاسفة ما ليس منها »(٥٠) .

---

(٥٠) القول للدُّكتور عمر فرُّوخ : « عبقريَّة العرب في العلم ، الفلسفة » ، ص ٩٢ ، ط٢ ، بيروت ١٩٥٢ ، واعتمدنا في هذا البحث مع كتاب د . فرُّوخ : « دراسات في الفلسفة الإسلاميَّة » ، د . محمود قاسم ، =

وهكذا وصلت الفلسفة اليونـانيَّـة إلى العرب المسلمين مشوَّهـة ممسوخـة ، جهلاً من النَّاقلين ، أو قصداً ، مع أنَّ خلفاء المسلمين ائتمنوهم على هذا التُّراث ، ولقد كان فلاسفـة الإسلام من طهارة النَّفس أنَّهم لم يشكُّوا في هذا التَّزوير الَّذي أدخلـه الإسكنـدرانيُّون ، والنَّقلة السُّريـان من بعـدهم على الفلسفـة ، فـأخـذوا يجهـدون أنفسهم وعقولهم في سبيل التَّوفيق بين هذه المتناقضات والمحـاولات الَّتي لا تتَّفق مع العقل ، وقضوا في ذلـك قرنَيْن ونصف القرن من الزَّمن ، مظهرين عبقريَّة عظيمة في بحوثهم ونظريَّاتهم .

أشهر الفلاسِفَةِ الْمُسْلِمينَ :

أبـو يـوسف يعقـوب بن إسحـاق الكنـدي : (ت ٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م) ، فيلسـوف العرب ، ولد بمدينـة الكوفـة ، وجرى على سُنَّـة غيره من علمـاء المسلمين في ذلـك العصر الزَّاهر ، أيَّـام المـأمون والمعتصم ، فـدرس أكثر فروع العلم والأدب الَّتي كانت في متنـاول الطَّالبين في عصره ، ولقد خلَّف من المؤلَّفـات مئتَيْن وخمسـة وستِّين بحثـاً ومقـالـة ، في الحساب والهندسة والنُّجوم والفلك والأنواء والجغرافيـة والطَّبيعـة والسِّيـاسـة والموسيقى والطِّب والفلسفة .

كانت فلسفة الكندي على مذهب الأفلاطونيَّة الحديثـة ، ولكن الكنـدي لم يـأخـذ هذه الفلسفة جملـة ، بل غيَّر فيهـا ، ومن كتبـه « الفلسفـة الأُولى فيا دون الطَّبيعيَّـات والتَّوحيد » ، وخمس رسائل أُولاها في ماهيَّة العقل .

وأبو النَّصر محمَّد بن محمَّد بن طَرْخـان الفـارابي : (ت ٣٣٩ هـ = ٩٥٠ م) ، المعلِّم الثَّـاني ، وأكبر فلاسفـة المسلمين ، تخرَّج الرَّئيس ابن سينـا على كتبـه وانتفع بهـا ، ولـد بفاراب على نهر جيحون ، ونزل بغـداد فـأتقن العربيَّـة ومَلَـك زمـامهـا ، وألَّف بهـا كلَّ تصانيفه ، إنَّ أخطر كتبه الفلسفيَّة هو « آراء أهل المـدينـة الفـاضلـة » ، الَّـذي يعطي

= و « دور العرب في تكوين الفكر الأوربِّي » ، د . عبد الرَّحمن بـدوي ، « مـذاهب الإسلاميِّين » ، د . عبد الرَّحمن بدوي ، « الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل » لابن حزم الأندلسي .

فكرة عن قانون الطَّبيعة ، ويصوِّر هذا القانون في صورة كفاح وتناحر يأتيه كلُّ حيٍّ إزاء الأحياء جميعاً ـ وهي الفكرة نفسها الَّتي قال بها « هبز » الفيلسوف الإنجليزي ـ وأنَّ كلَّ كائن عضوي إنَّما يرى في الكائنات الأُخرى وسيلة لغاياته ، وأنَّه في معمعة هذا التَّنافس المحتوم ، يكون أعقل العقلاء من يقتدر على إخضاع غيره لإرادته ، فيصل إلى تحقيق رغباته كاملة ، ولكن كيف استطاعت الجماعة الإنسانيَّة الخروج من قانون الغاب هذا ؟ لقد سبق الفارابي جان جاك روسُّو ، ونيتشه عندما قال : إنَّ الجمعيَّة أساسها الاتِّفاق أو العقد بين الأفراد ، وإنَّ بقاءها رهن بقبول عدَّة قيود تفرضها العادة ، وينظِّمها القانون ، ورفض الفارابي أن يغزو القويُّ الضَّعيف ، وأن يفرض عليه شرائعه ، ورفض على الجملة مذهب هؤلاء الَّذين جعلوا الحقَّ قوَّةً ، وحضَّ النَّاس على ألاَّ يقيموا مجتمعهم على الحقد والقوَّة الغاشمة والتَّناحر ، بل يقيموه على العقل والإخلاص والمحبَّة .

إنَّ في هذه الآراء لنسباً كبيراً ووثيقاً إلى الفلسفة الأُوربيَّة في أواخر القرن الثَّامن عشر ، بل إنَّها فلسفة الثَّورة الفرنسيَّة ، وإنجيلها « العقد الاجتماعي » لمؤلِّفه جان جاك روسُّو .

لقد كان أثر الفارابي في اتِّجاه التَّفكير الأُوربي عظيماً ، فكتبه نُقِلت إلى اللاَّتينيَّة ، وطبعت جملة واحدة في باريس عام ١٦٣٨ م . فمن فلاسفة العصور الوسطى الَّذين تأثَّروا بفلسفة الفارابي الرَّاهب الفرنسي فِنْسان دو بوفيه Vincent de Beauvais المتوفَّى نحو سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م ، الَّذي ضمَّ أجزاء من فلسفة الفارابي برمَّتها إلى كتابه ، أمَّا ألبرتوس ماغنوس (ألبرت الكبير) كبير فلاسفة الكنيسة في العصور الوسطى فإنَّه لم يستطع عرض فلسفة أرسطو بأحسن ممَّا عرضها الفارابي ، لذلك لم يجد بدّاً من أن يقتفي آثار الفيلسوف المسلم في عرض فلسفة أرسطو[٥١] .

(٥١) عبقريَّة العرب في العلم والفلسفة ، ص ٩٥ ، وانظر : وفيات الأعيان ٨٦/٢ ، والوافي بالوفيات ١٠٦/١ ، ودائرة المعارف الإسلاميَّة ٤٠٧/١

وأبـو الـوليـد محمَّـد بن أحمـد بن محمَّـد بن رشـد الأنـدلسي : (ت ٥٩٥ هـ = ١١٩٨ م) ، من أهل قرطبـة ، شـارح أرسطو يوم لم يكن أحـد في أُوربـة يستطيـع فهمهـا ، حتَّى عُرِف من أجل ذلك في أُوربَّة باسم « الشَّـارح » ، ويعنون شـارح كتب أرسطو ، ولكنـه لم يكن شـارحـاً لكتب أرسطو فقـط ، فكثيراً مـا كانت شروحـه على أرسطو في حقيقتها حجَّة لإبراز آرائه الشَّخصيَّة ، أو لتفسير الآراء القديمـة تفسيراً صحيحـاً ، هـذه الشُّروح كانت الوسيلة الوحيـدة لفهم أرسطو ، حتَّى إنَّهـا كانت تطبع مع كتب أرسطو نفسهـا ، وحتَّى إن وليم اكزر (ت ١٢٣١ م) فقيـه بـاريس ، وعضو اللَّجنـة الَّتي ألَّفهـا البابا غريغوريوس التَّاسع لتهذيب كُتب أرسطو ، اعتمـد على كتـاب مـا وراء الطَّبيعـة لأرسطو وعلى شرحه لابن رشد ، وقـد نُقِلَت كتب ابن رشـد إلى العبريَّـة واللاَّتينيَّـة ، وطُبعت في البندقيَّة وحدها أكثر من خمسين مرَّة .

ولقد اقتبس الغرب فلسفة ابن رشد بكاملها ، وكان من حسنـاتهـا أن حلَّت عقـال الفكر الأُوربي ، وفتحت أمامه باب البحث والمناقشة واسعاً على مصراعيـه ، وخصوصـاً بما حملت معهـا من آراء مـاديَّـة وطبيعيَّـة وشموليَّـة ، ولم يكن من المستغرب أن يعجب مفكرو العصور الوسطى بشروح ابن رشد ، وبإصابة آراء ابن رشد ، وهكذا نشـأ بينهم **مذهب الرُّشديَّة** للأخذ بالعقل عند البحث ، وترك الاعتماد على الرِّوايات الدِّينيَّة [٥٢] .

ثمَّ لَمَّا اجتاحت فلسفة ابن رشد عقول الفلاسفـة في العصور الوسطى ، وسـاد العقل في كلِّ مكان ، هبَّت الكنيسة لتقاوم هذا التَّيار الجارف بكلِّ سبيل ، فابن رشـد يعتقـد صراحة أن هنالك أُموراً تصحُّ في الدِّين ولا تصحُّ في الفلسفة ، وأن ثمَّة أشيـاء تصحُّ في الفلسفة ولا تصحُّ في الدِّين ، وابن رشد يقبل طبعاً كلَّ ما جاءت به الفلسفة ، وكذلـك يقبل كلَّ ما جاء بـه الـدِّين ، ولكن على شرط واحـد ، هي أن يتـأوَّل بعض الرِّوايـات الدِّينيَّة الَّتي لا تتَّفق في ظاهرها مع الرَّأي الفلسفي ، كما قال بأزليَّة المادَّة ، وأنَّ فيها قوَّة

---

(٥٢) عبقريَّة العرب في العلم والفلسفة ، ص ١١٤



*ابن رشد

كما تصوره (رفائيل) في لوحته الشَّهيرة (مدرسة أثينا) ، إنه الرَّجلِ الوحيد الَّذي يلبس عمامة بيضاء في اللَّوحة كلِّها ، ونحن لا نرى من هذه اللَّوحة هنا إلا ربعها ، ولعل من الصَّعب جدّاً أن يخطئ المرء في التَّعرُّف إلى ابن رشد ، بسبب هذه العمامة

كامنة هي الَّتي تـدفعهـا في تطوُّرهـا الـدَّائم المستمر ، وقـال بوحـدة العقل وفنـاء الأنفس الجزئيَّة ، أمَّا الَّذي يخلد فعقل الإنسـانيَّـة جمعـاء . من أجل ذلـك أعلنت الكنيسـة على ابن رشـد حربـاً شعـواء دامت قرنَيْن كاملَيْن ، فحرَّمت دراسـة الفلسفـة وتـدريسهـا ، وقتلت مناصريها ، وأحرقت كتبها .

وكان على رأس المـذهب الرُّشـدي سيغر البرابسوني الَّـذي احتـلَّ مقـامـاً سـاميـاً في جامعة باريس ، فاستصدرت الكنيسة حكماً بطرده من تلـك الجـامعـة ، ولكن ذلـك لم يبدِّل رأيه ، ولا خفَّف من نشاطِهِ ، إلاَّ أنَّه قتل غيلة .

قال الفيلسوف الألمـاني « كانت » (ت ١٨٠٤ م) رأيـه في المكان والزَّمـان ، وإنَّهما ليسـا « شيئـاً في ذاتـه » ، إنَّهما وعـاءان كبيران يحتويـان على جميع الحقـائق المحسـوسـة والمعقولة ، ولكنَّهما وعاءان بلا قعر ، ولا جوانب ، إنَّهما في الحقيقة « فكرة » خالصـة ، تمكِّننا من تخيُّل الأشياء مرتَّبة بعضها إلى بعض ، أو منسوقاً بعضهـا خلف بعض ، وهمـا في ذلك كلِّه مدرَكان بأوَّل العقل ، وبالبديهة لا بالحواس .. وابن رشـد هو الَّـذي قـال : « والزَّمان معنى ذهني لا وجود له على الحقيقة » ، وقال أيضاً : « إنَّ الزَّمان شيء يفعلـه الذِّهن في الحركة ، لأنَّ الزَّمان ليس هو شيئاً غير ما يـدركـه الـذِّهن من هـذا الامتـداد المقرَّر للحركـة ، فـإنَّـه كان من المعروف بنفسـه أن الزَّمـان موجود ، فينبغي أن يكون هذا الفعل للذِّهن من أفعاله الصَّادقة المنسوبـة إلى العقل لا إلى الخيـال ، والزَّمـان ليس بذي وضع [٥٣] .

وساهم في بناء الفلسَفَة العربيَّة الإسلاميَّة :

المعتزلة الَّذين بالغوا في قيمة العقل ، حتَّى جعلوا معرفة الله واجبة بالعقل .

(٥٣) المرجع السَّابق ، ص ١١٨/١١٧ ، كتب كرستوفر كولومبس كتـابـاً في هـاييتي مؤرِّخـاً في تشرين الأوَّل (أكتوبر) ١٤٩٨ م يذكر فيه اسم ابن رشد كواحد من المؤلِّفين الَّذين سـاعـدوه على تخمين وجود العـالم الجـديـد . وابن رشـد طبيب أيضـاً ، فهو أوَّل من شرح وظيفـة شبكيَّـة العين ، وقـال : إن من عرض بالجدري يكتسب الحصانة من هذا الدَّاء .

وشجَّع البويهيُّون جمعيَّة سرِّيَّة ، ظلَّت مجهولة إلى نحو سنة ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م ، هي : « **إخوان الصَّفا وخُلَّان الوفا** » ، الَّذين رتَّبوا بحوث الفلسفة الَّتي كانت شائعة في أيَّامهم ، ثمَّ عملوا على تعليم الفلسفة لسواد الشَّعب .

وابن سينا الَّذي انتقد أفلاطون في النَّفس ، حيث اعتقد بالتَّقمُّص ، فعدَّ ابن سينا ذلك بعيداً عن الصَّواب ، واعتقد أنَّ النُّفوس متعدِّدة بتعدُّد الأبدان ، فكلَّما حدث جسد مستعد لقبول الحياة ، ظهرت الحياة فيه ، وبما أنَّ ابن سينا قد تأثَّر بفلسفة الفارابي وآثاره واستفاد منها ، فإنَّ جميع الَّذين تأثَّروا بالفارابي من الأُوربيِّين ، تأثَّروا بابن سينا أيضاً .

فكثيراً ما اعتمد روجر بايكون على ابن سينا في توضيح آراء أرسطو ، ولَّما جاء القدِّيس توما بخمسة أدلَّة على وجود الله عزَّ وجلَّ ، سلك فيها لأوَّل مرَّة في تاريخ المسيحيَّة مسلك أرسطو ، معتمداً على آراء ابن سينا في سوقها ، وكذلك قلَّده القدِّيس توما في القول بتعدُّد أشخاص الملائكة ، وبأنَّهم مفارقون للمادَّة .

وتأثَّر متَّى الاكواسبارطي الَّذي أصبح كردينالاً عام ١٢٩١ م وتوفِّي عام ١٣٠٢ م بنظريَّة الفيض عند ابن سينا ، وكذلك ديترش الفرايبورغي (ت بعيد ١٣١٠ م) ، الَّذي رأى أنَّ « خلق العالم » لا يمكن أن يكون عمل غير الله ، وأنَّ نظريَّة الفيض لا تخالف خلق العالم ، ولكنَّها تشمله ، ما دامت الأسبابُ الثَّانية الظَّاهرة لنا لا تعمل إلا بأثر من الأسباب الأُولى الحقيقيَّة الصَّادرة عن الأُلوهيَّة ، وكذلك وافق ديترش ابنَ سينا بأنَّ العقل الفعَّال هو المبدأ السَّببي لمادة النَّفس ، وأنَّ صلته بالنَّفس كصلة القلب بالجسم الحيواني ، وخالف بذلك القديس توما(٥٤) .

ووقف **أبو العلاء المعرِّي**(٥٥) في « لزوميَّاته »(٥٦) أمام مشكلة كبرى ، أعظم من

(٥٤) عبقريَّة العرب في العلم والفلسفة ، ص ٩٩

(٥٥) أحمد بن عبد الله بن سليمان التَّنوخي المعرِّي (ت ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م)

(٥٦) من كتبه : (لزوم ما لا يلزم) ، و (سقط الزِّند) ، و (ضوء السَّقط) ، و (رسالة الغفران) من أشهر كتبه .

تلك الَّتي وقف حيالها الفلاسفة المشارقة كلُّهم ، إنَّه لم يصطدم بالخلاف بين العقل والنَّقل في الأُمور الإيمانيَّة ، كما كان شأن المعتزلة ومن جاء بعدهم ، بل وجد أنَّ العقل يفهم الأُمور كلَّها على غير ما استقرَّت عليه في أذهان النَّاس ، من العامَّة ومن العلماء والفلاسفة حتَّى أفلاطون وأرسطو ، إنَّ قضيَّة النَّفس في اتِّصالها بالجسد ، ثمَّ في مصدرها ومصيرها بعد الموت ، وإنَّ القضايا المتعلِّقة بصفات الله وذاته ، أو ببعثه الرُّسل وما هو بمعنى ذلك أيضاً ، ثمَّ بتخيُّل نظام العالم وبالعناصر وما يتألَّف منها ، ثمَّ بالمجتمع وما يتَّصل به ، كلُّ ذلك كان موضع تساؤل في لزوميَّات « حكيم المعرَّة » ، وموضع شكٍّ فلسفي صحيح .

وإذا كان المعرِّي لم يجمع آراءه في سلك واحد ، ولم يكن إلا نقَّادة ينتقل من سؤال إلى سؤال ، ثمَّ لا يدلي برأيه في شيء ، ممَّا يُسأل عنه ، فما ذلك إلاَّ لأنَّ عبقريَّته كانت في أن يثير التَّفكير في أدمغة الَّذين حوله ، كما كان يفعل سقراط تماماً(٥٧) .

يقول د . عبد الرَّحمن بدوي ، تحت عنوان « المصادر الإسلاميَّة للكوميديا الإلهيَّة لدَانْتَه » : « كانت قنبلة هائلة تلك الَّتي ألقاها المستشرق العظيم أسين بلاثيوس ، وهو يلقي خطاب استقباله في الأكاديميَّة الملكية الإسبانيَّة في جلسة ٢٦ كانون الثَّاني (يناير) سنة ١٩١٩ م ، لمَّا أعلن أنَّ دانته في (الكوميديا الإلهيَّة) ، قد تأثَّر بالإسلام تأثُّراً عميقاً وواسع المدى ، يتغلغل حتَّى في تفاصيل تصويره للجحيم والجنَّة ، إذ تبيَّن له أنَّ ثمَّت مشابهات وثيقة بين ما ورد في بعض الكتب الإسلاميَّة عن معراج النَّبي ﷺ ، وما في (رسالة الغفران للمعرِّي) ، وبعض كتب محيي الدِّين بن عربي من ناحية ، وبين ما ورد في (الكوميديا الإلهيَّة) ، وفي هذه المشابهات من الدِّقَّة والتَّفصيل ، ما يؤيِّد أنَّ التَّشابه هنا لم يكن أمراً عرضيّاً وتوارد خواطر ، بل كان تأثُّراً مباشراً بالتَّصويرات الإسلاميَّة للآخرة »(٥٨) .

---

(٥٧) عبقريَّة العرب في العلم والفلسفة ، ص ١٠٠

(٥٨) دور العرب في تكوين الفكر الأُوربي ، ص ٤٩

وتجلّت آثار حجّة الإسلام **أبو حامد الغزالي** في أوربّة في ثلاثة مظاهر : **في السَّببيَّة** ، فيرى الغزالي أنَّ الأُمور تتمُّ بإرادة الله لها ، لا بالأسباب الظّاهرة لنا ، واقترب المفكِّر الفرنسي أرنست رينان من الحقيقة عندما قال : إن دافيد هيوم ـ الفيلسوف الإنكليزي ـ لم يقل شيئاً في السَّببيَّة فوق ما قاله الغزالي . **وفي الشَّكّ** ، فقد بدأ ديكارت الفرنسي (ت ١٦٥٠ م) كما بدأ الغزالي قبله بخمسة قرون ونصف القرن : « لندع الشَّك يتسرَّب إلى كلِّ اقتناع ، بل إلى كلِّ عقيدة فينا ، ولكن لنهاجم شكوكنا واحداً واحداً ، ولنحاول أن نصرفها »[٥٩] ، وبما أنّ الشّك أقوى دلائل التّفكير ، فقد قال ديكارت جملته المشهورة : « أنا أُفكِّر ، ولذلك أنا موجود ! » . **وإخضاع العقل للدّين والفلسفة للفقه** ، وهذا من أبرز ما تركه التّفكير الإسلامي على التّفكير الأوربي في العصور الوسطى ، لقد أخضع الغزالي العلم والفلسفة والعقل للوحي والدِّين والفقه .

والغزالي لم يجد للإيمان التَّقليدي الموروث قيمة ما ، ورفع العقل إلى مرتبة عليا[٦٠] .

وأبو محمّد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) ، صاحب « الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل » ، له نظريَّة في المعرفة ، حيث يرى أنَّها تكون : بشهادة الحواس ، أي بالاختيار لما تقع عليه الحواس ، أو بالعقل من غير حاجة إلى استعمال الحواس الخمس ، أو ببرهان راجع من قُرب أو من بُعد إلى شهادَة الحواس .

ثمَّ إنَّ ابن حزم يعتقد أنَّ جميع أنواع المعرفة يجب أن تعتمد على الحواس الَّتي تعتمد هي بدورها على ما حولها من المحسوسات ، ويقول الدُّكتور عمر فرُّوخ : « هذه هي المشكلة الَّتي يزعم مؤرِّخو الفلسفة الأُوربيَّة أنَّها عَرَضَت أوَّل ما عَرَضَت للفيلسوف

---

(٥٩) عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ص ١٠٤

(٦٠) المرجع السَّابق ، ص ١٠٥

« كانت » في أواخر القرن الثّامن عشر للميلاد ، مع أنّها عَرَضت لفيلسوفنا ابن حزم في أواسط القرن الحادي عشر ، قبل « كانت » بسبعة قرون ونصف القرن »[٦١] .

ومن عباقرة المسلمين **أبو بكر محمَّد بن يحيي الصَّائغ** ، المعروف **بابن بَاجَّه**[٦٢] ، الّذي كانت لفلسفته قيمتان أساسيّتان : إنّه بنى الفلسفة العقليّة على أسس الرِّياضيّات والطَّبيعيّات ، كما أراد الفيلسوف الألماني « كانت » أن يفعل تماماً ، وهكذا خلع ابن باجّه عن مجموع الفلسفة الإسلاميَّة سيطرة الجدل ، ثمَّ خلع عليها لباس العِلْم الصَّحيح ، وسيَّرها في طريق جديدة . وهو أوّل فيلسوف في الإسلام (وأوّل فيلسوف في العصور الوسطى أيضاً) فصل بين الدِّين والفلسفة في البحث . ونقل موسى بن يوشع المعروف في أُوربَّة بموسى النربوني فلسفة ابن باجه في أواخر القرن الرَّابع عشر للميلاد ، ولا شكَّ في أنَّ فلسفة ابن باجّه وصلت إلى الأُوربيّين عن غير طريق موسى هذا ، حتّى كان لها تأثير كبير على فلاسفة الكنيسة في العصور الوسطى : ألبرت الكبير ، وتوما الإكويني . وكذلك أثَّر ابن باجّه في بوتيوس داسيا الّذي قال بأن الإنسان يبلغ السَّعادة من طريق الإحاطة بالحقائق العلمية ، وسكت عمّا وراء ذلك .

أمَّا أبو بكر محمَّد بن عبد الملك بن طفيل : (ت ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) ، صاحب قصّة « حي بن يقظان » ، أعظم وأشهر قصّة كُتبت في العصور الوسطى . فقد أراد منها أنَّ الإنسان العاقل بفطرته يصل عن طريق تفكيره الصَّحيح إلى مرتبة من السَّعادة ، كتلك الّتي يصل إليها الّذين يأخذون الشَّريعة من الأنبياء أخذاً صحيحاً .

لقد تأثَّر بقصة ابن طفيل موسى بن ميمون ، وسبينوزا ، ونالت إعجاب ليبنتز ، وظهر أثر هذه القصَّة أيضاً في قصَّة روبنسون كروزو ، الّتي أُلِّفت سنة ١٧١٩ م .

---

(٦١) المرجع السّابق ، ص ١٠٩

(٦٢) ابن باجَّة : (ت ٥٣٣ هـ = ١١٣٩ م) . ويسمونه في أُوربة : Aven pace

العُلوم الكونيَّةُ : « العلوم الأساسيَّة والتَّطبيقيَّة ، الرِّياضيَّات والفلك ... » .

الطِّبُّ : عندما اكتمل عصر التَّرجمة في صدر العصر العبَّاسي ، ظهر عددٌ من الأطبَّاء العرب المسلمين الَّـذين سـاهموا في النَّهضـة الطِّبيَّـة ، وبلـغ من كثرتهم ، أنَّ الحكـومـات المحلِّيَّة كانت تُجْري لهم امتحـانـات رسميَّـة ، وتمنحهم شهـادات للعمل ، وكان لهم في كلِّ مـدينـة رئيس هو الَّـذي يجيز مَنْ يرى فيـه الكفـاءة للتَّطبيب[1] ، وأشهرهم سنـان بن ثابت رئيس أطبَّاء بغداد .

وتخصَّص الأطبَّاء في الشرق والأندلس ، فهنـاك الجرَّاح ، والفـاصـد ، والكحَّـال ، وطبيب الأسنـان ، وطبيب أمراض النِّسـاء ، وطبيب المجـانين (طبيب الأعصـاب) ، ومن أشهر الأطبَّاء العرب المسلمين :

أبو بكر محمَّد بن زكريَّا الرَّازي : (ت ٣١٣ هـ = ٩٢٥ م) ، من الأئمَّة في صناعـة الطِّب ، من أهل الرّي ، ولد وتعلَّم بهـا ، وسـافر إلى بغـداد بعـد سنِّ الثَّلاثين ، يسمِّيـه كتَّاب اللاَّتينيَّة « رازيس Rhazes » ، تولَّى تدبير مارستـان الرَّي ، ثمَّ ريـاسـة أطبَّـاء البيمـارستـان المقتـدري في بغـداد ، كان يجلس في مجلسه ، ودونـه تـلاميـذه ، ودونهم تلاميذهم ، ودونهم تلاميذ أُخر ، فيجيء المريض فيـذكر مرضـه لأوَّل من يلقـاه ، فـإن كان عندهم علم وإلاَّ تعـدَّاهم إلى غيرهم ، فـإن أصـابوا وإلاَّ تكلَّم الرَّازي في ذلـك . وكان أوَّل من دوَّن من العرب المسلمين ملاحظاتـه على مرضـاه ، ومراتب تطوُّر المرض ، وأثر العلاج فيه ، وهو أوَّل مَنْ وصف الجدري والحصبة ، وقال بالعدوى الوراثيَّة ، واستخدم

---

(١) وهذا نصُّ إحـدى هـذه الشَّهـادات في الجراحـة : « بسم الله الرَّحمن الرَّحيم ، بـإذن البـاري العظيم نسمح لِـ ... بممارسة فنِّ الجراحة لما يعلمـه حقَّ العلم ، ويتقنـه حقَّ الإتقـان ، حتَّى يبقى نـاجحـاً وموفَّقـاً في عمله ، وبناء على ذلـك فـإن بـإمكانـه معـالجـة الجراحـات حتَّى تشفى ، وبفتح الشَّرايين ، واستئصـال البواسير ، وخلع الأسنان ، وتخييـط الجروح ، ولمهـارة الأطفـال .. وعليـه أيضـاً أن يتشـاور دومـاً مع رؤسـائـه ، ويـأخـذ النُّصح من معلِّميـه المـوثـوق بهم وبخبرتهم » ، [شمس العرب تسطـع على الغرب ، ص ٢٣٨] .

الحيوان في تجارب الأدوية ، ومن مؤلَّفاتـه : الحـاوي ، رسـالـة في الجـدري والحصبـة ، الكتاب المنصوري ، كتاب الأسرار ، الكتاب الجامع[٢] .

وأبـو علي الحسين بن عبـد الله بن سينـا : (ت ٤٢٨ هـ = ١٠٣٧ م) ، أصلـه من بلخ ، ومولـده في إحـدى قرى بخـارى ، نشـأ وتعلَّم في بخـارى ، طـاف البلاد ، ونـاظر العلماء ، توفِّي في همذان . عرفته أُوربة باسم Avicenne ، وله عندهم مكانة رفيعة .

اشتغل بالعلم الطَّبيعي والإلهيَّات ، ثمَّ درس علم الطِّب ، واستوعب الكتب المصنَّفة فيه ، وعالج « تـأدُّبـاً لا تكسُّبـاً » ، وقصـده فضلاء هـذا العلم وكبراؤه ، يقرؤون عليـه أنواعه ، والمعالجات المقتبسة من التَّجربـة . ولقـد انتقل علم الرَّئيس[٣] ابن سينـا سبعـة قرون متـواليـة ، فكان المرجـع في الفلسفـــة والطِّب والعلم الطَّبيعي .. وبقي كتـــابـه « القـانـون » في الطِّب العمـدة في تعليم هـذا الفن حتَّى أواسـط القرن السَّابـع عشر في جامعات أُوربة .

وكان لابن سينا ضلع في التَّرجمة ، وحقَّق أرصـاداً فلكيَّـة ، ولـه بحوث مبتكرة في الحركة والقوَّة والفراغ والضوء والحرارة والثِّقل النَّوعي ، بالإضافة إلى مـا لـه من أثر في بحث المعادن ، وهو بحث أدَّى إلى علم طبقات الأرض .

وابن سينا أوَّل من وصف التهاب السَّحايا الأوَّلي وصفاً صحيحاً ، ووصف أسبـاب اليرقان ، ووصف أعراض حصى المثانة ، وانتبه إلى أثر المعالجة النَّفسانيَّة في الشِّفاء[٤] .

وأبو مروان ابن زهر الإشبيلي : (١٠٩١ ـ ١١٦٢ م) : كان لترجمة كتابـه التَّيسير إلى اللاَّتينيَّة والعبريَّة أعظم الأثر في الطِّب الأُوربي ، وأهم ما برع فيـه ابن زهر الوصف

---

(٢) طبقات الأطبَّاء ٣٠٩/١ ، تاريخ حكماء الإسلام ٢١ ، الوافي بالوفيات ٧٦/٣ ، دائرة المعارف الإسلاميَّة ٤٥١/٩

(٣) لقِّب ابن سينا : الشَّيخ الرَّئيس .

(٤) وفيات الأعيان ١٥٢/١ ، تاريخ حكماء الإسلام ٢٧ ، دائرة المعارف الإسلاميَّة ٢٠٣/١

الإكلينيكي ، وترك وراءه تحليلات صادقة للأورام الحيزوميَّة ، والتهاب التَّامور ، ودرن الأمعاء والشَّلل البلعومي .

وعلاء الدِّين علي بن أبي الحزم القَرْشي[٥] **الملقَّب بابن النَّفيس** : (٦٨٧ هـ = ١٢٨٨ م) ، من كتبه : « الموجز » في الطِّب ، اختصر به قانون ابن سينا ، و « فاضل بن ناطق » على نمط « حيٍّ بن يقظان » لابن الطُّفيل ، و « الشَّامل » في الطِّب ، و « بغية الفِطَن من علم البدن » .. وكانت طريقته في التَّأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته ، وقلَّ أن يراجع أو ينقل[٦] . ومن كتبه « شرح تشريح القانون » ، أي شرح قانون ابن سينا .

في عام ١٩٢٤ م قدم د . محيي الدِّين الطَّطاوي رسالته في ألمانية ، أكَّد فيها أنَّ ابن النَّفيس أوَّل من اكتشف الدَّورة الدَّمويَّة الصُّغرى « الرِّئويَّة » ، وأوَّل من أشار إلى الحويصلات الرِّئويَّة ، والشَّرايين التَّاجيَّة ، ناقضاً نظريَّة جالينوس ، ونقض ابن سينا « الشَّيخ الرَّئيس » في الدَّورة الدَّمويَّة ، فقال : « التَّشريح يكذِّب ما قالاه » .

أخذ المستشرق ماكس مايرهوف أُطروحة الطَّطاوي ، ونشر في مجلَّة « إيزيس » مقالة عنها ، لفتت نظر جورج سارتون ، فكتب ذلك في كتابه « تاريخ العلم » ، ومن ينسب اكتشاف الدَّورة الدَّمويَّة الرِّئويَّة إلى الإنكليزي « وليم هارفي » يتناسى - عن قصد أو عن غير قصد - أنَّ ابن النَّفيس عرف في أُوربَّة منذ أوائل القرن الخامس عشر ، وهارفي درس الطِّب في جامعة بادوا « بادوڤا » الإيطاليَّة على طبيب إيطالي زار دمشق ، ودرس ابن النَّفيس ، وترجم ابن النَّفيس دون أن يذكر ابن النَّفيس . وبدأ هارفي يقول بنظريَّته في الدَّورة الدَّمويَّة في سنة ١٦١٦ م ، أي بعد ابن النَّفيس بأربعة قرون ، والفضل لمن سبق ، لا لمن سرق .

---

(٥) بلدة « قَرْش » في ما وراء النَّهر ، ومولده في دمشق ، ووفاته بمصر .

(٦) طبقات السُّبكي ١٢٩/٥ ، شذرات الذَّهب ٤٠١/٥ ، دول الإسلام للذَّهبي ١٤٣/٢ ، النُّجوم الزَّاهرة ٣٧٧/٧

رأس ابن النَّفيس المستشفى المنصوري بالقاهرة . وكان ـ رحمه الله ـ معتدّاً بنفسه ، مع لطف وعلم ، عندما قال : « لو أعلم أنَّ تصانيفي لا تبقى بعدي عشرة آلاف سنة ما وضعتها »[٧] .

وخَلَفُ بن عبَّاس الزَّهْرَاوي الأندلسيّ : (ت ٤٢٧ هـ = ١٠٣٦ م) ، جعله كتابه « التَّصريف لمن عجز عن التَّأليف » ، من كبار جرَّاحي العرب المسلمين ، وأستاذ علم الجراحة في أُوربة في العصور الوسطى ، وعصر النَّهضة الأُوربيَّة ، حتَّى القرن السَّابع عشر ، ومن خلال دراسة كتبه تبيَّن أنَّه أوَّل من وصف عمليَّة تفتيت الحصاة في المثانة ، وبحث في التهاب المفاصل ، وفي السِّل ، وأشار باستخدام مساعدات وممرِّضات من النِّساء في حال إجراء عمليَّة جراحيَّة لامرأة للطُّمأنينة والرِّقَّة والأُنس[٨] .

وعبد اللطيف بن يوسف بن محمَّد بن علي البغدادي : (ت ٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م) ، ويعرف بابن اللباد ، وبابن النُّقطة ، أحد العلماء المكثرين من التَّصنيف في الحكمة وعلم النَّفس والطِّب والتَّاريخ والبلدان والأدب ، مولده ووفاته ببغداد[٩] .

اعتمد التَّجربة الحسيَّة ، ونقض جالينوس في شرحه لعظم الفكِّ بعد مشاهدة أكثر من ألفي جمجمة ، لقد صحَّح أخطاء جالينوس بنظرة علميَّة سليمة ، فكسر هالة التَّقديس الَّتي أُحيط بها أطبَّاء اليونان الكبار ، وقال : « الحِسُّ أصدق منه »[١٠] ، لقد جعل العلم موقوفاً على التَّجربة ، فكثيراً ما كان يقول : هذا الرَّأي المشهور ، وهو عندنا باطل ، هذا ما قيل ، والتَّشريح يكذِّب ما قالوه : « القول يقصر على العيان ، الحِسُّ أقوى دليلاً من السَّمع » ، ولهذا كان البغدادي ينتقل بطلاَّبه الَّذين يتردَّدون عليه في دراسة الطِّب إلى المقابر ليتحقَّق بنفسه من أشكال العظام ، « والَّذي شاهدناه من حال

(٧) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٦٨

(٨) طبقات الأطبَّاء ٢/٥٢

(٩) فوات الوفيات ٢/٧ ، طبقات الأطبَّاء ٢/٢٠١

(١٠) أي من جالينوس .

هذا العضو ـ عظم الفكّ ـ أنّه عظم واحد ليس فيه مِفْصَل ولا درز أصلاً ، واعتبرناه ما شاء الله من المرّات ، في أشخاص كثيرين ، تزيد على ألفي جمجمة ، بأصناف من الاعتبارات ، فلم نجده إلاّ عظماً واحداً من كلّ وجه ، ثمّ إنّنا استعنّا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه ، وكذلك في أشياء أُخرى غير هذه ، ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي بها ما شاهدناه ، وما علمناه من كتب جالينوس ، ثمّ إنّي اعتبرت هذا العظم أيضاً بمدافن بوصير[11] القديمة ، فوجدته على ما حكيت ، ليس فيه مفصل ولا درز .. والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزّمان تظهر وتتفرّق ، وهذا الفكّ الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلاّ قطعة واحدة »[12] .

القياس السّاذج في صناعة الطّبّ مطروح ، وهو موقوف على التّجربة ، فإن صحّحَتْهُ وصدّقته قُبِل ، وإلاّ رُدّ وطُرِح[13] .

ومِمّا يذكر أنّ اليهود يكرهون البغدادي ، وحاولوا سرقة كتابه « الإفادة والاعتبار » لأنّه يعرّي موسى بن ميمون ، فهو طبيب بلاط ، لم يؤلّف ، ولم يبحث ، ولم يبدع ، واليهود يقولون : « ما بعد موسى إلاّ موسى » ، هالة من التّفخيم حوله لغمط حقّ العلماء المسلمين .

كما انتقد البغداديّ ، أبا الحجّاج يحي بن شمعون تلميذ ابن ميمون ، وشبيهه في الصّفات ، والّذي فصد الغازي بن صلاح الدّين فمات في قلعة حلب سنة ٦٥٩ هـ = ١٢٦١ م .

☆ ☆ ☆

(١١) بوصير : اسم لأربع قرى بمصر ، وبوصير السّدْر : بليدة في كورة الجيزة ، معجم البلدان ٥٠٩/١ و ٥١٠

(١٢) عبد اللّطيف البغدادي في مصر ، الإفادة والاعتبار في الأُمور والمشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، المجلّة الجديدة ، مطبعة المصري .

(١٣) المرجع السّابق « عبد اللّطيف البغدادي في مصر » ص ٧٤

هذا .. واهتمَّ العرب المسلمون اهتماماً عظيماً بالرَّفاه العام لشعوبهم ، فأنفقوا بسخاء على المستشفيات العامَّة المجانيَّة ، وأهم أنواعها : **مستشفيات المجذومين** : وهي أوَّل أنواع المستشفياتِ (منذ أيَّام الوليد ٧٠٧ م) ، **ومستشفيات المجانين** لمعالجتهم سريريّاً ونفسيّاً ، في الوقت الَّذي كانت فيه أُوربَّة تداويهم بالضَّرب المبرِّح ، **والمستشفيات العسكريَّة** : وكانت تنتقل مع الجيش ، وتحمل أجهزتها على الجمال والبغال ، بينما كان إسعاف الجنود في أُوربَّة في العصور الوسطى يقع على عاتق الجندي نفسه . **ومستشفيات السُّجون** : وجدت في بغداد في العصر العبَّاسي الأوَّل ، **ومآوي العجزة والعميان والأيتام** : وجدت أيَّام الأُمويِّين ، وزادت في العصر العبَّاسي ، **المستشفيات المتنقِّلة** : في الرِّيف والقرى البعيدة عن المدن والَّتي لا أطبَّاء فيها ، **ومحطَّات الإسعاف** : قرب المساجد ، ففي مسجد أحمد بن طولون مكان خاص للإسعاف ليلاً ونهاراً ، **والمستشفيات العامَّة** : الَّتي لم تخلُ منها مدينة كبيرة ، ولها أوقاف واسعة للإنفاق عليها .

تقول المستشرقة الألمانيَّة زيغريد هونكة : « إنَّ كلَّ مستشفى ، مع ما فيه من ترتيبات ومختبر ، وكلَّ صيدليَّة ومستودع أدوية في أيَّامنا هذه ، إنَّما هي في حقيقة الأمر ، نصب تذكاريَّة للعبقريَّة العربيَّة . كما أنَّ كلَّ حبَّةٍ من حبوب الدَّواء ، مذهَّبة أو مسكَّرة[(١٤)] ، إنَّما هي كذلك ، تذكار صغير ظاهر ، يذكرنا باثنين من أعظم أطبَّاء العرب[(١٥)] ، ومعلِّمي بلاد الغرب »[(١٦)] .

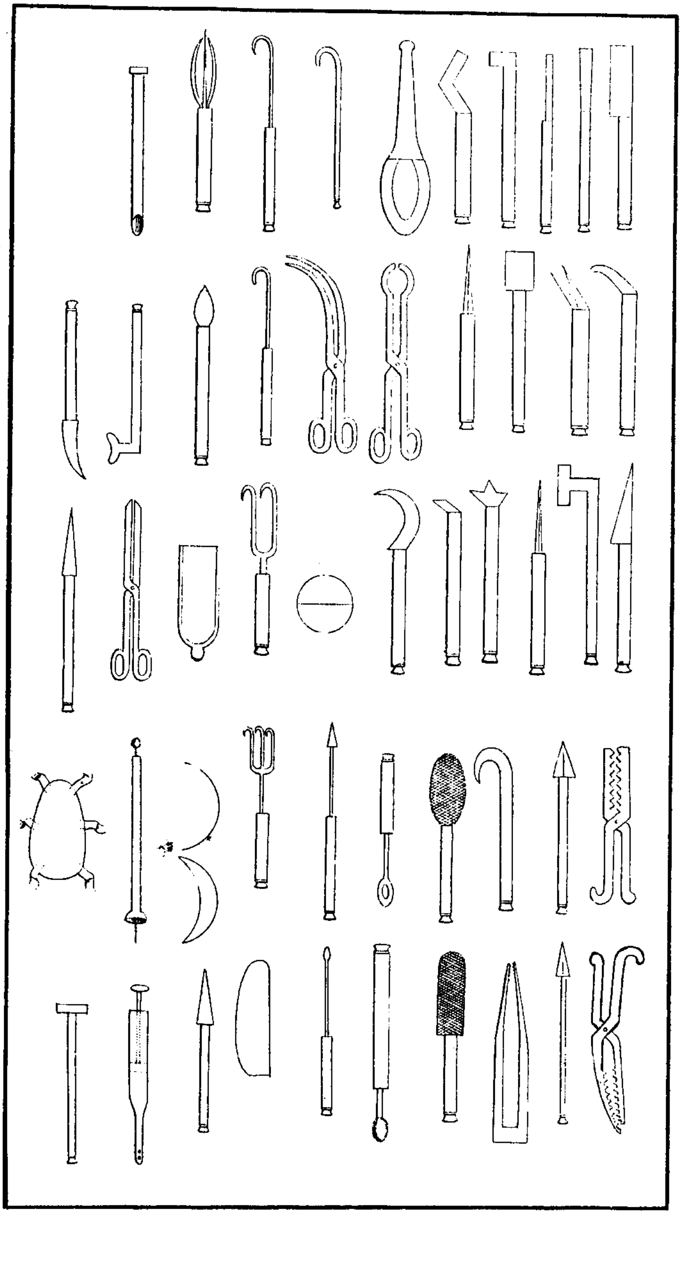
وتقول هونكة أيضاً : « والواقع أنَّ رواتب الأطبَّاء والمساعدين والممرِّضين وصانعي الأسِرَّة والخدم ، كانت تدفع من الرِّيع المخصَّص للمستشفى ، وكان القيِّمون عليها يسجِّلون كلَّ شيء في سجلاتٍ خاصَّة تُقيِّد فيها المصروفات جميعاً في ترتيب

---

(١٤) مغلَّفة بورقة مذهَّبة ، أو مغطَّاة بالسُّكر .

(١٥) ابن سينا والرَّازي .

(١٦) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٣٤



*أدوات جراحيّة .

*صورة من مخطوطة عربيّة تمثّل طبيباً عربيّاً يشرح لطلابه تصالب العصب البصري ، وأمراضَ العين ، وطلابه يسجّلون على دفاترهم شروحه





*ابن سينا

بديع ، وحقيقة الأمر ، أنَّ هذ السِّجلات لا تخبرنا بميزانيَّة المؤسَّسات فقط ، وإنَّما تُنبئنا أيضاً عن قيمة رواتب الأطبَّاء ، وأثمان العقاقير والآلات الطِّبيَّة ، وأمَّا الإشراف الطبِّي ، فقد كان من صلاحيَّة رئيس الأطبَّاء فقط ، وكان يُختار من بين العديد من زملائه بعد اجتياز امتحان دقيق لكفاياته العلميَّة ، ومثال ذلك ، أنَّ الرَّازي قبل اختياره لمنصبه ، اضطر أن يبرهن على طول باعه وتضلُّعه من فنِّ الطِّب أمام مئة منافس له ، وأن يبزهم جميعاً في المسابقة ، وبعد تسلُّمه لمنصبه أصبح له فريقٌ من الأطباء يجاوز عددهم الأربعة والعشرين ، فمنهم المختص بالأمراض الدَّاخليَّة ، ومنهم بالأمراض العصبيَّة ، ومنهم الجرَّاحون البارعون ، ومنهم المتضلِّعون بأمراض المفاصل والعظم (Orthopadie) ، ومنهم أطبَّاء العيون ، وكان كلٌّ واحد منهم يتسلَّم إدارة قسم ما ، مدَّة من الزَّمن ، ثمَّ يخليه لزميله في الاختصاص ، وهكذا دواليك ، هذا وقد كتب هنا الطَّبيب والشَّاعر ابن أبي أُصيبعة[١٧] الَّذي درس الطِّب في مدينة دمشق تقريراً وافياً عمَّا يقوم به يوميّاً رئيس الأطبَّاء في المستشفى فقال :

كان دأبُ ابن أبي الحكم[١٨] رئيس أطبَّاء مستشفى النُّوري في دمشق ، القيام بزيارته للمرضى صباح كل يوم ، ليستخبر عن أحوالهم ، ويستعلم عن رغباتهم ، وكان يصحبه في تجواله هذا رهطٌ كبير من مساعديه الأطبَّاء والممرضين .

وكان كل ما يصفه للمرضى من أدوية أو حِمْيات يُسَجَّل بلا إبطاء ، ويُعْمَل به بلا توانٍ ، وبعد جولته هذه ، كان يذهب إلى حيِّ القصبة ليعاين نبلاء القوم وموظفِّي الدَّولة ذوي الشَّأن[١٩] ، ثمَّ يعود إلى المستشفى ، فيجلس في القاعة الكبيرة بين كتبه وأوراقه ليحضِّر محاضراته التَّالية ، لقد أقام نور الدِّين ، رحمه الله ، في هذا المستشفى

(١٧) أحمد بن أبي أُصيبعة ، صاحب كتاب : « عيون الأنباء في طبقات الأطبَّاء » ، منشورات دار الحياة ، بيروت .

(١٨) محمد بن عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي ، أبو المجد بن أبي الحكم « ت ٥٧٠ هـ = ١١٧٤ م » .

(١٩) « فإذا فرغ ـ من جولته ـ خرج إلى القلعة فافتقد مرضى السُّلطان ـ نور الدِّين ـ وغيرهم ، ثمَّ عاد إلى البيمارستان » .

مكتبة ضخمة جمعت كتباً ومخطوطات قيّمة ، رُتِّبت على رفوف عالية في القاعدة الكبيرة ، وكان يأتي إليه أطبّاء وطلاب كثر ، فيجلسون بين يديه ، ويسمعون له ، ويحفظون عنه ، ويجادلونه في الأُمور المستعصية ، والحالات النّادرة الّتي صادفتهم في مستشفاهم »[20] .

لقد كانت المستشفيات الكبيرة بمثابة مدارس عالية للطّب ، بينما كان طلاب العلم في أُوربة يسهرون درساً وحفظاً على ضوء الشُّموع في قاعات الأديرة ، كانت التَّجربة العلميَّة هنا تسير مع العلم جنباً إلى جنب ، وتُجابه النَّظريَّاتُ ، على أسِرَّة المرضى ، حقائق المعاينة والكشف ، وحقائق التَّجارب ، فتفنِّد الظَّواهر تفنيداً علميّاً ، وتشبع الحالات المستعصية بحثاً ونقاشاً ، وعلاجها تفصيلاً وشرحاً ، « بعكس ما كان يجري في بلاد الغرب ، حيث كانت النَّظريَّات الجافَّة تملأ عقول رجال الأكليروس ، وتحول دونهم والاحتكاك بالمخلوقات ذات الدّماء الحارَّة »[21] .

وهناك حادثة طريفة ، رواها ابن شاهين الظّاهري[22] ، كان أطبّاء دمشق يتندَّرون بها ، وهي قصَّة أحد الظُّرفاء من الَّذين يملكون شهيَّة طيِّبة للطَّعام ، كان بالقرب من بيمارستان نور الدِّين ، فبلغت أنفه رائحة دجاجة مشويَّة ، ودغدغت حاسَّة الشَّم لديه ، وعلى الفور قرَّر أن يتمارض ، وأخذ يئن ، وأُدخل المستشفى ، وحين فحصه الطَّبيب لم يجد لديه أيَّة عِلَّة ، ولكن بعض الاستفسارات نبَّهت الطَّبيب إلى حقيقة أطماع ذلك الشَّرِه ، وإلى أصل الدَّاء عنده ، فلم يكشف من أمره شيئاً ، بل أمر بنقله إلى جناح المرضى الدَّاخليين ، ووصف له وجبتَيْن في النَّهار ممَّا لذَّ وطاب من رقائق الحلوى بالعسل ، وكبد الطُّيور ، ولحم الدَّجاج ، والفاكهة المطبوخة بالسُّكر والشَّراب . ومع ذلك ، فقد كان يتمارض وهو في قمَّة السَّعادة ، وبعد مضي ثلاثة أيَّام

(٢٠) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٣٣

(٢١) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٣٤

(٢٢) خليل بن شاهين الظاهري « ت ٨٧٣ هـ = ١٤٦٨ م » له نحو ٣٠ مصنَّفاً .

على هذه « الحِمْيَة » الّتي كادت تفقد المريض كلّ مناعة ، وتودي به إلى حتفه ، قال الطبيب : لقد انقضت الأيّام الثّلاثة للضّيافة العربيّة ، فامضِ مرتاح الضّمير ، يا رعاك الله[٢٣].

وهكذا .. كان العلاج بالبيمارستان النّوري ، الّذي أنشأه نور الدّين بدمشق عام ١١٦٠ م ، مجانياً للفقراء وللأغنياء سواء بسواء ، دون أن تكلّف المريض درهماً واحداً ، بل كانوا يمنحون لدى خروجهم من المستشفى ثياباً ونقوداً تكفيهم للعيش دون عملٍ في فترة النّقاهة . « لقد كانت المعالجة بالموسيقى ، والتّرويح عن المرضى وتسليتهم عن آلامهم بالقصّاصين والمنشدين ، ولمن يخرج من البيمارستان عند برئه كسوة ، وخمس قطع من الذّهب ، إعانة حتّى تنتهي فترة نقاهته » ، ولقد ظلّ ثلاثة قرون يعالج المرضى من غير أجر ، ويمدّهم بالدّواء من غير ثمن ، ويقول المؤرّخون : إنّ نيرانه ظلّت مشتعلة لا تنطفئ ٢٦٧ سنة ، (قصة الحضارة : ٣٦٠/١٣) .

☆ ☆ ☆

الكيمياءُ وَالصَّيدَلَةُ : لقد شغلت فكرة تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة خالد بن يزيد الأُموي ، وبقيت تحمّس الكثيرين على إجراء التّجارب الكيميائيّة في علم عرفوه باسم « علم الصّنعة » ، فنشطت بذلك صناعة الكيمياء والصّيدلة معاً ، قال البيروني : « الصّيدلي هو المحترف بجمع الأدوية على أحدّ صورها ، واختيار الأجود من أنواعها مفردة ومركّبة على أفضل التّراكيب الّتي خلّدها له مبرزو أهل الطّب » .

لقد كانت الأدوية المفردة هي العقاقير الأصليّة ، فإذا اجتمعت كانت الأدوية المركّبة الّتي سمّاها العلماء المسلمون « الأقراباذين » .

---

(٢٣) وفي رواية : كانت الوصفة الأُولى الدّجاج السّمين ، والأشربة الزّكيّة ، والفواكه الشّهيّة ، وأقراص الحلوى .. وبعد ثلاثة أيّام ، كتب الطّبيب لهذا المتمارض وصفة أُخرى قدّمها له ، جاء فيها : إنّ حدّ الضّيافة ثلاثة أيّام .

وكان الصيادلة خاضعين منذ أيَّام المأمون لامتحان يحصلون بعده على إجازة لممارسة المهنة ، وكانوا يدعون « عطَّارين » ، ولهم عميد يرأسهم .

والمسلمون أول من أنشأ مخازن الأدوية والصَّيدليَّات ، وهم الَّذين أنشؤوا أوَّل مدرسة للصَّيدلة ، وفي قصَّة الحضارة : ١٨٧/١٣ : « يكاد المسلمون يكونون هم الَّذين ابتدعوا الكيمياء بوصفها علماً من العلوم » .

ومن أعلام الكيمياء والصَّيدلة المسلمين :

جابر بن حيَّان الكوفي : (ت ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م) ، بلغت تصانيفه مئتين واثنين وثلاثين كتاباً ، ترجم قسم منها إلى اللاتينيَّة ، وعرف عندهم « Geber » ، وهو أوَّل من استخرج حامض الكبريتيك وسمَّاه زيت الزَّاج ، وأوَّل من اكتشف الصُّود الكاوي ، وأوَّل من استحضر ماء الذَّهب ، ودرس خصائص مركَّبات الزِّئبق واستحضرها . ومن كتبه « السُّموم » .

يقول غوستاف لوبون : « تتألَّف من كتب جابر موسوعة علميَّة تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره ، وقد اشتملت كتبه على بيان مركَّبات كيماويَّة كانت مجهولة قبله ، وهو أوَّل من وصف أعمال التَّقطير والتَّبلور والتَّذويب والتَّحويل .. »[٢٤].

وأبو بكر الرَّازي ، وقد مرَّت ترجمته في الطِّب ، وقد سلك في بحوثه وتجاربه مسلكاً علميّاً سليماً ، ففي كتابه « سرُّ الأسرار » ذكر تجاربه مبتدئاً بوصف المواد الَّتي اشتغل بها ، ثمَّ الأدوات والآلات ، ثمَّ الطَّريقة الَّتي اتَّبعها في تحضير المركَّب « وهذا هو النَّهج العلمي الصَّحيح في البحث العلمي » .

وأبو الرَّيحان محمَّد بن أحمد البيروني : (ت ٤٤٠ هـ = ١٠٥٠ م) ، لقد مثَّل موسوعة علميَّة في زمانه ، أو دائرة معارف كاملة ، قال عنه « ول ديورانت » في قصَّة

(٢٤) حضارة العرب ، ص ٥٧٤

الحضارة : « إنّ البيروني هو مثال العالم المسلم في أرقى مراتبه ، كان فيلسوفاً مؤرّخاً جغرافيّاً لغويّاً رياضيّاً فلكيّاً شاعراً وعالماً طبيعيّاً .. وخلّف مؤلّفات في جميع هذه العلوم .. » .

وكتابه في الصّيدلة اسمه « كتاب الصّيدلة » ، أشار فيه إلى ما للعقار من مكانة خاصّة بين الأطعمة والسُّموم .

وأحمد الغافقي : (ت ٥٦٠ هـ = ١١٦٤ م) ، وكتابه « الجامع في الطّبّ في الأدوية المفردة » .



*صانع العقاقير

من مآثر العرب المسلمين في الكيمياء والصَّيـدلـة : عرفوا طرق التَّقطير والتَّرشيح والتَّكليس والتَّحويل والتَّبخُّر والتَّذويب والتَّبلور ، واكتشفوا الكحول والقلـويَّـات ، والنَّشـادر ، ونترات الفضَّـة « حجر جهنَّم » ، والبـورق ، والـزَّرنيـخ ، وزيت الـزَّاج « حـامض الكبريتيـك » ، والبـوتـاس ، والسَّمكِّي والكافـور ، والصَّنـدل والرَّاونــد ، والمسـك والمرّ ، وجوز الطِّيب وهم الَّـذين اخترعوا الأشربـة والمستحلبـات والخلاصـات العطريَّـة ، وتوصَّل ابن سينـا إلى تغليف الحبوب الَّتي يصفهـا للمرضى منعـاً لمرارتهـا أن تـؤذي اللِّسـان ، وعملـوا التِّريـاق المؤلَّف من عشرات الأدويـة ، وهم أوَّل من استعمـل « المُرَقِّد » من الأفيون والزِّيوان أو الشَّيلم للتخدير .

ولعــلَّ أكبر دليــل على منجــزات العرب المسلمين العظيمـــة في علمي الكيميـــاء والصَّيدلة ، ما نراه اليوم من كلمات وأسماء عربيَّة ما تزال على لسان كلِّ عـالم كيميـائي ، بل ولسان كلِّ ربَّة منزل ، منها[٢٥] :

البورق	Borax	مركزة	Markasit	رهج النَّار	Realger
الإكسير	Elixier	نطرون	Natron	الصَّابون	Savon
قلي (قلويات)	Kalium	الصُّودا	Soda	التُّوتياء	Tutia
قلي (مفرد)	Kalium	الكيمياء	Chemie	القصدير	Kasdir
الإنبيق	Alambik	الغاز	Caz	كبريت	Kebrit
الأثـــال « الجـزء السُّفلي من آلـــة التَّقطير»	Aludel	الزِّئبق	Zaibag	زعفران	Saffron
الكحول (الغول)	Alkohol	قرمز	Kermes	بلسم	Balsam
الملغم	Amalgam	الطَّلق (البودرة)	Talkum	إنيلين (نيلة)	Anilin
(معدن زئبقي)					

(٢٥) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٣٢٧

هـذا .. وحضَّر أبـو القـاسم بن أحمـد المجريطي (ت ١٠٠٧ م) في قرطبـة أُكسيـدَ الـزِّئبـق ، هـذه المـادَّة الَّتي لعبت دوراً هـامّـاً في أبحـاث بريستلي ولافـوازيـه في القرن الثَّامن عشر .

أمَّا عزُّ الدِّين بن علي الجلدكي (ت ١٣٦٣ م) صاحب كتـاب « التَّقريب في أسرار التَّركيب » ، فقد فصل الذَّهب عن الفضَّة بوسـاطـة حـامض النِّتريـك ، وهي طريقـة مـا تـزال تستخـدم ، ولهـا شـأن في تقـدير عيـارات الـذَّهب في المشغـولات والسَّبـائـك الذَّهبيَّة ..

☆ ☆ ☆

علم النَّبات : سطعت في سماء هذا العلم أسماء كثيرة ، منها :

أبو حنيفة أحمد بن داود الدِّينَوَرِي : (ت ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) ، مهنـدس مؤرِّخ نباتي ، من كتبه « النَّبات » . وعرف ـ كما عرف نباتيُّو العرب ـ أن يستولـد ثمـاراً ذات صفات جديدة بطريقة التَّطعيم ، وأن يخرج أزهاراً جديـدة بـالمزاوجـة بين الورد البرِّي وشجرة اللوز .

إنَّ الـدِّينَوَري أوَّل المؤلِّفين المسلمين في علم النَّبـات ، دوَّن في تـآليفـه مـلاحظـاتـه الشَّخصيَّة[٢٦] .

ورشيد الدِّين الصُّوري : (ت ٦٣٩ هـ = ١٢٤١ م) ، الَّذي كان مولعـاً بـالتَّنقيب عن غريب النَّبـاتـات والحشـائش ، يستصحب مصوِّراً ، معـه الأصبـاغ ، ويتوجَّـه إلى المواضع الَّتي فيها النَّباتات ، فيشـاهـده ويحقِّقـه ، ويريـه للمصوِّر فيعتبر لونـه ومقـدار ورقـه وأغصـانـه وأصولـه ويصوِّر بحسبهـا ، وكان يُري المصوِّر النَّبـات في إبـان نبـاتـه وطراوته فيصوِّره ، ثمَّ يُريه إيَّاه وقت كمالـه وظهور بزره فيصوِّره تلو ذلـك ، ثمَّ يريـه

(٢٦) إرشاد الأريب ١٢٣/١ ، وخزانة الأدب للبغدادي ٢٥/١

إيَّاه في وقت ذَوِيِّه ويُبْسِهِ فيصوِّره ، وقد أتى ذكر كثير من هـذه الأعشـاب في كتـابيـه « الأدوية المفردة » ، و « التَّاج »[٢٧].

لقد وصف الصُّوري ٥٨٥ عقاراً ، منها ٤٦٦ من فصيلة النَّبات ، و ٧٥ من المعادن ، و ٤٤ من فصيلة الحيوان .

عبد الله بن أحمد المالقي ، أبو محمَّد ضيـاء الـدِّين المعروف بـابن البيطـار : (ت ٦٤٦ هـ = ١٢٤٨ م) ، رئيس العشَّابين ، وكبير العطَّارين ، والصَّيـادلـة في مصر ، ولـد قرب مالقة ، وتعلَّم الطِّب ، ورحل إلى اليونان « بلاد الأغـارقـة » ، وأقصى بلاد الرُّوم بـاحثـاً عن الأعشـاب والعـارفين بهـا ، حتَّى كان الحجَّة في معرفـة أنـواع النَّبـاتـات ، وتحقيقـه وصفـاتـه ، وأسمائـه وأمـاكنـه ، ففـاق أُستـاذه أبـا العبَّـاس أحمـد بن محمَّد بن أبي الخليل ، المعروف بابن الروية (ت ٦٣٧ هـ = ١٢٣٩ م) .

اتصل ابن البيطار بالكامل الأيوبي في مصر ، فجعلـه رئيس العشَّـابين في الـدِّيـار المصريَّـــة ، من كتبـــه : « الأدويـــة المفردة » ، في مجلَّـــدين ، المعروف بمفردات ابن البيطار ، وله « المغني في الأدوية المفردة » .. لقد عرف في أُوربة بحق ، بـاسم « أبي علم النَّبات »[٢٨].

لقد ذِكر الجـاحـظ أنَّ ثلاث مئـة وستِّين صنفـاً من التُّمور كانت موجودة في سوق البصرة[٢٩] ، ووفقاً لـما كتبـه ابن رشـد في مطلع القرن العـاشر الميلادي كان هنـاك ثمـان وسبعون صنفاً من العنب في المناطق المجاورة لصنعاء ، ويذكر عبـد اللَّطيف البغـدادي

---

(٢٧) طبقات الأطباء ١٢٣/٢ ـ ١٣٠

(٢٨) طبقات الأطباء ١٣٣/٣ ، ونفح الطيب ٦٨٣/٢ ، ودائرة المعارف الإسلاميَّة ١٠٤/١

(٢٩) « الإبداع الزِّراعي في بدايـات العـالم الإسلامي » انتشـار المحـاصيل والتقنيـات الزِّراعيَّـة مـا بين عـامي ٧٠٠ ـ ١١٠٠ ميلادية . تأليف د. أندريو واطسون ، ترجمـة د. أحمـد الأشقر ، مراجعـة د. محمد نـذير سنكري ، نشر معهد التراث العلمي العربي (حلب) ، ص : ٣

أنّ « هذه الأنواع والأصناف كانت تطعَّم على بعضها ، أو تهجَّن ، لتنتج مجموعة لا حصر لها من الأصناف الجديدة »[٣٠].

ويذكر البدري أنَّه كان في منطقة دمشق وحدها واحد وعشرون صنفاً من المشمش وخمسون صنفاً من الزَّبيب ، وأدخل العرب المسلمون القطن وقصب السُّكر إلى البلدان الأُوربيّة ، وأوصلوا القمح القاسي إلى الأندلس بحلول القرن العاشر الميلادي ـ كما تشير إلى ذلك أقوال الرّازي ـ وذكر عنه أنَّه يبقى عشرات السِّنين لا يتغيَّر ولا يفسد . أمَّا الحميري فيشير إلى أن قمح (لورقة) يبقى مخزّناً مدَّة عشرين سنة دون أن يفسد ، أما المقرّي في نفح الطِّيب فإنه يشير إلى إمكانية عثورك في (سرقوسة) على قمح عمره مائة سنة[٣١].

« ومن الطَّريف أن نشير إلى قابليّة القمح الإسباني للخزن مدَّة طويلة من الزَّمن علَّق عليها مؤلِّف صيني من القرن الثَّالث عشر وهو تشاوجو ـ كاو Chau Ju-Kau الَّذي قال : إنّ القمح في جنوبي إسبانيا يمكنه أن يختزن عشرات السِّنين دون أن يناله العطب أو التّلف » ، ويعلِّق الدكتور محمد نذير السّنكري على هذا القول : وهذا يشير إلى أن بعض الكتب العربيَّة الزِّراعيَّة والجغرافيَّة وغيرها كانت قد ترجمت إلى اللُّغة الصِّينيَّة قبل القرن الثَّالث عشر[٣٢].

والتَّكثيف الزِّراعي بدأه المغرب العربي منذ أيَّام يوسف بن تاشفين[٣٣] ، أمير

---

(٣٠) المرجع السّابق ، ص ٤ ، عن كتاب الإفادة .

(٣١) المرجع السّابق ، ص ٤٧

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٥٤

(٣٣) محاضرة للدكتور محمد نذير السّنكري في معهد التُّراث بحلب ١٩٨٦/١٢/٢٠

المرابطين ، فقد كان يحمل محصولاً على محصول ، وتزرع الأرض أربع مرّات في العام الواحد ، كي لا تبقى بوراً ، وعندما بُنيت مَرّاكُش ، زُرع النَّخيل الَّذي يمثّل مظلّة واقية ، وزُرع تحته الزَّيتون ، وزُرع تحت الزَّيتون « البرسيم » لخيل الجند المجاهدين .

يقول الإسباني خوان فيرنيت Juan Vernet في كتابه « فضل عرب إسبانية على الثَّقافة » Ce que la culture doit aux Arabes d'Espagne[٣٤] : إنّ علم تأصيل الحبوب والنَّبات يُعَدُّ علم القرن الواحد والعشرين ، وابن رافد الأندلسي في كتابه « الزِّراعة » طرح نظريَّة جنس النَّبات « ذكر وأنثى » ، ومن الصَّعب تصوُّر أي تقدُّم لأحد في هذا الميدان ، خصوصاً على يد الألمانيّيْن يورك (ت ١٥٥٣ م) ، وبروفلز ، دون علم النَّبات كما عُرِف في الأندلس في القرن الثَّالث عشر الميلادي ، ومن يعوزه البرهان ، يحيله المؤلِّف إلى العديد من التَّعابير العلميَّة العربيَّة في أبحاث هذَيْن العالِمَيْن الألمانِيَّيْن .

وإسبانية اليوم بعد عشرة قرون ، عادت لتستفيد من منجزات يحي بن العوام الإشبيلي ، الَّذي كان يطعِّم الصَّنوبر ، فبدأت تطعِّم الصَّنوبر الإسباني بالصَّنوبر الحلبي كما كان يفعل ابن العوام تماماً .

وعرفت الأندلس كتباً متخصّصة بالأزهار ، وأُخرى مُتخصّصة في تربية البلابل ...

والإمام حجة الإسلام الغزالي وصل إلى مبادئ علميَّة عجز عنها غيره ، عندما عزا « النتح »[٣٥] في الشجرة إلى الشمس .

---

(٣٤) الأسبوع العربي ، العدد ١٤٠٠ (١١ آب « أُغسطس » ١٩٨٦) ، ص ٥٠ ، ترجمه إلى الفرنسيَّة غابرييل مارتينيز غرو « دار سندباد » .

(٣٥) النَّتْح : التَّعَرُّق ، والرَّشح ، (اللّسان : نتح) .

وهكذا .. وعلى الرغم من أن العرب المسلمين كانوا روّادَ زراعة البيئة الصَّحراويَّة في العالم بأساليب علميَّة تجريبيَّة ، وأساتـذة العـالم في تصنيف الأراضي ، وأسـاتـذتـه في علم تهجين النَّبات ، الَّذي كان في أُوربة محرَّمـاً حتّى القرن الثّـامن عشر ، وأقرَّ هـذا الفضل مؤتمر أريزونا ١٩٨٥ ، حيث أقرَّت أبحـاثـه إبـداع العرب المسلمين في تهجين النبـاتـات ، على الرَّغم من ذلك كله جاء « ابن الوحشيَّـة » في كتـابـه « الفلاحـة النَّبطيَّـة » ـ وهو شعوبي دعي ـ فخلط الحقائق بالسِّحر والأساطير ، ودسَّ على العرب ، فأسـاء إلى أمتنـا بخبث وذكاء .

إسهامات العرب المسلمين في العلوم التّطبيقيّة :

مراحل النّهضة العربيّة الإسلاميّة في العلوم التّطبيقيّة :

١ً ـ مرحلة مسح المراجعة المتوفّرة .

٢ً ـ مرحلة الإنتاج في العلوم النّظريّة .

٣ً ـ مرحلة الإنجازات في العلوم التّطبيقيّة[٣٦] .

وساعد على هذه النّهضة العلميّة : الحرّيّة المطلقة للعالِم في إبداء الرّأي العلمي ، والمساعدات المادّيّة الكبيرة من ذوي السّلطان وأُولي الأمر ، وتقدير المجتمع للعلماء ، فقد كانت لهم منزلة مرموقة في المجتمع ، بالإضافة إلى العامل الدّيني ، فقد كان الإسلام ـ ولم يزل ـ يشجّع العلوم النّافعة كلّها .

ومن الّذين عملوا وأبدعوا في « **علم الحِيَل** = الآلات = الميكانيك » ، **أولاد موسى بن شاكر**[٣٧] : محمّد وأحمد والحسن ، تخرّجوا من « بيت الحكمة » ، أكاديميّة العلوم العالميّة في عصرها . وفي كتابهم « كتاب الحِيَل » ، وصف لآلات مائيّة لم يسبق لأحدٍ الحديث عنها .

وعبّاس **بن فرناس الأندلسي** : (ت ٢٧٤ هـ = ٨٨٨ م) ، الّذي من اختراعاته : النّظّارات والسّاعات الدّقّاقة المعقّدة التّركيب ، والقبّة الفلكيّة الّتي صنعها في بيته ، جاء في نفح الطّيب : « وصنع في بيته على هيئة السّماء ، وخيّل للنّاظر فيها النّجوم والغيوم والبروق والرّعود » ، واختراع الزّجاج من الحجارة « الكريستال » وهو أوّل من

---

(٣٦) أمّا مراحل تطبيق تكنولوجيا ما فيرٌ في : ١ً ـ البحث العلمي : Research ، ٢ً ـ التّطوير : Development ، ٣ً ـ التّبني والإقرار : Adoption ، ٤ً ـ التّكيُّف : Adjustment ، وهي مراحل قد تكون متداخلة أحياناً .

(٣٧) عاصروا المأمون العبّاسي : (ت ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م) .

صنع ذلك في الأندلس ، ومحاولة الطّيران في الجوّ ، وله في ذلك فضل الرّيادة[٣٨] ، والسّاعة لمعرفة مواقيت الصّلاة ، وأهداها إلى الأمير محمد بن عبد الرّحمن الأُموي ، أمير قرطبة ، ونقش عليها من شعره :

ألاَ إنّني لِلـــــــدّينِ خيرُ أداةِ … إذا غـــابَ عنكم وَقْتُ كُـلّ صَـلاَةِ
وَلم تُرَ شَمْسٌ بِـــالنّهـــارِ وَلَم تُنِرْ … كـواكبُ لَيْـلٍ حَـالِـكِ الظّلمـاتِ
بيُمْنِ أميرِ المسلمينَ محمّـــــــــدِ … تجلّت عن الأوقـــاتِ كلّ صــلاةِ

وأبو سعيد عبد الرّحمن بن أحمد بن يونس المصري : (ت ٣٩٩ هـ = ١٠٠٩ م) ، الّذي اخترع الرّقّاص « البندول » ، وعرف أشياء كثيرةً من قوانين تذبذبه ، وبعد ستمائة وخمسين عاماً من اختراعه ، جاء غاليلو الإيطالي (١٠٥٢ هـ = ١٦٢٤ م) ، ليتوسّع في درس الرّقّاص ، وليضع أكثر القوانين الّتي نعرفها اليوم عن الرّقّاص ، ثمّ حَسَبَها حساباً رياضيّاً .

وأبو الفتح عبد الرّحمن الخازن[٣٩] : (ت نحو ٥٥٠ هـ = نحو ١١٥٥ م) ، حكيم فلكي مهندس ، من كتبه « ميزان الحكمة » ، تحدّث عن الخاصّة الشّعريّة ، والوزن النّوعي لعديد من المواد بدقّة .

وهذه قائمة بمواد استخرج البيروني والخازن ثقلهما النّوعي ، لمقارنتها بالأرقام الحديثة ، ويظهر أن البيروني قد استعمل طريقتين لاستخراج الثّقل النّوعي[٤٠] :

---

(٣٨) تمت هذه المحاولة التي أودت بحياة ابن فِرْناس في مدينة الرصافة ، ضواحي قرطبة .

(٣٩) أو الخازني .

(٤٠) تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٢٣ ، عن : Aldo Miele, La Science Arabe, P. 101

المادّة	أرقام البيروني		الخازن	الأرقام الحديثة
الذّهب	١٩,٢٦	١٩,٠٥	١٩,٠٥	١٩,٢٦
الزّئبق	١٣,٧٤	١٣,٥٩	١٣,٥٦	١٣,٥٩
النّحاس	٨,٩٢	٨,٨٣	٨,٦٦	٨,٨٥
النّحاس الأصفر	٨,٦٧	٨,٥٨	٨,٥٧	نحو ٨,٤

ولقد خصَّ الخازن نفسه باستخراج الثّقل النّوعي للسّوائل التّالية :

المادّة	النّسبة الّتي استخرجها الخازن	النّسبة الحديثة
الماء العذب البارد	١,٠٠	١,٠٠
الماء الحار	٠,٩٥٨	٠,٩٥٩٧
الماء إذا بلغ درجة الصّفر	٠,٩٦٥	٠,٩٩٩٩
ماء البحر	١,٠٤١	١,٠٢٧
زيت الزّيتون	٠,٩٢٠	٠,٩١
حليب البقر	١,١١٠	١,٠٤ـ١,٤٢
دم الإنسان	١,٠٣٣	١,٠٤٥ـ١,٠٧٥

« ويجب أن نَعُد النّسبة الّتي وصل إليها الخازني دقيقة جداً ، لأن الاختلاف بين ما وصل هو إليه وبين ما وصل إليه العلماء المعاصرون لنا يمكن تعليلُه ، إنَّ مياه البحر مثلاً تختلف في مقدار الأملاح الّتي فيها اختلافاً كبيراً ، فكلما كان البحر صغيراً وإقليمياً (داخلياً) كالبحر الميت ، وبحر قزوين ، كانت مياهه أكثر ملوحة ، وبالتّالي أثقل من مياه البحار العظمى ، كالمحيط الأطلسي والمحيط الهادي ، وكذلك الثّقل النّوعي لحليب البقر يختلف بين بقرة وبقرة بالإضافة إلى المرعى ، فالمرعى الخصيب الغني يزيد مقدارَ السّمن من الحليب ، فيكثُرُ حينئذٍ الثّقل النّوعي للحليب ، ونحن لا نعلم اليوم أيَّ مياه البحار فحص الخازني ولا عدد البقر الّذي أجرى عليه تجاربه .

ولقد عرف الخازني أنَّ الأجسام السَّاقطة تنجذب في سقوطها نحو مركز الأرض »[٤١] .

أمَّا **ثابت بن قُرَّة الحرَّاني** : (ت ٢٨٨ هـ = ٩٠١ م) ، أعظم هندسي عربي على الإطلاق ، فقد شرح الجاذبيَّة : « إن المَدَرة[٤٢] تعود إلى السِّفل لأنَّ بينها وبين كلِّيَّة الأرض مشابهة في الأعراض ، أعني البرودة والكثافة ، والشَّيء ينجذب إلى أعظم منه » ، وشرح الرَّازي ، هذه العبارة بقوله : « إنَّا إذا رمينا المدرة إلى فوق ، فإنَّها ترجع إلى أسفل ، فعلمنا أنَّ فيها قوَّة تقتضي الحصول في السفل ، حتَّى إذا رميناها إلى فوق أعادتها تلك القوَّة إلى أسفل[٤٣] .

و**بديع الزَّمان إسماعيل الجَزَري**[٤٤] ، عالم ميكانيكي من الطِّراز الأوَّل ، فهو مهندس حِرْفي ، يُصَمِّم ويرسم وينفِّذ ، كتابه : « الجامع بين العلم والعمل النَّافع في صناعة الحيل » ، والحيل هنا « الهندسة الميكانيكيَّة » طبعاً ، وأعظم اختراع للجزري « الدَّسَّامات » .

أمَّا **تقي الدِّين الدِّمشقي** ، (ت ١٥٢٥ م) ، الَّذي ساهم في بناء مرصد إسطنبول ، فقد اخترع المضخَّة ذات الأسطوانات السِّتِّ ، والَّتي هي فكرة المحرِّكات الانفجاريَّة في جوهرها .

هذا .. وأتقن العرب المسلمون صناعة **الموازين الدَّقيقة** ، وفرق الخطأ أقل من أربعة في ألف جزء من الغرام ، لقد وزن « فلندر بتري » ثلاثة نقود عربيَّة قديمة ، فوجد أنَّ الفرق بين أوزانها جزء من ثلاثة آلاف جزء من الغرام ، فقال : إنَّه لا يمكن

(٤١) المرجع السَّابق ، ص ٢٢٤

(٤٢) المَدَرُ : قطَعُ الطين اليابس ، (اللِّسان : مدر) .

(٤٣) تاريخ العلوم في الإسلام ، هامش ص ١٤٤

(٤٤) نسبة إلى جزيرة ابن عمر ، على نهر دِجْلَة جنوبي دياربكر ، عاش حوالي ١٢٠٠ م ، ألَّف لمحمود بن أُرتق صاحب آمد كتاباً في معرفة الحيل الهندسية ١٢٠٥ م ، وفيه تعليمات لصنع السَّاعات .

الوصول إلى هـذه الـدِّقَّـة في الوزن إلاَّ في استعمال أدق المـوازين الكيميـاويَّـة . وبتكرار الوزن مراراً ، حتَّى لا يبقى فرق ظاهر في رجحان أحد الموازين على الآخر ، ولـذلـك فالوصول إلى هذه الدِّقَّة لمَّـا يفوق التَّصوُّر ، ولا يعلم أنَّ أحـداً وصل إلى دِقَّـة في الوزن مثل هذه الدِّقَّة(٤٥).

وطوَّروا آلـة **الأَسْطُرْلاب**(٤٦) ، لقـد عرف اليونـانيُّون بضع طرق لاستعمالهـا ، بينمـا ذكر الخوارزمي أكثر من ثلاث وأربعين طريقة لاستعمالها ، ثمَّ أُتي على وصف ما يقـارب ألف طريقة لاستعمالها .



أَسْطُرْلاب عربي

(٤٥) تاريخ العلوم في الإسلام ، هامش ص ١٤١

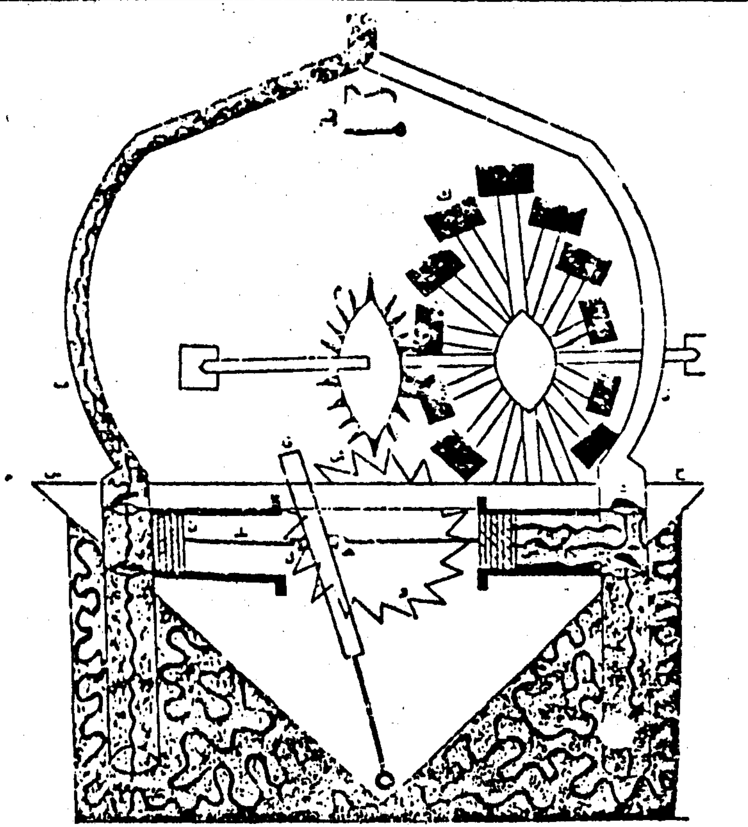
(٤٦) لقد رأيتُ في مرصد غرينتش أُسطرلابيْن كتب على أحدهما : صنع في سوريَّة ، وكتب على الآخر : صنع في مصر .

وأبدعوا في **السّاعات الشّمسيّة والمائيّة الدّقّاقة** ، « هذا وقد انفتحت آفاق عديدة أمام العرب ، فصنعوا السّاعات الّتي تسير على الماء ، وعلى الزّئبق ، وعلى الشّمع المشتعل ، أو الّتي تعمل بوساطة الأثقال المختلفة ، فكان أن أوجدوا السّاعات الشّمسيّة الدّقّاقة الّتي كانت تُعْلِن ساعة الغداء بصوت رنّان ، والسّاعات المائيّة الّتي كانت تقذف كل ساعة كرة في قدح معدني ، وتدور حول محور تظهر فيه النُّجوم ورسومات من عالم الحيوان ، أو ساعات تحمل فتحات منسّقة الواحدة تلو الأُخرى في شكل نصف دائري ، وما تلبث أن تبرق كلّما جاوزت السّاعة الثّانية عشرة ليلاً في حين يمرُّ فوقها هلال وضّاء ، وفي عام ٨٠٧ م قدَّم عبد الله رسول هارون الرَّشيد إلى القيصر شارلمان ، في مدينة آخن (Aachen) من أعمال ألمانية ، ساعة من هذا النَّمط ، وقد علّق مؤرِّخ القيصر « إينهارد Einhard » على هذا الحدث في يوميّاته قائلاً : « كانت ساعة من النُّحاس الأصفر ، مصنوعة بمهارة فنيَّة مدهشة ، وكانت تقيس مدَّة اثنتي عشرة ساعة ، وفي حين إتمامها لذلك ، كانت تُسْقِطُ إلى الأسفل اثنتي عشرة كرة صغيرة ، محدثة لدى اصطدامها برقّاصٍ معدني مثبت ، دَوِيّاً إيقاعيّاً جميلاً ، بالإضافة إلى عدد مماثل من الأفراس الصَّغيرة الّتي كلّما دارت السّاعة دورتها الكاملة قفزت من فتحة اثنتي عشرة بوّابة وأغلقتها بقفزاتها هذه ، وهناك أشياء أُخرى كثيرة تسترعي الانتباه في هذه السّاعة تدعو إلى العجب والدّهشة ، وليس ثمّة مجال لعدّها ، إذ إن ذلك قد يقودنا إلى تفاصيل كثيرة » .

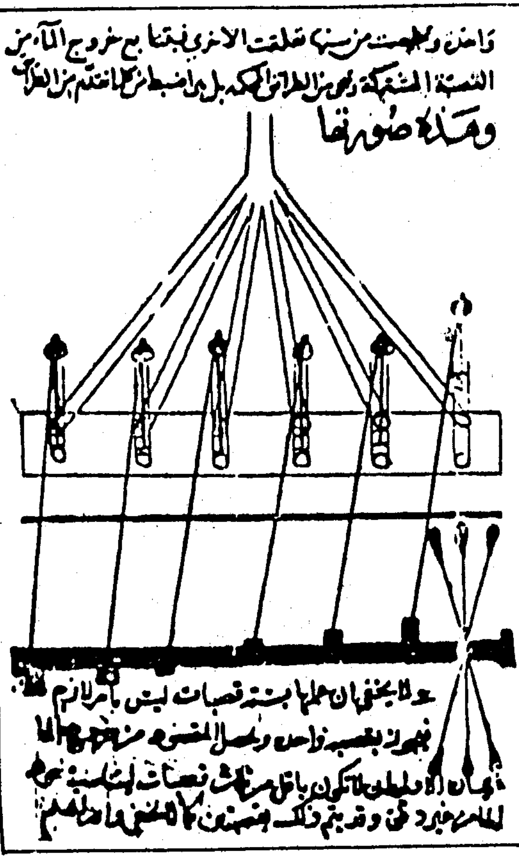
« ونحن ما زلنا حتّى يومنا هذا نقف فاغري الأفواه دهشةً وإعجاباً ، كلّما رأينا ساعة كبيرة في مبنى البلديّة ، وما يرافق دقّاتها من ظهور شخوص صغيرة متحرّكة ، تذكّرنا بما فعله العرب ، في الماضي البعيد ، حبّاً بالألعاب الميكانيكيّة وولعاً بها »[٤٧] .

كما أوجد العرب المسلمون عدداً من الرّوافع المبنيّة على قواعد ميكانيكيّة لجرّ الأثقال بقوى يسيرة لرفعها أو لوزنها ..

(٤٧) شمس العرب تسطع على الغرب ، زيغريد هونكة ، ص : ١٤٢

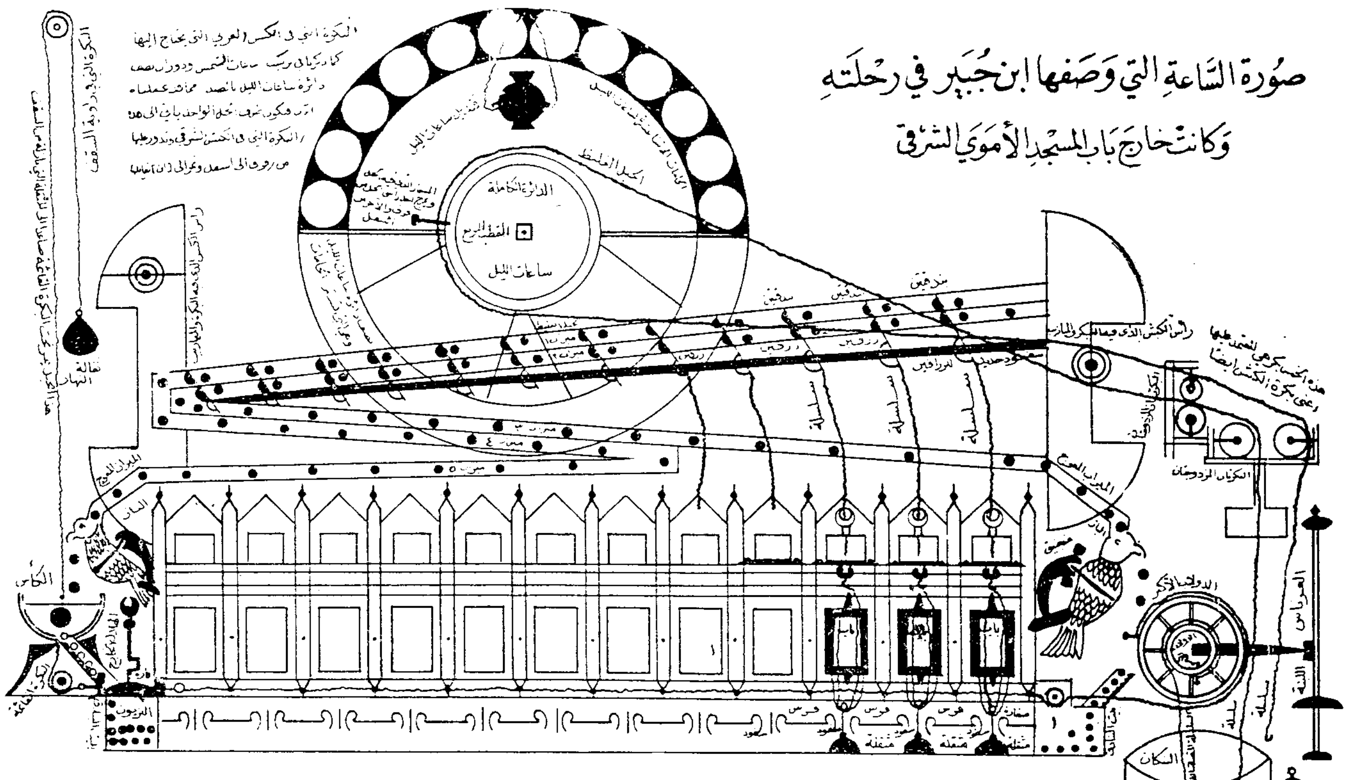


*المضخّة ذات المكبَسيْن (بديع الزمان الجزري)



*مضخّة ذات ستة مكابس (تقي الدين الدّمشقي)

صُورة السَّاعةِ التي وَصَفها ابنُ جُبَير في رِحلَتِهِ
وَكانتْ خارجَ بابِ المسجدِ الأمَويّ الشَّرقي



(١) هذه صورة المثقلات الرصاص والسفافيد التي في أجسامها أطرافها منقوبة ، وفي كل ثقب حلقة فيها طرف السفود الآخر الذي له طرفان : طرفه الاسفل في الحلقة والاعلى منقوب ايضا وفيه ثلاث حلقات : واحدة منهن لسلسلة الزرفين ، والثانية (٢) لسلسلة الهلال ، والثالثة تشد فيها الشرابتان الابريسم التي في كل باب ، وأطراف السلاسل مركبة في هذه الحلق بكلاليب موثقة، والصفافير المذكورة في الاثقاب التي في سقف بيت المثقلات قد صورناها ، والذي فوق الرؤوس المذكورة للمثقلات هي العتبة السفلى (٣) وفيها الاثقاب في قبالة نصف كل باب يدور فيها عقبه وتكشف الابواب العتبة العليا والاعمدة ورؤوسها من الجانبين منزلة في العتبة السفلى والعليا ، ثم الابواب وفوق الابواب العتبة العليا وأعقابها تدور فيها وفوق العتبة العليا السفود (٤) الذي فيه البرابخ ، وقد صورناها على ما توجبه الضرورة فوق الابواب ، وينبغي أن تكون قبالة رؤوس الابواب أعلى من العتبة العليا بيسير ، وقد صورنا أكثر ما امكننا ، وقد بقي ما لم نقدر نصوره : الراقونة وحامل قطب ساعات الليل (٥) وساعات الشمس والطاق التي تركب عنها وجميع آلات ساعات الشمس وأقسام كل ساعة التي ذكرنا أنها تعمل فيها المسامير الذهبية ، وأولها من نصف المسافة التي قبل الساعة الاولى الى نصف كل باب والعتبة البرانية التي تستر الهلال وهي دون ارتفاع (٦) العتبة السفلى والدولاب راكب عليها وبعض آلات لم تأت صورتها على الوضع في الموضع الذي يجب لان الورق لا يمكن صور سائر الآلات فيها ، فما لم نصوره هاهنا فليعلم من موضعه في الآلات مفردة وتحقق صورته ، وأما ما لم تأت صورته على الوضع فالفكر يدل عليه .

(١) بكرة القرنة الشرقية من الحائط .

وممَّا يذكر تحت عنوان « العلوم التَّطبيقيَّة عند العرب المسلمين » ، وصف مقصورة جامع مَرَّاكش المصنوعة أيَّام الموحِّدين بأنَّهـا كانت تتحرَّك جـدرانهـا ونبرهـا[48] بمجرَّد ما تمسُّ رِجْل الخليفـة الأزرار الموضوعـة في المـدخل الخـاص عنـد دخولـه المقصورة ، إذ كانت تدار هذه المقصورة بحيل هندسيَّة بحيث تُنْصَبُ إذا استقرَّ المنصور ووزراؤه بصلاه منهـا ، وتختفي إذا انفضُّوا عنهـا ، وقـد اتَّخـذهـا المنصـور بجـامعـه المتَّصـل بقصره في مرَّاكُش ، وفيها يقول أبو بكر بن مجبر شاعر المغرب في وقته :

طَـوْراً تكـونُ بِمَنْ حَـوَتْـهُ مُحيطَـةً ... فكأنَّهـا سُـورٌ مِنَ الأسْـوارِ
وتكـونُ حينـاً عَنهُمُ مَخْبُـوَّةً ... فكأنَّهـا سِرٌّ مِنَ الأسْرارِ
وكأنَّهـا عَلِمَتْ مَقَـادِيرَ الـوَرَى ... فَتَصَرَّفتْ لَهُمُ علَى مقـدارِ
فـإذا أحسَّت بـالإمـامِ يَـزُورُهـا ... في قـومِـهِ قـامَتْ إلى الـزُّوَّارِ
يَبْـدُو فَتَبْـدو ، ثُمَّ تخفى بعـدَهُ ... كَتَكَـوُّنِ الهـالاتِ لـلأقْـمـارِ

وذكر الْمَقَّري (أحمد بن محمد) أنَّه زار مَرَّاكُش عام ١٠١٠ م ، فلاحـظ أنَّ حركات هذه المقصورة بطلت وبقيت آثارها[49] .

لقـد كانت الصِّنـاعـة العربيَّـة الإسلاميَّـة في العصور الوسطى محل فخر الأُوربي ، عندما يرى بين يديه سلعـة كُتِبَ عليهـا : من صنع دمشق ، أو بغـداد ، أو القـاهرة ، أو مرَّاكُش ، أو قرطبة .. وتراه يفاخر بها من حوله ، لأنَّها كانت « صناعة عربيَّة » .

الفيزيـاء : أهم أبحـاث العرب المسلمين في علم الفيزيـاء ، الَّـذي لم يُفْصَل عن علم الميكانيـك ، كانت في مجـال الضَّـوء والصَّوت . وإذا ذكر الضَّوء الَّـذي يسمِّيـه العرب

(٤٨) كلُّ شيء رفـع شيئـاً ، فقـد نَبَره ، وكلُّ مرتفـع مُنْتَبِرٌ ، وكلُّ مـا رفعتَـهُ ، فقـد نبرتـه تنبره نبراً ، (اللِّسان : نبر) .

(٤٩) تاريخ العلوم في الإسلام ، ص ١٤٠ ، عن كتاب : مظاهر الحضارة المغربيَّة ، تأليف : عبد العزيز بن عبد الله .

المسلمون علم البصريّات أو علم المناظر ذُكِرَ رائد علم الضّوء حتّى القرن السّابع عشر للميلاد ، ألا وهو :

أبو علي محمّد بن الحسن البصري المعروف بابن الهيثم[٥٠] : (نحو ٤٣٠ هـ = نحو ١٠٣٨ م) ، بلغ خبره الحاكم الفاطمي ، ونُقل إليه قوله : لو كنت بمصر لعملت في نيلها عملاً يحصل به النّفع في حالَتَيْ زيادته ونقصه ، فدعاه الحاكم إليه ، وخرج للقائه ، وبالغ في إكرامه ، ثمّ طالبه بما وعد من أمر النّيل ، فذهب حتّى بلغ الموضع المعروف بالجنادل ـ قِبْلي مدينة أسوان ـ فعاين ماء النّيل واختبره من جانبيه ، وضعف عن الإتيان بشيء جديد في هندسته لقلّة الوسائل ، واعتذر بما لم يقنع الحاكم ، فولاّه بعض الدّواوين ، فتولاّه خائفاً ، ثمّ تظاهر بالجنون ، فضبط الحاكم ما عنده من مال ومتاع ، وأقام له من يخدمه ، فلم يزل إلى أن مات الحاكم ، فأظهر التّعقّل ، وخرج من داره ، وأُعيد إليه ماله ، فانقطع للتّصنيف والإفادة إلى أن توفّي .

يكفي أن نعرف عن هذا الرّائد العظيم أنّه مؤلّف كتاب « المناظر » ، أي البصريّات[٥١] ، الّذي ظلّ مرجعاً للعلم في أُوربّة حتّى أواخر القرن السّابع عشر الميلادي ، درس فيه نظريّة انكسار الضّوء وانعكاسه في البيئات الشّفّافة كالهواء والماء ، وكاد يهتدي إلى المبدأ الطّبيعي الّذي يقوم عليه بناء المجهر (المنظار المكبّر) ، والمرصد (المنظار المقرّب) ، ولولا بحوثه لما كان لمثل (روجر بأكون) ، أو (فيتالو)[٥٢] الّذي ترجم كتابه هذا إلى اللاّتينيّة (١٢٧٠ م) ذكر في تاريخ العلم .

---

(٥٠) ولد بمدينة البصرة ، وتوفّي بالقاهرة .

(٥١) البصريّات : علم يبحث في الضّوء والعين والرؤيا .

(٥٢) استفاد فيتالو Wietalio « ١٢٢٠ ـ ١٢٧٠ م » وكبلر ودافنشي من كتاب المناظر الّذي ترجم إلى اللاّتينيّة ، ممّا يدلُّ على أهميّته ومدى استفادة الأُوربيّين منه ، وفي عام ١٥٧٢ م نشر Risner ترجمة كاملة لكتاب المناظر ، بالإضافة إلى التّرجمات الخمس ، وفيه لأوّل مرّة أجزاء العين .

جاء في قصّة الحضارة : ٢٧٥/١٣ : « لولا ابن الهيثم لما سمع النّاس قطّ بروجر باكون ، وها هوذا روجر باكون نفسه لا يكاد يخطو خطوة في ذلك الجزء الذي يبحث في البصريات من Orus Maius دون أن يشير إلى ابن الهيثم أو ينقل عنه ، الجزء السّادس من هذا المؤلّف يكاد كلّه يعتمد على كشوف هذا العالم الطّبيعي - ابن الهيثم - » .

ونفى ابن الهيثم نظريّة إقليدس وبطليموس في أنّ الإبصار يعود إلى إشعاعات تخرج من العين إلى الشّبح المرئي ، وقال : إنّ الأشباح تدخل العين منقولة إليها من خلال الرُّطوبة الزُّجاجيّة .

ولاحظ ابن الهيثم تأثير الجوّ في تضخيم حجم الشّمس أو القمر ، إذا نُظِرا وهما بقربة من الأُفق ، وقال : إنّه وفقاً لحقيقة انكسار الضّوء ، تصلنا أشعّة الشّمس حتّى عندما تكون تحت الأُفق بمقدار ١٩ درجة ، وبذلك استطاع أن يقيس ارتفاع الغلاف الجوّي ، فقال بأنّه قرابة عشرة أميال . وحلّل العلاقة بين ثقل الغلاف الجوّي وكثافته ، وتأثير الكثافة الجوّيّة في وزن الأحجام ، ودرس بصيغ رياضيّة معقّدة(٥٣) أثر الضّوء في مرآة كرويّة أو سلجميّة(٥٤) الشّكل ، ومن خلال العدسة المجمّعة (الحارقة) ، ودرس صورة كسوف الشّمس على حائط مقابل له من خلال ثقب صنعه في مصراع نافذة ، فكان هذا أوّل ذِكْرٍ للغرفة المظلمة ، الّتي قامت عليها فكرة التّصوير الضّوئي .

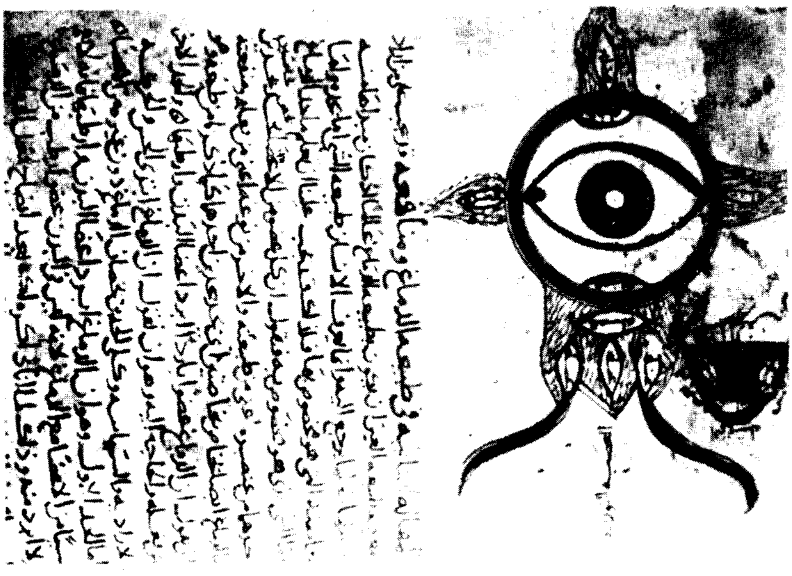
لقد كان ابن الهيثم أبا المنهج العلمي لا « روجر باكون » ، فالطّريقة التّجريبيّة العلميّة ، أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره ، هدية ابن الهيثم للإنسانيّة ، لقد خالف من سبقه في نظريّة الرؤيا ، فهو لم يسلّم بما كان سائداً في ذلك الوقت ، بل

(٥٣) مسألة الحسن بن الهيثم ذكرها العالم الأمريكي Struik في مجال الرّياضيّات ، وهي توصل إلى مسألة من الدّرجة الرّابعة « قطع زائد مع دائرة متقاطعة معه » ، واهتمّ بها الهولندي Hygens « ١٦٢٩ - ١٦٩٥ م » ، والإنكليزي Bouer « ١٦٣٠ - ١٦٧٧ م » .

(٥٤) السَّلْجَمُ : الطّويل من الخيل ، (اللّسان : سلجم) ، وهو معرّب ، والسَّلْجَمُ هنا : المرايا المحدّبة .

شكٌّ وبحث ونقد ، فنادى : إنَّ للضَّوء وجوداً ذاتيّـاً ، وتكلَّم عن الارتـداد قبل نيوتن ، وهكذا .. استفاد ممَّن تقدَّمه ، وهـذا أمر طبيعي ، ولكنَّـه أتمَّ النَّقص ، ونقض الخطـأ ، ثمَّ أبدع وألَّف وحدة مرتبطة الأجزاء ، وأقام صرحاً أثبت عليه صرح الضَّوء من بعـده ، لذلك يقول « ول ديورانت » في كتابه « قصَّة الحضارة » : « **لا مبالغة مهما قلنا في أثر ابن الهيثم في العلم في أُوربـة** » . ويقـول « سـارتـون » : « إنَّ ابن الهيثم هـو أكبر عـالم طبيعي من المسلمين ، ومن أكبر المشتغلين بعلم البصريَّات والرِّيـاضيَّـات والطَّبيعـة ، كما علَّق على فلسفة أرسطو ، ومؤلَّفات جالينوس » .

ومن علمـاء المسلمين في البصريَّـات : **كمال الدِّين الفـارسي** : (ت ٧٢٠ هـ = ١٣٢٠ م) ، الَّذي قدَّم في كتابه « تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصـائر » النَّظريَّـة الموجيَّـة للضَّوء ، وبيَّن أنَّ للضوء حركة كحركة الأصوات ، وشرح قوس قُزَح ، وانعكاس أشعَّـة الشَّمس ضمن قطيرات المـاء بعـد هطول المطر . **والبيروني** أوَّل من أكَّـد أنَّ سرعـة الضَّوء أعظم بكثير من سرعة الصَّوت .



الرِّياضيَّات : إذا ذُكِرَت الرِّياضيَّات في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة ، ذُكِرَ **أبو عبد الله محمَّد بن موسى الْخَوارزمي** : (ت بعد ٢٣٢ هـ = بعد ٨٤٧ م) ، الَّذي ينعت بالأُستاذ بعد أن أقامه المأمون العبَّاسي قيِّماً على خزانة كتبه ، وأمره باختصار (المجسطي) لبطليموس ، فاختصره وسمَّاه (السِّندهند) ، أي الدَّهر الدَّاهر . من كتبه « الجبر والمقابلة » ، و « الزَّيج » ، و « التَّاريخ » ، و « صورة الأرض من المدن والجبال » ، و « عمل الأَسطرلاب » ، و « وصف إفريقية » ، وهو قطعة من كتاب « رسم المعمور من البلاد » .

لقد بدأ الْخُوارزمي يستعمل الأَرقام الهنديَّة في سنة ٨١٣ هـ ، وفي سنة ٨٢٥ م كتب رسالة فيها ، ومع الزَّمن أصبح اسمه علماً على طريقة الحساب العشريَّة ، وأدخل استعمال « الصِّفْر » في العدِّ والحساب ، قال الْخُوَارزمي : « إنَّه إذا لم يكن هناك رقم يقع في مرتبة العشرة ، استعيض عنه احتفاظاً بالسِّلسلة الحسابيَّة بدائرة ، وهذه الدَّوائر الصِّغار تسمَّى الأصفار ، توضع لحفظ المراتب في المواضع الَّتي ليس فيها أعداد » ، وعن الْخُوَارزمي انتقل استعمال « الصِّفْر » إلى أُوربة ، فعرفه أهلها منطوقاً « صيفر » ، ونطقه اللاَّتينيُّون « زفيروم » ، واختصره الإيطاليُّون فقالوا « زيرو » ، وهذا « الصِّفر » ، الَّذي هو لا شيء ، إذا أُخذ وحده ، والَّذي يرفع المراتب الحسابيَّة مع العدِّ إلى ما شئت من قيم ، هو أعظم استكشاف رياضي على مرِّ القرون .

وهو الَّذي رتَّب ونظَّم علم الجبر ، فوضعه بشكله الحالي ، كتب مقالة في عصر المأمون تُرجمت إلى اللاَّتينيَّة ونُشرت في عصر النَّهضة الأُوربيَّة ، غير أن هذه التَّرجمة فُقِدَت ، ولكن الأصل العربي ما يزال محفوظاً في مكتبة « بودلي » بجامعة أكسفورد ، ومنها يستدلُّ على أنَّها نُسِخَت في سنة ١٤٣٢ م ، وينوِّه ناسخها في أوَّل صفحة منها أن كاتبها « محمَّد بن موسى الْخُوَارزمي » ، وعلى هامشها تعليق بأنَّها أوَّل مقالة كُتبت في الجبر .

ووضع الْخُوَارزمي جداول في حساب المثلَّثات ، وترجم جيرار الكريموني كتابه في

« التَّكامل والتَّفاضل » في القرن الثَّاني عشر إلى اللاَّتينيَّة ، وظلَّ من عمد التَّدريس في الجامعات الأُوربيَّة حتَّى القرن السَّادس عشر . وفي الموسوعة البريطانيَّة الكبرى أنَّ كتابه في الجبر بدأ بعبارة « قال الْخُوَارزمي » ، فصحِّف الاسم عند النَّقل عند اللاَّتين « الجوريتمي » ، ثمَّ تحوَّل بعد ذلك في العصر الحديث إلى « لوغاريتم » ، وهو ما نعرف الآن « بالأنساب الرِّياضيَّة »[٥٥] .

وهذَّب الأرقام الهنديَّة الَّتي تكوَّن منها سلسلتان ، عُرِفت إحداهما **بالأرقام الهنديَّة** ، ولا تزال تستعمل في جميع البلاد العربيَّة ـ باستثناء المغرب العربي ـ والإسلاميَّة ، وعُرِفت ثانيتهما **بالأرقام الغُبَاريَّة**[٥٦] ، وهي الَّتي تكتب بها شعوب أُوربَّة أرقامها ، وتسمِّيها أرقاماً عربيَّة .

تقول زيغريد هونكة : « ولم يقتصر الْخُوَارزمي على تعليم الغرب كتابة الأعداد والحساب ، فقد تخطَّى تلك المرحلة إلى المعقَّد من مشكلات الرِّياضيَّات ، وما زالت القاعدة الحسابيَّة (Algorithmus) حتَّى اليوم تحمل اسمه كعلم من أعلامها ، وعرف أنصاره ـ في إسبانية وألمانية وإنكلترة ـ الَّذين كافحوا كفاحاً مريراً من أجل نشر طريقته الرِّياضيَّة باسم الْخُوَارزميِّين (Algorithmiker) . وكان ظفرهم على أنصار الطَّريقة الحسابيَّة المعروفة باسم (أباكوس Abacus) عظيماً ، فانتشرت الأرقام العربيَّة التِّسعة يتقدَّمها الصِّفر في كلِّ أنحاء أُوروبَّة »[٥٧] .

إنَّ فضل العرب المسلمين في علم الرِّياضيَّات عظيم جداً ، فقد عمل عمر الخيَّام بمعادلات أكثر من الدَّرجة الثَّانية ، وكذلك أبو كامل بن أسلم ، والكاشي اهتمَّ بالكسور العشريَّة ، وحسب العدد الثَّابت π (بي) ، فكان ٣,١٤١٥٩٢٦٥٣٥٣٥٨ ، وفصل عمر الخيام الجبر عن الهندسة ، وهو صاحب مدرسة التَّحليل الجبري .

(٥٥) سير ملهمة من الشرق والغرب ، إسماعيل مظهر ، ص ٢٥

(٥٦) سُمِّيت (غباريَّة) لأن الهنود كانوا يرشُّون غباراً ناعماً على لوح من خشب ، ثمَّ تكتب عليه .

(٥٧) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٧٥

و « المثلَّثـات الكُرَويَّـة » علم عربي ، مع أن الغربيِّين يقـولـون : إنَّ الألمـاني ريكيومـانتونس Regiomantunis هو أبو المثلَّثـات ، ومـا قـدَّمـه مـوجـود عنـد العرب المسلمين قبله ، تكلَّم به الطُّوسي ، والبتَّاني ، والبيروني .

وأوجـد ثـابت بن قرَّة حجم الجسَّم المكافئ النَّاتـج من دوران قطـع مكافئ حـول محوره ، ثمَّ زاد ابن الهيثم فأوجد حجمه إذا دار حول أي قطر ، أو أي رأس ، وقام ثابت بعمل أرصاد فلكيَّة في بغداد نخصُّ منها بالذِّكر أرصاداً في حساب ارتفـاع الشَّمس ، وفي طول السَّنة الشَّمسيَّة .

ومن أعـلام الرِّيـاضيَّـات العرب أيضـاً : الكرجي ، والخـوجنـدي ، وأبـو الـوفـاء البوزجاني ، وعمر الخيام ..

وسيبقى أعلام الرِّيـاضيَّـات العرب المسلمـون ، روَّاد الأُسس السَّليمـة لهـذا العلم في العصور الوسطى .

☆ ☆ ☆

الفلك : ساعد على تطوُّر علم الفلك وتقـدُّمـه ، حـاجـة المسلمين لتحـديـد أوقـات الصَّلاة ، واختلافها حسب موقع البلدان الجغرافي ، ومتابعة حركة القمر ، لتحديد بـدء شهر الصَّوم ، والحج ، وهذا التَّقدُّم رافقه تصحيح أغلاط « المجسطي » لبطليموس . ومن أعلام الفلك العرب :

محمـد بن جـابر بن سنـان الحرَّاني البتَّـاني : (ت ٣١٧ هـ = ٩٢٩ م) ، فلكي مهندس ، يسمِّيه الأُوربيُّون Albategni ، أو Albatenius ، اشتغل برصـد الكواكب من سنـة ٢٦٤ إلى ٣٠٦ هـ ، وهو صـاحب « **الزِّيج** »[(٥٨)] المعروف بزيج الصَّـابئ ، وطبعت

(٥٨) الزِّيج : وجمعها أزياج : صناعة حسابيَّة على قوانين عـديـدة فيما يخصُّ كلَّ كوكب ، من حيث طريقـه وحركته .

ترجمته إلى اللاَّتينيَّة في نورمبرج سنة ١٥٣٧ م ، وقالوا إنَّه أصح من زيج بطليموس [٥٩] ، ومن كتبه « **معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك** » ، و « **شرح أربع مقالات لبطليموس** » ، ولم يُعلم أحد في الإسلام بلغ مبلغ البتَّاني في تصحيح أرصاد الكواكب ، وامتحان حركاتها ، وهو أوَّل من كشف السَّمت Azimuth ، والنَّظير Nadir ، وحدَّد نقطتيهما من السَّماء ، والكلمتان عند علماء الفلك الأوربيِّين عربيَّتان ، واكتشف حركة الأوج الشَّمسي ، وتقدُّم المدار الشَّمسي وانحرافه ، والجيب الهندسي والأوتار [٦٠] ، ويقول المستشرق « نيللينو » إنَّ له رصوداً جليلة للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنتورن Dunthorne سنة ١٧٤٩ م في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزَّمان [٦١] ، وقال لالند Lalande الفلكي الفرنسي : « البتَّاني أحد الفلكيِّين العشرين الأئمَّة الَّذين ظهروا في العالم كلِّه » .

و**إبراهيم الزُّرقالي** [٦٢] الَّذي ثبت أن ألفونسو اعتمد على أبحاثه وجداوله في الأعمال الفلكيَّة الَّتي تمَّت في عصره بعد أن ترجمت المصادر العربيَّة إلى اللاَّتينيَّة ، وثلاثة علماء مغاربة استفاد من أبحاثهم وكتبهم كبلر وباكون وألبرتو ماجنو .. وهم : أبو العبَّاس بن البنا (ت ١٣٢١ م) ، والحسن بن عمر المراكشي ، وأبو الحسن علي المراكشي .

أما **عبد الرحمن الصُّوفي** : (ت ٣٧٦ هـ = ٩٨٦ م) فله خرائط للنُّجوم ، ذكر فيها أكثر من ألف نجم ، ولقيمته العلميَّة ، هنالك مراكز على القمر باسمه اليوم .

---

(٥٩) وله أصل مخطوط في مكتبة الفاتيكان ، وفي حوالي سنة ١١٤٩ م اشتغل من يدعى روبرت من مدينة تشستر بزيج البتَّاني فأدخل حساب المثلَّثات العربي إلى انجلترة ، ونقل حساب الجيوب الفلكيَّة .

(٦٠) قاله تشمبرلس في موسوعات العلوم الفلكيَّة الإنجليزيَّة .

(٦١) Nalliono في دائرة المعارف الإسلاميَّة ٣٣٦/٣

(٦٢) (١٠٢٩ ـ ١٠٨٧ م) أحد علماء طليطلة ، ومن الأسماء العالميَّة ، حسَّن الآلات الفلكيَّة ، ونقل **كوبرنيكس فقرات من رسالته عن الأسطرلاب ، وكانت أزياجه الفلكيَّة خير الأزياج كلها في زمانه** ، وقد استطاع أن يثبت لأوَّل مرَّة في التَّاريخ حركة الأوج الشَّمسي بالنِّسبة للنُّجوم ، « وكانت أزياج طليطلة المحدَّدة لحركات الكواكب تستخدم في كافَّة أنحاء أوربَّة » ، [قصَّة الحضارة : ٣٠٨/١٣] .

Measurability of Sensations of Hue, Brightness, or Saturation

Lewis Fry Richardson

There are at least three ways of measuring sensations of hue, brightness or saturation as distinct from stimuli: (*E*) by counting small equal-appearing intervals; (*J*) by counting just-perceptible intervals; (*R*) by directly estimating the ratio of unequal intervals, both much larger than the least perceptible. This *R* method is not yet as well known as it deserves to be.

Before there were photometers, Al-Sufi,[1] [References cited in this paper will be found on page 243] about the year 964 A.D., estimated the brightness of more than 1000 stars. His description of his method seems to indicate that he judged by equal-appearing intervals *E*. C. S. Pierce[2] compared Al-Sufi's estimates and many others with the Harvard photometric measurements and found general agreement with Fechner's law, $E = \text{const.} \times \ln S$.

But Fechner[3] had made some queer assumptions, such as the existence of negative sensations "below the threshold," which provoked people by reaction to deny that formless visual sensations were quantitative at all. This seems to me an excessive reaction. Yet several otherwise excellent men of science have gone to that extreme.[4] Stumpf[5] well expressed a commonly felt difficulty when he wrote: "One sensation cannot be a multiple of another. If it could, we ought to be able to subtract the one from the other, and to feel the remainder by itself. Every sensation presents itself as an indivisible unit." Stumpf's remark seems convincing until one compares it with the following parody, "One mountain cannot be twice as high as another. If it could, we ought to be

Measurability of Sensations of Hue, Brightness, or Saturation, by Lewis Fry Richardson, in *Discussion on Vision* (London: Physical Society, 1932).

يقول كاتب البحث (Lewis Fry Richardson) في المقطع المشار إليه :

قبل أن يكون هناك مقياس للضوء ، قام الصُّوفي (٩٦٤ م) بتقدير لمعان أكثر من ألف نجم ، وإن وصفه لطريقته في تقدير قيم اللّمعان تظهر أنه استعان بواسطة مجالات الطاقة E المتساوية ، وقد قارَنَت (C. S. Pierce) تقييمات الصُّوفي بنتائج القياسات الضوئية لـ (Harvard) ووجدت توافقاً عاماً مع قانون فخنر E .

وأبو الوفاء البوزجاني الذي يقرن اسمه بإحدى قواعد علم الفلك ، ألا وهي قاعدة الانحراف القمري الثالث ، فسبق العالم الدنماركي (تيخو براهِه) الذي يعزى إليه هذا الاكتشاف خطأ بعشرة قرون ، وابن يونس المصري الَّذي أسَّس مدرسة القاهرة الفلكيَّة ، وأوكل إليه الحاكم الفاطمي [٩٩٠ ـ ١٠٢١ م] أمر إدارة المرصد (المِرْقاب) الذي بناه على جبل المقطَّم ، ونشر ابن يونس الجداول المسمَّاة باسم الخليفة الحاكم ، والَّتي فاقت في دقَّتها كلَّ الجداول السَّابقة ، فاعتمد في الشَّرق كلِّه حتَّى الصِّين .

وابن الشَّاطر ، نصير الدِّين الطُّوسي ، والشِّيرازي .. الَّذين عاشوا قبل كوبرنيكوس فأثروا به بشكل أو بآخر ، فعلم الفلك لم يبدأ من كوبرنيكوس البولوني أبداً ، يقول روم لاندو(٦٣) : « في كتاب كوبرنيكوس De Revolutionibus orbium coelestuim يستشهد بالعالم العربي الزُّرقالي وينقل عنه ، والزُّرقالي عالم كان في الأندلس ، فلكي ، اخترع أسطرلاباً ، وتمَّ له من الشُّهرة قدر جعله منطلقاً لتراث فلكي كامل »(٦٤) .

فمن مآثر العرب المسلمين في علم الفلك : لقد كان لهؤلاء العلماء أدمغة حرَّة مستطلعة ، فلم يتردَّدوا في التَّصويب والتصحيح ، فمن مآثرهم الخالدة في علم الفلك :

ـ صحَّحوا أغلاط بطليموس .

ـ أوَّل من عرف أُصول الرَّسم على سطح الكرة .

ـ وفي عام ١٠٨١ م صنع إبراهيم السَّهلي ، أحد علماء بلنسية في الأندلس ، أقدم كرة سماوية معروفة في التَّاريخ ، وقد صنعت هذه الكرة من النحاس الأصفر ، وكان طول

---

(٦٣) في كتابه « الإسلام والعرب » ، ص ٢٥٣ ، طبع دار العلم للملايين ، ط ١ سنة ١٩٦٢ م .

(٦٤) ويقول ول ديورانت في قصَّة الحضارة ٢٠٩/٨ : « كان كوبرنيكوس على علم بنظريَّة أرستارخوس القائلة إنَّ الشَّمس هي مركز المجموعة الشَّمسيَّة ، لأنَّه ذكر ذلك في فقرة اختفت من الطَّبعات المتأخِّرة من كتابه » .

قطرها ٢٠٩ ملليمتر ، وحفر على سطحها ١٠١٥ نجماً مقسَّمة إلى سبع وأربعين كوكبة ، وتبدو النجوم فيها حسب أقدارها ، جاء في [تراث الإسلام : ٥٨٩] : أتقن العلماء المسلمون صنع آلات الرَّصد ، وأهمها (ذات الْحَلَق) ، المعروفة عموماً عند الأقدمين باسم (الكرة السَّماوية) .

- حسبوا الحركة المتوسطة للشمس في السَّنة .

- ضبطوا حركة أوج الشَّمس ، وتداخل فلكها في أفلاك أُخر .

- وقالوا بدوران الأرض حول الشَّمس قبل كوبرنيكوس .

- وحسب البتَّاني ميل فلك معدل النَّهار ، فوجده ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة ، وحسب طول السَّنة الشَّمسيَّة ، فوصل إلى النَّتائج الحديثة بفارق دقيقتين و ٢٢ ثانية فقط ، وكتب عن كَلَف الشَّمس قبل أن تعرف أُوربة أسباب هذا الكَلَف بعدَّة قرون .

- وقاسوا محيط الأرض في عصر المأمون في موضعين اثنين : بادية الشَّام قرب تدمر ، وبرِّيَّة سنجار ، فكان طول الدَّرجةالواحدة عند فلكيي المأمون ١١١,٨١٥ متراً ، وطول المحيط ٤١,٢٤٨ كم ، وهو رقم قريب جدّاً من الحقيقة .

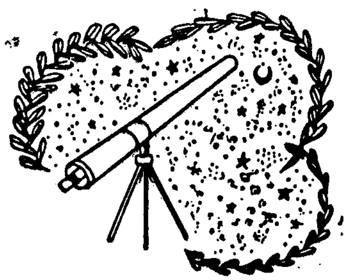
- ومعظم أسماء الكواكب والنُّجوم في اللُّغات الأُوربيَّة عربيَّة الأصل[٦٥] :

آخر النَّهر	Acarnar	الجبَّار	Algebar	العبور	Alhabor
الإكليل الشَّمالي	Achleis Chemali	الجدي	Algedi	القَرّ	Alkor
العناق	Alanac	الجانب	Algenib	الفرد	Alphard
البُغاث	Albajoth	الغميصاء	Algomeiza	الفرس	Alpharaz
الخابور	Alchabor	الغول	Algol	الفتى	Alpheta
الدَّبران	Aldebaran	الغراب	Algorab	الطائر	Altair
العناق	Amak	إبط الجوزاء	Beteigeuse	الكلب الأزور	Kalbelazyuar

(٦٥) شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٥٥٩/٥٥٨

الرّدف	Aridif	الذّنب	Denab	الكوكب	Kochab
الردف	Arioph	ذنب العلي	Deneb ola	المركب	Markab
الشّراع	Ascheree	الدّبة	Dubhe	رأس الجو	Rasalgue
الطّير	Atair	التّنين	Etalnin	رأس الجدي	Rasalgethi
الثّور	Ataur	الفرقدان	Farcadin	رأس الجوزاء	Resalgeuse
العيوق	Ayuk	فم الحوت	Famalhaut	رجل الجوزاء	Rigel
بطن الحوت	Baten-Kaitos	قلب الأسد	Kalbehasit	السّاعد	Scheat
بنات نعش	Beneth nasch	قلب العقرب	Kalbalacrab	النسر الواقع	Wega

☆ ☆ ☆



المظهر الفني
في الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة

بناء المدن، المساجد، القصور، الحمامات،

الرسم والتَّصوير، الخط العربي

المظْهَرُ الفَنّي

بناء المدن ـ المساجد ـ القصور ـ الحمامات

بِنَاءُ المدنِ :

بنى العرب المسلمون مدناً عـديـدة ، في وقت مبكّر من بـدء فتوحـاتهم ، وكان أوّل ما يفعلونه بعد اختيار موقع المـدينـة المراد بنـاؤهـا ، أن يختطُّوا المسجـد الجـامع ، ودار الإمارة ، ومن حولها حيٌّ لكلّ قبيْلَة ، كان يُـدْعى « القطيعـة » ، وفي كلّ « قطيعـة » منازلها ومسجدها وسوقها ..

ومن المدن الَّتي أنشأها العرب المسلمون :

البَصْرَةُ : الَّتي بُنِيَت بعد أن فتح سعـد بن أبي وقّـاص الحيرة ، كتب إليـه عمر بن الخطّـاب أن ابعث عتبـة بن غـزوان[(١)] إلى أرض الهنـد[(٢)] ، فلينزلهـا ويجعلهـا قيروانـاً للمسلمين ، ولا يجعل بيني وبينهم بحراً ، فخرج عتبة من الحيرة في ثمانمـائـة رجل ، حتّى نزل موضع البصرة ، فلمّـا افتتـح الأُبُلّـة ، اختـطّ فيهـا المسجـد ، ودار الإمـارة ، وقسّم المدينة بين القبائل[(٣)] .

الكُـوفَـةُ : مُصِّرت بعـد البصرة في سـواد العراق سنـة ١٧ هـ[(٤)] . وبنى **الحجّـاج** بن يوسف **الثّقفي وَاسِطَ** سنة ٨٣ هـ ، في مكان وسط بين البصرة والكوفة[(٥)] .

---

(١) عُتْبَة بن غزوان الحارثي المازني ، أبو عبد الله ، باني مدينـة البصرة ، صحـابي قديم الإسلام ، هـاجر إلى الحبشة ، وشهد بدراً ، ثمّ شهد القادسيّة مع سعـد بن أبي وقّـاص ، ووجّهـه عمر إلى أرض البصرة واليـاً عليها ، كان طويلاً جميلاً من الرّماة المعدودين ، توفّي سنة ١٧ هـ = ٦٣٨ م .

(٢) كانت « الأُبُلّة » تسمّى أرض الهند ، والأُبلة جنوبي العراق على شاطئ شط العرب الشّرقي .

(٣) معجم البلدان : ٤٣٠/١

(٤) معجم البلدان : ٤٩٠/٤

(٥) معجم البلدان : ٣٤٧/٥

الفُسْطَاطُ : بُدِئَ في بنائها في ربيع سنة ٢٠ هـ ، عندما أجمع عمرو بن العاص المسير إلى الإسكندريَّة ، وأمر بفسطاطه أن يُقَوَّض ، فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه ، فقال : لقد تحرَّمت بجوارنا ، أقرُّوا الفسطاط حتَّى تَنْقُف وتطير فراخها ، فأُقِر فسطاطه ، ووَكَلَ به من يحفظ أن لا تهاج ، ومضى إلى الإسكندريَّة ، وأقام عليها ستَّة أشهر ، حتَّى فتحها الله عليه ، فكتب إلى عمر بن الخطَّاب يستأذنه في سكناها ، فكتب إليه : لا تنزل بالمسلمين منزلاً يحول بيني وبينهم فيه نهر ولا بحر ، فقال عمرو لأصحابه : أين ننزل ؟ فقالوا : نرجع أيُّها الأمير إلى فسطاطك ، فنكون على ماء وصحراء ، فقال للنَّاس : نرجع إلى موضع الفسطاط ، فرجعوا ، وجعلوا يقولون : نزلتُ عن يمين الفسطاط وعن شماله ، فسُمِّيت البقعة بالفسطاط لذلك(٦) .

القَيْرَوَانُ : بناها عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ ، اختطَّ وسطها المسجد الجامع ، ثمَّ دار الإمارة ثمَّ بيوت الجند(٧) .

فاس : بناها إدريس الثَّاني سنة ١٩٢ هـ ، لتكون حاضرة إمارة الأدارسة ، تميَّزت بسورها الحجري ، ومسجدها الجامع ، وحمَّاماتها ، والفنادق للتُّجَّار(٨) .

قُرْطُبَة : عاصمة الأُمويين في الأندلس منذ أيَّام صقر قريش « عبد الرَّحمن الدَّاخل »(٩) ، شيَّدوا جامعها الشَّهير ، وقصورها الَّتي زادت عن ثمانية وعشرين قصراً ، وجرُّوا إليها المياه من الجبال القريبة ، وزاد عدد حمَّاماتها عن ثلاثمائة حمَّام ، ولكثرة مدارسها وجامعاتها ومكتباتها قيل عنها « جوهرة العالم » ، وشُبِّهت لفخامتها ببغداد ، وبقربها بنى عبد الرَّحمن النَّاصر سنة ٣٢٥ هـ « **الزَّهراء** » ، مدينة ملكيَّة .

---

(٦) معجم البلدان : ٢٦١/٤

(٧) معجم البلدان : ٤٢٠/٤

(٨) معجم البلدان : ٢٣٠/٤

(٩) معجم البلدان : ٣٢٤/٤

بَغدادُ : « مدينة السَّلام » ، بناها أبو جعفر المنصور العبَّاسي سنة ١٤٥ هـ ، ونزلها سنة ١٤٩ هـ ، على شاطئ الدّجلة ، لتكون دار الخلافة[١٠] .

القاهرة : بناها جوهر الصِّقلّي قائد المعز لدين الله الفاطمي بجنب الفسطاط[١١] ، بدئ ببنائها في شعبان ٣٥٨ هـ ، وانتقل إليها الفاطميُّون سنة ٣٦٢ هـ ، بعد أن تمَّ بناء قصر فخم للمعز ، وإتمام بناء الجامع الأزهر فيها . وكانت **المهديَّة** حاضرتهم قبل القاهرة ، بناها عبيد الله بن المهدي سنة ٣٠٣ هـ .

مرّاكُش : اختطَّها يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ٤٥٤ هـ[١٢] ، وجُلب إليها الماء من ناحية أغمات[١٣] « عاصمتهم القديمة » ، ليسقي بساتينها ، وممَّا يذكر أنَّ يوسف بن تاشفين شارك العمَّال بنفسه في بناء المسجد في العاصمة الجديدة .

☆ ☆ ☆

الْمُدُنُ العَسْكَرِيَّةُ في الإسلام : « الثُّغور ـ الرِّباطات ـ العواصم ـ العسكر »[١٤] .

الثُّغور : الثَّغر : ما يلي دار الحرب ، والثَّغر : هو الموضع الَّذي يكون حدّاً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفَّار ، والثُّغور في الاصطلاح العسكري عند المسلمين هي المدن الحصينة الَّتي أُنشئت على حدود الدَّولة الإسلاميَّة ، لاستعمالها في صدِّ العدوّ ، أو لتكون منطلقاً للإغارة عليه داخل أراضيه . والثُّغور في العادة تكون في التُّخوم البرِّيَّة ، الَّتي تفصل دار الإسلام عن دار الحرب ، أو بعبارة أُخرى : الَّتي تفصل ما بين الدُّول الإسلاميَّة والدُّول الأجنبيَّة ، وذلك في الجهات المتقابلة بين هذي وتلك على الأرض اليابسة .

(١٠) معجم البلدان : ٤٥٦/١

(١١) معجم البلدان : ٣٠١/٤

(١٢) معجم البلدان : ٩٤/٥

(١٣) أغمات على بُعد خمسة وثلاثين كيلومتراً ، جنوب شرقي مَرّاكُش .

(١٤) « الفكر العربي » العددين : ٢٩ و ٣٠ ، مسألة المدنيّة والمدنية العربيّة ، مقالة : المدنيّة في الإسلام للشّيخ طه الولي ، العدد ٢٩ ، ص ١٠٨ وما بعدها .

وأرجع المؤرِّخون تاريخ إنشاء الثُّغور في الإسلام إلى زمن خلافة عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه[١٥]، وقد أنشأها في تخوم الدَّولة الإسلاميَّة قُبَالة بلاد الرُّوم .

ونظِّمت « الدَّوريَّات » منذ أيَّام معاوية بن أبي سفيان ، تارة خلال فصل الصَّيف ، ولذلك اشتهرت باسم « **الصَّوائف** » ، وتارة خلال فصل الشِّتاء ، ولذلك اشتهرت باسم « **الشَّواتي** » ، وهذه الثُّغور سُمِّيت :

الثُّغور الرُّوميَّة : وهي المدن العسكريَّة الَّتي أنشأها العرب المسلمون على امتداد حدود الدَّولة الإسلاميَّة بمواجهة أرض الرُّوم « الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة » ، وهي قسمان :

١ ـ **الثُّغور الشَّاميَّة** : كثغر طَرَسُوس الَّذي بني أيَّام المهدي العبَّاسي ، وآذنة « أضَنَة » ، والمصيصة « ميسيس » على نهر جيحان ، والقرنة السَّوداء في جبال طوروس ، والهارونيَّة نسبة إلى هارون الرَّشيد .

٢ ـ **الثُّغور الجَزَريَّة** : كمرعش ، والحديث ، وسَمِيساط ، وملاطية « مَلَطِيَّة » .

والثُّغور الهنديَّة : الَّتي أُقيمت بمواجهة بلاد الهند ، ومنها : جَنْزَة « كَنْجَة » ، وهو ثغر بين شروان وأذربيجان في بلاد الرَّان ، وأسَفيجاب ، وطِرَاز ، ونزاوة .

ومثال هذه الثُّغور طَرَسوس ، الَّذي يُعَدُّ مثالاً كاملاً عن هذه الثُّغور ، بالنِّسبة لمكانته العسكريَّة ، أو بالنِّسبة لنوعيَّة الجنود الَّذين كانوا مثاغرين[١٦] فيه ، قال ابن حوقل[١٧] : « فأمَّا مدينة طرَسوس ، فكانت المدينة المشهورة المُسْتَغْنى بشهرتها عن تحديدها ، كبيرة ، استحدثها المأمون بن الرَّشيد ومدَّنها ـ أي جعلها مدينة ـ وجعل

(١٥) الطَّبري ١٦٥/٢ ، وفتوح البلدان للبلاذري ص ١٧٠

(١٦) مثاغرون : مقيمون في الثُّغور .

(١٧) كتاب صورة الأرض ، لأبي القاسم بن حوقل ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ص ١٦٨

عليها سورين من حجارة ، وكانت تشتمل من الخيل والرِّجال والعدَّة والعتاد والكراع[(١٨)] والسِّلاح والعمارة ، والخصب والغلاَّت والأموال والسَّعة في جميع الأحوال على حال لم يتَّصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين ، لكافر ولا مسلم ، إلى عزٍّ تام ، ونصر عام على جميع من وليها من رجال الإسلام ، فما غزا في بر أو بحر إلاَّ وصحبه من الظَّفر والنَّصر والغنائم بالقسر والقهر ما ينطق الإخبار بتصديقه ، والآثار بتحقيقه ، وكان بينها وبين حدِّ الرُّوم جبال منيعة متشعِّبة من اللُّكَّام[(١٩)] كالحاجز بين العملين ، ورأيت غير عاقل مميِّز ، وسيد حصيف مبرِّز ، يشار إليه بالدِّراية والفهم واليقظة والعلم والفطنة والسِّياسة والرِّياسة ، يذكر أنَّه كان بها مائة ألف فارس .. وذلك عن قريب عهد من الأيَّام الَّتي أدركتها وشاهدتها ، وكان السَّبب في ذلك أن ليس من مدينة عظيمة من حدِّ سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والرّي وأصبهان وجميع الجبال ، وطبرستان والجزيرة وأذربيجان والعراق والحجاز واليمن والشأمات[(٢٠)]، ومصر والمغرب ، إلاَّ وبها لأهلها - أي أهل طَرَسُوس - دار ورباط ينزله غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتَرِد عليها الجرايات والصِّلات ، وتُدَرّ عليهم الأنزال والحملان العظيمة الجسيمة ، إلى ما كان متطوِّعو السَّلاطين يتكلَّفونه ، وأرباب النِّعم يعانونه وينفِّذونه ، ويتحاضُّون عليه متبرِّعين ، ولم يكن في ناحية ذكرتها ، رئيس ولا نفيس إلاَّ وله عليها أوقاف من

(١٨) الكُرَاعُ : البقر والغنم « اللِّسان : كرع » .

(١٩) اللُّكَّام : الجبل المشرف على أنطاكية والمصيصة وطرسوس وتلك الثُّغور ، « معجم البلدان ٢٢/٥ » .

(٢٠) الشَّأمات : في معجم البلدان : وهي الشَّام (٣١١/٣) ، وفي كتاب الرَّوض المعطار في خبر الأقطار ، ص ٣٣٥ : « والشَّام بلاد كثيرة وكور عظيمة وممالك ، وقَسَّمت الأوائل الشَّام خمسة أقسام : الأوَّل فلسطين وفيها غزَّة والرَّملة ، والشَّام الثَّانية مدينتها العظمى طبرية والغور واليرموك ، والثَّالثة الغوطة ومدينتها العظمى دمشق ، ومن سواحلها طرابلس الشَّام ، والرَّابعة أرض حمص وقنَّسرين ومدينتها العظمى حلب وساحلها أنطاكية ، والشَّام اسم لجميع ذلك من البلاد والكور ، وأول طول الشَّام من ملطية إلى رفح » ولم يذكر الكتاب الشَّام الخامسة ؟!

ضياع ذوات أكرةٍ[٢١] وزرَّاع وغلاَّت ، أو مسقف من فنادق ودور وحمّامات وخانات ، هذا ، إلى مشاطرة من الوصايا بالعين الكثير والوَرِق[٢٢] والكراع الغزير .. » .

الرِّباطات : وهي المدن الَّتي يرابط فيها المسلمون للجهاد ، وللدِّفاع عن الوطن ، وحماية الدَّعوة الإسلاميَّة في دار الإسلام ، دون أي طمع مادِّي في الأجر ، أو الحصول على المراتب ، كما هو شأن الجنود المحترفين .

وتقع الرِّباطات على الأغلب على السَّواحل البحريَّة ، وذلك بخلاف الثُّغور الَّتي تقع في التُّخوم البرِّيَّة ، وعلى هذا فالرِّباطات هي المدن العسكريَّة المشحونة بالمتطوِّعين من المجاهدين ، الَّذين كانوا يتناوبون على مراقبة تحرُّكات العدو في البحر[٢٣] ، جماعة بعد جماعة ، والمتطوِّعون الَّذين يلازمون الرِّباطات يدعون « المرابطين » .

وكان على شواطئ البحر المتوسِّط من زاويته الشَّماليَّة الشَّرقيَّة « أي من مدينة الإسكندرون » ، والجنوبيَّة ، حتَّى شاطئ بحر الظُّلمات « الأطلسي » ، ألف رباط ، وذلك بمعدَّل رباط كل ستَّة كيلومترات[٢٤] .

وفي ما وراء النَّهر ـ كما يقول الإصْطَخْري ـ ألف رباط ، وذكر المقدسي في « أحسن التَّقاسيم » رقماً أكبر .

العَوَاصِمُ : حدَّد الجغرافيُّون المسلمون معنى « العاصمة » بقولهم : « إنَّها مدينة ذات عدد كبير من السُّكَّان ، لها محاكم قضائيَّة ، وحاكم مقيم فيها ، وتتَّصف أيضاً بقدرتها على الإنفاق على الخدمات العامَّة من إيراداتها الخاصَّة ، وهي مركز السُّلطة للمنطقة المحيطة

---

(٢١) الأكَرَة جمع أكَّار ، والأكَّار : الحرَّاث ، « اللِّسان : أكر » .

(٢٢) الوَرِق : الدَّراهم المضروبة ، والوَرِق : الفضَّة ، « اللِّسان : ورق » .

(٢٣) وفي حال مجيء عدو ، كانت هنالك طرق للتَّفاهم ونقل الخبر فيما بين هذه الرِّباطات ، منها إيقاد النِّيران ، والدُّخان ..

(٢٤) الحياة العسكريَّة عند العرب ، د . إحسان الهندي ، طبع وزارة الثَّقافة بدمشق سنة ١٩٦٤ ، ص ٢٢٤

بها ، وفي بعض الحالات عرَّفها العرب بأنَّها الحاضرة (Metropolis) ، الَّتي يقيم فيها كبار الرُّؤساء ، حيث يوجد مقرُّ الأقسام الإداريَّة ، ويتسلَّم الحكَّام الإقليميُّون أوراق اعتمادهم ، فتسمَّى المنطقة بما فيها من مدن صغيرة باسم المدينة الكبيرة ، مثل دمشق ، والقيروان ، وشيراز[٢٥] .

أمَّا العواصم اصطلاحاً ، فهي نظام أوجده الخليفة العبَّاسي هارون الرَّشيد ، قال ابن الأثير في حوادث سنة ١٧٠ هـ : « وفيها عزل الرَّشيد الثُّغور كلَّها عن الجزيرة وقنسرين ، وجعلها حيِّزاً واحداً وسُمِّيت بالعواصم »[٢٦] ، وأنشأ لهذه العواصم إدارة مستقلَّة ، وجعلها تابعة للجيش مباشرة ، تحت اسم : « إقليم العواصم والثُّغور » ، واختار الرَّشيد لهذه المدن الثُّغور اسم « العواصم » ، لأنَّها تعصم أرض المسلمين من عدوان البيزنطيِّين عليها .

ويقول ياقوت الْحَمَوي في معجم البلدان ١٦٥/٤ : « العواصم : حصون موانع ، وولاية تحيط بها بين حلب وأنطاكية ، وقصبتها أنطاكية ، وكان قد بناها قوم واعتصموا بها من الأعداء ، وأكثرها في الجبال فسُمِّيت بذلك ، وربَّما دخل في هذا ثغور المصيصة وطَرَسوس وتلك النَّواحي ، وزعم بعضهم أنَّ حلب ليست منها ، وبعضهم يزعم أنَّها منها ، ودليل من قال إنَّها ليست منها أنَّهم اتَّفقوا على أنَّها من أعمال قنَّسرين ، وهم يقولون : قنَّسرين والعواصم ، والشَّيء لا يعطف على نفسه ، وهو دليل حسن .. ولم تزل قنَّسرين وكورها مضمومة إلى حمص حتَّى كان زمان يزيد بن معاوية فجعل قنَّسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جنداً ، فلمَّا استخلف الرَّشيد أفرد قنَّسرين بكورها ، فصيَّرها جنداً ، وأفرد منبج ودُلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين ، وما بين ذلك من الحصون ، فسمَّاها العواصم ، لأنَّ المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من

(٢٥) الجغرافية العربيَّة في القرنين التَّاسع والعاشر الميلاديين ، تأليف ضياء الدِّين علوي ، طبع الكويت ١٩٨٠ ، ص ١٧٢

(٢٦) الكامل في التَّاريخ : ٨٣/٥

العدوّ إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثَّغر ، وجعل مدينة العواصم منبج ، وأسكنها عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عبَّاس في سنة ١٧٣ ، فبنى فيها أبنية مشهورة .. » .

العَسْكَرُ : اصطلاحاً : مجتمع الجيش ، ومن هذا المعنى سُمِّي المكان المخصَّص لإقامة الجند « عسكر » ، ولقد أنشأ العرب المسلمون العديد من المدن الَّتي عرفت باسم « العسكر » ، وقد أحصاها ياقوت الحموي في معجمه : ١٢٢/٤ ، وهي : عسكر **الرَّملة** في فلسطين ، وعسكر **الزَّيتون** في فلسطين أيضاً قرب نابلس ، وعسكر **سامُرَّاء** ، وهي المدينة الَّتي أنشأها المعتصم بالله العبَّاسي ، وجمع فيها جنده من الأتراك . وعسكر **القريتين** بين حمص وتدمر ، وعسكر **مصر** « وهي المحلَّة » ، وعسكر **مكرم** في خوزستان ، وعسكر **المهدي** بن أبي جعفر المنصور ، وهي الرُّصافة في الجانب الشَّرقي من بغداد ، وعسكر **نيسابور** في خراسان .

☆ ☆ ☆

المَسَاجِدُ :

وهي أهمُّ مكان تتمثَّل فيه العمارة الإسلاميَّة والفن الإسلامي معاً ، ولقد كانت المساجد الأُولى من البساطة بمكان ، من حيث البناء والمظهر ، ثمَّ أخذ المسلمون يعتنون بها ، فيوسِّعون مساحتها ويبنونها بالحجارة والأعمدة ، ويزيِّنونها ، لتلائم ما وصلوا إليه من عزَّة وقوَّة وسعة[٢٧] .

أوَّل مسجد في الإسلام « مسجد قُبَاء » ، الَّذي بناه رسول الله ﷺ من الآجر والحجارة عام الهجرة ، ويرتكز سقفه المصنوع من الجريد والأغصان على جذوع النَّخل ، وهو أوَّل نموذج للمساجد الإسلاميَّة .

---

(٢٧) انظر للتَّوسُّع في هذا البحث : تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، أنور الرِّفاعي ، والفن العربي الإسلامي في بداية تكوُّنه ، د . عفيف بهنسي .

وأهمُّ المساجد الَّتي بُنيت في العصور الإسلاميَّة :

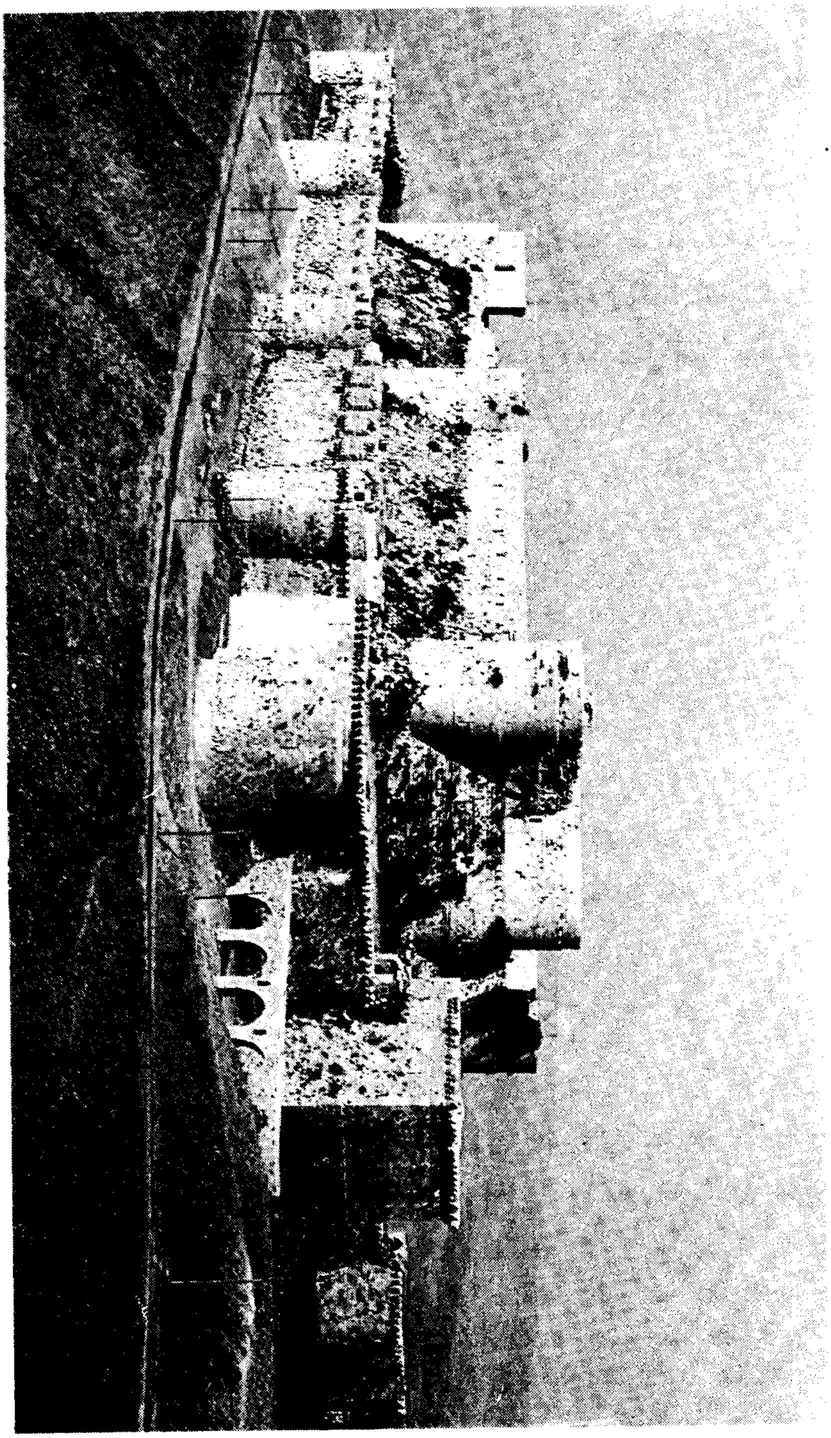
مسجد الرَّسول ﷺ في المدينة المنوَّرة : بناه رسول الله ﷺ عند وصوله المدينة المنوَّرة مهاجراً ، وجدَّد بناءه عمر وعثمان ، ثمَّ أعاد إنشاءه الوليد بن عبد الملك بإشراف عمر بن عبد العزيز ، فأتمَّ بناءه سنة ٩١ هـ = ٧١٠ م . **ومسجد قبَّة الصَّخرة** : بناه عبد الملك بن مروان تخليداً لذكرى الإسراء ، وخشية أن تعظم في قلوب المسلمين الكنائس السَّامقة ، وأن يبهرهم مظهرها ، فبنى عبد الملك على الصَّخرة قبَّة مشرقة متلألئة ، ويروي المقدسي أنَّه لم يَرَ في الإسلام ، ولا سمع في الشَّرق مثلها[٢٨] ، فأكَّد عبد الملك انتصار الإسلام ، الَّذي ثبَّت أقدامه في مدينة القدس ، بإقامة بناء إسلامي بارز ظاهر[٢٩] ، وعلى ذات الهضبة الَّتي بُنيت عليها قبَّة الصَّخرة ، يقوم **المسجد الأقصى** ، وهو بناء أُموي تعرَّض لكثير من عاديات الزَّمن ، وهو مؤلَّف من جناح مركزي عريض ، تحدُّه أقواس ترتكز على أعمدة ، وعلى جانبيه جناحان أضيق ، أُضيفت إليه عدَّة أجنحة على طرفيه .

المسجد الأُموي بدمشق : من أكبر مساجد العالم الإسلامي ، بناه الوليد بن عبد الملك ما بين سنتي : ٨٨ ـ ٩٦ هـ = ٧٠٧ ـ ٧١٤ م ، مكان معبد وثني قديم للإله جوبيتر ، وزُيِّنت جدرانه بالرُّخام والفسيفساء الملوَّنة والمذهَّبة ، وفرشت أرضه بالمرمر ، ويشبهه في التَّخطيط ، المسجد الأُموي في حلب ، الَّذي بدأ بناءه الوليد ، وانتهى في عهد أخيه سليمان .

جامع القيروان : « جامع سيدي عقبة » ، بناه عقبة بن نافع ، عندما خطَّ مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ = ٦٧٠ م ، ثمَّ هُدِم وأُعيد بناؤه سنة ٧٦ هـ ، وزيد في مساحته

(٢٨) أحسن التَّقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١٥٩ ، ١٧٠ ، ليدن ط ٢ سنة ١٩٠٦ م .

(٢٩) وهو بناء مثَّمن تعلوه قبَّة ، فكأنَّه معرض مخصَّص لعرض تحفة ثمينة ، مع الحفاظ عليها ، ولهذا روعي أن تكون فخامته وعظمته بقدر قيمة هذا الكنز الَّذي يضمُّ بين أجنحته ، وهل هناك بعد الكعبة والرَّوضة الشَّريفة كنز أكثر قدسيَّة من القِبْلَة الأُولى ؟



* قلعة الحصن

بأمر هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، ومئذنته متميِّزة ، فهي تتكوَّن من ثلاثة أبراج مربَّعة متعاقبة ، تعلوها قبَّة صغيرة ، وهي من أجمل المآذن الإسلاميَّة .

جامع الزَّيتونة : وهو « رِباط فيه جامع » ، وجامعة علميَّة إسلاميَّة تدرس فيه كلُّ العلوم ، وحوله سوق للورَّاقين ، وآخر للمجلِّدين كما يذكر ابن خلدون ، وفيه مكتبة عظيمة ، وتجتمع في هذا المسجد الأنماط والمدارس المعماريَّة الإسلاميَّة ، فيه الفن المغربي من إفريقي وأندلسي ومَرَّاكُشي ، وفيه الفن الفاطمي والعربي والتُّركي ، بسبب الإضافات والتَّرميمات الَّتي طرأت عليه .

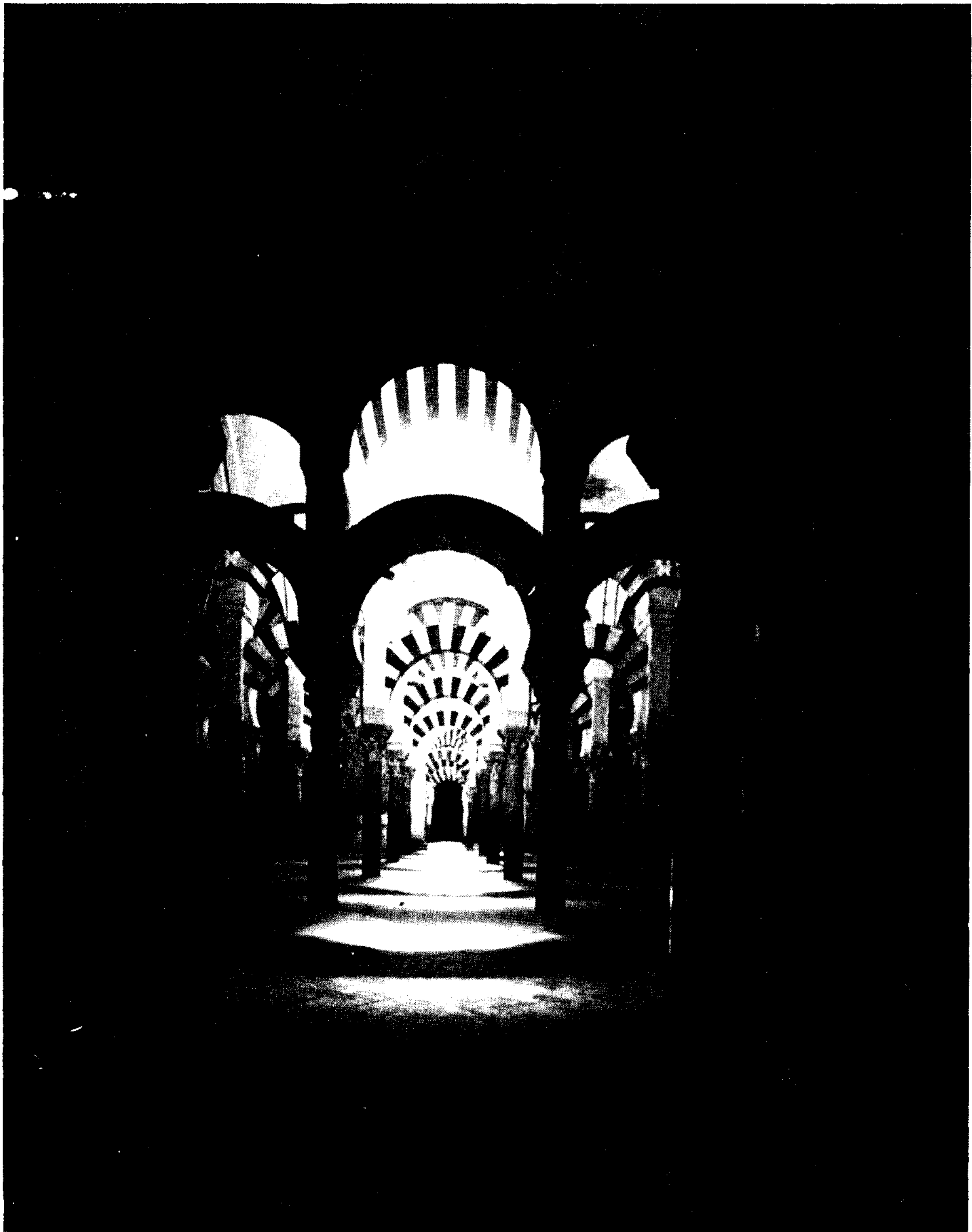
مسجد قُرْطُبَة : بناه عبد الرَّحمن الدَّاخل سنة ٧٨٦ هـ ، ليضاهي مساجد الشَّرق سعة وعمراناً وعظمة ، بناه على مثال المسجد النَّبوي ، الَّذي بناه الوليد بن عبد الملك في المدينة المنوَّرة ، حُوِّل هذا المسجد سنة ١٢٣٦ م إلى كاتدرائيَّة باسم « لاموثكيتا » .

مسجد سامرَّاء : بني من الآجر ، ويشتهر بمئذنته الحلزونيَّة الباقية حتَّى اليوم .

جامع ابن طولون : بناه أحمد بن طولون على مثال مسجد سامرَّاء ، مابين سنتي ٢٦٣ ـ ٢٦٥ هـ ، فبنى فيه مئذنة حلزونيَّة « مَلْوِيَّة » ، واتَّخذه إلى جانب الصَّلاة مدرسةً دينيَّةً ، وداراً للحكومة ، تعقد فيه المحاكم ، ووضع فيه خزانة ملأى بالأدوية ، وعيَّن له طبيباً ، فكان بمثابة طبيب إسعاف إلى جانبه صيدلية إسعاف .

الجامع الأزهر : بناه جوهر الصِّقِلِّي سنة ٣٦١ هـ = ٩٧٢ م باسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وأدخل عليه العزيز بالله بعض الإصلاحات ، ثمَّ جدَّد الحاكم بأمر الله مئذنته سنة ٤٠٠ هـ = ١٠٠٩ م ، وأدخل المستنصر عليه بعض الإصلاحات أيضاً . وجُدِّدت عمارته في عهد المماليك على يد الظَّاهر بيبرس ، وأضاف إليه العثمانيُّون أبنية جديدة .

ويُعَدُّ **العصر المملوكي** في بلاد الشَّام ومصر عصراً ذهبيّاً لتاريخ العمارة الإسلاميَّة ،



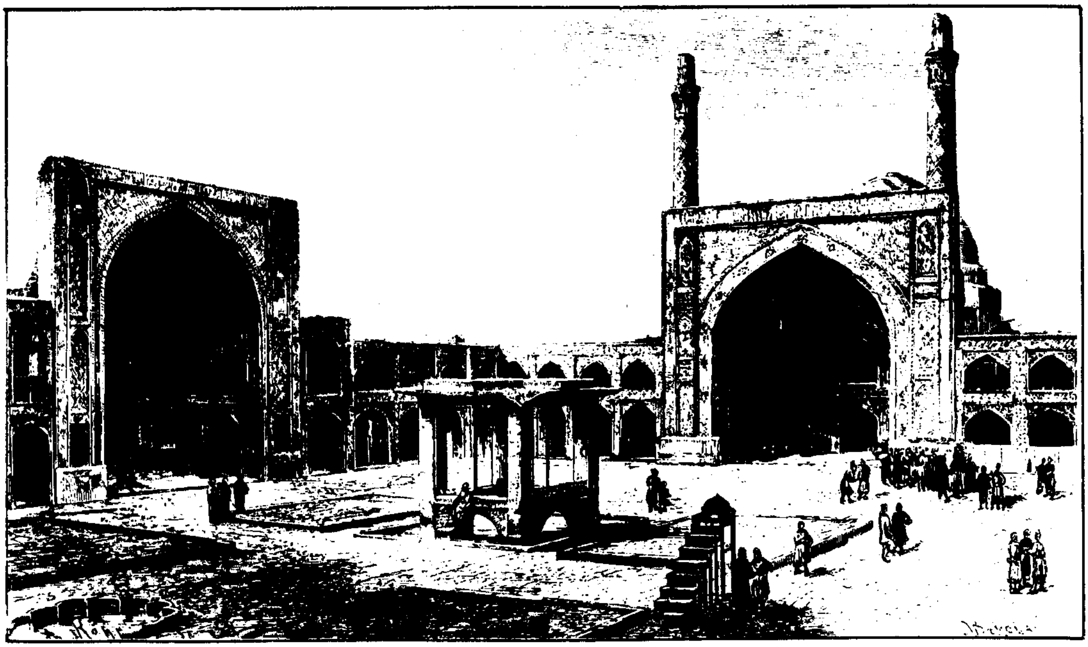
مسجد قرطبة

لقد تنوّعت العمائر من مساجد ومدارس وأضرحة وحمّامات وأسبلة وخانات .. مع إتقان وأناقة ، وخصوصاً في الواجهات والمنارات والقباب ، وفي الزّخارف الجصّيّة والرّخاميّة ، حتّى المنبر ، تحوّل من الجصّ والخشب في العصر الفاطمي ، إلى رخام أصبح الخامة الأساسيّة في البناء والزّخرفة ، مع أشغال النجارة الدّقيقة ، وأعمال الخراطة والتطعيم بالصّدف والعاج والأبنوس الّتي غطّت المنابر والأبواب والشّبابيك ، وظهرت السّقوف مموّهة بالذّهب بدرجة رفيعة من الإتقان والتّأنّق والجمال . ومن مساجد هذه الفترة :

مسجد الظّاهر بيبرس في القاهرة ، تمّ بناؤه سنة ٦٦٧ هـ = ١٢٦٩ م ، **ومسجد المنصور قلاوون** ، الّذي شيّده سنة ٧٣٥ هـ = ١٣٣٤ م ، **ومسجد السّلطان حسن** ، تمّ بناؤه سنة ٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م « ويعدّ أجمل العمائر المملوكيّة في مصر وبلاد الشّام ، وأجمل ما في هذا المسجد قبو إيوانه الشّرقي ، الّذي يعدّ من معجزات البناء في الفنّ الإسلامي ، إذ تبلغ فتحته ١٩,٢٠ متراً ، يحيط به من الدّاخل إفريز جصّي مكتوب فيه بالخطّ الكوفي آيات من سورة الفتح ، وهو طراز من الكتابة لا نظير له ، وجدران هذا الإيوان مستورة بالرّخام ، وعقد الإيوان بني بالآجر ما عدا بدايته فإنّها بالحجر ، وفي هذا الإيوان دكّة من الرّخام الدّقيق الصّنع ، وارتفاع قبّته الكلّي نحو خمسين متراً ، وهي مؤزّرة بالرّخام الفاخر ، وبها طراز خشبي منقوش ومذهّب ، وكانت القبّة من الخشب ، ومغلّفة بالرّصاص ، وغطاؤها الحالي جديد الصّنع . ويمتاز هذا الجامع بنسبه الضّخمة وإيواناته العالية ، ومدخله الضّخم الغني بالزّخارف ، ومئذنتيه العاليتين ، وجدرانه الضّخمة ، لما فيها من تجاويف عموديّة تزيد من ارتفاع البناء ، و (الكورنيش) الفاخر الّذي يعلو الجدران فيتوّجها ويزيد من وحدة البناء كله .. »[٣٠].

أمّا **العصر السّلجوقي** في العراق وإيران وآسية الصّغرى وبلاد الشّام ، فقد تميّزت مساجده بالضّخامة ، والمظهر القوي ، متأثّرة بأساليب معماريّة هنديّة أتى بها محمود

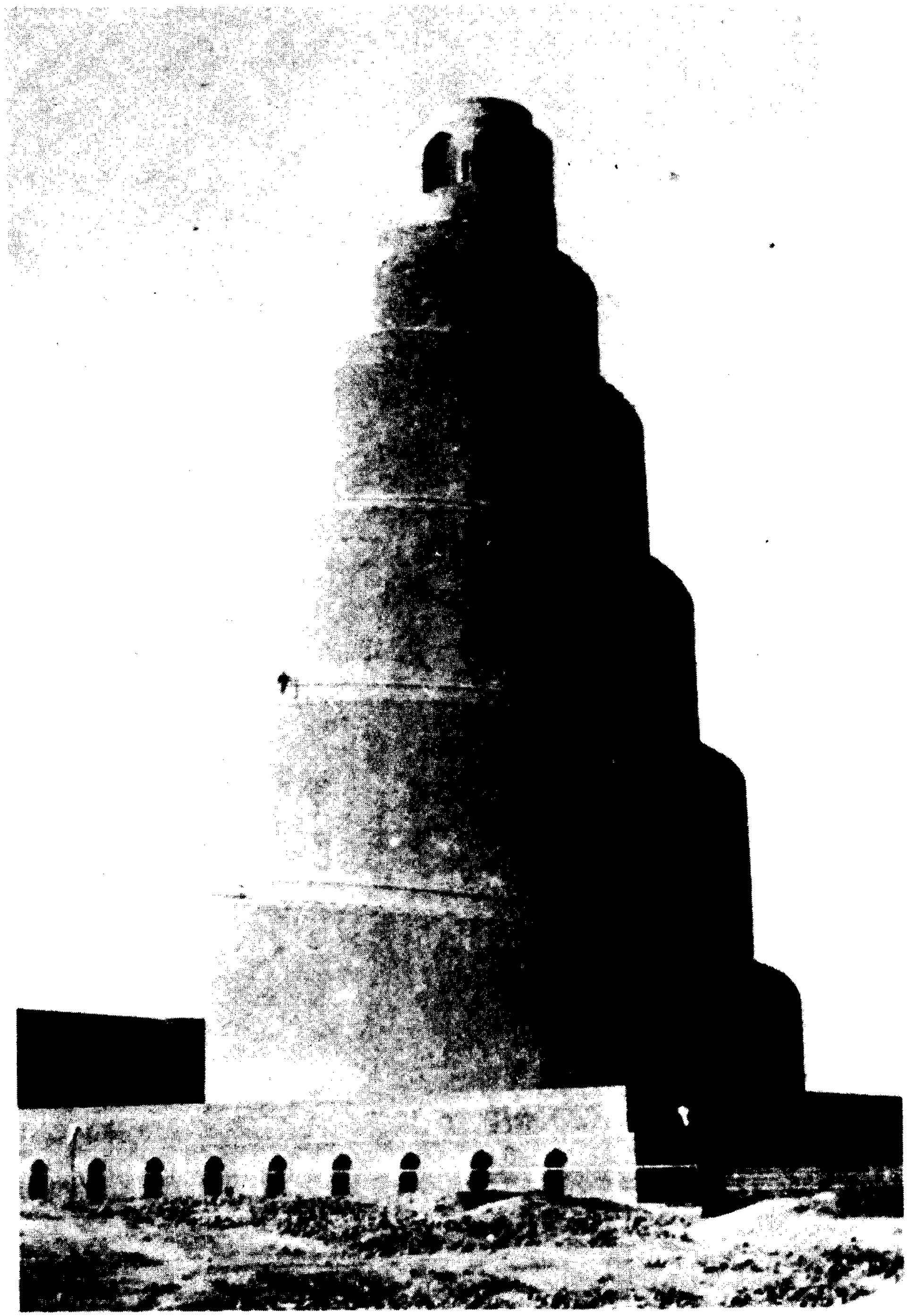
(٣٠) تاريخ الفن ، ص ٨٠ و ٨١



* المسجد الكبير في أصفهان



* قصر الأربعين عموداً (جهلستون) (أصفهان)
نموذج (صفوي)



*مئذنة الملوية بسامُرّاء

الغزنوي ، ويمثّلها : **المدرسة المستنصريّة** ، الّتي هي مسجد غلب عليه اسم المدرسة ، **ومسجد الجمعة** في مدينة أصفهان ، الّذي بُني في عهد السُّلطان السلجوقي أبي الفتح ملكشاه .

ومن مساجد **العصر المغولي** في إيران ، والمتأثِّرة بالأساليب الفنيَّة الصِّينيَّة ، **مسجد فرامين** الّذي بُني سنة ٧٢٢ هـ = ١٣٢٢ م ، **والمسجد الجامع** بمدينة يزد ، **وجامع جوهرشاد** بمدينة مشهد .

وفي **عصر تيمورلنك** وما بعده ، شاع بناء المساجد الّتي تعلوها قبَّة ضخمة ، يؤدِّي إليها مدخلٌ عالٍ يلفت النَّظر بعظمته وفخامته ، مثل **مسجد كليان** في بخارى ، بما فيه من إيوان ضخم في الجبهة ، ومئذنة أسطوانيَّة تبعث الرَّهبة في النُّفوس ، وأبدع مساجد هذه الفترة **الجامع الأزرق** في تبريز ، وفسيفساء هذا المسجد الخزفيَّة ، غاية في الإبداع والجمال .

وأشهر مساجد **العصر الصَّفوي** ، جامع الشَّيخ صفي الدِّين وضريحه في مدينة إربيل ، ويُعَدُّ مسجد الشَّاه في أصفهان ، التُّحفة المعاريَّة الثَّانية للصَّفويِّين . وجميع المساجد والأضرحة الصَّفويَّة محلاَّة بالفسيفساء الخزفيَّة ذات الألوان الجميلة ، ورسوم الزُّهور ، والفروع النَّباتيَّة البديعة .

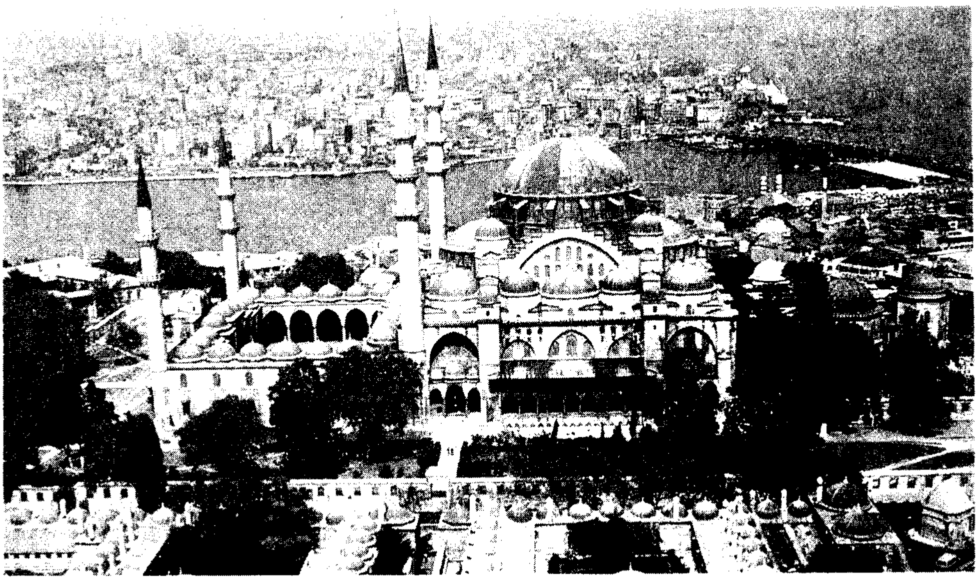
وامتازت **مساجد الهند** بمداخلها الكبيرة الفخمة ، ومناراتها العالية ، وقبابها البصليَّة .

واعتمد **العثمانيُّون** الطِّراز السلجوقي في أوَّل عهدهم ، ثمَّ تأثَّروا بالأُسلوب البيزنطي بعد فتح القسطنطينيَّة ، وأوَّل مسجد تأثَّرت هندسته به **مسجد محمَّد الفاتح** الّذي بُني سنة ٨٧٣ هـ = ١٤٦٩ م . وبنى المهندس التُّركي المسلم سِنان باشا أربع منشآت في جامع السُّليمانيَّة ، فنسج المهندسون العثمانيُّون على منواله ، وأشهر المساجد العثمانيَّة : **مسجد السَّليميَّة** في أدرنة ، **وجامع السُّلطان أحمد** في إسطنبول ، **وجامع سنان باشا** ، **وجامع**

الدَّرويشيَّة في دمشق ، **وجامع العادليَّة** ، **وجامع الخسرويَّة** في حلب ، **ومسجد محمد علي** بالقلعة في القاهرة .

وتُلْحَق « **الزَّوايا** » المقامة في شمالي إفريقية بالمساجد ، لأنَّها تضمُّ مسجداً ، وحجرات للدَّراويش ، وغرفاً للطُّلاَّب ، ومطاعم لِلْحُجَّاج والطُّلاَّب والمحتاجين ، وقاعات للدِّراسة ، وتلحق بها مساحات من الحدائق والبساتين ، ومثلها في بلاد الشَّام التَّكيَّة السُّليمانيَّة في دمشق.

☆ ☆ ☆



إسطنبول

القُصُور :

بعد الفتوح الَّتي حرَّر بها العرب المسلمون بلاد الشَّام والعراق وشمالي إفريقية ، بدأ بعضهم يميل إلى حياة التَّرف والنَّعيم ، فظهر في الحجاز في عصر الرَّاشدين قصور شُيِّدت من طبقتين أو ثلاث[٣١] .

وبنى معاوية بن أبي سفيان أوَّل قصر أُموي في بلاد الشَّام ، ويُسمَّى « **قصر الخضراء** » ، وسُمِّي بعدها « دار الإمارة » ، لأنَّ الخلفاء الأُمويِّين توارثوه من بعده ، ويذكر ابن عساكر ١٣٨/٢ : « أن الخضراء الَّتي فيها قصر معاوية من بناء أهل الجاهليَّة ، من بناء قد بنوه » ، **ولعلَّ معاوية رمَّمه وأضاف إليه ثمَّ سكنه منذ ولايته على الشَّام ، والتهمت النَّار هذا القصر أواخر عهد الفاطميِّين ، كما يروي ابن كثير**[٣٢] « أُلقيت نار بدار المُلْك ، وهي الخضراء المتاخمة للجامع ـ الأُموي ـ من جهة القبلة فاحترقت »[٣٣] ، « وبادت الخضراء وصارت كوماً من تراب ، بعدما كانت في غاية الإحكام والاتقان ، وطيب الفناء ، ونزهة المجلس ، وحسن المنظر » ، وبقيت المنطقة الَّتي كان فيها القصر تحمل اسم الخضراء ، وأُقيم على جزء منها عام ١٧٤٩ م « قصر العظم » ، الَّذي ما زال حتَّى الآن مستعملاً كمتحف للتَّقاليد الشَّعبيَّة .

ويُعَدُّ « **قصر المشتى** » في البَلْقَاء ، من أهمِّ الآثار الشَّاميَّة الإسلاميَّة ، حيث يمثِّل الشَّخصيَّة الفنِّيَّة في بلاد الشَّام ، وخصوصاً في الزَّخَّارف المؤلَّفة من أشكال الحيوان والطُّيور ، والأشكال الآدميَّة ، صيغت وسط تفريعات من أغصان الكرمة .

أمَّا « **قُصَير عَمْرة** » ، الَّذي اكتشفه عام ١٨٩٨ م العالم « موزيل Muzil » ،

---

(٣١) **انظر : تاريخ الفن عند العرب والمسلمين ، للأستاذ أنور الرِّفاعي ، دار الفكر ، ط٢ ، سنة ١٩٧٧ م** . والفنُّ العربي الإسلامي في بداية تكوُّنه ، د . عفيف بهنسي ، دار الفكر ، ١٩٨٣ م ، والفنُّ الإسلامي لمارسيه ، ترجمة د . عفيف بهنسي .

(٣٢) البداية والنِّهاية ٩٧/١٢

(٣٣) البداية والنِّهاية ٩٣/١٢

وتكاد الصُّور الجدرانيَّة تغطّي جميع جدرانه ، فقد بناه الوليد بن عبد الملك في الأردن ، وبنى « **قصر المنية** » قرب بحيرة النَّاصرة في فلسطين ، و « **قصر أسيس** » في جنوب شرقي دمشق .

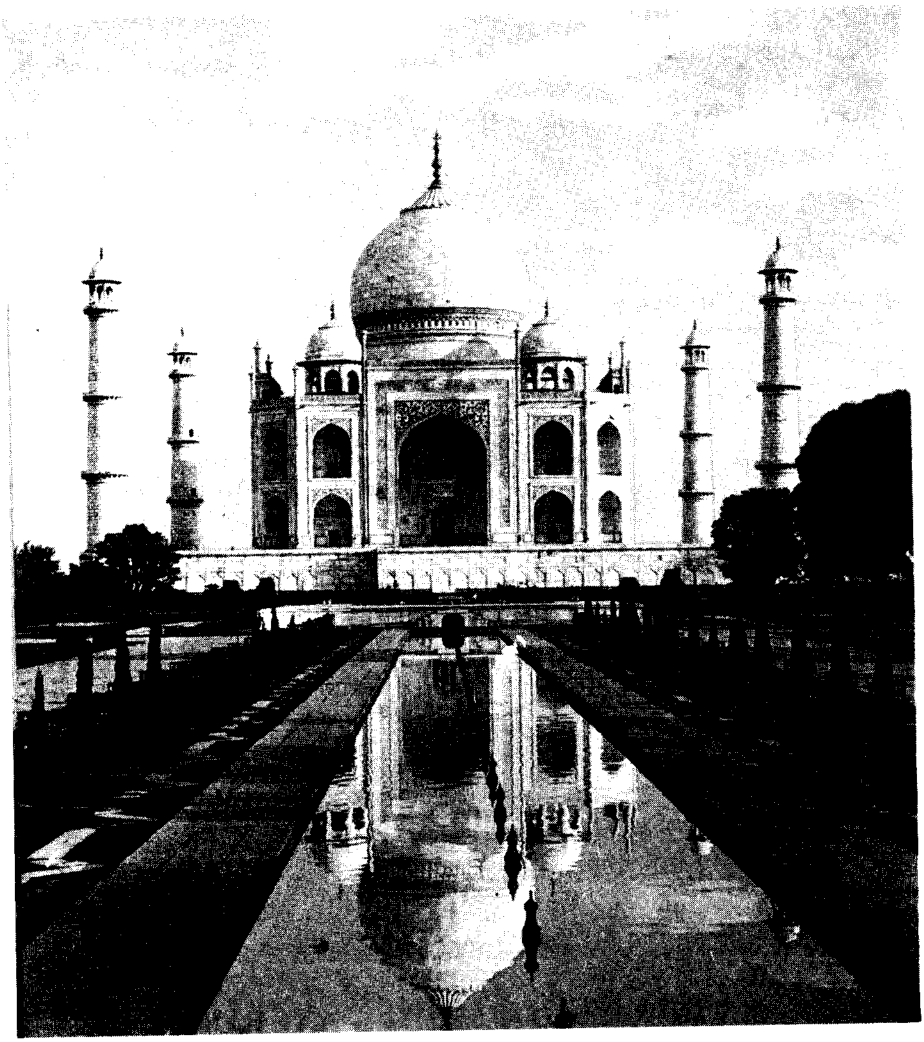
وفي عام ١٩٧٠ م ، أعلن الأثري « بن دوف » ، مساعد الأثري « مازار » ، عن اكتشاف ثلاثة قصور أمويَّة في حيِّ المغاربة في القدس ، وذلك خلال الحفريَّات الَّتي بدأها « مازار » سنة ١٩٦٨ م ، لتوسيع حائط المبكى ، والكشف عن هيكل سليمان ، ويقول « بن دوف » : « إنَّ هذه القصور طبق الأصل لما وُجد في قصور الأردن وفلسطين » ، وأعلن « مازار » في تقريره ، أنَّ الجدار الجنوبي للأقصى الَّذي يقوم فوق الصَّخر الطَّبيعي شرقاً وغرباً هو بناء إسلامي[٣٤] .



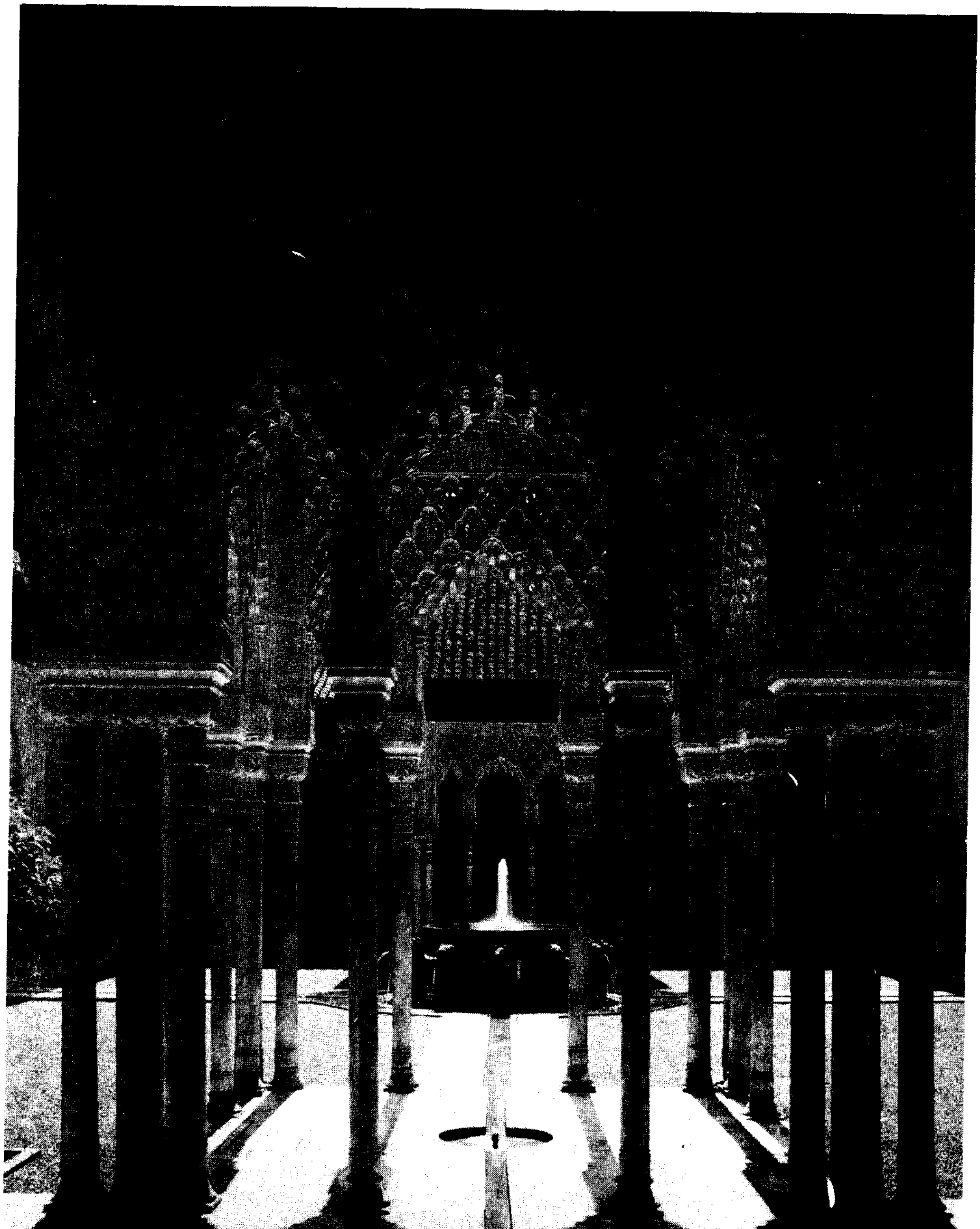
*قصير عَمْرة

---

(٣٤) انظر الفن العربي الإسلامي في بداية تكوُّنه ، ص ١٠١



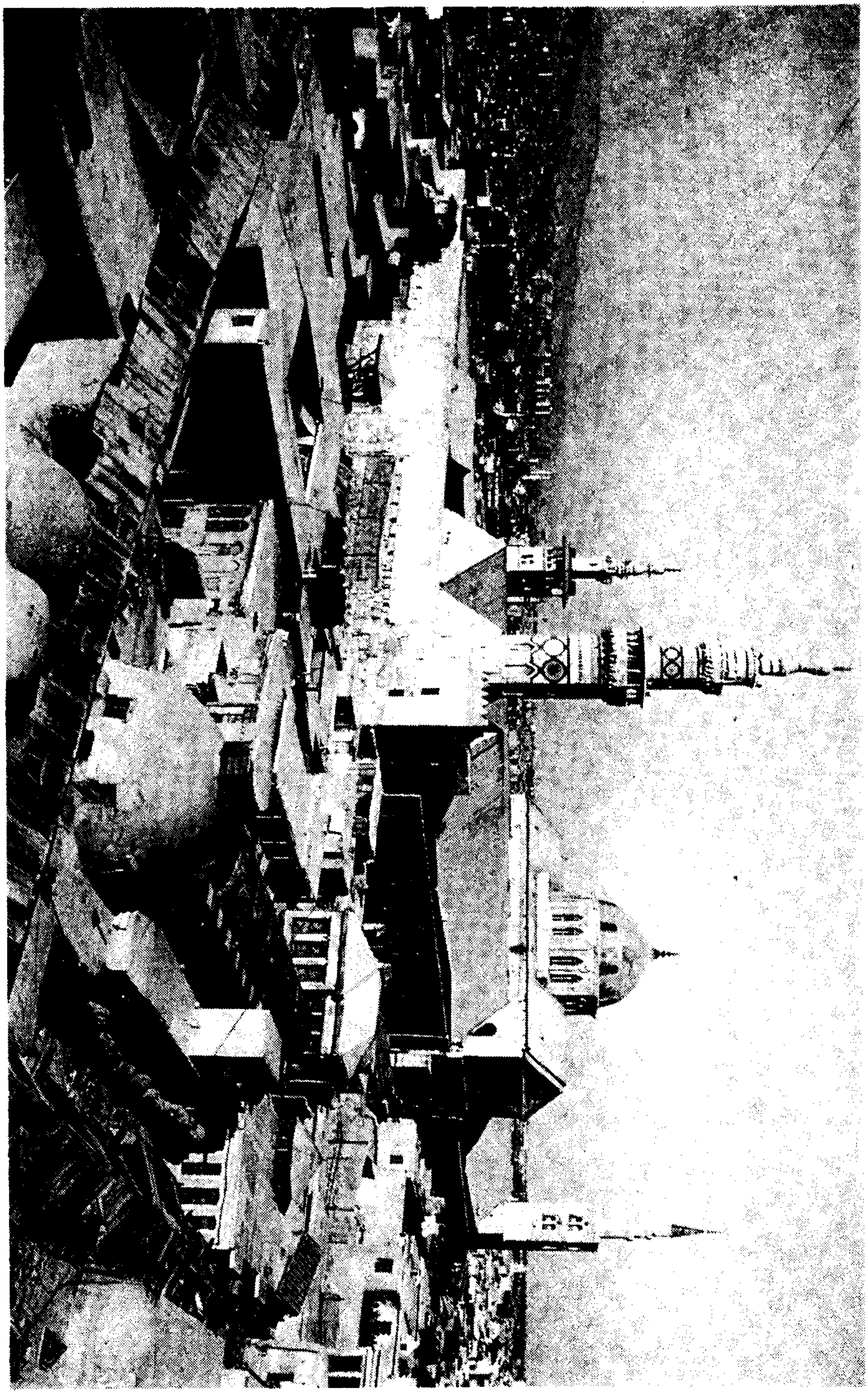
*تاج محل ، تحفة فنيّة خالدة



قصر الحمراء



*نموذج البناء المملوكي



*المسجد الأموي بدمشق